

ميسلة الجامع في تاريخ التشريع لعلوم
الفقه والاصول والقواعد
والتوازل والخلاف واللقاصد

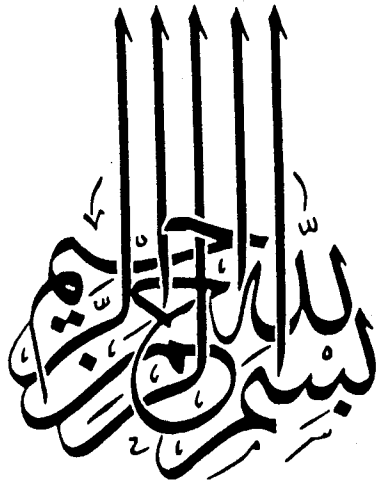
تاريخ الفقه الاسلامي

دراسة تاريخية - نظرة تحليلية - مقاربات نقدية
في تاريخ الفقه ومؤلفاته ورجاله
ورصد فكره نشاطه ونظيره وتنوع مناهجه ومدارسه
عبر مختلف الأدوار والمراحل

إلياس درور

الجزء الأول

دار ابن خزيمة



سلسلة الجامع في تاريخ التشريع لعُلوم:
الفقه والأصول والقواعد
والتوازل والخلاف والمقاصد

تاريخ الفقه الإسلامي

دراسة تاريخية - نظرة تحليلية - مقاربات نقدية
في تاريخ الفقه ومؤلفاته ورجاله
ورصد فكرة نشاطه وتطوره وتنوع مناهجه ومدارسه
عبر مختلف الأديان والمراحل

إلياس دردور

الجزء الأول

دار ابن خزيمة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

ISBN 978-9953-81-973-0



الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

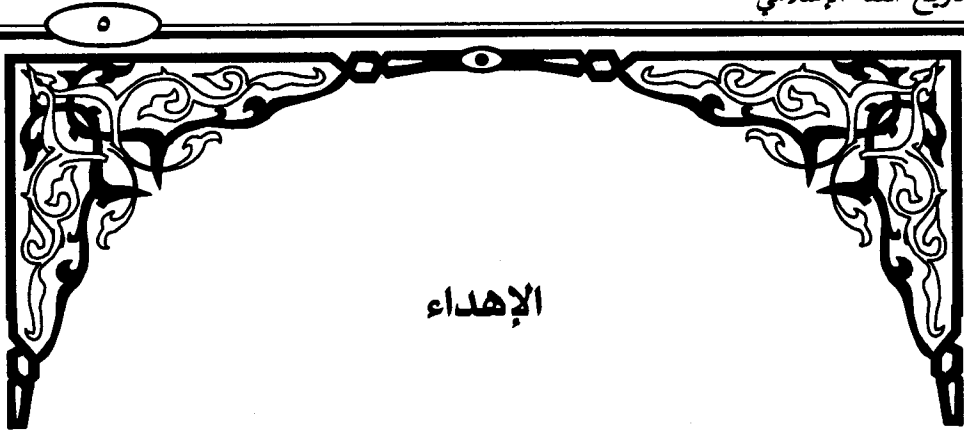
دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



الإهداء

* إلى روح والدي محمد البشير الحبيب، أسأل الله أن يشملهم بعفوه وغفرانه.

* إلى والدتي الكريمة، أسأل الله لها دوام الصحة والعافية.

* إلى كل من اعتنى بتربيتي وأحاطني بعطفه وتعهدي بلطفه، أسأل الله لهم أشرف الدرجات وأكمل الكرامات في الدنيا والآخرة.

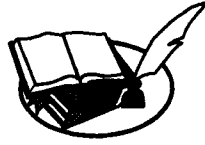
* إلى زوجتي الوفيّة التي شاركتني برأيها وعونها، أسأل الله لها الخير كله عاجله وآجله.

* إلى أفلاد كبدي الذين زينوا بيتي بطلعتهم البهية وأناروا حياتي بإشرافاتهم السنّية: الدرّة اللامعة غادة، والبدر الطالع أحمد، والجوهر المكنون محمد رافع، أسأل الله أن يزین بهم محضري ويحيي بهم ذكري، وأن يعينني على تربيتهم وبرّهم.

* إلى ثلاثة من مشائخ الزيتونة وأعلامها الذين كان لهم التأثير البالغ والأثر العميق في اعتنائي بالعلوم الشرعيّة: الشيخ علي الهنتاتي الفقيه المقرئ، والشيخ عثمان العيّاري مدرّس علم القراءات بجامع الزيتونة الأعظم ثمّ بجامعة الزيتونة، والشيخ محمّد عزّ الدين سلام المدرّس بالجامع الأعظم ثمّ المختصّ بجامعة الزيتونة في علم الفرائض فقهاً وعملاً، أسأل الله أن يتقبّلهم في الصالحين من عباده.

* إلى إختوتي وأصهاري وأحبتتي وزملائي، أسأل الله لهم التوفيق
والسداد والرشاد.

لكل هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي محا الله به ظلمات الجهل وأظهر به منارات العلم والهدى، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه السلسلة الجامعة في تاريخ التشريع لعلوم: الفقه والأصول والقواعد والنوازل والخلاف والمقاصد، دراسة واسعة في تاريخ هذه العلوم الدقيقة، وبحث في كيفية نشأتها وتطورها، ورصد لحركة نشاطها في الأمة الإسلامية، وتفاعلاتها عبر الأدوار التي مرت بها، من خلال الوقوف على اختلاف مذاهبها ومناهجها وتنوع مدارسها، وجهود العلماء في إظهارها وتأسيسها، ومراحل تأصيلها وتفريعها.

وعلى الرغم من لعلماء السلف من الاعتناء الكامل والإحاطة الشاملة بالكتابة في كل المواضيع الهامة والقضايا الخطيرة التي ارتقى إليها فكرهم، والتي برهنت على ما كان لهم من واسع الأطلاع وعظيم المعرفة والمشاركة في شتى أنواع العلوم ومختلف نواحي المعرفة، فإن الكتابة في تاريخ التشريع بطريقته الجديدة وبمنهجه الحديث تعتبر من الفنون المبتكرة، ومن

أوائل من تصدّر للكتابة فيه من المسلمين^(١) - فيما أعلم - هو الشيخ محمد الحجوي الفاسي (١٣٧٦هـ) في كتابه: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي حيث اهتدى إلى طريقة تناول بالبحث فيها جوانب تتعلق بتاريخ الفقه وتاريخ مذاهبه والوقوف على تراجم أعلامه، وقسم تاريخ الفقه الإسلامي في ذلك إلى أربعة أدوار هي: الطفولية والشباب والكهولة والهرم، فأظهر تاريخاً للفقه كان فيه غير مسبق بمثله.

ثم هذا حذوه الشيخ محمد الخضري بك حيث صنف مؤلفاً مختصراً سماه: تاريخ التشريع الإسلامي، اهتدى فيه إلى تقسيم تاريخ الفقه إلى ستة أدوار: من حياة الرسول ﷺ إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري.

ثم اشترك ثلاثة من علماء الأزهر وهم: الشيخ عبداللطيف السبكي والشيخ محمد عليّ السائس، والشيخ محمد يوسف البربري، في تصنيف كتاب بعنوان تاريخ التشريع الإسلامي، ساروا فيه على نفس تقسيم الشيخ الخضري، ونهجوا فيه نهجه.

ومن التأليف الأولى القيّمة كذلك ما كتبه الدكتور محمد يوسف موسى تحت عنوان تاريخ الفقه الإسلامي، ثم توالى الكتابات في هذا المجال بعد ذلك تترى.

وأما في خصوص تاريخ الفقه الجعفري فمن أوائل من تصدّر لذلك: الشيخ هاشم معروف الحسنّي الذي وضع كتاباً بعنوان: تاريخ الفقه الجعفري، عرض ودراسة.

فحازت هذه المؤلفات سبق في التأليف ووضعت اللبنة الأولى لهذا الفن المبتكر، فكان لا بدّ من الرجوع إليها والاطلاع عليها، حيث وجهتني إلى معاني استفدت منها.

غير أنّ الذي وضع أمامي مادة تشريعية عميقة، وتاريخاً فقهياً دقيقاً

(١) فضلاً عن بعض المستشرقين الذين اهتموا بدراسة تاريخ الفقه الإسلامي وتدرسه في ديار الغرب.

هو المرحوم العلامة محمد الفاضل بن عاشور في محاضراته ودراساته القيمة والنادرة في تاريخ التشريع الإسلامي، وخاصة منها تلك التي كان يلقاها بين سنتي ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م و١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، خلال زيارته المتكررة للمغرب الأقصى، والتي عرفت بالدروس الحسينية.

تلك المحاضرات التي وجدت فيها من عمق التفكير ودقة الاستنتاجات في الفقه المقارن عموماً، وفي الفقه المالكي على وجه الخصوص، ما فتح أمامي سبلاً كنت عنها غافلاً وأرشدتني إلى مسائل كنت عنها ساهياً، وخرجت بعد قراءتها - على اختصارها وإيجازها - برؤية مهذبة جامعة وتصور موضوعي منطقي لنشاط العقل الفقهي.

وأعظم استفادتي منها تتجلى في تقسيمات أدوار تاريخ الفقه الإسلامي التي راعى فيها حركة الفقه ذاتها، خلافاً لغيرها من التقسيمات التي راعت جوانب خارجة عن حركة الفقه.

وإن كنت لا أنكر ما للعوامل السياسية والجغرافية من تأثير على علوم الإسلام، لكن تبقى حسب اعتقادي كلها تأثيرات جانبية ويبقى التقسيم الموضوعي المنطقي العميق هو ذلك الذي ينبع من ذات العلم لا من خارجه، فإن نسير بالفقه مثلاً من دور التأسيس إلى التأصيل فالتفريع فالتطبيق ثم النقد والتنقيح والاختيار وغيرها من المراحل، أولى وأحرى من ربط أدوار الفقه بقيام الدول وسقوطها، ذلك أنّ الفقه هو فقه المجتمع، ونشاط الحركة الفقهية هو نشاط رجال الفقه لا نشاط رجال السياسة.

ولقد كان الدافع لكتابي هذا - على وفرة من كتب في هذا الموضوع في هذا العصر - خمسة أمور:

١ - محاولة قراءة تاريخ الفقه وفهمه من خلال حركة الفقه وعلاقتها بالمراكز العلمية المنتشرة في البلاد الإسلامية، ودراسة تطوراتها وموجبات تغييراته بمقتضى ما دخل على تلك المراكز من تحولات في ضوء تنافس المذاهب ورجالاتها.

٢ - إعطاء حظّ أوفر لأعلام أهل المغرب والأندلس - الغرب

الإسلامي - الذين حُجِّبوا إلى حدّ ما من كتابات إخواننا المشاركة حين كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي مقارنة بالأعداد الهائلة من أعلام أهل مصر والعراق والشام وغيرها من ديار الشرق الإسلامي.

٣ - إظهار دور المرأة الفعّال وإبراز مشاركتها الحقيقية في بناء صرح العلوم الإسلامية وإحاطتها بالمعارف الشرعية على اختلاف أنواعها.

٤ - اعتماد تقسيم جديد في سير أدوار الفقه ومراحلها هو التصق بالفقه من سائر التقسيمات الأخرى التي لها علاقة بجوانب خارجة عن الفقه ذاته.

٥ - التوسّع في دراسة علوم واسعة الآفاق، عظيمة الشأن، لها علاقة بمصادر التشريع الإسلامي، دون الاقتصار على علم أو علمين، لما لهذه العلوم من ارتباط وثيق وصلّة متينة، بحيث لا يكاد ينفكّ علم عن علم ولا نكاد نؤرّخ لفنّ إلاّ وجدنا للفنون الأخرى مدخلاً فيه واشتراكاً لها معه، ذلك أنّ كلّ هذه الفنون تنبع من مشكاة واحدة، وتلك هي ميزة الشريعة الإسلامية عن سائر الشرائع الوضعية والقوانين البشرية.

هذا، ولقد ظننت أوّل الأمر أنّه بإمكانني أن أفرغ من تأليف هذا الكتاب الجامع في عام أو عامين على أقصى تقدير، بعد أن قمت خلال دراستي الجامعية بجمع ما أمكن من كتابات في هذا المجال، أنتظر الفرصة السانحة للكتابة في هذا الموضوع الذي طالما أخذ بعقلي وشغل فكري ووجدت له نفسي ميلاً وبه شغفاً، وما إن سمح الوقت بذلك حتّى بدأت العمل دون كلل أو ملل، ولم أفرغ من قسميه الأولين - تاريخ الفقه وأصوله - إلاّ بعد سنوات من الجهد والبحث.

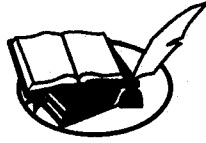
غير أنّي بمجرّد أن أتممت هذين القسمين، خطر ببالي أن أراجع ما كتبت، وما إن بدأت في تنفيذ هذه الفكرة حتّى وجدت نفسي أراجع كلّ جملة كنت قد كتبتها، وأجّيل النظر في كلّ فكرة كنت قد أثبتها، أعاود الكتابة من جديد، فأضيف ما أراه ناقصاً، وأحذف ما أراه حشوياً، وأسدّ ما اعتبره ثغرة، لا أهدأ في ذلك بأيّ حال، وتمثّلت أثناء ذلك قول العماد الأصبهاني: إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلاّ قال في غده

لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

وعلى كلّ حال فقد سعيت على قدر الجهد، وبذلت مبلغ الجَدّ على أن أحقّق الغاية من هذا الكتاب، وألمس الهدف المنشود.

هذا، وقد عهدت إلى دار ابن حزم ببيروت في طبع هذه السلسلة من الجامع في تاريخ التشريع، راجياً لصاحبها السيّد أحمد مصطفى قصباتي كلّ التوفيق في حمل رسالة النشر.

وختاماً أسأل الله أن يلهمنا في أعمالنا كلّها الصواب والسداد، ومنه نستمدّ العون والرشاد، إنّه سميع قريب مجيب الدعوات.





مدخل عام

في تعريف علم الفقه وأدواره

تعريف علم الفقه:

الفقه لغة:

- ١ - الفقه بمعنى الفهم:

الفقه في اللغة يأتي بمعنى الفهم، ففي كتاب التعريفات للجرجاني: الفقه هو في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه^(١).

ومنه قول الله تبارك وتعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾^(٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءًا إِلَّا يَسْحُجٌ بِجَهَنَّمَ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٣)، وقوله عز من قائل: ﴿فَقَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُرُونَ بِفَقْهِنَا حَدِيثًا﴾^(٤).

وفي حديث مجيء الملائكة إلى الرسول ﷺ وهو نائم، قالوا: أولوها له يفقهها^(٥).

(١) الجرجاني: التعريفات ص ١٥٥.

(٢) هود، الآية: ١٩.

(٣) الإسراء، الآية: ٤٤.

(٤) النساء، الآية: ٧٨.

(٥) البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿وَلَجَعَلْنَا لِّلشَّقِيقِ إِمَانًا﴾...

٢ - الفقه بمعنى العلم:

وقد يرد الفقه بمعنى العلم بالشيء والفطنة، ففي لسان العرب: الفقه: العلم بالشيء والفهم له، وفي القاموس المحيط: الفقه بالكسر العلم بالشيء والفهم له والفطنة^(١).

ويرى الأمدي أنّ الفقه في اللغة يقتصر على معنى الفهم فحسب، قال في الإحكام: أما الفقه ففي اللغة عبارة عن الفهم... وقيل هو العلم، والأشبه أنّ الفهم مغاير للعلم، إذ الفهم عبارة عن جودة الذهن من جهة تهيئته لاقتناص كلّ ما يرد عليه من المطالب وإن لم يكن المتّصف به عالماً كالعامي الفطن، وأما العلم فسيأتي تحقيقه عن قريب، وعلى هذا فكّل عالم فهم، وليس كلّ فهم عالماً^(٢).

الفقه اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح الشرعي فقد غلب استعمال الفقه على العلم بمسائل الدين، واختصّ بذلك حتى بات عند الإطلاق لا يتناول غيره

قال ابن منظور: الفقه العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم كما غلب النجم على الثريا^(٣).

وقد ورد في الأحاديث الشريفة استعمال الفقه بهذا المعنى في غير موضع من ذلك قول الرسول ﷺ: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٤).

وقوله ﷺ - لما قدم عليه أهل اليمن -: «أناكم أهل اليمن أضعف

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة فقه، الزاوي: ترتيب القاموس المحيط، مادة فقه.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٧/١.

(٣) لسان العرب، مادة فقه.

(٤) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب المناقب، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، وكتاب البرّ والصلة.

قلوباً وأرق أفتدة، الفقه يمان والحكمة يمنية»^(١).

وقد ظلّ هذا الإطلاق الذي غلب على مدلول كلمة «الفقه» سائداً من صدر الإسلام إلى النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة، حيث عرّف الإمام أبو حنيفة الفقه بأنّه: «معرفة النفس ما لها وما عليها»، وهو تعريف عام يتناول الاعتقادات كالإيمان ونحوه، والوجدانيات أي الأخلاق والتصوّف، والعمليات كالعبادات والمعاملات ونحوها، وهذا هو الفقه الأكبر^(٢).

وهذا التعريف يتلاءم مع العصر الإسلامي الأوّل حيث لم يكن الفقه - بالمعنى الخاص الذي استقرّ عليه عرف العلماء فيما بعد - قد استقلّ عن غيره من العلوم الشرعيّة، ولم تتميّز العلوم بعدُ بموضوعات معيّنة ولم يستقلّ كلّ منها عن الآخر.

ويرى الإمام الغزالي أنّ الفقه قد أطلق في صدر الإسلام على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس وما يتعلّق بذلك، حيث قال في كتابه الإحياء: ولقد كان اسم الفقه في العصر الأوّل مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوّة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلّع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، ويدلّك عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَسْفَهُوا فِي الَّذِينَ وَلِيْنَا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٣) وما يحصل به الإنذار والتخويف، هو هذا الفقه دون تفرّيعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه^(٤).

وسواء كان المدلول الاصطلاحي لكلمة الفقه في العصر الإسلامي

(١) البخاري: كتاب المغازي، مسلم: كتاب الإيمان.

(٢) القنوجي: أبجد العلوم ٤٠٠/٢.

(٣) التوبة، الآية: ١٢٢.

(٤) إحياء علوم الدين ٣٢/١.

الأول هو علم الدين وفهمه كما في تعريف أبي حنيفة، أم هو كما ذكره الإمام الغزالي، فإنّ هذا المدلول لم يبق على ما هو عليه، وإنما أصبح يطلق على: العلم بالأحكام الشرعيّة العمليّة المكتسب من أدلتها التفصيليّة^(١).

وبذلك أصبح موضوع الفقه مقتصرأ على معرفة ما للنفس وما عليها من الأحكام العمليّة دون الاعتقادات والوجدانيات.

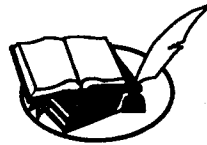
ومنذ أن انحصر الفقه في هذا المدلول واستقرّ على هذا المفهوم الخاص انبرى العلماء في وضع التعريفات المختلفة.

ومن بين هذه التعريفات ما نصّ عليه الإمام الجويني في الورقات حيث قال: الفقه هو معرفة الأحكام الشرعيّة التي طريقها الاجتهاد^(٢).

وعرّفه الغزالي بقوله: هو عبارة عن العلم بالأحكام الشرعيّة الثابتة لأفعال المكلفين خاصّة^(٣).

وقال ابن خلدون: هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلّة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلّة قيل لها فقه^(٤).

ونحو ذلك من التعريفات المختلفة.



(١) المحلّي: شرح جمع الجوامع ٤٢/١ - ٤٣.

(٢) الجويني: الورقات مع شرح العبادي بهامش إرشاد الفحول للشوكاني، ص ١٢ - ١٣.

(٣) المستصفى ٤/١ - ٥.

(٤) المقدّمة ص ٤٤٥.

أدوار الفقه الإسلامي

اعتاد الباحثون في تاريخ الفقه الإسلامي أن يقسموا مراحل التشريع الإسلامي إلى أدوار متعددة تبعاً لتطور الفقه حسب المراحل التي مرّ بها من حيث النشأة والتكوين فالرسوخ والتدوين ثم الاتباع والتقليد ثم اليقظة والتجديد، أو تبعاً للعصور التي عرفها كلّ دور حسب الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة التي كان لها من التأثير العميق على سير الفقه كالعصر الأموي والعصر العباسي الأوّل والعصر العباسي الثاني ونحو ذلك.

ولذلك كان تقسيم الباحثين لهذه الأدوار مختلفاً باختلاف مناهجهم في الكتابة، وقد رام أغلبهم تقسيم هذه الأدوار إلى خمسة أو ستة، وهناك من قصرها على ثلاثة أو أربعة.

وتبقى جميع التقسيمات سواء أكانت بهذا الاعتبار أو ذاك تقسيمات نسبيّة لأنّها إنّما وضعت بحسب الحالة الغالبة في كلّ دور من تلك الأدوار، ذلك أنّ التاريخ الإسلامي لم يعدم مثلاً من وجود مجتهدين بعد القرن الرابع الهجري رغم أنّ تلك المرحلة من تاريخ الفقه اصطّح بعضهم على تسميتها بدور الاتباع والتقليد.

فالمراعى إذن في تقسيم هذه الأدوار إنّما هو المميّزات الغالبة والحالة العامّة التي تكون عليها تلك الفترة من تاريخ الفقه وأهله.

والتقسيم الذي فضّلته ورغبت فيه دون سواه، هو الآتي:

* الدور الأول: دور التأسيس:

ويمتدّ من البعثة النبوية إلى وفاة الرسول الأكرم ﷺ سنة ١١ للهجرة. وقد امتدّ هذا الدور ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، شمل فيها الحياة المكيّة والحياة المدنيّة، وإن كانت تفاصيل الأحكام التشريعيّة المتعلّقة بشؤون حياة المسلمين وتنظيم سيرها قد تكوّنت بالمدينة المنورة.

* الدور الثاني: عصر الصحابة والتابعين:

ويمتدّ من وفاة الرسول الأكرم ﷺ إلى الثلث الأوّل من القرن الثاني للهجرة، ويشمل هذا الدور التشريعي مرحلتين اثنتين:

١ - المرحلة الأولى: عصر كبار الصحابة: وتشمل فترة الخلفاء الراشدين الأربعة التي امتدت على مدى ثلاثة عقود تقريباً.

٢ - المرحلة الثانية: نصطلح على تسميتها بعصر صغار الصحابة وكبار التابعين: وتمتدّ من نهاية المرحلة السابقة إلى حوالي الثلث الأوّل من القرن الثاني للهجرة.

* الدور الثالث: دور التأصيل والتفريع:

ويمتدّ من حوالي الثلث الأوّل من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث، ويشمل بدوره مرحلتين اثنتين:

١ - المرحلة الأولى: مرحلة التأصيل: وهي مرحلة ظهور أئمة المذاهب الفقهية.

٢ - المرحلة الثانية: مرحلة التفريع: وهي مرحلة كتابة الفقه وتدوينه.

* الدور الرابع: دور التطبيق: وهو عصر مجتهدي المسائل:

ويمتدّ من حوالي منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس، وفي هذا الدور برزت قضية الانتصار للمذاهب الفقهية والقيام عليها تفريعاً

وتعليلاً وترجيحاً، وظهرت مصنفات التهذيب والاختصار والشرح.

ويشمل مرحلتين اثنتين:

مرحلة أولى: اصطلاحنا على تسميتها بالنبضات الأخيرة لعصور الاجتهاد المطلق.

ومرحلة ثانية: غلب عليها جنوح الفقهاء إلى التقليد وغلغلق باب الاجتهاد.

* الدور الخامس: دور النقد والتنقيح والاختيار:

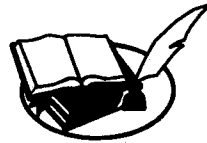
ويمتد من منتصف القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري.

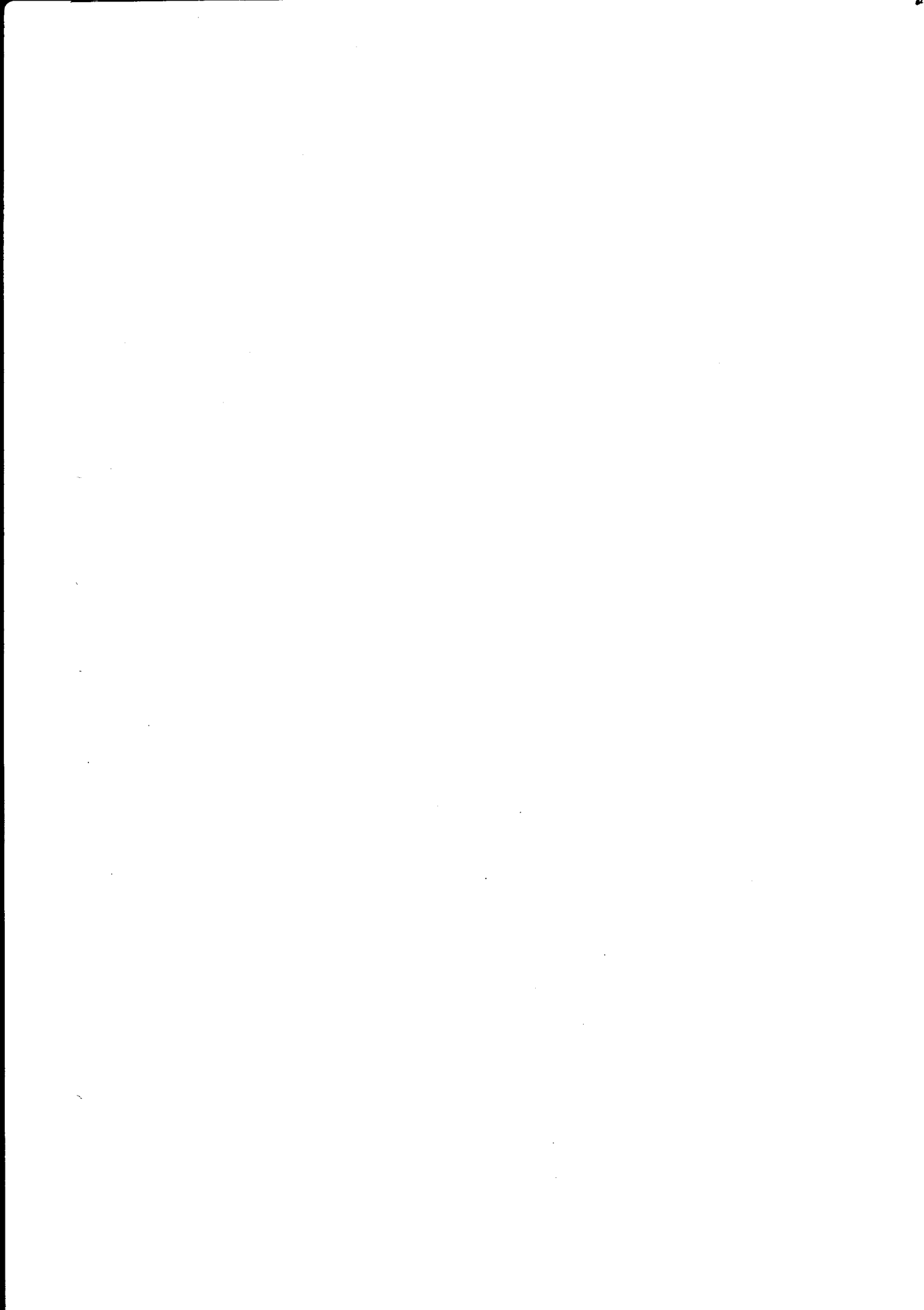
* الدور السادس: دور التفقه أو توليد المسائل وابتكار الأنظار والأبحاث:

وهو أطول الأدوار زمناً، فهو يمتد من منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري.

* الدور السابع: دور احتكاك الفقه بالقوانين الوضعية والمدارك الحقوقية الأجنبية:

وفي هذا الدور محاولات تجديد عظيمة في كتابة الفقه وإعادة صياغته وإخراجه في ثوب جديد بما يتلاءم ومتطلبات العصر. ويمتد من أوائل القرن الثالث عشر إلى الآن.





الجزء الأول

يشمل الأدوار الثلاثة الأولى من تاريخ الفقه وهي الفترة التاريخية الممتدة من البعثة النبوية إلى منتصف القرن الثالث الهجري.



الدور الأول:

دور التأسيس: من البعثة إلى وفاة الرسول الأكرم سنة ١١ للهجرة

تمهيد:

في الوقت الذي سار فيه العباد على غير هدى من الله يتخبّطون في ظلام الوثنيّة ويتعثّرون في أذيال الضلالات فيحلّون ما حرّم الله ويعبثون بحقوق العباد ويتعدّون حدود الله.

في هذا الجوّ المليء بالإلحاد والإشراك بعث الله محمّداً بن عبدالله بن عبد المطلب برسالته إلى العالمين أجمعين ليرشدهم إلى طريق الهداية ويذكّركم بحقيقة وجود الخالق ويحدّد لهم وظائف المخلوق.

فاقتنع بهذه الرسالة السامية أوّل الأمر البعض ممّن كان لهم اتّصال وثيق بالرسول الأكرم ﷺ مثل زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وابن عمّه عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومولاه زيد بن حارثة، وأخلص أصدقائه أبو بكر الصديق.

ثمّ تلا هؤلاء رجال من أفاذا قريش وأعيانها كأبي عبيدة عامر بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وغيرهم.

واستمرّ الرسول عليه السلام ثلاث سنوات يدعو لدين الله سرّاً، يقصد

كلّ من يتوسّم فيه الخير من أهل قريش ويخاطب بدعوته كلّ من يثق فيه لتلقّي النور الذي بُعث به، ويتوجّه برسالته إلى كلّ من يجد فيه الاستعداد النفسي لقبول أمره، حتى انضمّ إلى الثلّة الأولى من المؤمنين رجال آخرون عدّوا كذلك من السابقين الأوّلين في الإسلام.

ثمّ أمر الرسول ﷺ بعد السرّ والكتمان بالانتقال إلى مرحلة الجهر بدين الله والإعلان، فما كان من الرسول إلّا أن أطاع أمر ربّه وصدع بدعوة خالقه.

وعندها كُشّرت قريش عن أنيابها ونصبت العداوة لخير خلق الله وأتباعه وأعلنت الحرب التي لا هوادة فيها ضدّ كلّ من اتّبع دعوته وأسلم وجهه لله، وترصدوا خطاهم وأعملوا فيهم شتى وسائل النكاية والتنكيل، وتتبعوهم بالتعذيب والقتل والحبس وقطع الأرزاق.

ولمّا رأى الرسول الأكرم ما حلّ بأنصاره من البلاء العظيم وما لحق أتباعه من الابتلاء المرير، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة لما كان يعلم في حاكمها من إقامة العدل والحكم بالقسطاس المستقيم.

ومكث الرسول بمكة يدعو إلى سبيل ربّه كما أمر مستفيداً من مواسم الحجّ حيث يفد على مكة العرب من كلّ صوب وحذب حتّى هيا الله لدعوته تربة نقيّة وبيئة صالحة في أهل المدينة المنورة، فبعث معهم سفيره مصعب بن عمير يقرئهم ما نزل من القرآن ويرسّخ فيهم عقيدة الإسلام متخذاً دار أسعد بن زرارة مقاماً له، فأحدث مصعب تغييراً كبيراً بعقول الناس وحقّق بفضل الله نجاحاً عظيماً في إقناع الكثير من أهل المدينة بهذا الدين الجديد.

فتهيّأت هذه الدار الجديدة لاستقبال خير خلق الله بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة المحمّدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، حيث أذن الله تعالى لرسوله الكريم بالهجرة إليها فاستجاب النبيّ الكريم لنداء ربّه واتّخذ الخطوات اللازمة واستكمل وضع الأسباب لهذه الهجرة المباركة ثمّ

توجّه مستعينا بالله لمقرّ دعوته الجديد الذي وصل إليه في ربيع الأوّل من سنة ٦٢٢ للميلاد.

وبداية من هذا التاريخ أصبحت المدينة المنورة مركز المسلمين وملجأهم، وامتزج بها ثلاثة أصناف من السكّان:

* المهاجرون: وهم الذين هاجروا من مكّة والتحقوا بالمدينة.

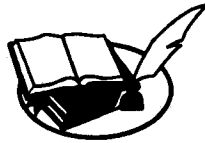
* الأنصار: وهم الذين دخلوا في الإسلام من سكّان المدينة الأصليين، الأوس والخزرج.

* اليهود: الذين وقع إجلاؤهم تدريجيًا من جزيرة العرب لمكايدهم المتواصلة ونكثهم لليهود والمواثيق التي عقدت بينهم وبين المسلمين.

واستمرّت هذه الفترة نحوًا من عشر سنوات ثمّ أذن الله لرسوله الكريم بالانتقال إلى جوار ربّه في شهر ربيع الأوّل سنة ١١ للهجرة الموافق لسنة ٦٣٢ للميلاد.

وبذلك يكون هذا الدور الفقهي الأوّل الذي هو دور التأسيس قد استمرّ اثنتين وعشرين سنة وأشهرًا، كانت مصادر التشريع فيه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وفيما يلي قراءة لهذين المصدرين في هذا الدور:



مصادر التشريع في هذا الدور

لقد كان شأن التشريع والفقه في حياة الرسول موكلاً إلى الوحي - قرآناً وسنة - وما كان لأحد من المسلمين أن يتقدم في حكم أو أن يتعجل بالفتوى في مسألة قبل أن يقضي الله ورسوله فيها استجابة لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

وما كان لأحد من المسلمين أن يتخير من أمره شيئاً غير ما اختار له الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ؕ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (٢).

اللهم إلا ما كان من أفعال تصدر عن بعض الصحابة فيقرها الرسول بسكوت منه مع دلالة الرضى أو بإظهار استحسان وتأييد، فتدخل بذلك ضمن السنة التقريرية كما سنوضح لاحقاً.

وقد اتخذ هؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد بن عبدالله نبياً ورسولاً وبالقرآن دستوراً، اتخذوا من نبي هذا الدين الجديد الذي سكنت إليه جوارحهم واطمأنت إليه نفوسهم أسوة حسنة

(١) الحجرات، الآية: ١.

(٢) الأحزاب، الآية: ٣٦.

وقدوة صالحة يرجعون إليه في كل شأن من شؤون حياتهم ويطرسون خطواته ويتنافسون على طاعته فكان الرسول يغمرهم بتوجيهاته السامية ويشرح لهم ما نزل عليه من آيات الله والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٢).

من هذا المنطلق كان المسلمون في هذا الدور الأول وهم في حاجة ماسة إلى معرفة ما نزل من آيات الله في حاجة كذلك إلى معرفة بيان الرسول ﷺ لتلك الآيات، فكانت المصادر التي يستقي منها المسلم أحكام دينه هي القرآن الكريم والسنة النبوية، فكلاهما وحي من عند الله غير أن القرآن وحي باللفظ والمعنى، والسنة الشريفة وحي بالمعنى دون اللفظ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣)، وقال عز من قائل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاكَ مَا لَمْ تُكُنْ تَعْلَمُ ۗ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٤).

قال الإمام الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم لأن القرآن ذكر وأتبعه الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة^(٥) فلم يجز - والله أعلم - أن يقال الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله^(٦).

(١) النحل، الآية: ٤٤.

(٢) النحل، الآية: ٦٤.

(٣) النجم - الآيتان - ٣ و ٤.

(٤) النساء، الآية: ١١٣.

(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ. وَرُزِّقَهُمْ وَوَعَدَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٦) آل عمران - الآية ١٦٤.

(٦) الرسالة ص ٧٨.

وأصحاب الرسول ﷺ هم من هم في حسن السمع والطاعة والالتزام بأوامر الله والانتهاز عن نواهيه والاسترشاد بتوجيهات الرسول والاقتراء بسلوكه وأخلاقه والانقياد والتسليم لله ولرسوله تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

ولقد صور الإمام الدهلوي إذعان الصحابة وحسن انقيادهم لله ولرسوله تصويراً دقيقاً حين قال: اعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدوناً، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبنون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب ويفرضون الصور، ويتكلمون عن تلك الصور المفروضة ويحدون ما يقبل الحد ويحصر ما يقبل الحصر إلى غير ذلك من صنائعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب، وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي، وحب فرمق الناس حبه ففعلوا كما فعل، فهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء، فعن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سأله إلا عن ثلاث عشرة مسألة^(٢) حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾^(٣)، ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيضِ﴾^(٤)، قال: ما كانوا يسألون

(١) النساء، الآية: ٦٥.

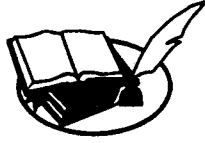
(٢) قال ابن قيم الجوزية عند سوجه لكلام ابن عباس، قلت: ومراد ابن عباس بقوله: ما سأله إلا عن ثلاث عشرة مسألة، المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سأله عنها وبيّن لهم أحكامها بالستة لا تكاد تحصى (إعلام الموقعين ٥٩/١).

(٣) البقرة، الآية: ٢١٧.

(٤) البقرة، الآية: ٢٢٢.

إلا عمّا ينفعهم... وكان ﷺ يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم وترفع إليه القضايا فيقضي فيها ويرى الناس يفعلون معروفا فيمدحه أو منكراً فينكر عليهم، وكلّ ما أفتى به مستفتياً عنه وقضى به في قضية أو أنكره على فاعله كان في الاجتماعات^(١).

تلك هي مصادر التشريع في هذا الدور: كتاب الله وسنة نبيه، ولنشأن الآن عنان القلم إلى الحديث عن هذين المصدرين بشيء من التفصيل والبيان.



(١) شاه ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ١/٢٤٤.

١ - القرآن الكريم في عصر الرسول

القرآن هو الكلام المعجز المنزل على الرسول محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

والأصوليون يطلقون القرآن على الكل وعلى أبعاضه، فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله إنه قرأ قرآنا، كما يقال لمن قرأ بعض الآيات منه إنه قرأ قرآنا.

وقد ثبت أن القرآن أنزل على الرسول محمد ﷺ في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾^(١).

والليلة التي ابتداء فيها نزول الوحي هي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢)، وقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾^(٣)، والليلة المباركة على الأرجح هي ليلة القدر^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآية: ١.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٢٦، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/١٣٧، ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٥/٢٧٧ - ٢٧٨.

وكان أول ما نزل على الإطلاق قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِآسِئِرِكَ أَلْدَى خَلَقَ﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمَ﴾ (٢).

واستمر نزول القرآن يتتابع إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنقُؤْ يَوْمَآ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣) وعاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى لليلتين خلتا من ربيع الأول.

فكان نزول القرآن منجماً ومفرقاً على مدى اثنتين وعشرين سنة وأشهر وهي المدة الفاصلة بين مبتدأ التنزيل ومختمه، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَرَأْنَاكَ فَرَقْنَاهُ﴾ (٤).

ولتنجيم القرآن أسرار وحكم كثيرة: منها ما صرح بها القرآن ومنها ما نبه إليها العلماء والمفسرون.

فأما ما جاء في القرآن:

١ - من ذلك قول الله جلّت حكمته: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٥)، فالله تعالى لم يكذب الكفار حين عابوا على الرسول الأكرم تنزل القرآن مفرقاً، وإنما أجابهم ببيان الحكمة في نزوله على هذه الكيفية، وهي تثبيت فؤاد الرسول ﷺ على الحق وتقوية قلبه وشحذ عزمته، ذلك أن في تجدد نزول الوحي على الرسول وتكرار تنزله عليه تسلية لقلبه وتأيداً له للمضي قدماً، واستشعاراً للعناية الإلهية المتواصلة.

٢ - ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) سورة العلق، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

عَلَىٰ مُكِّ وَزَلَّاتُهُ نَزِيلًا^(١)، وفي ذلك من التيسير على المسلمين في حفظه وتدبر معانيه والنظر في أحكامه وحيكمه مما لا يخفى عن كل ذي عقل سليم.

وأما ما أشار إليه العلماء، فمن ذلك:

٣ - أن في نزول القرآن مفرقا ما يساعد على تكرار التحدي به وتحقيق الإعجاز، فقد ثبت أن القرآن الكريم قد تحدى العرب على مراحل متدرجة، تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو ساعد بعضهم بعضا.

فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢) وقال أيضا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٣).

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة منه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).

ثبت بذلك الإعجاز وظهرت قدرة المعجز.

٤ - وفي نزول القرآن منجما مسaire للحوادث ومواكبة للوقائع المستجدة، فتكون الآيات المنزلة أوقع في النفس وأبلغ.

٥ - كما أن في نزول القرآن مفرقا من التدرج بالتشريع ما يدعو

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٤) سورة هود، الآية: ١٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

إلى تجنب المفاجآت الداعية إلى الإعراض، فلا تشق على الأنفس التكليف ولا تنفر القلوب عن قبول الأحكام المنزلة وما فيها من أوامر ونواه ملزمة.

هكذا كان ينزل القرآن منجماً ومفرقاً، شيئاً فشيئاً على مدى اثنتين وعشرين سنة وأشهر، فربما نزلت آية واحدة أو حتى جزء من آية أحياناً، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) فعن زيد بن ثابت قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيت السكينة ف وقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سري عنه فقال: اكتب فكتبت في كتف^(٢) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية.

فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة ف وقعت فخذته على فخذي ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى ثم سري عن رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ الآية كلها، قال زيد: فأنزلها الله وحدها^(٣) فالحقتها، والذي نفسي بيده لكأنني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في كتف^(٤).

وربما نزلت بضع آيات في غالب الأحيان كما في سورة اقرأ، فأول ما نزل منها مفتتح السورة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمَ﴾^(٥)

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الجهاد واللفظ له، والإمام أحمد في مسنده من مسند الأنصار.

(٥) سورة العلق، الآية: ٥.

وكما في سورة الضحى، فأول ما نزل منها مفتتح السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٥) ﴿١﴾.

وربما تنزل أحياناً سورة كاملة كما هو الحال بالنسبة لسورة المرسلات فعن عبدالله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في غار حراء فنزلت عليه والمرسلات عرفاً فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها فلا أدري بأيها ختم ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (١٨) ﴿٢﴾.

وكذلك بالنسبة لسورة الأنعام فعن عبدالله بن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك، وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك» (٣).

وكان كلما نزل على رسول الله نجم من القرآن طلب إلى أصحابه أن يحفظوه، فقد كان التعويل على الحفظ في الصدور في ذلك العصر يفوق التعويل على الحفظ بين السطور على عادة العرب يومئذ من جعل صدورهم أناجيلهم.

ورغم بساطة وسائل الكتابة وأدواتها لديهم فإن ذلك لم يصرف بعض من كان يحسن الكتابة من الصحابة من تدوين آيات القرآن الكريم زيادة منهم في التوثق والحفظ حتى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد ما دون بين السطور ما حصل في الصدور.

فكان لرسول الله كتاب وحي يكتبون ما يملي عليهم من آيات الله، يدونونها في العصب - جريدة النخل - واللخاف - حجارة بيض رقيقة - وفي الرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع.

(١) سورة الضحى، الآية: ٥.

(٢) سورة المرسلات - الآيتان ٤٨، ٥٠ - والحديث أخرجه الحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه.

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة صحابة رسول الله، ففيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب وخالد بن الوليد وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت.

وقد جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ من الحفّاظ فضلاً عن هؤلاء معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو أيّوب الأنصاري^(١).

وكان جمع القرآن وترتيب آياته يتمّ حسب إرشاد النبيّ ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام.

وقد توفّي الرسول ﷺ والقرآن كلّه محفوظ في صدور الحفّاظ من الصحابة مدوّن بين السطور بما تيسّر من وسائل الكتابة آنذاك فبلغت سورة مائة وأربع عشرة سورة، وبلغت آياته نحو ستّة آلاف ومائتين وستّ وثلاثين آية.

وكان نزول القرآن قد انقسم إلى مدّتين متمايزتين، مدّة مكّيّة ومدّة مدنيّة، فما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة اصطُح عليه بالقرآن المكّي ولو كان نزوله بغير مكّة، وأمّا ما نزل بعد الهجرة فاصطُح عليه بالقرآن المدني ولو كان نزوله بمكّة.

وهذا التقسيم هو المشهور، وقد اعتمده العلماء واشتهر بينهم^(٢).

ومن خصائص القرآن المكّي: أنّ التشريع فيه قد اتّجه إلى إصلاح العقيدة وتعميق أبعادها في نفوس المؤمنين والحفّاظ على نقائنها وصفائها، فحمل على أهل الشرك والوثنيّة وأتاهم بكلّ حجّة وحكّمهم إلى الحسنّ وضرب لهم أبلغ الأمثال وفتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحقّ وقاضاهم إلى الأوّليات والمشاهدات يقودهم بذلك إلى الاعتراف بوحدانية الله والتسليم بمضامين الوحي.

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣١ - ٢٣٢ و ٢٤١، السيوطي: الإتيقان في علوم القرآن ١/ ٣٨ و ٦٢ - ٦٣، الزرقاني: مناهل العرفان ١/ ٢٣٢ - ٢٤١.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٨٧ - ١٨٨، الإتيقان في علوم القرآن ١/ ٨ وما بعدها، مناهل العرفان ١/ ١٨٦.

وتحدّث عن عادات أهل مكّة القبيحة ولفت أنظارهم إلى ما في ذلك من دناءة ومساوئ وما زال بهم حتّى طهرهم منها تطهيراً.

وشرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع فكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وقصّ عليهم من أنباء الرسل وأقوامهم ما فيه أبلغ المواعظ والعبر.

وسلك في خطابه القرآني سبيل الإيجاز حتّى جاءت السور المكيّة قصيرة الآيات، صغيرة السور، إذ كانوا أهل فصاحة يناسبهم الإيجاز والإقلال^(١).

وأما القرآن المدني فمن خصائصه: أنّ التشريع فيه قد اتّجه إلى التفصيل في شتى جوانب القوانين المدنيّة والجنائيّة والحربيّة والاجتماعيّة والدوليّة، وكذلك الحقوق الشخصيّة وسائر ضروب العبادات والمعاملات ومختلف التشريعات العمليّة التي تقام عليها أمور المجتمع وتساس بمقتضاها شؤون الدولة.

كما دعا أهل الكتاب إلى الإسلام وناقشهم في عقائدهم الباطلة وسلك في ذلك كلّ طريق الإطناب والإسهاب في الآيات والسور^(٢).

على أنّه وإن انفصل التشريع المدني عن التشريع المكي من حيث الزمن وكذلك من حيث الخصائص والمميّزات فلا يعني ذلك أنّ بين التشريعين خطاً فاصلاً يزيل ما بينهما من ارتباط وامتداد، إذ ما بني التشريع المدني إلا على أصول التوحيد وقواعد الإيمان التي نزل بها الوحي في مكّة.

وقد فضّل الإمام الشاطبي هذا المعنى حين قال: المدني من السور ينبغي أن يكون منزّلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصحّ، والدليل على ذلك أنّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي كما أنّ المتأخّر من كلّ واحد منهما مبني على متقدّمه، دلّ على

(١) مناهل العرفان ١/١٩٥ - ١٩٧.

(٢) مناهل العرفان ١/١٩٧.

ذلك الاستقرار، وذلك إنما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله.

وأول شاهد على هذا أصل الشريعة، فإنها جاءت متممة لمكارم الأخلاق ومصلحة لما أفسد قبل من ملة إبراهيم عليه السلام، ويليه تنزيل سورة الأنعام فإنها نزلت مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدين، وقد خرج العلماء منها قواعد التوحيد التي صنّف فيها المتكلمون من أول إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة، هذا ما قالوا، وإذا نظرت بالنظر المسوق في هذا الكتاب - أي بالنظر الكلّي الأصولي - تبين به من قرب بيان القواعد الشرعية الكلية التي إذا انخرم منها كلي واحد انخرم نظام الشريعة أو نقص منها أصل كلي.

ثم لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان من أول ما نزل عليه سورة البقرة وهي التي قرّرت قواعد التقوى المبيّنة على قواعد سورة الأنعام فإنها بيّنت من أقسام أفعال المكلفين جملتها وإن تبين في غيرها تفاصيل لها كالعبادات التي هي قواعد الإسلام، والعادات من أصل المأكل والمشروب وغيرهما، والمعاملات من البيوع والأنكحة وما دار بها، والجنايات من أحكام الدماء وما يليها، وأيضاً فإنّ حفظ الدين.

فيها وحفظ النفس والعقل والنسل والمال مضمّن فيها، وما خرج عن المقرر فيها فبحكم التكميل، فغيرها من السور المدنية المتأخرة عنها مبنيّ عليها كما كان غير الأنعام من المكّي المتأخر عنها مبنيّاً عليها، وإذا تنزلت إلى سائر السور بعضها مع بعض في الترتيب وجدتها كذلك حذو القذة بالقذة^(١).

ولقد كانت طريقة تشريع الأحكام في هذا العصر - سواء منها المكّي أو المدني - تجري على أحد وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن تنزل مناسبة لحوادث وقعت في زمن الرسول ﷺ، فتنزّل الآية أو الآيات بيان ما يتصل بتلك الحادثة.

(١) الشاطبي: الموافقات ٣/٤٠٦ - ٤٠٧.

وهذه الحوادث يمكن أن تكون:

١ - بسبب حصول خلاف: كالخلاف الذي نشب بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج حتى كادوا أن يقتتلوا، وذلك أنّ الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تناذلوا وتحاربوا حتى تفانوا وكانت بينهم حروب وآخرها يوم بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد بينهم وأصبحوا عدّة للإسلام، فساء ذلك يهود يثرب فقام شاس بن قيس اليهودي - وهو شيخ قديم منهم - فجلس إلى الأوس والخزرج أو دسّ عليهم من يذكرهم حروب بعث، فكادوا أن يقتتلوا ونادى كل فريق: يا للأوس، يا للخزرج، واجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال، فنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِمَدِّ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ (١) فجاء عليه الصلاة والسلام حتى وقف بين الصّفيين وقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ وفي رواية: أبدعوى الجاهلية؟ - أي تدعون بدعوى الجاهلية - وقرأ الآية ورفع صوته، فما فرغ منها حتى عرفوا أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا يبكون، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم سامعين مطيعين (٢).

٢ - أو بسبب ارتكاب خطأ عظيم: كقرب الصلاة في حالة سكر - قبل تحريم الخمر على المسلمين - وذلك أنّ الخمر كانت حلالاً لم يحرمها الله تعالى أوّل الأمر فبقيت على الإباحة الأصلية وفي المسلمين من يشربها، وقد أبقى الله إباحتها رحمة للمسلمين في معتادهم مع تهئية النفوس إلى قبول تحريمها.

فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ: صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذْتُ الْخَمْرَ مَتًّا، وَحَضَرْتُ الصَّلَاةَ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأَتْ: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَنَحْنُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٥٥، التحرير والتنوير ٤/٢٨.

نعبد ما تعبدون) فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١).

٣ - أو بسبب رغبة من الرغبات: كموافقات عمر بن الخطاب، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربّي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٢) وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهنّ البرّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب^(٣) واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهنّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ فنزلت الآية^(٤) - أي كما نطق بها عمر بن الخطاب -^(٥).

وفي صحيح مسلم قال عمر بن الخطاب: وافقت ربّي في ثلاث، في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر^(٦).

وليس في رواية مسلم ذكر لاجتماع نساء النبي في الغيرة عليه، فتكون موافقة عمر في أربع^(٧).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠٠/٥، التحرير والتنوير ٦٠/٥.

(٢) سورة البقرة - من الآية - ١٢٥.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى من الآية ٥٣ من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَمًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَّرَءِ حِجَابٍ﴾.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١٢/٢ و ١٩١/١٨، ١٩٣.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى من الآية ٦٧ من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُشْرِكُوا فِي الْأَرْبَعِ﴾.

(٧) والمتتبع لأقوال المفسرين يجد أنّ القرآن قد نزل على مراد عمر بن الخطاب في مواضع أخرى كذلك كما في قوله تعالى من الآية ٨٤ من سورة التوبة التي نزلت في شأن عبدالله بن أبي بن سلول ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَا تَأْتِيهِمْ مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وذلك من قبيل الإلهام والتحدّث الذي شهد له به النبي ﷺ (الجامع لأحكام القرآن ٢١٨/٨ - ٢١٩).

٤ - أو من أجل النهي عن القيام بعمل ما: مثل ما ورد عن عبدالله بن عباس أنّ رسول الله ﷺ بعث مرثداً الغنوي - واسمه كئاز بن حصين الغنوي - وكان حليفاً لبني هاشم فبعثه إلى مكة سرّاً ليخرج رجلاً أو ناساً من المسلمين بها أسرى، فسمعت بقدمه امرأة يقال لها: «عناق» وكانت خليفة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها: إنّ الإسلام قد حال بيني وبينك وحرّمه علينا، فقالت: فتزوّجني، قال: حتى أستأذن رسول الله، فأتى النبي ﷺ فاستأذنه فنزل قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾^(١)، فنهى رسول الله ﷺ مرثد عن التزوّج بها لأنها مشركة^(٢).

٥ - أو من أجل ردّ حق لأصحابه: من ذلك ما ورد عن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإنّ عمّهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلاّ ولهما مال، فقال رسول الله يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث^(٣) فبعث رسول الله إلى عمّهما وقال له: اعط ابنتي سعد الثلثين، واعط أمّهما الثمن وما بقي فهو لك^(٤).

(١) سورة البقرة - من الآية - ٢٢١.

(٢) الواحدي: أسباب النزول ص ٦٧، الجامع لأحكام القرآن ٦٧/٣، التحرير والتنوير ٣٥٩/٢.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي ذُلِّكُمْ لِلذِّكْرِ بِمَثَلِ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّمَّهَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأَبِيهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُؤْتَى بِهَا أَوْ دَيْنًا وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ الآية ١١ من سورة النساء، وقد رويت في سبب نزول الآية أحاديث كثيرة واختلفت الروايات في ذلك (انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥٧/٥ - ٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الفرائض، وابن ماجه في سننه من كتاب الفرائض أيضاً، واللفظ للترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الوجه الثاني: أن تنزل الآيات متضمنة لأحكام وقع سؤال الرسول ﷺ عنها - وجميعها افتتحت بكلمة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ - وهذه الأسئلة الموجهة إلى الرسول منها ما كانت صادرة عن المسلمين ومنها ما كانت صادرة عن غيرهم:

* النوع الأول: ما كان صادراً عن غير المسلمين: وهذا النوع إما أن يكون.

١ - بإغراء من اليهود لتعجيز النبي: من ذلك ما كان من المشركين بمكة الذين سألوا الرسول ﷺ بإغراء من أحبار اليهود في يثرب - وقد كان بين قريش وبين أهل يثرب صلوات كثيرة من مصاهرة وتجارة وصحبة حتى أنه كان لكل يثربي صاحب بمكة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده -^(١) فسأله عن ذي القرنين فنزل قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الذِّقْرِينِ قُلْ سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسأله عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

وعن عبدالله بن عباس قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه^(٤) وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا:

= والحديث أخرجه النسائي في سننه، كتاب تفسير القرآن، والإمام أحمد في مسند بني هاشم ومسند المكثرين من الصحابة.

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٩٥ و ١٦/١٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) والمقصود ما الجأكم إلى سؤال تخافون عاقبته بأن يستقبلكم بأمر تكرهونه.

سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه فقامت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١).

ووجه الجمع بين الحديثين أنّ اليهود لما سألوا النبي ﷺ قد ظنّ النبي أنّهم أقرب من قريش إلى فهم معنى الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين ممّا أجاب به قريشاً، فكرر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنّهم وقريشاً سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة أو أنّ الجواب لا يتغير.

هذا، ولا مانع من أن يتكرر السؤال في مناسبات وذلك شأن الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كلّ مجلس (٢).

ومن ذلك أيضاً أنّ المشركين أرادوا امتحان رسول الله ﷺ وذلك لفرط إنكارهم فجعلوا يسألونه عن الساعة ووقتها تعجيزاً له، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفِيهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣).

وقيل أنّ اليهود هم الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم (٤).

ومن ذلك أيضاً ما رواه الواحدي أنّ أحد اليهود سأل أنصارياً عن الأهلّة وأحوالها في الدقة إلى أن تصير بداراً ثمّ تتناقص حتى تختفي فسأل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وكتاب تفسير القرآن وكتاب الاعتصام وكتاب التوحيد.

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/١٩٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٣٥، التحرير والتنوير ٩/٢٠١.

الأنصاري رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجُ﴾ (١).

وقيل هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبي، فقال معاذ: يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينتقض حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية (٢).

٢ - أو سؤال استهزاء واستخفاف لا سؤال استهداء واسترشاد: من ذلك أنهم كانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون فأين تكون هذه الجبال التي نراها، فقد روي أن رجلاً من ثقيف سأل النبي ﷺ عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف، فأنبأهم الله بمصيرها وأنزل قوه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ (٣) إبطالاً لشبهتهم وتعليماً للمؤمنين (٤).

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: سأل مشركو مكة رسول الله متى تكون الساعة استهزاء، وقد عقدوا قلوبهم على استحالة وقوعها (٥)، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَنًا ﴿٤٤﴾﴾ (٦).

* النوع الثاني: ما كان صادراً عن المسلمين: وهذا النوع.

١ - منه ما كانت الحال فيه مظنة حيرة المسلمين: مثل سؤالهم عن

(١) سورة البقرة - الآية - ١٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٤١/٢، التحرير والتنوير ١٩٣/٢.

(٣) سورة طه - الآيات - ١٠٥ - ١٠٧.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠٦/١٦ - ٣٠٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٧/١٩، التحرير والتنوير ٩٤/٣٠.

(٦) سورة النازعات - الآيات - ٤٢ - ٤٤.

قربان النساء في المحيض، وذلك أنّ المشركين كانوا لا يقربون نساءهم إذا كنّ حيضاً، وكانوا يفرطون في الابتعاد عنهنّ مدة الحيض وكان العرب في المدينة وما والاها قد اعتادوا عوائد بني إسرائيل في تجنّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها بل إنّ من قبائل العرب من كانت الحائض عندهم مبعوضة، فإن حاضت المرأة أخرجوها إلى الريض حتّى تطهر، فكانت الحال مظنة حيرة المسلمين في هذا الأمر تبعث على السؤال عنه، ولذلك تساءل المسلمون عن أحقّ المناهج في هذا الشأن، وقد روي أنّ السائل عن هذا هو أبو الدحداح ثابت بن الدحداح الأنصاري، وروي أنّ السائل أسيد بن حضير وروي أنّه عبّاد بن بشر^(١).

وعن أنس: أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ^(٢) في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي: «اصنعوا كلّ شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعبّاد بن بشر فقالا: يا رسول الله إنّ اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتّى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هديّة من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في أثرهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما^(٣).

- ٢ - ومنه ما كان السؤال عمّا أحلّ بعد أن نزل أو بعد أن سمعوا ما حرّم عليهم:

من ذلك أنّ عديّ بن حاتم وزيد بن مهلهل وهو زيد الخيل الذي

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨١/٣، التحرير والتنوير ٣٦٤/٢ - ٣٦٥.

(٢) جمع الضمير لأنّ المراد بالمرأة الجنس.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة وكتاب الحيض والاستحاضة، وأحمد في مسنده من باقي مسند المكثرين من الصحابة، والدارمي في كتاب الطهارة.

سمّاه رسول الله زيد الخير قالوا: يا رسول الله إنّنا قوم نصيد بالكلاب والبيزاة وإنّ الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحلّ لنا؟^(١) فنزل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٢).

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣)، و﴿إِنَّ الْيَتِيمَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾^(٤) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتدّ ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾^(٥)، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه^(٦)، وقد روي أنّ السائل عن اليتامى هو عبدالله بن رواحة.

٣ - ومنه ما كان السؤال متعلقاً بالوجوه التي ينفقون فيها وأين يضعون ما لزم إنفاقه:

من ذلك ما رواه الواحدي عن ابن عباس^(٧) أنّ عمرو بن الجموح الأنصاري وكان ذا مال سأل رسول الله ﷺ بماذا يتصدّق وعلى من ينفق فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ لِّلْوَالِدَيْنِ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦٥/٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣٧/٣، التحرير والتنوير ٣١٧/٢.

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿٢١٥﴾ (١).

- ٤ - ومنه ما يكون السؤال بعد اختلاف في أمر وتنازع في استحقاق

شيء ما:

من ذلك أن العرب قد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها، وذلك أنه لما كان يوم بدر حاور المسلمون الرسول في الغنائم فمنهم من كان يتكلم بصريح السؤال ومنهم من كان يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنه يتطلب فهما في هذا الشأن وقد تكررت الحوادث في هذا الشأن يومئذ^(٢) حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٣).

- ٥ - ومنه ما يكون السؤال مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي

كان عليها الناس في الجاهلية:

مثل ما كان من شيوخ شرب الخمر في الجاهلية، وذلك أمر معلوم لمن علم أديهم وتاريخهم، فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم وقصارى لذاتهم ومسرّة زمانهم وملهى أوقاتهم ولم يكن للعرب عيش أعجب منها، ولكن الله لم يهمل رحمته بالناس حتى في حملهم على مصالحهم فلذلك جاءهم في تحريمها بطريقة التدريج فأقرّ حقبة إباحة شربها، ثم هياً ومهد لتحريمها على البتات^(٤) حتى تساءل الصحابة عن حكمها وسألوا الرسول قولاً فصلاً في شأنها، من ذلك ما رواه الواحدي من أن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٨/٩.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٤) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢ - ٣٤٠.

فنزل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(١).

* الوجه الثالث: أن تنزل الآيات ابتداءً من غير سبب، بحيث تكون غير مسبوقة بسؤال ولا بحادثة معينة، ولكن الخالق سبحانه وتعالى العليم بأمور عباده، الخبير بشؤون خلقه، رأى أنه قد آن أوان إبلاغها فيوحي بها إلى عبده، وهذا الوجه من الآيات موجود بكثرة في القرآن.

ومن طبيعة النصوص القرآنية أنها قطعية الورود باعتبار أنها نصوص منقولة بطريق التواتر كتابة ومشافهة، وأما من ناحية دلالتها على الأحكام فهي على نوعين:

فمنها ما هو قطعي: بحيث يدل النص على معناه دون احتمال التأويل، وهذا النوع من النصوص لا مجال للاجتهاد فيه وذلك مثل آيات وجوب الصلاة والصوم والزكاة ومثل آيات المواريث التي حددت أنصبه الوارثين ومثل آيات حرمة الزنا وشرب الخمر وحرمة أكل أموال الناس بالباطل، وغيرها من الأحكام التي أخذت حكم المعلوم من الدين بالضرورة.

ومنها ما هو ظني: بمعنى أنها تحتل التأويل، وهذه النصوص مجال الاجتهاد، والنظر فيها مفتوح، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٢) فلفظ القرء من الألفاظ المشتركة التي تجمع معنيين مختلفين متضادين: هما الحيض والطمهر، ولذلك كانت دلالة الآية ظنية لا قطعية، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُقْفَلُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(٣) و«أو» هنا قد تفيد التخيير فيكون

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة البقرة - من الآية - ٢٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

المعنى المستفاد من الآية أنّ السلطان مخير في هذه العقوبات يفعل بقاطع السبيل أيها شاء، وقد تفيد التفصيل والتبويض فمن حارب وقتل وأخذ المال صُلب، ومن قتل ولم يأخذ المال قُتل، ومن أخذ المال ولم يقتل قُطعت يده ورجله من خلاف^(١).

والفرق بين ما هو قطعي في دلالته وما هم ظني في دلالته من النصوص، هو أنّ القطعي واجب الاتباع فهو بمنزلة العقائد في الملة، وأما الظني فهو منبع الخلاف وتعدّد الأفهام والاجتهادات في الأحكام.

وقد انتهج القرآن في بيان الأحكام نهجاً تميّز بالتنوع حتى يكون خطابه أدعى إلى القبول وأبعث على الامتثال، فلم يلتزم بأسلوب واحد في الطلب والتخير، وإنما نوع من تلك الأساليب ممّا يجعل المكلف يشعر بحلاوة الخطاب وتميّزه ولا يجد فيه تكراراً مملاً يدعو إلى استنقاله والتبرّم منه، كما أنّ الأصوليين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والمفسرين يجدون وراء هذا التنوع حقلاً خصباً للتأمل والنظر.

وقد استخلص بعضهم بعد الاستقراء - أساليب القرآن المختلفة في الطلب والتخير رأيت من المفيد أن أسوقها في هذا المجال لأهميتها^(٢).

١ - الطلب: للقرآن في طلب الأفعال جملة أساليب منها ما يتعلّق بطلب الفعل ومنها ما يتعلّق بطلب الكفّ عن الفعل، فأما ما يتعلّق بطلب الفعل فمنها:

* صريح الأمر:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٣)

(١) ابن السيد البطلوسي: الإنصاف ص ٤٨.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي ص ٢٤ - ٢٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(١).

* الإخبار بأن الفعل مكتوب على المخاطبين:

كقول الله تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٢) وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٤) وقوله: ﴿يَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْكُمُ﴾^(٥) وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٦).

* الإخبار بأن الفعل على الناس عامة أو على طائفة خاصة:

كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٧) وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾... ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾^(٨) وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٩).

* حمل الفعل المطلوب على المطلوب منه:

كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١٠) وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(١١).

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(١١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

وهذا الأسلوب يأتي تارة بما يؤكد الطلب وتارة بما يدل على عدم التحتم كقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾^(١).

* أن يكون طلب الفعل بالصيغة الطلبية وهي فعل الأمر أو المضارع المقرون باللام:

كقوله عز من قائل: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَبْطِئُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٣).

* التعبير بفرض:

كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(٤).

* ذكر الفعل جزاء لشرط - وهذا ليس عاماً -:

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ قَوْمًا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾^(٥)، وقوله عز وجل ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَمِنْ ظَرْفٍ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

* ذكر الفعل مقروناً بلفظ خير:

كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي مَنَعَتْ قُلَّ إِصْلَاحٍ لَّهُمْ حَيْرٌ﴾ (١).

* ذكر الفعل مقروناً بوعده:

كقوله عز وجل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ (٢).

* وصف الفعل بأنه بز أو موصل للبر:

كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّيْرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣)،
وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الَّيْرَ مَنْ اتَّعَى﴾ (٤)، وقوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الَّيْرَ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٥).

وأما ما يتعلّق بطلب الكفّ عن الفعل فله كذلك أساليب مختلفة منها:

* صريح النهي:

كقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (٦)، وقوله: ﴿إِنَّمَا
يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّتِي نَتَلَوُكُمْ فِي الَّتِي وَأَخْرَجَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وظنهوروا على إخراجكم أن
قولهم﴾ (٧).

* التحريم:

كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٧) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

وَالْآيَمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرَزَّلْ بِهِ سُلْطَنَا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾^(١)، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كَمَا عَلَّمْتُكُمْ^(٢)﴾، وقوله: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

* عدم الجِل:

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا^(٤)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا هُدُودَ اللَّهِ^(٥)﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ^(٦)﴾.

* صيغة النهي: وهي المضارع المسبوق بلا الناهية أو فعل الأمر الدال على طلب الكف، وذلك نحو: دع، وذر، واجتنب، ولا تقرب:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٧)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ^(٨)﴾، وقوله عز وجل ﴿وَدَعِ أَدْنَاهُمْ^(٩)﴾، وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(١٠)﴾.

* نفي البر عن الفعل:

كقوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَلَّ الْمَشْرِقِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٣) سورة النور، الآية: ٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.

(٩) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

(١٠) سورة الحج، الآية: ٣١.

وَالْمَغْرِبِ... ﴿١﴾، وقوله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ ﴿٢﴾.

* نفي الفعل:

كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِمْ مَخِجًا فَلَا رَفْعَ وَلَا فَسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ﴿٤﴾، وقوله عز وجل: ﴿لَا تَضَارَّ وِلْدَانُكُمْ وَلَا مَوْلُودُكُمْ وَلَا مَوْلُودُكُمْ يُولَدُوا﴾ ﴿٥﴾.

* ذكر الفعل مقروناً باستحقاق الإثم:

كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٦﴾.

* ذكر الفعل مقروناً بوعيد:

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٧﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِينِ﴾ ﴿٨﴾.

* وصف الفعل بأنه شر:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿٩﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨١.

(٧) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٨) سورة التوبة، الآية: ٢٧٥.

(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

- ٢ - التخيير: وللقرآن أساليب في ترك الأمر للمكلف على التخيير والإباحة إن شاء فعل وإن شاء ترك فمنها:

* لفظ الحل مسنداً إلى الفعل أو متعلقاً به:

كقوله عز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾^(٣).

* نفي الإثم:

كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٤)، وقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِيَنِ اتَّقَى﴾^(٥)، وقوله: ﴿فَمَن خَافَ مِن مُّوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٦).

* نفي الجناح:

كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾^(٧)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾^(٨).

هكذا كان منهج القرآن في بيان الأحكام منهجاً اتسم بالتنوع في بيان

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٢.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٨) سورة النور، الآية: ٥٨.

أوامره ونواهيه وتضمّن الكثير من المسائل المتعلقة بنواحي الحياة المختلفة، فمنها الأحكام المتعلقة بنظام الأحوال الشخصية ومنها أحكام المعاملات الماليّة وأحكام العقوبات والأحكام الدستوريّة والدوليّة فضلاً عن الأحكام المتعلقة بالوجدانيات التي تدعو إلى تهذيب النفس وتسمو بالفرد والجماعة نحو الكمال، وكذلك الأحكام المتعلقة بالعقيدة والعبادات.

هذه الأحكام على تعدّدها وتنوّعها قد جاءت لإسعاد الإنسان في حياته وآخريته ولذلك كان لكلّ عمل دنيويّ بُعد أخرويّ، بمعنى أنّ كلّ عمل سواء كان تعبدياً أو مدنياً أو جنائياً أو دستورياً إلّا وله أثره الذي يترتّب عليه في الدنيا من آداء للواجب أو إفادة للحليّة أو للحرمة، أو إنشاء لحقّ أو زواله أو توقيع للعقوبة أو ترتيب للمسؤولية ونحو ذلك، كما له أثره الذي يترتّب عليه في الآخرة من ثواب أو عقاب.

هذا الربط المحكم والشّد الوثيق بين العمل الدنيوي والجزاء الأخروي في كلّ حكم من الأحكام التي ورد بها القرآن ليس من باب العبث ولا من قبيل الصدفة، وإنّما هو من مقتضيات منطق التشريع الإسلامي الذي جعل الحياة الدنيا دار اختبار وامتحان، وجعل الآخرة دار الجزاء والخلود.

من هذا المنطلق كان التشريع في الإسلام يُعنى بإصلاح البُعد العقائدي في الإنسان كما يعنى بتنظيم الحياة العمليّة مرتباً على كلّ فعل أو تصرف إنساني بعدين: بعداً دنيويّاً يُبنى على ظاهر الفعل الإنساني وتصرفاته، وبعداً أخرويّاً يبنى على باطن الفعل وحقيقته.

فمن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ممّا أسمع، فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنّما أقطع له قطعة من النار»^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيل وكتاب الأحكام، ومالك في الموطأ، كتاب الأفضية.

هذا التشريع الإلهي الذي أنزل لإصلاح أحوال الناس وانتظام جميع جوانب حياتهم قد رُوِعت فيه جوانب ثلاث هي خصائص هذا التشريع الإسلامي، وهي:

* الخاصية الأولى: السماحة ورفع الحرج:

أما السماحة فهي - كما عرّفها العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور -: سهولة المعاملة في اعتدال محمود فيما اعتاد الناس التشديد فيه، فهي وسط بين التضييق والتساهل وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط^(١).

والسماحة هي من الأصول العامة المقطوع بها، وهي من المبادئ الأساسية لهذا التشريع، فخاصيته السماح وشأنه الرفق بالناس حتى أنه لا يساغ لأحد أن يعرض عن أحكام الله بحجة عدم القدرة وقلة الطاقة وهذا في جميع حالات الإنسان قوياً كان أو ضعيفاً لأن الله تعالى قد جعل هذا التشريع سمحاً سهلاً، راعى فيه طاقة الإنسان وإمكاناته وقدراته.

وبهذا تميّزت شريعة الإسلام عن بقية الشرائع السماوية التي شرّع الله فيها من الأحكام الشاقة ما يتناسب مع أوضاع الأمم السالفة، كاشتراط قتل النفس للتوبة من العصيان والتخلّص من الخطيئة، فقد قال سبحانه وتعالى حاكياً هذا الأمر في القرآن ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ حَيَّرَ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾^(٢)، وغير هذا من التكاليف الشاقة ممّا أشار إليه القرآن إجمالاً بقوله: ﴿رَبِّنَا وَلَا تُحِيزْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا كَمَلْتُمْ عَلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾^{(٣)(٤)}.

ومن مظاهر هذه السماحة قلة التكاليف الشرعية، فالتشريع الإلهي لم يأت بتكاليف كثيرة ترهق المكلفين لأنّ في إرهابهم خروجاً عن السماحة

(١) مقاصد الشريعة ص ٦١ - ٦٢، وأصول النظام الاجتماعي ص ٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

(٣) الإصر: العبء الثقيل، والمراد به هنا التكاليف الشرعية (الجامع لأحكام القرآن ٤٣٢/٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

والاعتدال، ولذلك فرض الله تعالى الصوم في السنة شهراً، والحج في العمر مرة، ونحو ذلك من أحكام العبادات.

ولا يقتصر نطاق السماح والتيسير على شؤون العبادات وإنما يتسع لكل الأحكام من معاملات مدنية وعقوبات جزائية وتشريعات قضائية ونحوها.

والحكمة من السماح: أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (١).

وقد أراد الله أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامة ودائمة، فافتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات والضرر، فكانت بسماحتها أشد ملاءمة للنفوس لأن فيها إراحة النفوس في حالتها خويصتها ومجتمعها - أي في حالتها الفردية والاجتماعية - ومن هذا كله يتبين لنا ما للسماحة من أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها (٢).

ونظراً لحرص الشارع على استدامة هذا الوصف الأعظم لأحكامه فقد قرّر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة انفتح لها باب الرخصة المشروع (٣)، بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا أَضْطُرُّنَا إِلَيْهِ﴾ (٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٢) مقاصد الشريعة ص ٦٣.

(٣) ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي ص ٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٥) سورة الأنعام - ١١٩.

ومن هنا يتضح أنّ التشريع قد بُني على سهولة قبوله في نفوس الناس لأنّه تشريع سمح سهل ليس نكايّة ولا حرجاً، فهو يحمل الناس على المصالح حملاً أقصى ما يمكن أن يكون الحمل من الرحمة واليسير، إذ لا فائدة في التشريع إلاّ العمل به^(١).

وأما الحرج فهو كلّ ما أدى إلى مشقّة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالاً أو مآلاً.

والمقصود برفع الحرج هو إزالة كلّ ما يؤدي إلى تلك المشقّة الزائدة سواء تعلّقت بالبدن أو النفس أو المال وسواء أكانت في الحال أو في المال، ويتوجّه الرفع والإزالة إلى حقوق الله سبحانه وتعالى لأنّها مبنية على المسامحة، ويكون ذلك إمّا بارتفاع الإثم عند الفعل، وإمّا بارتفاع الطلب للفعل، وحينما يرتفع كلّ ذلك ترتفع حالة الضيق التي يعاينها المكلف عندما يستشعر أنّه يقدم على ما لا يرضي الله، وهذا هو الحرج النفسي والخوف من العقاب الأخروي، كما يرتفع الحرج الحسي حينما يكون التكليف شاقاً، فيأتي العفو من الله سبحانه وتعالى إمّا بالكفّ عن الفعل الموقع في الحرج، وإمّا بإباحة الفعل عند الحاجة إليه^(٢).

ولرفع الحرج في شريعة الله مظاهر ثلاثة:

١ - أنّ أحكامها مبنية على التيسير نظراً لغالب الأحوال، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٣)، وقال أيضاً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٤).

٢ - أنّها تعتمد إلى تغيير الحكم الشرعي من صعوبة إلى سهولة في

(١) مقاصد الشريعة ص ١٣٢.

(٢) ابن حميد: رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) سورة الحج - الآية ٧٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

الأحوال العارضة للأمة أو للأفراد، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾^(١)، وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

- ٣ - أنها لم تترك للمخاطبين بها عذرا في التقصير في العمل بها لأنها بُنيت على أصول الحكمة والتحليل والضبط والتحديد^(٣).

فقاعدة رفع الحرج روح تسري في جسم الشريعة كلها كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهي مبنية على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه وتعدد مشاغله وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا الدين رؤوف رحيم لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً، وإنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد^(٤).

ويظهر هذا لكل متتبع لأحكام الشريعة الجزئية المتضمنة في النصوص التفصيلية في مختلف النوازل الشرعية، فجميع الأحكام متفقة على أصل رفع الحرج، قال تعالى - في ختام آية الطهارة بعد أن رخص في التيمم عند فقد الماء - ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥)، وقال تعالى في أواخر سورة الحج ﴿هُوَ أَحْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦)، وفي سورة النساء بعد إباحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر، قال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾^(٧)، وفي سورة البقرة بعد أن شرع الله العفو في القتل لمن طابت به نفسه قال ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾^(٨).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٣) مقاصد الشريعة ص ١٣٢.

(٤) القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام ص ١٧٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٦) الآية - ٧٨.

(٧) الآية - ٢٨.

(٨) الآية - ١٧٨.

وهكذا فإنّ في القرآن آيات عديدة نصّت على نفي الحرج صراحة، آيتان منها تنفي الحرج عن الدين كلّ، وخاصّة آية الحجّ، والآيات الأخرى تنفي الحرج عن فئات معيّنة وفي حالات خاصّة، ولكن هذا لا يعني قصور دلالتها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(١).

وقد جاءت الأحاديث النبويّة الشريفة تؤكّد هذا الاتّجاه القرآني في السير نحو رفع الحرج، وكانت سمة الرسول المميّزة له في كتب أهل الكتاب هي: سمة الميسر ورافع الأصار والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة كما قال تعالى في محكم تنزيله ﴿يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

والسبب في رفع الحرج عن الناس في التكليف أمران:

أحدهما: خوف الانقطاع من الطريق وبغض العبادة وكراهة التكليف، ولذلك فإنّ الله تبارك وتعالى قد وضع هذه الشريعة المباركة حنيفيّة سمحة سهلة^(٣) حفظ فيها على الخلق قلوبهم من النفرة من تكاليفها وحبّيتها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلّفوا به ما لا تخلص بهم أعمالهم.

الثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف آخر، فربّما كان التوغّل في بعض الأعمال شاغلا عنها وقاطعا للمكّلف دونها، وربّما أراد حمل الطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما، فإنّ المكّلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعيّة لا بدّ له منها ولا محيص له عنها يقوم فيها بحقّ

(١) ابن حميد: رفع الحرج في الشريعة الإسلاميّة ص ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) وقد أخرج أحمد في مسنده والبخاري في كتاب الأدب والطبراني في الكبير أنّ الرسول ﷺ قال: «أحبّ الأديان إلى الله الحنيفيّة السمحة» (انظر: السيوطي: الجامع الصغير وشرحه فيض القدير للمناوي ١/٢٢٠).

ربه تعالى، فإذا أوغل في عمل شاق فربما قطعه عن غيره ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به، فيكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعاً عما كلفه الله به فيقصر فيه، فيكون بذلك ملوماً غير معذور إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخلّ بواحدة منها ولا بحال من أحواله فيها^(١).

* الخاصية الثانية: مراعاة سنة التدرّج في التشريع:

لقد رأينا كيف أنّ الأحكام كانت تنزل بناء على حوادث وقعت في زمن النبي ﷺ، أو جواباً على أسئلة وجهت إليه سواء أكان مصدر هذه الأسئلة المسلمون أو سواهم من اليهود والمشرّكين، وكانت أحياناً تنزل ابتداءً بناء على تقدير الشارع أنّه قد آن أو ان إبلاغها.

والحكمة في ذلك أنّ الرسول ﷺ قد بُعث إلى العرب وكانت قد استحكمت فيهم عقائد ومعاملات وعادات وأعراف منها ما هو صالح ومنها ما هو ضارٌّ ومفسد، فأبقى الصالح منها وأبطل الفاسد منها.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى في ذلك أن يتدرّج بهم شيئاً فشيئاً لإكمال دينه وإتمام نعمته على خلقه فضلاً عما في التدرّج من تيسير للمعرفة ووقوف على أسباب التشريع وما يحيط بنزول الحكم من ظروف وملابسات.

ومراعاة سنة التدرّج فيما شرّعه الله لعباده إيجاباً أو تحريماً ثبت في مواضع كثيرة من القرآن، وفيما يلي نماذج تبرز هذه السنة الإلهية وعيّنات تثبت هذه الحكمة الربّانية.

* في مجال العبادات: لقد فرضها الله على مراحل حتى انتهت إلى ما هي عليه.

- ١ - فالصلاة شرّعت في أوّل الأمر صلاة في الغداة وصلاة في

(١) الموافقات ١٣٦/٢ - ١٤٣.

العشيّ ركعتين ركعتين، ثم جعلها الله خمس صلوات في اليوم واللييلة، وأقرّها في السفر على ركعتين وزادها في الحضر إلى أربع ركعات في الظهر والعصر والعشاء.

- ٢ - والصوم كان أول الأمر اختيارياً من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً عن كل يوم أفطره، ثم أصبح فريضة لازمة على كل مسلم مقيم خال من الأعذار المبيحة للفطر.

- ٣ - والزكاة فرضت أول الأمر على التخيير فمن شاء أنفق متى شاء، فلا نصاب يحدّد الأموال القليلة من الأموال الكثيرة ولا مقادير تحدّد نسبة ما يجب إخراجه على كل صنف من الأصناف وغيرها من الشروط اللازمة لوجوب إخراج الزكاة، ثم أصبحت بعد ذلك فريضة لازمة محدّدة المقادير، واجبة على كل من توفّرت فيه شروط وجوب آدائها.

* في مجال الممنوعات: والمحرمات قد روعي فيها كذلك ما روعي في الواجبات، فحرّم بعضها على مراحل حتى انتهت إلى ما هي عليه:

- ١ - فالخمر التي كانت من المشروبات المنتشرة عند العرب لم تحرّم رأساً، وإنما وقع التمهيد لتحريمها حتى انتهت إلى التحريم القاطع.

ففي أول الأمر حين سأل المسلمون رسول الله ﷺ عن حكم شاربها نزل قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(١) فلم يقطع النصّ القرآني بوجوب الانتهاء عن شربها، وإنما مهّد لتحريمها ببيان أضرارها.

ثم صرح بالنهي عن قرب الصلاة حالة السكر فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

ثم جاء التصريح القاطع بطلب الكف على سبيل الإلزام، فقال تبارك وتعالى في محكم تنزيله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (١).

٢ - والربا الذي كان أهل الجاهلية يستحلونه أضعافاً مضاعفة قد تدرج التشريع في تحريمه، ففي أول الأمر أوضح الله أن الربا لا نماء فيه ولا بركة فقال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبْوَةٍ فِيْ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّكَوْرٍ تُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (٢).

فلم يصرح بطلب الكف عن التعامل بالربا وإن كان يفهمه من أسلوب هذه الآية فقيه النفس الخبير بسر التشريع، لأن الله أقام مقارنة بين الربا وبين الزكاة وبين أن الأخيرة مما يضاعف الله ثوابها، ثم صرح بأن الربا ظلم، وأنه قد حرّم على اليهود طيبات كثيرة بسبب بغيتهم وظلمهم وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، فقال تعالى: ﴿فِيْظَلِرُ مِّنَ الذَّيْتِ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُجِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيْرًا ﴿١١٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيْمًا ﴿١١٧﴾﴾ (٣).

ثم نهى بعدها عن تعاطي الربا في أبشع صورته وهي الصورة التي كانت شائعة بين الناس في الجاهلية وصدر الإسلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (٤).

(١) سورة المائدة - الآيتان - ٩٠ - ٩١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النساء - الآيتان - ١٦٠ - ١٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

وعلق العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تعليقا مفيدا أثناء تفسيره لهذه الآية =

ثم نزلت الآيات الحاسمة مصرحة بالنهي المطلق عن التعامل بالربا مصحوبة بالتهديد والترهيب وإعلان الحرب على المرابين فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ (١).

وعلى أصل ستة التدريج في التشريع ثبت أصل آخر هو الإجمال ثم التفصيل، ويبدو هذا واضحا من خلال المقارنة بين التشريع المكي والتشريع المدني، فالتشريع المكي فيما تعرض له من أحكام عملية جاء خطابه بشكل كلي، ثم جاء التشريع المدني ليفصل ما ورد بشكل كلي في الفترة المكية.

= فقال: ولقد قضى المسلمون بعد هذا التحريم الصريح قرونا طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا ولم تكن ثروتهم أيا منذ قاصرة عن ثروة بقية الأمم في العالم أزمان كانت سيادة العالم بيدهم أو أزمان كانوا مستقلين بإرادة شؤونهم، فلما صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالمية على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراهبة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون وتحريم الربا في الآية صريح وليس لما حرمه الله مبيح ولا مخلص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تبنى على أصول الشريعة في المصارف والبيوع وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العَمَال وحوالات الديون ومقاصتها وبيعها، وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كل فرقة كما أمر الله تعالى (التحرير والتنوير ٨٧/٤).

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٥ - ٢٧٩.

يقول الشاطبي: إذا رأيت في المدنيات أصلاً كلياً فتأملته تجده جزئياً بالنسبة إلى ما هو أعم منه أو تكميلاً لأصل كلي، وبيان ذلك أنّ الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

أما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة وما نشأ عنهما، وهو أول ما نزل بمكة.

وأما النفس فظاهر إنزال حفظها بمكة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾^(٣)، وأشبه ذلك.

وأما العقل فهو وإن لم يرد تحريم ما يفسده وهو الخمر إلا بالمدينة، فقد ورد في المكيات مجملاً، إذ هو داخل في حرمة حفظ النفس كسائر الأعضاء ومنافعها من السمع والبصر وغيرهما وكذلك منافعها، فالعقل محفوظ شرعاً في الأصول المكية عما يزيله رأساً كسائر الأعضاء ساعة أو لحظة، ثم يعود كآته غطى عنه ثم كشف عنه، وأيضاً فإن حفظه على هذا الوجه من المكملات لأن شرب الخمر قد بين الله مثالها في القرآن حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾^(٤)، فظهر أنها من العون على الإثم والعدوان.

وأما النسل فقد ورد المكّي من القرآن بتحريم الزنى والأمر بحفظ الفروج إلا على الأزواج أو ملك اليمين.

وأما المال فورد فيه تحريم الظلم وأكل مال اليتيم والإسراف والبغي

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سورة التكويد، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩١.

ونقص المكيال أو الميزان والفساد في الأرض وما دار بهذا المعنى.

وأما العرض الملحق بها فداخل تحت النهي عن إذايات النفوس.

ولم ترد هذه الأمور في الحفظ من جانب العدم إلا وحفظها من جانب الوجود حاصل، ففي الأربعة الأواخر ظاهر، وأما الدين فراجع إلى التصديق بالقلب والانقياد بالجوارح، والتصديق بالقلب آت بالمقصود في الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ليفترع عن ذلك كل ما جاء مفضلاً في المدني، فالأصل وارد في المكي، والانقياد بالجوارح حاصل بوجه واحد، ويكون ما زاد على ذلك تكميلاً.

وقد جاء في المكي من ذلك النطق بالشهادتين والصلاة والزكاة، وذلك يحصل به معنى الانقياد، وأما الصوم والحج فمدنيان من باب التكميل، على أنّ الحج كان من فعل العرب أولاً وراثه عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، فجاء الإسلام فأصلح منه ما أفسدوا وردّهم فيه إلى مشاعرهم، وكذلك الصيام أيضاً فقد كانوا في الجاهلية يصومون يوم عاشوراء، وكان النبي ﷺ يصومه أيضاً حين قدم المدينة، صامه وأمر بصيامه حتى نسخه رمضان، فأحكهما التشريع المدني وأقرهما على ما أقر الله تعالى من التمام الذي بيّنه في اليوم الذي هو أعظم أيامه حين قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ نِعْمَةٍ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) فلهما أصل في المكي على الجملة.

والجهاد الذي شرع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مقرر بمكة كقوله تعالى: ﴿يَبُئِي أَقِيرَ الصَّلَاةَ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢)، وما أشبه ذلك.

وبناء على ما تقدّم يمكن القول بأنّ التشريع المكي هو أصل للتشريع

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

بالمدينة، والتشريع المكي مجمل نادرا ما يتعرّض لأحكام تفصيلية، في حين أنّ التشريع المدني قد تعرّض للعديد من التفاصيل خاصّة فيما يتعلّق بالمعاملات المدنية، وفي ذلك من التدرّج بالتشريع ما لا يخفى على كلّ ذي علم.

* الخاصية الثالثة: النسخ:

يطلق النسخ في لغة العرب على معنيين أحدهما: الإزالة والإبطال، وثانيهما: النقل والتحويل، أمّا في الاصطلاح فقد عرّف بتعاريف مختلفة، وما دام الهدف في هذا المقام تصوير حقيقة النسخ في التشريع الإسلامي في هذا الدور فإنّي أكتفي بتعريف واحد أراه أنسب، وهو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر.

ويظهر من كلام المتقدمين أنّ النسخ في عرفهم أعمّ منه في كلام الأصوليين، إذ قد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخاً، لأنّ جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أنّ النسخ في الاصطلاح عند المتأخرين اقتضى أنّ الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنّما المراد ما جيء به آخراً، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به^(١).

ومن شواهد هذا التعميم قول ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾^(٢) هو منسوخ بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

ونحن سواء سرنا في تعريف النسخ مع إطلاق المتقدمين - وهو الأعمّ - أم سرنا مع إطلاق الأصوليين - وهو الأخصّ - فإنّ ذلك لا ينفي

(١) الموافقات ٤٦/٣ - ٥٠ و ١٠٨/٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

حقيقة ثابتة وهي أنّ النسخ في التشريع الإسلامي قد وقع في هذا الدور الذي نحن بصدد.

والباعث على وقوع النسخ في القرآن هو رعاية مصلحة المسلمين وأخذهم إلى بعض الأحكام على وجه التدرج حتى يسهل عليهم الامتثال، كما يرجع إلى أصل من الأصول الثلاثة التي كنا قد أثبتناها في التشريع الإسلامي ألا وهو السماح ورفع الحرج.

فليس في النسخ - كما يتوهم البعض - شيء من العبث في كثير ولا في قليل، فالله تبارك وتعالى يقول ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(١) فالحكم الناسخ قد يكون خيراً من الحكم المنسوخ، وقد يكون مثله، وذلك أنه قد يكون أخفّ منه، ومصدر الخيرية فيه - حين يكون كذلك - أنه أيسر في العمل، وقد يكون أشقّ منه ومصدر الخيرية - إن كان من هذا النوع - أنه أعظم مشوبة وأكثر أجراً، وقد يكون هو والمنسوخ متماثلين في السهولة أو في المشقة وفي مقدار الأجر فليس أحدهما أيسر أداء ولا أعظم أجراً ولكن أسبقهما استنفذ الغاية من تشريعه وأصبح الثاني هو الذي تقتضيه المصلحة ويتطلبه المجتمع في وضعه الذي تطوّر إليه^(٢).

ومن أمثلة نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه: نسخ وجوب وقوف الواحد من المسلمين للعشرة من الكفار حيث اقتضته قلة المسلمين، ورفع هذا الوجوب حيث استغني عنهم بكثرتهم، قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٣) ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٢) مصطفى زيد: النسخ في القرآن الكريم ٢٧٨/١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٦﴾ (١).

ومثل نسخ تحتم تقديم الصدقات بين يدي النجوى برفع ذلك التحتم، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ (٢) ثم قال تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣).

ومثل نسخ طلب قيام جزء من الليل يقرب من نصفه بالاختصار على قراءة ما تيسر من القرآن، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمَرْمِلُ ﴿١﴾ قُرْ آيَاتٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ (٤) ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافَةَ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ (٥).

ومن أمثلة نسخ الأسهل بما هو أصعب منه: موقف الإسلام من مشكلة الخمر إذ كانت مشكلة معقدة كل التعقيد، ذلك أن عرب الجاهلية كانوا يحتسون الخمر بصورة تكاد تكون إجماعية، ويأتونها لا على أنها عادة مجردة بل على أنها أمانة قوة ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة، فلم يكن معقولاً أن ينجح الإسلام في فطامهم عنها لو لم يتألفهم ويتلطف بهم إلى درجة أن يمتن عليهم بها أول الأمر كأنه يشاركهم في شعورهم، وحسبكم في هذا الامتنان بذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذَّلُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (٦)، وإلى حد أنه أبى أن يحرمها عليهم في

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٤) سورة المزمّل - الآيات - ١ - ٤.

(٥) سورة المزمّل، الآية: ٢٠.

(٦) سورة النحل، الآية: ٦٧.

وقت استعدت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه حين سألوا الرسول ﷺ عن حكمها^(١).

ومن أمثلة نسخ الحكم بمساويه في صعوبته أو سهولته: نسخ القبلة التي كانت أولاً إلى بيت المقدس ثم أصبحت إلى بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿قَدْ زَيَّيْنَا قَلْبَكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسْنَا قِبْلَةً لَّرِضْنَا بِهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٢).

والآيات المنسوخة منها ما نسخ حكمها وتلاوتها كنسخ تحريم عشر رضعات بتحريم خمس رضعات المشار إليها بالحديث الذي ورد عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن^(٣).

ومنها ما نسخ لفظها وبقي حكمها كآية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(٤).

ومنها ما نسخ لفظه وبقي حكمه كنسخ آية رجم الزاني المحصن مع بقاء الحكم، فقد روى الإمام مالك أن عمر بن الخطاب قدم المدينة فخطب الناس فقال: أيها الناس قد سنّت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحة إلا أن تضلّوا بالناس يميناً وشمالاً، وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن

(١) مناهل العرفان ١٩٥/٢ - ١٩٦، التحرير والتنوير ٣٣٩/٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

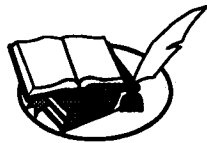
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، ومالك في الموطأ، كتاب الرضاع، باب جامع ما جاء في الرضاعة.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

يقول قائل لا نجد حدّين في كتاب الله فقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا، والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله تعالى لكتبتها: الشيخ والشيخة - أي الثيب والثيبة - فارجموهما البتّة، فإنّا قد قرأناها^(١).

وفي كلّ ذلك حكم جليلة وأسرار بليغة علمنا منها ما علمنا وخفي عنّا الكثير ممّا لا نعلمه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك حين تعقّب على تبديل آية مكان آية فقال ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلَّفُ﴾^(٢) ثم قال في الردّ على الذين اتهموا الرسول الأكرم بالتبديل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ثم شرح بعض الحكمة في التبديل، فقال عزّ وجلّ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٤).

وبما أنّه قد تقرّر أنّ ما نزل بمكّة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلّية والقواعد الأصوليّة في الدين على غالب الأمر فقد اقتضى ذلك أنّ النسخ في الأحكام المنزلة بمكّة قليل لا كثير لأنّ النسخ يكون في الجزئيات، والجزئيات المكّية قليلة^(٥).



(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، والإمام أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة بلفظ مختصر.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠١.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠١.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٥) الموافقات ٣/١٠٤ - ١٠٥.

٢ - السنة النبوية في عصر الرسول الأكرم

لقد كرم الله نبيه محمداً ﷺ بمهمة التبيين، تبيين مراد الله تعالى مما أجمله من أحكام، وإيضاح الحق حين يختلف فيه الناس ليكون للرسول ﷺ إضافة إلى مهمة التبليغ، الاختصاص بمنزلة التفويض إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، وقال أيضاً ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٢).

فكانت السنة النبوية الشريفة خير معين على فهم كتاب الله العزيز والتطلع إلى فهم مقاصده، لذا كان الصحابة في هذا الدور في حاجة أكيدة إلى معرفة سنة الرسول ﷺ مع حاجتهم إلى معرفة كتاب الله تعالى.

والمقصود من مصطلح السنة - في هذا المجال - ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

فالقول: ما تحدّث به النبي في مختلف المناسبات مما يتعلّق بتشريع الأحكام.

والفعل: ما نقله الصحابة من أفعال النبي في مختلف شؤون الحياة.

والتقرير: ما أقرّه النبي من أفعال صدرت عن بعض أصحابه الكرام بسكوت منه مع دلالة الرضى، أو بإظهار استحسان وتأيد.

وسنة رسول الله ﷺ هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فالقرآن

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤.

الكريم هو أساس الشريعة ومصدرها الأول وقد تقدّمها لأنّ كلام الله تعالى منزل على رسوله باللفظ والمعنى ومتعبّد بتلاوته ومقطوع به جملة وتفصيلاً، أما السنّة فهي مقطوع بها على الجملة لا على التفصيل، وهي بيان للقرآن، والبيان متأخّر على المبيّن.

والعمل بسنّة رسول الله ﷺ واجب محتّم على كلّ مسلم، دلّ على ذلك القرآن الكريم في غير موضع، فقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول وجعل طاعة الرسول طاعة لله، فقال ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١)، وأمر المسلمين بوجوب اتباع الرسول فيما يأمر به وينهى، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢)، وقرن طاعة الله بطاعة رسوله في آيات كثيرة، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٣) فأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلماً بأنّ طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه^(٤).

وفي أقوال الرسول ﷺ ما يحثّ على ذلك، فمن بلاغاً الإمام مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: «تركتم فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما كتاب الله وسنّة نبيّه»^(٥)، وعن أبي رافع - مولى النبيّ - واسمه أسلم - أنّ الرسول ﷺ قال: «لا ألفين أحذركم متكنا على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله أتبعناه»^(٦).

وفي هذا دليل على أنّ الرسول ﷺ قد أوتي القرآن والسنّة، وأنّ الاقتصار على القرآن لا يبلغ بالمؤمن إلى مراد الله تعالى.

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٤) ابن قيم الجوزيّة: إعلام الموقعين ٤٨/١.

(٥) الموطأ، كتاب الجامع.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، وأبو داود في سننه، كتاب السنّة.

ولذلك كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لا يفرقون بين حكم ورد في القرآن وبين حكم صدر عن رسول الله وإنما كانوا يتقبلون كل الأوامر بالطاعة والعمل.

فقد ورد عن عبدالله بن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، فقالت: يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لוחي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

وعن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى مُحَرَّمًا عليه ثيابه فنهاه، فقال: اثنتي بأية من كتاب الله تنزع ثيابي فقرأ عليه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

ومن هذا المنطلق كان القرآن غالباً ما يحتاج إلى بيان مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص ما كان منه عاماً وتفسير ما كان منه مشكلاً وتحقيق ما كان منه محتملاً، وقد قامت السنة النبوية الشريفة بتلك المهمة فحري بنا أن نتعرض لبيان مكانتها من ناحية ما ورد فيها من أحكام وذلك ببيان وظيفتها ونسبتها إلى القرآن.

وفيما يلي بيان لذلك:

**** وظيفة السنة النبوية من حيث دلالتها على الأحكام الشرعية:**

إذا تبعنا السنة النبوية من حيث دلالتها على الأحكام الشرعية وجدناها تردّ إلى وظائف ثلاث^(٣).

في مجال خدمة القرآن الكريم، وهي:

(١) الموافقات ٢٥/٤.

(٢) المصدر السابق ٢٦/٤.

(٣) قال الشافعي: فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أنّ سنن النبي من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين، والوجهان يجتمعان ويتفرعان، أحدهما: ما أنزل الله فيه =

- ١ - أن تكون موافقة لما جاء في القرآن، فترد مورد التأكيد والتقرير.
 ٢ - أن تكون بيانا لما ورد في القرآن، فتبين مجمله وتقيّد مطلقه
 وتخصّص عامه وتوضّح مشكله.
 ٣ - أن تدلّ على حكم سكت عنه القرآن فتستقلّ حينئذ بالتشريع
 وتكون مؤسّسة لحكم ابتداءً.
 ١ - الوظيفة الأولى:

أن تكون موافقة لما جاء في القرآن بتقرير مضمونه وتأكيد أحكامه بما
 يقطع احتمال المجاز، فتأمر بعين ما أمر به وتنهى عن عين ما نهى عنه
 وتخبر بعين ما أخبر به^(١) فتكون مطابقة لما جاء في القرآن مطابقة تامّة،
 وحينئذ يكون للحكم الشرعي مصدران ويقوم عليه دليان شرعيان، دليل
 من القرآن ودليل مؤيد من السنّة النبويّة، ومن أمثلة ذلك:

* الأحاديث التي أفادت الإقرار بوحداية الله والتصديق برسالة النبيّ
 محمّد ﷺ، وكذلك الأحاديث التي أمرت بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء
 الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت من غير أن تتعرّض لبيان شروطها
 وأركانها، فهي موافقة للآيات التي وردت في ذلك، كالحديث الذي ورد
 عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
 «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحجّ البيت وصوم رمضان»^(٢)، فإنّه موافق

= نصّ كتاب، فبين رسول الله مثل ما نصّ الكتاب، والآخر: ممّا أنزل الله فيه جملة
 كتاب فبين عن الله معنى ما أراد، وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما، والوجه
 الثالث: ما سنّ رسول الله فيما ليس فيه نصّ كتاب (الرسالة ص ٩١ - ٩٢).

وتعرّض ابن قيم الجوزية في بيانه لوجوب اتباع السنّة ولو كانت زائدة على ما ورد
 في القرآن إلى هذا التقسيم الثلاثي فقال: والسنّة مع القرآن ثلاثة أوجه، أحدها: أن
 تكون موافقة له من كلّ وجه، فيكون توارد القرآن والسنّة على الحكم الواحد من
 باب توارد الأدلة وتظاferها، الثاني: أن يكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له،
 الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرّمة لما سكت عن
 تحريمه (إعلام الموقعين عن ربّ العالمين ٣٠٧/٢).

- (١) الأشقر محمد سليمان: أفعال الرسول ودلالاتها على الأحكام الشرعية ٣٤/١.
 (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان.

لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٥).

* ومثل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾^(٦) فأكدت السنة هذا المعنى ووافقت بما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل المسلم على المسلم حرام فذكر: ماله»^(٧).

* ومثل قول الله عز وجل في شأن الزوجات ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٨) فوافقت السنة هذا الحكم وأيدته بما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرا»^(٩).

* ومثل قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾^(١٠)، وروى أبو موسى الأشعري أن الرسول ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١١).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن.

(٨) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع.

(١٠) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب.

ونحو ذلك من الآيات القرآنية التي جاءت السنة فوافقتها وأيدتها فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظاferها.

- ٢ - الوظيفة الثانية:

أن تكون مفضلة ومفسرة لما جاء في القرآن، وهذا التفصيل والتفسير يكون على أربعة أوجه:

* الوجه الأول: تبين ما جاء في القرآن مجملًا:

يدخل تحت هذا الوجه الأحاديث التي فصلت ما أجمل في القرآن من أحكام العبادات كبيان كيفية إقامة الصلاة وتفصيل مواقيتها وعدد ركعاتها وسائر أحكامها، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها والأموال التي تجب فيها، وبيان أحكام الصوم، ومناسك الحج، وأحكام الذبائح والصيد، وتفصيل الأنكحة، وأحكام البيوع مما وقع مجملًا في القرآن.

وفيما يلي أمثلة نصية في ذلك:

* فرض الله تعالى الصلاة على المؤمنين وحرّضهم على المحافظة على آدائها فقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١) من غير أن يبين سبحانه وتعالى أوقاتها في القرآن، بل أورد ذلك مجملًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾^(٢) فتولت السنة تفصيل أوقات الصلاة، فمن ذلك ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن وقت الصلاة، فقال له: «صلّ معنا هذين» - يعني اليومين - فلما زالت الشمس أمر بلالاً فأذن ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر، فأبرد بها -

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

فأنعم أن يبرد بها - وصلى العصر والشمس مرتفعة آخرها فوق الذي كان، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل وصلى الفجر فأسفر بها، ثم قال: «أين السائل عن وقت الصلاة»، فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: «وقت صلاتكم بين ما رأيتم»^(١).

* ومثاله أيضاً ما ورد في القرآن الكريم مجملاً في قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٢)، فبين رسول الله بصلاته وتعليمه المسلمين كيفية الصلاة وعدد ركعاتها ومواضع السرّ فيها من الجهر وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣).

* وأوجب الله تعالى الزكاة بنص القرآن الكريم من غير أن يبين شروط وجوبها ولا نصابها ولا الأموال التي تجب فيها فجاءت الستة ببيان كل ذلك، فذكرت من شروط وجوبها تمام الحول فقد روى علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول»^(٤)، وحددت النصاب الذي تجب فيه الزكاة، فقد ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة»^(٥)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «ليس في أقل من خمس ذود شيء، ولا في أقل من أربعين من الغنم شيء، ولا في أقل من ثلاثين من البقر شيء، ولا في أقل من عشرين مثقالاً من الذهب ولا في أقل من مائتي درهم شيء»^(٦).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، وابن ماجه في سننه، كتاب الصلاة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان وكتاب الأدب وكتاب أخبار الأحاد.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ومسلم في كتاب الزكاة وغيرهما واللفظ للبخاري.

(٦) أخرجه الدارقطني في كتاب الزكاة.

وعيّنت المقدار الواجب في كلّ نوع من أنواعها، فعن سالم بن عبدالله عن أبيه أنّ النبي ﷺ قال: «فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلا العشر، وفيما سقي بالسواني أو النضح نصف العشر»^(١)، وعن سالم عن أبيه أيضاً أنّ رسول الله ﷺ كتب كتاب الصدقة فلم يخرجها إلى عماله حتى قبض فقرنه بسيفه، فلما قبض عمل به أبو بكر حتى قبض وعمر حتى قبض^(٢)، وفيه بيان مفصّل لزكاة الإبل والغنم في كلّ قدر بلغته وما يجب إخراجه في ذلك.

* الوجه الثاني: تقييد ما جاء في القرآن مطلقاً:

مثل قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٣) فإنّ قطع اليد لم يقيد في الآية بموضع خاص، واليد تطلق على الكفّ أي من أطراف الأصابع إلى الكفّ^(٤) أو من أطراف الأصابع إلى الكتف^(٥) لكنّ السنّة النبويّة قيّدت القطع من الرسغ، فقد ورد عن عبدالله بن عمرو أنّه قال: قطع النبي ﷺ سارقاً من المفصل^(٦) فالرسول ﷺ بسنّته الفعلية قيّد مطلق الآية، فبان أنّ مراد الله من اليد: اليد اليمنى، وأنّ موضع القطع يكون من الكوع لا من المرفق ولا من الذراع.

* الوجه الثالث: تخصيص ما جاء في القرآن عاماً:

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي آيَاتِهِ مِمَّا تَرْضَوْنَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ لِمَن يَشَاءُ مِمَّن يَسْتَشِئِرُ فِي شَأْنِهِمْ وَلَئِن لَّمْ يَظْهَرِ عَلَيْكُمْ فَسَوْفَ تَنصُرُوهُنَّ أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَصْحَبْهُمْ فَلْيُغْلِبُوا فِي الْيَمِينِ﴾^(٧) فهذه الآية نصّت على حكم عام في وراثة

(١) أخرجه البخاري ومالك وأصحاب السنن بألفاظ مختلفة.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزكاة.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٤) لسان العرب - مادة يدي.

(٥) ترتيب القاموس المحيط - مادة يدي.

(٦) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السرقة، باب السارق يسرق أولاً فتقطع يده اليمنى من مفصل الكفّ.

(٧) سورة المائدة، الآية: ١١.

الأولاد لأبائهم وأمهاتهم يثبت في كل أصل مورث وفي كل ولد وارث، ثم جاءت السنة النبوية فخصت الموروث بغير الأنبياء لقوله ﷺ فيما روته عائشة: «لا نورث ما تركناه صدقة»^(١).

وخصت السنة كذلك الوارث بغير القاتل المتعد لقول الرسول: «لا يرث القاتل شيئاً»^(٢) فلما ثبت عن رسول الله ذلك علم أن الله أراد بعض الأولاد دون بعض.

* الوجه الرابع: توضيح ما جاء في القرآن مشكلاً:

كما في الحديث الذي بين المراد من الخيطين في قول الله عز وجل ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَقًّا يَبِينَنَّ لَكُمْ أَلْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ أَلْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٣) فقد أشكلت هذه الآية على بعض الصحابة وفهموا منها العقال الأبيض والعقال الأسود فقال لهم الرسول: «هما بياض النهار وسواد الليل».

فقد ورد عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿حَقًّا يَبِينَنَّ لَكُمْ أَلْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ أَلْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله فذكرت له ذلك فقال: إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار^(٤)، وفي رواية أخرى: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما ﴿أَلْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ أَلْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ أهما الخيطان، قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال: لا بل سواد الليل وبياض النهار»^(٥)، وفي رواية ثالثة: «إن وسادك لعريض طويل، إنما هو الليل والنهار»^(٦).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفرائض.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الديات، والدارمي في سننه، كتاب الفرائض بلفظ: لا يرث القاتل من المقتول شيئاً، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول بلفظ: ليس لقاتل شيء.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم.

ومن أمثلة ما أشكل في القرآن وقامت السنة بتوضيحه قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآلُوهُم بِآيَاتِهِمْ يَرْجُونَ﴾^(١)، وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك ولكن بعض الصحابة أشكل عليهم ذلك أول الأمر وفهموا من الآية عموم الظلم فشق ذلك عليهم.

فعن عبدالله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآلُوهُم بِآيَاتِهِمْ يَرْجُونَ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينما لم يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(٢).

- ٣ - الوظيفة الثالثة: السنة المكملة أو المستقلة بالتشريع:

وهي كل ما شرع رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص من القرآن، فأضاف بسنته أحكاماً جديدة، فيكون بذلك قد أثبت وأنشأ أحكاماً سكت عنها القرآن، ويكون الحكم حينئذ ثابتاً بالسنة ولا يدل عليه نص من القرآن^(٣).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين.

(٣) وقد اتفق جميع من يعتد بهم من علماء الأمة في مختلف الأصقاع والأزمان على وجوب الاعتداد بالسنة المستقلة بالتشريع وعلى اعتبارها ووجوب العمل بها فقال الشافعي: وما سن رسول الله فيما ليس فيه حكم فبحكم الله سنه وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشورى ٥٢، ٥٣) وقد سن رسول الله مع كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب، وكل ما سن فقد ألزمنا الله باتباعه وجعل في اتباعه طاعته، وفي العنود - أي العتو والطغيان والانحراف - عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقاً ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً (الرسالة ص ٨٨ - ٨٩).

ونفس المعنى أكده ابن قيم الجوزية بقوله: فما كان منها - أي السنة - زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي يجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، وليس هذا =

وقد تقرّر استقلال السنّة في تشريع الأحكام وإثباتها لأحكام زائدة عن القرآن استناداً إلى ما جاء في القرآن من وجوب طاعة الرسول استقلاً، فلا مناص من وجوب الاعتداد بالزيادة التي جاءت بها السنّة.

ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك:

* ما جاء عن النبي الأكرم ﷺ من نهى عن أكل كلّ ذي ناب من السباع وكلّ ذي مخلب من الطير^(١)، وليس ذلك في القرآن.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية^(٢).

* وكذا تحريم لبس الحرير والذهب على الرجال لما روي عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: إنّ نبيّ الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ثمّ قال: «إنّ هذين حرام على ذكور أمّتي»^(٣).

* وكما في ميراث الجدّة، فقد سئل عنها أبو بكر فقال: مالك في كتاب الله من شيء، فلمّا أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أنّ

= تقديماً على كتاب الله بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى وسقطت طاعته المختصّة به، وإنّه إذا لم يجب طاعته إلّا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختصّ به وقد قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء ٩٠) (إعلام الموقعين ٣٠٧/٢).

ونقل الإمام الشوكاني اتفاق العلماء على ذلك فقال: اعلم أنّه قد اتفق من يعتدّ به من أهل العلم على أنّ السنّة المطهّرة مستقلّة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام (إرشاد الفحول ص ٣٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي وكتاب الذبائح والصيد، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزينة، وأبو داود في سننه، كتاب اللباس، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنّة.

النبي ﷺ أعطاهما السدس أمضى لها ذلك^(١) رغم أنه لا أصل لها في القرآن، ولكن السنة اختصت بتشريعيها.

* ومن أمثلة ما اختصت به السنة من التشريعات في مجال العبادات ما تعلق بزكاة الفطر، فقد روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل حرّ أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين^(٢)، ونحو ذلك من الأحكام والتشريعات التي استقلت السنة بها^(٣).

وهكذا كان أصحاب رسول الله في هذا الدور الأوّل من أدوار تاريخ الفقه، الذي هو العصر النبوي يستفيدون الأحكام من القرآن العظيم ومن الرجوع إلى سنة الرسول الكريم، حتى أنّه قد بلغ بهم الحال في الاقتداء به أن كانوا يفعلون ما يفعل ويأتون ما يأتي ويتركون ما يترك دون أن يعلموا أحياناً لذلك سبباً أو يطلعوا في ذلك على حكمة أو يتطلّعوا إلى معرفة علّة الحكم.

* * كيفية تلقي الصحابة السنة النبوية الشريفة عن رسول الله :

كان أصحاب رسول الله ﷺ يحرصون على حضور مجالسه حرصاً شديداً إلى جانب القيام على أعمالهم الحيّاتية وقد يعسر على بعضهم الحضور لاشتغالهم بشؤونهم التجارية والمعاشية عموماً فيتناوبون مجالسه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار

- (١) أصل هذا الحديث عند الترمذي وأبو داود وابن ماجه ومالك، في كتاب الفرائض.
- (٢) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ومالك، في كتاب الزكاة، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة بألفاظ مختلفة.
- (٣) على أنّ هناك من رام القول بأنّ الزيادة التي جاءت بها السنة لم تستقلّ السنة بإبائها وإنما تفرّعت على أصل قرآني عام، أو إلى وحدة المقصد، أو ترجع إلى إشارته إلّا أنّ الشاطبي قد دحض هذا التمشّي حين قال: إنه لا يفي بما ادّعه إلّا أن يتكلّف في ذلك مأخذ لا يقبلها كلام العرب ولا يوافق على مثلها السلف الصالح ولا العلماء الراسخون في العلم (الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية لمحمود الخالدي ١٢٦/١، والموافقات ٥٢/٤).

في بني أمية ابن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك^(١).

ويقول البراء بن عازب: ما كل الحديث سمعناه من رسول ﷺ، كان يحدثنا أصحابنا وكنا مشتغلين في رعاية الإبل، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله ﷺ فيسمعونه من أقرانهم وممن هو أحفظ منهم^(٢).

وأما الذين بعدت عليهم المسافة وحالت دون حضورهم مجالس رسول الله أو التناوب عليها فكانوا كلما نزلت بهم نازلة واستعصى عليهم حلها ولم يهتدوا إلى أحد من أصحاب رسول الله أن يخبرهم بحكم ما أشكل عليهم ضربوا أكباد الإبل نحو مدينة رسول الله ﷺ ليسمعوا حكم الله ورسوله فيما نزل بهم، ومن ذلك ما روي عن عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله: كيف وقد قيل، ففارقها عقبة^(٣).

وقد كان تلقي أصحاب الرسول لسنته الشريفة يتم من وجهين اثنين^(٤):

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.
- (٢) الحافظ النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٤، وأخرجه أحمد في مسنده - كتاب مسند الكوفيين - بلفظ: ما كل الحديث سمعناه من رسول ﷺ، كان يحدثنا أصحابنا عنه وكانت تشغلنا عنه رعية الإبل.
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.
- (٤) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين ص ٦٠ - ٦٧ وأصول الحديث ص ٦٨ - ٧١، بتصرف.

١ - وقائع كانت تحدث للرسول فيبين الحكم فيها وينشره بين المسلمين:

من ذلك ما روي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ بطعام وقد حسّنه صاحبه فأدخل يده فيه فإذا طعام رديء فقال: «ضع هذا على حده وهذا على حده فمن غشنا فليس منا»^(١).

وقد يرى الرسول ﷺ أو يسمع صحابيًا يخطيء فيصح له خطاه ويرشده إلى الصواب، من ذلك ما رواه جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنّ رجلاً توجّساً فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك، فرجع ثمّ صلى»^(٢).

٢ - وقائع كانت تحدث للمسلمين فيسألون الرسول عنها فيجيبهم فيما سألوا عنه، وقد تكون هذه الوقائع من خصوصيات السائل نفسه، أو قد تكون ممّا يتعلّق بغيره:

والصحابه في كلّ ذلك لا يخجلون من ذكر ما تحدث لهم من قضايا ولا يتوانون في عرض ما ألتمّ بهم من مشكلات، بل يسارعون إلى الرسول ﷺ ليقفوا على حقيقة تطمئنّ لها قلوبهم ويسلموا بها تسليماً.

وكان يفعل ذلك النساء والرجال على حدّ السواء حتّى قالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن في الدين^(٣).

وعن إبراهيم بن مهاجر قال سمعت صفية تحدّث عن عائشة أنّ أسماء سألت رسول الله ﷺ عن الغسل من المحيض فقال: «تأخذ إحداهن ماءً وسدرها فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ في الطهور ثمّ نصب على

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها.

رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى يبلغ شؤون رأسها ثم تصب عليها الماء ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها»، قالت أسماء: كيف أظهر بها؟ قال: «سبحان الله تطهري بها»، قالت عائشة كأنها تخفي ذلك: تتبعي بها أثر الدم، قالت: وسألته عن الغسل من الجنابة^(١).

وقد يسألونه عن أخص من ذلك، فيستفتونه في أشد الأمور دقة من ذلك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة رفاعة القرظي جاءت النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلّقتني فأبّت طلاقي فتزوجت عبدالرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة».

وفي رواية: فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»، وأبو بكر جالس عنده - أي عند النبي - وخالد بن سعيد بن العاص ينتظر أن يؤذن له، فقال: يا أبا بكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر به عند النبي ﷺ^(٢).

وعن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري عن جدته أم سليم أنها كانت مجاورة أم سلمة زوج النبي ﷺ فكانت تدخل عليها، فدخل النبي ﷺ، فقالت أم سليم: يا رسول الله أرأيت إذا رأت المرأة أن زوجها يجمعا في المنام أتغتسل؟ فقالت أم سلمة: تربت يداك يا أم سليم فضحكت النساء عند رسول الله ﷺ، فقالت أم سليم: إن الله لا يستحي من الحق، وإنا إن نسأل النبي ﷺ عما أشكل علينا خير من أن نكون منه على عمياء، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «بل أنت تربت يداك، نعم يا أم سليم عليها الغسل إذا وجدت الماء»، فقالت أم سلمة: يا رسول الله وهل للمرأة ماء، فقال النبي ﷺ: «فأنتي يشبهها ولدها؟ هن شقائق الرجال»^(٣).

وقد يحدث أن يخجل بعض أصحاب رسول الله ﷺ فيحملون غيرهم أن

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الطهارة وسننها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، والنسائي في سننه، كتاب النكاح.

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار.

يسأله من ذلك ما رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: كنت رجلاً مذاءً، فكنت أستحي أن أسأل النبي ﷺ لمكان ابنته فأمرت المقداد بن الأسود فسأله، فقال: يغسل ذكره ويتوضأ^(١).

وكان المسلمون يسألونه فيما يخطر لهم من شؤون دينهم ودنياهم دون أن يحجبهم عنه حاجب ولا يمنعهم منه مانع، لذلك نرى الأعرابي البعيد عنه يسأله كما يسأله الصحابي الملازم له كلهم يريدون معرفة أحكام دينهم، بل إن الصحابة الملازمين للرسول ﷺ كانوا ربما يفضلون أن يأتي الأعرابي العاقل من أهل البادية فيسأل الرسول ﷺ وهم له منصتون.

ومن ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنا نكون بالبادية فتخرج من أحدنا الرويحة، فقال رسول الله: «إن الله عز وجل لا يستحي من الحق، إذا فعل أحدكم فليتوضأ ولا تأنوا النساء في أعجازهن»، وقال مرة: «في أدبارهن»^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن أنس بن مالك أنه قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال أيتكم محمد؟ والنبي متكىء بين ظهرائهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب، فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرجل للنبي: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك، فقال: «سل عما بدا لك»، قال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا، فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم»،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمّام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر^(١).

وعن أنس أيضاً قال: كُتِبَ نهيّنا أن نسال رسول الله ﷺ عن شيء^(٢) فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيساله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمّد أتانا رسولك فزعم أنّك تزعم أنّ الله أرسلك، قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا زكاة في أموالنا، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا صوم شهر في سنتنا، قال: «صدق»،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

(٢) إشارة إلى النهي الوارد في قوله تعالى من سورة المائدة ١٠١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ فَسَوْفَ مَن يُسْأَلُ عَنَّا مِن شَيْءٍ فَسَئَلُوا عَنَّا﴾ وقد اختلفت الروايات في بيان نوع هذه الأشياء المسؤول عنها والصحيح من ذلك حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه في الصحيحين قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فصعد المنبر ذات يوم فقال: لا تسألوني عن شيء إلا بيّنت لكم فأنشأ رجل كان إذا لاحى يدعى لغير أبيه فقال: يا رسول الله من أبي، قال: أبوك حذافة - أي فدعاه لأبيه الذي يعرف به - والسائل هو عبدالله بن حذافة السهمي كما ورد في بعض روايات الحديث، وفي رواية لمسلم عن أبي موسى: فقام رجل آخر فقال: من أبي، قال: أبوك سالم مولى شيبه وفي بعض روايات هذا الخبر في غير الصحيح عن أبي هريرة أنّ رجلاً آخر قام فقال: أين أبي؟ وفي رواية: أين أنا؟ فقال: في النار وانفرد البخاري برواية عن ابن عباس قال: كان قوم من المنافقين يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل تضلّ ناقته: أين ناقتي ويقول الرجل: من أبي، ويقول المسافر: ماذا ألقى في سفري، فأنزل الله هذه الآية (التحرير والتنوير ٦/٦٥٦).

قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: «صدق»، قال: ثم ولي وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي: «لئن صدق ليدخلن الجنة»^(١).

وقد يختصم مسلمان في قضية أو حكم فيطلبان من الرسول الفصل بينهما في قضيتهما، من ذلك أن عمر ابن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ فتصبرت حتى سلم فلبيته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله: «كذلك أنزلت»، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٢).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أتتهما قالا إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أفضه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله واذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل»، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا - أي أجيراً - فزنى بامرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضي بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردة، وعلى ابنك جلد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»، قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت^(١).

ومن ذلك ما رواه عروة قال: خاصم الزبير رجل من الأنصار فقال للنبي ﷺ: «اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر ثم أمسك»^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما رواه رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدي قال: خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس بن عابس رجلاً من حضر موت إلى رسول الله ﷺ في أرض فقضى على الحضرمي بالبيئة فلم تكن له بيئة، فقضى على امرؤ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبت ورب الكعبة أرضي، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان»، وتلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(٣) فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله، قال: «الجنة»، قال: فاشهد أنني قد تركتها له كلها^(٤).

هذا، وقد استقصى الشيخ عبدالله محمد بن فرج المالكي القرطبي قضايا الرسول في كتاب: «أقضية رسول الله ﷺ» فبلغت نحو الثمانين قضية.

٣ - وقائع عاين فيها أصحاب رسول الله تصرفاته في حال الهدى والإرشاد وحملهم على أكمل الأحوال في جميع المجالات من عبادات ومعاملات وغيرها فتشبعوا بهذه الروح العالية.

وبهذه الطريقة كانت السنة النبوية الشريفة في هذا الدور الأول من أدوار الفقه، كالقرآن الكريم تشرع للوقائع وتقضي للحوادث وتنبه على

(١) أخرجه الجماعة، واللفظ للبخاري في كتاب الشروط.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المساقاة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٤) أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد واللفظ له في مسند الشاميين.

معالي الآداب وترشد إلى تهذيب النفوس والأخلاق، فكان أصحاب رسول الله يتعلمون ذلك ويحرصون أشد الحرص على ملازمة مجالسه وعدم التفويت فيها، وكانوا يتذكرون ما يسمعون منه دوماً واستمراراً بقلوب حيّة وعقول مستنيرة ورغبة جياشة في امتلاك ما به يتم إيمانهم ويكمل ورعهم وما به تسمو هممهم نحو العلياء.

**** ما دون من السنة في هذا الدور:**

لقد كان اعتماد أصحاب رسول الله ﷺ في تلقي الحديث عنه مقتصرأ على استعداداتهم في الحفظ وطاقتهم في الاستيعاب، ذلك أنّ الرسول الأكرم قد نهى بادیء الأمر عن كتابة أحاديثه وتدوينها خوف اختلاطها بالقرآن، أو لثلاً يتخذ مع القرآن كتاب يضاهيه في التلاوة والقراءة، فعن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحّه وحذّثوا عني ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ثم نسخ هذا النهي الصادر عن الرسول في كتابة سنته وتدوينها فأذن بالكتابة بعد أن زالت الموانع الداعية إلى منع ذلك، فكان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ممن يسّر الله له تدوين الحديث، فقد كتب الحديث وجمع منه بخطّ يده ما شاء الله له ذلك، يشهد لذلك ما ورد عن أبي هريرة أنّه قال: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب^(٢).

وعن عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كلّ شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهني قريش وقالوا: أكتب كلّ شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»^(١).

وعن أبي هريرة قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول الله ﷺ: «استعن بيمينك وأوماً بيده إلى الخط»^(٢).

وهكذا فإن أصحاب رسول الله كانوا قد كتبوا عن الرسول بعض أحاديثه بإذن خاص منه، ثم كتب غيرهم من الصحابة بعد أن زال خوف لبس القرآن بغيره، فجاء الإذن العام لينسخ النهي الخاص بوقت نزول القرآن.

وتوجد أخبار صحيحة كثيرة تؤكد أن أصحاب الرسول ﷺ قد كتبوا صحفاً عديدة في هذا الدور الأول الذي هو العصر النبوي، وقد اشتهر منها صحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص المعروفة بالصحيفة الصادقة، حتى إن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها^(٣)، وقد نقل الإمام أحمد مضمون هذه الصحيفة في مسنده.

ولما استخلف أبو بكر الصديق وجه أنس بن مالك عاملاً على البحرين ثم كتب له كتاباً في الصدقات جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم.

وهذا الحديث وإن تكلم في بعض رجاله فإن له شواهد تقويه، منها ما أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم النيسابوري في مستدركه عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «قيدوا العلم بالكتاب» (المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦٣٤/١ و٦٨٠/٤).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله بها رسول الله ﷺ فمن سئلتها من المؤمنين على وجهها فليعطاها ومن سئل فوقها فلا يعطه...^(١)، وقد روي أن الكتاب كان ممهوراً بخاتم الرسول الله ﷺ^(٢).

كما اشتهرت صحيفة علي بن أبي طالب، فقد روي عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر^(٣).

وكان لأبي هريرة رضي الله عنه كتباً جمعها في عهد رسول الله ﷺ وضمّنها أحاديثه، فقد روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمري عن أبيه قال: تحدثت عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلت: إنني قد سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته مني فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ فوجد ذلك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنني إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندي^(٤).

وكان سعد بن عباد الأنصاري رضي الله عنه يحتفظ كذلك بكتب فيها طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ^(٥).

وإضافة إلى ما دوّنه الصحابة من أحاديث الرسول الله ﷺ في مختلف مسائل الدين والحياة ممّا نطق به الصادق الأمين، فإنّ النبي ﷺ قد اتخذ كتاباً فاقوا السّتين كتاباً، كتبوا له جميع المحالفات والمعاهدات مع القبائل

(١) أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجه والبيهقي في كتاب الزكاة.

(٢) أصول الحديث ص ١٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، واللفظ للبخاري.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٨٩/١.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٨٩/١.

والملوك سوى ما كتب إليهم من المراسلات، كما كتبوا له الكتب التي كان يرسلها إلى عماله وولاته^(١).

ومن أشهر هذه الكتب الكتاب الذي أمر النبي ﷺ بتدوينه في السنة الأولى للهجرة، وهو عبارة عن وثيقة نظم الرسول بموجبها العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم الناشئ بالمدينة المنورة والمؤلف من المهاجرين والأنصار، وبينه وبين المجموعات الأخرى المتواجدة في المدينة كعرب يثرب ويهود المدينة.

وقد جاء في مقمّمة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس...، وجاء في ختامه: وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ^(٢).

وكتب إلى هرقل عظيم الروم وإلى المقوقس عظيم القبط وإلى كسرى أبرويز عظيم فارس وإلى المنذر بن ساوى العبدي عامل كسرى على البحرين وإلى باذان الفارسي ملك اليمن وإلى ربيعة بن ذي المرهب من حضر موت وإلى هوزة بن علي شيخ اليمامة، وإلى عمير ذي مران من همدان وكتب إلى قبيلة عبد قيس في البحرين وإلى جيفر وعبد ابني الجلندي شيخي عمان وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، كما كتب إلى أسقف الروم بالقسطنطينية وإلى أسقف أيلة وأهلها وإلى أبي الحارث بن علقمة أسقف نجران وكتب إلى أهل عمان والبحرين وإلى أهل دما من عمان ولوفد ثماله والحدان في عمان وإلى أزد دب - فيما بين عمان

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٤ -

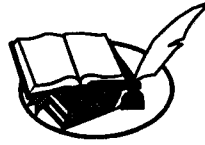
٢٧.

(٢) انظر النص الكامل: سيرة ابن هشام ٥٠١/٢ - ٥٠٤، مجموعة الوثائق السياسية ص

٥٩ - ٦٢.

والبحرين وهي تابعة الآن إلى دولة الإمارات العربية المتحدة - كما كتب أيضاً إلى عامة المسلمين في ثقيف وكتب إلى بني زاكان من أهل قزوين في إيران وكتب عهداً لليهود وللنصارى ولأقارب سلمان الفارسي المجوسيين وكتب إلى عمّاله في الصدقات وبين لهم كيف يسرون في أهل الإسلام، فكتب إلى واليه على البحرين العلاء بن الحضرمي في الزكاة وفي طلب المندوبين وكتب إلى عمرو بن حزم واليه على اليمن في العقول وإلى شرحبيل بن عبد كلال وغيره من أقيال أهل اليمن ممن أسلم في الزكاة والديات وإلى فروة ابن مسيك في الصدقات، وغيرها من الكتب التي أربت على مائتي كتاب وثمانين كتاباً^(١).

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعهدون السنة النبوية الشريفة بالحفظ والتدوين بمثل ما كانوا يتعهدون القرآن الكريم حتى قيل إنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق^(٢).



(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٤٣ - ٥٧٧.

(٢) وهذه العهود والمواثيق احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم سنة ٨٢ للهجرة، والذي بقي بعد ذلك قضت عليه صروف الزمن وغارة التتار، ولكن وإن كانت أصول أكثر هذه الوثائق قد ضاعت فإنّ رِوَاة الحديث والمؤرخين قد حفظوا لنا جملة صالحة منها كما أثبت ذلك محمد حميد الله في كتابه الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة وكما يظهر ذلك في قائمة المصادر التي أحققها بآخر الكتاب (انظر: مجموعة الوثائق ص ٢٤ وص ٦٤٥ - ٦٦٤).

الاجتهاد في هذا الدور

من الثابت أنّ النبي ﷺ قد اجتهد في حياته، وأنّ الوحي الإلهي كان يرشد النبي ويوجهه فيقرّه فيما أصاب فيه ويعاتبه فيما أخطأ تعليماً للأمة من بعده وإرشاداً لها، ولذلك أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالاجتهاد في حياته وأقرهم أحياناً على ما اجتهدوا فيه.

* من اجتهادات النبي:

١ - ما وقع منه ﷺ في قبول فداء أسرى بدر: فعن ابن عباس أنّ عمر بن الخطاب قال: لما أسروا الأسارى - يوم بدر - قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى، فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكفّار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»، قال: قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم... فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله تعالى: ﴿مَا

كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخِرَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ (١).

ثم أحل لهم الله الغنائم فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (٢) فأحل الله تعالى الغنيمة لهم (٣).

٢ - ما وقع منه ﷺ من إذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك حين جاؤوا يعتذرون إليه، ذلك أن فريقاً من المنافقين استأذنوا النبي ﷺ أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم ابن أبي سلول والجد بن قيس ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة، فأذن النبي ﷺ لمن استأذنه حملاً للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلماً بأن المعتذرين إذا ألقوا إلى الخروج لا يغنون شيئاً، لأن في خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (٤) فعاتب الله نبيه ﷺ عتاب تلطف في أن أذن لهم لأنه لو لم يأذن لهم لقعدهوا فيكون ذلك دليلاً للنبي ﷺ على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ (٥)، ولأن الرسول ﷺ اجتهد فبدر منه ترك الأولى، قدم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة عتاب (٦) فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ (٧).

(١) سورة الأنفال - الآيات - ٦٧ - ٦٨.

(٢) سورة الأنفال - الآية - ٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، الجهاد والسير، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٥) سورة محمد، الآية: ٣٠.

(٦) التحرير والتنوير ١٠/٢١٠، الجامع لأحكام القرآن ٨/١٥٤.

(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

٣ - وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «... إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله يوم القيامة وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاها»، قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: «إلا الإذخر»، وفي رواية: فسكت ثم قال: «إلا الإذخر»^(١).

٤ - وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: أتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ثم إن الله تعالى فتحها عليهم فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبي ﷺ: «ما هذه النيران؟» على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال: على أي لحم؟ قالوا: لحم حمر الأنسية، قال النبي ﷺ: «اهريقوها واكسروها»، فقال رجل: يا رسول الله أو نهرقها ونغسلها، قال: أو ذلك^(٢).

* من اجتهادات أصحاب النبي بحضرته:

١ - اجتهاد سعد بن معاذ في بني قريظة:

عن أبي سعيد الخدري قال: إن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إليه فجاءه على حمار، قال: فلما دنا قريبا من المسجد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيّدكم أو خيركم»، ثم قال: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك»، قال: تقتل مقاتلهم وتسبى ذريّتهم، قال: فقال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ وكتاب الجزية والموادعة وكتاب المغازي، ومسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي وكتاب الأدب، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، وكتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

النبي ﷺ: «لقد قضيت بحكم الله وربّما قال: قضيت بحكم الملك»^(١).

٢ - اجتهاد أبي بكر في سلب قتيل قتله أبو قتادة فأخذ سلبه رجل

آخر:

عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة قال: فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين فاستدرت إليه حتى أتيت من ورائه فضربته على حبل عاتقه، وأقبل عليّ فضمّني ضمّة وجدت فيها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس؟ فقلت: أمر الله، ثم إنّ الناس رجعوا وجلس رسول الله ﷺ، فقال: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه»، قال: فقلت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال مثل ذلك، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال ذلك الثالثة، فقلت، فقال رسول الله: «ما لك يا أبا قتادة؟» فقصت عليه القصّة، فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله، سلب ذلك القتيل عندي، فأرضه من حقّه، وقال أبو بكر الصديق: لا ها الله^(٢) إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله فيعطيك سلبه، فقال رسول الله ﷺ: «صدق فأعطه إياه فأعطاني»^(٣).

٣ - اجتهاد أبي بكر في مسألة الإقرار بالزنا:

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ جالساً فجاء معاذ بن مالك فاعترف عنده مرّة فردّه، ثمّ جاءه فاعترف الثانية فردّه، ثمّ جاءه فاعترف الثالثة فردّه، فقلت له: إنك إن اعترفت الرابعة رجمك،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وكتاب الاستئذان.

(٢) قال أبو إسحاق الشيرازي تعليقا على هذه الحادثة: ولا يقدم على الفتيا بحضرة رسول الله مع عظم القدر وجلالة المحلّ إلاّ الثقة بعلمه والمتحقّق بفضلته وفهمه (طبقات الفقهاء ص ٣٨).

(٣) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود في كتاب الجهاد وأحمد في مسند الأنصار.

قال: فاعترف الرابعة فحبسه ثم سأل عنه فقالوا: ما نعلم إلا خيراً، قال: فأمر برجمه^(١).

* من اجتهادات أصحاب النبي في غيبته:

كما كان أصحاب الرسول ﷺ يجتهدون بحضرتة فقد كانوا أيضاً يفتون في غيبته، وكانوا كلما أفتوا واجتهدوا أطلعوا رسول الله على ما بدا منهم من بذل للجهد واستفراغ للوسع في استخراج الحكم واستنباطه، فإن رآهم الرسول قد أصابوا الحق أقرهم، وإن رآهم أخطؤوا أرشدهم إلى وجه الصواب في المسألة.

فمن أمثلة النوع الأول: وهو ما اجتهد فيه الصحابة فرآهم الرسول قد أصابوا الحق فأقرهم عليه:

١ - اجتهاد صحابييين وقد خرجا في سفر:

فعن أبي سعيد الخدري قال: خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيّما صعيدا طيباً فصلياً، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد: أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضىأ وأعاد: لك الأجر مرتين^(٢).

٢ - اجتهاد عليّ بن أبي طالب في قضيتين باليمن:

أما الأولى: فقد ورد من حديث حنش بن المعتمر عن عليّ بن أبي طالب قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأنتهينا إلى قوم قد بنوا زبية للأسد، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلق بآخر، ثم تعلق رجل بآخر حتى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله وماتوا من جراحتهم كلهم، فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر

(١) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) أخرجه أبو داود والدارمي في كتاب الطهارة.

فأخرجوا السلاح ليقتتلوا فأتاهم علي رضي الله عنه على تفيئة ذلك^(١) فقال: تريدون أن تقتلوا ورسول الله حي؟ إني أقضي بينكم قضاء إن رضيتم فهو القضاء وإلا حجز بعضكم عن بعض حتى أتوا النبي ﷺ فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حق له، اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلاث الدية ونصف الدية والدية كاملة، فلأول الربع لأنه هلك من فوقه، وللثاني ثلث الدية وللثالث نصف الدية وللرابع الدية كاملة، فأبوا أن يرضوا، فأتوا النبي ﷺ وهو عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة، فقال: أنا أقضي بينكم واحتبى، فقال رجل من القوم إن علينا قضي فينا فقصوا عليه القصة فأجازه رسول الله ﷺ^(٢).

وأما الثانية: فقد ورد عن زيد بن أرقم قال: أتني علي رضي الله عنه بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة في طهر واحد فسأل اثنين: أتقران لهذا بالولد، قالوا: لا، ثم سأل اثنين أتقران لهذا بالولد، قالوا: لا، فأقرع بينهم فألحق الولد بالذي صارت إليه القرعة، وجعل عليه - أي للرجلين - ثلثي الدية، فذكر ذلك للنبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه^(٣).

- ٣ - اجتهاد الصحابة في مسألة الصلاة في بني قريظة:

فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال لنا النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعتف واحدا منهم^(٤).

فمن صلاها منهم في الطريق نظر إلى المعنى وفهم أن مراد الرسول

(١) أتيت على تفتة ذلك أي على حينه وزمانه (لسان العرب، مادة تفتأ).

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الطلاق.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة.

إنّما هو سرعة النهوض وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس، ومن آخرها وصلّاها ليلاً في بني قريضة نظر إلى اللفظ وهؤلاء سلف أهل الظاهر^(١).

- ٤ - اجتهاد عمرو بن العاص:

عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل^(٢) فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٣) فضحك رسول الله ولم يقل شيئاً^(٤).

ومن أمثلة النوع الثاني: وهو ما اجتهد فيه الصحابة فبيّن لهم الرسول وجه الخطأ ولم يقرهم عليه:

١ - ما ورد عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا للنبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمم

(١) إعلام الموقعين ٢٠٣/١.

(٢) سمّيت بذلك لأنّ المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفزوا، ثمّ لما قرب منهم المسلمون ألقى الله في قلوبهم الرعب وفزوا، وقيل سمّيت بذلك لأنّ بها ماء يقال له السلسل، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وسببها أنّ الرسول ﷺ بلغه أنّ جمعا من قضاة تجمّعوا للإغارة وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعث ﷺ عمرو بن العاص في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا (أحمد بن زيني دحلان: السيرة النبوية ٢٤٤/٢).

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، وأحمد في مسند الشاميين، واللفظ لأبي داود.

ويعصر أو يعصب - شكّ راوي الحديث - على جرحه خرقه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»^(١).

٢ - ما ورد عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبّحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوق في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم قالها أم لا؟» فما زال يكررها حتى تمتيت آتي أسلمت يومئذ^(٢).

٣ - ما ورد عن عمّار بن ياسر أنه كان في سفر مع عمر بن الخطاب فأصابتهما الجنابة فأما عمر فلم يصل، وأما عمّار قال: فتمعكت - تمرغت - في الصعيد وصلّيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: إنما يكفيك هكذا، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه^(٣).

٤ - ما ورد عن ابن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ ضيف فقال لبلال: ائتنا بطعام، فذهب بلال فأبدل صاعين من تمر بصاع من تمر جيّد، وكان تمرهم دوناً، فأعجب النبي ﷺ التمر فقال: من أين هذا التمر؟ فأخبره أنه أبدل صاعاً بصاعين، فقال رسول الله ﷺ: «ردّ علينا تمرنا»، وفي رواية: فأنكرها رسول الله وقال: «أربيتهم»، وفي رواية ثالثة قال: لا يصلح ذلك ولكن بع تمرك ثم ابتع حاجتك أو قال: واشتر من أي تمر شئت^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان وأبو داود في كتاب الجهاد وأحمد في مسند البصريين ومسند الأنصار، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمّم، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيوع، وأحمد بالفاظ مختلفة في مسند المكثرين من الصحابة.

٥ - ما ورد عن عائشة قالت: دخلت بريرة وهي مكاتبه فقالت: اشتريني وأعتقيني، قالت: نعم، قالت: لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي، فقالت: لا حاجة لي بذلك، ثم إن عائشة ذكرت لرسول الله ما قالت لها بريرة فقال: اشتريها وأعتقها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا، فاشتريتها عائشة فأعتقتها، واشترط أهلها الولاء، فقال النبي ﷺ: «الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط»^(١).

٦ - ما ورد عن سالم عن أبيه قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي ﷺ، فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده - وفي رواية: رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه - فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين^(٢).

وقد أحصى ابن حزم الأندلسي وقائع عديدة اجتهد فيها الصحابة ولم يقرهم الرسول عليها^(٣).

والمتمثل في هذه الأصناف المختلفة من الاجتهادات سواء ما تعلق منها باجتهاد الرسول، أو ما تعلق منها باجتهاد أصحابه المهديين فإن جميعها لا يخرج عن كونه أحكاماً من دين الله، ذلك أن اجتهاد الرسول إما أن يقره الوحي أو لا يقره، فيكون في كلا الحالتين من وحي الله لرسوله في الإقرار وفي التصويب.

وأما اجتهاد الصحابة، فما كان منه بحضور الرسول أو في غيبته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق.

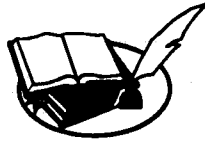
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، وكتاب الدعوات.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٦/٢٤٥ - ٢٤٦.

وأقرهم عليه فقد دخل في السنة التقريرية، وما لم يقرهم عليه فقد بين لهم حكم الله فيه فيكون ذلك من سنة الرسول ﷺ.

وبهذا المعنى يمكن أن تُرجع الفقه في هذا الدور الأوّل الذي هو العصر النبوي إلى مصدرين اثنين لا ثالث لهما: كتاب الله وسنة نبيه.

وهكذا فما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتى أتمّ دين الله وأبرم شريعة الله وترك المسلمين على البيضاء ليلها كنهارها^(١).



(١) من حديث الرسول فيما رواه العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله، إن هذه الموعظة مودّع فماذا تعهد إلينا، قال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» (أخرجه ابن ماجه في المقدمة، وأحمد في مسند الشاميين).

الدور الثاني:

اجتهاد الصحابة والتابعين وظهور المراكز الفقهية
من وفاة الرسول إلى الثلث الأول
من القرن الثاني الهجري - عصر الصحابة والتابعين -

تمهيد:

ما إن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى وجد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أنفسهم أمام وقائع جديدة ونوازل طارئة تتطلب حلولاً، ولما كان الدور الأول الذي هو دور التأسيس القائم على الوحي الإلهي قد انقضى، وحلّ هذا الدور الذي هو دور عصر الصحابة والتابعين، كان لا بدّ من اللجوء إلى الاجتهاد الذي كان الرسول قد درّب عليه أصحابه استعداداً لتحمل أمانة التبليغ من بعده.

ذلك أنّ الحوادث كانت تستجدّ بلا انقطاع كما هو الحال في كلّ مجتمع ينمو ويتشكّل في ضوء ظروف متغيّرة وأحداث متجدّدة.

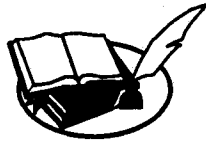
هذه الوقائع كانت تستجدّ أحياناً نتيجة عوامل عادية تعرفها الحياة الهادئة، وأحياناً نتيجة عوامل غير عادية كحروب الردّة وحروب المنتهين، وكذلك الفتن الداخلية مثل مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، وحروب الخليفة الراشدي الرابع عليّ بن أبي طالب في مواقع الجمل وصفين وغيرهما، وما خلّفته من آثار مسّت جميع مستويات الحياة الفردية منها والجماعية، الاجتماعية والاقتصادية منها والسياسية.

ولمّا لم يجد الصحابة فيما بين أيديهم من النصوص القرآنية والنبوية المتناهية ما يفي بالغرض لاستيعاب جميع تلك الحوادث والنوازل، لم يكن أمامهم إلاّ الاجتهاد سبيلاً للإحاطة بما نزل بهم من وقائع.

فانبرى الصحابة الذين اشتهروا بالإفتاء على عهد الرسول ﷺ في التصدي لهذه الوقائع، فأدرجوا من أعيان الأحداث الجزئية ما ينضوي تحت أصولها وألحقوا الفروع الجزئية بأصولها الكلية في محاولة منهم لاستيعاب الطوارئ الجديدة.

وبهذا الشكل أخذ الفقه يخطو خطواته الأولى نحو النموّ والاتساع، ونحو البناء والتشييد.

وقد ارتأينا أن نقسم هذا الدور إلى مرحلتين اثنتين تختص كل مرحلة منهما بخصائص وسمات معينة.



المرحلة الأولى:

عصر الخلفاء الراشدين

واجه المسلمون على إثر وفاة الرسول ﷺ مشكلة من أعوص المشاكل، بدت في أول الأمر تنذر بشرّ مستطير ثم انتهت بفضل الله نهاية محمودة، تلك هي مسألة خلافة رسول الله ﷺ في تسيير شؤون الدولة ورعاية شؤون المسلمين التي انتهت بتولية أبي بكر الصديق حيث بويع بيعة خاصة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ثم بويع البيعة العامة في المسجد النبوي الشريف.

ولم يكد أبو بكر الصديق يتقلد خلافة المسلمين حتى قام المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم على غير يقين وحسبوا أنّ الفرصة سانحة للقضاء على دين الله فهبوا في ثورة عارمة معلنين الردة، واستشروا خطرهم حتى عمّ أطراف بلاد الإسلام في جزيرة العرب، ومما زاد الأمر سوءاً انتحال بعض أصحاب الردة ورؤوسها صفة النبوة وكان أشدهم خطراً في ذلك مسيلمة الكذاب.

ومن لطف الله بعباده وبلاده أن مكّن لأبي بكر الصديق في الأرض، فواجه هذا الخطب العظيم بحزم وشدة استطاع من خلالها أن يعيد كامل الجزيرة العربية إلى سيطرة المسلمين.

وبعد أن استقرت الأوضاع الداخلية شرع في تسيير الجيوش إلى البلاد البعيدة، ولمّا أدرك أنّ أجله قد حان، أوصى من بعده لعمر بن الخطاب.

وفي عهد الفاروق اتسعت الفتوحات وعمّ عدله بلاد الشام والعراق وإيران ومصر واستقرّ أمر المسلمين على أفضل حال، حتّى إذا طعن بنخنجر الغدر وأشرف على الموت حمّل أمانة الخلافة من بعده إلى مجلس شورى يتألف من ستّة شخصيات من أعيان الصحابة ممّن توفّي الرسول وهو عنهم راض، فانعقد الأمر لذي النورين عثمان بن عفان.

وفي عهد عثمان استقرّت الأحوال أعواماً على ما كانت عليه زمن أبي بكر وعمر وفتحت أرمينية وإفريقية وقبرص وقرعت أبواب القسطنطينية ذاتها ووصلت الجيوش إلى طبرستان وسجستان وخراسان ومرو وكرمان، وبلغت السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في الشرق.

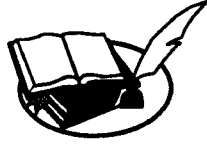
ثمّ حدث أن أغرت سياسة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان حفيظة الكثيرين من المتمرّدين الذين أشعلوا نار الفتنة بين المسلمين وتمكّنوا من زرع روح الخلاف الداخلي، فعظم الخطب حتّى طالبوا الخليفة بالتنحي عن منصبه واشتدّ الحال على المسلمين وانتهى باقتحام بيت الخليفة وقتله.

فألت الخلافة إلى عليّ بن أبي طالب وقد أثخنت بالجراح وأثقلت بالخلافات والانشقاقات، فواجهته فتن عظيمة وأحداث رهيبة في الشام والعراق تفرّق على إثرها المسلمون إلى شيع وأحزاب، وكانت أشدّ هذه الأحزاب وقعاً على المسلمين وأعظمها خطباً فرقة الخوارج التي لم يتوزّع أنصارها من تكفير مخالفهم بل ذبحهم أحياناً وبقر بطونهم.

وقد أجمع ثلاثة من الخوارج على التخلّص من عليّ بن أبي طالب خليفة المسلمين ومعاوية بن أبي سفيان قائد جيوش الشام وعمرو بن العاص نصير معاوية فلم ينجح في هذه المهمة الشنيعة إلاّ عبدالرحمن بن ملجم الذي طعن الخليفة بسيف مسموم فألحقه بالشهداء الأبرار.

إنّ هذه الأحداث الداخليّة التي عصفت بالبلاد الإسلاميّة وما خلّفتها من جراحات وآلام في جسم الأمة من ناحية، وتلك الفتوحات الخارجيّة التي أدت إلى احتكاك المسلمين بالعالم الخارجي وفتح عيونهم على عادات وتقاليد البلاد المفتوحة وتلاحمهم مع ما يستجدّ من مشاكل تلك

البلاد وتطوّراتها من ناحية ثانية، كلّ هذه الأحداث الإيجابية منها والسلبية التي عرفتھا البلاد وعایشها العباد قد أثرت بلا شكّ تأثيراً عميقاً في صياغة الفقه الذي كان في هذه المرحلة ينمو ويتّسع بنموّ الحياة واتّساعها خاصّة وأنّ حياة الناس كانت مصطبغة بدون أدنى شكّ بصبغة دينيّة متينة لا تكاد تنفكّ عنها في كلّ جزئية من جزئيات الحياة.



مصادر الفقه في هذه المرحلة

١ - القرآن الكريم:

لقد كان لحروب الردة وحروب المتنبئين من الوقع العظيم على عهد أبي بكر ما لا يخفى على دارس على الرغم من الحزم الذي أبداه أبو بكر الصديق في معالجة هذه القضية المصيرية وعلى الرغم من الشدة التي اتسم بها في حربه لهم.

فعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت هذه الحروب شديدة على المسلمين استشهد فيها ما يقرب من السبعين من خيار الصحابة وحفاظ كتاب الله تعالى، الأمر الذي جعل الخليفة الراشدي أبا بكر الصديق يوافق على اقتراح عمر بن الخطاب في جمع القرآن العظيم كله بين دفتي مصحف واحد، بعد أن كان متردداً من قبل.

فقد روي عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك

وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتّى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(١) حتّى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتّى توفاه الله ثمّ عند عمر حياته ثمّ عند حفصة بنت عمر^(٢).

وممّا يلحظ في هذا الجمع أنّ زيد بن ثابت قد انتهج فيه طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبع ويستقصي أخذاً على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ، والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبلغ من مبالغته في الحيطه والحذر أنّه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتّى يشهد شاهدان عدلان أنّه كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وبذلك لم يعتمد زيد على الحفظ وحده بدليل ما ورد في الحديث السابق أنّه لم يجد آخر سورة براءة إلّا مع أبي خزيمة، والمقصود أنّه لم يجدها مكتوبة إلّا مع أبي خزيمة وإلّا فإنّ زيدا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة ممّن جمعوا القرآن ولا يزالون على قيد الحياة يحفظونها، ولكنّه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثق ومبالغة في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ففتبّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(١) حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثمّ عند عمر حياته ثمّ عند حفصة بنت عمر^(٢).

وممّا يلحظ في هذا الجمع أنّ زيد بن ثابت قد انتهج فيه طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريّات شاملة، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ، والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنّه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنّه كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وبذلك لم يعتمد زيد على الحفظ وحده بدليل ما ورد في الحديث السابق أنّه لم يجد آخر سورة براءة إلاّ مع أبي خزيمة، والمقصود أنّه لم يجدها مكتوبة إلاّ مع أبي خزيمة وإلاّ فإنّ زيدا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة ممّن جمعوا القرآن ولا يزالون على قيد الحياة يحفظونها، ولكنّه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثق ومبالغة في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

الاحتياط^(١).

فتم بتوفيق الله وعونه جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق بين دفتي مصحف واحد، وبقي هذا المصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، فلما توفي احتفظت به عندها أم المؤمنين حفصة بنت عمر.

وفي عهد عثمان بن عفان تجدد الداعي إلى جمع القرآن ثانية والعودة إلى الصحف المحتفظ بها عند حفصة، حيث وقع اختلاف بين المسلمين في قراءة القرآن أفزع الصحابة.

فعن أنس بن مالك أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم^(٢)، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق^(٣).

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لخليفة المسلمين عثمان بن

(١) مناهل العرفان ١/٢٤٥.

(٢) قال ابن شهاب الزهري: فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

عقّان فحرّقوا مصاحفهم وصحفهم التي كانت بين أيديهم^(١)، وأصبح مصحف عثمان الذي عرف بمصحف الإمام، المصحف المعمول عليه دون غيره من المصاحف.

٢ - السنة النبويّة:

رأينا كيف أنّ النبيّ ﷺ قد نهى في أوّل الأمر عن كتابة الحديث خوف اختلاطه بالقرآن أو لئلا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهيه في التلاوة والقراءة، ثم نسخ النهي عن الكتابة إلى الإباحة والإذن بالتدوين بعد زوال أسباب المنع.

وثبت أنّ هناك من دون في عهد الرسول ﷺ سواء كان بإذن خاص من النبيّ كعبدالله بن عمرو بن العاص، أو بعد الإذن العام.

ورغم ما روي عن رسول الله في إذنه بتدوين حديثه، ورغم ما كتب في عهده ﷺ من أحاديث فإنّ الصحابة رضوان الله عليهم نراهم في هذا الدور يحجمون عن تدوين الأحاديث ويكتفون في تناقلها بالرواية اعتماداً على ما وعته عقولهم وما حفظته صدورهم.

فهذا عمر بن الخطاب يعزم في أيام خلافته على تدوين أحاديث رسول الله ويستخير الله شهراً كاملاً ثم يعدل عن ذلك، فعن عروة بن الزبير أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبيّ ﷺ في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب - لا أنسى - كتاب الله بشيء أبداً.

(١) إلا ما كان من عبدالله بن مسعود فإنه قال: يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها فإنّ الله يقول ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فآلقوا الله بالمصاحف، قال ابن شهاب الزهري: فبلغني أنّ ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبيّ ﷺ (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن).

وعن يحيى بن جعدة أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنّة ثمّ بدا له أن لا يكتبها ثمّ كتب في الأمصار: من كان عنده شيء فليمحه.

وعن ابن وهب قال سمعت مالكا يحدث أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب الأحاديث أو كتبها ثمّ قال: لا كتاب مع كتاب الله، قال مالك: ولم يكن القوم يكتبون إنّما كانوا يحفظون، فمن كتب منهم الشيء فإنّما كان يكتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه^(١).

وإنّما كره الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكتابة في هذا الدور حتّى لا يتخذ مع القرآن كتاباً يضاهاى به كما مرّ بيانه، ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ فيقلّ الحفظ، خاصّة وأنّ العرب كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك^(٢).

* منهج الصحابة في رواية الحديث:

- ١ - الإقلال من الرواية:

ثمّ مع كراحتهم للكتابة والتدوين كانوا قد نهجوا نهج الإقلال من رواية الحديث فقد روي عن عمر بن الخطاب أنّه كان يقول: أقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ.

وروي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فشيّعنا عمر إلى صرار ثمّ دعا بماء فتوضّأ ثمّ قال لنا: أتدرون لمّ خرجت معكم؟ قلنا أردت أن تشيّعنا وتكرمنا، قال إنّ مع ذلك لحاجة خرجت لها، إنكم تأتون بلدة لأهلها دويّ بالقرآن كدويّ النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث عن رسول الله ﷺ فتشغلوهم، جودوا القرآن وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، امضوا وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة قالوا: حدّثنا، قال: نهانا عمر بن الخطاب.

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٧٧/١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٨٢/١ - ٨٣.

ولذلك كان أبو هريرة يمسك عن التحديث زمن عمر بن الخطاب ويقلّ من رواية الحديث، ولم يحدث ويكثر من ذلك إلا بعدما طال به العمر واحتاج الناس إلى ما عنده من العلم وكان يقول: لقد حدّثتكم بأحاديث لو حدّثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني بالدرّة^(١).

وكان ابن مسعود يقول: إنّ هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره^(٢).

وكان سفيان بن عيينة يقول وقد نظر إلى أصحاب الحديث: لو أدركنا وإياكم عمر بن الخطاب لأوجعنا ضرباً^(٣).

والظاهر أنّ هذا النهج الذي انتهجه الصحابة في الإقلال من رواية الحديث إنّما كان لقرب عهدهم بالرسول ﷺ، ولكون أغلب الصحابة الذين سمعوا من رسول الله لا يزالون على قيد الحياة فلم تكن هناك حاجة متأكّدة لرواية الحديث، والاعتناء به على سبيل السماع والتحصيل والحفظ خاصّة وأنّ عمر بن الخطاب قد ألزم أصحاب رسول الله بالبقاء بجواره بالمدينة إلاّ من كان منهم قد خرج في مهمّة فرخص له ذلك.

وقد حمل ابن عبد البرّ منهج عمر في الإقلال من رواية الحديث على وجوه منها:

* أنّه كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه إذ هو الأصل لكلّ علم.

* وأنّه كان خوف مواقعه الكذب على رسول الله ﷺ وخوف الاشتغال عن تدبّر السنن والقرآن، لأنّ المكثّر لا تكاد تراه إلاّ غير متدبّر ولا متفقه فعاب عليهم الإكثار خوفاً من أن يرتفع التدبّر والتفهم.

ولا يجب أن يحمل منهجه في الإقلال من الحديث على الإطلاق

(١) المصدر السابق ١٤٧/٢ - ١٤٨.

(٢) نفس المصدر ٨٠/١.

(٣) نفس المصدر ١٥٩/٢.

- ٢ - التحزّي والاحتياط في النقل:

وكما سار الصحابة رضي الله عنهم في هذا العصر على نهج الإقلال من رواية الحديث ساروا كذلك على نهج التحزّي والاحتياط في نقل الحديث، ورغم أنّ أصحاب رسول الله كانوا جميعاً عدولاً فيما بينهم لا يُتهمون في دينهم ولا في تقواهم فقد كانوا يتثبتون فيما يرويه بعضهم ويتحرّون فيما ينقلون ويحتاطون فيما يسمعون ويطالبون بالشاهد على روايتهم.

وكانت الطريقة المتبعة لدى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب مع قلة روايتهما للحديث رغم تقدّم صحبتهما وملازمتها النبي ﷺ ألا يقبل حديثاً إلا إذا شهد بسماعه عن الرسول ﷺ اثنان من الصحابة.

فروى ابن شهاب الزهري عن قبيصة بن ذؤيب قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر رضي الله عنه تسأله ميراثها فقال: ما أعلم لك في كتاب الله شيئاً، ولا أعلم لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء حتى أسأل الناس، فسأل فقال المغيرة بن شعبة: سمعت رسول الله جعل لها السدس، فقال: من يشهد معك أو من يعلم معك، فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ذلك، فأنفذه لها^(١).

وروي عن أبي موسى الأشعري أنه جاء يستأذن على عمر بن الخطاب فاستأذن ثلاثاً ثم رجع، فأرسل عمر بن الخطاب في أثره فقال: ما لك لم تدخل؟ فقال أبو موسى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الاستئذان ثلاث فإن أذن لك فادخل وإلا فارجع، فقال عمر: ومن يعلم هذا؟ لئن لم تأتني بمن يعلم ذلك لأفعلن بك كذا وكذا، فخرج أبو موسى حتى جاء مجلساً في المسجد يقال له مجلس الأنصار، فقال: إني أخبرت عمر بن الخطاب أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الاستئذان ثلاث فإن أذن لك

(١) أخرجه أحمد في مسند الشاميين.

فادخل وإلا فأرجع، فقال: لئن لم تأتني بمن يعلم هذا لأفعلن بك كذا وكذا، فإن كان سمع ذلك أحد منكم فليقم معي، فقالوا لأبي سعيد الخدري: قم معه، وكان أبو سعيد أصغرهم، فقام معه، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فقال عمر بن الخطاب لأبي موسى: أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ^(١).

وروى حسين بن أبي وقاص قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما يمنعني أن أحدث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى أصحابه عنه، ولكني أشهد لسمعته يقول: من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار^(٢).

وكانت طريقة علي بن أبي طالب في قبول الرواية أن يحلف كل من يسمعه حديثاً لم يبلغه عن رسول الله حتى يطمئن إلى صدقه، فعن أسماء بن الحكم الفزاري أن علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف صدقته، وإن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له»^(٣).

ورغم هذا النهج العام الذي سار عليه الصحابة في الإقلال من رواية الحديث والاحتياط في نقله فإن ذلك لم يمنع بعض صغار الصحابة من أمثال عبدالله بن العباس من الاعتناء بسماعه والسعي في سبيل تحصيله وحفظه.

فعن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال:

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الاستئذان.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

وعجبا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك؟ قال ابن عباس: فترك ذلك وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح عليّ من التراب فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عمّ رسول الله ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليّ فأتيك؟ فأقول: لا أنا أحقّ أن أتيك فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصاري حتى رأني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني.

وروى عبيد الله بن علي بن أبي رافع أنّ ابن عباس كان يأتي أبا رافع فيقول: ما صنع النبي ﷺ يوم كذا ومع ابن عباس من يكتب ما يقول^(١).

* الرحلة في طلب الحديث:

انقضى عصر أبي بكر وعمر وأعظم السنّة النبويّة الشريفة محفوظة في صدور أصحاب الرسول، غير شائعة بين الناس كثيراً، إذ أنّ منهج أبي بكر وعمر كان يقوم على الاعتناء بكتاب الله والاحتياط للسنّة النبويّة من التزيّد عليها والاحتراز لها حتى من الوقوع في الخطأ والوهم غير المقصود، وكانت سياستهما تقوم على استبقاء كبار الصحابة وملازمتهم المدينة فلا يخرج منها إلاّ من دعت الحاجة الملحة إلى خروجه.

فلما كان عهد عثمان بن عفان أذن لأصحاب رسول الله بمغادرة المدينة والانتشار في الأرض فتوزّعوا في الأمصار وعند كلّ واحد منهم مجموعة من الأحاديث التي كان قد سمعها من رسول الله أو سمعها من أصحابه وقد يتفرّد بعضهم برواية أحاديث لم يسمعها غيره، واحتاج الناس إلى ما عندهم من العلم والسنن فتصدّر كلّ صحابي أو أكثر بتعليم أهالي الإقليم الذي استقرّوا به، وانتشرت الأحاديث بانتشار الصحابة في الأمصار.

والأقاليم، فأصبح طلاب الحديث من أبناء الصحابة ومن التابعين لا يستطيعون استيفاء الأحاديث من مركز واحد، ولا يبلغون الدرجة الحقيقيّة

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣٣١/٢ - ٣٣٢.

في الاعتناء بسماع الحديث وتحصيله وحفظه إلا إذا رحلوا في طلبه من بلد إلى آخر، فظهرت الرحلة في طلب الحديث وتركزت الأنظار بعناية أعظم حول من بقي من أصحاب الرسول، واشتهر منهم سبعة بكثرة الرواية، وهم: أبو هريرة روى ٥٣٧٤ حديثاً، ثم عبدالله بن عمر بن الخطاب وعدد ما رواه ١٦٣٠ حديثاً، ثم أنس بن مالك وعدد أحاديثه ١٢٨٦ حديثاً، ثم عائشة أم المؤمنين وعدد ما روته ١٢١٠ حديثاً، ثم عبدالله بن عباس وعدد ما رواه ١٦٦٠ حديثاً، ثم جابر بن عبدالله وعدد ما رواه ١٥٤٠ حديثاً، ثم أبو سعيد الخدري وعدد ما رواه ١١٧٠ حديثاً.

ومضى الأمر على تلك الحال من طلب للحديث واعتناء به تحصيلاً ورواية إلى أن رفعت الفتنة رأسها ونفثت بسمومها في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان فكانت تلك الفتنة بفضاعتها وخطورتها منعرجاً حاسماً في حياة المسلمين وتاريخهم الديني والسياسي.

- ٣ - الاجتهاد والرأي:

احتاج الناس في هذا العصر إلى المجتهدين من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يكونوا رضوان الله عليهم كلهم أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ من جميعهم وإنما كانوا على اختلاف في درجة الإفتاء والفقه في الدين، فمنهم العامة الذين لم يُعرفوا بفقه ولا دراية وإذا نزلت بأحدهم نازلة سأل فيها أهل الذكر، وكان منهم المجتهدون الأولون وهم الفقهاء من أصحاب الرسول الذين اجتهدوا في حياة الرسول.

وهؤلاء الصحابة كانوا ألين الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأحسنها بياناً وأصدقها إيماناً وأعمقها نصيحة وأقربها إلى الله وسيلة، وكانوا كما شهد فيهم بعض التابعين: كالإخاذاة تروي الراكب، والإخاذاة تروي الراكبين، والإخاذاة تروي العشرة، والإخاذاة لو نزل بها أهل الأرض لأصدرتهم^(١) - أي أشبعتهم من الماء - وهؤلاء الذين تميّزوا من بين

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١/١ و١٦.

الصحابة بممارستهم الاجتهاد والإفتاء هم الذين عرفوا باسم القراء^(١) كما قال ابن خلدون - أو الذين عرفوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء فيما بعد^(٢).

وبوفاة النبي ﷺ أصبح هؤلاء الذين مارسوا الاجتهاد بين يدي النبي وكان مرجعهم إليه، وتخرجوا على ذلك في الاجتهاد بالنبي، أصبحوا بالطبع هم المرجع للناس.

وهؤلاء هم الذين اهتم العلماء بجمع أسمائهم فألفت فيهم تاليف ونظمت في إحصائهم منظومات، وقد كانوا - كما ذكر ابن حزم ونقله عنه ابن قيم الجوزية - متفاوتين في الإفتاء بين مكثر ومقل ومتوسط، بحيث إن مجموعهم قد بلغ مائة ونيفا وثلاثين^(٣) اشتهر منهم سبعة اعتبروا هم المكثرون من الصحابة فيما روي عنهم من الفتيا، وعدوا من الطبقة الأولى في العلم، وقد اختلف العادون في بعضهم فوضعوا واحداً مكان آخر.

فروى ابن سعد بإسناد صحيح قال: أصحاب الفتوى ستة وهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري وزيد بن ثابت^(٤).

وروي عن مسروق أنه قال: شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وزيد بن ثابت رضي الله عنهم^(٥).

(١) وفي الحديث عن عاصم، قال: سمعت أنسا يقول: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة، كانوا يدعون القراء (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة).

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢٨.

(٣) ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام ٨٧/٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/ ١٢ - ١٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٥٦٢.

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/ ٦٠.

وفي رواية أخرى أنه قال: شامت أصحاب محمد ﷺ - أي بحث عنهم - فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة، فذكر أبي بن كعب عوضاً عن معاذ بن جبل^(١).

وقال الشعبي: ثلاثة يستفتي بعضهم من بعض، فكان عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض، وكان علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض^(٢).

وقال مسروق: انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة وعالم بالشام وعالم بالعراق، فعالم المدينة علي بن أبي طالب، وعالم العراق عبدالله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق عالم المدينة ولم يسألها^(٣).

وقال الإمام الشعبي: قضاة هذه الأمة: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري.

وكان عبدالله بن مسعود يقول: إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم.

وقال سعيد بن المسيب: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٤) - أي علي بن أبي طالب -

وكان ابن عباس يقول: أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وإنه لأعلمهم بالعشر الباقي^(٥).

(١) إعلام الموقعين ١/١٦١.

(٢) المصدر السابق ١/١٥٠.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢.

(٤) إعلام الموقعين ١/١٦١.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢.

وقال شهر بن حوشب: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدّثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له.

وقال ابن أبي نجیح: كان أصحاب ابن عباس يقولون: ابن عباس أعلم من عمر بن الخطاب ومن عليّ بن أبي طالب ومن عبدالله بن مسعود ويعدّون ناسا فيشب عليهم الناس فيقولون: لا تعجلوا علينا إنّه لم يكن أحد من هؤلاء إلّا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه، وكان ابن عباس قد جمعه كلّه^(١).

والملاحظ من خلال هذه الروايات - وروايات أخرى أعرضنا عنها اختصارا - اختلاف القوم فيمن هو أعلم الصحابة، واختلاف النظر في هذا أمر طبيعي والأهمّ من هذا أنّ العلماء قد عدّوا سبعة من الصحابة هم سادة المفتين والعلماء والمكثرون من الفتيا وهم على الأشهر: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس وزيد بن ثابت وعائشة أمّ المؤمنين.

ثمّ المتوسّطون منهم فيما روي عنهم من الفتيا وعددهم عشرون، وهم: أبو بكر الصديق وأمّ المؤمنين أمّ سلمة وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعثمان بن عفان وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله ابن الزبير وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي وجابر بن عبدالله ومعاذ بن جبل وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وعمران بن حصين وأبو بكر وعبدالله بن الصامت ومعاوية بن أبي سفيان.

ثمّ المقلّون الذين لا يروى عن الواحد منهم إلّا المسألة والمسألان والزيادة اليسيرة على ذلك فعددهم بعد التقصي واحد وعشرون ومائة^(٢).

(١) إعلام الموقعين ١٨/١ - ٢٠.

(٢) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨٧/٥ - ٨٩، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٢/١ - ١٤.

هؤلاء الصحابة الذين تخرّجوا بالنبي ﷺ بذاته فكانوا سادة الأمة وأئمتها وقادتها، كانوا في عهد أبي بكر وعمر مجتمعين في المدينة المنورة حيث تكوّنت الشريعة العملية وحيث نشأت نواة الاجتهاد الأولى، ثم سرعان ما اتّسعت الدولة الإسلامية وامتدّت الفتوحات في عهد عثمان بن عفان وأذن لهم بالسعي في أنحاء الدولة الممتدة، فتوزّعوا في تلك البلاد الشاسعة بقصد تعليم الأمة وإرشادها.

والحقّ يقال إنّ انتشار الصحابة في الأمصار المفتوحة لم يكن من سياسة عثمان بن عفان كما يتبادر للكثير أول الأمر، ولكنّ الناظر يرى أنّ هذه البعثات كانت تتمّ منذ عهد الرسول ﷺ، فقد بعث مثلاً معاذ بن جبل إلى اليمن، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وبعث بغيرهما من الصحابة، وذلك أمر تتطلّبه مصلحة الدولة ويحتاج إليه المسلمون في تلك البلاد، فكان يرسل إلى الأنحاء المختلفة من سادات الصحابة من المفتين والعلماء ليتلقّى عنهم الناس الدين تلقياً صحيحاً.

ولما توفّي الرسول ﷺ خرج بعض الصحابة من المدينة ونزلوا أماكن مختلفة فربّما استقرّوا بها واتّخذوها مقاماً وموطناً.

وحين تولّى عمر بن الخطاب الخلافة بعث عمّار بن ياسر وعبدالله بن مسعود إلى الكوفة وقال لأهلها: أمّا بعد فإنّي بعثت إليكم عمّاراً أميراً وعبدالله قاضياً ووزيراً... فاسمعوا لهما وأطيعوا فقد آثرتكم بهما على نفسي.

وروى أبو مسلم الخراساني أنّه دخل حمص - زمن خلافة عمر - فرأى حلقة فيها اثنان وثلاثون رجلاً من أصحاب رسول الله (١).

ففي عهد عمر رضي الله عنه خرج كثير من الصحابة من المدينة بغاية الفتح والجهاد وبغاية التعليم والإرشاد أو بتكليف من الخليفة لتسيير شؤون ولاية من الولايات، توزّعوا في الأقاليم وسكنوا بلاداً شاسعة واستوطنوا

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٣، ٤٦.

وماتوا في أماكن شتى، مثل عبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وسهيل بن عمرو وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي وأبو عبيدة بن الجراح وأبو الدرداء وغيرهم كثير.

ورغم هذه البعثات التي اقتضتها مصلحة الإسلام والمسلمين فقد عُرف عن عمر أنه كان لا يحبّد خروج الصحابة من المدينة ولا يسمح لهم بذلك وخاصة منهم من اشتهر بالإفتاء.

ولكن في عهد عثمان بن عفان كانت ظاهرة توزّع الصحابة في أنحاء البلاد قد شاعت وانتشرت حتى عدّت بعد ذلك من سياسة عثمان بن عفان ونهجه في عدم إلزام أصحاب رسول الله بالمكوث إلى جواره بعد أن أذن لهم إذنا عامًا وسمح لهم بحرية اختيار موطن الإقامة، فاختار بعضهم مكّة، ونزل بعضهم الشام وتوجّه بعضهم إلى البصرة وقصد البعض الآخر مصر وسائر بلاد الإسلام.

على أنّ الجمع الأعظم والعدد الأكبر من الصحابة قد لزم المدينة ولم يخرج منها ذلك أنّ النبي ﷺ قد ترك بالمدينة ما يقرب من اثني عشر ألفاً من الصحابة دفن منهم بالبقيع نحو عشرة آلاف وتفرّق منها وانجلى عنها ألفان في نواحي متفرّقة.

وهؤلاء الصحابة أهل الإيمان وجند الرحمن قد أنشأوا بتوزّعهم في الأمصار حركة اجتهادية في كلّ بلدة نزلوا بها، فتعدّدت مراكز الاجتهاد بتعدّد الأقاليم التي نزل بها الصحابة، وبعد أن كان الفقه فقه المدينة حيث يقيم أكثر الصحابة وأشهرهم فقها وعلماء، أصبحت المراكز عديدة، وغدا أتباع كلّ صحابي لا يعدلون به غيره، فكان أهل مكّة من أتباع ابن عباس يرون أنّ ابن عباس أعلم من عمر بن الخطاب ومن عليّ بن أبي طالب ومن عبدالله بن مسعود... وإته لم يكن أحد من هؤلاء إلاّ وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه، وأنّ ابن عباس كان قد جمعه كلّ.

وكان أصحاب ابن مسعود يرون أنّه لو نزل به أهل الأرض لأشبعهم علماء، ولكن ذلك لم يكن يمنعهم من أن ينصفوا الصحابة من أهل العلم

ويقرّوا لهم بالفضل، فهذا مسروق من أعلام تابعي العراق ومن تلامذة ابن مسعود يشهد حين قدومه المدينة أنّ زيد بن ثابت من الراسخين في العلم^(١).

وغير ذلك كثير ممّا يطول عرضه.

والتحق بهؤلاء الفقهاء من أصحاب الرسول في كلّ مركز من تلك المراكز وجوه من أعلام التابعين الذين نالوا شرف الإفتاء بحضور الصحابة، واقتصر كثير من التابعين بالفقّه على الصحابة الذين نزلوا عندهم واشتهروا بالأخذ عنهم دون سواهم في حين رأى بعضهم أن يطوف البلاد ويسمع من غيرهم.

وهكذا انبثقت نواة المراكز الفقهية الأولى التي جرت فيما بينها حركة الاجتهاد في هذا الدور.

* منهج الصحابة في استنباط الأحكام الفقهية:

لقد كان المنهج الأمثل الذي قرّره الرسول الأكرم ﷺ في استنباط الأحكام هو الاعتماد على كتاب الله ثمّ على سنة رسول الله ثمّ الاجتهاد على هذين الأصلين عند عدم النصّ، وقد دلّ على ذلك حديث معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله عاملاً على اليمن، قال: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء»، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله»، قال: فبسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٢).

هذا المنهج الذي أقرّه الرسول الأكرم في حياته سار عليه أصحابه بعد

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٦/١، ١٨، ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، وأحمد في مسند الأنصار، والدارمي في المقدمة.

مماته، فهذا أبو بكر الصديق كان إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنّها النبي ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

وكان عمر يفعل ذلك، فإذا أعياه أن يجد ذلك في الكتاب والسنة سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء؟ فإن كان لأبي بكر قضاء قضى به وإلا جمع علماء الناس واستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رسالته المشهورة في القضاء، فمما جاء فيها: الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايِس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق.

ولما بعث عمر شريحاً على قضاء الكوفة قال له: انظر ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ، وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد فيه رأيك^(١).

وعن عبدالرحمن بن يزيد قال: أكثر الناس يوماً على عبدالله بن مسعود يسألونه، فقال: أيها الناس إنّه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي ولسنا هناك، ثم إن الله بلغنا ما ترون، فمن عرض عليه قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقل إني

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٦٢/١ - ٦٣ - ٨٦/١.

أرى وإني أخاف فإنّ الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك مشتبهات، فدع ما يريك لما لا يريك.

وفي رواية ثانية أنّه قال: فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي.

وعن عبدالله بن أبي يزيد قال: رأيت ابن عباس إذا سئل عن شيء هو في كتاب الله قال به، فإن لم يكن في كتاب الله وقاله رسول الله ﷺ قال به، فإن لم يكن في كتاب الله ولم يقله رسول الله وقاله أبو بكر أو عمر قال به، وإلا اجتهد رأيه^(١).

وهكذا كان أصحاب رسول الله يسيرون وفق منهج أساسه استقرار القرآن العظيم وسنة النبيّ الكريم فإن أعيانهم الدليل من الكتاب والسنة استأنسوا فيما لا نصّ فيه بأراء بعضهم وكانوا يفعلهم ذلك قد كوّنوا نواة الإجماع بمعناه الذي حدّده الأصوليون بعد ذلك، وربما التجؤوا إلى معرفة الأمثال وقاسوا الأشباه بنظائرها وكانوا يفعلهم ذلك قد توسّعوا في استعمال القياس، وقد بلغ التواتر المعنوي عنهم باستعماله.

ولم يكن أعلام الصحابة من الفقهاء والمفتين على درجة واحدة في استعمال الرأي والاجتهاد، وإنّما كان منهم المتوسّع في ذلك الذي يجتهد ويقدم على ذلك كلما دعت الحاجة إليه، وكان منهم المقلّ في استعمال الرأي الذي يرى الخير كلّ الخير في التأخر عن استعماله.

ولكن على الرغم من اختلاف مواقفهم في التوسّع في الاجتهاد أو عدم التوسّع فيه، فإنّهم لم يكونوا يجترئون على الفتوى، وكانوا يتدافعونها ويكرهون التسرّع فيها ويؤدّ كلّ واحد منهم أن يكفيه إيّاها غيره، فإذا رأى أنّها قد تعيّن عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها، يدلّ على ذلك ما روي

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٧٠/٢ - ٧٢، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين

عن ابن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، أراه قال في المسجد، فما كان منهم محدث إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مفت إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا^(١).

نماذج من فتاوى الصحابة واجتهاداتهم في هذه المرحلة:

١ - من اجتهادات أبي بكر:

* روي عن أبي بردة قال: لقيت مروان بن الحكم بالمدينة فقال: يا ابن أبي موسى، ألم أخبر أنّ الجدّ لا ينزل منزلة الأب وأنت لا تنكر، قال: قلت ولو كنت أنت لم تنكر، قال مروان: فأنا أشهد على عثمان بن عفان أنّه شهد على أبي بكر أنّه جعل الجدّ أباً إذا لم يكن دونه أب^(٢).

٢ - من اجتهادات عمر:

* إلغاؤه لسهم المؤلّفة قلوبهم من الزكاة: الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ...﴾^(٣)، ولقد كان اجتهاد عمر في هذا متعلّقاً بتحقيق المناط، فلقد رأى أنّ الإسلام وصل شأنه إلى القمّة في القوّة والمنعة سواء من الناحية المعنويّة المتعلقة بسطوع حجته وبرهانه، أو من الناحية الماديّة المتعلقة بكثرة أهله وسعة انتشاره، فظهر له أنّ مناط حقّ المؤلّفة قلوبهم في الزكاة لم يعد متحقّقاً في عهده لما أصبح عليه الإسلام من منعة وعزّة لا يحتاج معهما إلى أن يخطب ودهم بالمال فالغنى غطاءهم، وفي إلغائه لعطائهم موافقة لنصّ الآية التي ربطت حقّ عطائهم بتألّف المسلمين إياهم خلافاً لما قد يتوهمه البعض من أنّ ذلك منه معارض للآية^(٤).

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٠، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٣٤/١.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب الفرائض.

(٣) سورة التوبة - الآية ٦٠.

(٤) البوطي محمد سعيد رمضان: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلاميّة ص ١٤٣ - ١٤٤.

* عدم قطع يد السارق عام المجاعة: فقد كان ممّا رآه عمر رضي الله عنه أنّ السرقة أثناء مجاعة عامة تتعلّق به شبهة حقّ فيما سرقه، وذلك أنّ المضطرّ يجوز له أن يأخذ من مال غيره ما يسدّ ضرورته ولو من دون إذنه^(١).

وقد روي عن عمر أنّه قال: لا قطع في سنة^(٢)، وثبت أنّ رجلاً جاء إلى عمر في ناقة، فقال له: هل لك في ناقتين عشراوين مرتعتين سميتين بناقتك؟ فإنّا لا نقطع في عام السنة^(٣).

وهذا على نحو قضية عمر في غلمان حاطب، فعن ابن حاطب أنّ غلماً لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر فأقرّوا، فأرسل إلى عبدالرحمن بن حاطب فجاء فقال له: إنّ غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقرّوا على أنفسهم، فقال عمر: يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم، فلما ولى بهم ردّهم عمر ثمّ قال: أمّا والله لولا أنّي أعلم أنّكم تستعملونهم وتجيعونهم حتّى إنّ أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه حلّ له لقطعت أيديهم، وأيم الله إذ لم أفعل لأغرّمك غرامة توجعك، ثمّ قال: يا مزني بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة، قال عمر: اذهب فاعطه ثمانمائة^(٤).

* قتل الجماعة بالواحد: فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ غلاماً قتل غيلة، فقال عمر: لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم، وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: إنّ أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله^(٥).

وعن سعيد بن المسيّب أنّ عمر بن الخطاب قتل نفرا خمسة أو سبعة

(١) المرجع السابق ص ١٤٦.

(٢) ابن رشد: البيان والتحصيل ٣٢٤/١٦.

(٣) ابن حزم: المحلّى ٣٤٣/٨، المسألة ٢٢٧٧.

(٤) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١/٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديّات.

برجل واحد قتلوه غيلة، فقال عمر: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً^(١).

* إمضاء الطلاق ثلاثاً بكلمة واحدة: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة - أي مهلة - فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم^(٢).

- ٣ - من اجتهادات عثمان:

* أمره بإخراج زكاة الدين: فعن السائب بن يزيد أن عثمان بن عفان كان يقول: هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليؤدّ دينه حتى تحصل أموالكم، فتؤدّون منه الزكاة^(٣).

* توريث المبتوتة في مرض الموت: فعن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف أن عبدالرحمن بن عوف طلق امرأته البتة وهو مريض، فوزّتها عثمان بن عفان منه بعد انقضاء عدتها^(٤).

* قضاؤه في الضوال: فعن ابن شهاب الزهري أنه كان يقول: كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلا مؤبلة تناتج، لا يمسها أحد حتى إذا كان زمان عثمان بن عفان أمر بتعريفها ثم تباع، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها^(٥).

- ٤ - من اجتهادات علي:

* أقلّ الحمل ستة أشهر: فقد ورد عن الإمام مالك بلاغا أن

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، باب الزكاة في الدين.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطلاق، باب طلاق المريض.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأفضية، باب القضاء في الضوال.

عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت في ستة أشهر فأمر بها أن ترجم، فقال علي بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١)، وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾^(٢) فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها^(٣).

* حدّ شارب الخمر: فعن عكرمة أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال علي بن أبي طالب: نرى أن تجلده ثمانين فإنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افتري^(٤) فجعله عمر حدّ الفرية ثمانين، ووافق عليه الصحابة.

* ومن ذلك أنّ عمر بن الخطاب أرسل في طلب امرأة فأجهضت بفزعها، فاستشار الصحابة، فقال له عثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف: إنما أنت مؤدّب ولا شيء عليك، وأما علي بن أبي طالب فقال له: أما المأثم فأرجو أن يكون منحطاً عنك وأرى عليك الدية، فاستحسن عمر اجتهاد علي وقال له: عزمت عليك أن لا تبرح حتى تضربها على بني عدي، يعني قومه^(٥).

هؤلاء الخلفاء الأربعة هم أعظم المجتهدين وأكمل المفتين في هذه المرحلة، وهم أعلم الأمة بأحوال النبي وأفقههم في تصرفاته، فهم أسبق الناس إسلاماً وأعرف القوم بسنته، وهم الذين فتحوا للعلماء باب الاجتهاد ونهجوا لهم طريقه وبيّنوا لهم سبيله.

غير أنّ قلة المسائل التي اجتهد فيها أبو بكر إنما كان بسبب تقدّم

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأشربة، باب الحدّ في الخمر.

(٥) الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٥٥/٤، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين

وفاته وبقاء الحياة في عهده على بساطتها وعدم تشعبها وقلة طروء النوازل التي هي منشأ الاجتهاد، ثم إن أغلب الصحابة الذين حفظوا الدين والسنن وشهدوا الوحي والتنزيل ما زالوا على قيد الحياة وقد كفوه كلفة الاشتغال بالناس وإفنائهم وإقرائهم.

وكان غيرهم من الصحابة كذلك يستفتون فيفتون ويسألون فيجتهدون في هذه المرحلة، فكانوا ربّما اتفقوا جميعا في الحكم ولو بعد اختلاف في وجهات النظر فيعدّ ذلك إجماعا منهم، وربّما اختلفوا فيسلمون لولي الأمر فيهم برفع الخلاف وأتباع ما اختاره من حكم، أو ربّما اختلفوا فعمل كلّ منهم بما أذاه إليه اجتهاده في المسألة، وكان بعضهم ربّما اجتهد في المسألة حيث لم يبلغه فيها الحديث، فيقضى فيها أو يفتي بغير السنّة، ثم يتراجع عمّا قال عندما يبلغه الحديث، فهذه أنواع أربعة نبرز حقيقتها بأمثلة توضّحها:

- النوع الأوّل: ما اجتهد فيه الصحابة واتفقت عليه كلمتهم ولو بعد اختلاف: وذلك مثل:

* إجماع الصحابة على تقديم أبي بكر الصديق في الخلافة بعد اختلاف في ذلك بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة.

* إجماع الصحابة على كتابة المصحف وجمع القرآن في عهد أبي بكر بعد توقّف منه ومن زيد بن ثابت في فعل ما لم يفعله الرسول ﷺ.

* إجماع الصحابة على موافقة عثمان في جمع الناس على مصحف واحد وترتيب واحد وحرف واحد بعد نفور أبداه عبدالله بن مسعود حين قال: على قراءة من تأمروني أن أقرأ، فلقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنني أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أنّ أحدا أعلم مني لرحلت إليه^(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

وقوله: يا أهل العراق اكنموا المصاحف التي عندكم وغلّوها فإن الله يقول ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) فآلقوا الله بالمصاحف، قال ابن شهاب الزهري: فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبي ﷺ^(٢).

ثم استجاب رضي الله عنه بعد ذلك لما اتفق عليه الصحابة فحرّق الجميع مصاحفهم وصحفهم التي كانت بين أيديهم وبذلك أصبح المعول عليه دون غيره من المصاحف مصحف عثمان الذي عرف بمصحف الإمام.

* إجماع الصحابة على إلحاق الحدّ في الخمر بحدّ القذف بعد اجتهاد اجتهاده عليّ بن أبي طالب وأقرّه عليه الصحابة.

* إجماع الصحابة على توريث الجدّ وإن اختلفوا في تعيين مصيره ونسبته المستحقّة ميراثاً في بعض الحالات، وعلى توريث ابن الابن والأعمام وبنوهم.

- النوع الثاني: ما اجتهد فيه الصحابة واختلفوا ثم رفع أمر الإمام الخلاف: وذلك مثل:

* رأيهم في المرأة المخيّرة: فقد ورد عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: سألتني أمير المؤمنين عمر عن الخيار، فقلت: إن اختارت زوجها فهي واحدة وهو أحقّ بها، وإن اختارت نفسها فهي واحدة بائنة، فقال: ليس كذلك، إن اختارت نفسها فهي واحدة وهو أحقّ بها، وإن اختارت زوجها فلا شيء، قال عليّ: فاتّبعتني على ذلك، فلما خلص الأمر إليّ وعلمت أنّي أسأل عن الفروج عدت إلى ما كنت أرى، فقال زاذان: لأمر جامعته عليه أمير المؤمنين وتركت رأيك له أحبّ إلينا من أمر انفردت به، فضحك

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن.

وقال: أما إنه قد أرسل إلى زيد بن ثابت وخالفني وإياه، وقال: إن اختارت زوجها فهي واحدة، وزوجها أحقّ بها، وإن اختارت نفسها فهي ثلاث^(١).

* تسوية الصديق بين الناس في العطاء واختيار عمر المفاضلة في ذلك: فقد رأى أبو بكر أن يسوي في العطاء، رافضاً أن يكون عطاؤهم هذا ثمناً لما يقومون به من أعمال هي لله خالصة، في حين كان عمر لا يرى رأيه بل يختار المفاضلة بين الناس، لذلك لما وليّ الخلافة فاضل بين المسلمين في الأعطية وكان يحلف على أيمان ثلاث ويقول: والله ما أحد أحقّ بهذا المال من أحد وما أنا بأحقّ به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً، ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل ويلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتينّ الراعي بحبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو يرعى مكانه^(٢).

* اختلافهم في قسمة الأرض المفتوحة: لما اتسعت الفتوحات في زمن عمر سأل بعض الصحابة أن يقسم بينهم ما أفاء الله عليهم من العراق والشام كما كان يفعل أبو بكر حيث كان يقسم بينهم أيام خلافته الأراضي المفتوحة ومضى العمل على ذلك في عهده، فلما وليّ عمر أبي عليهم ذلك ورأى أن تكون وقفاً يصرف خراجها في مصالح المسلمين، وقال لهم: قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغنّ الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه^(٣).

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٢١٦/١.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٤.

وقال: لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها - أي الفاتحين - كما قسم النبي خيبر^(١).

وعلى رأي عمر سار الخليفتان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب من بعده، ورغم معارضة عبدالرحمن بن عوف وعمار بن ياسر والزيبر بن العوام وبلال بن رباح الذي كان أشد الناس معارضة لهذا الاجتهاد، حيث رأوا أن تخمس الأرض كما قسم الرسول أرض خيبر، غير أن أمر الإمام قد رفع الخلاف في المسألة ولزم الناس ما ألزمهم إياه.

* حكم من منع الزكاة ولم يجحد وجوبها: ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن حكمه حكم المرتد وبذلك حكم في مانعي الزكاة من العرب، فقاتلهم وسبى ذريتهم، ولما ولي عمر الخلافة من بعده نقض حكم أبي بكر في هذه المسألة فأطلق من كان استرق منهم^(٢)، ورد ما سبى من نساء المرتدين إلى أهليهن حرائر إلا من ولدت لسيدها منهن، ومن جملتهن كانت خولة بنت جعفر الحنفيّة أم محمد بن الحنفيّة ولد الإمام علي رضي الله عنه.

- النوع الثالث: اختلافهم في المسألة وعمل كل منهم بما آذاه إليه اجتهاده:

وهذا النوع من الاختلاف - كما بين الإمام الشاطبي - يظهر فيه وجه الموااة والتحابب والتعاطف بين المختلفين في مسائل الاجتهاد، حيث لم يؤد بهم الاختلاف إلى أن يصيروا شيعاً ولا تفرقوا فرقاً لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، وحال اختلافهم كحال اختلاف المتعبدين لله بالعبادات المختلفة، فرجل تقرّبه الصلاة، وآخر يقربه الصيام، وآخر تقرّبه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة وفرض الخمس عن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٢) ابن رشد: بداية المجتهد ٢٥٠/١، وراجع في ذلك مناظرة أبي بكر وعمر في شأن قتال مانعي الزكاة: نيل الأوطار للشوكاني ١٧٥/٤ - ١٧٩.

الصدقة، إلى غير ذلك من العبادات، فهم متفقون في أصل التوجه لله المعبود وإن اختلفوا في أصناف التوجه، فكذلك المجتهدون لما كان قصدهم إصابة مقصد الشارع صارت كلمتهم واحدة وقولهم واحداً والأقوال ليست مقصودة لأنفسها بل ليتعرف منها المقصد المتحد^(١).

ومن أمثلة ما وقع بين الصحابة من أنواع هذا الاختلاف:

* التكبير في صلاة العيدين: فقد ذهب المغيرة بن شعبه وأنس بن مالك وعبدالله بن عباس إلى أنّ التكبير في صلاة العيد يكون تسعاً في كلّ ركعة، وروي عن عبدالله بن عمر وأبي هريرة أنّ التكبير في الأولى سبع مع تكبيرة الإحرام قبل القراءة، وفي الثانية ستّ مع تكبيرة القيام من السجود، وروي عن عبدالله بن مسعود أنّه كان يكبر في الأولى ثلاثاً بعد تكبيرة الإحرام، وفي الثانية ثلاث تكبيرات بعد القراءة^(٢).

* التنقل قبل صلاة العيد وبعدها: ذهب عبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبدالله إلى أنّه لا يتنقل لا قبلها ولا بعدها، في حين ذهب أنس بن مالك وعروة بن الزبير إلى أنّه يتنقل قبلها وبعدها، ولعبدالله ابن مسعود قول آخر: وهو أن يتنقل بعدها ولا يتنقل قبلها^(٣).

* حكم الاعتمار: اختلف الصحابة في حكم العمرة، فروي عن عليّ بن أبي طالب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس إلى أنّها واجبة كالْحجّ، في حين روي عن عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله إلى أنّها ستّة وتطوّع^(٤).

* تخمير المحرم وجهه: بعد إجماع الصحابة على أنّ المحرم لا يخمّر رأسه اختلفوا في تخمير الوجه، فروي عن عبدالله بن عمر أنّ ما

(١) الشاطبي: الموافقات ٢٢١/٤ - ٢٢٢.

(٢) ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢١٧/١ - ٢١٨.

(٣) المصدر السابق ٢٢٠/١.

(٤) ابن رشد: بداية المجتهد ٣٢٢/١ - ٣٢٣.

فوق الذقن من الرأس لا يخمره المحرم، وروي عن زيد بن ثابت وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وسعد بن أبي وقاص أنّ للمحرم أنّ يخمر وجهه إلى الحاجبين^(١).

* وقت وقوع الطلاق في الإيلاء: ذهب عليّ بن أبي طالب وعبدالله بن عمر إلى أنّه إذا آل الرجل من زوجته ومضت أربعة أشهر فإنّه يوقف بعد انقضاء الأربعة أشهر، فإما أن يفيء أو يطلق، وذهب عبدالله بن مسعود إلى أنّ الطلاق يقع بانقضاء الأربعة أشهر إلاّ أن يفيء فيها^(٢).

* أكل ذوات الحافر الإنسيّ: وهي الخيل والبغال والحمير، وقد ورد عن جمهور الصحابة تحريمها وخالف في ذلك عبدالله بن عباس وعائشة أمّ المؤمنين فكانا يبيحانها^(٣).

هذا، ولقد استدركت عائشة رضي الله عنها في كثير من المسائل على أعلام الصحابة حتّى إنّ الإمام الزركشي قد صتّف في ذلك مؤلفاً سمّاه الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ضمّنه ما تفرّدت به الصديقة رضي الله عنها أو خالفت فيه سواها برأي منها أو كان فيه سنّة بيّنة أو زيادة علم متقنة أو أنكرت فيه على علماء زمانها أو رجع فيه إليها أجلّة من أعيان أوانها أو حرّرت من فتوى أو اجتهدت فيه من رأي رآته أقوى^(٤).

- النوع الرابع: الاجتهاد بما يخالف النصّ، ثمّ الرجوع عن ذلك الاجتهاد وتركه لحديث بلغه:

ومن أمثلة ذلك:

* أنّ عمر بن الخطاب قضى بأنّ الدية للعاقلة ولم يورث المرأة من دية زوجها شيئاً، حتّى أخبره الضحّاك بن سفيان أنّ رسول الله ﷺ كتب

(١) المصدر السابق ٣٢٧/١ - ٣٢٨.

(٢) نفس المصدر ١٠٠/٢.

(٣) نفس المصدر ٤٦٩/١.

(٤) الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٢٧.

إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها فرجع إليه عمر^(١).

* وعن سعيد بن المسيّب أنّ عمر بن الخطاب قضى في الإبهام بخمس عشرة من الإبل، وفي التي تليها بعشر، وفي الوسطى بعشر، وفي التي تلي الخنصر بتسع، وفي الخنصر بست^(٢) فكان قضاؤه رضي الله عنه في دية الأصابع أنّها مختلفة بحسب منافعها^(٣) حتى بلغه كتاباً كان عند عمرو بن حزم يذكر أنّه من رسول الله وفيه أنّ رسول الله قال: وفي كلّ إصبع ممّا هنالك عشر من الإبل^(٤).

* وكذلك لم يكن عند عثمان بن عفّان علم بأنّ المتوفى عنها زوجها تعتدّ في بيت الموت حتى حدّثته الفريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري بقصتها لما توفي زوجها وأنّ النبي ﷺ قال لها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، وأنّها اعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً فاتّبعه وقضى به^(٥).

* وكان أبو هريرة يرى أنّ من أصبح جنباً فلا صوم له، حتى بلغه حديث الرسول فرجع عن رأيه، فقد روي عن أبي بكر بن عبدالرحمن قال: سمعت أبا هريرة يقصّ ويقول في قصصه: من أدركه الفجر جنباً فلا يصم، قال: فذكرت ذلك لعبدالرحمن بن الحارث فذكره لأبيه فأنكر ذلك، فانطلق عبدالرحمن وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأمّ سلمة، فسألها عبد الرحمن عن ذلك فقال: فكلمناها، فقالت: كان النبي ﷺ يصبح جنباً من غير طهر ثمّ يصوم، فانطلقنا حتى دخلنا على مروان فذكر

(١) الشافعي: الرسالة ص ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٢.

(٣) ابن تيمية: رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ١٣.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، والنسائي في سننه، كتاب القسامة، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة بزيادة لفظ: والأصابع سواء، والدارمي في كتاب اللديات بزيادة لفظ: في كلّ إصبع من أصابع اليد.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ، وأصحاب السنن الأربعة والدارمي في كتاب الطلاق عن زينب بنت كعب.

ذلك له عبدالرحمن فقال مروان: عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول، قال: فجننا أبا هريرة وأبو بكر حاضر ذلك كله، فذكر له عبدالرحمن، فقال أبو هريرة: أهما قالتاه لك؟ قال: نعم، قال: هما أعلم، ثم رد أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفضل بن عباس، قال أبو هريرة: سمعت ذلك من الفضل ولم أسمع من النبي ﷺ، قال: فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك^(١).

* وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يرى بأن لا تصدر^(٢) المرأة قبل طواف الوداع لما سمعه من النهي أن يصدر أحد من الحاج حتى يكون آخر عهده بالبيت، وكانت الحائض عند زيد من الحاج الذين يشملهم النهي، فلما أفتاها ابن عباس بالصدر إذا كانت قد زارت بعد النحر، أنكر عليه زيد وقال له: تفتي أن تصدر الحائض قبل أن يكون آخر عهدها بالبيت؟ فقال له ابن عباس إنا لا، فسل فلانة الأنصارية - قيل هي أم سليم بنت ملحان - هل أمرها بذلك رسول الله ﷺ؟ فسألها زيد فأخبرته فصَدَّق زيد المرأة ورأى عليه حقًا أن يرجع عن خلاف ابن عباس، فرجع زيد بن ثابت إلى ابن عباس يضحك ويقول: ما أراك إلا قد صدقت^(٣).

* وعن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن بنت وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، واثت ابن مسعود فسيتابعني، فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أفضي فيها بما قضى رسول الله ﷺ، للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فلأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم^(٤).

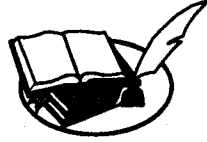
(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام.

(٢) الصدر هو رجوع المسافر من مقصده.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، والإمام الشافعي في الرسالة ص ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض.

فهذه وغيرها من الأمثلة الكثيرة جدًا الموجودة في كتب السنة تؤكد بوضوح موقف أصحاب الرسول من الاجتهاد، وكيف أنهم لم يترددوا في است فراغ الوسع وبذل الجهد وإعمال الرأي وهم أتقى الأمة وأفضلها، وذلك كلما وضعتهم الظروف أمام نوازل ووقائع تطلبت منهم استنباط الأحكام المناسبة لتلك الوقائع.



المرحلة الثانية:

عصر صفار الصحابة وكبار التابعين

نُوزع الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة حتى جرّد السيف فما صفت له وقتل بسيف الغدر، فلما استشهد بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ وريحانته، فأقام فيهم ستّة أشهر، ثمّ بعث إليه معاوية بن أبي سفيان يبذل له تسليم الأمر إليه، فأجابه إلى ما طلب ونزل له عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين، واصطلحا على ذلك سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الأوّل، فظهرت به المعجزة النبويّة، فقد روى أبو بكره قال: قال رسول الله ﷺ للحسن بن عليّ: «إنّ ابني هذا سيد وإني أرجو أن يصلح الله به بين فئتين من أمّتي»، وفي رواية: «ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»^(١).

وارتحل الحسن بن علي عن الكوفة إلى المدينة فأقام بها حتى توفي بفعل سمّ دسّ له.

وكان معاوية يعلم أنّ دولته لم يرض عنها كثير من المؤمنين، فحين قدم المدينة جلس في حلقة فيها ابن عمر وابن عباس وعبدالرحمن بن أبي بكر فأعرض عنه ابن عباس فقال معاوية: أنا أحقّ بهذا الأمر من هذا المعرض وابن عمّه - أي عليّ بن أبي طالب - فقال ابن عباس: ولمّ؟ ألتقدم في الإسلام؟ أم سابقة مع رسول الله أو قرابة منه؟ قال معاوية:

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة.

ولكثي ابن عمّ المقتول، قال: فهذا ابن أبي بكر أحقّ به، قال: إنّ أباه مات موتاً - أي طبيعياً - قال: فهذا أحقّ ابن عمر به، قال: إنّ أباه قتله كافر، قال: فذاك أدحض لحجّتك أن كان المسلمون عتّبوا على ابن عمّك فقتلوه.

وحين كتب معاوية إلى الأمصار في أخذ البيعة وولاية العهد لابنه يزيد، وقرأ مروان بن الحكم - عامل معاوية على المدينة - كتاب معاوية فقال: إنّ الله قد أرى أمير المؤمنين في ولده يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر فقام عبدالرحمن بن أبي بكر وقال: ستّة هرقل وقيصر، إنّ أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته.

فلما مات معاوية بايع أهل الشام يزيد ثمّ بعث إلى أهل المدينة من يأخذ له البيعة فأبى الحسين بن عليّ وعبدالله بن الزبير أن يبايعاه وخرجا من ليلتهما إلى مكّة.

وكان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين بن عليّ يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية وهو يابى، فلما بويغ يزيد جدّد أهل العراق إلى الحسين الرُّسل والكتب يدعونه إليهم، فأقام على ما هو مهموماً يجمع الإقامة مرّة ويريد المسير إليهم أخرى، فأشار عليه عبدالله بن الزبير بالخروج، في حين أشار عليه ابن عمر وابن عباس وجابر بن عبدالله وأبو سعيد الخدري وجمع من الصحابة بالمكوث في المدينة، ولكنّه اختار المسير إلى العراق، فخرج من مكّة ومعه طائفة من آل بيته، وكتب يزيد إلى واليه بالعراق بقتاله فوجّه إليه جيشاً قوامه أربعة آلاف، فإذا بأهل الكوفة يخذلونه كما خذلوا أباه من قبله، فقُتل في كربلاء، وفي كيفية قتله شناعة فظيعة لا يحتمل قلب المؤمن وصفها.

ولما قُتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه أظهر أهل الكوفة التحسّر والندم وطالبوا بدمه وهم أولى من يطالب به، وبعث ابن عبیدالله بن زياد عامل العراق برأس الحسين وبني أبيه إلى يزيد.

واعتصم عبدالله بن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة واستمر على ذلك إلى أن تغلب عليه عبدالملك بن مروان حيث جهّز لقتاله الحجاج بن يوسف الثقفي في أربعين ألفاً، فلما حوصرت مكة ورميت بالمنجنيق، خذله ابن الزبير أصحابه حتى ظفر به الحجاج فقتله وصلبه.

ومقت المسلمون جرّاء هذه الأحداث حكم بني أمية رغم ما كان لدولتهم من فضل في توسيع رقعة بلاد الإسلام وفتحهم فتوحات عظيمة.

ومما زاد في بغض الناس لهم ما اشتهر به بعض خلفائهم من أمثال يزيد بن معاوية (٦٤هـ) من شرب للخمر وإتيان للمنكرات وترك للصلاة وإسراف في المعاصي حتى قال بعضهم ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء.

وما اشتهر به الوليد بن يزيد بن عبدالملك (١٢٦هـ) من ظلم واستبداد وفسق وانتهاك للحرمات واستخفاف بأمر الله.

وفضلاً عن ذلك فإن بعض عمّالهم من أمثال الحجاج بن يوسف وغيره كانوا يعمدون إلى الاستخفاف بمن بقي من الصحابة وإذلالهم، فكان الحجاج يهينهم ضرباً وشتماً وحبساً وروي أنّه ختم في أعناق الصحابة وأيديهم كأنس بن مالك وجابر بن عبدالله وسهل بن سعد الساعدي وغيرهم، وقتل الكثير من كبار التابعين حتى قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: كان الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن جبارة بالحجاز وقرّة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جوراً^(١).

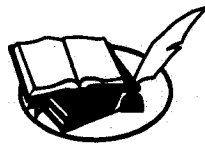
هذه الأحداث وغيرها كان لها بلا ريب الأثر الخطير على الأمة الإسلامية التي تفرقت إلى أحزاب وشيع كلّ منها يرى أنّ الحقّ إلى جانبه، كما كان لها الأثر العميق على سير الفقه، ولا شك أنّ الاستبداد يمحو الاجتهاد، ذلك أنّ الاستبداد والاجتهاد ضدّان لا يجتمعان.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٣، ٢٠٦ - ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٠.

ولنا في ذلك حادثان:

الأولى: وقعت في زمن معاوية بن أبي سفيان: فقد روى أسيد بن حضير الأنصاري أنه كان عاملاً على اليمامة وأن مروان كتب إليه أن معاوية كتب إليه أن أيما رجل سرق منه سرقة فهو أحقّ بها حيث وجدها، ثم كتب بذلك مروان إليّ، قال: فكتبت إلى مروان أن النبي ﷺ قضى بأنه إذا كان الذي ابتاعها من الذي سرقها غير متهم يخيّر سيدها، فإن شاء أخذ الذي سرق منه بثمانها، وإن شاء أتبع سارقه، ثم قضى بذلك أبو بكر وعمر وعثمان، فبعث مروان بكتابي إلى معاوية فكتب معاوية إلى مروان: إنك لست أنت ولا أسيد تقضيان عليّ ولكني أقضي فيما وليت عليكما، فأنفذ لما أمرتك به، فبعث مروان بكتاب معاوية، فقلت: لا أقضي به ما وليت بما قال معاوية^(١).

الثانية: وقعت في زمن عبدالملك بن مروان: فقد روي عن ابن جريج عن أبيه قال: خطبنا عبدالملك بن مروان بالمدينة بعد قتل الزبير عام حجّ سنة خمس وسبعين فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد فلست بالخليفة المستضعف ولا الخليفة المدهان ولا الخليفة المأفون، ألا وإنّ من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، تكفلونا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم؟ فلن تزدادوا إلاّ عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه، ثم نزل^(٢).



(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيوع، باب الرجل يبيع السلعة فيستحقها مستحقاً.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢١٨ - ٢١٩.

مصادر الفقه في هذه المرحلة

١ - القرآن الكريم:

نسخت المصاحف العثمانية في عهد الخليفة الراشدي الثالث خالية من الشكل والنقط^(١) ذلك أنّ سلامة لغتهم وصفاء سليقتهم كان يغنيهم عن شكل الحروف وإعجامها.

وظلّ الناس يقرؤون القرآن على الرسم العثماني دون ما حاجة منهم إلى الشكل والإعجام ما يقرب من أربعين سنة.

وفي خلافة عبدالملك بن مروان بدأ اللبس والإشكال يدخل على المسلمين في قراءة المصاحف من جرّاء فساد لسانهم، حتّى يروى أنّ الوليد بن عبدالملك كان لحنًا فقال على منبر المسجد النبوي: يا أهل المدينة - برفع المنادى -، وقرأ مرّة قوله تعالى: ﴿يَالَيْتَهَا﴾ - بضمّ التاء - ﴿كَانَتْ أَلْقَاضِيَةً﴾ وتحت المنبر عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن عبدالملك، فقال سليمان: وددتها والله^(٢).

(١) ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنّ الإعجام كان معروفًا قبل الإسلام، وأنّ الصحابة لم يثبتوه في المصاحف حتّى يبقى احتمال قراءة الكلمة بوجه القراءات الموجودة فيها، ومنهم من ذهب إلى أنّ الإعجام لم يعرفه العرب إلّا في خلافة عبدالملك بن مروان.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣.

واختلف العلماء في أول من نَقَطَ القرآن على هذا العهد، وتردّت في هذا الموضوع روايتان:

* الرواية الأولى: تؤكّد أنّ أول من نَقَطَ المصحف هو قاضي البصرة أبو الأسود الدؤلي، فقد روي أنّ زيادا والي البصرة لعهد عبدالمك بن مروان بعث إلى أبي الأسود الدؤلي أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً يُعرف به كتاب الله عزّ وجلّ، فاستعفاه أبو الأسود من ذلك حتّى سمع قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(١) بجزّ اللّام من كلمة «رسوله» فقال أبو الأسود: ما ظننت أنّ أمر الناس يؤول إلى هذا، فرجع إليّ زياد فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليغني كاتبنا لقلنا يفعل ما أقول، فأتي به، فقال أبو الأسود إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحروف فانقط نقطة فوقه، وإن ضمنت فمي فانقط بين يدي الحروف، وإن كسرت فاجعل النقط من تحت، ففعل ذلك^(٢).

ويميل البعض إلى أنّ أبا الأسود الدؤلي إنّما نَقَطَ القرآن بأمر عبدالمك بن مروان^(٣)، ولا تضارب في ذلك إذ من الممكن أن يكون عبدالمك قد أرسل بأمره إلى واليه على البصرة زياد، فقام هذا الوالي بتنفيذ أمر الخليفة واختار أبا الأسود الدؤلي للقيام بهذه المهمّة وتابع الأمر بنفسه.

* الرواية الثانية: تؤكّد أنّ هذه المهمّة الجليلة تحمّل أعباءها التابعيان الجليلان: يحيى بن يعمر العدواني ونصر بن عاصم الليثي، وذلك أنّ عبدالمك بن مروان كلّف واليه الحجّاج بن يوسف أن يُعنى بهذا الأمر، فندب له يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم فأعجما المصحف لأول مرّة^(٤).

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٢) اليافعي: مرآة الجنان ص ٢٣٣.

(٣) السيوطي: الإتيقان ١٧١/٢.

(٤) الزرقاني: مناهل العرفان ٤٠٦/١.

وقيل إنَّ محمد بن سيرين كان له مصحف منقوط نقطه له يحيى بن يعمر، وورد أيضاً أنَّ نصر بن عاصم أوَّل من نَقَط المصاحف، وكان يقال له نصر الحروف^(١).

ولا تعارض بين القولين الأخيرين والرواية الثانية، فلا مانع من اعتبار أنَّ كلاَّ منهما هو أوَّل من نَقَط المصحف باعتبار أنَّ الحجاج قد ندبهما معاً للقيام بهذه المهمة.

ويمكن كذلك الجمع بين الروايتين الأولى والثانية، بأنَّ أبا الأسود الدؤلي هو أوَّل من جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفل الحرف، فجعل الشكل بالنقط، ثم استبدل بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر طريقة الشكل بالنقط، إلى طريقة الضبط بالحركات فاتَّخذا رسوماً وأشكالاً جديدة هي الفتحة والضمة والكسرة المتعارف عليها إلى اليوم بين أهل اللغة، ويبدو أنَّ الذي دعاها إلى هذا التغيير بل واضطرَّهما إليه أنه لو أُبقي الشكل بالنقط، ثم الإعجام بالنقط كذلك، لحصل الخلط واشتبه الأمر على قارئ القرآن، فلذلك فصلا بين الإعجام الذي هو بالنقط، وبين الشكل الذي هو بالحركات.

- ٢ - السنة النبوية:

إنَّ الإحاطة بجميع أحاديث الرسول ﷺ لم تكن لأحد من الأمة، ولا يمكن ادِّعاؤه لواحد قطَّ ولو كان من الصحابة الذين هم أعلم الأمة بأحوال رسول الله وسنته، ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل الشيء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً وبيِّلغته أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من شاء من

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/٢٥٠ - ٢٥١.

العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئاً ويشهده بعض من كان غائباً عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء، وإنما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم كثرة العلم أو جودته^(١).

وفي هذه المرحلة من هذا الدور حيث الكثرة الكائرة من أعلام التابعين تركزت الأنظار بعناية أكبر حول القلة من صغار الصحابة الذين تصدروا هذه المرحلة، فاجتهد الناس للرحلة في طلب الحديث منهم والتفقه عليهم والأخذ عنهم.

فعن كثير بن قيس قال: كنت جالساً عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة؟ قال لا، قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإني سمعت رسول الله يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٢).

وكان سعيد بن المسيّب يقول: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد، ويروى أنّ مسروقاً رحل في حرف، وقد كان كثير

(١) ابن تيمية: رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ١١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل العلم والحث على طلبه.

الترحال في طلب الحديث حتى قال الشعبي: ما علمت أنّ أحداً من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق.

وعن بسر بن عبيدالله الحضرمي قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه.

وكان الشعبي يقول: لو أنّ رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ما رأيت أنّ سفره ضاع^(١).

ولم تكن الرحلة في طلب الحديث مقتصرة على التابعين للنهل من معارف من بقي من الصحابة، بل إنّنا لنجد في هذه المرحلة أنّ بعض الصحابة كانوا يتحمّلون أعباء السفر للتثبت من حديث أو سماعه ممن انفرد بروايته.

فقد روى الصحابي الجليل جابر بن عبدالله (هـ٧٤) قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فابتعت بغيراً فشددت عليه رحلي ثمّ سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام فإذا عبدالله بن أنيس الأنصاري (هـ٥٤)، فأتيت منزله وأرسلت إليه أنّ جابراً على الباب فرجع إليّ الرسول فقال: جابر بن عبدالله؟ فقلت: نعم، فخرج إليّ فاعتنقته واعتنقني، قال: قلت حديث بلغني عنك أنّك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه أنا منه، قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: «يحشر الله تبارك وتعالى العباد أو قال الناس - شك الراوي - وأوماً بيده حفاة عراة غرلاً بهما قال: قلنا ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب: أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، قال: قلنا له كيف؟ وإنّما تأتي الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلاً، قال: بالحسنات والسيئات»^(٢).

(١) ابن عبدالبزّ: جامع بيان العلم وفضله ١١٣/١ - ١١٤.

(٢) ابن عبدالبزّ: جامع بيان العلم وفضله ١١١/١ - ١١٢.

وثبت أنّ الصحابي الجليل أبا أيوب الأنصاري (هـ ٥٠) رحل إلى عقبة بن عامر، فلما قدم مصر أخبروا عقبة، فخرج إليه، قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمناً على خزية ستر الله عليه يوم القيامة»، قال: فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حلّ رحله^(١).

وعلى هذا النهج كان أصحاب رسول الله وكثير من التابعين يرحلون في طلب الحديث الواحد الأيام العديدة، حتى أصبح طلب الحديث والرحلة في سماعه غاية العلماء ومقصد الطلاب، فكان لتلك الرحلات عظيم الأثر في انتشار السنّة ومعرفة أسباب ورودها والمحافظة عليها وجمعها.

ومضت الأيام والسنون وكلّ رواة السنّة إمّا صحابي ثقة، عدل، أو تابعي كبير يتحرى الصدق ويثبت في قبول الرواية، وقد يقع لبعضهم أحياناً عن غير عمد منهم خطأ أو نسيان، فينقدون في بعض ما رووا، ثم ظهر في أوائل المائة الثانية من الرواة من يروي المرسل والمنقطع، ومن كثر خطؤه ومن كان منهم قليل الضبط رغم عدالته.

وإذا كانت المرحلة الأولى من هذا الدور مرحلة تعايش صغار الصحابة وكبار التابعين مع كبار الصحابة وأعلامهم حيث كان الكبار يتولّون التحديث، والصغار منهم والتابعون يتحمّلون عنهم ويتلقّون ما يسمعون منهم دون ورود احتمال الكذب، فإنّ هذه المرحلة التي هي مرحلة تعايش صغار الصحابة وكبار التابعين قد تكدر فيها صفو الحياة الاجتماعية والسياسية بفعل الآثار التي خلفتها الفتنة الكبرى وما أعقبها من تفرّق الأمة إلى أحزاب وشيع، فاستغلّ الزنادقة وأصحاب الأهواء ومن غلب عليه الجهل أو التعصّب لحزب ما، هذه الظروف الجديدة وبدأوا يضعون

(١) النووي: مقدمة شرح صحيح مسلم ص ٨٠ - ٩٢.

الأحاديث ويختلقون الأقوال وينسبوننها إلى الرسول بهتاناً وزوراً لخدمة أغراضهم المختلفة.

غير أنه سرعان ما كان أمرهم يفتضح لوجود بقية باقية من الصحابة وكبار التابعين الذين كانوا يعرفون المتزيدين الذين يدسون الأحاديث أو يغيرونها كما كانوا يعرفون من اشتهر من العدول الأمانة.

فعن طاوس قال: جاء بشير بن كعب إلى ابن عباس فجعل يحدثه، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له ثم حدثه، فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال له: ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا، أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا، فقال له ابن عباس: إننا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: كنا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله ﷺ، فأما إذ ركبتم كلَّ صعب وذلول فهيهات.

وعن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع، فقال ابن عباس: إننا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ: «ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بأذاننا»، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف^(١).

ولما قيل لعبدالله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعية، قال: يعيش لها الجهابذة^(٢).

وهكذا بعد أن كانت مهمة العلماء من الأمة مركزة على الاهتمام

(١) القاري: شرح نخبة الفكر لابن حجر ص ١٢٧.

(٢) القاري: شرح نخبة الفكر ٨٢ - ٨٤ - ٨٧ - ٨٨.

بالنظر في متن الحديث واستنباط ما أمكن استنباطه من أحكام، أصبحت مهمتهم تتطلّب قبل استخراج الحكم، العناية بسند الحديث والعودة به إلى مصدره الأصلي الذي أخذ عنه، أي النظر في الإسناد، وتتبع الرواة وتاريخ حياتهم وكشف النقاب عن سيرهم وأحوالهم لمعرفة الثقة العدل الضابط من غيره.

فأما في شأن إسناد الحديث: فقد روي عن محمد بن سيرين - من أعلام التابعين - أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة، قالوا سمّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وكان عبدالله بن المبارك يقول: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، وكان يقول: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد.

وهكذا بدأ في هذه المرحلة أعلام الحديث كالحسن البصري وطاوس بن كيسان اليماني وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي وغيرهم من أعلام التابعين يتكلمون في الأسانيد.

وأما في خصوص نقد الرواة فقد اعتنى أعلام هذه المرحلة بتتبع تاريخ الرواة وأحوالهم، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، ولا منعهم مانع من بذل ما في وسعهم للتنقيب في أغوار سيرهم وتجريح الراوي إذا كان فيه ما يدعو إلى تجريحه سواء من حيث عدالته أو من حيث ضبطه.

فقد أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء عليّ رضي الله عنه فمحاها إلا قدر، وفي رواية: فجعل يكتب منه أشياء ويمرّ به الشيء فيقول: والله ما قضى بهذا عليّ إلا أن يكون ضلّ، حتّى روي عن بعض أصحاب عليّ أنّه قال: قاتلهم الله أي علم أفسدوا، وذلك لما أدخلته الروافض والشيعنة في علم عليّ رضي الله عنه وحديثه، وما تقولوه عليه من الأباطيل وأضافوه إليه من الروايات والأقاويل المفتعلة والمختلقة وخلطوه بالحق، حتّى قيل

لم يكن يصدق على عليّ في الحديث عنه إلاّ من أصحاب عبدالله بن مسعود^(١).

ولذلك كان محمد بن سيرين يقول: إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم.

وعن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: أدركت بالمدينة مائة كلّهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال ليس من أهله.

وكان سفيان الثوري يقول: إني أحبّ أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه، حديث أكتبه أريد أن أتخذه دينا وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحة ولا أدين به وحديث رجل ضعيف أحبّ أن أعرفه ولا أعبأ به^(٢).

وهكذا احتاط العلماء في نقل الحديث فلم يقبلوه إلاّ من أهله، فكانت هذه المرحلة عبارة عن وضع الأسس الأولى الكفيلة بتمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح عبر الثبوت في الإسناد ثم نقد الرواة.

ومن لطف الله بعباده أنّه تولّى حفظ هذا الدين بذاته فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِظُونَ﴾^(٣) فشمّل حفظ الذكر الحفظ من التلاشي والحفظ من الزيادة والنقصان فيه بأن يترّ تواتره وأسباب ذلك وسلّمه من التبديل والتغيير حتّى حفظته الأمة من حياة النبي ﷺ وصار حقاظه بالغين عدد التواتر في كلّ مصر^(٤)، وكأنّه أراد أنّه من جملة حفظ لفظ الذكر حفظ معناه، ومن جملة معانيه الأحاديث النبويّة الدالّة على توضيح مبانيه، ومن مقتضيات حفظ الله لكتابه وسنة نبيّه أن أقام من عباده من يجدد أمر هذا الدين في كلّ قرن بل في كلّ زمان^(٥).

(١) القاري: شرح نخبة الفكر ٨٤ و٨٧ - ٨٨.

(٢) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ٩١/١.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢١/١٤.

(٥) القاري: شرح نخبة الفكر ص ١٢٧.

ولما كانت آخر المائة الأولى ورأس المائة الثانية دعت الحاجة إلى ضرورة الاحتياط في حماية السنّة بتعقّب أحاديث الرسول وجمعها ثم تدوينها.

وتكاد الروايات تجمع على أنّ أوّل من قام بهذا العمل هو التابعي الجليل إمام العدل والهدى والخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبدالعزيز حيث كتب إلى أبي بكر بن حزم الأنصاري عامله وقاضيه على المدينة المنورة: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلاّ حديث النبي ﷺ ولتفتشوا العلم ولتجلسوا حتّى يعلم من لا يعلم فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً^(١).

قال ابن حجر: يستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي، وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ، فلما خاف عمر بن عبدالعزيز من ذهاب العلم بموت العلماء رأى أنّ في تدوينه ضبطاً له وإبقاءً.

والظاهر أنّ الخليفة عمر بن عبدالعزيز لم يخصّ بهذه المهمة الجليّة عامله على المدينة دون سائر عمّاله، بل أرسل كذلك إلى سائر ولاياته في جميع الأمصار يطلب منهم جمع السنن، يؤكّد ذلك ما نقله ابن حجر من رواية أبي نعيم في تاريخ أصبهان أنّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه^(٢).

وعن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث إلى كلّ أرض له عليها سلطان دفترًا^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

قال ابن حجر: والمحمّل أنّ قول عمر إلى قوله ذهاب العلماء، وأنّ ما بعده ليس من كلام عمر، وبه صرح أبو نعيم في المستخرج (فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٢٤٦/١).

(٢) فتح الباري ٢٤٥/١ - ٢٤٦.

(٣) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٩١/١ - ٩٢.

ويبدو أنّ عمّال الأمصار قد بدؤوا في جمع السنّة، ولكن الخليفة عمر قد مات قبل أن يصله شيء من ذلك ولكن قد يكون محمد بن شهاب الزهري حاز سبق في هذا المجال بعمل فردي قرّب به عين الخليفة قبل وفاته وهذه المحاولات الأولى التي تمّت في عهد عمر بن عبدالعزيز يمكن أن تعتبر أوّل عمل رسمي في سبيل جمع السنّة وحفظها من الضياع وحمايتها من التزيّد عليها.

ولذا تردّدت عبارات العلماء على أنّ ابتداء تدوين الحديث وقع على رأس المائة الأولى في خلافة عمر بن عبدالعزيز ثمّ كثر التدوين والتصنيف، وحصل بذلك خير كثير^(١).

ولا غرابة في أن يكون الإمام الزهري هو صاحب الجهد الفريد فهو أوّل من دوّن العلم وكتبه^(٢)، وله نحو من تسعين حديثاً يرويه ولا يشاركه فيه أحد بأسانيد جياذ حتى قال أعلام عصره: لولا الزهري لضاعت كثير من السنن.

والذي يظهر أنّ تدوين الإمام الزهري للسنّة لم يكن كالتدوين الذي قام به البخاري ومسلم وغيرهما من رجال الحديث لاحقاً، وإنّما كان عبارة عن تدوين كلّ ما سمعه من أحاديث الصحابة غير مبوّب على أبواب العلم، وربّما كان مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وهذا ما تقتضيه طبيعة البداءة في كلّ أمر جديد^(٣).

يؤكّد ذلك ما روي عن صالح بن كيسان قال: كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا على أن نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثمّ قال: نكتب ما جاء عن أصحابه، فقلت: لا ليس بسنّة، وقال هو: بل هو سنّة، فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت.

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/٢٦٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٨٨ و٩١.

(٣) السباعي: السنّة ومكانتها في التشريع ص ١٠٥ و٢١١.

وما روي عن أبي الزناد قال: كُتِبَ نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما يسمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس^(١).

- ٣ - الاجتهاد والرأي:

لما توفي رسول الله ﷺ ترك بالمدينة المنورة حوالي اثني عشر ألف صحابي، مات منهم نحو عشرة آلاف بالمدينة، وتفرق ألفان في سبب أنحاء بلاد الإسلام استقطبت العراق العدد الأكثر منهم، فنزل بالكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر وتوجه البقية إلى مصر وإلى الشام وإلى إفريقية وإلى خراسان وما وراءها وإلى سائر بلاد الإسلام.

فكان عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وجابر بن عبدالله ورافع بن خديج وسلمة بن الأكوع وأبو واقد الليثي وعبدالله بن بحنة مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ﷺ يفتون ويحدثون بالمدينة عن رسول الله من لدن توفي عثمان بن عفان إلى أن توفوا^(٢).

وكان بالكوفة من فقهاء الصحابة سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود وخباب بن الأرت وسهل بن حنيف وأبو قتادة بن ربعي وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وأبو موسى الأشعري والبراء بن عازب والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وعدي بن حاتم الطائي وعبدالله بن أبي أوفى مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ﷺ سكنوا الكوفة وأكثرهم دفنوا بها^(٣).

وكان بالشام من أعلام الصحابة عبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وأبو الدرداء وشرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس ومعاوية بن أبي سفيان والضحاك بن قيس والمقدام بن معدى كرب وحبيب بن مسلمة وعوف بن

(١) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١، ٩٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٧٢/٢.

(٣) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٩١.

مالك الأشجعي مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله نزلوا الشام واستقرّوا بها.

وكان بمكة من فقهاء الصحابة حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس وعتاب بن أسيد وعبدالله بن السائب المخزومي قارئ الصحابة بمكة، مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ممّن نزلوا مكة وأقاموا بها.

وكان ممّن نزل البصرة من فقهاء الصحابة أنس بن مالك وعثمان بن أبي العاص وعبدالله بن سرجس وعمران بن حصين وعبدالرحمن بن سمرة والأقرع بن حابس مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم^(١).

وكان بمصر عمرو بن العاص وابنه عبدالله وأبو ذرّ الغفاري والزيبر بن العوّام وغيرهم، وكان بإفريقية عقبة بن عامر الجهني ومعاوية بن حديج وأبو لبابة الأنصاري وأبو زمعة البلوي وغيرهم.

وهكذا الأمر في سائر الأمصار حيث استقرّت كلّ مجموعة من الصحابة في بلد من البلدان وانتصبوا للإفتاء بها وكانت فتاويهم متّحدة ومتوافقة في بعض الأحيان، ومختلفة في أغلب الأحيان، ومن هنا جاء مجال الاجتهاد الذي قضى بنتيجة الاختلاف.

وانقرض عصر الصحابة ما بين تسعين إلى مائة إذ أنّ آخر من مات من الصحابة بالكوفة عبدالله بن أبي أوفى سنة ٨٦هـ، وآخر من مات بالمدينة من الصحابة سهل بن سعد الساعدي سنة ٩١هـ وهو ابن مائة سنة، وآخر من مات من الصحابة بالبصرة أنس بن مالك سنة ٩١هـ، وقيل ٩٣هـ، وهو ابن مائة وسبع سنين وآخر من مات بالشام من الصحابة عبدالله بن بسر سنة ٨٨هـ، وكان أبو الطفيل عامر بن واثلة رأى النبي وكان آخر من رآه موتاً، مات بعد سنة مائة^(٢).

(١) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٢ - ٥٣.

وعن طريق هذه الطبقة المتخرجة بالنبي ﷺ بذاته، والتي تكوّنت تكوّنًا اجتهادياً غير معصوم متأثراً باجتهاد المعصوم، تكوّن فقهاء التابعين حيث التفّ حول كلّ فقيه من فقهاء الصحابة أو حول كلّ طائفة في مصر من الأمصار جماعة ممّن قصدوا في التفاهم حوله أن يسلكوا مسلكه وأن يتعوّدوا على طريقته وأن يتخرّجوا بالوصول إلى غايته في مقدّرتة على الإفتاء وتقرير الأحكام الفقهية، فتخرّجوا تخرّجاً عملياً بالمخالطة والممارسة أثر فيهم انطباع السلائق والطباع التي كانت للفقهاء من الصحابة الذين التفّ حولهم هؤلاء الفقهاء الناشئون من التابعين، وقد تكوّنت فيهم ملكات من هذه المخالطة والممارسة بمقتضاها أصبح كلّ واحد يستطيع الفتوى ويتمكّن منها على نحو ما كان قدوته يستطيع الفتوى ويتمكّن منها، ومع تأثره بالطبع الخاص والعوامل التي كان يسلك بها^(١).

وعلى ذلك تكوّن فقهاء التابعين، فظهر فقهاء المدينة السبعة المشهورون الذين اتّبعوا في الأكثر أفضية أبي بكر وعمر وعثمان وفتاوى زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وأمّ المؤمنين عائشة وروايات أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، ولمع فقهاء العراق من أمثال الأسود النخعي ومسروق بن الأجدع وشريح القاضي والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي الذين اتّبعوا في الأكثر أفضية عليّ بن أبي طالب وفتاوى عبدالله بن مسعود، ونبغ فقهاء مكّة من أمثال عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وعكرمة مولى ابن عباس الذين اتّبعوا في الأكثر فتاوى عبدالله بن عباس، وظهر بالبصرة الحسن البصري ومحمد بن سيرين ومسلم ابن يسار وأبو قلابة الذين أخذوا في الأغلب عن أنس بن مالك، وكذا الحال في سائر الأمصار.

وهكذا سار أعلام التابعين على نفس مناهج من كان عندهم من الصحابة متكوّنين بهم تكوّن ملكات، يسرون بطريقة سليقة انطباعية ترجع إلى الملكات على النحو الذي كان يسير عليه الأساتذة العظام من فقهاء

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٥.

الصحابة الجلة الذين تكوّنوا بهم وتخرّجوا^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنّ المدينة المنورة والكوفة قد اشتهرتا بالفقه، في الوقت الذي اصطبغت فيه مكّة بسمة التفسير أخذاً عن ابن عباس ترجمان القرآن، وعرفت الشام بالتضلع في السير والمغازي، الأمر الذي أدى إلى تزعم كلّ من المدينة والكوفة لحركة الفقه وتطورها.

فكان سعيد بن المسيّب - وهو من فقهاء المدينة السبعة - أعلم الناس بالحلال والحرام، فإذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: لا تسألوني عن ذلك، واسألوا من يزعم أنّه لا يخفى عليه منه شيء - ويعني عكرمة مولى ابن عباس -^(٢).

وكان القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب - من الفقهاء السبعة - لا يتصدّران لتفسير القرآن^(٣).

وكان مجاهد - من أعلام التابعين بمكّة - قد قرأ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرّة.

وشهد الشعبي - من أعلام التابعين بالكوفة - أنّه ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة^(٤).

ولمّا سئل الإمام مالك عن مسألة وأجاب فيها، قال له السائل: إنّ أهل الشام يخالفونك فيها فيقولون كذا وكذا، فقال مالك: ومتى كان هذا الشأن - يعني الفقه والفتوى - بالشام، إنّما هذا الشأن وقف على أهل المدينة والكوفة^(٥).

ولمّا كانت المدينة المنورة سليمة من ظهور البدع، وإن كان بها من

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) الطبري: مقدمة تفسير الطبري ٢٩/١.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٧/٥ و ٢٠٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢٥/٩، ٢٤٥.

(٥) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٩٤/٢.

هو مضمّر لذلك فكان عندهم مهاناً مذموماً^(١) حيث تميّزت باستقرار وهدوء ضمنا لها التفرد والريادة في العلم والفقه على سائر البلاد، فكان الأعلام من المراكز الأخرى يعودون إلى أعلامها في كثير من مسائل الفقه والفتوى، حتى روي عن الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز أنه كان يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عمّا مضى ويعلمونه بما عندهم.

وسئل حبيب بن أبي ثابت: أيما أعلم بالسنة - أو بالفقه - أهل الحجاز أم أهل العراق؟ فقال: أهل الحجاز.

وكان كلما رحل إليها العلماء ونزلوها استبان فضلهم عمّا سواهم إذا عادوا إلى أمصارهم حتى إنّ مجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وغيرهما من أعلام مكة قالوا في شأن قرينهم عطاء بن أبي رباح: لم يزل شأننا متشابها متناظرا، حتى خرج عطاء إلى المدينة، فلما رجع إلينا استبان فضله علينا.

ولذلك اعتبر بعض العلماء أنّ كلّ حديث ليس له أصل بالمدينة وإن كان منقطعاً ففيه ضعف، وأنّ ما أدرك عليه الناس بالمدينة فلا يشك فيه، وهو الحق.

وكان أبو بكر بن عمر بن حزم يقول: إذا وجدت أهل المدينة قد أجمعوا على شيء فلا يكن في قلبك منه شيء^(٢).

ومن هذا المنطلق رأى أهل الحجاز أنّ أحاديثهم مقدّمة على أحاديث من سواهم من أهل العراق والشام لبقاء المدينة بمنأى عن الفتن والتشيع والإرجاء والاعتزال وبدع النسك، وذهب المذهب ببعض أعلام المدينة إلى تنزيل حديث أهل العراق منزلة حديث أهل الكتاب فلا يصدّقونهم ولا يكذبونهم حتى اشتهرت العراق بأنّها دار الضرب وأنّ الحديث يخرج من المدينة شبراً فيعود من العراق ذراعاً.

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣٠٢/٢٠.

(٢) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٦٢/١ - ٦٣.

ولمّا كان ذلك هو واقع العراق وحالها، تشدّد فقهاؤها في قبول الحديث واشتروطوا شروطاً وإن كانت تضمن سلامة الحديث من التزيّد والاختلاق، فإنّه لا يسلم معها إلاّ القليل.

ومع قلّة الاعتماد على السنّة وضبط الأحاديث وحفظها ظهرت الحاجة في العراق إلى الاجتهاد وإعمال الرأي.

وهكذا كانت الظروف السياسية والمواقع الإقليمية - بحسب البعد عن الدار النبويّة -^(١) من العوامل المساعدة على ظهور نمطين من الاجتهاد، نمط اعتدّ بالأثر بعد إحكام ضبط السنّة، وجمع مادة فقهية خصبة عن طريق الأخذ والرواية، ونمط عوّل على الرأي وأكثر من القياس لا لجهل بالحديث ولكن لكمال الضبط فقّلت الرواية عنده.

وقد تزعم النمط الأوّل أعلام المدينة المتمسكون بالسنّة الواقفون عند حدود الأثر، فسُميت مدرستهم بحسب منهجهم في الاجتهاد وطريقتهم في استنباط الأحكام: مدرسة الحديث أو مدرسة الأثر، وبحسب الموقع: مدرسة المدينة أو الحجاز، في حين تزعم النمط الثاني أعلام الكوفة وفقهاؤها، وسُميت مدرستهم بحسب منهجهم وطريقتهم في الاجتهاد: مدرسة الرأي، وبحسب الموقع: مدرسة العراق.

غير أنّ الملفت للنظر أنّ مدرسة الحديث لم تُعدم من وجود أصحاب الرأي ضمن أعلامها من الذين كانوا لا يتهيّبون من استعمال الرأي والإكثار منه، مثل ربيعة بن أبي عبدالرحمن صاحب المعضلات بالمدينة البصير بالرأي والقياس حتّى عرف بذلك وسمّي بريعة الرأي، كما أنّ مدرسة الرأي بدورها لم تُعدم من كبار المحدثين من أمثال عامر بن شرحبيل الشعبي محدّث الكوفة وعالمها الذي أدرك خمسمائة من الصحابة أو أكثر وما رئي أحد أعلم بسنّة ماضية مثله، وكان إذا عرضت له فتوى لم يجد فيها نصّاً انقبض ولم يفت، وكان يقول: عليك بأثار السلف وإن رفضك

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣٠١/٢٠.

الناس، وإيّاك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول^(١).

وهكذا تبدو مسألة الاعتماد على الرأي وعلى الأثر - في هذه المرحلة من هذا الدور - بل وفي كلّ مرحلة ودور من أدوار الفقه مرتبطة أشدّ الارتباط بالخيّط الطويل المتماسك من طرفيه اللذين هما الأثر والنظر.

والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متفاعلة لا غنى لطرف منهما عن الآخر، بحيث أنّ افتقاد أيّ منهما أو استغناؤه عن الآخر لا ينشأ عنه فقهاً مرتبطاً بأصوله التي هي مدارك الشريعة.

فلا يمكن لأيّ عمل من الأعمال الفقهية أن يستقلّ فيه الأثر على النظر استقلالاً تاماً بحيث لا يكون للنظر مدخل بحال في العمل الفقهي الذي هو استنتاج، كما لا يمكن أن يستقلّ النظر بحيث لا يكون للأثر أيّ اتصال بذلك العمل الاستنتاجي لأنّ الاستنتاج حينئذ يخرج عن حقيقة الاجتهاد إلى حقيقة الهوى، ولذلك كان العنصران ضروريين - كلّ منهما - لكلّ عمل فقهيّ.

فليس من المقبول بعد ذلك أن يفرض أنّ فقيهاً من الفقهاء يكون فقهه غير قائم على الأثر وأن نعتقد أنّه من الجائز أن يكون الفقهاء الذين اعتبروا أهل رأي بمعزل عن الأثر، وليس من المقبول كذلك أن يفرض أنّ فقيهاً من الفقهاء يكون فقهه غير مستند إلى النظر ولا أن نعتبر الفقهاء الذين اعتبروا أهل حديث بمعزل عن النظر، وإنّما الأمر يرجع إلى تصنيفهم كما هو الواقع داخل هذين الصنفين باعتبار أنّ أحد الصنفين هو الصنف الذي يكون للعمل الأثري عنده غالبية نسبية على العمل النظري، وأنّ الصنف الآخر بالعكس هو الذي يكون للعمل النظري عنده غالبية نسبية على العمل الأثري^(٢).

وخير ما نختم به هذا العنصر منافسة استدلالية بين علميين من أعلام

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٥٢/٤.

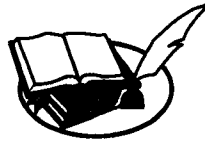
(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٨٣، ٨٤، ٨٦، بتصرّف.

المدرسة الحجازية تبرز بوضوح غالبية النظر على الأثر عند أحدهما،
وغالبية الأثر على النظر عند الآخر:

فعن ربيعة بن أبي عبدالرحمن أنه قال: سألت سعيد بن المسيّب:
كم في إصبع المرأة؟ فقال: عشر من الإبل، فقلت: كم في إصبعين؟
قال: عشرون من الإبل، فقلت: كم في ثلاث؟ فقال: ثلاثون من الإبل،
فقلت: كم في أربع؟ قال: عشرون من الإبل، فقلت: حين عظم جرحها
واشتدّت مصيبتها نقص عقلها؟ فقال سعيد: أعراقي أنت؟ فقلت: بل عالم
متبّت أو جاهل متعلّم، فقال سعيد: هي الستة يا ابن أخي^(١).

وهذا مثال حيّ للفرق بين المنهج الذي يكون فيه للأثر غالبية على
النظر، وبين المنهج الذي يكون فيه للنظر غالبية على الأثر.

وقد أدرك ربيعة الرأي هذا الفرق بين المنهجين وما بينهما من تفاوت
بحسب كثرة غالبية الأثر أو النظر حتّى بين أعلام المدرسة الواحدة فيما
بينهم، فقد روي عن الإمام مالك قوله: كان ربيعة بن أبي عبدالرحمن
يقول لابن شهاب الزهري: إنّ حالي ليست تشبه حالك، فقال ابن شهاب:
وكيف ذلك؟ قال ربيعة: أنا أقول برائي من شاء أخذه فاستحسنه وعمل به
ومن شاء تركه، وأنت في القوم تحدّث عن النبي ﷺ فيحفظ^(٢).



(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ما جاء في عقل الأصابع.

(٢) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ٦٢.

مراكز الفقه في هذا الدور وأشهر القائمين عليها من الصحابة والتابعين

أنشأ أصحاب رسول الله ﷺ حين توزّعوا في بلاد الإسلام المترامية الأطراف حركة اجتهادية بفعل ما روي عنهم من فتاوى وأقضية مختلفة في الغالب، فتكوّنت بهم مدارس اجتهادية مثلت النواة الأولى لما عرف عند الفقهاء بالأمصار التي هي المراكز الفقهية الأولى.

وتخرّج على أيدي هؤلاء الأعلام من الصحابة في كلّ مركز من تلك المراكز الفقهية تلاميذ هم أبناء الصحابة والتابعون سلكوا مسلكهم في الاجتهاد وتعودوا على طريقتهم في الاستنباط، ولمع منهم مجموعة قاموا على تلك المراكز وسطع نجمهم في حياة أساتذتهم من الصحابة وبعد مماتهم.

ونستطيع أن نردّ هذه المراكز في هذا الدور إلى تسعة:

المركز الأول: المدينة المنورة:

هي دار الإيمان وأرض هجرة الرسول وهي مبدأ الحلال والحرام وبها نزلت أغلب الأحكام، وهي التي وردت في شأنها الآثار في اختصاصها بفضل العلم والسنة والقرآن، وفي فضل علم أهلها وترجيحه على علم غيرهم واقتداء السلف بهم، وهي مركز الجمهور الأعظم من الصحابة وكبار التابعين.

وأصل هذا المركز الفقهي فتاوى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب قبل انتقاله إلى الكوفة، وفتاوى زيد بن ثابت وعائشة أم المؤمنين وأبي هريرة، ومن صغار الصحابة عبدالله ابن عمر وأبو سعيد الخدري وعبدالله بن عباس قبل انتقاله إلى مكة، وأشباه لهم ممن هيا الله لهم البقاء بالمدينة.

غير أنّ أكثر أفضية وفتاوى هذا المركز كانت في الأغلب تعتمد على قضية عمر بن الخطاب وفتاوى زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعائشة أم المؤمنين، وأكثر روايات هذا المركز كانت في الأغلب تعتمد على روايات أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

فانحصر بذلك غالبية التأثير على هذا المركز في هؤلاء الستة، وفيما يلي لمحة عن علمهم وفضلهم:

* عمر بن الخطاب^(١):

هو أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، يجتمع في نسبه مع الرسول ﷺ في كعب بن لؤي بينه وبين عمر ثمانية آباء.

كان من أجلاء فقهاء الصحابة وعظماهم ومن الذين يفتون على عهد الرسول، ومن قضاة هذه الأمة.

وكان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن وما قال الناس في شيء وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر، وقد نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر وفي الحجاب وفي مقام إبراهيم وفي تحريم الخمر وذكر أبو عبدالله الشيباني في كتاب فضائل الإمامين أنّ عمر وافق ربه في أحد وعشرين موضعاً.

(١) اليافعي: مرآة الجنان ١/١١٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٣٨ - ٣٩، ابن قيم

الجوزية: إعلام الموقعين ١/١٦، ٢٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ - ١٢٥،

ابن العماد: شذرات الذهب ١/٥٤ - ٥٥، ابن عبدالبر: الاستيعاب ٢/٤٦٤.

ومن أفضيته التي تدلّ على عمق فهمه وسداد رأيه إلغاؤه سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة، ووقف قطع يد السارق عام المجاعة، وقضاؤه بقتل الجماعة بالواحد، وإلزامه المطلق ثلاثاً بلفظ واحد بما التزم به أي ثلاث طلاقات وغير ذلك من القضايا التي تدلّ على دقّة فهمه وشدة فطنته وكثرة علمه ممّا يتحير فيه كلّ فاضل، ويتعجب من حسنه كلّ عاقل^(١).

ومن نظر في فتاويه على التفصيل وتأمل معاني قوله على التحصيل وجد في كلامه من دقيق الفقه ما لا يجد في كلام أحد، ولو لم يكن له إلاّ الفصول التي ذكرها في كتابه إلى أبي موسى الأشعري لكفى ذلك في الدلالة على فضله.

* شهادة الرسول له بالفضل والعلم:

عن أبي ذرّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله وضع الحقّ على لسان عمر يقول به»^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه»^(٣).

وعن ابن عمر أيضاً أنّ النبيّ ﷺ قال: «بيننا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت فيه بلبن فشربت منه حتّى إنّي لأرى الرّي يجري في أظفاري ثمّ أعطيت فضلي عمر بن الخطاب»، قالوا: فما أوّلت يا رسول الله؟ قال: «العلم»^(٤).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ إلى الثدي ومنها

(١) تقدّم تفصيل الكلام في هذه الأفضية.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، وابن ماجه في سننه، المقدمة، والإمام أحمد في مسند الأنصار.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

دون ذلك، وعرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره»، قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدين»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر: «يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قطّ إلا سلك فجاً غير فجك»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمّتي أحد فإنه عمر».

وفي رواية ثانية: «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمّتي أحد فعمر»^(٣).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإنّ أبا بكر وعمر منهم وأنعم»^(٤).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»^(٥).

* شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:

قال عبدالله بن عمر: ما نزل بالناس أمر قطّ فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر^(٦)، وفي رواية أخرى عن ابن عمر أيضاً أنّه قال: وما كان عمر يقول لشيء إني لأراه كذا إلا كان كما يقول،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وكتاب الأدب.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

وعن قيس بن طلق قال: كُنا نتحدّث أنّ عمر ينطق على لسان ملك^(١).

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما نبعد أنّ السكينة تنطق على لسان عمر^(٢).

وكان عبدالله بن مسعود يقول: لو أنّ علم عمر وضع في كفة الميزان، ووضع علم أهل الأرض في كفة لرجح علم عمر.

ورغم أنّ ابن مسعود كان له أتباع قد حرّروا فتياه ومذاهبه في الفقه، فقد كان يترك مذهبه وقوله لقول عمر وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله، وكان عبدالله لا يقنت، ويقول: لو قنت عمر لقنت عبدالله، ويقول: لو سلك الناس واديا وشعبا وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه، وكان يقول: لمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة.

وقال حذيفة بن اليمان: كأنّ علم الناس مع علم عمر دسّ في حجر، وكان معاذ بن جبل يقول: إنّ أعلم الناس بفريضة وأقسمهم لها عمر بن الخطاب.

ولمّا استشهد عمر وُضع على سريره فدخل عليه عليّ بن أبي طالب فترخّم عليه ثم قال: ما خلفت أحداً أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظنّ أن يجعلك الله مع صاحبك، وحسبت أنّي كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر^(٣).

وقال ابن مسعود: لقد مات عمر فذهب بتسعة أعشار العلم.

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٥٤/١.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب.

* شهادة التابعين له بالفضل والعلم:

روي أنّ عبد الله بن الحسن مسح على خفيه فقبل له: تمسح؟ قال: نعم مسح عمر بن الخطاب ومن جعل عمر بن الخطاب بينه وبين الله فقد استوثق. وكان الشعبي - من أعلام التابعين بالكوفة - يقول: إذا اختلف الناس في شيء فخذوا بما قال عمر بن الخطاب، ومثل ذلك قال مجاهد - من أعلام التابعين بمكة -: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به.

وكان سعيد بن المسيّب - من أعلام التابعين بالمدينة - يقول: ما أعلم أحداً بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطاب، ومناقبه أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر.

دامت خلافته عشر سنين فكانت أيامه باهجة زاهرة وسيرته الحسنی محمودة فاخرة والعناية مؤيدة له ناصرة، واستشهد سنة ٢٣هـ بعد مرجعه من الحج، طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ودفن مع صاحبيه في حجرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد أن استأذنها في حياته وأوصى أن تستأذن أيضاً بعد مماته، فأذنت.

* زيد بن ثابت^(١):

هو زيد بن ثابت النجاري، كاتب الوحي للنبي ﷺ وجامع المصحف على عهد أبي بكر وناسخ المصاحف زمن عثمان، وهو أحد فقهاء الصحابة الجلّة الفراض وأحد أصحاب الفتوى، وأحد قضاة هذه الأمة، قد غلب الناس على اثنتين: القرآن والفرائض، حتى قيل إنّه كان رأساً في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض بالمدينة، وكان إمام الناس بها بعد عمر بن الخطاب.

(١) ابن حجر: الإصابة ٥٦١/١ - ٥٦٢، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٥/١ - ١٦، ١٨، ٢١، الاستيعاب ٥٥٢/١ - ٥٥٣، ابن العماد: شذرات الذهب ٩٣/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٦، اليافعي: مرآة الجنان ١٥٤/١ - ١٥٥.

وقد قيل: إنّ عبدالله بن عمر وجماعة ممّن عاشوا بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ إنّما كانوا يفتون بمذاهب زيد بن ثابت^(١)، وما كانوا أخذوا عنه ممّا لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ﷺ قولاً.

وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يستخلفانه على المدينة، ولا يقدّمان عليه أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة.

* شهادة الرسول له بالرسوخ في علم الفرائض:

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: أرّحِم أمّتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح^(٢).

* شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:

خطب عمر بن الخطاب الناس يوماً فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت.

وكان عبدالله بن عباس يأتي بابه وينتظره حتّى يخرج ليسمع منه العلم، فإذا خرج قال: يا ابن عباس هلاً كنت آتيك أنا، فيقول: العلم يؤتى ولا يأتي، فإذا ركب أخذ بركابه، فيقول: ما هذا يا ابن عباس: فيقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، وفي رواية: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء فيأخذ زيد بن ثابت كفه ويقبلها ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

اختلف في سنة وفاته والأغلب أنّه توفي سنة ٤٥هـ.

(١) وقد ثبت أنّه روى عنه جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عمر وأنس بن مالك وسهل بن سعد وسهل بن حنيف وعبدالله بن يزيد الخطمي (الإصابة ١/٥٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، المقدّمة.

وحين مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة: اليوم مات حبر هذه الأمة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً، وقال عبدالله بن عمر: مات عالم الناس اليوم.

وقال ابن عباس وهو قائم على قبره: هكذا يذهب العلم، وقال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أنّ زيد بن ثابت كان من الراسخين في العلم.

ورثاه شاعر الرسول حسّان بن ثابت بقوله:

ومن للقوافي بعد حسّان وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت
وعلى الجملة فزيد بن ثابت غصن مجد في أعلى ذروة المعاني ثابت.
* عبدالله بن عمر^(١):

هو عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، الفقيه المحدث القدوة، من أئمة الدين ومن زهاد الصحابة وأكثرهم أتباعاً للسنن، ومن فقهاء الصحابة وأعيانهم.

كان إمام الناس بالمدينة بعد زيد بن ثابت، ومن أعلم الصحابة بالمناسك بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه، مولعاً بالحج لا يتركه، وروي أنه اعتمر أكثر من ألف عمرة، أقام بعد النبي ﷺ ستين سنة يفتي الناس في الموسم.

كان من رواة الحديث المكثرين عن النبي ﷺ، وروي أيضاً عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي ذر الغفاري ومعاذ بن جبل وعائشة أم المؤمنين وغيرهم، وروي عنه من الصحابة جابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وغيرهما.

(١) مرآة الجنان ١/١٨٥ - ١٨٦، الإصابة ٢/٣٤٩، شذرات الذهب ١/١٤٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٠، الإصابة ٢/٣٤٧ - ٣٤٩، إعلام الموقعين ١/١٨، الاستيعاب ٢/٣٤٢ - ٣٤٥ الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/٣٨ - ٣٩.

كان يتحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله، وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ، فكان يتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما ورد عن عبيد بن جريح أنه قال لعبدالله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها، قال: وما هي يا ابن جريح، قال: رأيتك لا تمسّ من الأركان إلا اليمينين، ورأيتك تلبس النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال، ولم تهلّ أنت حتى كان يوم التروية، فقال عبدالله بن عمر: أما الأركان فإني لم أر رسول الله ﷺ يمسّ منها إلا اليمينين، وأما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعل التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها، وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله ﷺ يهلّ حتى تنبعث به راحلته^(١).

ورغم كثرة مروياته عن الرسول ﷺ، فقد كان شديد الاتقاء للحديث عن رسول الله، شديد التحري والاحتياط والتوقّي في فتواه وكلّ ما يأخذ به نفسه، وإذا سئل أحياناً قال: لا أدري، أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً في جهنم تقولون: أفتانا بهذا ابن عمر، حتى أنّ ابن عباس قال مرّة: عجباً لابن عمر وردّه الناس، ألا ينظر فيما يشكّ فيه، فإن كانت مضت به سنّة قال بها، وإلا قال برأيه.

* شهادة الرسول له بالصلاح:

عن حفصة أم المؤمنين أنّ النبي ﷺ قال لها: «إنّ أخاك رجل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء وكتاب اللباس، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، ومالك في الموطأ، كتاب الحج.

صالح، أو قال: إنَّ عبدالله رجل صالح»^(١).

وعن نافع عن ابن عمر قال: إنَّ رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله ﷺ فيقصونها على رسول الله ﷺ فيقول فيها رسول الله ما شاء الله، وأنا غلام حديث السن، وبيتي المسجد قبل أن أنكح، فقلت في نفسي لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء، فلما اضطجعت ذات ليلة قلت: اللهم إن كنت تعلم فيّ خيراً فأرني رؤيا» فرأى رؤيا، قال: فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال رسول الله: «إنَّ عبدالله رجل صالح لو كان يصلي من الليل»، قال نافع: فلم يزل بعد ذلك يكثر من الصلاة^(٢) فكان.

يصلي ما قدر له ثم يأوي إلى فراشه، فيغفي إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثم يرجع، فكان يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً، وكان قبل ذلك إذا نام لم يقم حتى يصبح.

* شهادة الصحابة له بالفضل:

كان ثلثة من الصحابة يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلا ابن عمر.

وكان جابر بن عبدالله رضي الله عنه يقول: ما متنا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به، ومال بها غير عبدالله ابن عمر.

* شهادة التابعين له بالعلم والورع:

قال ميمون بن مهران: ما رأيت أروع من ابن عمر، وقال: ما رأيت أفه من ابن عمر.

وقيل لنافع: ما كان عبدالله بن عمر يصنع في منزله، قال: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير.

وكان محمد بن سيرين يقول: اللهم أبقني ما أبقيت ابن عمر أقتدي

به.

وقال ابن المسيّب يوم مات ابن عمر: ما في الأرض أحد أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منه وقول سعيد بن المسيّب هذا، نحو ما قال عليّ بن أبي طالب في عمر بن الخطاب، - كما تقدّم -.

توفي سنة ٧٤هـ وهو المشهور، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين، وأوصى حين حضرته الوفاة أن يدفن ليلاً ولا يعلموا الحجّاج لئلا يصلّي عليه.

* عائشة أم المؤمنين^(١):

هي الصديقة الفقيهة المحدثّة الفصيحة ذات التحقيق أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصادقة ابنة الصديق البريئة المبرأة حبيبة حبيب الله، ذات المحاسن الحميدة والمناقب العديدة، وحيدة عصرها في الفقه والطب والشعر^(٢).

(١) مرآة الجنان ١/١٦١ - ١٦٢، الاستيعاب ٤/٣٥٨، الإصابة ٤/٣٦٠ - ٣٦١، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/١٧، ٢١، ٢٢، شذرات الذهب ١/١١١ - ١١٢، السيوطي: إسعاف المبطل برجال الموطأ ص ٤٩، الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة ص ٣٣، ٣٩، ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٦، الاستيعاب ٤/٣٥٨، طبقات ابن سعد ٢/٣٧٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) فعن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة: إني لأنفكر في أمرك فأعجب، أجدك من أفضه الناس فقلت ما يمنعها؟ زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها فقلت: وما يمنعها وأبوها علامة قريش؟ - وذلك أنّ أبا بكر كان أعلم الناس بأنساب العرب وأخبار قبائلها، وأنباء بطونها - ولكن إنّما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب، فمن أين؟ فأخذت بيدي وقالت: يا عروة إنّ رسول الله ﷺ كثر من أسقامه فكان أطباء العرب والعجم ينعتون له فعلمت ذلك، أخرجه البزار في مسنده وقال: هذا الحديث لا نعلمه مروياً عن عائشة إلاّ بهذا الإسناد، وأورده أبو نعيم في الحلية، وورد عند الحاكم النيسابوري مثله، وقال صحيح الإسناد، وقال الذهبي في مختصره: على شرط الصحيحين (الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة ص ٤٩ - ٥٠).

وكانت رضي الله عنها مقدّمة في العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام، وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتياً، فكانت مشيخة أصحاب رسول الله يسألونها عن الفرائض.

استقلت بالفتوى منذ زمن أبي بكر وعمر وهلمّ جرّاء، وكانت تفتي في زمن عمر وعثمان وما بعد ذلك إلى أن ماتت.

وكان الأكابر من الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها فيجدون علمه عندها، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كلّ ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبيّ البيّنة، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من الرجال ولا من النساء، وعليها تتلمذ مشيخة المهاجرين والأنصار^(١)، وإلى قولها رجع فقهاء الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه عبدالله وأبي هريرة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وجابر بن عبدالله وغيرهم^(٢).

روي لها عن النبيّ ﷺ ١٢١٠ حديثاً، اتّفق البخاري ومسلم منها على ١٧٤ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ٥٤، ومسلم بـ ٦٨، فلم يرو عن النبيّ امرأة أكثر منها.

وروي عنها الحديث كثير من الصحابة منهم: أبوها أبو بكر وعمر بن الخطاب وابنه عبدالله وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن عباس وعمرو بن العاص وغيرهم.

وحمل عنها من الفقه ما لم يحمل عن أحد سواها.

ومن أخصّ مناقبها ما علم من حبّ رسول الله ﷺ لها، وشاع من تخصيصها عنده، ونزول القرآن في عذرها وبرائها والتنويه بقدرها، وما نزل بها أمر تكرهه إلا جعل الله فيه للمؤمنين فرجاً ومخرجاً كما في نزول آية التيمّم عند انحباس الناس عن السفر بسببها لالتماس عقدها حين

(١) مقدمة محقق كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥ - ٦.

(٢) انظر: الباب الثاني من كتاب الإجابة في استدراكها على أعلام الصحابة.

ضاع، حتى قال لها أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، ووفاء رسول الله بين سحرها ونحرها، ونزول الوحي في بيتها وهو في لحافها، وغير ذلك من بركتها.

* شهادة الرسول لها بالفضل:

فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١).

وقوله ﷺ: «يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام»، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد النبي ﷺ^(٢).

* شهادة الصحابة لها بالعلم بالفضل:

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: لو كانت امرأة تكون خليفة لكانت عائشة خليفة.

وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ شيء فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً^(٣).

* شهادة التابعين لها بسعة المعرفة وغزارة العلم وفصاحة اللسان:

قال ابن شهاب الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس وأحسن الناس وأعلم الناس رأياً في العامة.

وقال عروة بن الزبير - ابن أخت عائشة -: كانت عائشة أعلم الناس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء والمناقب والأطعمة، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق والاستئذان، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وقال: حديث حسن صحيح.

بالحديث، وأعلم الناس بالقرآن، وأعلم الناس بالشعر، وقال: ما جالست أحداً قطّ كان أعلم بقضاء، ولا بحديث بالجاهليّة، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة، ولا طبّ من عائشة، وقال أيضاً: ما رأيت أحداً أعلم بفقهه ولا بطبّ ولا بشعر من عائشة، وقال كذلك: ما كان ينزل بها شيء إلاّ أنشدت فيه شعرا.

وعن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة^(١).

ومن فصاحتها رضي الله عنها ما رواه محمد بن سيرين عن الأحنف بن قيس قال: سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب والخلفاء كلّهم هلمّ جرّاً إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من عائشة» أخرجها الحاكم في مستدركه، ومن فصاحتها ما روي أنّه لما توفّي الصديق رضي الله عنه، وقفت عائشة على قبره فقالت: نضر الله وجهك يا أبت وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلاًّ بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله رزوك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إنّ كتاب الله ليعد بحسن الصبر عنك حسن العوض منك، وأنا أستنجز موعود الله فيك بالصبر، وأستقضيهِ بالاستغفار لك، أمّا لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا، لقد قمت بأمر الدين لمّا وهى شعبه وتفاقم صدعه ورجفت جوانبه، فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك ولا رازية على القضاء فيك^(٢).

توفيت رضي الله عنها ليلة ١٧ رمضان من سنة ٥٨هـ كما أثبتته الأكثر، وقيل ٥٧هـ، وأوصت أن تدفن ليلاً، فدفنت بعد الوتر بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة، ونزل قبرها عبدالله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبدالله ابنا محمد بن أبي بكر، وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر.

(١) أخرج الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥٠.

* أبو هريرة^(١):

اختلف في اسمه واسم أبيه على أكثر من ثلاثين قولاً والأشهر أنّ اسمه عبدالرحمن بن صخر الدوسي.

لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ بعد إسلامه، فلم يفارقه في حضر ولا سفر - ولم يفارقه إلا حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين -، فكان أحرص شيء على سماع الحديث منه وتفقه عنه، وكان يلزمه على شبع بطنه، فروى عن رسول الله الكثير الطيب وكان من حفاظ الصحابة، بل كان أحفظ أصحاب الرسول ﷺ وأحفظ من روى الحديث في دهره، وأكثرهم رواية على الإطلاق، حيث بلغ عدد ما روى ٥٣٧٤ حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على ٣٢٥ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ٩٣ حديثاً، في حين انفرد مسلم بـ ١٨٩ حديثاً.

روى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم، فممن روى عنه من الصحابة عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك ووائل بن الأسقع.

وقد كان من الصدق والديانة والعبادة والزهادة والحفظ والعمل الصالح على جانب عظيم، كثير الذكر والتسبيح حسن الأخلاق، له فضائل ومناقب كثيرة وكلام حسن ومواعظ جمة.

غير أنّ فئة من الناس ممن لا وازع لهم من خلق أو دين، من أرباب الأهواء المبتدعين ممن لم يذوقوا للعلم طعماً، ولم يعرفوا للإسلام قدراً، قد تحاملوا على هذا الصحابي الجليل وحرصوا على التشكيك في صدقه وزهده وورعه وطعنوا في حفظه وقوة ذاكرته بكذب واضح وتحريف لبعض الحقائق في تاريخ حياة هذا الصحابي، مما لا يستند إلى بحث

(١) الاستيعاب ٢٠٢/٤ - ٢١٠، الإصابة ٢٠٤/٤ - ٢١٠، إسعاف المبطل ص ٤٦، البداية والنهاية ١٠٣/٨ - ١١٤، شذرات الذهب ١١٣/١، مرآة الجنان ١٦٢/١، إعلام الموقعين ٢٣/١.

تاريخي ولا سند علمي، وإنما اعتمادهم في ذلك إما على روايات مكذوبة أو ضعيفة وإما على تأويلات باطلة خسيصة فجاءوا بمزاعم باطلة وأقوال زور تافهة يريدون بها هدم ركن شامخ من أركان الدين وقسط وافر من سنة سيد المرسلين بالطعن في ما رواه أبو هريرة راوية الإسلام الأول، وأكثرهم أحاديث عن رسول رب العالمين.

ومن لطف الله تعالى أن هيأ لأمثال هؤلاء المشككين الماجورين من أذعياء العلم التافهين، جنوداً من عباده المؤمنين يذودون عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويزيحون الستار عن خبث النفوس، ويردون كيد الكائدين^(١).

ومن مناقبه أن الرسول الأكرم ﷺ دعا له ولأمته فقال: «اللهم حَبِّبْ عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحَبِّبْ إليهم المؤمنين»^(٢).

* شهادة الرسول له بالحفظ والحرص على العلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من نفسه»^(٣).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من يبسط رداءه حتى أقضي

- (١) انظر: الفصل السابع من كتاب السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي، وفيه يرد على ما نسج حول أبي هريرة من افتراءات، وانظر كذلك كتاب الحديث والمحدثون للدكتور محمد أبو زهو ص ١٥٣ - ١٧٢ حول أبي هريرة وما قيل فيه، حيث يذكر بعض الطعون والجواب عنها بإيجاز.
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وكتاب الرقاق.

مقالتني ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني، وبسطت بردة عليّ حتى قضى حديثه ثم قبضها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً بعد أن سمعته منه (١).

وروي أنّ زيد بن ثابت قال: بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعو الله ونذكره إذ خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا، فقال: عودوا للذي كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي فجعل رسول الله ﷺ يؤمّن على دعائنا، ثمّ دعا أبو هريرة فقال: «اللّهم إني أسألك ما سألك صاحباي وأسألك علماً لا ينسى»، فقال رسول الله ﷺ: «آمين»، فقلنا: يا رسول الله: ونحن نسأل الله تعالى علماً لا ينسى، فقال: «سبقكم بها الغلام الدوسي» (٢).

* شهادة الصحابة له بالحفظ والعلم:

قال طلحة بن عبيدالله - أحد العشرة المبشرين بالجنة -: لا أشك أنّ أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع (٣).

وعن عبدالله بن عمر أنّه قال لأبي هريرة: يا أبا هريرة أنت ألزمتنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه (٤)، وفي رواية: وأعلمنا لحديثه (٥)، وقال أيضاً: أبو هريرة خير متي وأعلم بما يحدث.

وروي أنّ رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت يسأله، فقال له زيد: عليك بأبي هريرة.

ولمّا توفي أبو هريرة مشى عبدالله بن عمر أمام جنازته وكان يترحم عليه ويكثر من ذلك ويقول: كان ممّن يحفظ حديث رسول الله ﷺ على المسلمين.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، وأحمد في مسنده واللفظ له.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، باب العلم، بسند جيد.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٥) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

* شهادة التابعين له بالرواية والحفظ:

كان سعيد بن المسيّب - صهر أبي هريرة، زوجه أبو هريرة ابنته - إذا رأى أبا هريرة قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجئة، ولهذا أكثر عنه من الرواية.

وقال أبو الزعيزعة - كاتب مروان بن الحكم أمير المدينة على عهد معاوية بن أبي سفيان - أرسل مروان إلى أبي هريرة فجعل يحدثه، وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يحدث به حتى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله وأمرني أن أنظر، فما زاد ولا نقص، ولا غير حرفاً عن حرف.

توفي على المشهور من الأقوال سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٥٨هـ وقيل سنة ٥٧هـ.

* أبو سعيد الخدري^(١):

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم، ومن أعيان الصحابة وفقهائهم الذين كانوا يفتون بالمدينة ويحدثون عن رسول الله ﷺ منذ توفي عثمان بن عفان إلى أن توفوا.

من الحفاظ المكثرين العقلاء، حفظ عن النبي سننا كثيرة وعلماً جماً، فهو أحد السبعة المكثرين من رواية الحديث الذين جاوزوا الألف، فعدد ما رواه ١١٧٠ حديثاً، اتفق الشيخان منها على ٤٦ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ١٦ حديثاً، ومسلم بـ ٥٢ حديثاً.

ولبعضهم:

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مضر
أبو هريرة سعد جابر أنس صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

(١) البداية والنهاية ٣/٩ - ٤، إسعاف المبطل ص ٤٤، شذرات الذهب ١/١٤٩، مرآة الجنان ١/١٨٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١، الاستيعاب ٤/٨٩، الإصابة

روى عن الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وغيرهم، وروى عنه من الصحابة عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله ومحمود بن لبيد وأبو أمامة بن سهل وأبو الطفيل.

لم يكن أحد من أحداث أصحاب رسول الله ﷺ أفقه من أبي سعيد الخدري.

له مشاهد محمودة، وهو ممن بايع رسول الله ﷺ على الموت يوم الحديبية، ومن الذين بايعوه على أن لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهو الذي روى عن النبي ﷺ: «لا يمنع أحدكم مخافة الناس أن يقول بالحق إذا شهد أو علمه»، قال أبو سعيد: فحملني على ذلك أتى ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه ثم رجعت^(١).

توفي سنة ٧٤هـ وقيل قبل ذلك.

هؤلاء الستة من الصحابة هم سادة المفتين وأئمة الفقه الذين صارت إليهم الفتوى بالمدينة في هذا الدور وعليهم دار علم أهل المدينة، وعلى أيديهم تخرج الفوج الأول من نجباء وفضلاء التابعين المدنيين.

وقد عدّ من فضلاء التابعين وأعلامهم من أهل المدينة مائة وسبعون، اشتهر منهم ثلثة من الفقهاء خصّوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، أشهرهم:

الفقهاء السبعة، وسمّوا بذلك لأنهم كانوا بالمدينة في عصر واحد وعنهم انتشر العلم والفتيا، أو لأنّ الفتوى بعد الصحابة صارت إليهم وشهروا بها.

وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين، فقال^(٢):

ألا كلّ من لا يقتدي بأئمة فقسّمته ضيزى عن الحقّ خارجة

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) مرآة الجنان ١/٢١٧، مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٢٠، البداية والنهاية ٩/١١٦.

وخذهم عبید الله عروة قاسم
سعيد أبو بكر سليمان خارجه
وقال غيره^(١):

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر
فقل هم: عبید الله عروة قاسم
روايتهم ليست عن العلم خارجه
سعيد أبو بكر سليمان خارجه

ونظّم عبیدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود شعرا في امرأة من
هذيل، ذكر فيه أقرانه من الفقهاء الستّة، وهو سابعهم، فقال^(٢):

أحبّك حبّا لا يحبّك مثله
وحبّك يا أمّ الصبيّ مدلهي
ويعرف وجدي قاسم بن محمّد
ويعلم ما أخفي سليمان علمه
متى تسألني عمّا أقول تخبّري
قريب ولا في العاشقين بعيد
شهيدي أبو بكر فنعم شهيد
وعروة ما ألقى بكم وسعيد
وخارجه يبدي بنا ويعيد
فلله عندي طارف وتليد

وروي عن أبي الزناد عن أبيه قال: أدركت من فقهاءنا الذين ينتهي
إلى قولهم: سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبو
بكر بن عبدالرحمن وخارجه بن زيد وعبیدالله بن عبدالله وسليمان بن
يسار، هم أهل فقه وصلاح وفضل.

وقال الحاكم النيسابوري: فأما الفقهاء السبعة من أهل المدينة
فسعيد بن المسيّب والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير
وخارجه بن زيد بن ثابت وأبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف
وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسليمان بن يسار، فهؤلاء الفقهاء السبعة
عند الأكثر من علماء الحجاز^(٣).

(١) إعلام الموقعين ٢٣/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١، شذرات الذهب ٢٠٧/١.

(٣) معرفة علوم الحديث ص ٤٣.

فذكر أبا سلمة بن عبدالرحمن بن عوف بدل أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، ورأى أنّ ذلك هو قول الأكثر، ورام هذا القول صاحب شجرة النور الزكية^(١).

وقد ذكر سالم بن عبدالله أيضاً في الفقهاء السبعة بدلاً عن أبي بكر بن عبدالرحمن، وأبي سلمة بن عبدالرحمن^(٢) فكان عبدالله بن المبارك يقول: فقهاء المدينة سبعة، فذكر فيهم سالم بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب، ولم يذكر أبا بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، ولا أبا سلمة بن عبدالرحمن بن عوف^(٣).

والخلاصة أنّ هؤلاء التسعة هم من أكابر التابعين من أهل المدينة الذين منهم الفقهاء السبعة، مع خلاف في تحديد أسماء الفقهاء السبعة منهم، فرأى الحافظ النيسابوري أنّ ما ذكره هو رأي الأكثر من علماء الحجاز، غير أنّ عبدالله بن المبارك جعل سالم بن عبدالله بدل أبي سلمة، وجعل أبو الزناد بدلها أبا بكر ابن عبدالرحمن^(٤).

وعن يحيى بن سعيد القطان أنّه قال: فقهاء المدينة عشرة، فلم يذكر أبا بكر بن عبدالرحمن وذكر أبان بن عثمان، وقبيصة بن ذؤيب^(٥).

وذكر ابن قيم الجوزية المفتين من التابعين بالمدينة فذكر إضافة إلى التسعة المتقدمين: أبان بن عثمان ابن عفان ونافع مولى ابن عمر وعلي بن الحسين بن أبي طالب^(٦).

(١) مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٢٠.

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٤٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١.

(٤) معرفة علوم الحديث ص ٤٣، مقدمة ابن الصلاح ص ١٥٢، السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص ٢٤٠/٢.

(٥) البداية والنهاية ٢٣٤/٩.

(٦) إعلام الموقعين ٢٣/١.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء: سيّدة التابعيات عمرة بنت عبدالرحمن^(١)،
والحسن بن محمد بن الحنفية وياقر العلوم أبا جعفر محمد بن علي^(٢)
أصبح عددهم ستة عشر، فلنلو عنان القلم، ولنذكر نبذة من أنوار حياتهم
تتبرر كل من أراد أن يجمع من حياة الأفاضل والأبطال بعض الحكم.
* ١ * : سعيد بن المسيّب^(٣):

هو سعيد بن المسيّب بن حزن المخزومي (٩٣هـ) المقدّم في فقهاء
المدينة السبعة، المجمع على جلالته وديانته وأمانته، أفضل التابعين وسيد
فقهاءهم، ليس في التابعين أنبل منه.

كان أعلم أهل المدينة بقضايا رسول الله ﷺ وقضايا أبي بكر وقضايا
عمر وقضايا عثمان وأعلمهم بما مضى عليه الناس.

وكان يقال: ليس أحد أعلم بكلّ ما قضى به عمر وعثمان من
سعيد بن المسيّب، وقال هو عن نفسه: ما بقي أحد أعلم بكلّ قضاء
قضاه رسول الله ﷺ، وكلّ قضاء قضاه أبو بكر، وكلّ قضاء قضاه عمر،
وكلّ قضاء قضاه عثمان متي، جمع بين الحديث والتفسير والفقه والورع،
وكان يقال له راوية عمر وحامل علمه.

كان سعيد صهر أبي هريرة، زوجه أبو هريرة ابنته، ولهذا أكثر عنه
من الرواية، فكانت جلّ روايته المسند عن أبي هريرة، وكان أثبت التابعين
في أبي هريرة.

(١) تدريب الراوي ٢/٢٤٢.

(٢) أبناء عليّ بن الحسين زين العابدين ستة منهم حدّثوا وهم: محمد وعبدالله وزيد
وعمر وحسين وفاطمة، وليس فيهم تابعي غير محمد هذا (معرفة علوم الحديث ص
٤٧).

(٣) مرآة الجنان ١/٢١٤ - ٢١٥، تدريب الراوي ٢/٢٤٠، مقدمة ابن الصلاح ص ١٥٢،
إسعاف المبتطأ ص ١٧، البداية والنهاية ٩/١٠٠، إعلام الموقعين ١/٢٢ - ٢٣،
طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٧ - ٥٨، شذرات الذهب ١/١٩١ - ١٩٢، البداية
والنهاية ٩/٩٩ - ١٠١.

أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت وجالس عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقاص، ودخل على أزواج النبي ﷺ: عائشة وأم سلمة، وأخذا عنهما، وسمع عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وصهيبا ومحمد بن مسلمة.

وروى الحديث عن عن أبيه وعن عمر بن الخطاب واختلف في سماعه منه، كما روى عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري وعن جماعة من الصحابة وحديث عن جماعة من التابعين.

وقد وفق الله الدكتور هاشم جميل إلى إخراج مصنف قيم في أربعة مجلدات بعنوان «فقه سعيد بن المسيّب» استطاع أن يجمع فيه فقهه وآراءه ويقوم فيه بدراسة حياته وعصره.

* من مناقب ابن المسيّب:

كان سعيد يتّجر في الزيت، وكان من أروع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا والكلام فيما لا يعني، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث.

وروي عنه أنّه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة - لمحافظته على الصفّ الأوّل.

ومن محاسنه وتواضعه وزهاده في الدنيا ومحبّته للفقراء أنّ عبدالملك بن مروان خطب ابنة سعيد لابنه ووليّ عهده الوليد بن عبدالملك، وكانت من أحسن نساء عصرها وأكثرهم أدبا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فأبى سعيد أن يزوجه بها، وزوجها على درهمين لكثير بن أبي وداعة وهو أحد الفقراء المشغولين على سعيد بالعلم، فاحتال عليه عبدالملك حتى ضربه بالسياط، ولما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبدالملك ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل وأطافه المدينة فرأته امرأة وهو على تلك الحال فقالت: ما هذا الخزي يا سعيد؟

فقال لها من الخزي فررنا إلى ما ترين، ومناقبه ومآثره أكثر من أن تحصر.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله، وقوله: من استغنى بالله افتقر الناس إليه، وقوله: الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها، ويقول: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، وقوله: ما يثس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء.

* شهادة الصحابة والتابعين وتابعيهم له بالعلم والفضل:

قال عبدالله بن عمر لرجل سأله عن مسألة: انت ذاك - يعني سعيد بن المسيّب - فأسأله ثم ارجع إليّ وأخبرني، ففعل ذلك وأخبره، فقال ابن عمر: ألم أخبرك أنّه أحد العلماء؟.

ومرّ سعيد بن المسيّب بعبدالله بن عمر فسلمّ عليه ومضى، فالتفت ابن عمر إلى أصحابه وقال: لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسره، وكان يقول: سعيد أحد المتقين.

وكان ابن عمر يرسل إلى سعيد بن المسيّب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وقال القاسم بن محمد - أحد الفقهاء السبعة - : هو سيّدنا وأعلمنا.

وقال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه: سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدّمه من الآثار وأفضلهم في رأيه.

وقال ابن شهاب الزهري: جالسته سبع حجج وأنا لا أظنّ عند أحد علماً غيره.

وقال مكحول وقتادة والزهري وغيرهم: ما رأينا أعلم من ابن المسيّب.

وسئل ابن شهاب الزهري ومكحول من أفقه من لقيتما؟ فقالا:
سعيد بن المسيّب.

وقال مكحول: طفت الأرض في طلب العلم، فما لقيت أعلم من
سعيد بن المسيّب.

وقال قتادة: ما جمعت علم الحسن إلى علم أحد من العلماء إلا
وجدت له عليه فضلاً، غير أنه إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن
المسيّب يسأله.

وعن قتادة أيضاً أنه قال: ما رأيت أحداً قط أعلم بالحلال والحرام
من سعيد.

وقال علي بن المدني: لا أعلم في التابعين أوسع منه علماً، وإذا
قال سعيد مضت السنة فحسبك به، وهو عندي أجلّ التابعين.

وكانت وفاته بالمدينة سنة ٩٤هـ على أحد الأقوال، وكان يقال لهذه
السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها منهم.

* ٢ * : عروة بن الزبير^(١):

هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي (٩٤هـ) من سادات التابعين
وأعلامهم وصالحهم، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، كثير الحديث
حافظاً للعلم حجّة، جامعاً بين السيادة والعلم والعبادة، ولقد كان أصحاب
رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر، عالماً بالسير، وهو أول
من صنّف المغازي، وقد نشره الأعظمي سنة ١٤٠١هـ.

روى عن أبيه الزبير بن العوام - أحد العشرة الذين شهد لهم الرسول
بالجنت - وعن أمه أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - وعن أخيه عبدالله

(١) شجرة النور الزكية ص ٢٠، مرآة الجنان ٢١٦/١ - ٢١٨، البداية والنهاية ١٠١/٩ -
١٠٣، شذرات الذهب ١٩٢/١ - ١٩٣، إسعاف المبتطأ ص ٢٩، إعلام الموقعين
٢٢/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٨ - ٦٠.

وعن علي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين وعن زيد بن ثابت وسعيد بن زيد والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأم سلمة وغيرهم من الصحابة.

وكان من الآخذين عن خالته عائشة الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقهين بها، وكان يقول هو عن نفسه: لقد رأيتني قبل أن تموت عائشة بأربع سنين وأنا أقول: لو ماتت عائشة لما ندمت على شيء إلا كنت سألتها عنه، فكان بحرصه ذاك أعلم الناس بحديثها، وفي ذلك يقول قبيصة بن ذؤيب: كان عروة بن الزبير يغلبنا بدخوله على عائشة، ولذلك تبتوا عروة المكانة السامية بين أقرانه واشتهر بالعلم والفتوى وأصبح من الذين ينتهى إلى قولهم، ومن جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبدالعزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة.

* من مناقب عروة:

كان عروة صواماً قواماً حتى روي أنه مات وهو صائم، وكان يقرأ كل يوم ربيع القرآن ويقوم به في الليل، ومما اشتهر عنه أنه كان أيام الرطب يفتح منفذاً في بستانه للناس فيدخلون ويأكلون، فإذا ذهب الرطب أغلق المنفذ، وكان كلما دخل بستانه ردّ قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١) حتى يخرج منه.

ومما يروى في صبره على كوارث الزمان أنه أصيب في رجله - وهو في سفر صحبة ابنه محمد أحبّ أولاده إليه - فأشاروا عليه بقطعها، فقال لهم: إن كان ولا بدّ فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحسّ بذلك ولا أشعر به، فلما تهيأ للصلاة وكبر قطعوا رجله فما تحرك ولا اختلج، فلما أتمّ صلاته رفع يديه بالدعاء قائلاً: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أنني لم أمش بها إلى سوء قطّ، اللَّهُمَّ لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد

(١) سورة الكهف - من الآية - ٣٩.

على ما أخذت وعلى ما عافيت، فلما قام من موضعه أخبروه أن فرسا رفست ابنه محمد فمات، فرفع عروة يديه بالدعاء وقال: الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة - وفي رواية كان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة - فلئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت، ولما قضى حاجته من سفره رجع إلى المدينة، وما سمع أنه ذكر رجله ولا ولده، ولا شكاً ذلك إلى أحد حتى وصل المكان الذي أصيبت فيه رجله فتلا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(١) فلما دخل المدينة المنورة أتاه الناس يسلمون عليه ويعزّونه في رجله وولده.

* ما أثر عنه من أقوال:

رأى عروة رجلاً يصلي صلاة خفيفة، فقال له: يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك؟ إنني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح.

وكان يقول: رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزاً طويلاً، وكان يقول لبنيه: إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها والسيئة تدل على أختها.

* شهادة أقرانه من التابعين وتابعيهم له بالفقه وسعة العلم:

قال أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام - أحد فقهاء المدينة المعدودين -: العلم لواحد من ثلاثة، لذي حسب يزيته، أو لذي دين يسوس به دينه، أو مختلط بسُلطان يتحفه بعلمه، - وفي رواية - ويتخلص منه بالعلم فلا يقع في هلكة - ولا أعلم أحداً أشرط لهذه الخلال من عروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز، كلاهما حسيب دين من السلطان بإزاء.

وقال عمر بن عبدالعزيز: ما أحد أعلم من عروة بن الزبير، ولذلك

(١) سورة الكهف - من الآية ٦٢.

كان عمر يرجع إليه في زمن ولايته على المدينة^(١).

وقال ابن شهاب الزهري: عروة بحر لا تكدره الدلاء، وقال: رأيت عروة بحرا لا يتزف.

وقال عراق بن مالك: عروة بن الزبير أغزر أهل المدينة حديثاً.

وكان عبدالملك بن مروان الأموي يقول: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير.

عاش عروة بعد قطع رجله ثماني سنين، وكانت وفاته على أشهر الأقوال في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤.

* ٣ * : أبو بكر بن عبدالرحمن^(٢):

هو أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي (٩٤هـ) والمشهور أنّ اسمه وكنيته واحد، وأبوه الحارث من الصحابة، وهو أخو أبي جهل لأمّه.

كان من فقهاء المدينة المعدودين وأحد أئمة المسلمين في عصره.

كان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم، وكان يلقب براهب قریش لعبادته وفضله، ولكثرة صلواته وصيامه.

روى عن أبيه وأبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة،

(١) كان عمر بن العزيز في زمن ولايته على المدينة لا يقضي في أمر ولا يقطع برأي حتى يرجع بالنظر إلى عشرة من فقهاء المدينة في عصره اختصهم بالفتوى لما عرفوا به من الفضل والصلاح وهم: عروة بن الزبير وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد وسالم بن عبدالله بن عمر وأخوه عبيدالله بن عبدالله بن عمر وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وعبدالله بن عامر بن ربيعة (انظر: البداية والنهاية ٧١/٩ و١٠٢).

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٩، إسعاف المبطأ ص ٤٣، البداية والنهاية ١١٥/٩ - ١١٦، شذرات الذهب ١٩٣/١، مرآة الجنان ٢١٨/١.

وروى أيضاً عن عمّار بن ياسر وأسماء بنت أبي بكر وغيرهم.
والصحيح أنّه توفي في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ، وقيل في
التي قبلها، وقيل في التي بعدها.

* ٤ * : أبو سلمة بن عبدالرحمن^(١):

هو أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف الزهري، قيل اسمه عبدالله
وقيل اسمه إسماعيل، وقيل اسمه كنيته.
وهو أحد فقهاء المدينة وأحد الأئمة الكبار ومن أعيان التابعين
وفقهاءهم وساداتهم.

كان واسع العلم، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وعدّ من
المشهورين بالرواية عن أبي هريرة.

روى عن أبيه عبدالرحمن بن عوف - أحد العشرة الذين شهد لهم
الرسول بالجنّة - وروى عن عثمان بن عفّان وجابر بن عبدالله وعبدالله بن
عمر وعائشة وأمّ سلمة وغيرهم.

قال الشعبي: قدم أبو سلمة الكوفة وكان يمشي بيني وبين رجل،
فسئل: من أعلم من بقي؟ فتمنّع وتزجّر ساعة، ثمّ قال: رجل بينكما.

وقال ابن شهاب الزهري: أربعة وجدتهم بحورا: سعيد بن المسيّب
وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبدالرحمن وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن
مسعود.

توفي بالمدينة في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ وقيل بعد ذلك.

(١) إسعاف المبطل ص ٤٥، شذرات الذهب ١/١٩٥، مرآة الجنان ١/٢٢٠، شجرة النور
الزكية ٢٠، البداية والنهاية ٩/١١٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١.

* ٥ * : علي بن الحسين بن علي^(١) :

هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي (٩٤هـ) الإمام الرابع من أئمة الشيعة الإمامية، الملقّب بزین العابدين لكثرة عبادته، أروع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عزّ وجلّ.

روى الحديث عن أبيه الحسين وعمّه الحسن سيّدني شباب أهل الجنة، وعن جابر بن عبدالله وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة أمّهات المؤمنين وكثير من الصحابة.

* من مناقب علي بن الحسين :

كان علي بن الحسين عالياً رفيعاً ورعاً، وكان ورده في اليوم واللييلة ألف ركعة إلى أن مات ومناقبه ومحاسنه كثيرة شهيرة، تقتصر منها على نبذة يسيرة.

روي أنّه كان كثير البرّ بأمّه، حتى قيل له: إنّنا نراك من أبرّ الناس بأملك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخشى أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه.

وروي أنّه كان إذا توضّأ اصفرّ لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تدرون بين يدي من أقوم؟.

ووقع حريق في بيت هو فيه، وهو ساجد وجعلوا يقولون يا ابن رسول الله، النار فما رفع رأسه، فقيل له في ذلك، فقال: ألهمتني عنها النار الأخرى.

وروي أنّه تكلم رجل فيه وافترى عليه، فقال له زين العابدين: إن كنت كما قلت فأستغفر الله، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك، فقام إليه الرجل وقبّل رأسه، وقال: جعلت فداك لست كما قلت فاغفر لي، فقال:

(١) شذرات الذهب ١/١٩٤، مرآة الجنان ١/٢١٨ - ٢٢٠، البداية والنهاية ٩/١٠٣ -

١١٥، إسعاف المبطأ ص ٣٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٣.

غفر الله لك، فقال الرجل: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولمّا حجّ أراد أن يلبيّ فارتعد وقال: أخشى أن أقول لبّيك اللهم لبّيك، فيقال لي: لا لبّيك، فشجّعه من كان معه على التلبية، فلمّا لبيّ غشي عليه حتى سقط عن الراحلة.

وكان يعول مائة أهل بيت بالمدينة لا يدرون من يعطيهم، فلمّا مات عليّ بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنّه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، فكان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات عليّ بن الحسين، ولمّا مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأراذل والمساكين من فقراء أهل المدينة.

وخرج يوماً من المسجد فسبّه رجل فانتدب الناس إليه، فقال: دعوه، ثمّ أقبل عليه فقال: ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحي الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بمال، فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنك من أولاد الأنبياء، وكان إذا ناول المسكين الصدقة قبله ثمّ ناوله.

وروي أنّ جارية له سكبت عليه ماء ليتوضّأ فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: إنّ الله يقول ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ﴾، فقال: قد كظمت، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال: عفا الله عنك، فقالت ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) قال: أنت حرّة لوجه الله تعالى.

وروي أنّه كان جالساً في جماعة فسمع داعية في بيته فنهض فدخل منزله ثمّ رجع إلى مجلسه، فقيل له: أمن حدث كانت الداعية؟ قال: نعم، فعزّوه وتعجّبوا من صبره، فقال: إنّنا أهل بيت نطيع الله عزّ وجلّ فيما نحبه، ونحمده على ما نكره.

ولمّا حجّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن

(١) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام، فنصب له منبر جلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، وبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين، وكان أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً وأشرفهم ذاتاً وطبعاً وأصلاً وفرعاً، فطاف بالبيت فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالاً له وهيبة واحتراماً، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه - مخافة أن يرغب فيه أهل الشام - وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه، فقال الشامي: من هذا يا أبا فراس؟ فأنشأ الفرزدق قصيدة في أكثر من عشرين بيتاً مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

فغضب هشام بن عبد الملك من ذلك وأمر بحبس الفرزدق، فأنفذ له علي بن الحسين مالاً، فلم يقبله الفرزدق وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل ونصرة للحق وقياماً بحق رسول الله ﷺ في ذريته، فأرسل إليه علي بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك في ذلك، وأقسمت عليك بالله لتقبلته، فقبله منه^(١).

وروي أن قوماً من أهل العراق ذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما، ثم ابتدؤوا في عثمان فقال لهم: أخبروني أنتم من المهاجرين الأولين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢) قالوا: لا، قال: فهل أنتم من الذين ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣) قالوا: لا، فقال لهم: أما أنتم فقد

(١) البداية والنهاية ١٠٨/٩ - ١٠٩، مرآة الجنان ٢٦٦/١ - ٢٦٧، شذرات الذهب ٢٥١/١ - ٢٥٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

أقررتهم وشهدتهم على أنفسهم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) فقوموا لا بارك الله فيكم ولا قرب دوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله.

وكان كثير البكاء فذكروا له ذلك فقال: إن يعقوب بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، ولم يعلم أنه مات، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، فتراهم حزنهم يذهب من قلبي أبداً؟.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إن قوماً عبدوا الله عز وجل رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وآخرين عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار، وكان يقول: الفكرة مرآة تري المؤمن حسناته وسيئاته.

وقال لابنه: يا بني لا تصحب فاسقاً فإنه يبيعك بأكله وأقل منها يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا بخيلاً فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، ولا كذاباً فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا قاطع رحم فإنه ملعون في كتاب الله.

وكان يقول: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يطلب حيث كان.

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

وروي عنه أنه كان يقول: سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الأتقياء.

ومات لرجل ولد فجزع عليه، فقال له الحسين بن علي: إن من وراء ابنك خلافاً ثلاثاً: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله، ورحمة الله عز وجل.

وكان يقول: إن الله يحب المؤمن المذنّب التوّاب، وقال: التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ لكتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقى منهم تقاه، قالوا: وما تقاه؟ قال: يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى.

* شهادة الصحابة والتابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم والفقه:

عن زر بن حبيش قال: كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس: مرحباً بالحبيب ابن الحبيب.

وروي عن سعيد بن المسيّب وأسلم - مولى عمر بن الخطاب - وجماعة من السلف أنهم قالوا: لم يكن في أهل البيت مثل علي بن الحسين، وقال سعيد: وما رأيت أورع منه.

وقال ابن شهاب الزهري: كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أفقه منه، وقال: ما رأيت قرشياً أورع منه ولا أفضل.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري: علي بن الحسين أفضل هاشمي أدركته.

وقال زيد بن أسلم: ما رأيت مثل علي بن الحسين قط.

واختلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها زين العابدين علي بن الحسين، والمشهور أنه توفي في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ، وقيل، قبل ذلك بسنة وقيل بستين، ودفن بالبقيع.

* ٦ * : القاسم بن محمد^(١) :

هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (١٠٧هـ) من كبار سادات التابعين، وأحد فقهاء المدينة السبعة الجلّة، المشهورين ومن أفضل أهل المدينة، وأعلم أهل زمانه.

نشأ في حجر عمّته عائشة رضي الله عنها فأكثر عنها من الرواية، وكان من الذين لا يكادون يتجاوزون قولها، وكان أعلم الناس بحديثها، وله روايات كثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم وعن غيرهم.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه :

قال يحيى بن سعيد: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم بن محمد، وعن أبي الزناد قال: ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم بن محمد، وقال الإمام مالك: كان القاسم بن محمد من فقهاء هذه الأمة، وقال سفيان بن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه.

وعن عمر بن عبدالعزيز قال: لو كان أمر الخلافة إليّ ما عدلت عن القاسم، وذلك لأنّ سليمان بن عبد الملك عهد إلى عمر بالخلافة وليزيد من بعده.

اختلف في تاريخ وفاته، والأشهر أنّه توفي سنة ١٠٧هـ.

* ٧ * : سالم بن عبدالله^(٢) :

هو سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب (١٠٦هـ) من سادات

(١) مرآة الجنان ٢٥٦/١، البداية والنهاية ٢٥٠/٩، شذرات الذهب ٢٣٩/١ - ٢٤٠، مرآة الجنان ٢٥٦/١، إعلام الموقعين ٢٢/١، إسعاف المبتطأ ص ٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٢٠، مرآة الجنان ٢٥٥/١، شذرات الذهب ٢٣٦/١ - ٢٣٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١، معرفة علوم الحديث ص ٤٣، تدريب الراوي ٢٤٠/٢، البداية والنهاية ٢٣٤/٩ - ٢٣٥، إسعاف المبتطأ ص ١٥، طبقات ابن سعد ١٩٦/٥ إسعاف المبتطأ ص ١٤.

التابعين وعلمائهم وثقاتهم، الفقيه العابد القدوة، أحد الأئمة الفقهاء السبعة بالمدينة على رأي ابن المبارك.

كان من العباد الزهاد خشن العيش متواضعا يخدم بيده ويقوم على أعماله بنفسه.

وكان له من الورع شيء كثير، ولا يقبل من الخلفاء عطاء، ومن مناقبه أنّ هشام بن عبدالمك، دخل الكعبة حاجاً فرأى سالمًا واقفاً، فقال له: سلني حوائجك، فقال سالم: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن خرجت من بيت الله فسلني حاجتك، فقال سالم: من حوائج الدنيا أمن حوائج الآخرة؟ قال هشام: من حوائج الدنيا، قال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه:

كان أبوه عبدالله بن عمر يقبله ويقول: ألا تعجبون من شيخ يقبل شيخا، وكان يقول فيه:

يلومني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم

وكان سعيد بن المسيّب يقول: عبدالله أشبه ولد عمر به، وسالم أشبه ولد عبدالله به.

وقال ربيعة الرأي - شيخ مالك -: كان الأمر - يعني بالمدينة - إلى سعيد بن المسيّب، فلمّا مات أفضى الأمر إلى القاسم وسالم.

وقال الإمام مالك رضي الله عنه: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه.

توفي سنة ١٠٦هـ وقيل في التي بعدها.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الأعلام الثلاثة - علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله - الذين فاقوا أهل المدينة فقها وورعا

هم بنو خالة، وأمّهاتهم بنات ملك الفرس يزدجرد، سبين في عهد عمر بن الخطاب فحصلت واحدة لعبدالله بن عمر فأنجبت سالمًا، والأخرى لمحمد بن أبي بكر فأنجبت القاسم والثالثة للحسين بن علي فأنجبت له عليًا زين العابدين^(١).

* ٨ * : عبيدالله بن عبدالله^(٢):

هو عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (٩٨هـ): ابن أخي عبدالله بن مسعود وأحد الفقهاء السبعة، ومؤدب عمر بن عبدالعزيز، من سادات التابعين وأعلامهم وفضلائهم.

له روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة، فقد روى عن أبيه وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر.

والنعمان بن بشير وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة وميمونة وأم سلمة أمهات المؤمنين وغيرهم من الصحابة.

ومما يروى عنه أن امرأة من هذيل قدمت المدينة فخطبها كثير من الناس لفرط جمالها، فنظم عبيدالله فيها شعرا، استشهد فيه بأقرانه من الفقهاء الستة، وهو سابعهم، فقال:

أحبك حبًا لا يحبك مثله	قريب ولا في العاشقين بعيد
وحبك يا أم الصبي مدلهي	شهيد أبي بكر فنعم شهيد
ويعرف وجدي قاسم بن محمد	وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفي سليمان علمه	وخارجة يبدي بنا ويعيد
متى تسألني عما أقول تخبري	فلله عندي طارف وتليد

(١) شذرات الذهب ١/١٩٤، مرآة الجنان ١/٢١٩، البداية والنهاية ٩/١٠٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠، شذرات الذهب ١/٢٠٦، البداية والنهاية ٩/١٧٧، شجرة النور الزكية ص ١٩، إسعاف المبطأ ص ٣٨، شذرات الذهب ١/٢٠٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠، إعلام الموقعين ١/٢٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/٣٠.

فقال سعيد بن المسيّب: فقد أمنت أن تسألنا، ولو سألتنا ما طمعت أن نشهد لك بزور.

شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه:

قال ابن شهاب الزهري: أدركت أربعة بحور، فذكر عبيدالله، وقال: سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أنني اكتفيت حتى لقيت عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، فإذا كأني ليس في يدي شيء.

وقال أيضاً: كنت لا تشاء أن تجد عند عبيدالله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت.

وقال عراك بن مالك، وقد سئل من أفضه من رأيت؟ قال: أعلمهم سعيد بن المسيّب، وأغزهم في الحديث عروة، ولا تشاء أن تفجر من عبيدالله بحرا إلا فجرته.

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول: لأن يكون لي مجلس من عبيدالله أحب إليّ من الدنيا.

وكان يقول: إني لأشتري ليلة من ليالي عبيدالله بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة حفظك؟ فقال: أين أذهب بكم، والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهّم، وتنقيحاً للأدب.

ولا شك أنّ قول عمر بن عبدالعزيز يدلّ دلالة واضحة على مدى المنزلة التي كان يحظى بها عبيدالله عنده، ولا غرابة في ذلك فقد كان عبيدالله مؤدّب عمر، وبالتالي فقد كان القائم على رعايته وسياسته بالتعليم والتأديب والتهديب، وذاك هو شأن المؤدبين في ذلك الوقت.

توفي عبيدالله سنة ٩٨هـ على الأصح، وقيل قبل ذلك.

* ٩ * : خارجه بن زيد^(١):

هو خارجه بن زيد بن ثابت الأنصاري (١٠٠هـ) الجليل القدر فضلاً وعلماً وعملاً، والده من أكابر الصحابة وصدورهم.

كان خارجه يفتي بالمدينة، وكان من فقهاها المعدودين، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم.

وكان عالماً بالفرائض وتقسيم الموارث، ولا غرو في هذا فقد تفقه على والده زيد الذي كان أعلم الصحابة بعلم الفرائض بشهادة الرسول الأكرم والصحابة رضوان الله عليهم.

وقال مصعب: كان خارجه بن زيد وطلحة بن عبدالله بن عوف في زمانهما يستفتيان وينتهي الناس إلى قولهما، ويقسمان الموارث بين أهلها من الدور والنخل والأموال، ويكتبان الوثائق للناس.

توفي خارجه سنة ١٠٠هـ.

* ١٠ * : سليمان بن يسار^(٢):

هو سليمان بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وهو أخو عطاء وعبد الملك وعبدالله بن يسار، أحد الفقهاء السبعة والأئمة الأعلام، ومن أكابر التابعين وساداتهم وعلماهم.

كان من المجتهدين في العبادة وله روايات كثيرة.

روى عن زيد بن ثابت وأبي هريرة وعبدالله بن عباس والمقداد وجابر بن عبدالله وعائشة ومولاته ميمونة وأم سلمة أمهات المؤمنين.

كان سعيد بن المسيّب يستفتيه السائل فيقول: اذهب إلى سليمان بن يسار فإنه أعلم من بقي اليوم، وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي

(١) شجرة النور الزكية ص ٢٠، البداية والنهاية ١٨٧/٩، شذرات الذهب ٢١٣/١، مرآة الجنان ٢٣٦/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠.

(٢) انظر: ما تقدم من ترجمة زيد.

طالب: سليمان عندنا أفهم من ابن المسيّب، ولذلك قال الإمام مالك: سليمان من أعلم الناس عندنا بعد سعيد بن المسيّب.

وقد يكون سليمان أفهم من ابن المسيّب في مسائل الطلاق خاصّة ولذلك قال قتادة: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالطلاق؟ فقالوا: سليمان بن يسار.

توفي سليمان سنة ١٠٧هـ وهي نفس السنة التي توفي فيها القاسم بن محمد.

* ١١ * : عمرة بنت عبدالرحمن^(١):

هي الفقيهة الأنصاريّة الفاضلة العدل الضابطة لما يؤخذ عنها: عمرة بنت عبدالرحمن بن سعد بن زرارة (٩٨هـ) أخي أبي أمامة أسعد بن زرارة، كانت من أهل الفتيا بالمدينة وسيّدة التابعيات.

كانت في حجر عائشة فأكثرت من الرواية عنها، ولذلك فإنّ عمر بن عبدالعزيز حين عزم على تدوين الحديث بعث بكتاب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عامله وقاضيه على المدينة يطلب منه جمع أحاديث الرسول، وتتبع ما كان عند خالته عمرة بنت عبدالرحمن، وما ذاك إلاّ لما عرف عنها من ضبط ودقّة في الرواية، ومما جاء في هذا الكتاب: اكتب إليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمرة فإنّي قد خشيت دروس العلم وذهابه^(٢).

وكان سفيان بن عيينة يقول: أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة:

(١) إسعاف المبطأ ص ١٧، شجرة النور الزكية ص ٢٠، البداية والنهاية ٢٤٤/٩، مرآة الجنان ٢٥٦/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠ - ٦١، طبقات ابن سعد ١٧٤/٥، الحجوري: الفكر السامي ٣٥٦/٢ مرآة الجنان ٢٣١/١، شذرات الذهب ٢٠٧/١، إسعاف المبطأ ص ٢٩، تدريب الراوي ٢٤٢/٢.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، المقدّمة.

القاسم بن محمد وعروة بن الزبير وعمرة بنت عبدالرحمن، توفيت سنة ٩٨هـ.

* ١٢ * : نافع مولى ابن عمر^(١):

هو أبو عبدالله نافع بن سرجس الديلمي (١١٧هـ) مولى عبدالله بن عمر، كان من الثقات النبلاء والأئمة الأجلاء، ومن المشهورين بالحديث الضابطين الأثبات الذين يؤخذ عنهم.

روى عن مولاه عبدالله بن عمر وعن رافع بن خديج وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة وأم سلمة وغيرهم من الصحابة، ومعظم حديث عبدالله بن عمر عليه دار.

بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى مصر يعلمهم السنن، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة.

وكان مالك يقول: كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر، لا أبالي أن أسمعه من أحد.

وفي رواية: كنت إذا سمعت من نافع يحدث عن ابن عمر، لا أبالي أن لا أسمعه من غيره.

وقال الإمام البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب، لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة.

توفي نافع سنة ١١٧هـ.

(١) البداية والنهاية ٣١٩/٩، مرآة الجنان ٢٧٧/١، إسعاف المبتطأ ص ٤٠، شذرات الذهب ٢٦٩/١.

* ١٣ * : الحسن بن محمد بن الحنفية^(١) :

هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، كان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه، تابعي ثقة، من عقلاء قومه وعلمائهم، ومن أفاضل أهل البيت، ومن أعلم الناس بالاختلاف صحيح الحديث.

روى عن أبيه محمد بن الحنفية وابن عباس وجابر بن عبدالله وسلمة بن الأكوخ وغيرهم.

قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بما اختلف فيه من الحسن بن محمد، وما كان زهريكم - يعني ابن شهاب - هذا إلا غلاماً من غلمانه.

اختلف في سنة وفاته فقيل سنة ٩٥هـ وقيل سنة ١٠١هـ في أيام خلافة عمر بن عبدالعزيز.

* ١٤ * : قبيصة بن ذؤيب^(٢) :

هو قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة الخزاعي المدني، كان من فقهاء المدينة، روى عن جمع كثير من الصحابة، فروى عن أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وعائشة وأم سلمة.

كان أول أمره مقيماً بالمدينة ولذلك عدّ من فقائها، ثم انتقل إلى دمشق، واتخذ بها داراً، وكانت له منزلة عند عبدالملك بن مروان، وكان صاحب سرّه ويدخل عليه بغير إذن.

قال الأعمش: فقهاء المدينة أربعة، فذكر فيهم قبيصة بن ذؤيب، وقال: كان قبيصة من أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت.

(١) البداية والنهاية ١٤٠/٩، إسعاف المبطل ص ١٠، شذرات الذهب ٢١٨/١، مرآة الجنان ٢٣٩/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٣.

(٢) البداية والنهاية ٧٣/٩، مرآة الجنان ٢٠٧/١، شذرات الذهب ١٧٩/١، إسعاف المبطل ص ٣٤، إعلام الموقعين ٢٢/١، ٢٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٢.

وقال أبو الزناد: كان يعدّ فقهاء المدينة أربعة، فذكر فيهم قبيصة.

وقال يحيى بن سعيد القطان: فقهاء المدينة عشرة فذكر قبيصة بن ذؤيب أخذهم، وكان ابن شهاب الزهري يقول: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة، وقال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم منه.

ثم لما انتقل إلى دمشق عدّ من فقائها، ولذلك وصفه البعض بفقيه دمشق، وعدّه بعضهم في المفتين بالشام.

توفي قبيصة بدمشق سنة ٨٦هـ وقيل سنة ٨٧هـ.

* ١٥ * : محمد بن علي بن الحسين^(١):

هو أبو جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الإمام الخامس من أئمة الشيعة الإمامية وهو والد جعفر الصادق، لقّب بالباقر لأنه بقر العلم أي شقّه وتوسّع فيه.

وهو تابعي جليل كبير القدر كثير الحديث وأحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً، كان ذاكراً خاشعاً صابراً رفيع النسب عالي الحساب عارفاً بالخطرات كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات.

روى عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وغيرهما من الصحابة، وحدث عنه جماعة من كبار التابعين.

قال عبدالله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند محمد بن علي.

* ما أثر عنه من أقوال:

لأبي جعفر الباقر كلام نافع في الحكم والمواعظ، من ذلك قوله: أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مئونة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكرك، وإن

(١) شذرات الذهب ٢٦٠/١، مرآة الجنان ٢٧٣/١ - ٢٧٤، البداية والنهاية ٣٠٩/٩ -

ذكرت أعانوك، قوّالون بحقّ الله، قوّامون بأمر الله... وأنزل الدنيا كمنزل نزلته وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء.

وكان يحرّض الناس على ذكر الله تعالى، فيقول: الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر.

وكان يقول: من دخل قلبه صافي دين الله شغله عمّا سواه، وما عسى أن تكون الدنيا؟ هل هي إلّا مركباً ركبتة، أو ثوباً لبسته، أو امرأة أصبتها.

وكان يقول: الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكّل أوطناه.

وكان يقول: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلّا الدعاء، وإنّ أسرع الخير ثوابا البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحوّل عنه، وأن يؤذي جلسيه بما لا يعنيه.

وكان يقول: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلّا حرّم الله وجه صاحبها على النار، فإن سألت على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلّة، وما من شيء إلّا وله جزاء إلّا الدمعة فإنّ الله يكفّر بها بحور الخطايا، ولو أنّ باكياً بكى من خشية الله في أمة رحم الله تلك الأمة.

وكان يقول: كان لي أخ في عيني عظيماً، وكان الذي عظّمه في عيني صغر الدنيا في عيني.

وقال لابنه: إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كلّ خبيثة، إنك إذا كسلت لم تؤدّ حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حقّ.

توفي سنة ١١٤هـ وقيل غير ذلك، ودفن بالبقيع مع أبيه زين العابدين علي بن الحسين.

* ١٦ * أبان بن عثمان بن عفان^(١):

هو أبان بن عثمان بن عفان الأموي (١٠٥هـ) كان من فقهاء التابعين وعلمائهم، روى عن أبيه.

قال يحيى بن سعيد القطان: فقهاء المدينة عشرة، فذكر أبان بن عثمان أحدهم.

وقال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه.

توفي سنة ١٠٥هـ.

وعن هؤلاء بالخصوص، وعن غيرهم من كبار أعلام هذا الدور انتقل العلم والفقه بالمدينة إلى طبقة من صغار التابعين ممن شرفوا بقاء بعض الصحابة وإن كان أكثر تلقّهم للعلم عن كبار فقهاء التابعين، فخلفوا أسلافهم في الفقه والعلم، وكان من أشهرهم بالمدينة عشرة أعلام، وهم:

- ١ - ابن شهاب الزهري^(٢):

هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري (١٢٤هـ) تابعي جليل وأحد الأعلام من أئمة الإسلام، رأى عشرة من الصحابة، وحفظ علم الفقهاء السبعة.

كانت له عين حافظة وقلب ذكي، فكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً بمتون الأخبار حتى إنه كان يقول عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته، حفظ القرآن في نحو من ثمانية وثمانين يوماً وجالس

(١) البداية والنهاية ٢٣٣/٩ - ٢٣٤، شذرات الذهب ٢٣٣/١، مرآة الجنان ٢٥٤/١.

(٢) البداية والنهاية ٣٤٠/٩ - ٣٤٥، إسعاف المبطأ ص ٣٧، شذرات الذهب ٢٨٤/١ -

٢٨٥، مرآة الجنان ٢٨٦/١، تذكرة الحفاظ ١٠٩/١ - ١١٠، طبقات ابن سعد ٢/

٣٨٨ - ٣٨٩، إعلام الموقعين ٢٢/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٤.

سعید بن المسيّب ثمانی سنین تمس رکبته رکبته، وكان یخدم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ويستسقي له الماء، حتى ظنّت جارية عبيدالله أنّ ابن شهاب خادمه، وكان يدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ويكتب عنهم كلّ ما سمع منهم حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه، وقد احتاج أهل عصره إليه.

وفي ذلك يقول صالح بن كيسان: اجتمعت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم، فقلنا نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثمّ قال نكتب ما جاء عن أصحابه فإنّه سنّة، وقلت أنا: ليس بسنّة فلا نكتبه، فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت.

ومكث الزهري خمسا وأربعين سنة يختلف من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى الحجاز حتى أصبح فقيهاً جامعاً، فكان ابن شهاب بعد ذلك يقول: ما صبر أحد على العلم صبري ولا نشره أحد نشري.

وكان لشدة حرصه على تعهد العلم، ينزل بالأعراب يعلمهم لثلاً ينسى العلم، وكان إذا رجع من عند عروة بن الزبير يحدث جاريته ويسرد عليها ما سمعه منه، فتقول له الجارية: والله ما أدري ما تقول فيقول لها: اسكتي، إني لا أريدك وإنما أريد نفسي.

ولذلك كان ينصح بمذاكرة العلم دوماً واستمراراً، ويقول: إنّما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة، ويقول: إنّ هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رقيقاً تظفر به، ويقول: للعلم واد فإذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه فإنك لا تقطعه حتى يقطع بك.

ومن لطائف ما يروى عن شغفه بطلب العلم أنّه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كلّ شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوماً: والله إنّ هذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر.

روى عن عبدالله بن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك ومحمود بن الربيع وسعيد بن المسيّب وأبي أمامة بن سهل وطبقتهم من صغار الصحابة

وكبار التابعين، وكان كثير الحديث والعلم والرواية له نحو ألفي حديث، حتى قال الإمام مالك: كان ابن شهاب إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج، وما رثي أحد جمع بعد رسول الله ﷺ ما جمع ابن شهاب.

وكان يطلب العلم بالخصوص من سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إنّ هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله ﷺ، وأدب رسول الله به أمته، أمانة الله إلى رسوله ليؤدّيه على ما أدى إليه، فمن سمع علماً فليجعل له أمامه حجّة فيما بينه وبين الله.

ويقول: إنّ من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه، وفي رواية: أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب، فإنّ من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه.

ويقول: لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى، ويقول: إياك وغلول الكتب، فليل له: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أهلها.

وكان يقول: العلم خزائن تفتحها المسائل.

وسئل عن الزاهد فقال: من لم يمنع الحلال شكره، ولم يغلب الحرام صبره.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالحفظ والعلم:

قال عمر بن عبدالعزيز: لا أعلم أحداً أعلم بستة ماضية من الزهري، وقال: ما رأيت أحداً أحسن سوقاً للحديث إذا حدّث منه.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أنصّ للحديث من الزهري، وقال: ولقد جالست جابراً وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت

أحدًا أسبق للحديث من الزهري، وقال الإمام أحمد: أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهري، وقال أيوب السختياني: ما رأيت أحدًا أعلم من الزهري.

وسئل عراك بن مالك من أعلم من رأيت؟ فقال: أعلمهم بالحلال والحرام ابن المسيب، وأغزرهم حديثاً عروة، ولا تشاء أن تفجر من عبيدالله بحرا إلا فجرته، وأعلم هؤلاء عندي، وفي رواية وأفقههم عندي، ابن شهاب لأنه جمع علمهم إلى علمه.

وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه، وقال: لو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت ما يحسن غير هذا، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعاً.

وقال يحيى بن سعيد: ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب، وكان يقال: محدثو أهل الحجاز ثلاثة، الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج، وفصحاء زمانهم أربعة: الزهري وعمر بن عبدالعزيز وموسى بن طلحة وعبيدالله بن عبدالله.

ولمّا حان أجله وهو بموضع يقال له شعب زبدا، في آخر أعمال الحجاز وأول أعمال فلسطين، أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليمرّ المارّ فيدعو له، فدفن هناك، وكانت وفاته يوم ١٧ رمضان من سنة ١٢٤هـ وقيل قبل ذلك بسنة، وقيل بعدها بسنة.

- ٢ - عبدالرحمن بن القاسم^(١):

هو عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (١٢٦هـ) الفقيه ابن الفقيه المدني، شيخ الإمام مالك وخال جعفر الصادق.

(١) البداية والنهاية ٢١/١٠، شذرات الذهب ٢٩٥/١، مرآة الجنان ٢٩٠/١، تذكرة الحفاظ

١٢٦/١، إسعاف المبطأ ص ٢٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٥.

كان إماماً ورعاً ثقة، كثير العلم، كبير القدر، روى عن أبيه القاسم بن محمد وأسلم مولى عمر بن الخطاب وسعيد بن المسيّب ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم.

قال سفيان بن عيينة: كان أفضل أهل زمانه، وقال الإمام مالك حين رأى ابنه يحيى يدخل ويخرج ولا يجلس: ما يهون عليّ إلا أنّ هذا الشأن لا يورث، وإنّ أحداً لم يخلف أباه في مجلسه إلاّ عبدالرحمن بن القاسم. توفي بالشام سنة ١٢٦هـ.

- ٣ - ربيعة الرأي^(١):

هو ربيعة بن أبي عبدالرحمن فروخ (١٣٦هـ) عالم المدينة وفتيها، أحد الأعلام المعروف بريعة الرأي، قيل له ذلك لأنّه كان يتقوى بالرأي.

كان إماماً حافظاً فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأي، حافظاً للفقه والحديث، مكث دهرًا طويلاً عابداً يصلي الليل والنهار إلى أن جالس القوم فنطق بلبّ وعقل، فكان صاحب الفتوى بالمدينة.

وكان يجلس إليه وجوه الناس، ويحضر في مجلسه أربعون معتمداً، وعنه أخذ الإمام مالك وبه تفقه.

أدرك جماعة من الصحابة وروى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وحنظلة بن قيس وسعيد بن المسيّب والقاسم بن محمد.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:

قال يحيى بن سعيد: ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة، وقال عبيدالله بن عمر العمري: ربيعة صاحب معضلاتنا وعالمنا وأفضلنا، وقال سوار بن عبدالله العنبري: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي، وقال الإمام

(١) شذرات الذهب ١/٣٢٦ - ٣٢٧، مرآة الجنان ١/٣٠٧ - ٣٠٨، إسعاف المبتطأ ١٣،

طبقات الفقهاء للشيرازي ٦٥، تذكرة الحفاظ ١/١٥٧ - ١٥٨، وفيات الأعيان

مالك: لما مات القاسم وسالم أفضى الأمر إلى ربيعة، وكان الإمام مالك يقول: ذهب حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي.

توفي سنة ١٣٦هـ.

- ٤ - أبو الزناد^(١):

هو عبدالله بن ذكوان المدني (١٣٠هـ) المعروف بأبي الزناد، كان فقيه المدينة وأحد علمائها.

روى عن عبدالله بن عمر وأنس بن مالك وأبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف وعبدالله بن جعفر وسعيد بن المسيب والأعرج عبدالرحمن بن هرمز وأكثر عنه من الرواية حتى قيل أبو الزناد راوية الأعرج.

ولاه عمر بن عبدالعزيز خراج العراق مع عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وروي أنه وفد على هشام بن عبدالملك بحساب ديوان المدينة، فسأل هشام بن شهاب: أي شهر كان يخرج فيه العطاء لأهل المدينة؟ فقال: لا أدري، قال أبو الزناد: فسألني هشام فقلت: المحرم، فقال هشام لابن شهاب: يا أبا بكر هذا علم أفدته اليوم، فقال ابن شهاب: مجلس أمير المؤمنين أهل أن يفاد منه العلم.

وكان أبو الزناد قد غلب عليه الحديث حتى كان بعضهم يسميه بأمير المؤمنين في الحديث.

ومع ذلك فقد حدّث الليث بن سعد قال: رأيت خلف أبي الزناد ثلاثمائة تابع من طالب فقه وطالب شعر وصنوف ثم لم يلبث أن بقي وحده وأقبلوا على ربيعة رغم أنّ أبا حنيفة كان يقول: أبو الزناد أفقه من ربيعة.

(١) تذكرة الحفاظ ١/١٣٥، شذرات الذهب ١/٣١١، مرآة الجنان ١/٢٩٨، معرفة علوم

الحديث ص ٤٥ - ٤٦، إسعاف المبتأ ص ٢٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦.

وعندي أنّ هذا من باب المداولة التي توحى بالتجدّد، وتثبت أنّ العلم ليس ملكاً لأحد ولا حكراً على أحد وما وقع لأبي الزناد مع ربيعة، وقع كذلك لربيعة مع مالك، فعن بكر بن عبدالله الصنعاني قال: أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربيعة فكنا نستزيده من حديث ربيعة، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة أهو نائم في ذاك الطاق، فأتينا ربيعة فقلنا له: أنت ربيعة الذي يحدث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم، قلنا: كيف حظي بك مالك وأنت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما سمعتم أنّ مثقالاً من دولة خير من حمل علم، وقد توفي في رمضان سنة ١٣٠هـ وقيل سنة ١٣١هـ.

- ٥ - محمد بن المنكدر^(١):

هو محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير التيمي (١٣٠هـ) الحافظ القدوة القانت الزاهد المجمع على ثقته وتقدمه في العلم والعمل.

كان من معادن الصدق وكان بيته مأوى الصالحين ومجتمع المفلحين من الزاهدين العابدين.

روى عن أبيه وأبي هريرة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك وأبي أيوب الأنصاري وعائشة أم المؤمنين وسعيد بن المسيّب وغيرهم.

قال ابن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

وقال الإمام مالك: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة، أتني ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أيّاماً، وكان يقول: ابن المنكدر سيّد القراء.

توفي سنة ١٣٠هـ وقيل سنة ١٣١هـ.

(١) تذكرة الحفاظ ١/١٢٧، مرآة الجنان ١/٢٩٨، إسناف المبطل ص ٣٧، شذرات الذهب

- ٦ - زيد بن أسلم مولى عمر^(١):

هو زيد بن أسلم العدوي المدني (١٣٦هـ) مولى عمر بن الخطاب،
الفقيه العابد الذي كان له حلقة الفتوى والعلم بالمدينة.

روى عن أبيه وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة
وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك وأضرابهم.

كان عالماً بالتفسير وله فيه كتاب رواه عنه ابنه عبدالرحمن.

قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا في حلقة زيد بن أسلم أربعين
فقيهاً، أدنى خصلة فينا التساوي بما في أيدينا، ونقل البخاري أنّ زين
العابدين بن علي بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم.

ومما يروى في ذلك أنّ علي بن الحسين دخل المسجد فتخطى حلق
العلم حتى جلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن
مطعم: غفر الله لك، أنت سيّد الناس تأتي تخطى حلق أهل العلم حتى
تجلس مع هذا العبد؟ فقال له علي بن الحسين: إنّما يجلس الرجل
حيث ينتفع، وإنّ العلم يطلب حيث كان.

وعن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: لمّا وضع مالك الموطأ جعل
أحاديث زيد بن أسلم في آخر الأبواب، فقلت له في ذلك، فقال: إنّها
كالسراج تضيء لما قبلها.

بهؤلاء وأمثال لهم من العلماء الأعلام الذين حملوا لواء العلم
والاجتهاد انتشر فقه أهل المدينة، وتكوّن بهم التلاميذ من أتباع التابعين.

المركز الثاني: مكة المكرمة:

هي أم القرى، وبلد الله الحرام، وموطن التشريع المكي ومنبع

(١) شذرات الذهب ١/٣٢٧، مرآة الجنان ١/٣٠٨، إسعاف المبتأ ص ١٣ - ١٤، البداية

والنهاية ١٠٦/٩.

الإسلام، ومهبط الوحي وقبلة المسلمين وهي البلد الذي حرّم فيها القتال وأقرّ فيها السلام.

وقد نزلت بها مجموعة وافرة من أصحاب الرسول عدّهم بعضهم فأوصلهم إلى أكثر من خمسين صحابياً كمعاذ بن جبل الذي بعثه الرسول إليها ليعلم أهلها الحلال والحرام، وعتاب بن أسيد خليفة رسول الله بها، وعبدالله بن السائب المخزومي قارئ الصحابة بها وغيرهم^(١).

غير أنّ الذي كان رأس الفتوى بها بلا منازع هو البحر وحبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس فإليه يعود الفضل فيما كان لهذا المركز من شهرة علمية، وعلى يديه تخرّج أقطاب التابعين من أعلام مكة.

فلنلق نظرة على أعلام هذا المركز الفقهي.
* عبدالله بن عباس^(٢):

هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي (٦٨هـ) ابن عمّ الرسول الأكرم ﷺ، الفقيه المفسّر المحدث بحر العلوم وحبر الأمة على العموم.

لما توفي النبي ﷺ، كان عبدالله ابن ثلاث عشرة سنة، فلم يكن ممّن يفتي لحدائثة سنّه لكنّه شمر عن ساعد الجدّ وأخذ عن كبار الصحابة، وأقبل عليهم يسأل حتى إن كان الحديث ليبلغه عن أحد فيأتي باب داره وهو قائل فيتوسّد رداءه فيسفي عليه الريح من التراب.

وكان يلازم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار يسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ، وما نزل من القرآن في ذلك. وبهذه الروح العالية في تتبّع العلم وأخذه عن أهله استطاع ابن عباس

(١) طبقات ابن سعد ٤٤٣/٥ - ٤٦٢، معرفة علوم الحديث ص ١٩٢.

(٢) مرآة الجنان ١٧٤/١، الإصابة ٣٣٠/٢ - ٣٣٤، البداية والنهاية ٢٩٦/٨ - ٣٠٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٩، طبقات ابن سعد ٣٦٦/٢ - ٣٧٢، إعلام الموقعين ١٨/١ - ١٩، إسعاف المبتطأ ص ٧، شذرات الذهب ١٣٧/١.

أن يتبوأ المكان الأعلى في عهد عمر بن الخطاب فكان يدخله مع الشيوخ الكبار من الصحابة ويجلسه معهم حتى قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس، فقال لهم: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول.

وثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنّه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم^(١).

وقد أراد عمر بذلك أن يقرّر عند مشائخ الصحابة جلاله قدر ابن عباس وكبير منزلته في العلم والفهم.

ولذلك كان عمر يقول لابن عباس: لقد علمت علماً ما علمناه، ويقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً وأحسنهم عقلاً، وأفقههم في كتاب الله عزّ وجلّ.

وهكذا بعد أن صحب ابن عباس النبي ﷺ وأخذ عنه وحفظ الأقوال وضبط الأفعال والأحوال توجه إلى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فأخذ عنهم علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة والأصالة والبيان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي.

فجمع بذلك مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه وكثرة فهمه
وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله.

فكان ابن عباس بعد ذلك يفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن توفي،
ويدعوه عمر بن الخطاب للمعضلات ويقول له: عندك قد جاءتك معضلة
ثم لا يجاوز قوله وإنّ حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار حتى قال
عبدالله بن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما خالفه متاً أحد.

وفي عهد عثمان بن عفان تولى ابن عباس إمامة الحجّ ثم استنابه
عليّ بن أبي طالب في عهده على البصرة، فكان أهلها مغبوطين به،
يفقههم ويعلم جاهلهم ويعظ غافلهم ويعطي فقيرهم، وفي ذلك يقول أبو
بكرة: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله حشماً وعلماً
وجملاً وكمالاً.

ولم يزل ابن عباس على البصرة حتى استشهد عليّ بن أبي طالب
فلما آل الأمر إلى معاوية قصد مكّة واستقرّ بها مفتياً ومعلماً لأكثر من
عشرين سنة، ثم أكره على الخروج منها حين اعتزل الناس في خلاف
عبدالله بن الزبير مع عبدالملك بن مروان، فنزل الطائف وتوفي بها بعد
سنتين.

ولما كان ابن عباس - من خلال ما تقدّم بيانه - قد قضى أغلب
فترات حياته أثناء عطاءه العلمي، بين المدينة المنورة ومكّة المكرمة، - إذ
لم يستقرّ بالبصرة إلاّ أربع سنين أو أقلّ من ذلك، ولم يبق بالطائف غير
السنتين الأخيرتين من حياته، - فلا مانع من اعتباره من أعلام المركز
الفقهي بالمدينة، إلاّ أنّ الأظهر هو أنّ ابن عباس قد كان الركن الأساسي
لمركز الفقهي بمكّة، ذلك أنّ تلاميذ ابن عباس الذين اشتهروا بالأخذ عنه
وتأثروا بمنهجه الاجتهادي، كان جلّهم إن لم نقل كلّهم من أعلام التابعين
المفتين بمكّة ومما يدعّم هذا الموقف ويؤكّده أنّ الإمام مالك الذي ورث
علم أهل المدينة قد سأله الرشيد: لِمَ لم نر في كتابك - يعني الموطأ -
ذكراً لعلّي وابن عباس، فقال: لم يكونا ببلدي، ولم ألق رجالهما.

* ما أثر عنه من أقوال:

أثر عن ابن عباس أقوال كثيرة جداً منها قوله: قل خيراً تغنم،
واسكت عن شرّ تسلّم، فإنك إن لم تفعل تندم.

وجاء إليه رجل فقال له: أوصني، فقال: أوصيك بتوحيد الله والعمل
له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنّ كلّ خير آتية أنت بعد ذلك منك مقبول
وإلى الله مرفوع، وإنك لن تزدد من موتك إلاّ قرباً فصلّ صلاة مودّع،
واصبح في الدنيا كأنك غريب مسافر فإنك من أهل القبور، وابك على
ذنبك وتب من خطيئتك، ولتكن الدنيا عليك أهون من شسع نعلك، فكأنّ
قد فارقتها وصرت إلى عدل الله، ولن تنتفع بما خلفت ولن ينفعك إلاّ
عملك.

وأوصى رجلاً فقال له: لا تكلمنّ فيما لا يعينك حتى ترى له
موضعا، ولا تمار سفيهاً ولا حليماً، فإنّ الحليم يغلبك والسفيه يزدريك،
ولا تذكرنّ أخاك إذا توارى عنك إلاّ بمثل الذي تحبّ أن يتكلّم فيك إذا
تواريت عنه، واعمل عمل من يعلم أنّه مجزى بالإحسان مأخوذ بالإجرام.
وكان يقول: تمام المعروف تعجيله وتصغيره وستره.

وأصيبت إحدى عينيه فنحل جسمه، فلما أصيبت الأخرى وعمي عاد
إليه لحمه، فقيل له في ذلك، فقال: أصابني ما رأيتم في الأولى شفقة
على الأخرى، فلما ذهبنا اطمأنّ قلبي.

وكان يقول: من ترك الصلاة وهو يقدر عليها لقي الله وهو عليه
غضبان، وفي رواية: من ترك صلاة واحدة متعمداً لقي الله وهو عليه
غضبان.

وكان يقول أيضاً: لا يكافىء من أتاني يطلب حاجة فرآني لها موضعاً
إلاّ الله عزّ وجلّ، وكذا رجل بداني بالسلام أو أوسع لي في مجلس أو قام
لي في مجلس أو رجل سقاني شربة ماء على ظمأ ورجل حفظني بظهر
الغيب.

وكان يقول: إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبّه ولعلّي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية، وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أنّ المسلمين كلّهم يعلمون منها مثل ما أعلم.

* دعاء الرسول له بالفقه والعلم وفهم معاني القرآن:

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة - أم المؤمنين وأخت أم الفضل لبابة بنت الحارث وخالة ابن عباس - فوضعت له وضوءاً من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: اللهمّ فقّهه في الدين وعلمه التأويل^(١).

وعن ابن عباس أيضاً قال: ضمّني النبي ﷺ إلى صدره وقال: «اللهمّ علمه الحكمة^(٢) وفي رواية: علمه الحكمة وتأويل الكتاب»^(٣).

وعن ابن عباس كذلك قال: أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجزّني فجعلني حذاءه، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست، فصلّى رسول الله ﷺ فلما انصرف - أي أتمّ صلاته وسلّم - قال لي: ما شأنني أجعلك حذائي فتخنس، فقلت: يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلّي حذاءك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله، قال: فأعجبته، فدعا الله لي أن يزيدني علماً وفهماً^(٤).

* شهادة الصحابة والتابعين له بسعة العلم ودقّة الفهم وكمال العقل:

قال سعد بن أبي وقاص: ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألبّ لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس.

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، والترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، المقدمة.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده.

وقال علي بن أبي طالب في ابن عباس: إتنا لننظر إلى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته.

وقال عبدالله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، وكذا قال ابن عمر.

وقالت عائشة وأم سلمة: ابن عباس أعلم الناس بالمناسك، وقال عبدالله بن عمر: ابن عباس أعلم الناس بما أنزل على محمد ﷺ، وفي رواية: أعلم من بقي بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ، وقال: لقد أوتي ابن عباس علماً صدقاً.

وعن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ما سبق إليه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ونائل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث النبي ﷺ منه، ولا أعلم بشعر ولا عربيّة ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم فيما مضى ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً ما يذكر فيه إلا التأويل، ويوماً ما يذكر فيه إلا المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قطّ جلس إليه إلا خضع له، ولا وجدت سائلاً سألته إلا وجد عنده علماً، وقال: ما رأيت أحداً أعلم بالسنة، ولا أجلد رأياً، ولا أثقب نظراً حين ينظر مثل ابن عباس، وإن كان عمر بن الخطاب ليقول له: قد طرأت علينا عضل أفضية أنت لها ولأمثالها.

وقال عطاء بن أبي رباح: ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس - رضي الله عنه -، أكثر فقهاً ولا أعظم هيبة، أصحاب القرآن يسألونه، وأصحاب العربيّة يسألونه، وأصحاب الشعر يسألونه، فكلهم يصدر في واد واسع.

وقيل لطاووس بن كيسان: لم لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من الصحابة؟ فقال: إتي رأيت سبعين من الصحابة إذا تماروا في شيء صاروا إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، وتفسير القرآن، والعربية والشعر والطعام.

وعن مسروق قال: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت أفصح الناس، فإذا تحدّث قلت أعلم الناس، وقال الأعمش مثل ذلك.

ولما مات ابن عباس - بالطائف سنة ٦٨هـ - على المشهور من رأي الجمهور - صلى عليه محمد بن الحنفية وقال: مات ربّاني هذه الأمة.

وقال جابر بن عبدالله حين بلغه موت ابن عباس: مات والله أعلم الناس وأحلم الناس، وقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق.

وقال رافع بن خديج: مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب في العلم، وقال ابن أبي نجيع: ما رأيت مثل ابن عباس قط، ولقد مات يوم مات وإنه لحبر هذه الأمة.

وعن ابن عباس أخذ الفقه جماعة من أعلام التابعين عدّوا أعمدة المدرسة الفقهية بمكة، واعتبروا الأصل الأصيل والركن المتين لهذا المركز الفقهي، أشهرهم مجاهد بن جبر، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وابن أبي نجيع وابن أبي مليكة وعبيد بن عمير.

وفيما يلي ترجمة وجيزة لهم:

* ١ * : مجاهد بن جبر^(١):

هو أبو الحجاج القرشي المخزومي، مجاهد بن جبر المكي (١٠٣هـ) أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخص أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير.

(١) البداية والنهاية ٢٢٤/٩ - ٢٢٨، شذرات الذهب ٢٢٤/١، مرآة الجنان ٢٤٣/١.

أسند عن أعلام الصحابة وعلمائهم، وروى عن عبدالله بن عمر
وعبدالله بن عباس وأبي هريرة وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي سعيد
الخدري ورافع بن خديج.

عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرّة، وعرض عليه مرّتين يوقفه
فيهما عند كلّ آية ويسأله عنها.

وكان من كثرة تبخّره وسعة علمه يقول له عبدالله بن عمر: وددت أنّ
نافعاً يحفظ حفظك، وفي رواية: وددت أنّ ابني سالمأ وغلامي نافعأ
يحفظان حفظك.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان مجاهد يقول: لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أنّ حياء منه
يمنعه من المعاصي لكان في ذلك خير.

وكان يقول: الفقيه من يخاف الله وإن قلّ علمه، والجاهل من
عصى الله وإن كثر علمه.

ويقول: إنّ العبد إذا أقبل على الله بقلبه، أقبل الله بقلوب المؤمنين
إليه.

ويقول: إنّما القلب بمنزلة الكفّ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا
- وضّم الخنصر حتى ضّم أصابعه كلّها إصبعأ إصبعأ - قال: ثمّ يطبع.

ويقول: الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبني على الشيء المحيط،
كلّما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغطى القلب حتى تكون هكذا - ثمّ قبض يده -
ثمّ قال: هو الران.

مات مجاهد وهو ساجد سنة ١٠٣هـ وقيل قبل ذلك، وقيل بعد
ذلك.

* ٢ * : عكرمة مولى ابن عباس^(١) :

عكرمة مولى ابن عباس (١٠٧هـ) أصله من البربر من أهل المغرب، وهب لابن عباس، فسماه بأسماء العرب واجتهد في تعليمه حتى أصبح أحد فقهاء مكة من التابعين الأعلام، من أعلم الناس بالتفسير ومن المفسرين المكثرين والعلماء الربانيين الذين يستضيء بهم الأنام.

كان عكرمة من الرحالين الجوالين، كثير التطوف والجولان في البلاد، كثير التنقل في الأقاليم.

طلب العلم أربعين سنة ثم أذن له ابن عباس بالفتوى فقال له: انطلق فأفت الناس فمن سألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عني ثلثي مؤنة الناس.

كان عكرمة أحد أوعية العلم حتى إنه ليقول عن نفسه: إنني لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة فيفتح لي خمسون باباً من العلم.

أدرك عكرمة مائتين من أصحاب الرسول ﷺ وروى عن كثير منهم أشهرهم: مولاه عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين والحسن بن عليّ.

واحتج الإمام أحمد ويحيى بن معين والبخاري والجمهور بما روى، في حين أعرض عنه الإمام مالك لمذهبه وما كان يرى من رأي الخوارج.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالعلم وسعة المعرفة بكتاب الله :

قيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحداً أعلم منك، فقال: عكرمة، وقال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٠، طبقات ابن سعد ٢/٣٨٥ - ٣٨٦ / ٥/٢٨٨،

وفيات الأعيان ٣/٢٦٥ - ٢٦٦، شذرات الذهب ١/٢٣٢، البداية والنهاية ٩/٢٤٤

- ٢٤٨، مرآة الجنان ١/٢٤٥.

وقال جابر بن يزيد: عكرمة أعلم الناس، وكان يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فاسلوه وقال قتادة: أعلم الناس بالتفسير عكرمة.

وقال حبيب بن أبي ثابت - من أعلام الكوفة -: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً، عطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جبر - وجميعهم قد تتلمذ على ابن عباس -، فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا.

وقال سفيان الثوري: خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة.

وقال سفيان بن عمرو: كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصنعون ويقتلون.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان عكرمة يقول: إن الشيطان ليزين للعبد الذنب فإذا عمله تبرأ منه، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسكن له ويبكي حتى يغفر الله له ذلك وما قبله.

ويقول: من قرأ سورة يس لم يزل ذلك اليوم في سرور حتى يمسي، ويقول: لكل شيء أساس وأساس الإسلام الخلق الحسن.

وكان يعظ أصحابه بقول لقمان لابنه: قد ذقت المرار فلم أذق شيئاً أمر من الفقر، وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء، ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب.

توفي عكرمة سنة ١٠٧هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٥هـ، وقيل

مات عكرمة والشاعر كثير عزة^(١) بالمدينة المنورة في يوم واحد فصلي عليهما بعد الظهر فقال الناس: مات أفقه الناس وأشعر الناس.

* ٣ * : عطاء بن أبي رباح^(٢):

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح (١١٤هـ) أحد أجلاء الفقهاء، وأحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، انفرد بالفتوى بمكة هو مجاهد، وكان فقيهاً عالماً كثير الحديث.

روى الطبراني وغيره أنّ الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح.

يقال أنه أدرك مائتين من الصحابة، وروى عن عدد كثير منهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو وعبدالله بن الزبير وأبو هريرة وزيد بن خالد الجهني وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وعائشة وأُم سلمة.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:

قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان أحسن الناس صلاة، وقال أبو جعفر الباقر: ما رأيت فيمن لقيت أفقه من عطاء.

وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم يخيل إلينا أنه يؤيد، وقيل: كان مجلسه ذكر الله، لا يفتر، فإن سئل أحسن الجواب.

وقال أبو حنيفة: ما رأيت أحداً أفضل من عطاء.

(١) هو أحد عشاق العرب المشهورين به صاحب عزة بنت حميل بن حفص، وله معها حكايات ونوادير وأمور مشهورة، وأكثر شعره فيها (مرآة الجنان ١/٢٤٩).

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩، وفيات الأعيان ٣/٢٦١، البداية والنهاية ٩/٣٠٦، مرآة الجنان ١/٢٧٠، البداية والنهاية ٩/٣٠٦ - ٣٠٨، تذكرة الحفاظ ١/٩٦ - ٩٨، طبقات ابن سعد ٢/٣٨٦، شذرات الذهب ١/٢٥٨، تدريب الراوي ٢/٢٤٢، إعلام الموقعين ١/٢٢.

وقال الإمام أحمد: ليس أحد أكثر فتوى في التابعين منه ومن الحسن البصري، كان عطاء فقيه مكة، والحسن مفتي البصرة.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة - ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو بن العاص - صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح...

وقال قتادة: أعلم الناس بالمناسك عطاء، وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحاج مناديا يقول: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح.

وعن أبي جعفر الصادق قال: ما بقي على وجه الأرض أعلم بمناسك الحج من عطاء، وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس.

* ما أثر عنه من أقوال:

قال عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت إليه كأنني لم أكن سمعته، وقد سمعته قبل أن يولد، فأريه أتني إنما سمعته الآن منه، وهذا من حسن أدبه مع الناس وتواضعه لهم.

وكان يقول: من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل، فقليل: وما مجلس الذكر؟ قال: مجالس الحلال والحرام، كيف تصلّي، كيف تصوم، كيف تنكح وتطلق، وتبيع وتشتري.

وكان يقول: الدعوة تعمي عين الحكيم فكيف بالجاهل، ولا تغبطنّ ذا نعمة بما هو فيه فإنك لا تدري إلى ماذا يصير بعد الموت.

كان مرّة يطوف بالبيت فقال لأصحابه: امسكوا، احفظوا عني خمساً: القدر خيره وشره، حلوه ومره من الله عزّ وجلّ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض، وأهل قبلتنا مؤمنون، حرام دماؤهم وأموالهم

إلا بحقها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال والسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة.

وكان عطاء في آخر حياته بعد ما كبر وضعف - وقد بلغ من العمر ثمانين وثمانين سنة - يفطر في رمضان ويفدي عن إفطاره، ويقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك.

توفي سنة ١١٤هـ وقيل في التي بعدها.

* ٤ * عمرو بن دينار^(١):

هو أبو محمد عمرو بن دينار اليميني الصنعاني (١٢٦هـ) عالم الحرم ومفتي أهل مكة وأحد التابعين الأعلام.

أصله من أبناء الفرس الذين أرسلوا مع سيف بن ذي يزن وتوالدوا في اليمن.

تفقه بطائفة من الصحابة والتابعين أشهرهم: عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وجابر بن قيس وطاووس بن كيسان والحسن البصري وسعيد بن جبير.

سكن مكة، ولذلك عدّه الشيرازي من فقهاء التابعين بها، وذكره ابن قيم الجوزية في المفتين من التابعين بمكة.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالعلم والفقه:

قيل لعطاء بن أبي رباح: بمن تأمرنا؟ قال: بعمرو بن دينار.

وقال طاووس لابنه: يا بني إذا قدمت مكة فجالس عمرو بن دينار فإن أذنيه قمع للعلماء.

وقال عبدالله بن أبي نجيح: ما رأيت أحداً قط أفقه من عمرو بن

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٠، مرآة الجنان ١/٢٨٩ - ٢٩٠، إعلام الموقعين

٢٤/١، شذرات الذهب ١/٢٩٥.

دينار، وقال شعبة: ما رأيت في الحديث أثبت منه، وكانت وفاته سنة ١٢٦هـ.

* ٥ * : ابن أبي مليكة^(١):

هو عبدالله بن عبدالله بن أبي مليكة التيمي (١١٧هـ) قاضي مكة وإمام الحرم وشيخه ومؤذنه الأمين، ولي القضاء بالطائف زمن خلافة عبدالله بن الزبير.

وكان من كبار أصحاب عبدالله بن عباس.

توفي سنة ١١٧هـ وقيل سنة ١١٩هـ.

وذكر ابن قيم الجوزية في المفتين من التابعين بمكة طاووس بن كيسان، الذي يعدّ من أكبر أصحاب عبدالله بن عباس، غير أنّ أبا إسحاق الشيرازي لا يذكره في فقهاء هذه المدرسة وإنما يذكره في فقهاء التابعين باليمن.

والسبب في هذا الخلاف، أنّ طاووس قد أكثر الرواية عن ابن عباس، وروى عنه أعلام التابعين بمكة مثل مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، وكان كثير الحجّ حتى اتفق موته بمكة قبل التروية بيوم.

فإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية فهو كما اعتبره البعض من فقهاء أهل مكة وتابعيها.

وذكر بعضهم أنّ طاووس ولي صنعاء والجند - بلدة في اليمن - واستقرّ باليمن، ولا شك أنّ طاووس خلال ولايته على تلك البلاد قد كان ذا تأثير في فقهاء اليمن وأهل العلم بها حتى عدّ شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم، ولما مات طاووس رضي أهل اليمن بابنه عبدالله بن طاووس قاضياً على تلك البلاد بعده.

(١) شذرات الذهب ١/٢٦٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩ - ٧٠ و٧٣، إعلام

الموقعين ١/٢٤، البداية والنهاية ٩/٢٣٥.

فإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية فهو كما اعتبره البعض الآخر من فقهاء أهل اليمن وتابعيها.

وهذا الرأي الأخير هو الذي أرتثيه وأرجحه لأن تأثير طاووس في مدرسة اليمن بَيِّن واضح، وأما أهل مكة فعلمهم عن كثير سواه من التابعين.

ولا يقدر في هذا الرأي أن مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار كانوا قد رووا عن طاووس، فإنه وإن كانت روايتهم عنه ثابتة، فإنهم قد اشتركوا معه في التلقي من عبدالله بن عباس مباشرة حتى لقد عدّ مجاهد أخص أصحاب ابن عباس به، كيف لا، وقد عرض عليه القرآن ثلاثين مرة، وقيل مرتين يستوقفه في كل آية ويسأله عنها، ثم إن مجاهداً قد انفرد بالفتوى بمكة هو وعطاء، كما أن حلقة العلم في المسجد الحرام كانت بعد ابن عباس لعطاء.

ثم نقل علم هؤلاء وغيرهم جماعة من أحداث التابعين من أشهرهم: عبدالله بن أبي نجيح المكي المفسر صاحب مجاهد ومفتي مكة بعد عطاء المتوفى بمكة سنة ١٣١هـ وقيل ١٣٢هـ^(١).

المركز الثالث: الكوفة:

هي رمح الله وكنز الإيمان - كما سماها عمر بن الخطاب - ورأس الإسلام وجمجمة العرب، نزلها وجوه الصحابة، قيل ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر، ذكر منهم ابن سعد ١٥٠ صحابياً.

وأشهر من سكنها منهم عبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وخباب بن الأرت وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وأبو موسى الأشعري والبراء بن عازب والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وجابر بن سمرة وسمرة بن جندب وسعيد بن زيد وسهل بن حنيف وأبو قتادة بن ربعي وأبو مسعود الأنصاري والنعمان بن

(١) مرآة الجنان ٣٠٠/١، شذرات الذهب ٣١١/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١.

مقرن وأخوه معقل بن مقرن وعدي بن حاتم الطائي وعبدالله بن أبي أوفى وغيرهم، وأكثرهم بالكوفة دفنوا^(١).

غير أنّ التأثير الأكبر والأثر الأعظم فيما كان للكوفة من شهرة علمية في هذا الدور إنما يعود بالأساس لعبدالله بن مسعود الذي كان زعيم هذا المركز الفقهي بلا منازع لطول مكثه به، ثمّ لعلّي بن أبي طالب بعد ذلك.

* عبدالله بن مسعود^(٢):

هو عبدالله بن مسعود الهذلي (٣٢هـ) أحد القراء الأربعة، وأعلم الصحابة بكتاب الله، وسادس ستة آمنوا برسول الله وما على وجه الأرض مسلم غيرهم.

كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عند بيت الله الحرام وقريش في أنديتها، قرأ سورة الرحمن فقاموا إليه فضربوه.

كان يلازم النبي ﷺ حتى ظنّه البعض أنّه من أهل بيته، وكان يحمل لرسول الله ﷺ نعليه وسواكه حتى كان يقال له صاحب النعلين والسواك.

أخذ من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، فعن ابن مسعود قال: كنت غلاما يافعا أرى الغنم لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غلام هل من لبن، قال: قلت: نعم ولكتي مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل، فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر - وفي رواية: وشرب أبو بكر ثمّ شربت - ثمّ قال للضرع اقلص فقلص، ثمّ أتيته بعد هذا فقلت يا رسول الله علّمني من هذا القول - وفي رواية: ثمّ أتيته بعد ذلك قلت علّمني من هذا القرآن - قال: فمسح رأسي وقال: أنت غلام معلّم، قال:

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٦ و١٢/٦ - ٦٥، معرفة علوم الحديث ص ١٩١.

(٢) البداية والنهاية ١٦٢/٧ - ١٦٣، الاستيعاب ٣١٨/٢ - ٣٢٤، الإصابة ٣٦٩/٢ - ٣٧٠، إعلام الموقعين ١٥/١، ١٧، ٢٥، مرآة الجنان ١٢٢/١، طبقات ابن سعد ٣٤٠/٢ و٣٤٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٣ - ٤٤، شذرات الذهب ٦٥/١.

فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد^(١).

ولذلك كان ابن مسعود يقول عن نفسه: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنني أعلمهم بكتاب الله، ولو أنني أعلم أن أحداً أعلم مني لرحلت إليه، ولم يرد ذلك عليه أحد من الصحابة ولا عابه، وفي رواية: وما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أنني أعلم أن رجلاً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته.

وكان مفتياً يرجع إليه في المشكلات بالاتفاق بين علماء الشام والحجاز والعراق.

* شهادة الرسول له بالفضل والعلم بالقرآن:

عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن عن أربعة، من ابن أم عبد - عبدالله بن مسعود - فبدأ به»^(٢)، وفي رواية ثانية: «استقرئوا القرآن من أربعة: من عبدالله ابن مسعود فبدأ به»^(٣)، وفي رواية ثالثة: «اقرأوا القرآن من أربعة نفر: من ابن أم عبد فبدأ به»^(٤).

وعن عبدالله بن مسعود أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بشراه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يقرأ غضاً - أو رطباً - كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٥).

وعن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: لو كنت مؤمراً

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، ومسلم صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.

(٥) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

أحدًا من غير مشورة - وفي رواية دون مشورة المؤمنين - لأمرت ابن أم عبد^(١).

وعن علي بن أبي طالب أيضاً قال: أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة، أمره أن يأتيه بشيء - وفي رواية كان يجتني سواكا من الأراك - فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله بن مسعود حين صعد الشجرة - وكان رقيق الساقين - فضحكوا، فقال رسول الله ﷺ: «تضحكون؟ لرجل عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد»^(٢).

* شهادة الصحابة له بالعلم والفقه:

أقبل عبدالله بن مسعود ذات يوم وعمر بن الخطاب جالس، فلما رآه قال: كنيّف مليء فقها، وربّما قال: علماً.

ولما بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة صحبة عمار بن ياسر كتب إليهم: إني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، وقد آثرتكم على نفسي بعبدالله بن مسعود.

وقيل لعلي بن أبي طالب: حدّثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: عن أيّهم؟ قالوا: عن عبدالله بن مسعود، قال: قرأ القرآن وعلم السنّة، ثمّ انتهى وكفاه بذلك.

ولما حضر معاذ بن جبل الموت سنة ١٨هـ قيل له: يا أبا عبدالرحمن أوصنا، قال: التمسوا العلم عند أربعة، فذكر فيهم عبدالله بن مسعود.

وأوصى كذلك معاذ عند موته عمرو بن ميمون الأودي أن يلحق بابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل ذلك.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

وكان حذيفة بن اليمان يحلف بالله ويقول: ما أعلم أحداً أشبه دلاً وهدياً وسمتاً برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه من عبدالله بن مسعود، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنه من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة وأعلمهم بكتاب الله.

وكان رضي الله عنه يرجع إليه الصحابة في المشكلات، فعن علقمة قال: قدمت الشام، فلقيت أبا الدرداء فسألته، فقال: تسألوني وفيكم عبدالله بن مسعود؟.

وقال هذيل بن شرحبيل: سئل أبو موسى الأشعري عن رجل ترك بنتاً وبنت ابن وأختاً، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وليس لابنة الابن شيء، وقال أبو موسى: ائت ابن مسعود فسيتابعني، فجاء إليه فقال: للبنت النصف ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي للأخت، فأتيت أبا موسى وأخبرته، فقال: لا تسألوني عن شيء مادام هذا الحبر فيكم.

وقال بعض التابعين: جالست أصحاب رسول الله ﷺ فما رأيت أحداً أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب إلى أن أكون في صلاحه من ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما كان من أصحاب النبي ﷺ أفقه صاحباً من عبدالله بن مسعود.

وبعد أن سيره عمر إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم أمره عثمان بن عفان عليها ثم عزله وأمره بالرجوع إلى المدينة، فقدم إلى المدينة فمرض بها وتوفي سنة ٣٢هـ ودفن بالبقيع على أشهر الأقوال.

ولما مات ابن مسعود نعي إلى أبي الدرداء فقال: ما ترك بعده مثله.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله.

ويقول: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

ولنختتم أقواله بهذا القول المأثور الذي كان قد نطق به في آخر أيامه، ولننصت إلى هذا الحوار الربّاني بين راعي الأمة وخليفة المسلمين عثمان بن عفّان الذي كان قد استقدم ابن مسعود من الكوفة، وبين عبدالله بن مسعود معلّم الكوفة في عهد عمر وأميرها في عهد عثمان.

جاءه عثمان بن عفّان عائداً في مرضه الذي مات فيه، فقال له: ما تشكّي؟ قال: ذنوبي، قال عثمان: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي، قال عثمان: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال عثمان: ألا أمر لك بعطائك؟ - وكان قد تركه ستين - قال: لا حاجة لي فيه، قال عثمان: يكون لبناتك من بعدك، قال ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

* عليّ بن أبي طالب^(١):

هو عليّ بن أبي طالب (٤٠هـ) - واسم أبي طالب عبد مناف - بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، ابن عمّ الرسول الأكرم ﷺ، وأخوه في الدنيا والآخرة^(٢)، وزوج ابنته فاطمة البتول.

وهو أول من أسلم من الصبيان، كان يكتنّى بأبي الحسن، وكنّاه

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢، إعلام الموقعين ١/١٦، طبقات ابن سعد ٢/٣٣٨ - ٣٣٩، الاستيعاب ٣/٣٨ - ٤٧، تاريخ الخلفاء ص ١٧١ - ١٨٦، مرآة الجنان ١/١٤٢ - ١٤٣، تنوير الحوالك ص ٧، البداية والنهاية ٧/٣٣٠ - ٢/٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨١.

(٢) فعن عبدالله بن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه - بين المهاجرين ثم بين المهاجرين والأنصار - فجاء عليّ تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له الرسول: أنت أخي في الدنيا والآخرة (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب).

الرسول أبا تراب^(١).

كان من أجلاء فقهاء الصحابة وأحد قضاة هذه الأمة، ولذلك كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها - أو فيها - أبو الحسن.

كان ذا ضرس قاطع في العلم، والفقه في السنّة، حتى إنّه كان ليقول: سلوني فوالله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار وفي سهل أم في جبل، وكان يقول: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت إنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً.

ولم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلا عليّ بن أبي طالب.

وناهيك بفضائله ما اشتهر به من براعته في الشجاعة والعلوم واهتمامه بنصرة الحق وإظهار شعائر الإسلام، ومناقبه وماله من المفازير يخرج في التعداد عن حصر الحاصر، وذلك ممّا يطول ذكره.

* شهادة الرسول له بالفضل ودعاؤه له بالهداية والتبثيت:

ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعليّ بن أبي طالب، من ذلك ما ورد عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس ليلتهم أيّهم يعطى، فغدوا كلّهم

(١) فعن عمّار بن ياسر قال: كنت أنا وعليّ رقيقين في غزوة ذات العشيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها رأينا أناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي عليّ: يا أبا اليقظان هل لك أن تأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون؟ فجنناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشنا النوم، فانطلقت أنا وعليّ فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب فمنا فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحرّكنا برجله وقد تترّبنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعليّ يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب (أخرجه أحمد في مسند الكوفيين).

يرجوه، فقال: أين عليّ، فقيل يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: انفذ علي رسلك حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم^(١).

قال عليّ: فما رمدت منذ نفل النبي ﷺ في عيني^(٢).

ولما خرج الرسول الأكرم ﷺ إلى تبوك استخلف عليّاً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء، قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبيّ بعدي»^(٣)، وفي رواية: «غير أنه لا نبيّ بعدي»^(٤).

ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٥). وعن أبي سرحة أو زيد بن أرقم - شك الراوي - أن الرسول ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٦)، وفي رواية بزيادة: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٧).

وعن عليّ قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، قال: فضرب بيده في صدري ثم قال: «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه» قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين^(٨).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، المقدمة.

(٧) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٨) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام.

وعن زر بن حبيش قال: قال عليّ: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق^(١).

ولذلك ورد عن أبي سعيد الخدري قوله: إنا كنا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم عليّ بن أبي طالب^(٢).

* شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم والسبق:

عن عبدالله بن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: أفضانا عليّ^(٣)، وكان ابن عباس يقول: إذا حدثنا الثقة عن عليّ بفتيا لا نعدوها، وقال: أعطي عليّ - رضي الله عنه - تسعة أعشار العلم وإنه لأعلمهم بالعشر الباقي.

وقال ابن مسعود: كنا نتحدث أنّ أفضى أهل المدينة عليّ، وقال: أفرض أهل المدينة وأقضاها عليّ بن أبي طالب.

وذكر عليّ عند عائشة فقالت: أما إنه أعلم من بقي بالسنة، وفي رواية: أما إنه أعلم الناس بالسنة.

وعن شريح بن هانئ قال: سئلت عائشة عن المسح على الخفين فقالت: ائت عليّا فإنه أعلم بذلك مني^(٤).

وروى الحسن قال: جمع عمر أصحاب النبي ﷺ ليستشيرهم وفيهم عليّ، فقال: قل فأنتم أعلمهم وأفضلهم.

وقال عبدالله بن عيّاش بن أبي ربيعة: كان لعليّ ما شئت من ضرر قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله ﷺ، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود في المال.

(١) أخرجه مسلم في سننه، كتاب الإيمان، وابن ماجه في سننه، المقدمة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة.

وقال مسروق: انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة وعالم بالشام وعالم بالعراق، فعالم المدينة عليّ بن أبي طالب، وعالم العراق عبدالله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق عالم المدينة ولا يسألهما.

والملاحظ أنّ في قول ابن مسعود: عليّ أفضى أهل المدينة وأفرض أهل المدينة وكذلك في قول مسروق: عليّ عالم أهل المدينة، يضع القارئ أمام تساؤل: لم جعلنا عليّاً من أصول مدرسة الكوفة ولم نجعله من أصول مدرسة المدينة؟ وللإجابة على ذلك نقول:

إنّ الإمام عليّاً قد استقرّ منذ هجرته بالمدينة ولازم الرسول، ولم يتغيّب عنه إلاّ خلال الفترة التي قضّاها باليمن في البعثة التي أرسله فيها الرسول الأكرم، ثمّ في عهد الخلفاء الثلاثة الذين كانوا قبله قد لازم المدينة، وكان لهم خير مرشد وموجّه ومفت.

ولمّا آلت الخلافة إليه سنة ٣٥هـ اتّجه إلى الكوفة التي فقدت منذ ثلاث سنوات - أي سنة ٣٢هـ - رأس الفتوى بها والركن المتين لمركز الكوفة الفقهي ألا وهو عبدالله بن مسعود.

وفي هذا المركز الجديد تولّى الإمام عليّ تسيير شؤون المسلمين وقيادة الأمة، والتصدي للمعضلات لسنوات خمس لم تكتمل.

غير أنّ تلك السنوات الخمس الأخيرة التي قضّاها بالكوفة مع ثلّة من الصحابة الذين أخلصوا في صحبته من أمثال عمّار بن ياسر وسلمان الفارسي، ومع من وجد من أتباع ابن مسعود من أمثال عبيدة بن عمرو السلماني الذي كان أحد أصحاب ابن مسعود الذين يفتون ثمّ اشتهر بعد مقدم عليّ بصحبته، لا شك أنّ تلك السنين قد أينعت وأثمرت ورسّخت في أعلام هذه المدرسة الجديدة المنهج الاجتهادي القياسي الذي كان يتّصف به الإمام عليّ فضلاً عمّا كانوا قد حذّوه عن ابن مسعود أفقه أصحاب رسول الله.

وبمقابل هذا الرسوخ والتمكين لمنهج عليّ الاجتهادي بمدرسة

الكوفة، فإن تأثيره بمدرسة المدينة قد عرف فتوراً نظراً لازدحام مدينة الرسول بأعلام الصحابة الذين كانوا يقومون على الفتوى، وبغياب عليّ بن أبي طالب تلك السنوات الخمس بالكوفة ثم وفاته المبكرة قد أضاع حبل الوصل مع تلاميذ هذه المدرسة، في حين أن زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري الذين قادوا مسيرة هذه المدرسة الأثرية قد طال بهم العهد بالمدينة ولم ينقطع حبل التواصل بينهم وبين تلامذتها فلذلك عدّ هؤلاء أصولها وأساسها.

ويؤيد هذا المعنى ما ورد عن الإمام مالك رضي الله عنه الذي ورث علم أهل المدينة حين سئل: لم لم نر في كتابك ذكراً لعليّ وابن عباس، فقال: لم يكونا ببلدي ولم ألق رجالهما.

* ما أثر عنه من أقوال:

إنّ خطب عليّ بن أبي طالب ومواعظه ووصاياه كثيرة مشهورة يطول الحديث بذكرها ويعزّ حصرها، ومنها قوله: يا حملة القرآن اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إنّ الرجل يغضب على جلسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.

وكان يقول: التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشدّ من العجب.

وكان يقول: جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والنقص في اللذة، قيل: وما النقص في اللذة؟ قال: لا ينال شهوة حلال إلاّ جاءه ما ينقصه إياها.

ومن وصاياه للحسن قوله: يا بنيّ احفظ عتيّ أربعاً وأربعاً، قال: وما هنّ؟ قال: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة

العجب، وأكرم الكرم حسن الخلق، قال فالأربع الأخر؟ قال: إياك ومصاحبة الأحق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب إليك البعيد ويبعد عليك القريب، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه.

وكان يقول: خمس خذوهنّ عني: لا يخافنّ أحد منكم إلاّ ذنبه ولا يرجو إلاّ ربّه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلّم ولا يستحي من لا يعلم إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وإنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد.

ويقول: الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمّتهم من عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره لأنّه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم معه ولا قراءة لا تدبّر فيها.

ويقول: تعلّموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكونوا من أهله، فإنّه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحقّ تسعة أعشاره، وإنّه لا ينجو منه إلاّ كلّ أوّاب منيب.

وقال ضرار الصدائي: أشهد لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم ويبيكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غرّي غيري، إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

ووصف ضرار الصدائي عليّا فقال: كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا زهرتها ويستأنس بالليل ووحشته وكان

غزير العبرة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلّمه هيبة له، يعظّم أهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وسئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن عليّ بن أبي طالب فقال: كان عليّ والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوّه وربّاني هذه الأمة، وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض موقنة.

استشهد رضي الله عنه صبيحة ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ، وصلى عليه ابنه الحسن، ودفن بدار الإمارة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، وقبره الآن معروف في مدينة النجف، وهو مزار للشيعة.

ومن هذه المدرسة تخرّج الكثير من كبار التابعين الذين كانوا سرج الكوفة، يستفتيهم الناس ويقصدونهم لتلقي شتى العلوم، على مرأى ومسمع من كبار الصحابة الذين كانوا يسكنون الكوفة، حتّى عدّ بعضهم ستين شيخاً في الكوفة من أصحاب عبدالله بن مسعود، وفيهم قال الشاعر:

وابن مسعود الذي سرج القرية أصحابه ذو الأحلام

ومن أشهر هؤلاء الأعلام:

* ١ * : علقمة النخعي^(١):

هو أبو شبل علقمة بن قيس بن عبدالله بن علقمة النخعي (٦٢هـ)

(١) البداية والنهاية ٢١٧/٨، تذكرة الحفاظ ٤٨/١، مرآة الجنان ١٦٩/١، طبقات الفقهاء

الكوفي، من أكابر أصحاب عبدالله بن مسعود وعلمائهم.
كان فقيهاً بارعاً طيّب الصوت بالقرآن، ثبتاً فيما ينقل، صاحب خير
وورع، وكان شبيه ابن مسعود في هديه ودلّه وسمته وفضله.

سمع من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود
وعليّ بن أبي طالب وأبي الدرداء، وجوّد القرآن على ابن مسعود، وتفقه
به، وكان من أنبل أصحابه حتّى قال فيه ابن مسعود: ما أقرأ شيئاً ولا
أعلم شيئاً إلاّ وعلقمة يقرؤه ويعلمه.

وكان غير واحد من الصحابة يستفتونه، فقد ورد عن قابوس بن أبي
ظبيان قال: قلت لأبي: كيف تأتي علقمة وتدع أصحاب محمد ﷺ؟ قال:
يا بنيّ إنّ أصحاب محمد ﷺ كانوا يسألونه، وكانت وفاته سنة ٦٢هـ.

* ٢ * : مسروق الهمداني^(١):

هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني (٦٣هـ) الفقيه العابد،
صاحب ابن مسعود وأعلم أهل الكوفة بالفتوى.

أخذ عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب ومعاذ بن جبل
وعبدالله بن مسعود، وكان مشهوراً بالعبادة، فكان يصلّي حتّى تورّم قدماه،
وحجّ فما نام إلاّ ساجداً.

شهد له الصحابة والتابعون وأتباعهم بالفضل والعلم، فكان الإمام
عليّ يقول: يا أهل الكوفة لن تعجزوا أن تكونوا مثل الهمداني -
مسروق بن الأجدع - والسلماني - عبيدة بن عمرو - إنهما شطر لرجل.

وكان الشعبي يقول: ما علمت أحداً أطلب للعلم من مسروق، ويقول
علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبدالله بن
مسعود.

(١) مرآة الجنان ١/١٧٠، شذرات الذهب ١/١٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩،

تذكرة الحفاظ ١/٤٩.

توفي مسروق سنة ٦٣ هـ.

* ٣ * : عبدة بن عمرو السلماني^(١) :

هو أبو عمرو عبدة بن عمرو - وقيل بن قيس - السلماني المرادي الكوفي (٧٢ هـ) الفقيه المفتي، تفقه بعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود. كان يقال: ليس بالكوفة أعلم بالفريضة من عبدة والحارث الأعور، وكان يجلس في المسجد فإذا ورد على شريح القاضي فريضة فيها حدّ رفعها إلى عبدة ففرض. وكان القاضي شريح كلما أشكل عليه أمر كتب إلى عبدة فيه، وانتهى إلى قوله.

وقد شهد له الإمام عليّ بالفضل فقال: يا أهل الكوفة لن تعجزوا أن تكونوا مثل الهمداني - مسروق بن الأجدع - والسلماني - عبدة بن عمرو - إنهما شطر لرجل.

توفي سنة ٧٢ هـ وقيل ٧٣ هـ وقيل ٧٤ هـ.

* ٤ * : الأسود النخعي^(٢) :

هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي (٧٥ هـ) الفقيه العابد ابن أخي علقمة بن قيس النخعي - الذي تقدمت ترجمته -، من كبار التابعين، ومن أعيان أصحاب عبدالله بن مسعود، ومن كبار أهل الكوفة. كان مشهوراً بالعبادة وكثرة الصلاة والصيام، حتى أنّ معاوية بن أبي سفيان استسقى به، فقال: اللهم إنا نستسقي بخيرنا وأفضلنا الأسود بن يزيد، ثم قال: ارفع يديك، فرفع يديه، فدعا، فسقوا.

(١) مرآة الجنان ١/١٧٩، شذرات الذهب ١/١٤٤، البداية والنهاية ٨/٣٢٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩ - ٨٠، البداية والنهاية ٨/٣٢٨.

(٢) البداية والنهاية ٩/١٢، مرآة الجنان ١/١٨٦ - ١٨٧، شذرات الذهب ١/١٥٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩.

وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين تقول: ما بالعراق رجل أكرم عليّ من الأسود، وقيل للإمام الشعبي: أيهما أفضل: علقمة أو الأسود؟ قال: كان علقمة مع البطيء، والأسود يدرك السريع.

توفي سنة ٧٥هـ.

* * * : شرح القاضي^(١).

هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي (٧٨هـ) القاضي المشهور، استقضاه عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، وبقي قاضياً عليها في عهد عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب، بحيث قيل إنّه مكث قاضياً نحو سبعين سنة، ثم استعفى عن القضاء قبل موته بسنة فأعفاه الحجاج.

ويحكى في سبب توليته القضاء أنّ عمر بن الخطاب اشترى فرساً من رجل على أن ينظر إليه، فأخذ الفرس فسار به فعطب، فقال لصاحب الفرس: خذ فرسك، فقال: لا، قال: فاجعل بيني وبينك حكماً، قال الرجل: نعم، شريح، قال عمر: ومن شريح؟ قال: شريح العراقي، قال: فانطلقا إليه فقضا عليه القصة، فقال شريح: يا أمير المؤمنين ردّ كما أخذت أو خذ بما ابتعته، فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها، فإنه لأوّل يوم عرفه يومئذ.

كان فقيهاً نبياً شاعراً محسناً صاحب مزاح، ومن مزحه أنّه دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: اسمع مني، قال: قل أسمع، قال: إني رجل من الشام قال: مكان سحيق، قال: وتزوجت عندكم، قال: بالرفاه والبنين، قال: وولدت غلاماً، قال: ليهنك الفارس، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحقّ بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، أو قال المؤمنون عند شروطهم، قال: اقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٠، مرآة الجنان ١/١٨٩، شذرات الذهب ١/١٥٨،

فعلت؟، قال: ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وكان أعلم الناس بالقضاء، له فيه دربة بالغة، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة، ومما يحكى في ذلك أنّ عليّ بن أبي طالب دخل على شريح مع خصم له ذمي، فقام له شريح، فقال له عليّ كرم الله وجهه: هذا أول جورك، فقال شريح: لو كان خصمك مسلماً لما قمت لك، وجوهر القضية أنّ عليّ بن أبي طالب ادّعى على الذمي درعا سقطت منه، فقال للذمي: ما تقول؟ فقال: الدرع درعي ويدي، فقال شريح لعليّ: ألك بيّنة أنّها سقطت منك؟ قال: نعم، فأحضر كلاً من الحسن وعبداه قنبر، فقال شريح: قبلت شهادة قنبر، ورددت شهادة الحسن، فقال عليّ: ثكلتك أمك أما بلغك أنّ النبي ﷺ قال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»^(١) فقال شريح: اللّهم نعم، غير أنّي لا أجزى شهادة الولد على والده، ثمّ قال لليهودي: خذ الدرع، هي لك، فقال اليهودي متعجباً: قاضي المسلمين يحكم على أمير المؤمنين؟ أشهد أنّ الدرع لعليّ وأنّ دينكم هو الحقّ، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، فأهدى عليّ عند ذلك الدرع لليهودي فرحاً بإسلامه^(٢).

وروي أنّ عليّ بن أبي طالب جمع علماء الكوفة في رحبة المسجد، فقال لهم: إنّي أوشك أن أفارقكم، وجعل يسألهم، ما تقولون في كذا، ما تقولون في كذا؟ ففرغ من جميعهم، وبقي شريح فلمّا فرغ منه قال: اذهب فأنت من أفضل الناس أو قال: فأنت من أفضل العرب.

وقيل لشريح: بأيّ شيء أصبت هذا العلم؟ قال: بمعاوضة العلماء، أخذ منهم وأعطيتهم.

توفي بالكوفة سنة ٧٨هـ وقيل بعد ذلك، وعاش أكثر من مائة سنة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، المقدمه.

(٢) شذرات الذهب ١/١٥٩.

* ٦ * : الحارث الأعور^(١) :

هو الحارث بن قيس الأعور، كان فقيهاً فرضياً، يقال: ليس بالكوفة أحد أعلم بفريضة من عبيدة بن عمرو والحارث الأعور.

وقال محمد بن سيرين: أدركت الكوفة وبها أربعة ممن يعد بالفقه، فمن بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، وعلقمة الثالث، وشريح الرابع.

وكان ابن سيرين يقول أيضاً: إن أربعة أذناهم شريح لخيار.

* ٧ * : زر بن حبيش^(٢) :

هو زر بن حبيش الأسدي (٨٢هـ) من كبار التابعين الذين أدركوا الجاهلية، ولم يروا النبي ﷺ.

روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري وعبدالله بن مسعود وعبدالرحمن بن عوف وحذيفة بن اليمان وأبي بن كعب وغيرهم.

وروي عنه أنه قال: خرجت من الكوفة في وفد ما لي هم إلا لقاء أصحاب محمد ﷺ، فلقيت عبدالرحمن بن عوف وأبي بن كعب فجالستهما.

كان من أعلم الناس بلسان العرب، حتى قيل إن عبدالله بن مسعود كان يسأله عن العربية.

توفي سنة ٨٢هـ وقيل في التي بعدها، وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٠.

(٢) الإصابة ١/٥٧٧.

* ٨ * : عبدالرحمن بن أبي ليلى^(١):

هو عبدالرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي (٨٣هـ) الفقيه المقرئ، روى عن الصحابة، وقيل إنه أخذ عن مائة وعشرين، منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهما، وأخذ القرآن عن علي بن أبي طالب.

قال محمد بن سيرين: رأيت أصحابه يعظمونه كأنه أمير.

خرج مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث أيام ولاية الحجاج على الكوفة فضرب عنقه بين يديه صبوا سنة ٨٣هـ وقتل في تلك السنة من أعيان الكوفة وعلمائها مثل ما قتل يوم الجمل.

* ٩ * : قيس بن أبي حازم^(٢):

هو قيس بن أبي حازم البجلي الأحمسي (٨٤هـ) أحد علماء الكوفة ورواتها، وقدماء التابعين، أسلم في عهد الرسول ﷺ وهاجر إلى المدينة لكن الرسول الأكرم قبض قبل أن يلقاه، فقد روي عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ، لأبأيه فجننت وقد قبض وأبو بكر قائم على المنبر في مقامه فأطاب الثناء وأكثر البكاء.

روى عن كبار الصحابة، ويقال أنه لم يرو عن العشرة جميعاً غيره، وروى أيضاً عن بلال بن رباح ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد وابن مسعود حتى قيل: ما بالكوفة أحد أروى عن الصحابة من قيس.

توفي سنة ٨٤هـ وقيل بعد ذلك.

هؤلاء هم أعلى وأنبل الشيوخ من أصحاب عبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب، وأول طبقة من كبار التابعين الذين كانوا يفتون في

(١) شذرات الذهب ١/١٧١، البداية والنهاية ٩/٥٢، مرآة الجنان ١/٢٠١، شذرات الذهب ١/١٧١، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٥/٩٣.

(٢) الإصابة ٣/٢٧١ - ٢٧٢.

مسائل الدين والأكابر من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ، حاضرون ويجيزون لهم ذلك.

وعن هؤلاء الأعلام من كبار التابعين بالكوفة تلقى جماعة من التابعين الذين لم يدركوا عبدالله بن مسعود - لتقدم وفاته - ولكنهم أدركوا مع ذلك المنزلة العليا في سعة العلم والقدرة على الاجتهاد، وأشهرهم:

- ١ - سعيد بن جبير^(١):

هو أبو عبدالله سعيد بن جبير بن هشام (٩٥هـ) الكوفي المقرئ المفسر الفقيه المحدث.

ورغم أن سعيد بن جبير معدود في أعلام التابعين المنتميين إلى مدرسة الكوفة إلا أنه قد أخذ العلم عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر، وكانت أكثر روايته عن عبدالله بن عباس، وأجاز له في حياته أن يحدث، فقال سعيد: أحدث وأنت ها هنا، فقال ابن عباس: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتكم، فحدث في حياته بإذنه، وكان سعيد لا يكتب الفتاوى مع ابن عباس، فلما عمي ابن عباس كتب، وسمع منه التفسير.

تنقل سعيد بن جبير في البلاد هرباً من بطش الحجاج بن يوسف الثقفي، فدخل أصبهان وأقام بها مدة، ثم ارتحل منها إلى العراق، وكان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين، مرة للعمرة ومرة للحج.

وروي أنه لما كان بأصبهان كان الناس يسألونه عن الحديث، فلا يحدث، ثم لما رجع إلى الكوفة حدث فلما قيل له في ذلك، قال: انشر برك حيث تعرف.

ولجأ آخر الأمر إلى مكة فأقام بها، فأشار من أشار عليه بالهرب منها

(١) مرآة الجنان ١/٢٢٥، شذرات الذهب ١/١٩٨ - ١٩٩، البداية والنهاية ٩٦/٩ - ٩٩،

طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢.

فقال سعيد: والله لقد استحيت من الله ممّا أفرّ ولا مفرّ من قدره.

استمرّ سعيد بن جبير على هذا الحال ما يقرب من اثنتي عشرة سنة، فكان علمه موزعاً بين أهل مكّة وأهل الكوفة.

ونظراً لهذه المدّة الطويلة التي قضّاها سعيد بن جبير مختفياً من الحجاج وأعوانه، فقد أهّمه ما يحمله من علم واسع لا يستطيع تبليغه في كلّ آن، ولذلك فقد روي عنه أنّه كان يقول: إنّ ممّا يهمني ما عندي من العلم، وددت أنّ الناس أخذوه.

شهد له حبر الأمة عبدالله بن عباس بالعلم والقدرة على الإفتاء، فكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه، يقول: يسألونني وفيهم ابن أمّ دهماء؟ - يعني سعيد بن جبير - وقال خفيف بن عبدالرحمن الجزري: كان أعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيّب، وأعلمهم بالحجّ عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام طاووس، وأعلمهم بالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك كلّ سعيد بن جبير.

وكان سعيد بن جبير مع علمه الواسع مشهوراً بالصلاح، معروفاً بإتقانه للقرآن، فقد روي أنّه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة أخرى، وهكذا أبداً.

وبعد ما يقرب من اثنتي عشرة سنة من التخفي استطاع الحجاج أن يظفر بسعيد بن جبير^(١) فقتله وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج ومفتقر إلى علم سعيد.

(١) حيث أرسل الحجاج إلى والي المدينة خالد بن عبدالله القسري يخبره أنّ بمكّة أقواماً من أهل الشقاق، فعزم خالد أن يبعث بسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وطلق بن حبيب، وكلّهم من خيار الناس وأعلام التابعين، ومن العلماء العاملين الذين كرهوا ظلم الحجاج ويطشه بالناس، ثمّ عفا خالد عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكّة، وبعث بالثلاثة الباقين، فأما طلق بن حبيب فمات في الطريق قبل أن يصل، وأمّا مجاهد فحبس وبقي في السجن =

ومن مناقب سعيد بن جبير التي تدلّ على ثباته على الحقّ، ما رواه لنا المؤرخون وأصحاب الطبقات ممّا جرى بينه - وهو يومئذ أعلم أهل الأرض وأصلحها -، وبين الحجّاج بن يوسف - وهو يومئذ أطغى أهل الأرض وأعظمها ظلماً - نوردها بنصّها:

لَمَّا دَخَلَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَلَى الْحَجَّاجِ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ مِنْكَ بِمَا اسْتَعَاذْتَ بِهِ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ حَيْثُ قَالَتْ ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾^(١).

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، قَالَ: بَلْ أَنْتَ شَقِيٌّ بِنَ كَسِيرٍ، قَالَ: أُمِّي أَعْلَمُ بِاسْمِي، قَالَ: شَقِيَّتْ وَشَقِيَّتْ أُمَّكَ، قَالَ: الْغَيْبُ يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ، قَالَ: لِأُورِدَنَّكَ حِيَاضَ الْمَوْتِ، قَالَ: أَنَا إِذَا كَمَا سَمَّيْتَنِي أُمِّي سَعِيدًا، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مِرْوَانَ؟، قَالَ: مَا لَكَ تَسْأَلُنِي عَنْ أَمْرِي أَنْتَ وَاحِدَةً مِنْ ذُنُوبِهِ؟.

قَالَ: وَيَلُوكَ، قَالَ: الْوَيْلُ لِمَنْ زَحَزَحَ عَنِ الْجَنَّةِ وَأَدْخَلَ النَّارَ، قَالَ: وَيَحُكُ، إِنِّي قَاتِلُكَ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَقَّتْ لِي وَقْتًا أَنَا بِالْغَهْ، فَإِنْ يَكُنْ أَجْلِي قَدْ حَضَرَ فَهُوَ أَمْرٌ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ سَاعَةٍ، وَإِنْ تَكُنْ الْعَافِيَةَ فَاللَّهُ تَعَالَى أَوْلَى بِهَا، قَالَ: لِأَبْدَلَنَّكَ بِالدُّنْيَا نَارًا تَلْطَئِي، قَالَ: لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ بِيَدِكَ لَاتَّخَذْتَكِ إِلَهًا.

قَالَ: أَذْهَبُوا بِهِ فَاقْتُلُوهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَذَهَا مِنِّي يَا حَجَّاجُ حَتَّى أَلْقَاكَ يَوْمَ

= حَتَّى مَاتَ الْحَجَّاجُ، وَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ بِقَتْلِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا وَعَوَّجَلَ بِالْعُقُوبَةِ، فَكَانَ إِذَا نَامَ يَرَى سَعِيدَ فِي الْمَنَامِ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ثُوبِهِ وَيَقُولُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ فِيمَ قَتَلْتَنِي؟ فَيَقُولُ الْحَجَّاجُ: مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ؟ وَكَانَ مَوْتُ الْحَجَّاجِ بِالْأَكْلَةِ فِي بَطْنِهِ، وَالْبَرْدُ فِي جَسَمِهِ فَكَانَ يُوقِدُ النَّارَ تَحْتَهُ حَتَّى تَحْرُقَ ثِيَابَهُ، فَشَكَا إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَكُنْ نَهَيْتَكَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلصَّالِحِينَ فَلَجَجْتَ؟ وَأَقَامَ الْحَجَّاجُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ بَعَلَّتْهُ تِلْكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ أَخَذَهُ اللَّهُ، (البداية والنهاية ٩٦/٩ - ٩٧، شذرات الذهب ١/١٩٨).

(١) سورة مريم، الآية: ١٨.

القيامة بين يدي الله، فلما تولّوا به ليقتلوه ضحك سعيد، فقال الحجاج: ارجعوا به، ثم قال له: ما أضحكك؟، قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله جلّ وعلا عليك، ثم استقبل القبلة وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، قال الحجاج: حولوا وجهه عن القبلة، قال: ﴿فَأَيُّنَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، قال: اضربوا به الأرض، وفي رواية قال: اجلدوا به الأرض، قال: ﴿مِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣)، قال: اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم، قال: اللهم لا تسلطه على أحد بعدي، أو قال: ولا تمهله من بعدي.

وذبح سعيد رحمه الله من قفاه، فعوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة ولم يلبث إلا أياما ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر^(٤).

واختلفوا في عمر سعيد حين قتل، ف قيل تسعا وأربعين سنة، وقيل سبعا وخمسين سنة، كما اختلفوا في سنة وفاته ف قيل سنة ٩٥هـ وقيل في التي قبلها.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته، وتحملك على طاعته، فتلك هي الخشية النافعة.

وكان يقول: الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر لله، وإن كثر منه التسبيح وقراءة القرآن.

(١) سورة الأنعام - الآية ٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٤) وقد ذكر المؤرخون روايات كثيرة في صيغة الحوار الذي دار بين سعيد بن جبير والحجاج (البداية والنهاية ٩٨/٩ - ٩٩، مرآة الجنان ١/٢٢٥ - ٢٢٦، شذرات الذهب ١٩٩/١ - ٢٠٠).

وسئل: من أعبد الناس؟ فقال: رجل اقترف من الذنوب، فكلمنا ذكر ذنبه احتقر عمله.

- ٢ - إبراهيم النخعي^(١):

هو الإمام الجليل أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعي (٩٥هـ) فقيه العراق بالاتفاق.

أخذ العلم عن خاله علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس النخعي، ومسروق، وأدرك أم المؤمنين عائشة وهو صغير.

نشأ في أهل بيت فقه، فأخذ فقههم ثم جالس أعلام العراق فأخذ صفو حديثهم إلى فقه أهل بيته، فلم يكن أحد مثله، حتى قال عبدالرحمن بين زيد بن أسلم: إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة.

وقال الشعبي حين بلغه موت إبراهيم النخعي: ما خلف بعده مثله.

ولما حضرته الوفاة جزع جزعا شديدا، ف قيل له في ذلك، فقال: وأي خطر عظيم مما أنا فيه؟ أنا أتوقع رسولا يرد علي من ربي إما بالجنة أو بالنار.

وفي رواية أنه بكى عند موته، ف قيل له: ما يبكيك؟ فقال: انتظار ملك الموت، ما أدري يبشّرني بجنة أو بنار.

توفي سنة ٩٥هـ وقيل سنة ٩٦هـ، وصلى عليه ابن خاله عبدالرحمن بن الأسود بن يزيد.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان إبراهيم النخعي يقول: لا يستقيم رأي إلا بروية، ولا روية إلا برأي، ويقول: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبير الأولى فاغسل يديك من

(١) تذكرة الحفاظ ٧٤/١، مرآة الجنان ٢٢٦/١، شذرات الذهب ٢٠١/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢، إعلام الموقعين ٢٢/١، البداية والنهاية ١٤٠/٩.

فلاحه، ويقول: إني لأرى الشيء ممّا يعاب فلا يمنعني من عيبه إلاّ مخافة أن ابتلى به.

وقال مرّة يعظ الناس: كُنّا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً لأننا قد عرفنا أنّه نزل به أمر صيره إلى الجتّة أو إلى النار، وإنكم تتحدّثون في جنازتكم بأحاديث دنياكم.

- ٣ - عامر الشعبي^(١):

هو أبو عمرو عامر بن شراحبيل بن معبد الشعبي (١٠٤هـ) تابعي جليل القدر وافر العلم، علامة أهل الكوفة، كان إماماً حافظاً، وكان ذا أدب وافر وعقل فاجر.

أدرك أكثر من خمسمائة من الصحابة، وروى عن جمع منهم وعن كثير من التابعين.

كانت لديه ذاكرة قويّة وكان آية في الحفظ والضبط حتّى كان يقول عن نفسه: ما أودعت قلبي شيئاً فخانني قطّ، وكان يقول أيضاً: ما كتبت سوداء في بيضاء إلاّ حفظتها.

وكان يستفتى وأصحاب النبي ﷺ بالكوفة.

وكان مزاحاً - شأنه في ذلك شأن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي -^(٢)، فقد روي أنّ الشعبي قال لخياط مرّ به: عندنا حبّ مكسور تخيطه؟ فقال له: نعم، إن كان عندك خيط من ربح.

ودخل رجل على الشعبي، ومعه في البيت امرأة، فقال: أيكما الشعبي؟ فقال: هذه.

(١) مرآة الجنان ١/٢٤٤ - ٢٤٧، البداية والنهاية ٩/٢٣٠ - ٢٣١، شذرات الذهب ١/٢٢٨ - ٢٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨١.

(٢) انظر: شذرات الذهب ١/٢٠١.

* شهادة الصحابة والتابعين وأتباعهم له بالعلم والفقه:

روي أنّ عبدالله بن عمر بن الخطاب مرّ بالشعبي وهو يحدث بالمغازي، فقال: شهدت القوم وأنه أعلم بها منّي، وقال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم بستّة ماضية من عامر الشعبي.

وقال ابن شهاب الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال عليّ بن المديني: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، وسفيان الثوري في زمانه.

وقال بعضهم: ما رأيت أفقه من الشعبي.

وقال أشعث بن سوار: نعى إلينا الحسن البصري عامر الشعبي، فقال: كان والله فيما علمت كثير العلم، عظيم الحلم، قديم السلم، من الإسلام بمكان.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إنّما الفقيه من توزّع عن محارم الله، والعالم من خاف الله تعالى، ويقول: اتّقوا القاصر - أو قال الفاجر - من العلماء، والجاهل من المتعبّدين.

وكان يقول: رأس العلم إذا سئلت عمّا لا تعلم أن تقول: الله أعلم.

توفي سنة ١٠٤هـ وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها.

ثمّ نقل علم هؤلاء التابعين وغيرهم جماعة من أعلام أحداث التابعين، أشهرهم:

- ٤ - الحكم بن عتيبة^(١):

هو أبو محمد الحكم بن عتيبة بن النهاس الكوفي (١١٥هـ) الفقيه النبيه شيخ الكوفة، ولد هو وإبراهيم النخعي في ليلة واحدة، لكنّه تفقه بإبراهيم.

كان صاحب سنة وأتباع، وما كان بالكوفة مثله.

كان جليلاً عظيماً القدر، إذا قدم المدينة أخذوا له سارية النبي ﷺ يصلّي إليها.

قال مجاهد بن رومي: ما كنت أعرف فضل الحكم إلا إذا اجتمع علماء الناس في مسجد منى، نظرت إليهم عيال عليه.

ويشهد لهذا ما روي عن الإمام الأوزاعي أنّه قال: قال لي يحيى بن أبي كثير - وفي رواية عبدة بن أبي لبابة - ونحن بمنى، لقيت الحكم بن عتيبة؟ قال: قلت لا، قال: ما بين لابتيها أفقه منه، قال: وبها عطاء بن أبي رباح وأصحابه، وكانت وفاته سنة ١١٥هـ.

- ٥ - حمّاد بن أبي سليمان^(٢):

هو فقيه الكوفة أبو إسماعيل حمّاد بن أبي سليمان (١٢٠هـ) مولى إبراهيم بن أبي موسى الأشعري.

تفقه بإبراهيم النخعي، وروى عن الصحابي أنس بن مالك وعن التابعي الجليل سعيد بن المسيّب وغيرهما، وكان جواداً سرّياً محتشماً صدوق اللسان.

قيل لإبراهيم النخعي: ما لنا بعدك؟ فقال: حمّاد، وكان سفيان بن

(١) شذرات الذهب ٢٦٣/١، تذكرة الحفاظ ١١٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢ - ٨٣، مرآة الجنان ٢٧٦/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣، مرآة الجنان ٢٨٢/١، شذرات الذهب ٢٧٤/١، تذكرة الحفاظ ١١٧/١.

عينه يقول: ما كان بالكوفة مثل الحكم بن عتيبة وحمّاد بن أبي سليمان.

توفي سنة ١٢٠هـ وقيل في التي قبلها.

- ٦ - حبيب بن أبي ثابت^(١):

هو حبيب بن أبي ثابت (١١٩هـ)، فقيه الكوفة ومفتيها مع حمّاد بن أبي سليمان، سمع من عائشة أم المؤمنين، وروى عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وأبي عبدالرحمن السلمي وأبي وائل وسعيد بن جبير وغيرهم.

وكان أبو بكر ابن عيّاش يقول: ثلاثة ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة وحمّاد بن أبي سليمان.

وكان حبيب بن أبي ثابت يقول: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً، عطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر.

توفي سنة ١١٩هـ وقيل سنة ١١٧هـ.

- ٧ - المغيرة بن مقسم^(٢):

هو المغيرة بن مقسم الضبيّ (١٣٣هـ) الفقيه الكوفي الأعمى، أحد الأئمة الأعلام، كان من فقهاء أصحاب إبراهيم النخعي، وكان يسمّى: راوية إبراهيم.

كان ذكياً، عجباً في الذكاء، حافظاً صاحب سنّة، ويقال أنّه كان أحفظ من حمّاد بن أبي سليمان حتى إنّ المغيرة كان يقول عن نفسه: ما وقع في مسامعي شيء فنسيته، توفي سنة ١٣٣هـ.

(١) تذكرة الحفاظ ١/١١٦، مرآة الجنان ١/٢٨٢، شذرات الذهب ١/٢٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣، البداية والنهاية ٩/٢٤٥.

(٢) مرآة الجنان ١/٣٠٤، شذرات الذهب ١/٣٢٣، تذكرة الحفاظ ١/١٤٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣.

وكان بالكوفة الكثير من أحداث الأعلام من أقران هؤلاء الذين نشطوا في طلب العلم وتلقوا عن الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما، حتى يروى عن بعضهم أنهم كانوا يجلسون بالليل يتذكرون الفقه فربما لا يقومون حتى يسمعوا النداء لصلاة الفجر^(١)، وذلك لشدة حرصهم على طلب العلم والترقي فيه.

المركز الرابع: البصرة:

هي ثاني المراكز الفقهية بالعراق، بعد الكوفة، نزل بها جمع غفير من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ، منذ تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب، مثل عمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي ومقل بن يسار وعبدالرحمن بن سمرة وعبدالله بن الشخير والأقرع بن حابس وغيرهم من الصحابة الذين نزلوا البصرة^(٢).

وقد سُمي منهم ابن سعد في طبقاته ١٥٢ صحابياً^(٣) غير أن أشهر من نزلها من الصحابة ممن كان لهم الأثر البالغ والتأثير العميق بلا منازع، في هذا المركز الفقهي الجديد، هما أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك.

* أبو موسى الأشعري^(٤):

فأما أبو موسى الأشعري فهو عبدالله بن قيس بن سليم الأشعري، واشتهر باسمه وكنيته معاً، روى عن النبي ﷺ وعن الخلفاء الأربعة ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وعمار بن ياسر.

كان ممن بعثه الرسول ﷺ مع معاذ إلى اليمن ليعلم الناس القرآن، فكان مما أوصاهما به قوله ﷺ: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطوعا

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤.

(٢) معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٥/٧ - ٨٩.

(٤) الإصابة ٣٥٩/٢ - ٣٦٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٤، البداية والنهاية ٥٩/٨ - ٦٠، الاستيعاب ٣٧٢/٢ - ٣٧٣، إعلام الموقعين ١/١٦.

ولا تختلفا»^(١).

ثم ولّاه عمر البصرة، فعلم بها وفقه أهلها، فقد روي أنّ أنس بن مالك قال: بعثني الأشعري إلى عمر فأتيته فسألني عنه، فقلت: تركته يعلم الناس، فقال: أما إنّه كيس، فلا تسمعها إياه.

وكان عمر قد كتب في وصيته: لا يقرّ لي عامل أكثر من سنة وأقرّ الأشعري أربع سنين.

فكان أبو موسى هو الذي فقه أهل البصرة وأقرأهم، حتى قال الحسن البصري: ما أتى البصرة راكب خير من لأهلها من أبي موسى الأشعري.

بقي أبو موسى الأشعري واليا على البصرة منذ أن ولّاه عمر بن الخطاب إلى صدر من خلافة عثمان ثم صرفه عنها، فنزل حينئذ أبو موسى الكوفة وسكنها، وتفقه به أهلها حتى ولّاه عثمان عليهم.

استمرّ أبو موسى واليا على الكوفة إلى أن توفي عثمان بن عفان، فلما تولّى الخلافة عليّ بن أبي طالب عزله عنها، غير أنّ أبا موسى استقرّ بالكوفة حتى توفي بها^(٢).

ولذلك كان فقه أبي موسى الأشعري موزعاً بين مركزي أهل العراق، أعني مركز الكوفة ومركز البصرة.

ولقد كان رضي الله عنه من قراء الصحابة وفقهائهم، وكان حسن الصوت بالقرآن بل كان أحسن الصحابة صوتاً في زمانه حتى إنّ الرسول ﷺ قال له: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»^(٣).

وكان عمر بن الخطاب إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربّنا يا أبا

(١) أخرجه الشيخان في صحيحهما، كتاب الجهاد والسير.

(٢) وقيل بل مات بمكة بعد أن اعتزل الناس بعد حادثة التحكيم (الاستيعاب ٣٧٢/٢، البداية والنهاية ٦٠/٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

موسى، فيقرأ عنده^(١).

* شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:

سئل الإمام عليّ عن أبي موسى فقال: صبغ في العلم صبغة.

وقال الشعبي: قضاة هذه الأمة أربعة: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري، وكذلك قال عليّ بن المدني.

وقال مسروق: كان العلم في ستّة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يصفهم أهل الكوفة عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، رضي الله عنهم، وذكر عن الشعبي مثل ذلك.

وفي تاريخ وفاته خلاف كبير فقبل توفي سنة ٤٤ هـ وقيل سنة ٥٠ هـ وقيل ٥١ وقيل ٥٢ وقيل ٥٣، كما اختلفوا في مكان وفاته، بالكوفة أم بمكة.

* أنس بن مالك^(٢):

هو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ، من سادات الصحابة ذوي الفضائل والإنابة.

خدم النبي ﷺ بالمدينة وهو ابن عشر سنين، فعن ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني أنس بن مالك الأنصاري أنّه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أمهاتي يواظبني على خدمة النبي ﷺ.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن.

(٢) مرآة الجنان ٢١١/١، شذرات الذهب ١٨٧/١، الإصابة ٧١/١، البداية والنهاية ٨٩/٩ - ٩٢، إسعاف المبطأ ص ٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١ - ٥٢، الاستيعاب ٧٣/١.

فخدمته عشر سنين^(١).

كناه الرسول الأكرم ﷺ أبا حمزة ببقلة يجتنيها، فعن أنس قال: كتاني رسول الله ﷺ ببقلة كنت أجتنيها^(٢)، ومازحه النبي فقال له: «يا ذا الأذنين»^(٣).

وكان الرسول الأكرم ﷺ يحسن صحبته، فعن أنس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كئيس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر، ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا؟ ولا لشيء لم أصنعه، لم لم تصنع هذا هكذا؟^(٤).

* دعاء الرسول له بكثرة المال والولد والبركة فيهما:

عن أنس قال: قالت أمي - أم سليم - يا رسول الله: خادمك أنس ادع الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته^(٥) قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم^(٦)، وقد دفن أنس لصلبه إلى مقدم الحجّاج البصرة مائة وعشرين، وكان نخله يثمر في العام مرّتين.

وعن أنس أيضاً قال: مرّ رسول الله ﷺ فسمعت أمي أم سليم صوته، فقالت بأبي وأمّي يا رسول الله أنيس، فدعا لي رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة وفي المناقب، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا وكتاب الديّات، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

ثلاث دعوات^(١) قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة^(٢).

ولذلك كان أنس بن مالك يسأل الرسول الأكرم أن يشفع له يوم القيامة، فعن أنس قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل»، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك، قال: «اطلبي أول ما تطلبني على الصراط»، قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط، قال: «اطلبي عند الميزان» قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال: «اطلبي عند الحوض فأني لا أخطيء هذه الثلاث المواطن»^(٣).

روى أنس عن النبي ﷺ أحاديث جمّة، وأخبر بعلوم مهمّة، وروى عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهم.

ويعدّ أنس بن مالك ثالث سبعة من الصحابة المكثرين من الرواية عن رسول الله ﷺ، - بعد أبي هريرة وعبدالله بن عمر بن الخطاب - وعدد ما رواه ٢٢٨٦ حديثاً^(٤)، كانت إقامة أنس بعد وفاة النبي ﷺ بالمدينة، وقد استعمله أبو بكر ثمّ عمر على البحرين، ثمّ انتقل فسكن البصرة ومات بها. وكان كثير العبادة حتى إنّه روي أنّه كان يصلي فيطيل القيام حتى تقطر قدماه دما.

* شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:

قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أمّ سليم - يعني أنس بن مالك - وقال محمد بن سيرين: كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاة في الحضر وفي السفر.

(١) أي قوله ﷺ: اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع.

(٤) تدريب الراوي ٢/٢١٧.

وقال قتادة لَمَّا مات أنس قال مؤرق العجلي: اليوم ذهب نصف العلم، قيل له، وكيف ذلك يا أبا المعتمر؟ قال: كان إذا خالفنا الرجل قلنا: تعال إلى من سمعه من رسول الله ﷺ.

توفي أنس سنة ٩٣هـ وهو المشهور، وقيل قبل ذلك بسنة وقيل بستين وقيل بثلاث، وقد جاوز المائة، وهو آخر الصحابة موتاً بالبصرة، وما بقي أحد صلى إلى القبلتين غيره.

وإلى هذين الصحابييين، أعني أبا موسى الأشعري وأنس بن مالك يعود الأثر الأعظم والدور الأكبر في تخرّج أعلام التابعين من البصريين الذين تأسس بهم هذا المركز الفقهي.

ولقد كان أبو موسى الأشعري أقضى من أنس، وكان أنس أكثر رواية للحديث من أبي موسى، ثم آلت زعامة البصرة إلى أنس بلا منازع.

ويمكن أن نرجع ذلك إلى عاملين أساسيين هما:

أولهما: استقرار أنس بالبصرة بعد أن استعمله أبو بكر ثم عمر على البحرين، إلى حين وفاته، وهذا يعني أنّ أنساً قد قضى بالبصرة ما يقرب من سبعة عقود من حياته، في حين أنّ أبا موسى الأشعري قد استعمله عمر أوّل الأمر على الكوفة ثمّ على البصرة والياً ومعلماً وقاضياً، ثمّ عزله عثمان عن البصرة بعد أن أقرّه عليها زمناً وولاه الكوفة التي عزله عنها عليّ بن أبي طالب بعد ذلك، فكان فقه أبي موسى موزعاً بين أهل الكوفة وأهل البصرة.

ثانيهما: تأخر وفاة أنس بن مالك، فإنّ أنساً قد عمّر إلى سنة ٩٣هـ على رأي الجمهور فكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة، في حين توفي أبو موسى سنة ٤٤هـ أو ٥٢هـ على المشهور، ولا شك أنّ هذه الفترة الفاصلة بين وفاتهما والتي تتراوح بأربعة عقود على أقل تقدير، قد كان لها العامل الأعظم في جعل أنس بن مالك زعيم هذا المركز الفقهي بلا منازع وإن كُتبا لا ننفي تأثير أبي موسى في هذا المركز.

وأشهر من تخرّج بهذا المركز من أعلام التابعين:

* ١ * : جابر بن زيد^(١):

هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (٩٣هـ) الفقيه البصري، أسند عن جماعة من الصحابة، ومعظم روايته عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس.

كان من الذين أوتوا العلم، وكان يفتي في البصرة، وكان الصحابة مثل جابر بن عبدالله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول: كيف تسألوننا وفيكم أبو الشعثاء؟ وقال له جابر بن عبدالله: يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتى، فلا تفتنّ إلاّ بقرآن ناطق أو سنّة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت.

* شهادة الصحابة والتابعين له بالعلم والفضل:

كان عبدالله بن عباس يقول: لو أنّ أهل البصرة نزلوا على قول أبي الشعثاء لأوسعهم علماً عمّا في كتاب الله عزّ وجلّ.

وقال إيّاس بن معاوية: أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد.

ولمّا مات جابر بن زيد ودفن، قال قتادة: اليوم دفن أعلم أهل الأرض.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: لأن أتصدّق بدرهم على يتيم ومسكين أحبّ إليّ من حجة بعد حجة الإسلام، وكان يقول: نظرت في أعمال البرّ فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحجّ يجهد المال

(١) مرآة الجنان ٢١١/١، البداية والنهاية ٩٤/٩ - ٩٥، شذرات الذهب ١٨٨/١، طبقات

والبدن، فرأيت أنّ الحجّ أفضل من ذلك.

توفي سنة ٩٣هـ وقيل سنة ١٠٣هـ.

* ٢ * : أبو قلابة عبدالله بن زيد ^(١):

هو أبو قلابة عبدالله بن زيد بن عمرو الجرمي الأزدي (١٠٤هـ) الإمام البصري، طلب للقضاء فهرب وتغرب، ثم نزل الشام وبها مات.

له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم.

كان من كبار الأئمة والفقهاء وكان رأساً في العلم والعمل، ومناظرته مع علماء عصره في القسامة ^(٢) بحضرة الخليفة عمر بن عبدالعزيز تدلّ على علم وافر وفقه واسع.

فعن أبي قلابة أنّ عمر بن عبدالعزيز أبرز سريره ^(٣) يوماً للناس، ثمّ أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ قال: نقول القسامة القود بها حقّ، وقد أقادت بها الخلفاء، قال لي: ما تقول يا أبا قلابة؟ ونصّيني للناس - أي أبرزني لمناظرتهم -، فقلت: يا أمير المؤمنين عندك رؤوس الأجناد وأشرف العرب - وفي رواية وأشرف الناس - رأيت لو أنّ خمسين منهم شهدوا على رجل محصن بدمشق أنّه قد زنى لم يروه أكنت ترجمه؟ قال: لا، قلت: رأيت لو أنّ خمسين منهم شهدوا على رجل

(١) مرآة الجنان ١/٢٤٨، شذرات الذهب ١/٢٢٦، البداية والنهاية ٩/٢٣١.

(٢) قال ابن منظور: القسامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذون، والقسامة: الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون، ويمين القسامة منسوبة إليهم، ويقال: قتل فلان فلانا بالقسامة أي باليمين، وجاءت قسامة بني فلان، وأصله اليمين ثمّ جعل قوماً (لسان العرب - مادة - قسم -).

(٣) المراد بالسريير ما جرت عادة الخلفاء الاختصاص بالجلوس عليه، والمقصود أنّه أخرجه إلى ظاهر الدار لا إلى الشارع، ولذلك قال: ائذن للناس (فتح الباري ١٢/٢٩٠).

بحمص أنه سرق أكنت تقطعه ولم يروه؟ قال: لا، قلت: فوالله ما قتل رسول الله ﷺ أحداً قط إلا في إحدى ثلاث خصال، رجل قتل بجريرة نفسه فقتل، أو رجل زنى بعد إحصان، أو رجل حارب الله ورسوله وارتد عن الإسلام، فقال القوم: أو ليس قد حدث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قطع في السرقة وسمر الأعين ثم نبذهم في الشمس، فقلت: أنا أحدثكم حديث أنس، حدثني أنس أن نقرأ من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا الأرض فسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قال: «أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها؟» قالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من ألبانها وأبوالها فصحوا فقتلوا راعي رسول الله ﷺ وأطردوا التعم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهم، فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم ثم نبذهم في الشمس حتى ماتوا قلت: وأي شيء أشد مما صنع هؤلاء؟ ارتدوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا فقال عنبسة بن سعيد: والله إن سمعت كالיום قط^(١)، فقلت: أترد عليّ حديثي يا عنبسة؟ قال: لا ولكن جئت بالحديث على وجهه، والله لا يزال هذا الجند - أي أهل الشام - بخير ما عاش هذا الشيخ بين أظهرهم قلت وقد كان في هذا سنة من رسول الله ﷺ^(٢).

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همك ما تحدث به الناس، فلعلّ غيرك ينتفع ويستغني، وأنت في الظلمة تتعثر.

(١) أي ما سمعت قبل اليوم مثل ما سمعت منك اليوم، وفي رواية: ما رأيت كالיום قط، وعنبسة هذا هو الأموي آخر عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق، وجدّه العاص بن سعيد بن العاص بن أمية وكان عنبسة من خيار أهل بيته، وله روايات وأخبار مع الحجاج بن يوسف، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره (فتح الباري ٢٩١/١٢ - ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب باب القسامة من كتاب الديات.

وكان يقول: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً جهديك، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

توفي بالشام سنة ١٠٤هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٧هـ.

* ٣ * رفيع بن مهران^(١):

هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري (١٠٦هـ) المقرئ المفسر الذي قرأ القرآن على أبي بن كعب.

وأبو العالية تابعي ثقة من كبار التابعين، أدرك الجاهلية وأسلم بعد موت النبي ﷺ بستين.

أرسل عن كثير من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وأبو ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وعلي بن أبي طالب، وروى عن أبي موسى الأشعري وأبي أيوب الأنصاري ورافع بن خديج وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم.

كان أهل العلم يقولون: أشبه رجل بالبصرة علماً بإبراهيم النخعي أبو العالية.

وكان أبو بكر بن أبي داود يقول: ليس بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير.

وفي تاريخ وفاته خلاف كبير فقيل توفي سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ٩٣هـ وقيل غير ذلك.

* ٤ * الحسن البصري^(٢):

هو الحسن بن أبي الحسن البصري (١١٠هـ) الإمام القدوة، المجمع

(١) مرآة الجنان ٢١٤/١، شذرات الذهب ١٨٩/١، الإصابة ١٤٤/٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٨.

(٢) مرآة الجنان ٢٥٧/١ - ٢٥٨، شذرات الذهب ٢٤٤/١ - ٢٤٦، البداية والنهاية ٢٦٨/٩ - ٢٧٢، طبقات ابن سعد ١٥٦/٧، مرآة الجنان ٢٥٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٧.

على جلالته وصلاحه وزهده وفضله وإمامته، إمام أهل البصرة وخير أهل زمانه، وأحد التابعين الكبار الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً.

كان جامعاً عالمياً رفيعاً فقيهاً حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، وكانوا يرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة أم المؤمنين أم سلمة، وذلك أن أباه كان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، وكانت أمه مولاة أم سلمة فكانت إذا غابت أمه في حاجة فيبكي، تعطيه أم سلمة ثديها تعلقه به إلى أن تأتي أمه فيدّر عليه.

وروي أن أم سلمة أخرجه إلى عمر بن الخطاب - وقد ولد لستين بقيتاً من خلافة عمر - فدعا له فقال: اللهم فقّهه في الدين وحبّبه إلى الناس، فما رثي أحد أشبه رأياً بعمر منه.

حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان لا يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تفسيرها وتأويلها، وفيما أنزلت، وكان لا يأمر بفعل حتى يفعله، ولا ينهى عن شيء حتى يدعه.

وكان إذا أقبل على القوم فكأنه أقبل من دفن صديقه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

* مناقبه:

له مناقب كثيرة، وحوادث شهيرة من ذلك ما روي أنه لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان في عهد يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والإمام الشعبي - وذلك في سنة ١٠٣هـ - فقال لهم: إن الخليفة يزيد قد أخذ عهدنا بالسمع والطاعة وولّاني فيكتب إليّ الأمر من أمره، فأقلده ما تقلد من ذلك الأمر، فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه بعض تقيّة: فقال: ما تقول يا حسن؟ قال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيداً في الله، فإن الله يمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، ويوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق

قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك، يا ابن هبيرة إياك أن تعصي الله، فإثما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله تعالى وعباده، فلا تترك دين الله وعباده لهذا السلطان، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأضعف ابن هبيرة جائزة الحسن على ابن سيرين والشعبي، فقال الشعبي لابن سيرين: سفسفنا له فسفسف لنا، والسفساف: الرديء من العطيّة.

وكتب إليه عمر بن عبدالعزيز يقول له: إني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعوانا يعينونني عليه، فكتب إليه الحسن كتاباً يقول له فيه: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله والسلام.

وكانت له مع الحجاج بن يوسف الثقفي وقائع هائلة مشهورة، واجهه فيها بكلام صاعد، وقد سلمه الله من شره.

* شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:

سئل أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن، فإنه سمع وسمعنا فحفظ ونسينا.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل البصرة الحسن البصري.

وقال علي بن زيد: أدركت عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب ويحيى بن جعدة والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب في آخرين فلم أر مثل الحسن، ولو أنّ الحسن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه.

وقال أحمد بن حنبل: ليس أحد أكثر فتوى في التابعين من الحسن وعطاء، كان عطاء مفتي مكة، وكان الحسن مفتي البصرة.

وروى بلال بن أبي بردة قال: سمعت أبي يقول: والله لقد أدركت

أصحاب محمد ﷺ فما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ من هذا الشيخ - الحسن البصري - .

* ما أثر عنه من أقوال:

كان جلّ كلام الحسن البصري حكماً ومواعظ، بقوة عبارة وفصاحة، من ذلك:

قوله: إن قوما قد ألهمتهم أمانى المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: إني لحسن الظن بالله وأرجو رحمة الله، وكذب، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة، يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك.

وقيل للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه.

وكتب الحسن إلى فرقد يقول: أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والعمل بما علمك الله والاستعداد لما وعد الله ممّا لا حيلة لأحد في دفعه ولا ينفع الندم عند نزوله، فاحسر عن نفسك قلاع الغافلين وانتبه من رقدة الجاهلين وشمر الساق فإنّ الدنيا ميدان مسابقة والغاية الجنة أو النار فإنّ لي ولك مقاما من الله يسألني وإياك فيه عن الحقيّر والدقيق والجليل والخافي.

وكان يقول لخادمه: يا بنيّ أدم الحزن على خير الآخرة لعلّه أن يوصلك إليه، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة، لعلّ مولاك أن يطّلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين.

وكان يقول له: يا بنيّ إنّ البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل لعلّه تعالى أن يرحمك، فما هو إلّا حلول الدار إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، ما هنالك منزل ثالث.

ويقول: إنّ الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق

رقبته من النار، ولو أنّ باكياً بكى في ملاء من خشية الله لرحموا جميعاً، وليس شيء من الأعمال إلا وله وزن إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقوم الله بالدمعة منه، وما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب.

وكان يقول: الناس في العافية سواء، فإذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه.

ويقول: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإن الله عزّ وجلّ لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإن سمعت قولاً حسناً فرويدا بصاحبه.

ويقول: من جعل الحمد لله على النعم حصناً وحاسباً، وجعل أداء الزكاة على المال سياجاً وحارساً، وجعل العلم له دليلاً وسائساً، أمن العطب وبلغ أعلى الرتب، ومن كان للمال قانصاً وله عن الحقوق حاسباً وشغله وألهاء عن طاعة الله كان لنفسه ظالماً ولقلبه بما جنت يده كالماء وسلطه الله على ماله سالباً وخالساً، ولم يأمل العطب في سائر وجوه الطلب.

توفي رحمه الله بالبصرة سنة ١١٠هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

* ٥ * محمد بن سيرين^(١):

هو أبو بكر محمد بن سيرين (١١٠هـ) مولى أنس بن مالك، شيخ البصرة مع الحسن في أوانه، وإمام المعبرين في زمانه، أحد الجلة الورعين.

كان فقيهاً إماماً غزير العلم، ثقة ثبتاً، علامة في التعبير، رأساً في الورع غاية في العلم، نهاية في الورع قد أعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله، حتى قال بعض السلف: ما رأيت أحداً

(١) مرآة الجنان ١/٢٦٠، تذكرة الحفاظ ١/٧٨، شذرات الذهب ١/٢٤٧، البداية والنهاية

أفقه في ورعه، ولا أروع في فقهه من محمد بن سيرين.

ولمّا أريد على القضاء هرب إلى الشام.

روى عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك وروى عنه جماعة من الأئمة.

وكان بعضهم إذا روى عنه قال: حدّثني أصدق من رأيت من البشر.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان محمد بن سيرين يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه، وروي عنه أنّه قال: ما أهون الورع، فقيل له: وكيف هو هين؟ فقال: إذا رابك شيء فدعه.

وكان إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم، وقال: ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره.

ولد محمد بن سيرين لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان وتوفي سنة ١١٠هـ بعد موت الحسن البصري بمائة يوم.

* ٦ * مسلم بن يسار^(١):

هو أبو عبدالله مسلم بن يسار (١٠٠هـ) البصري، الفقيه الزاهد، أحد عبّاد البصرة وفقهائها، الذي لم يكن يفضل عليه أحد في زمانه.

كان مسلم بن يسار يعدّ خامس خمسة من فقهاء أهل البصرة، وقد أدرك بعض السلف مسجد البصرة وما فيه حلقة يذكر فيها الفقه إلا حلقة مسلم بن يسار.

توفي سنة ١٠٠هـ وقيل سنة ٩٩هـ.

ونقل علم هؤلاء وأمثالهم من أعلام كبار التابعين بالبصرة في هذا

(١) مرآة الجنان ١/٢٣٦، البداية والنهاية ٩/١٨٦، شذرات الذهب ١/٢١٤، طبقات

الدور أحداث التابعين الذين كان أشهرهم:

١ - قتادة بن دعامة السدوسي^(١):

هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي (١١٧هـ) الضرير البصري، أحد علماء التابعين والأئمة العاملين، عالم أهل البصرة ومفسر الكتاب، وكان يقول عن نفسه: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً.

كان إماماً في النسب، رأساً في العربية واللغة وأيام العرب، وكان آية في الحفظ، وكان يقول عن نفسه: ما قلت لمحدث قط: أعده عليّ، وما سمعت شيئاً إلا وعاه قلبي، حتى إن شيخه محمد بن سيرين كان يشهد له بذلك ويقول: قتادة أحفظ الناس.

وروي أنه أقام عند سعيد بن المسيّب ثمانية أيام فقال له في اليوم التاسع: ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيّب والحسن البصري وأبو العالية رفيع بن مهران ووزارة بن أوفى وعطاء بن أبي رباح ومجاهد ومحمد بن سيرين ومسروق وغيرهم.

* شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم والحفظ:

قال بعض السلف: ما رأيت أفقه من الزهري وحمّاد وكتادة، وقال سعيد بن المسيّب: ما جاءني عراقي أفضل من قتادة.

وقال علي بن المديني: الذين أفتوا أربعة: الزهري، والحكم بن عتيبة، وحمّاد وكتادة.

وقال أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير وباختلاف العلماء، وهو أحفظ أهل البصرة.

توفي سنة ١١٧هـ وقيل سنة ١١٨هـ.

(١) البداية والنهاية ٣١٣/٩، تذكرة الحفاظ ١٢٣/١، شذرات الذهب ٢٦٨/١، مرآة الجنان

- ٢ - إياس بن معاوية^(١) :

هو إياس بن معاوية بن قرّة المزني الليثي (١٢٢هـ) قاضي البصرة، المعدوم مثلاً في الذكاء والفتنة، كان رأساً لأهل البيان والفصاحة، وكان صادق الظنّ لطيفاً في الأمور، مشهوراً بفرط الذكاء، وهو المشار إليه في قول أبي تمام:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

وإياه عنى الحريري في المقامة السابعة من مقاماته حين قال: فإذا
المعيتي ألمعيتي ابن عباس، وفراستي فراسة إياس.

كان تابعياً جليلاً، وفقهياً عفيفاً وكان عاقلاً من الرجال فطناً، ولجده
صحبة.

ولي قضاء البصرة في عهد الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز، وذلك أنّ عمر بعث عدي بن أرطاة نائبا على البصرة وأمره أن يجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة، وينظر أيهما أفقه فيولّيه القضاء فجمع عدي بينهما، فقال إياس - وهو يريد التهرب من ولاية القضاء -: أيها الأمير سل عني وعنه فقيهي البصرة الحسن البصري ومحمد بن سيرين - وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما - فعرف القاسم أنّه إن سألهما الأمير أشارا به، فقال القاسم: - وهو يريد التهرب كذلك من ولاية القضاء - لا تسأل عنه ولا عني فوالله الذي لا إله إلا هو أنّه أفقه وأعلم بالقضاء مني، فإن كنت كاذبا فما ينبغي أن تولّي كاذبا القضاء، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل نصيحتي، فقال إياس: أيها الأمير إنّ القاسم لما عرف أنّه قد أوقف على شفير جهنّم - بتولّيه القضاء - افتدى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى عنها وينجو ممّا يخاف، فقال عند ذلك عدي: أمّا وقد

(١) مرآة الجنان ١/٢٤٨ - ٢٤٩ و ٢٨٣ - ٣٨٤، شذرات الذهب ١/٢٨٠، البداية والنهاية

١/٣٣٤ - ٣٣٨، وفيات الأعيان ١/٢٤٧.

فطنت إلى هذا وفهمته، فقد وليتك القضاء.

ولمّا تولّى إيّاس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيّوب السخيتاني: لقد رموها بحجرها، وجاءه الحسن البصري ومحمد بن سيرين فسلمّا عليه، فبكى إيّاس وذكر حديث الرسول ﷺ: «القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاض في الجنة»^(١) ثمّ جلس للناس في المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات.

روى إيّاس عن أبيه عن جدّه مرفوعاً، وروى عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب وغيرهم.

* مناقبه:

كان إيّاس أحد العقلاء الفضلاء الدهاء، له غرائب تدلّ على فطنته وحدة ذكائه يعجز الإنسان عن حصرها، وقد اشتهر بحدة الذكاء وسرعة البديهة منذ صغره حتى إنّ أباه معاوية بن قرّة قال: إنّ الناس يلدون أبناء، وولدت أنا أباً، وسئل مرّة: كيف ابنك؟ قال: نعم الابن، كفاني أمر دنياي، وفرغني لآخرتي.

ومن الوقائع التي تدلّ على فراسته:

* تحاكم إيّاس وهو صبيّ شاب، وشيخ إلى قاضي عبدالملك بن مروان بدمشق، فقال له القاضي: إنّه شيخ وأنت شاب فلا تساوه في الكلام، فقال إيّاس: إن كان كبيراً فالحقّ أكبر منه، فقال له القاضي: اسكت، فقال إيّاس: ومن يتكلّم بحجّتي إذا سكّت؟ فقال القاضي: ما أحسبك تنطق بحقّ في مجلسي هذا حتّى تقوم، فقال إيّاس: أشهد أن لا إله إلاّ الله، فلمّا بلغ الخبر الخليفة عبدالملك، قال للقاضي: اقض حاجته

(١) وتمام الحديث: «رجل قضى بغير الحقّ فعلم ذلك، فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحقّ فذلك في الجنة» (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأحكام، وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، واللفظ للترمذي).

وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس.

* وسأل رجل إِيَّاساً عن النبيذ فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء، فقال: حلال، قال: فالكسور، قال: حلال، قال: فالتمر، قال: حلال، قال: فما باله إذا اجتمع حَرَم؟ فقال إِيَّاس: رأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التبن؟ قال: لا توجعني، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئاً، قال: أفرايت إن خلطت هذا بهذا وهذا حتى صار طيناً ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك؟ قال: إي والله، وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت.

* وروي عن إِيَّاس أنه قال: ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، ذلك أتى كنت في مجلس القضاء فدخل عليّ رجل شهد عندي أنّ البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك لفلان، فقلت له كم: عدد شجره، فسكت ثم قال لي: منذ كم يحكم سيّدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت: الحقّ معك وأجزت شهادته.

ولكثرة ما عرف به من الفطنة، كان أصحابه يجلسون حوله ويكتبون عنه الفراسة.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان إِيَّاس يقول: إتّي لأكلّم الناس بنصف عقلي، فإذا اختصم إليّ اثنان جمعت لهما عقلي كلّهُ ، وذكر عنده أحد الحاضرين رجلاً بسوء، فقال له إِيَّاس: أغزوت الروم؟ قال: لا، قال: فالسند والهند والترك؟ قال: لا، فقال له إِيَّاس: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟.

وكان إِيَّاس قد غلب على الكلام فلا يتكلّم معه أحد إلاّ علاه، فقال له بعضهم: ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك، فقال: بحقّ أتكلّم أم بباطل؟ فقبل له: بل بحقّ، فقال إِيَّاس: كلّمنا كثر الحقّ فهو خير.

وكان يقول: إنّ أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه.

ولما ماتت أمه بكى عليها، فقيل له في ذلك، فقال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة، فغلق أحدهما.

توفي إياس سنة ١٢٢هـ.

- ٣ - ثابت البناني^(١):

هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناني (١٢٣هـ) - وبنانة من قریش - كان من سادات التابعين علماً وفضلاً وعبادةً وزهداً ونبلاً، وكان من خواص أنس بن مالك، وروى عن غيره من الصحابة.

- ٤ - أيوب السخيتاني^(٢):

هو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السخيتاني (١٣١هـ) فقيه أهل البصرة، وأحد الأعلام من صغار التابعين، وسيد الفقهاء والعلماء في عصره، وعلم الحفاظ.

أخذ عنه الإمام مالك وسفيان الثوري وغيرهما.

* شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم:

قال الحسن البصري: أيوب سيد شباب أهل البصرة، وقال هشام بن عروة: ما رأيت بالبصرة مثل السخيتاني، وكان بعض السلف يقول: أيوب سيد الفقهاء.

وقال حماد بن زيد: كان أيوب أفضل من جالسته وأشدّهم أتباعاً للسنة، وقال سفيان بن عيينة: لم ألق مثله، وذكر ابن المديني أنّ له ثمانمائة حديث.

(١) مرآة الجنان ١/٢٨٥، شذرات الذهب ١/٢٨٢.

(٢) مرآة الجنان ١/٢٩٨، شذرات الذهب ١/٣١٠ - ٣١١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص

توفي سنة ١٣١هـ باتفاق.

المركز الخامس: الشام:

نزل بلاد الشام جمع كبير من فضلاء الصحابة الكرام، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح وبلال بن رباح وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد والفضل بن العباس بن عبدالمطلب وعوف بن مالك الأشجعي وغيرهم^(١).

وقد ترجم ابن سعد في طبقاته لـ ١١٤ من أعيان الصحابة الذين نزلوا الشام^(٢) غير أنّ أشهر من تصدّر لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام، وكان له الفضل في تثبيت ركائز الفقه والعلم بهذا المركز الجديد هم: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء الذين أرسلهم عمر بن الخطاب إلى الشام استجابة لطلب يزيد بن أبي سفيان حين كتب إلى عمر: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم^(٣).

* معاذ بن جبل^(٤):

هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي (١٨هـ) الإمام القدوة في علم الحلال والحرام، إمام الفقهاء وكنز العلماء.

كان من أفضل شباب الأنصار حليماً وحياءً وسخياً، وكان من فضلاء الصحابة وفقهائهم، وأعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وكان يفتي بالمدينة في حياة الرسول ﷺ وفي زمن أبي بكر.

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٤/٧ - ٤٣٩.

(٣) الإصابة ٢/٢٦٩.

(٤) الإصابة ٣/٤٢٧، شذرات الذهب ١/٤٤ - ٤٥، الاستيعاب ٣/٣٥٦ - ٢٥٩، طبقات

ابن سعد ٢/٣٤٨ - ٣٤٩، البداية والنهاية ٧/٩٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٥ -

٤٦، مرآة الجنان ١/١٠٧، تذكرة الحفاظ ١/١٩ - ٢٠.

استخلفه الرسول ﷺ على أهل مكة يعلمهم الحلال والحرام، وبعثه عام فتح مكة إلى اليمن ليعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن^(١) فمكث بها أميراً إلى أن توفي الرسول ﷺ، وأقره أبو بكر الصديق على ذلك يعلم الناس الخير باليمن، ثم رجع من اليمن في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام فاستقر بها، حتى استعمله عمر بن الخطاب عليها بعد موت أبي عبيدة بن الجراح.

وهكذا يبدو أنّ فقه معاذ بن جبل قد كان موزعاً بالخصوص بين أهل اليمن وبين أهل الشام، ورغم أنّ معاذ قد كان له خلال إقامته باليمن التأثير والواضح، والأثر العميق في تعليم أهل اليمن، غير أنّ تأثيره في أهل الشام يبدو أكثر وضوحاً، وأبلغ عمقاً، ويتضح ذلك من خلال تتبع تراجم الأعلام من كبار التابعين الذين تلقوا عن الصحابة الكرام في كلا البلدين - كما سيتضح لاحقاً -.

* شهادة الرسول له بالفضل والعلم:

لما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذاً إلى اليمن، قال له: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء»، قال: أفضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله»، قال: فبسنّة رسول الله، قال: «فإن لم تجد في سنّة رسول الله ولا في كتاب الله»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٢).

(١) وكان رسول الله قد قسّم اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، والمهاجر بن أبي أمية على كندة، وزياد بن لبيد على حضر موت، وأبي موسى الأشعري على زبيد وزمعة وعدن والساحل، ومعاذ بن جبل على الجند (الاستيعاب ٣/٣٥٧ شذرات الذهب ١/٤٥) وذكر بعض المؤرخين أنّ معاذ بن جبل هو الذي بنى مسجد الجند، وهو أول مسجد بني باليمن (مرآة الجنان ١/١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأفضية، وأحمد في مسند الأنصار، والدارمي في سننه، المقدمة.

ومعلوم أنه لا يبعث ﷺ للقضاء إلا عالماً أميناً ديناً، ويكفيك في علمه أنه قد بين طرق الأحكام فأجاد وأحسن.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ - وقد ذكر أصحابه -: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(١).

وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة، - فذكر فيهم معاذ بن جبل»^(٢).

وأخذ رسول الله ﷺ بيد معاذ، فقال: «يا معاذ إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٣).

* شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:

خطب عمر بن الخطاب الناس فقال: من أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، وقال: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، ولولا معاذ لهلك عمر، وحين خرج معاذ إلى الشام قال عمر: لقد أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر أن يحبسه - أي يلزمه البقاء بالمدينة - لحاجة الناس إليه فأبى عليّ، وقال: رجل أراد جهادا، يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت: والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته.

وروي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين، فقال له أحد الحاضرين: يا أبا عبدالرحمن، نسيتها؟ - يقصد الآية - فقال: لا، ولكننا نشبهه بإبراهيم، والأمة الذي يعلم الناس الخير، والقانت المطيع.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، المقدمة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وفضائل القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة.

وروى أبو مسلم الخولاني قال: دخلت حمص فرأيت حلقة فيها اثنان وثلاثون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا، فإذا امترى القوم في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال: هذا معاذ بن جبل.

وكانت وفاة معاذ بالشام بسبب طاعون عمواس - ناحية الأردن - سنة ١٨هـ وقيل في التي قبلها وقيل في التي بعدها.

* عبادة بن الصامت^(١):

هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي (٣٤هـ) أحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكان ممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

وجهه عمر بن الخطاب إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين، وهو أول من تولّى قضاء فلسطين.

ولعبادة قصص متعددة مع معاوية بن أبي سفيان وإنكاره عليه أشياء، وفي بعضها رجوع معاوية له، وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه، تدلّ على قوته في دين الله وقيامه في الأمر بالمعروف.

ومما يروى في ذلك أنّ خلافاً وقع بينه وبين معاوية في زمن عمر بن الخطاب، فقال عبادة لمعاوية: لا أساكنك بأرض واحدة أبداً، ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك، فأخبره، فقال له: ارجع إلى مكانك ففتح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك، وكتب إلى معاوية لا إمرة لك على عبادة.

ولم يزل عبادة بالشام منذ خرج إليها إلى أن توفي بالرملة وقيل بفلسطين ودفن ببيت المقدس سنة ٣٤هـ.

(١) الإصابة ٢/٢٦٨ - ٢٦٩، طبقات ابن سعد ٧/٣٨٧، الاستيعاب ٢/٤٥٠، شذرات

* أبو الدرداء^(١):

هو أبو الدرداء (٣٢هـ) الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته وباسمه جميعاً، واختلف في اسمه فقيل هو عويمر وقيل عامر، واختلف في اسم أبيه فقيل عامر وقيل مالك، وقيل غير ذلك.

وهو حكيم هذه الأمة، وعالم أهل الشام ومقرىء أهل دمشق وفقههم وقاضيههم، ولّي قضاء دمشق في زمن عمر بن الخطاب.

وكان أبو الدرداء شديد المجاهدة لنفسه، وكان يقول: كنت تاجراً قبل البعث ثم حاولت التجارة بعد الإسلام فلم يجتمعا، حتى إن سلمان الفارسي - وكان الرسول قد آخى بينهما - كان يعذله فيما هو فيه من شدة المجاهدة.

ويروى أنّ زوجته أمّ الدرداء قالت له يوماً: ما عندنا شيء من النفقة، فقال لها: يا هذه إنّ بيننا عقبة كؤوداً لا يجوزها إلاّ المخفون.

لمّا استعمل أبو الدرداء على القضاء أصبح الناس يهنتونه، فقال: أتَهنتوني بالقضاء، وقد جعلت على رأس مهواة، والله لو علم الناس ما في القضاء لأخذه بالدول رغبة عنه وكراهية له.

وكان أبو الدرداء من عليّة أصحاب الرسول الأكرم ﷺ ومن أهل النية منهم والتفكير، وكان يقول: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وكان إذا دخل المسجد دخل معه من الأتباع مثل ما يكون مع السلطان، وهم يسألونه عن العلم.

ودخل عليه أصحابه في مرض الموت، فقالوا: يا أبا الدرداء ما

(١) الإصابة ٤٥/٣، تذكرة الحفاظ ٢٤/١ - ٢٥، الاستيعاب ٦٠/٤، الإصابة ٤٥/٣ -

٤٦، مرآة الجنان ١٢٢/١، طبقات ابن سعد ٣٩٢/٧ - ٣٩٢، طبقات الفقهاء

للشيرازي ص ٤٧، إعلام الموقعين ١٦/١.

تشتكي؟ قال: أشتكي ذنوبي، قالوا: ما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة، قالوا: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعتني.

* شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:

كان أبو ذر الغفاري لأبي الدرداء يقول: ما حملت ورقاء ولا أظلمت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: حدثونا عن العالمين العاملين معاذ بن جبل وأبي الدرداء، ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قيل له: يا أبا عبدالرحمن أوصنا، فقال: التمسوا العلم عند عويمر أبي الدرداء، فإنه من الذين أوتوا العلم.

وعن مسروق قال: شافهت أصحاب محمد ﷺ، فوجدت علمهم انتهى إلى ستة، فذكر منهم: أبو الدرداء.

وكان أبو الدرداء يقول: سلوني، فوالذي نفسي بيده لئن فقدتموني لتفقدن رجلاً عظيماً من أمة محمد ﷺ، وقد توفي أبو الدرداء سنة ٣٢هـ بدمشق وقيل سنة ٣١هـ وقيل غير ذلك.

هؤلاء الثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ هم الأساس في بعث هذا المركز الفقهي، والأصل في نشاط الحركة العلمية وانتشارها في ربوع بلاد الشام، حيث أقام عبادة بن الصامت في حمص، ونزل أبو الدرداء دمشق، واستقر معاذ بفلسطين.

وعلى أيدي هؤلاء الأعلام الثلاثة من الصحابة أضيئت لأهل الشام أنوار العلم والمعرفة، وتخرجت الدفعة الأولى من كبار التابعين من أهل الشام.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الأعلام الثلاثة من الصحابة، التابعي الجليل عبدالرحمن بن غنم الأشعري الذي كان قد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها في الدين، فإن علم أهل الشام يكون قد انتشر وشاع بهؤلاء الأربعة.

* ١ * عبدالرحمن بن غنم^(١):

هو عبدالرحمن بن غنم الأشعري (٧٨هـ) رأس التابعين وشيخ أهل فلسطين وفقه الشام.

أسلم على عهد الرسول ﷺ ولم يره ولم يفد عليه، ولازم معاذ بن جبل منذ بعثته إلى اليمن إلى أن مات في خلافة عمر بالشام، حتى عرف بصاحب معاذ لملازمته له.

كان من أئمة أهل الشام، وهو الذي فقه عامة التابعين بالشام، وكان من العباد الصالحين.

روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومعاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي ذر الغفاري وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهم.

وروى عنه أبو إدريس الخولاني ومكحول ورجاء بن حيوة وجماعة من تابعي الشام.

* ٢ * أبو إدريس الخولاني^(٢):

هو عائذ الله بن عبدالله الخولاني (٨٠هـ) واعظ أهل دمشق وقاضهم، وأحد من جمع بين العلم والعمل، وفقه أهل الشام وقاضهم من قبل عبدالملك بن مروان.

أخذ العلم عن معاذ بن جبل، وروى عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وعوف بن مالك وأبي هريرة.

* شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم:

قال ابن شهاب الزهري: أبو إدريس من فقهاء أهل الشام.

(١) تذكرة الحفاظ ٥١/١، الاستيعاب ٤٢٤/٢ - ٤٢٥، طبقات ابن سعد ٤٤١/٧، البداية والنهاية ٢٦/٩، الإصابة ٩٨/٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ٥٦/١ - ٥٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٤، مرآة الجنان ١/١٩٢.

وقال مكحول: ما علمت أعلم من أبي إدريس الخولاني، وفي رواية: ما أدركت مثل أبي إدريس الخولاني.

وقال سعيد بن عبدالعزيز التنوخي: كان أبو إدريس الخولاني عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء.

توفي سنة ٨٠هـ باتفاق.

* ٣ * كثير بن مرة^(١):

هو أبو شجرة، كثير بن مرة الحضرمي، عالم أهل حمص، كان إماماً طلاباً للعلم.

أدرك سبعين بدرية من أصحاب رسول الله ﷺ.

وحدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت.

* ٤ * رجاء بن حيوة^(٢):

هو أبو المقدم رجاء بن حيوة الكندي (١١٠هـ) الشامي الفقيه، كان تابعياً جليلاً، كبير القدر، ثقة فاضلاً، عادلاً، شريفاً نبيلاً كامل السؤدد، كثير العلم.

كان أحد الذين يتبرك بهم الناس لنزول الغيث، وينصر بهم على الأعداء، وكان يقال سيّد أهل فلسطين رجاء بن حيوة.

وكان مكحول إذا سئل يقول: سلوا شيخنا وسيّدنا رجاء بن حيوة، وقال: هو سيّد أهل الشام في أنفسهم.

وقال مطر الوراق: ما رأيت - وفي رواية ما لقيت - شامياً أفقه من رجاء بن حيوة.

(١) تذكرة الحفاظ ٥١/١ - ٥٢، طبقات ابن سعد ٤٤٨/٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٥٤/٧، البداية والنهاية ٣٠٤/٩، مرآة الجنان ٢٦٩/١، شذرات الذهب ٢٥٥/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥، تذكرة الحفاظ ١١٨/١.

وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه في الرواية.

وكان وزير صدق لخلفاء بني أمية، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك في مرض موته أن يجعل الخلافة من بعده لعمر بن عبدالعزيز ففعل.

توفي سنة ١١٠هـ.

* ٥ * مكحول^(١):

هو فقيه الشام أبو عبدالله مكحول بن عبدالله (١١٣هـ) التابعي الجليل وإمام أهل الشام في زمانه وأحد أوعية العلم.

طاف الأرض في سبيل طلب العلم، وكان كلما دخل مدينة لا يخرج منها حتى يظن أنه ليس بها علم إلا وقد سمعه، ولا يدع بها علماً إلا وقد حواه عقله واستوعبه ذهنه.

لم يكن في زمانه أبصر بالفتيا منه، ورغم ذلك فقد كان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا رأي والرأي يخطيء ويصيب.

روى عن أبي أمامة الباهلي ووائلة بن الأسقع وأنس بن مالك وعبدالرحمن بن غنم وأبي إدريس الخولاني.

كانت له وجهة عند الناس، فمهما أمر به من شيء فعل.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:

قال ابن شهاب الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال سعيد بن عبدالعزيز التنوخي: لم يكن في زمان مكحول أبصر

(١) البداية والنهاية ٣٠٥/٩، طبقات ابن سعد ٤٥٣/٧، تذكرة الحفاظ ١٠٧/١ - ١٠٨،

طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥، مرآة الجنان ٢٧٠/١، شذرات الذهب ٢٥٦/١،

إعلام الموقعين ٢٢/١.

بالفتيا منه، وقال: كان أفته أهل الشام، وقال أبو حاتم: ما أعلم بالشام أفته من مكحول وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل الشام مكحول توفي سنة ١١٣هـ وقيل غير ذلك.

المركز السادس: مصر:

لما فتح الله على المسلمين أرض مصر في عهد عمر بن الخطاب نزل بها الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، ومن بين من نزل مصر من الصحابة عمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر الجهني ومعاذ بن أنس الجهني ومعاوية بن حديج وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وغيرهم^(١) ترجم ابن سعد في طبقاته لاثنين وثلاثين منهم^(٢).

غير أن أشهر من نزلها من هؤلاء الصحابة هم: عمرو بن العاص (٤٣هـ) فاتح مصر وأميرها من قبل عمر بن الخطاب ثم من قبل معاوية بن أبي سفيان، وابنه عبدالله بن عمرو الذي بقي بمصر بعد وفاة أبيه واستمر قائماً على تعليم أهل مصر وتفقيهم، وعقبة بن عامر الجهني العالم بالفرائض والفقه الذي سكن مصر واستقر بها إلى حين وفاته.

وقد كانت مهمة التعليم والتفقيه عائدة بالخصوص إلى عبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر.

* عبدالله بن عمرو^(٣):

هو عبدالله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، من فضلاء الصحابة وعبادهم الكثيرين في الرواية عن رسول الله ﷺ.

كان ديناً صالحاً كبير القدر، ذا عبادة واجتهاد وورع فاضلاً حافظاً عالماً كثير التلاوة لكتاب الله، كثير الصيام، يسرد الصيام، ويقرأ القرآن كل

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٩٣/٧ - ٥٠٩.

(٣) شذرات الذهب ١٣٢/١، مرآة الجنان ١٧٢/١ - ١٧٣، الاستيعاب ٣٤٧/٢ - ٣٥٢.

ليلة، ولا ينام، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة»، فقال ابن عمرو: بلى يا نبي الله. ولم أرد بذلك إلا الخير، فقال له الرسول: بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فلم يزل ابن عمرو يراجع حتى قال له: صم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود، ولا صوم أفضل من صوم داود، ونازل رسول الله ﷺ أيضاً في قراءة القرآن، ولم يزل يراجع حتى قال له: فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، فإنك لا تدري لعلك يطول بك عمر، قال ابن عمرو: فصرت إلى الذي قال لي النبي، فلما كبرت وددت أنني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ^(١).

وعبدالله بن عمرو هو أحد العبادلة الذين عاشوا حتى احتيج إلى علمهم^(٢).

روى عن النبي ﷺ كثيراً، وكان ممن يسر الله له تدوين الحديث، فقد كتب الحديث وجمع منه بخط يده ما شاء الله له ذلك، حتى قال أبو هريرة: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب^(٣).

وعن عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، وكتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في صحيحه، كتاب الصوم، واللفظ له.

(٢) العبادلة أربعة وهم: ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو، وليس ابن مسعود منهم لتقدم وفاته، وقيل هم ثلاثة بإسقاط ابن الزبير، وكانوا إذا اجتمعوا على شيء قيل هذا قول العبادلة، وأما سائر من يسمّى عبدالله من الصحابة فلا يطلق عليهم العبادلة، وهم نحو مائتين وعشرين نفساً (تدريب الراوي ٢١٩/٢ - ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كتاب العلم.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق^(١).

روى عن عمر بن الخطاب وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم، وحدث عنه من الصحابة عبدالله بن عمر وأبو أمامة والمسور والسائب بن يزيد وأبو الطفيل، وعدد كثير من التابعين منهم سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وطاووس بن كيسان وعمرو بن العاص وعطاء بن يسار وعكرمة ومسروق بن الأجدع وعامر الشعبي وغيرهم.

واشتهرت صحيفة عبدالله بن عمرو المعروفة بالصحيفة الصادقة، حتى أنّ ابن عمرو رضي الله عنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلاّ الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبها من رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها^(٢).

وقد نقل الإمام أحمد مضمون هذه الصحيفة في مسنده.

وكان مقام عبدالله بن عمرو بعد الفتوح بمصر، وفي تاريخ وفاته ومكانها خلاف، ف قيل مات بالشام سنة ٦٥هـ، وقيل مات بمصر سنة ٧٧هـ، وقيل غير ذلك.

* عقبه بن عامر^(٣):

هو عقبه بن عامر الجهني (٥٨هـ) كان مقرئاً وفقياً من فقهاء الصحابة، عالماً بالفرائض والفقه، وكان فصيح اللسان مفوّهاً، وأحد من جمع القرآن.

روى عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث، وروى عنه جماعة من

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم.

(٢) أخرجه الدارمي في مقدمة كتاب السنن، وابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

(٣) الإصابة ٤٨٩/٢، مرآة الجنان ١٦٢/١، شذرات الذهب ١١٥/١، الاستيعاب ١٠٦/٢.

الصحابة منهم عبدالله بن عباس وأبو أمامة وجابر بن عبدالله ومسلمة بن خالد، وأما رواته من التابعين فكثير منهم جبير بن نفير وأبو إدريس الخولاني وخلق من أهل مصر.

أمره معاوية على مصر وجمع له في الإمرة بين الخراج والصلاة، فسكن مصر وابتنى بها دارا واستقر بها حتى وفاته سنة ٥٨هـ.

وقد حمل التابعون من أبناء مصر عن هؤلاء علماً كثيراً، واشتهر منهم:

* ١ * : مرثد بن عبدالله^(١):

هو أبو الخير مرثد بن عبدالله اليزني (٩٠هـ) قاضي الإسكندرية ومفتي أهل مصر في وقته، وقد تفقه على عقبة بن عامر.

* ٢ * : بكير بن عبدالله بن الأشج:

وكان الإمام مالك كلما ذكره قال: كان من العلماء^(٢).

* ٣ * : يزيد بن أبي حبيب^(٣):

هو أبو رجاء يزيد بن أبي حبيب الأزدي (١٢٨هـ) فقيه مصر وشيخها ومفتيها، أخذ الفقه عن مرثد بن عبدالله، وكان كثير الحديث.

وكان فقيه مصر الليث بن سعد يقول: يزيد بن أبي حبيب هو مولانا وسيدنا - أي في الفقه - .

المركز السابع: اليمن:

نزل اليمن العدد الكثير من أصحاب الرسول ﷺ، كان قد كلّفهم

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، مرآة الجنان ١/٢٠٩ - ٢١٠، شذرات الذهب ١٨٣/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨.

(٣) مرآة الجنان ١/٢٩٧، شذرات الذهب ١/٣٠٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، طبقات ابن سعد ٧/٥١٣.

الرسول الأكرم بمهمة الدعوة والإرشاد إلى دين الله في ربوع اليمن، وتبشير الناس بالخير وأمرهم به، وتعليمهم القرآن وتفقيهم فيه.

ومن بين هؤلاء الصحابة عليّ بن أبي طالب، فقد بعثه الرسول ﷺ قاضياً ومعلماً، فعن عليّ قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، قال: فضرب بيده في صدري ثم قال: «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه»، قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين^(١).

ثم قسّم بعد ذلك رسول الله ﷺ اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، والمهاجر بن أبي أمية على كندة، وزباد بن لبيد على حضرموت، وأبي موسى الأشعري على زبيد وزمعة وعدن والساحل، ومعاذ بن جبل على الجند - من مدن اليمن القديمة -^(٢).

وعهد الرسول ﷺ إلى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولّاه أمرهم فيهم بكتاب ضمّنه تعليماته ووضع له فيه الوظائف والصلاة والسنن والشرائع.

وبعث كذلك بعمر بن حزم عاملاً على اليمن ليفقه أهلها في الدين ويعلمهم السنّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم الصدقات، وكتب له كتاباً عهد فيه عهده وأمره فيه أمره^(٣).

وعلى هؤلاء الصحابة وغيرهم ممّن نزل اليمن تخرّج ثلّة من أعلام التابعين اشتهر منهم بالخصوص:

* ١ * : طاووس بن كيسان^(٤):

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الأحكام.

(٢) الاستيعاب ٣/٣٥٧، شذرات الذهب ١/٤٥.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٠٦ - ٢١٥.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/٩٠، مرآة الجنان ١/٢٥٥ - ٢٥٦، شذرات الذهب ١/٢٣٧، البداية

والنهاية ٩/٢٣٥ - ٢٣٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٣، إعلام الموقعين ١/٢٢،

مرآة الجنان ١/٢٥٥.

هو الفقيه الإمام طاووس بن كيسان اليماني الجندي الخولاني (١٠٦هـ) شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم.

كان أحد الأئمة والسادات الأعلام علماً وعملاً، جليل القدر نبيل الذكر وأعلم التابعين بالحلال والحرام، جمع العبادة والزهد والعلم النافع والعمل الصالح.

أدرك خمسين من الصحابة، وسمع من زيد بن ثابت وعائشة أم المؤمنين وأبي هريرة وزيد بن أرقم وعبدالله بن عباس، وهو من أكبر أصحاب عبدالله بن عباس، وأكثر روايته عنه^(١).

يعدّ طاووس أوّل طبقة أهل اليمن من التابعين، وذكر بعضهم أنّه وليّ قضاء صنعاء والجند، ووليه بعده ابنه عبدالله.

روى عنه كثير من أعلام التابعين منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وإبراهيم بن ميسرة ومحمد بن المنكدر وابن شهاب الزهري وحبيب بن أبي ثابت ووهب بن منبه والمغيرة بن حكيم الصنعاني وابنه عبدالله بن طاووس، وغير هؤلاء.

* شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:

قال بعض السلف: أعلمهم بالحلال والحرام طاووس، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل اليمن طاووس، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً قط مثل طاووس، وقال قيس بن سعد: كان طاووس فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة.

وروى سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة أنّه حلف وهو مستقبل الكعبة فقال: وربّ هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلاّ طاووس.

(١) ولأنّه كان من خاصّة تلاميذ ابن عباس اعتبره البعض من فقهاء مكّة ومفتيها (ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨٩/٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٢٤/١).

* ما أثر عنه من أقوال:

قال طاووس لابنه: يا بني صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أنّ لكلّ شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله.

ولمّا وليّ عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب إليه طاووس: إن أردت أن يكون عملك خيراً كلّه فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفى بها من عظة. وقال لعطاء بن أبي رباح: إيتاك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجاباً، وعليك بطلب من بابه مفتوح إلى يوم القيامة.

وجلس مرّة أحد أبناء سليمان بن عبد الملك إلى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين سليمان، فلم تلتفت إليه، فقال: أردت أن يعلم هو وأبوه أنّ لله عبداً يزهدون فيهم وفيما في أيديهم.

ولكثرة ما كان يحجّ إلى بيت الله، اتّفق موته بمكة قبل التروية بيوم، سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٥هـ فلم يتهيأ لإخراج جنازته لكثرة الناس حتّى وجّه أمير مكة بالحرس، وكان عبدالله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب قد وضع السرير على كاهله، فسقطت قلنسوة كانت على رأسه ومزّق رداؤه من خلفه لشدة الزحام.

* ٢ * : وهب بن منبه^(١):

هو التابعي الجليل أبو عبدالله وهب بن منبه الصنعاني (١١٤هـ).

أدرك عدّة من الصحابة وأسند عن عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله والنعمان بن بشير، وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، وروى كذلك عن طاووس.

(١) البداية والنهاية ٢٧٦/٩ - ٣٠٢، مرآة الجنان ٢٧٤/١، شذرات الذهب ٢٦١/١.

ولي القضاء لعمر بن عبدالعزيز، وكان شديد الاعتناء بكتب الأولين وأخبار الأمم وقصص الماضين، حتى كان يشبه بكعب الأحبار في زمانه.

ثُروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، من ذلك قوله: مثل من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به، وقوله: إذا أردت أن تعمل بطاعة الله فاجتهد في نصحك وعملك لله، فإنّ العمل لا يقبل ممن ليس بناصح، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها كذلك طاعة الله، النصح ريحها والعمل طعمها، ثم زين طاعتك بالحلم والعقل والفقه والعمل، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا وعبدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين، وعودها فعل الحكماء، وامنعها عمل الأشقياء، وألزمها سيرة الأتقياء، واعزبها عن سبل الخبثاء.

وكان يقول: أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا، وأسرعها ردا أتباع الهوى وحب المال، ومن حب المال تنتهك المحارم، ومن انتهاك المحارم يغضب الله، وغضب الله ليس له دواء.

وكان يقول: إن تبت تائباً وتصبح نادماً خير لك من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، ويقول: إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدل بعلمك.

توفي سنة ١١٤هـ وقيل سنة ١١٠هـ وقيل غير ذلك.

* ٣ * : حنش بن عبدالله:

هو حنش بن عبدالله - وقيل بن عمرو - الصنعاني (١٠٠هـ) تابعي جليل، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة منهم روفع بن ثابت وأبي هريرة.

كان مع الإمام علي بالكوفة ثم نزل إفريقية، فكان والياً عليها وعلى

بلاد المغرب، وهو أول من وليّ عشور إفريقية في الإسلام، وكانت وفاته بإفريقية غازيا سنة ١٠٠هـ^(١).

* ٤ * : عبدالله بن طاووس:

هو عبدالله بن طاووس بن كيسان اليماني (١٣٢هـ) روى عن أبيه، وكان من أعلم الناس بالعربية وأحسنهم خلقا وما رئي ابن فقيه مثله^(٢).

المركز الثامن: إفريقية التونسية:

أذن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان لواليه على مصر عبدالله بن أبي سرح بتسيير الجيوش نحو إفريقية التونسية، فخرج المسلمون سنة ٢٧هـ في نحو عشرين ألف بينهم عدد كبير من الصحابة والتابعين، وعلى رأسهم العبادلة، فدخلوا إفريقية وبلغوا قصور قفصة، واستقروا بسببلة لأكثر من سنة.

ولما استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سيّر لإفريقية واليه الجديد على مصر معاوية بن خديج سنة ٤٥هـ في جيش عدته عشرة آلاف مقاتل به جلة الصحابة والتابعين، استطاع أثناءها عبدالله بن الزبير من دخول مدينة سوسة، وتمكّن عبدالملك بن مروان من دخول مدينة بنزرت، كما تمكّن رويغ بن ثابت الأنصاري من السيطرة على جزيرة جربة.

حتى إذا كانت سنة ٥٠هـ سيّر معاوية جيشا بقيادة عقبة بن نافع، فمكث بإفريقية خمس سنوات وكان أول ما قام به تخطيط القيروان وبناء جامعها الذي عرف باسمه، ثم أعقب هذه الخطوة الهامة دخول حسان بن النعمان سنة ٧٣هـ الذي أسس مدينة تونس.

ومن وقتها أصبحت إفريقية تحت إشراف ولّاه يعينهم الخليفة كنواب عنه، وسرعان ما أخذت القيروان حظها من العلوم فأصبحت مركزا من مراكز

(١) البداية والنهاية ١٨٧/٩، شذرات الذهب ٢١٣/١، طبقات علماء إفريقية وتونس ص

(٢) مرآة الجنان ٣٠١/١، شذرات الذهب ٣١٧/١.

العلم والثقافة، كما أصبحت مدينة تونس من أهم المدن الإفريقية علماء وفقهاء^(١).

وقد استفاد كل من المالكي في رياضه والدبّاغ في معالمه عدد أصحاب رسول الله ﷺ الذين دخلوا إفريقية فبلغوا تسعاً وعشرين أو ثلاثين صحابياً منهم من شهد العقبة، ومنهم من شهد بدرأ وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان^(٢)، وأشهر هؤلاء: عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني ورويفع بن ثابت وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ومعاوية بن خديج وأبو زمعة البلوي دفين القيروان.

وأردف الدبّاغ بذكر اثني عشر آخرين وصفهم بأنهم من صغار الصحابة، وذكر أن بعضهم مّتن ولد على عهد الرسول ﷺ ولم يره، وبعضهم رآه ولم يسمع منه وبعضهم كان مسلماً في حياته^(٣)، وأشهر هؤلاء: عاصم بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع وعبيدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب وعبدالرحمن بن العباس وأبو منصور الفارسي - مولى سعد بن أبي وقاص - وهو مّتن سكن القيروان، وكان مقرئاً ومحدثاً وفقهياً ومفتياً.

ثم عدّ جملة من علماء التابعين وصلحائهم وأفاضلهم الذين سكنوا القيروان واختطوا بها المساجد والدور وكان لأكثرهم بها عقب - وعدّتهم ٢٦ تابعياً^(٤)، وأشهر هؤلاء: حنش بن عبدالله الصنعاني من أعلام فقهاء اليمن،

(١) ابن الأثير: الكامل ٨٨٣/٣ وما بعدها، ابن عذارى: البيان المغرب ٨/١ - ١٣، المالكي: رياض النفوس ١٤/١ - ٥٧، ابن خلدون: العبر ١١٩/٢ - ١٢٩ و ١٠٧/٦، الدبّاغ: معالم الإيمان ٣٣/١ - ٦٩، ابن أبي دينار: المؤنس ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) رياض النفوس ٦٠/١ - ٩٨، معالم الإيمان ٧١/١ - ١٥١.

(٣) معالم الإيمان ١٦١/١ - ١٧٨، طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٦٥ - ٧٨.

وفي قوله: مّتن ولد على عهد رسول الله ﷺ ولم يره، وقوله: وبعضهم كان مسلماً في حياته، في ذلك نظر، إذ من شروط إطلاق الصّحبة الرّؤية (مقدمة ابن الصّلاح ص ١٤٦).

(٤) رياض النفوس ٩٩/١ - ١٤٠، معالم الإيمان ١٨٠/١ - ٢٢٣، طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٧٩ - ٨٣.

وقد سكن القيروان واخطط بها داراً ومسجداً، ومحمد بن أوس الأنصاري الذي اشتهر بالفقه والرواية، وعلي بن رباح اللخمي الذي سكن القيروان واخطط بها مسجداً وداراً لسكنائه، وتفقه عليه أهلها، وعكرمة مولى ابن عباس الذي قدم القيروان وأقام بها وكان له مجلس علم في مؤخرة جامع عقبة غربي المنارة.

ومن هؤلاء التابعين أيضاً: الفقهاء العشرة الذين بعث بهم الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز إلى هذا المركز الإسلامي الجديد، حيث أرسل على رأس المائة إلى إفريقية بعثة علمية تتألف من عشرة من كبار الفقهاء من أعلام التابعين، اختارهم من أهل العلم والفضل، وعين عليهم رئيساً للبعثة والياً على إفريقية إسماعيل بن أبي المهاجر، فنزل هؤلاء العشرة مدينة القيروان ونشروا مبادئ الإسلام بربوع إفريقية، وفقهوا الناس في أصول الدين وفروعه، وبنوا الوعي وأشاعوا العلم بهذا المركز الفقهي الجديد.

وكان هؤلاء العشرة الأفاضل قد نزلوا القيروان واستقرّوا بها حتى غدت أم المدن الإفريقية، تعجّ علماً وفقهاً وتشعّ على البلاد القريبة منها، وعظم بفضل القيروان شأن إفريقية كلّها ونشأ فيها جيل نشط في طلب العلم، وسعى سعياً حثيثاً من أجل التفقه في الدين.

وهؤلاء الفقهاء العشرة الذين كان لهم هذا الفضل هم:

* ١ * : إسماعيل بن عبيدالله:

هو إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر المخزومي (١٣٢) كان فقيهاً صالحاً فاضلاً زاهداً حسن السيرة.

روى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وفضالة بن عبيد، وروى عنه الإمام الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز وعبدالرحمن بن زياد بن أنعم.

استعمله عمر بن عبدالعزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقههم

في الدين، فسار بينهم بالحقّ وكان حريصاً على إسلامهم فأسلم المغرب كله على يديه، وكانت وفاته بالقيروان^(١).

* ٢ * : سعيد بن مسعود التجيبي:

هو أبو مسعود سعيد بن مسعود، سكن القيروان وبث فيها علماً كثيراً، وكان رجلاً صالحاً عالماً مشهوراً بالدين والفضل، وكان قليل الهيبة للملوك، لا تأخذه في الله لومة لائم.

صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم، منهم أبو الدرداء.

أثر عنه أنه كان يقول: إذا رأيت العبد دنياه تزداد وآخرته تنقص، مقيماً على ذلك راضياً به، فذلك المغبون الذي ينقص دينه وهو لا يشعر.

وكان يقول: صامت سالم خير من ناطق آثم.

وسئل: أيّ الجلساء أشدّ مجالسة، فقال: من يغفلكم قوله، ومن تفتنكم رؤيته، ومن يدعوكم إلى دنياكم فعله.

وسئل عن الذي يزيّن العالم عند من جالسه، فقال: كثرة صمته وقلة غضبه وحسن خلقه ولينه وخشوعه وتواضعه^(٢).

* ٣ * : موهب بن حبي:

هو موهب بن حبي المعافري، كان من فضلاء التابعين، روى عن عبدالله بن عباس وغيره من الصحابة.

سكن القيروان وبث بها علماً كثيراً وبها كانت وفاته، وهو أحد

(١) رياض النفوس ١١٥/١ - ١١٧، معالم الإيمان ٢٠٣/١ - ٢٠٥، ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣١٧/١ - ٣١٨.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٧، رياض النفوس ١٠٢/١ - ١٠٦، معالم الإيمان ١٨٤/١ - ١٨٧.

العشرة التابعين^(١).

* ٤ * : طلق بن جابان:

هو طلق بن جابان - وقيل ابن جعبان - الفارسي، كان فقيهاً عالماً، كان يفقه أهل مصر، وقد عدّه أبو العرب في طبقاته من الفقهاء العشرة الذين بعثهم ليفقهوا أهل إفريقية^(٢).

* ٥ * : عبدالله بن يزيد:

هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن يزيد المعافري (١٠٠هـ) الإفريقي الحبلي، روى عن أبي أيوب الأنصاري وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وفضالة بن عبيد الأنصاري وعقبة بن عامر وأبي ذر الغفاري وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وغيرهم.

كان صالحاً ثقة فاضلاً، بعثه عمر بن عبدالعزيز ليفقه أهل إفريقية فانتفعوا به وبث فيها علماً كثيراً.

سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً وبها مات^(٣).

* ٦ * : إسماعيل بن عبيد الأنصاري:

كان من أهل الفضل والعبادة والنسك، كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه، سمي تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله عز وجل يصرفه في وجوه الخير.

روى عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو، وروى عنه من أهل إفريقية بكر بن سوادة الجذامي وعبدالرحمن بن زياد بن

(١) رياض النفوس ١١٠/١ - ١١١، معالم الإيمان ٢١٣/١.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ١١٧/١ - ١١٨، معالم الإيمان ٢١٥/١.

(٣) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ٩٩/١ - ١٠١، معالم الإيمان ١٨٠/١، تهذيب التهذيب ٨١/٦ - ٨٢.

أنعم، ومن أهل مصر: عمران بن عوف الغافقي ومحارث بن يزيد وغيرهم. كان من العلماء الكرماء، سكن القيروان وانتفع به خلق كثير من أهلها، وهو أحد العشرة التابعين الذين بعثهم عمر يفتّحون أهل إفريقية، فلم يزل مقيماً بالقيروان إلى أن حضرته نية في الجهاد، فخرج لغزو صقلية فغرق في البحر ومات وهو معانق المصحف الشريف سنة ١٠٧هـ^(١).

* ٧ * : عبدالرحمن بن رافع:

هو أبو الجهم عبدالرحمن بن رافع التنوخي (١١٣هـ) قاضي إفريقية، وأحد الفقهاء الذين أرسلهم عمر بن عبدالعزيز ليفتّحوا أهل إفريقية.

كان من فضلاء التابعين روى عن عبدالله بن عمر، وجماعة من الصحابة، وعنه أخذ عبدالرحمن بن زياد بن أنعم وبكر بن سودة وغيرهم.

سكن القيروان، وهو أول من استقضى بها بعد فتحها، ولآه عليها موسى بن نصير سنة ٨٠هـ، كان عدلاً في أحكامه، ثقة في نفسه، توفي بالقيروان^(٢).

* ٨ * : جعثل بن هامان:

هو جعثل بن هامان بن عمير - وقيل بن هاعان بن عمرو - الرعيني (١١٥هـ) تابعي، وأحد القراء الفقهاء، بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى المغرب ليقرئهم القرآن.

كان قاضي الجند بإفريقية في زمن هشام بن عبدالملك^(٣).

(١) طبقات علماء إفريقية ص ٨٤ - ٨٦، رياض النفوس ١٠٦/١ - ١٠٩، معالم الإيمان ١٩١/١.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، الخشني: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٣، رياض النفوس ١١٠/١، معالم الإيمان ١٩٨/١، تهذيب التهذيب ١٨٦/٦.

(٣) رياض النفوس ١١٤/١ - ١١٥، تهذيب التهذيب ٧٩/٢.

* ٩ * : حبان بن أبي جبلة:

هو حبان بن أبي جبلة القرشي (١٢٥هـ)، كان من أهل الفضل والدين.

روى عن عبدالله بن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو، بعثه عمر بن عبدالعزيز مع جماعة من أهل مصر ليفقهوا أهل إفريقية، فسكن القيروان وانتفع به أهلها، وبها توفي سنة ١٢٥هـ، وقيل سنة ١٢٢هـ^(١).

* ١٠ * : بكر بن سودة:

هو أبو ثمامة بكر بن سودة الجذامي (١٢٨) المصري، كان من صلحاء التابعين وفقهائهم، أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى أهل إفريقية ليفقههم.

روى عن عقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو وسهل بن سعد وغيرهم، وروى عنه جماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيّب وابن شهاب الزهري. سكن القيروان، وبها توفي^(٢).

ونحن إذا تأملنا في هذا العقد الثمين - كما قال العلامة الفاضل بن عاشور - تبين لنا أنّ فرائده قد جمعت من أنساب مختلفة، من المهاجرين والأنصار، ومن العدنانية والقحطانية، ومن الصريح ومن الموالي، ومن العرب والعجم، فلم يجمعهم إلا وصف الفقه في الدين، فكانوا بذلك آباء روحانيين للأجيال الإسلامية الصاعدة، وأصول أنساب موصولة في الإسلام بأقوى من أوامر الأرحام، روحانيين للأجيال الإسلامية الصاعدة، وأصول أنساب موصولة في الإسلام بأقوى من أوامر الأرحام، فيهم

(١) الإصابة ٣٧٢/١، رياض النفوس ١١١/١ - ١١٢، معالم الإيمان ٢٠٩/١، تهذيب التهذيب ١٧١/٢.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ١١٢/١ - ١١٣، معالم الإيمان ٢١١/١ - ٢١٣، تهذيب التهذيب ٤٨٣/١.

انتشرت المساجد وعمّ تغيير المنكر وشاع القرآن والحديث والفقه، واستقامت سيرة الناس على الآداب الشرعية^(١).

واشترك مع هذا العقد الثمين في تعليم أهل إفريقية معالم الإسلام وأصول الدين، أعلام آخرون وفدوا من المشرق إلى المغرب أبرزهم:

* التابعي الجليل عبدالله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني الذي سكن القيروان وتولّى قضاءها^(٢).

* وأبو غطيف بشر الهذلي الذي سكن القيروان واختطّ بها، وتزوج بنت بكر بن سودة^(٣).

* والقاضي أبو كريب جميل بن كريب المعافري الذي تولّى قضاء القيروان، وكان من أهل العلم والفقه وكان عدلاً فاضلاً، حسن السيرة، كثير التواضع^(٤).

* والتابعي الجليل يحيى بن سعيد الأنصاري القاضي المدني الذي أرسله عمر بن عبدالعزيز عاملاً على الصدقات فنزل مدينة تونس وأخذ عنه أهلها، وجالس بها خالد بن أبي عمران التجيبي التونسي^(٥).

وقد نزل كذلك بإفريقية الكثير من التابعين الذين أقاموا بها مدة من الزمان، ثم ارتحلوا عنها^(٦).

وهكذا تحوّلت القيروان مركزاً علمياً يشعّ على جميع أنحاء إفريقية،

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ١٣ - ١٤.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٨ - ٨٩، رياض النفوس ١/١٢٦ - ١٢٧.

(٣) طبقات أبي العرب ص ٩١، رياض النفوس ١/١٢٢.

(٤) طبقات علماء إفريقية ص ٢١٧ - ٢١٩، رياض النفوس ١/١٦٨ - ١٧٢، معالم الإيمان ١/٢٢٤ - ٢٢٩.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦، تهذيب التهذيب ١١/٢٢١ - ٢٢٢.

(٦) رياض النفوس ١/١٤١ - ١٥٠، معالم الإيمان ١/٢٤٤ وما بعدها.

وكان لمدينة تونس نوع من المشاركة مع القيروان في قيادة هذا المركز الفقهي في هذا الدور.

فكان من آثار ذلك أن نشأ بإفريقية جيل من مواليد هذه البلاد حبّب إلى نفوسهم الجلوس إلى شيوخ العلم فانكبوا على حلقات العلماء الوافدين من المشرق، وكان في مقدّمة هذا الجيل الجديد:

* عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (١٦١هـ) وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد فتح إفريقية تلقى العلم عن جميع أعضاء البعثة العلميّة - الفقهاء العشرة - وتلقّى عنه العلم الكثير من فضلاء وأعلام المشرق من أمثال سفيان الثوري وعبدالله بن لهيعة وعبدالله بن وهب وعبدالله بن المبارك، كما تلقى عنه الكثير من أعلام أهل القيروان.

كان ابن أنعم من جلة المحدثين منسوباً إلى الزهد والورع متفئناً في علوم شتى، سكن القيروان وولّى قضاءها في عهد بني أمية فسار بالعدل حتى رفع الله قدره وأعلى مناره، فأقام على قضائها إلى سنة ١٣٢هـ تاريخ زوال ملك بني أمية^(١).

* خالد بن أبي عمران التجيبي (١٢٥هـ) قاضي إفريقية وعالم أهل المغرب وفقههم، وقد كان أبوه قدم مع جيش حسان بن النعمان سنة ٧١هـ، واستوطن مدينة تونس فولد له فيها خالد، فحفظه أبوه القرآن.

وروى عنه وعن بعض القيروانيين، وتلقّى العلم عن القاضي يحيى بن سعيد، ثم رحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبدالله بن عمر ومن عروة بن الزبير حتى أصبح فقيهاً بصيراً بالفتوى، وتولّى قضاء تونس إلى أن توفي^(٢).

(١) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٩٥ - ١٠٥، رياض النفوس ١/١٥٢ - ١٦٢.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٢١٢ - ٢١٥، رياض النفوس ١/١٦٢ - ١٦٦.

وكانت الأندلس في هذا الدور تابعة للقيروان، وكان والي القيروان هو المسؤول عن تعيين نوابه بالأندلس، وقد تمّ تكليف ثلثة من أعيان الفقهاء الفاتحين بتولي مهمة تعليم أهالي الأندلس^(١).

ويبدو أنّ أهل الأندلس لم يعدموا من خدمات البعثة العلميّة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان نتيجة الاتصال المتين والترابط الوثيق الذي كان بين إفريقية والأندلس.

ولذلك يمكن أن نعتبر أنّ النشاط العلمي في الأندلس قد بدأ منذ هذا الدور غير أنّه لم يكن بالشمول والانتساع كما هو الحال في شأن القيروان.

وقد كان من أوائل الأعلام الذين علّموا الناشئة بالأندلس الغازي بن قيس (١٩٩هـ) الذي انتصب لتعليم الناس قبل قيام الدولة الأمويّة سنة ١٣٨هـ.

غير أنّ هذا المركز الفقهي الذي يبدو تابعاً للقيروان في هذا الدور ستّضح معالم نشاطه لاحقاً، وسيبرز بالخصوص مع بداية الدور القادم.

المركز التاسع: خراسان:

خراسان الإقليم الواقع في شرق إيران على الحدود السوفياتية والأفغانية، ومن مدنها هراة وبلخ ومرو وسمرقند ونيسابور العاصمة القديمة، وتتقاسم خراسان اليوم إيران الشرقية وأفغانستان وتركمانستان.

وقد نزل بعض أصحاب رسول الله ﷺ خراسان، فكان ممّن نزلها

(١) تجدر الإشارة في هذا المجال إلى أنّ موسى بن نصير الذي ولي القيروان من سنة ٨٥هـ إلى سنة ٩٦هـ خلفاً لحسان بن ثابت، قد عين من جنوده ثلثة من الفقهاء أمرهم بتعليم أهل إفريقية القرآن وتفقيههم في الدين، ويروى أنّه ترك سبعين رجلاً يعلمون الناس مبادئ الإسلام، وأتبع نفس النهج في الأندلس حيث أوصى طارق بن زياد واليه على طنجة وفتح الأندلس سنة ٩٢هـ، بتكليف ثلثة من الفقهاء الفاتحين بتعليم أهل الأندلس القرآن ومبادئ الإسلام.

وتوفي بها: بريدة بن حصيب الأسلمي المدفون بمرو، وأبو برزة الأسلمي والحكم بن عمرو الغفاري وعبدالله بن خازم الأسلمي المدفون بنيسابور، وقثم بن العباس المدفون بسمرقند^(١).

وفي هذه الديار البعيدة عن الإسلام برز بعض أجلة التابعين الذين تكوّن بهم هذا المركز الفقهي الجديد، وكان من أشهرهم: الضحّاك بن مزاحم وعطاء بن أبي مسلم الخراساني والربيع بن أنس وغيرهم.

* ١ * الضحّاك بن مزاحم:

هو التابعي الجليل الضحّاك بن مزاحم الهلالي (١٠٢هـ) الخراساني، من أهل بلخ.

كان إماماً في التفسير حتى إنّ سفيان الثوري كان يقول: خذوا التفسير عن أربعة: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحّاك.

وكان معلّماً وفقهياً مكتب عظيم - أي مدرسة كبيرة - يحوي ثلاثة آلاف صبي، فكان يركب حماراً ليدور عليهم إذا عبي، وكان يعلم الصبيان حسبة.

توفي سنة ١٠٢هـ وقيل قبل ذلك بسنة، وقيل بعد ذلك^(٢).

* ٢ * عطاء بن أبي مسلم:

هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني (١٣٥هـ) وكان كثير الإرسال عن الصحابة، وكان إذا غزا يحيي الليل صلاة إلاّ نومة السحر، وكان يعظ القوم ويحضهم على التهجّد.

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٤، طبقات ابن سعد ٣٦٥/٧ - ٣٦٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، البداية والنهاية ٢٢٣/٩، مرآة الجنان ٢٤٢/١، شذرات الذهب ٢٢٣/١.

كان جواله، وكان يقول: أوثق عمل في نفسي نشر العلم^(١).

توفي سنة ١٣٥هـ وقد بلغ من العمر ٨٥ سنة.

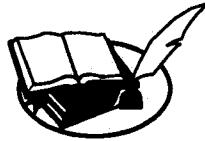
* ٣ * : الربيع بن أنس:

كان من أهل البصرة، وقد لقي عبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك، وكان قد هرب من بطش الحجاج، تخلّص إليه عبدالله بن المبارك وهو مختف فسمع منه أربعين حديثاً^(٢).

تلك هي المراكز التسعة التي كان لها نشاط خصب في مجال الفقه في هذا الدور، والتي قام عليها أعلام من الصحابة والتابعين كانوا قد انتصبوا للفتوى بها، حتى تكوّن بكلّ مركز من تلك المراكز التسعة أتباع حملوا لواء الاجتهاد وكانوا خير خلف لخير سلف.

واقنصارنا على هذه المراكز التسعة دون غيرها لا يعني خلّو ما سواها من البلاد من نور الهداية، ذلك أنّ البلاد المفتوحة من شرقها إلى غربها لم تعد من وجود المفتين والمقرئين والمحدثين الذين ملؤوا الأرض علماً وفقها وعمّوا الشرق والغرب نورا وهداية.

وإنّما قصدنا من ذلك ذكر من كانت لها شهرة عن غيرها بوجود حركة فقهية نشيطة بها.



(١) مرآة الجنان ١/٣٠٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، شذرات الذهب ١/٣٢٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٧/٣٦٩.

حركة تدوين الفقه في هذا الدور

سبق أن بينا أنّ اعتماد أصحاب رسول الله ﷺ في تلقي العلم عنه كان مقتصرًا على استعداداتهم في الحفظ وطاقاتهم في الاستيعاب، ذلك أنّ الرسول الأكرم قد نهى بادية الأمر عن كتابة غير القرآن وتدوينه لئلا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهيه، ثم نسخ هذا النهي فجاء الإذن بالكتابة بعد أن زالت الموانع الداعية إلى ذلك.

ورغم الإذن العام بجواز الكتابة والتقييد فإنّ كثيراً من الصحابة لم يكونوا يكتبون وإنّما كانوا يحفظون، ومن كان يكتب منهم الشيء فإنّما كان يكتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه، ذلك أنّ العرب كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك^(١).

حركة تدوين الفقه في المرحلة الأولى من هذا الدور.

رغم أنّ أكثر الصحابة في هذا العصر كانوا يتكلمون من حفظهم ويروون العلم من صدورهم فإنّ أخباراً صحيحة كثيرة تؤكّد أنّ بعض أصحاب الرسول ﷺ قد كتبوا صحفاً عديدة في هذه المرحلة، وألفوا ورقات في الفقه اصطلاحوا على تسميتها بالكتب غير أنّها كما يبدو من خلال الآثار والأخبار الواردة في شأنها، والعصر الذي تنتمي إليه لا تعدو أن تكون أكثر من ورقات في مسائل من الفقه متعدّدة أو هي عبارة عن

(١) جامع بيان العلم وفضله ٧٧/١ و٨٢/١ - ٨٣.

رسائل متضمنة لضوابط فقهية وفتاوى محدّدة في قضايا معيّنة.

وقد اشتهر منها:

* كتاب في الصدقات كان عند أبي بكر الصديق وجّه به إلى أنس بن مالك حين ولّاه عاملاً على البحرين جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله بها رسول الله ﷺ فمن سئلها من المؤمنين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعطه^(١).

* واشتهرت كذلك رسالة عمر في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، ورسالته إلى معاوية بن أبي سفيان، وكتابه في الصدقات الذي كتب عمر بن عبدالعزيز في شأنه - حين تولّى الخلافة - إلى سالم بن عبدالله يطلب منه أن يكتب إليه به ففعل^(٢).

* كما اشتهرت أيضاً صحيفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفيها: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر^(٣).

* وكان عند عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود كتاب حلف أنّه خطّ أبيه بيده^(٤).

* ويبدو أنّه كان لزيد بن ثابت أيضاً كتاب مشهور في الفرائض، هو مجموع رسائله في هذا الفنّ، حيث كان يكتب بها إلى أصحاب رسول الله حين يسألونه.

وقد حفظ لنا موطأ الإمام مالك قطعة من رسالة زيد بن ثابت إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وأبو داود في سننه، والبيهقي في السنن الكبرى، في كتاب الزكاة.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، واللفظ للبخاري.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

معاوية بن أبي سفيان حين كتب إليه يسأله عن الجد^(١) كما حفظ لنا الإمام البيهقي في سننه الكبرى مجموعة صالحة من هذه المسائل والأحكام حيث أفرد في كتاب الفرائض باباً خاصاً في ترجيح قول زيد بن ثابت على قول غيره من الصحابة أجمعين في علم الفرائض، وذكر جزءاً هاماً من هذه الرسالة في باب: «من ورث الإخوة للأب والأم أو للأب مع الجد»، وذكر في مناسبتين من هذا الباب: أنّ عبدالرحمن بن أبي الزناد قال: أخذ أبو الزناد هذه الرسالة من خارجة بن زيد بن ثابت ومن كبراء آل زيد بن ثابت، وأنّ أبا الزناد قد أخذ هذه الرسالة بطولها^(٢).

وقد ورد في القطعتين المتبقيتين عند الإمام البيهقي تسمية هذه الرسالة بالصحيفة حيث جاء فيهما قول زيد بن ثابت إلى معاوية «نحو الذي كتبت به إليك في هذه الصحيفة»^(٣).

ومما يزيد في أهمية هذه الرسالة أنّ أبا الزناد عبدالرحمن بن ذكوان (١٣١هـ) قد قام بشرحها وتفسيرها، في هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ الفقه الإسلامي، وروى هذا الشرح ابنه عبدالرحمن بن أبي الزناد، تدلّ على ذلك عبارة تكرر ورودها عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري عن أبيه زيد بن ثابت أنّ معاني هذه الفرائض وأصولها عن زيد بن ثابت، وأما تفسيرها فتفسير أبي الزناد على معاني زيد بن ثابت.

هذه العبارة تكرر ورودها في اثني عشر موضعاً من أبواب كتاب الفرائض، وهي كالآتي^(٤):

* باب من لا يرث من ذوي الأرحام.

(١) الموطأ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجد ٥١٠/٢، والسنن الكبرى للبيهقي ٢٤٩/٦.

(٢) السنن الكبرى ٢١٢/٦، و٢٤٧/٦ - ٢٤٨.

(٣) السنن الكبرى ٢٤٧/٦ و٢٤٩.

(٤) السنن الكبرى ٢١٣/٦ و٢٢٥ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٩ و٢٣١ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٣٦ و٢٣٨ و٢٤٥ و٢٥٠.

- * باب حجب الإخوة والأخوات من كانوا بالأب والابن وابن الابن.
 - * باب لا ترث مع الأم جدّة.
 - * باب فرض الزوج والزوجة.
 - * باب ميراث أولاد الابن.
 - * باب فرض الإخوة والأخوات للأم.
 - * باب ميراث الإخوة والأخوات لأب وأم أو لأب.
 - * باب ميراث الأب.
 - * باب توريث ثلاث جدّات متحاذيات أو أكثر.
 - * باب ترتيب العصبه.
 - * باب ميراث الجدّ.
 - * باب كيفية المقاسمة بين الجدّ والإخوة والأخوات.
- هذه القطع المتبقية التي وصلتنا في فنّ علم الفرائض لها أهميتها التاريخية، حيث أنها تعتبر من أقدم الرسائل الفقهية، وفترة كتابتها تفيدنا في فهم نشأة وتاريخ تطوّر حركة التدوين ومساره.
- وذكر ابن حجر العسقلاني خلال ترجمته لأبي الزناد أنّه كان فقيهاً صاحب كتاب^(١) لكنّه لم يذكر اسم الكتاب، ولعلّه أن يكون ذلك الكتاب الذي شرح به كتاب زيد بن ثابت في الفرائض.
- حركة تدوين الفقه في المرحلة الثانية من هذا الدور.
- توجد نقول كثيرة تؤكّد أنّ ابن شهاب الزهري كان أوّل من دوّن العلم وكتبه^(٢).

(١) تهذيب التهذيب ٢٠٥/٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١ و٩١.

وكان التابعي الجليل مكحول (١١٣هـ) قد ألف كتاباً في مناسك الحج، فقد جاء في تهذيب التهذيب أن أبا مسهر أخبر عن سعيد بن عبدالعزيز أن كتاب مكحول في الحج أخذه من العلاء بن الحارث، وقال أبو مسهر: إليه أوصى مكحول^(١).

وذكر ابن النديم أنه كان لمكحول من الكتب: كتاب السنن في الفقه، وكتاب المسائل في الفقه^(٢).

والظاهر أن تدوين الفقه في هذا الدور لم يكن كالتدوين الذي تم لاحقاً، من حيث دقة الترتيب ووضوح المنهج، وتقسيم الكتاب وتبويبه، وإنما كان فيما يبدو عبارة عن تدوين لمسائل غير مبنية على أبواب العلم المعروفة في كتب الفقه لاحقاً، والأغلب أنها كانت هذه مختلطة بأحكام الفقه الأكبر وقضايا الأصول، على منوال ما كان يدور في مجالس العلماء من طرح قضايا مختلفة تتعلق بعلوم شتى.

وهذا ما تقتضيه طبيعة البداية في كل أمر جديد، فقد روي عن أبي الزناد قال: كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما يسمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس^(٣).

غير أن الملفت للنظر أن ابن قيم الجوزية يذكر أن محمد بن نوح - من أعلام المفتين بالمدينة - جمع فتاويه في ثلاثة أسفار ضخمة على أبواب الفقه^(٤).

ويرى الشيعة أن أئمة أهل البيت كانوا أسبق الناس في تدوين الفقه ومسائله^(٥)، وينسبون إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين (١٢١هـ) كتاب

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٧٨/٨.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٨٣.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١.

(٤) إعلام الموقعين ٢٣/١.

(٥) هاشم معروف الحسني: تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٥٠ - ٢٥٥.

المجموع في الفقه الذي يعتبر بالنسبة للزيدية أهم كتاب فقه تلقوه بالقبول، والكتاب مطبوع، وقد قام علماء الشيعة بشرحه والعناية به.

وهذا الكتاب يشمل جماع ما نعرفه اليوم من أبواب الفقه وما يتعلّق بها من مسائل وفروع، ويرى الدكتور محمد يوسف موسى^(١) أنّ المنهج الدقيق المعتمد في تصنيف هذا الكتاب في ذلك الزمن المبكر من تدوين الفقه مع ما تقتضيه طبيعة البداية في كلّ أمر جديد يجعلنا لا نطمئن إلى صحّة نسبه إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين، فضلاً عن أنّ الكتاب قد تفرّد بروايته عن الإمام زيد، أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، وقد وجهت للواسطي هذا، طعوناً كثيرة من رجال الجرح والتعديل ومن حفاظ أهل السنّة وثقاتها تؤكّد أنّه متروك الحديث وأنّه كذاب غير ثقة ولا مأمون، وأنّه كان يضع عن الإمام زيد ابن علي الأحاديث ويكذب، فقد قال فيه عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: متروك الحديث ليس بشيء، وقال الأثرم عن أحمد: كذاب يروي عن زيد بن علي عن آبائه أحاديث موضوعة، وعن يحيى بن معين أنّه قال فيه: كذاب غير ثقة ولا مأمون، وقال إسحاق بن راهويه وأبو زرعة: كان يضع الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث ذاهب الحديث لا يشتغل به، وقال وكيع: كان في جوارنا يضع الحديث فلمّا فطن له تحوّل إلى واسط، وقال النسائي: ليس بثقة ولا يكتب حديثه، وقال: متروك الحديث، وقال الدارقطني: متروك الحديث، وقال الحاكم: يروي عن زيد بن علي الموضوعات، وذكره البخاري في الأوسط في فصل من مات من عشر ومائة إلى عشرين ومائة وقال: منكر الحديث^(٢).

فهذه النقول الكثيرة من حفاظ الحديث ورجال الجرح والتعديل من أهل السنّة لا تدع مجالاً للشكّ في اتّهام خالد الواسطي بالكذب والوضع،

(١) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٢ - ١٩٩ حيث ناقش صاحب الكتاب الموضوع باستفاضة.

(٢) تهذيب التهذيب ٢٦/٨ - ٢٧.

مما حدا بالدكتور محمد يوسف موسى إلى القول بأنّ أمورا كثيرة تقوم دون التيقن من صحّة نسبة الكتاب إلى الإمام زيد^(١).

غير أنّ السيّد هاشم معروف لم يسلم له بهذه النتيجة التي خرج بها من بحثه حول هذا الأثر الشيعي معتبرا إياه أنّه قد اتّبع أسلوب المغالطات السافرة للتشكيك بهذا الأثر المنسوب إلى الإمام زيد، وأنّه في الوقت الذي اعتاد أن يصول بفكره ويجول في جميع فصول كتابه، قد رأى نفسه مضطرا أن يقف مكتوف اليدين جامدا في تفكيره حينما تحدّث عن الشيعة، ويقول عنه في موضع آخر: نراه يقف موقف من يحتاط للواقع ويتحفّظ في إعطاء النتائج في بعض أبحاثه، وعلى الأخص حينما يتحدّث عن دور التشيع في تدوين الفقه والحديث بعد وفاة الرسول، ويعتقد السيّد هاشم معروف أنّ الأسلوب الذي اتّبعه الدكتور محمد يوسف موسى للتشكيك بهذا الأثر المنسوب إلى زيد بن عليّ، قد اتّبع فيه أسلوب الماجورين من كتاب التاريخ وتراجم الرجال^(٢).

إنّ الذي يحزّ في النفس هو ذلك الأسلوب الذي انتهجه السيّد هاشم معروف في مناقشته لمثل هذه القضايا، واتّهامه للدكتور محمد يوسف موسى باعتماد المغالطات والتشكيك متجاوزا الطريقة العلميّة في النقاش والحوار، ليتدخّل في قضايا النوايا والإخلاص وكأنّه لعمرى يتهمه في إخلاصه وصدق نواياه ولا نستغرب من السيّد هاشم معروف مثل هذه العبارات النابية، فهو الذي يتهم الأئمة الأعلام من أهل السنّة بأنهم الماجورين من كتاب التاريخ وتراجم الأعلام.

إنّ الحقيقة التي يراها السيّد هاشم كما يتصوّرها في هذه المسألة - فضلا عن غيرها من المسائل التي تطرّق إليها في كتابه - هو أن يسلم له الباحثون في الآثار الإسلاميّة في هذا العصر بأنّ الأئمة الأعلام من أهل

(١) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٤.

(٢) هاشم معروف الحسني: تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٩ و ٢٥١ و ٢٥٢.

السنّة الذين اتّهموا خالد الواسطي وجرحوه، من أمثال الإمام أحمد ويحيى بن معين وإسحاق ابن راهويه ووكيع بن الجراح والبخاري والنسائي وغيرهم هم رجال مأجورون لم يكتبوا التاريخ للحقّ والتاريخ، وإنّما كتبوه - كما يزعم - لرجال السياسة وحكام الجور، وبالتالي فإنّ اتّهامهم لخالد الواسطي هذا، كان زوراً وبهتاناً عندها، وعندها فقط يكون الباحثون من أهل السنّة قد تحزّروا الواقع ووقّوا التاريخ حقّه.

ونحن إذ ننأى بأنفسنا أن ننزل إلى هذا المستوى من النقاش العقيم الذي يفرّق ولا يجمع، نرى أنّ هذا الكتاب تبقى له أهميّة التاريخيّة، لأنّ الزمان قد حفظه لنا من التلف، وتصنيفه بلا ريب يعود إلى هذا الدور الذي نحن بصدد دراسته، وإن كُنّا نعتقد أنّه ليس من عمل الإمام زيد جمعا وترتبيبا، فهو على كلّ حال يبقى أقدم وثيقة تاريخيّة وصلتنا بهذا الترتيب الدقيق.

هذا فيما يخصّ مجموع الإمام زيد، أما ما عداه من المصادر الشيعيّة فيذكر ابن النديم في الفنّ الخامس من المقالة السادسة الذي خصّصه لأخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم أنّ أوّل كتاب ظهر للشيعة هو كتاب سليم بن قيس الهلالي تفرّد بروايته عنه إبان بن أبي عياش حيث يقول تحت عنوان أخبار فقهاء الشيعة وأسماء ما صنّفوه من الكتب: «من أصحاب أمير المؤمنين - عليه السلام - سليم بن قيس الهلالي، وكان هاربا من الحجاج لأنّه طلبه ليقتله فلجأ إلى إبان بن أبي عياش فأواه فلما حضرته الوفاة أعطاه كتاباً وهو كتاب سليم بن قيس الهلالي المشهور، رواه عنه إبان بن أبي عياش لم يروه عنه غيره... وأوّل كتاب ظهر للشيعة كتاب سليم بن قيس الهلالي».

ثمّ يذكر تحت عنوان الكتب المصنّفة في الفقه الشيعي أسماء عديدة لمصنّفي الشيعة، فيقول: «هؤلاء مشايخ الشيعة الذين رووا الفقه عن الأئمّة ذكرتهم على غير ترتيب، ويذكر في الأثناء كتاب أبي خالد عمرو بن خالد

الواسطي، دون أن يحدّد تاريخ ظهورهم أو عناوين مصنفاتهم^(١).

وفي قائمة أعلام التابعين الذين ألفوا في الفقه أسماء العديد من المصنّفين من الشيعة في هذه المرحلة من هذا الدور من أمثال^(٢):

* علي بن أبي رافع، التابعي، وقد كان كاتباً لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وتفقه عليه، له كتاب في فنون من الفقه تكلم فيه عن الوضوء والصلاة وسائر الأبواب.

* عمرو بن مقدم الملقّب بثابت بن هرمز، له كتاب جامع في الفقه يرويه عن الإمام زين العابدين عليّ ابن الحسين.

* عبدالله - أو عبيدالله - بن عليّ بن أبي شيبة، له كتاب كبير في الفقه.

* ربيعة بن سميع، ذكره النجاشي في أوّل كتابه في الطبقة الأولى من مصنّفي الشيعة، وذكر أنّ له كتاباً في زكاة النعم، رواه عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه.

ونحن إذ نورد هذه الأخبار، لا نستبعد ما يراه الشيعة من تصدّرتهم لحركة التأليف في هذا الدور من أدوار الفقه، بل نميل إلى القول بأنّ ما يعتقده الشيعة من سبقهم بتدوين الفقه تدوينا دقيقاً ميوّبا، لا يجانب الحقيقة والواقع، ونسير مع المرحوم مصطفى عبدالرازق في رأيه بأنّ النزوع إلى تدوين الأحكام الشرعيّة كان أسرع إلى الشيعة لأنّ اعتقادهم العصمة في أئمّتهم أو ما يشبه العصمة كان حريّاً أن يسوقهم إلى الحرص على تدوين أقضيّتهم وفتاويهم، ذلك أنّ التشييع تأثر منذ بداية أمره بعناصر من غير العرب الأميين الذين كانوا مجبولين على الحفظ نافرين من الكتابة والتدوين^(٣).

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الفقه الجعفري ص ١٣٣ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد يوسف ص ١٨٩ و ١٩٠، نقلا عن كتابي: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام آية الله حسن الصدر، وأسماء مصنّفي الشيعة للنجاشي.

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلاميّة ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور

أردت في خاتمة هذا الفصل أن ألقى الضوء على نشاط المرأة المسلمة في هذه الحقبة من تاريخ الفقه الإسلامي، وأن أقدم للقارئ فكرة إجمالية عن دورها الفعال ومشاركتها الحقيقية في بناء صرح الفقه حتى تعلم المرأة اليوم أن النساء قد كان لهنّ الدور المعتبر في تكوين الحركة الفقهية في صدر الإسلام، وأنهنّ قد شاركن في نقل العلوم الشرعية تعلمًا وتعليمًا، وأنهنّ لم يكنّ حبيسات البيوت كما يحلو لبعض المغرضين أن يصوّروا حالة المرأة في الإسلام، بل لقد ثبت أن جماعة من النساء قد أرسلن إلى رسول الله ﷺ نائبة منهنّ وفدت على رسول الله وهي خطيبة النساء أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية - وكانت من ذوات العقل والدين - فكانت ممّا قالت حين أتت الرسول ﷺ: «إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهنّ يقلن بقولي وعلى مثل رأيي، إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فأمّا بك واتبعاك . . .» فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟»^(١).

هذا التحوّل النوعي الذي حدث في تاريخ المرأة مع ظهور الإسلام جعل النساء يطلبن من رسول الله ﷺ أن يجعل لهنّ يوماً يأتيه فيه ليتعلمن ويتفقهن، فوافق الرسول الأكرم على طلبهنّ، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أنّ النساء قلن غلبنا عليك الرجال يا رسول الله فاجعل لنا يوماً من

(١) الاستيعاب ٢٣٧/٤ - ٢٣٨.

نفسك فوعدهنّ يوماً لقيهنّ فيه^(١).

وهكذا لم يعزل الرسول الأكرم ﷺ المرأة عن حركة التاريخ، وإنما جعل منها معلّمة ومتعلّمة شأنها شأن الرجل، باعتبار أنّ كلاّ منهما هو موضع للخطاب وللتكاليف، فإذا بالمرأة عالمة وفقية، تستفتي فتفتي، حافظة للسنة متصدّرة للفتيا، وتحال عليها القضايا التي تتعلّق بأحكام النساء فيجد السائل عندها علماً وفقهاً، وإذا بها مشاركة في بناء الحركة الفقهية، مساهمة بنصيب وافر في حركة التشريع الإسلامي وتدوين آثار الرسول ﷺ، حتى إنّ الرجال ليلتقون حولها مستمعين إلى علمها ينهلون من معارفها، ولقد تتلمذ على بعضهنّ مشايخ العلماء وإلى قولهنّ رجع العلماء وبأحكامهنّ سلّم الفقهاء.

وليس من غرضنا في هذا المجال أن تستقصي جميع الأعلام من النساء اللاتي شاركن في حركة الفقه وتطوّرها خلال هذا الدور الذي هو دور عصر الصحابة والتابعين، وإنما الذي نسعى إلى بيانه ونحاول إظهاره للقارئ هو الدور الفعال الذي قامت به المرأة من خلال قيامها على نشاط الفقه وحرصها على نشره بين الأمة، ولذلك فإنّي أكتفي في هذا المقام بذكر عدد يسير من نماذج حياة أقدمها للقارئ الكريم تكون بمثابة خلاصة موجزة حول نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور الذي يمتدّ من قيام الخلافة الراشدة إلى الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة، لعلّ أن تزول به من أذهان بعض المسلمين تلك الفكرة المدسوسة التي مفادها أنّ الإسلام قد فرض على المرأة قيوداً جعلتها لا تحسّ بما يجري خارج حدود بيتها ولا تكاد تعي من أمر حياتها غير ذلك.

* عائشة أم المؤمنين:

كانت رضي الله عنها مقدّمة في العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام، وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتياً، فكانت مشيخة أصحاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

رسول الله يسألونها عن الفرائض، استقلت بالفتوى منذ زمن أبي بكر وعمر وهلم جرا، وكانت تفتي في زمن عمر وعثمان وما بعد ذلك إلى أن ماتت سنة ٥٨هـ.

وكان الأكابر من الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها فيجدون علمه عندها، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي البيّية، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من الرجال ولا من النساء، وإلى قولها رجع فقهاء الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه عبدالله وأبي هريرة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وجابر بن عبدالله وغيرهم، وحمل عنها من الفقه ما لم يحمل عن أحد سواها، وما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ شيء فسألوا عنه عائشة إلا وجدوا عندها منه علماً^(١).

وقد ذكر لها في كتب السنة أمثلة كثيرة من فتاويها وأجوبتها التي تنم عن نشاطها الغزير، من ذلك:

* أنّ أبا سلمة بن عبدالرحمن دخل هو وأخو عائشة من الرضاعة على عائشة فسألها عن غسل النبي ﷺ (صحيح البخاري، كتاب الغسل، وصحيح مسلم كتاب الحيض، وسنن النسائي كتاب الطهارة).

* وعن عطاء بن أبي رباح قال زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألها عن الهجرة (صحيح البخاري، كتاب المغازي).

* وعن شريح بن هانئ قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين (صحيح مسلم، كتاب الطهارة).

* وعن سعد بن هشام بن عامر أنه أتى عبدالله بن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ، قال: من، قال: عائشة، فأتيتها فسألها ثم اتتني فأخبرني

(١) انظر ما تقدّم من ترجمتها.

بردها عليك (صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها).

* وعن سعد بن هشام أيضاً أنه وفد على أم المؤمنين عائشة فسألها عن صلاة رسول الله ﷺ (سنن النسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار).

* وقيل لعبدالله بن عمر إن أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول من تبع جنازة فله قيراط من الأجر، فقال ابن عمر: أكثر علينا أبو هريرة، فبعث إلى عائشة فسألها، وفي رواية فأرسل ابن عمر خباباً يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت (صحيح مسلم، كتاب الجنائز).

* وعن قدامة العامري أن جصرة بنت دجاجة العامرية حدثته قالت: سمعت عائشة سألتها أناس كلهم يسأل عن النبيذ، يقول ننبذ التمر غدوة ونشربه عشياً، وننبذه عشياً ونشربه غدوة (سنن النسائي، كتاب الأشربة).

* أن الأسود بن يزيد دخل على عائشة أم المؤمنين فسألها عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل (سنن أبي داود، كتاب الصلاة).

* أن أبا طلحة الأنصاري وأناس انطلقوا إلى عائشة يسألونها عن البيت الذي فيه كلب وتمثال هل تدخله الملائكة (سنن أبي داود، كتاب اللباس).

* وأرسل مروان بن الحكم أبا بكر بن عبدالرحمن بن الحارث إلى عائشة فسألها عن الصائم الذي يصبح وهو جنب (موطأ مالك، كتاب الصيام).

* وعن قابوس عن أبيه قال: أرسل أبي امرأة إلى عائشة يسألها أي الصلاة كانت أحب إلى رسول الله ﷺ أن يواظب عليها (مسند الإمام أحمد).

* أن عبدالله بن أبي قيس مولى غطفان بن عازب أتى عائشة فسألها عن الركعتين بعد صلاة العصر (مسند الإمام أحمد).

* أن أبا موسى الأشعري قال لعائشة إني أريد أن أسألك عن شيء

وأنا أستحي منك، فقالت: سل ولا تستحي فإنما أنا أمك، فسألها عن الرجل يغشى ولا ينزل (مسند الإمام أحمد).

* وذهب عبدالله بن أبي موسى إلى عائشة فسألها عن الوصال وعن الركعتين بعد العصر، وسألها عن اليوم الذي يختلف فيه من رمضان، ولما خرج من عندها سأل عبدالله بن عمر وأبا هريرة، فكل واحد منهما قال: أزواج النبي ﷺ أعلم بذلك منا (مسند الإمام أحمد).

* وعن علقمة بن أبي علقمة عن أمه - وكانت مولاة لعائشة - أنها قالت: كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسي، فيه الصفرة من دم الحيض يسألنها عن الصلاة (صحيح البخاري كتاب الحيض، وموطأ مالك، كتاب الطهارة).

* وعن معاذة أن امرأة سألت عائشة قالت: أتقضي إحدانا صلاتها أيام حيضها؟ (سنن أبي داود، كتاب الطهارة، وسنن الترمذي، كتاب الطهارة).

* وعن إسماعيل بن أبي خلف أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة، فسألها عبيد عن قراءة رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

* وعن عطاء الخراساني عن يحيى بن يعمر عن عائشة قال: سألها هل كان رسول الله ﷺ يرفع صوته من الليل إذا قرأ (مسند الإمام أحمد).

* وسئلت عن صلاة رسول الله في جوف الليل (سنن أبي داود، كتاب الصلاة).

* أن عبيدالله بن عبدالله بن عمر أرسل إلى عائشة يسألها، هل يبشر الرجل امرأته وهي حائض، (موطأ مالك، كتاب الطهارة).

* وعن الأسود ومسروق قال: أتينا عائشة نسألها عن المباشرة للصائم فاستحيينا فقمنا قبل أن نسألها، فمشينا لا أدري كم، ثم قلنا جئنا

لنسألها عن حاجة ثم نرجع قبل أن نسألها، فرجعنا فقلنا: يا أم المؤمنين إننا جئنا لنسألك عن شيء فاستحيينا فقمنا، فقالت: ما هو، سلا ما بدا لكما (مسند الإمام أحمد).

* وعن أبان بن صمعة قال: حدّثني والدي عن عائشة أنّها سئلت عن الأشرية (سنن النسائي، كتاب الأشرية).

* وعن الحارث بن نوفل عن عائشة أنّها سئلت عن غسل المرأة من الجنابة (موطأ مالك، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن صوم رسول الله وسئلت عن نبيذ الجرّ وسئلت ما كان رسول الله يعمل في بيته وسئلت عن ركعتي الفجر وسئلت عن خلق رسول الله وسئلت عن صلاة رسول الله بالليل وسئلت عن القراءة في الركعتين قبل صلاة الفجر (مسند الإمام أحمد).

* وسئلت عن رجل طلق امرأته البتّة فتزوّجها بعده رجل آخر فطلقها قبل أن يمسيها، هل يصلح لزوجها الأول أن يتزوّجها، (موطأ مالك، كتاب النكاح).

* وسئلت عن الرجل يصيب المرأة ثم يلبس الثوب فيعرق فيه (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

* وسئلت ما يحلّ للرجل من امرأته وهي حائض (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن المرأة تمسح على الخضاب (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

* أم سلمة أم المؤمنين:

هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية، كانت موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب، وإشارتها على النبي ﷺ يوم الحديبية تدلّ على وفور عقلها وصواب رأيها توفيت سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٦١هـ، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاتاً.

روى عنها ابناها عمر وزينب وأخوها عامر وابن أخيها مصعب بن عبدالله ومكاتبها نبهان ومواليها عبدالله بن رافع ونافع وسفيينة وابنه وأبو كثير وخيرة والدة الحسن البصري، وممن يعدّ في الصحابة صفية بنت شيبة وهند بنت الحارث الفراسية وقبيصة بن ذؤيب وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدي وأبو وائل وسعيد بن المسيّب وأبو سلمة وحميد ولدا عبدالرحمن بن عوف وسليمان بن يسار وغيرهم^(١).

وقد ذكر لها في كتب السنّة أمثلة كثيرة من فتاويها وأجوبتها التي تؤكّد مساهمتها في حركة الفقه، وإن كانت في ذلك أقلّ من عائشة، ومن الأمثلة على ذلك:

* عن سليمان بن يسار أنّ أبا سلمة بن عبدالرحمن، وعبدالله بن عباس اجتمعا عند أبي هريرة وهما يذكران المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال ابن عباس: عدّتها آخر الأجلين، وقال أبو سلمة: قد حلّت، فجعلا يتنازعا ذلك، قال: فقال أبو هريرة أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فبعثوا كريياً مولى ابن عباس إلى أم سلمة يسألها عن ذلك (صحيح مسلم وموطأ مالك وسنن النسائي، كتاب الطلاق).

* وعن محمد بن إبراهيم عن أم ولد لإبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أنّها سألت أم سلمة زوج النبي ﷺ فقالت: إني امرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر (موطأ مالك وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه والدارمي، كتاب الطهارة).

* وبعث مروان بن الحكم عبدالرحمن بن الحارث بن هشام إلى أم سلمة يسألها، فقال: أتيت غلام أم سلمة نافعاً فأرسلته إليها فرجع إلي فأخبرني (مسند الإمام أحمد).

(١) الاستيعاب ٤/٤٥٤ - ٤٥٥ والإصابة ٤/٤٥٨ - ٤٥٩.

* وأرسل مروان بن الحكم إلى أم سلمة يسألها عن الوضوء ممّا مسّت النار (مسند الإمام أحمد).

* وكان مروان يقول: كيف نسأل أحداً عن شيء وفينا أزواج النبيّ (موطأ مالك، كتاب الصيام).

* وأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى أم سلمة يسألها هل صلّى النبيّ ﷺ بعد العصر شيئاً (مسند الإمام أحمد).

* وأرسل عبدالله بن عمرو أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - إلى أم سلمة يسألها هل كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم (مسند الإمام أحمد).

* وعن عبدالرحمن بن هرم قال: حدّثني: ناعم مولى أم سلمة أنّها سئلت: أتغتسل المرأة مع الرجل (سنن النسائي، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن قراءة رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

ولم يكن هذا النشاط مقتصرًا على زوجات النبيّ ﷺ، أمّهات المؤمنين دون غيرهنّ من النساء، وإنّما كان هناك من النساء من يرجع إليهنّ في الأحكام في عصرهنّ، فمن ذلك:

* ما ورد عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أنّ أباه كتب إلى عمر بن عبدالله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعمّا قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته في أمرها وقد وضعت حملها بعد أن توقّي زوجها، فتعلّت من نفاسها وتجمّلت للخطاب (صحيح البخاري، كتاب المغازي، وصحيح مسلم وسنن النسائي وسنن أبي داود كتاب الطلاق).

* وأرسل مروان بن الحكم عبدالله بن عتبة إليها يسألها عمّا أفتاها

به رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

* وعن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث قال: أرسل مروان إلى أم معقل الأسديّة يسألها (مسند الإمام أحمد).

* وعن محمد بن عبيد بن أبي صالح المكي، قال: حججت مع عدّي الكندي، فبعثني إلى صفية بنت شيبة ابنة عثمان بن طلحة - صاحب الكعبة - يسألها عن أشياء سمعتها من عائشة زوج النبي ﷺ.

* وأرسل مروان بن الحكم إلى فاطمة بنت قيس قبيصة بن ذؤيب يسألها الحديث الذي تحدّث به عن رسول الله، فحدّثته به، فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سناخذ بالعصمة التي كان الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان، فبيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ الآية، قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأني أمر يحدث بعد الثلاث، فكيف تقولون، لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا، فعلام تحبسونها (مسلم كتاب الطلاق وسنن النسائي في كتابي النكاح والطلاق) وفي رواية لأبي داود أنها استظهرت بقول الله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ حتى ﴿لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ الآية، ثم قالت: فأني أمر يحدث بعد الثلاث.

* ونهى عبدالله بن الزبير عن التمتع بالعمرة إلى الحج وأنكر أن يكون الناس صنعوا ذلك مع رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس، فقال: وما علم ابن الزبير بهذا، فليرجع إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فليسألها، فبلغ ذلك أسماء فقالت: صدق ابن عباس، لقد أحلّوا وأحللنا وأصابوا النساء (مسند الإمام أحمد).

* وذكر مروان في إمارته على المدينة أنّه يتوضأ من مس الذكر إذا أفضى إليه الرجل بيده، فأنكر عليه ذلك عروة بن الزبير، وقال: لا وضوء على من مسه، فلم يزل عروة يماري مروان حتى دعا مروان رجل من حرسه فأرسله إلى بسرة بنت صفوان فسألها عما سمعت من رسول الله (سنن النسائي، كتاب الطهارة).

* وعن زيد بن أسلم قال: كان عبد الملك بن مروان يرسل إلى أم الدرداء فتبيت عند نسائه ويسألها عن النبي ﷺ (مسند الإمام أحمد).

وأم الدرداء: هي خيرة بنت أبي حدرد الأسلمي وتعرف بأم الدرداء الكبرى - إذ كان لأبي الدرداء امرأتان كلتاها يقال لها أم الدرداء إحداهما رأت النبي ﷺ - وهي التي نعني في هذا السياق -، والثانية تزوجها بعد وفاة النبي ﷺ وتعرف بأم الدرداء الصغرى -.

كانت أم الدرداء الكبرى من فضلى النساء وعقلانتهن وذوات الرأي فيهن مع العبادة والنسك، حفظت عن النبي ﷺ وعن زوجها أبي الدرداء عويمر الأنصاري، وروى عنها جماعة من التابعين منهم ميمون بن مهران وصفوان بن عبد الله بن صفوان وزيد بن أسلم وأم الدرداء الصغرى، وكانت وفاتها بالشام في خلافة عثمان بن عفان^(١).

وأسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأنصارية، وهي بنت عم معاذ بن جبل، كانت تكتئى أم سلمة، وكان يقال لها خطيبة النساء، وهي من المبايعات، وكانت من ذوات العقل والدين، روى عنها ابن أخيها محمود بن عمرو الأنصاري ومهاجر بن أبي مسلم مولاها وشهر بن حوشب وكان أروى الناس عنها وإسحاق بن راشد وغيرهم، وهي وافدة النساء إلى رسول الله^(٢).

وزينب بنت أبي سلمة المخزومية ربيبة رسول الله ﷺ، أمها أم سلمة بنت أبي أمية، كانت اسمها برة فسماها الرسول ﷺ زينب، توفيت سنة ٧٣هـ.

كانت زينب محدثة وفقية من أفقه نساء أهل زمانها، حفظت عن النبي ﷺ وروت عنه وعن أزواجه أمها وعائشة وأم حبيبة وغيرهن، وروى عنها ابنها أبو عبيدة بن عبد الله بن زمة ومحمد بن عطاء وعراك بن مالك

(١) الاستيعاب ٤/٤٤٧ - ٤٤٨، الإصابة ٤/٢٩٥.

(٢) الاستيعاب ٤/٢٣٧ - ٢٣٨، الإصابة ٤/٢٣٤ - ٢٣٥.

وحميد بن نافع وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبدالرحمن وزين العابدين عليّ بن الحسين وآخرون، قال أبو رافع الصائغ: كنت إذا ذكرت امرأة فقيهة بالمدينة ذكرت زينب بنت أبي سلمة، وقال: وهي أفقه امرأة بالمدينة^(١).

وعمرة بنت عبدالرحمن: وهي عمرة بن عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارية، الفقيهة الأنصارية المدنية التابعة الثقة الحجة الفاضلة العدل الضابطة لما يؤخذ عنها، أخت أبي أمامة أسعد بن زرارة، كانت عالمة، من أهل الفتيا بالمدينة، وستة التابعيات، وكانت من أعلم الناس بحديث عائشة.

كانت في حجر عائشة فأكثرت من الرواية عنها، ولذلك فإن عمر بن عبدالعزيز حين عزم على تدوين الحديث بعث بكتاب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عامله وقاضيه على المدينة يطلب منه جمع أحاديث الرسول، وتتبع ما كان عند خالته عمرة بنت عبدالرحمن، وما ذاك إلا لما عرف عنها من ضبط ودقة في الرواية، ومما جاء في هذا الكتاب: اكتب إليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمرة فإنني قد خشيت دروس العلم وذهابه.

توفيت سنة ٩٨هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٣هـ وهي ابنة سبع وسبعين سنة.

روى عنها عروة بن الزبير وسليمان بن يسار وابن شهاب الزهري وعروة بن دينار وأخوها محمد بن عبدالرحمن الأنصاري وابنها أبو الرجال وابن أخيها يحيى بن عبدالله بن عبدالرحمن وابن ابنها حارثة ابن أبي الرجال وابن أخيها أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، وابنه عبدالله بن أبي بكر، ويحيى وسعد وعبد ربه أولاد سعيد بن قيس الأنصاري وآخرون^(٢).

(١) الاستيعاب ٣١٩/٤ - ٣٢٠، الإصابة ٣١٧/٤.

(٢) انظر: ما تقدّم من ترجمتها ص ٢٠٥.

وحفصة بنت سيرين: أم الهذيل: أخت محمد بن سيرين، وهي بصرية تابعة لها روايات كثيرة وقد حفظت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة، وكانت فقيهة عالمة، من خيار النساء كانت مشهورة بالعبادة والفقه وقراءة القرآن، وكان إياس بن معاوية يقول: ما أدركت أحداً أفضله على حفصة بنت سيرين، فقيل له: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، فقال: أما أنا فما أفضل عليها أحداً، وكان محمد بن سيرين إذا استشكل عليه شيء من القرآن أرسل إلى حفصة فسألها كيف تقرأ، وعدت من سيّدات التابعيات، حتى أنّ ابن أبي داود كان يقول: سيّدتا التابعيات حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبدالرحمن وتليهما أم الدرداء الصغرى، ماتت حفصة سنة ١٠٠هـ وهي ابنة سبعين سنة.

قال عاصم الأحول: كُتِبَ نَدَخْلُ عَلَيَّ حَفْصَةَ بِنْتَ سِيرِينَ، وَقَدْ جَعَلْتَ الْجَلْبَابَ هَكَذَا وَتَنَقَّبْتَ بِهِ، فَنَقُولُ لَهَا: رَحِمَكَ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾^(١) قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فتقول: هو إثبات الجلباب، توفيت سنة ١٠١هـ^(٢).

ومعاذة بنت عبدالله العدوية: أم الصهباء البصرية، من ربات العلم والفقه في الدين ومن أهل العبادة والزهد بالبصرة، روت عن عائشة أم المؤمنين وغيرها، وعنها روى أبو قلابة عبدالله بن زيد البصري، الذي كان رأساً في العلم والعمل، وقتادة وعاصم الأحول وإسحاق بن سعيد وأم الحسن البصري، وعن يزيد بن هارون قال: أخبرنا جعفر بن كيسان قال: رأيت معاذة محتيبة والنساء حولها توفيت سنة ١٠١هـ^(٣).

(١) سورة النور، الآية ٦٠.

(٢) شذرات الذهب ٢١٩/١، تدريب الراوي ٢٤٢/٢، البداية والنهاية ٣٠٢/٩، طبقات ابن سعد ٤٨٠/٨، تهذيب التهذيب ٤٣٨/١٢.

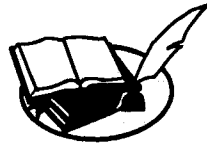
(٣) شذرات الذهب ٢١٨/١، تهذيب التهذيب ٤٥٢/١٢.

وعائشة بنت طلحة التيمية: أم عمران، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، مدنية تابعة ثقة، حدث عنها الناس لفضلها وأدبها، وروت عن خالتها عائشة أم المؤمنين، وعنها روى ابنها طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن وحبيب بن عمرو وابن أخيها طلحة بن يحيى بن طلحة وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق وابن أخيه موسى بن عبدالله بن إسحاق وفضيل بن عمرو وعطاء بن أبي رباح وعمر بن سعيد، وغيرهم^(١).

وقمير بنت عمرو الكوفية امرأة مسروق، وقد روت عن زوجها عن عائشة أم المؤمنين، وعنها روى الشعبي ومحمد بن سيرين وابن شبرمة، ولها عند أبي داود حديثها عن عائشة في المستحاضة، وعند النسائي حكاية عن مسروق^(٢).

وهكذا تصدرت المرأة للإفتاء في هذا الدور، وساهمت بنصيبها في حركة التشريع التي انتقلت من الصحابة إلى التابعين إلى تابعيهم، فكان منهنّ الأسوة الصالحة والعالمة الفاضلة التي يأخذ عنها من عاصرها، وعدّ منهنّ المئات في هذا الدور، وليس من غرضنا في هذا الفصل استقصاء عددهنّ ولا ذكرهنّ جميعاً، وإلاّ فقد حفل كتاب الطبقات لابن سعد بترجمة النساء المسلمات المبايعات، والنساء اللواتي لم يروين عن رسول الله ﷺ وروين عن أزواجهنّ وغيرهنّ^(٣).

وإنّما قصدنا هو أن نلفت نظر القارئ إلى دور بعضهنّ ممّن كان لهنّ الأثر البارز في حركة الفقه وتطورها.



(١) تهذيب التهذيب ٤٣٦/١٢، ابن سعد ٤٦٧/٨.

(٢) تهذيب التهذيب ٤٤٦/١٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٢٢/٨ - ٤٩٨.

استخلاص ونتائج

نصل في نهاية هذا الدور إلى تقرير جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

١ - أنّ الفضل في تأسيس هذه المراكز الفقهية وإقامة معالمها وبناء صروحها يعود بالدرجة الأولى إلى أصحاب رسول الله ﷺ الذين توزعوا في الأمصار فتكوّنت بفتاويهم حركة الاجتهاد في هذا الدور.

٢ - أنّ اجتهادات الصحابة وفتاويهم كانت متّحدة في بعض الأحيان، ومختلفة في غالب الأحوال، وأنّ هذا الاختلاف هو الذي قضى بظهور المدارس الفقهية التي انطبعت بطابع مؤسسيها، حتى عرف البعض بالتشديد والبعض بالترخيص، كما عرف البعض بالتوقّف عن الإفتاء في حين عرف البعض بالجرأة في ذلك، حتى لقد روي عن ابن عمر أنّه كان يعيب على ابن عباس جرأته على تفسير القرآن، في حين روي عن ابن عباس أنّه كان يعيب على ابن عمر توقّفه عن الإفتاء فيما لم يسمع فيه شيء.

٣ - أنّ الصحابة لم يكونوا جميعاً مجتهدين، وإنّما كان منهم العامة الذين لا يتقدمون لفتوى ولا يقطعون بحكم إلاّ بعد أن يسألوا أهل العلم منهم، وكان منهم من هو أهل للفتوى يسأل فيفتي، وأنّ أهل الفتوى أنفسهم كانوا بين مكثّر ومقلّ ومتوسّط.

٤ - أنّ الصحابة الذين كانوا قد تفرّقوا في الأمصار لم يعدم حبل

الاتصال بينهم، وكانوا يعودون إلى بعضهم البعض في حلّ القضايا والمسائل الطارئة، فكان عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض، وكان عليّ بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض، وكان عبدالله بن مسعود وأبو الدرداء يسألان عليّ بن أبي طالب، وكان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن، ونحو ذلك من الشواهد التي مرّت بنا.

وقد ورث أعلام التابعين هذه السنّة الحميدة والخصلة المجيدة عن أعلام الصحابة، فكان التابعون يرحلون إلى سائر الأمصار لطلب العلم ولا يكتفون بالأخذ عمّن نزل بينهم من أصحاب رسول الله، فكان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أحد فقهاء المدينة ممّن تلقى العلم عن ابن عباس، وكان طاووس اليماني فقيه أهل اليمن، من أشدّ الأتباع اقتداءً بابن عباس، وكذا هو حال أغلب التابعين الذين حملوا فقه الصحابة، لذلك فإنّ مسألة تأثير الصحابي في مركز دون آخر وفي مصر دون آخر إنّما هو بحسب طول مقامه بذلك المركز وبحسب كثرة الأتباع الذين أخذوا عنه وتفقهوا عليه.

٥ - أنّ فقهاء التابعين الذين تكوّنوا في هذا الدور بفقهاء الصحابة قد تأثروا بمناهج أساتذتهم في استنباط الأحكام واستخراج المسائل وتقرير الفتاوى، الأمر الذي جعل حركة الاجتهاد التي تأسست بالصحابة تتعمّق وتتجذّر في هذا الدور مع أعلام التابعين.

٦ - أنّه بالرغم من ظهور الرحلة في طلب العلم والأخذ عن الصحابة المقيمين بالأمصار المختلفة فإنّ ذلك لم يمنع كلّ جمع من التابعين بمصر من الأمصار من الافتخار بأساتذتهم، فكان أهل المدينة لا يعدلون بزيد بن ثابت أحداً، وكان أهل الكوفة يرون أنّ عبدالله بن مسعود قد انتهى إليه علم أصحاب رسول الله ﷺ، وكان أهل مكّة يرون أنّ أكرم المجالس وأكثرها فقها وعلماً هي مجالس عبدالله بن عباس ويرون أنّه قد جمع العلم كلّهُ.

٧ - أنّ الموالي كان لهم الدور الكبير في نشر العلم وإنماء الفقه

تعلمًا وتعليمًا حتى صار القائمون على الفقه في أكثر البلدان من الموالي، ولم يعد من علمهم مركز من المراكز الفقهية في سائر البلاد الإسلامية فكان عطاء بن أبي رباح فقيه أهل مكة، وكان طاووس بن كيسان فقيه أهل اليمن، وكان يحيى بن أبي كثير فقيه أهل اليمامة، وكان إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة، وكان الحسن البصري فقيه أهل البصرة، وكان مكحول فقيه أهل الشام، وكان عطاء الخراساني فقيه أهل خراسان، وكان بالمدينة المنورة نافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار، وزيد بن أسلم، وغيرهم كثير.

٨ - أن المؤلفات الفقهية التي كتبت في المرحلة الأولى من هذا الدور كانت عبارة عن ورقات غير مبرّبة في مسائل شتى، وإنما تعرف عليها بأنها كتب طبقا لما هو جاري عليه الاصطلاح آنذاك من تسمية بعض المسائل المجموعة بالكتاب.

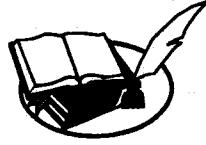
٩ - أن كلاً من أهل الشيعة وأهل السنة قد حرصا على ادعاء سبق في تدوين الفقه وجمع مسائله، فالشيعة عنوا بعناية جادة وقوية بتأكيد سبقهم في تدوين الفقه وسائر العلوم الإسلامية، وبالمثل فإن أهل السنة حرصوا على تأكيد موقفهم من أن أول كتاب فقهي بالمعنى الحقيقي للكتاب وقع تدوينه على أيدي علماء السنة، وكأن تسليم أحد الفريقين للآخر بدعوى سبق في بداية تدوين الفقه وسائر العلوم الأخرى يعطي حقّ الوصاية لفرقة على أخرى، أو يجعل الحقائق الدينية ملكاً لها على حساب الفرق الأخرى.

ولذلك نقول بأنه وإن كان التوصل إلى معرفة الأمر الحق في السابق والمسبوق بتدوين الفقه يفيدنا في مجال النقد التاريخي للفقه الإسلامي، فإن ذلك لا يعطي لأيّ كان من الفرق الحق في ادعاء امتلاك الحقائق المطلقة، وتكفير ما سواها أو تبديعها ما لم تتعدّ الضوابط الشرعية والأصول الكلية في فهم الأحكام الشرعية.

ورغم ما لهذا الأمر - أي معرفة سبق بالتدوين - من أهمية في تاريخ

الفقه الإسلامي من خلال الوقوف على بدايات التدوين، والوصول إلى قول فصل فيه، فإتي أهيب بالعلماء العاملين أن يذروا التعصب والانغلاق المذهبي، وتناول بعض الصحابة بالقدح، وأن يعلموا أن بقاء النعرة المذهبية وأن التمسك بكثير من القضايا الثانوية والتشديد عليها لا يوصل إلا إلى قطع عرى الأخوة الإسلامية.

- ١٠ - أن نشاط المرأة المسلمة قد شمل فيما شمل بالإضافة إلى مهمتها التربوية السامية داخل البيت، مهمة الإفتاء وتعليم الأحكام، مما جعلها مشاركة للرجل ومساهمة معه في سير الحركة الفقهية والتشريعية في هذا الدور من تاريخ الفقه الإسلامي، الذي هو عصر الصحابة والتابعين.



الدور الثالث

دور التأصيل والتفريع

- استقرار المذاهب الفقهية -

من حوالي الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث

تمهيد:

كانت ثورات الخوارج والشيعة تشتعل من حين لآخر في مناطق عديدة من بلاد الإسلام في عهد الدولة الأموية، فكانت في كل مرة تخمد نيرانها، ويقتل أنصارها وينكل بقادتها، وكان العباسيون أثناء ذلك يتحركون بكل حذر وحيطة في إطار دعوة منظمة من أجل القضاء على الحكم الأموي.

فلما بان على الدولة الأموية الضعف والإنهاك بفعل الفتن الداخلية أعلن العباسيون الثورة على البيت الأموي والإطاحة بحكمهم سنة ١٣٢هـ، معتبرين أنفسهم المخلصين الشرعيين للمسلمين من مغتصبي السلطة، وأعلنوا أنّ قيامهم هو انتصار للشورى على الظلم والجور، وإعادة الحق المسلوب إلى أهله من آل البيت بفرعهم آل العباس وآل فاطمة.

وجعل العباسيون من الكوفة بادية الأمر مركزا للخلافة بدلاً من دمشق ثم أخذوا من مدينة السلام الواقعة على الضفة الغربية لدجلة عاصمة جديدة.

ورغم أنّ العباسيين قد قدّموا أنفسهم باعتبارهم الممثلين الشرعيين للأمة إلاّ أنّهم لم يسلموا بعد حين من منازعة العلويين لهم - آل فاطمة وعليّ - فما كان من العباسيين إلاّ أن نكّلوا بهم وتتبّعوا آثارهم وأعملوا فيهم سيوفهم، وسجنوا منهم الكثير^(١).

ففي خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٧هـ - ١٥٨هـ) كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب فظفر بهما المنصور فقتلها وجماعة كثيرة من آل البيت، فكان المنصور بذلك أوّل من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين.

وفي عهد المهدي (١٥٨هـ - ١٦٩هـ) استدعى موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ إلى بغداد وحبسه، ثمّ أطلق سراحه وردّه إلى المدينة.

وفي خلافة موسى الهادي (١٦٩هـ - ١٧٠هـ) ظهر الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ فاجتمع عليه كثير وباعوه فحاربه العباسيون وقتلوه مع كثير من رفقائه وأهل بيته.

وفي أيام هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) ظهر يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ وباعه خلق كثير سنة ١٧٦هـ فما زال الرشيد يتعقّبه حتى ظفر به فسجنه حتى مات، واستدعى موسى الكاظم بن جعفر الصادق فسجنه وأطال سجنه حتى توفي سنة ١٨٣هـ.

ورغم هذا التنكيل وشدة الطلب لهم من العباسيين فإنّ ذلك لم يمنع من انتشار دعوتهم واستئثار التشييع بالطرف الأكبر من المعارضة، ذلك أنّ الخوارج قد ضعف أمرهم واضمحلت قوتهم ولم تبق منهم إلاّ فرق مشتتة كلّما رفعوا راية الخروج على السلطة أعمل فيهم العباسيون سيوفهم.

وعلى رأس المائتين للهجرة كانت الدولة الإسلامية قد بلغت أعلى

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/٨٦ - ٨٧ و١٦٧

و١٨٣، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٨ - ٤٧.

درجات الكمال، ووصل التمدّن الإسلامي إلى أوج عطائه، وقطعت دابر الفتن، وذلك في عهد المأمون (١٩٨هـ - ٢١٨هـ) الذي كان - كما يقول السيوطي - أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة، جمع الفقهاء من الآفاق وبرع في الفقه والعربية وأيام الناس وعني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها^(١).

وبحلول العقد الثاني من القرن الثالث للهجرة عرف العراق في عهد المعتصم (٢١٨هـ - ٢٢٧هـ) ثم في عهد ابنه الواثق (٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ) توافد الأتراك على العراق الذين ترقّوا في الوظائف السامية، ممّا استوجب تدخلهم في أمور الخلافة، كما امتحن في هذه الفترة الأئمة الأعلام في قضية خلق القرآن، وقاسى الناس من ذلك مشقة عظيمة وقتل من أجل ذلك خلق من العلماء^(٢).

وكنتيجة لهذه السياسة الخرقاء التي سار عليها المعتصم الذي كان عرياً من العلم، ثم من بعده الواثق عادت عوامل الضعف والتمزق لتنخر من جديد في جسم الأمة.

ورغم أنّ المتوكّل قد رفع المحنة عن الناس في قضية خلق القرآن وأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها إلا أنّ الأتراك انحرفوا عن المتوكّل لأمر رأوها فيه واتفقوا مع المنتصر على قتل أبيه^(٣).

ولا شك أنّ هذه الأحداث والتقلّبات السياسيّة قد كان لها الأثر العميق في الفقه ورجاله الذين عانوا من الظلم والقسوة أحياناً فكرهوا قصور الحكّام وانطووا على أنفسهم، وعرفوا المصالحة والموادعة أحياناً أخرى فلقوا الحظوة الكبيرة والمنزلة العليا في الدولة، وكان لآرائهم الفقهية الأثر البارز في سياسة الدولة وتنظيم شؤون الحياة.

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥ و ٣٤٠.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠.

مصادر الفقه في هذا الدور

١ - القرآن الكريم:

زاد في هذا الدور الاهتمام بحفظ القرآن وظهرت العناية بطرق آدائه، وتركزت أنظار المسلمين حول علم القراءات، لإدراكهم بأن الاهتمام بهذا العلم هو فرع من اهتمامهم بالقرآن الكريم وحفظه.

وتجردت أجيال في جميع الأقاليم الإسلامية، لضبط قراءته والعناية به أتمّ عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم^(١).

وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته حتى لعم في سماء هذا العلم عدد لا يحصى من القراء وطوائف لا تستقصى من المريرين.

فلما كانت المائة الثالثة واتسع الخرق وقلّ الضبط وكان علم الكتاب والسنّة أوفر ما كان في ذلك العصر تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) وكان بعده أحمد بن جبير بن محمد الكوفي (٢٥٨هـ) ثم قام الناس بعدهما فألفوا في القراءات أنواع التأليف^(٢).

(١) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر ٨/١ - ٩.

(٢) المصدر السابق ٣٣/١ - ٣٤.

وانتشر التأليف في تفسير القرآن انتشاراً واسعاً، ومن المفسرين الذين برزوا في هذا الدور، نذكر أبا زكرياء يحيى بن سلام القيرواني (٢٠٠هـ) وهو أول من كتب تفسيراً للقرآن من المغاربة، كان قد حرّره بالقيروان سنة ١٧٥هـ، فكان طلاب العلم يقصدونه من كل مكان لسماعه وتلقيه عنه.

ويعتبر هذا التفسير المروي عن ابن سلام أقدم تفسير بالمأثور وصل إلينا، إذ أنّ جميع التفاسير التي صنفت قبله قد ضاعت، ولكن هذه الثروة الضائعة قد احتفظ بها ابن جرير الطبري في تفسيره.

واعتنى المسلمون مع التفسير بعلم قرآنية كثيرة أفردوها بالتصنيف، تعرض ابن النديم في الفهرست الثالث من المقالة الأولى إلى ذكر الكثير منها، وهي كتب مصنفة في تفسير القرآن ومعانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وفضائله وناسخه ومنسوخه وفي أحكامه وما يتعلّق به من حيث شكله وتنقيطه^(١).

ولا يسعنا على كلّ حال أن نستقصيها، ولا هو من قصدنا في هذه اللمحة السريعة.

- ٢ - السنة النبوية:

تعرّضنا في الدور السابق إلى بيان المحاولات الأولى لتدوين السنة النبوية التي تمّت في عهد الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبدالعزيز، حيث أرسل إلى ولاته بالأمصار يطلب منهم تكليف العلماء بجمع الحديث وتدوينه، غير أنّ الموت فاجأه قبل أن يقف على أمر هذا التدوين وقوفاً كاملاً.

وفي هذا الدور الثالث تكاثر إقبال علماء الأمة على كتابة السنة وتدوين الآثار، وظهرت مصنّفات عديدة في مراكز مختلفة من العالم الإسلامي الممتدّ في فترات متقاربة جداً، ولمع أسماء العديد من الأعلام،

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٦ - ٤٠.

فكان منهم عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريح (١٥٠هـ) بمكة المكرمة، وأبو محمد بن إسحاق (١٥١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) بالمدينة، وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦هـ) والربيع بن صبيح (١٦٠هـ) وحماد بن سلمة (١٦٧هـ) بالبصرة، وسفيان الثوري (١٦١هـ) ووکیع بن الجراح (١٩٦هـ) بالكوفة، وعبدالرحمن الأوزاعي (١٥٧هـ) بالشام، ومعمربن راشد (١٥٣هـ) باليمن، وعبدالله بن المبارك (١٨١هـ) بخراسان، وهيثم بن بشير (١٨٣هـ) بواسط، والليث بن سعد (١٥٧هـ) وعبدالله بن وهب (١٩٧هـ) بمصر.

وكان جمع هؤلاء الأعلام للحديث مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، حسب الموضوعات الفقهية، ثم نشأ منهج جديد في نهاية هذه المرحلة من هذا الدور ارتأى أصحابه أفراد أحاديث الرسول بالجمع والتدوين، دون أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، فصنّفوا ما عرف بالمسانيد التي تتوزع فيها الأحاديث على أساس روايتها من الصحابة دون اعتبار للمواضيع الفقهية التي تتعلق بها.

ومتمّ صنّف على هذا المنهج الجديد في هذه المرحلة، الربيع بن حبيب الإباضي البصري (١٧٠هـ) وأبو داود سليمان بن جارود الطيالسي (٢٠٤هـ) وأسد بن موسى الأموي (٢١٢هـ) وهو أول من صنّف المسند بمصر، وعبيدالله بن موسى العبسي (٢١٣هـ) ويحيى بن عبدالحميد الحماني (٢٢٨هـ) وهو أول من صنّف المسند بالكوفة، ونعيم بن حماد الخزاعي (٢٢٨هـ) بمصر.

واقتفى آثار هؤلاء الأعلام أئمة آخرون أمثال إسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ويعتبر مسنده أوفى تلك المسانيد وأوسعها.

وبجانب هذين النهجين في تصنيف الحديث بدأ في نهاية هذا الدور ينتشر منهج ثالث تتوزع فيه الأحاديث على الموضوعات، وأول من صنّف على هذا المنهج عبدالله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٩هـ) الذي تفرّد - كما قيل فيه - بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف.

وفي هذا العصر أخذ المحدثون يعرضون رِوَاة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة الأمر الذي أدى إلى ظهور فنّ به يتميّز الحديث الصحيح من السقيم، وهو علم ميزان الرجال أو علم الجرح والتعديل.

ولمّا كان آخر هذا الدور طالعتنا مصنفات في علم تاريخ الرواة تناول فيها أصحابها أحوال الرواة، وأشهر من بدأ التصنيف في هذا الميدان محمد بن سعد (٢٣٠هـ) صاحب كتاب الطبقات، وخليفة بن خياط العصفري (٢٤٠هـ) في كتابه طبقات الرواة.

ومن العلوم التي نشأت حول الحديث في هذا الدور، علم غريب الحديث وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة، وتلك هي إحدى الخطوات الهامة في فهم الحديث واستنباط الحكم منه، ومن أهم ما صنف في هذا المجال كتاب غريب الحديث لابن سلام (٢٢٤هـ).

ومن العلوم التي نشأت لهذا العصر حول الحديث أيضاً، علم علل الحديث ومن أقدم ما وصلنا من مؤلفات هذا العلم كتاب التاريخ والعلل ل يحيى بن معين (٢٣٣هـ) وكتاب علل الحديث للإمام (٢٤١هـ).

وهكذا أقبل العلماء على جمع الحديث وخدمته وصيانته حتى أصبح المحور الذي يدور عليه النشاط العلمي في جميع المراكز الإسلامية، خاصة وأن العلوم الإسلامية قد نشأت تحت ظلال الحديث النبوي لالتصاقه بآثار الصحابة وفتاوى التابعين في كلّ ما يتعلّق بالتشريع والفقه وتفسير القرآن، لا يكاد ينفكّ عنها، ولذلك لم يكن يسلم لأحد في هذا العصر بالاجتهاد إلا إذا كان من العارفين بالحديث مشهوراً في الوقت نفسه بالفقه وجودة النظر فيه.

ولم ينته هذا الدور حتى صارت السنّة النبوية الشريفة علماً مستقلاً نشأت حوله علوم كثيرة، مثل علم غريب الحديث، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه، وعلم علل الحديث، وعلم مختلف الحديث ومشكله، وعلم تاريخ الرواة، وغيرها من العلوم التي خدمت السنّة النبوية ومحصت

مادتها ونفت عنها الزيف والتدليس^(١).

- ٣ - الاجتهاد:

رأينا في الدور السابق كيف استقرّ علماء الصحابة في الأقطار المختلفة، وكيف التفّ حول كلّ طائفة منهم جماعة من التابعين الذين انطبَعوا بطابعهم وساروا على نهجهم، ثمّ حملوا لواء العلم والاجتهاد من بعدهم، فكان لكلّ علم من أعلام تلك الأقطار اجتهادات وفتاوى كغيره من الأعلام الذين كانوا في نفس ذلك القطر، أو كانوا في أقطار أخرى.

غير أنّ هذا الاختلاف بين اجتهاداتهم، والفرق بين مناهجهم إنّما ظهر في التفاوت في مدى استعمال الرأي والأثر، فأهل العراق مثلاً وإن كانوا قد استندوا إلى الحديث والأثر والعمل به، فإنّهم قد أعطوا للرأي حظاً أوفر، وأمّا أهل الحجاز فإنّهم وإن كانوا قد التجؤوا إلى استعمال الرأي واعتمدوا عليه، فإنّهم قد أعطوا للأثر النصيب الأوفر، فانقسموا تبعاً لذلك في نظر أنفسهم، وفي نظر الناس إليهم إلى أهل الرأي وأهل الأثر^(٢).

فلَمّا جاء الجيل الثالث الذي هو جيل تابعي التابعين، فإنّهم تكوّنوا بين يدي فقهاء التابعين كما تكوّن فقهاء التابعين بين يدي فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، فكان هذا التكوّن تكوّنًا بالسليقة والانطباع والملكة وكان الاختلاف المتسلسل من الجيل الأوّل - جيل الصحابة - والثاني - جيل التابعين - ومن الثالث - جيل تابعي التابعين - اختلافاً، وإن لم يكن كاشفاً عن اختلاف الأدلّة، وعلى اختلاف التقديرات، إلّا أنّه يوميء إلى ذلك الاختلاف ويشير إليه.

فالأحكام التي هي فروع لم تختلف طبعاً إلّا باختلاف الأصول التي

(١) عجاج الخطيب: أصول الحديث ص ٢٥٣ - ٢٩٦.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٨، الملل والنحل للشهرستاني ٤٥/٢.

استندت إليها، ولذلك فإنّ هذا الجيل الثالث التفتوا إلى استقراء صور الاجتهاد كما التفت علماء العربيّة إلى استقراء أساليب بناء الكلام العربي يستخرجون منه بالمقارنة أصولاً إجمالية أو أدلة عامّة، هي عبارة عن القواعد التي أصبحت أدلة الفقه الاجماليّة^(١).

ورغم أنّ مصادر التشريع والأصول التي اعتبرت أدلة الفقه المتفق عليها في الدور السابق هي: القرآن الكريم والسنة النبويّة والإجماع والاجتهاد بالرأي الذي تبلور فيما بعد ليصبح القياس.

ورغم الاتفاق بين علماء أهل السنة في هذا الدور على أنّ الأصول والأحكام تعود إلى تلك الأدلة الأربعة فإنّا نراهم يختلفون في التقدير الجزئي لكل دليل من هذه الأدلة المتفق عليها بمعنى الكلمة^(٢).

فمع الاتفاق على أنّ القرآن دليل للأحكام الشرعيّة، فقد اختلف الفقهاء في أنّ الكتاب يكون دليلاً في منطوقه ومفهومه معاً، أو يكون دليلاً بمنطوقه فقط - وهم الذين عطلوا المفاهيم -.

ثمّ اختلفوا في صيغة الأمر - مثلاً - هل تقتضي الوجوب، أو تقتضي الندب، فكان ذلك خلافاً تفصيلياً في أصل وقع الاتفاق عليه كلياً، ولكن اختلف في تطبيقه التفصيلي على مسالك الاستدلال به على الأحكام. وبعد الاتفاق على أنّ السنة دليل من أدلة الأحكام اختلفت طرائق الفقهاء في خبر الآحاد، فمنهم من ذهب إلى أنّه يفيد اليقين، ومنهم من ذهب إلى أنّه لا يفيد إلاّ الظنّ.

كما اختلفوا في كون الأصل في الرواة العدالة أم لا؟ وبني على ذلك اختلافهم في قبول رواية مستور الحال.

واختلفوا في حجّيّة الحديث المرسل، فأقرّ البعض بحجّيّته وأنكر حجّيّته الأغلبية.

(١) محاضرات ص ٥٦.

(٢) محاضرات ص ٥٨ - ٥٩.

واختلفوا في كون مخالفة مذهب الصحابي لمرويه، تقدر في دلالة المروي، أو لا تقدر.

ثم بعد اتفاقهم على أنّ الإجماع دليل على الكلية، اختلفوا في كون الإجماع خاصاً بفقهاء الصحابة، أو هو عاماً للفقهاء في كل عصر من العصور.

واختلفوا في كون الإجماع يشمل الإجماع القولي، والإجماع السكوتي، أو هو قاصر على النوع الأول دون الثاني.

ثم بعد اتفاقهم على أنّ القياس دليل من أدلة الأحكام المعتمدة، اختلفوا في أنّ القياس يكون حجة سواء أكان من القياس الجلي، أو من القياس الخفي على حدّ سواء، أو هو مقتصر على معنى القياس الجلي.

أما أئمة المذهب الشيعي فلم يعتمدوا على غير الأصلين الأولين، اللذين هما: القرآن والسنة، وذلك في جميع مراحل نموّ الفقه وتطوره^(١).

وإلى جانب هذه المصادر الأربعة، أصل الأئمة مجموعة من الأصول الخاصة التي اختلفوا فيها^(٢)، وهي أصول تابعة ومكمّلة للأصول القطعية، لا على معنى النقص في القرآن والسنة، وإنما على معنى أنّها تساعد المجتهد في تكميل طرق الفهم والاستنباط.

ومن هذه الأصول:

* الاستحسان:

يراه معتبراً في الأحكام مالك وأبو حنيفة، وهو مذهب أحمد، وقال

(١) تاريخ الفقه الجعفري ص ١٧٢.

(٢) سماها الغزالي في المستصفى بالأصول الموهومة في مقابلة الأخرى التي سماها بالأصول القطعية، وعقد لها ابن الحاجب وتابعوه من أمثال تاج الدين السبكي، باباً تابعاً للأبواب الأربعة سمّوه كتاب الاستدلال.

مالك: تسعة أعشار العلم الاستحسان، بخلاف الشافعي فإنه منكر له جداً حتى قال: من استحسن فقد شرع^(١)، وخصّص فصلاً في كتابه الأم لإقامة البرهان على إبطال الاستحسان وقال في الرسالة: وإنما الاستحسان تلذذ^(٢)، والمعروف عن الشيعة أنهم من نفاة الاستحسان^(٣).

* المصلحة المرسلة:

ذهب الإمام مالك إلى اعتبارها، وبنى الأحكام عليها على الإطلاق، واسترسل فيها استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحية، مع مراعاة مقصود الشارع أن لا يخرج عنه ولا يناقض أصلاً من أصوله، حتى لقد استشنع العلماء كثيراً من وجوه استرساله زاعمين أنه خلع الريقة، وفتح باب التشريع^(٤)، وإلى إثباتها والأخذ بها ذهب كذلك الشافعي^(٥)، وخالف في هذا الأصل الإمام أحمد بن حنبل، والشيعة^(٦).

* عمل أهل المدينة:

هو أصل قال به الإمام مالك انفراداً، وهذا الدليل هو من أمهات مسائل مذهب مالك، وخالفه في هذا الأصل جمهور الفقهاء، وشنع عليه

(١) انظر: الشاطبي: الاعتصام ص ٣٨١ - تهذيب شرح الأسنوي ١٩٥/٣ - ابن قدامة المقدسي: روضة الناظر ص ١٤٧ - ١٤٨ - الأمدى: الإحكام في أصول الأحكام ٢٠٩/٤ - الغزالي: المنحول ص ٣٧٤ والمستصفي ٢٧٤/١ - ابن رشيقي: لباب المحصول ٤٤٨/٢ - ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ١٩٢/٥.

(٢) الرسالة ص ٥٠٧.

(٣) محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٣٦٣.

(٤) الشاطبي: الاعتصام ص ٣٦١ و ٣٧٧.

(٥) الشاطبي: الموافقات ٣٩/١، الزنجاني: تخريج الفروع على الأصول ص ٢٧٨، الغزالي: المنحول ص ٣٥٧.

(٦) ابن قدامة: روضة الناظر ص ١٥٠، محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٤٠٤.

البعض في اعتماد هذا الدليل^(١).

وقد اعتبر الإمام مالك عمل أهل المدينة - كما يقول الشيخ الفاضل بن عاشور - اعتبار البيئة الأصلية لتصوّر الأحداث التي تعتبر أدلة للفروع الفقهية، وعلى ذلك فرّق الإمام مالك كما فرّق كثير من أصحابه بين معنى السنة ومعنى الأثر.

فالسنة بهذا المعنى هي التي تتجلى في عمل أهل المدينة، وهي ليست بمعنى المصطلح عند علماء الأصول وعلماء الحديث الذي هو عبارة عن الخبر الراجع إلى قول أو فعل أو إقرار من لدن النبي ﷺ، وإنما هي عبارة عن ذلك الأمر المسترسل المنقول جماعة عن جماعة في البيئة التي تعتبر أقرب البيئات الإسلامية لتمثيل البيئة النبوية التي نزل فيها الوحي على الصورة التي كانت عليها.

وهذا المعنى لا يتضح إلا بالطول والاستمرار والتسلسل غير المنقطع، وهذه أمور لا يمكن أن تتوقّف في البيئات والمراكز الفقهية الأخرى، ولا يمكن أن تتصوّر إلا في عمل أهل المدينة، أي فيما اتفق عليه فقهاؤها، وهم الفقهاء السبعة من التابعين ونظرانهم السبعة الذين قال مالك فيهم: إنّ هؤلاء الأربعة عشر من فقهاء التابعين هم أفقه أهل زمانهم وأعرفهم بالحلال والحرام^(٢).

* مذهب الصحابي:

روي أنّه حجّة يقدّم على القياس ويخصّ به العموم، وهو قول مالك

(١) حسن المشاط: الجواهر الثمينة ص ٢٠٨، روضة الناظر ص ١٢٦، الإحكام لابن حزم ٥٨٤/٤ - ٤٨٥، الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٨٢، محمد المدني: المسائل التي بناها الإمام مالك على عمل أهل المدينة ٦٦/١ وما بعدها، ابن رشيقي: لباب المحصول ٤٠٣/١ وما بعدها، شعبان: تهذيب شرح الإسني ٢٦٤/٢.

(٢) محاضرات ص ٣٨٤.

وأبي حنيفة والشافعي في القديم، وبه قال أحمد، وروي ما يدلّ على أنّه ليس بحجّة وبه قال الشافعي في الجديد، وأحمد في رواية ثانية، ونهض الشيعة إلى عدم إثباته^(١).

* سدّ الذرائع:

أخذ بها الإمام مالك وحكّمها في أكثر أبواب الفقه، وبها قال أحمد، وأمّا الشافعي فالظنّ به أنّه تمّ له الاستقراء في سدّ الذرائع على العموم، وأمّا أبو حنيفة وإن كان قد ثبت عنه جواز إعمال الحيل فلا يلزم من ذلك تركه لأصل سدّ الذرائع، وقد نقل عنه موافقة الإمام مالك في سدّ الذرائع في مسائل، ونقل عن الشيعة العمل به^(٢).

ومن الأصول التبعيّة أيضاً الاستصحاب والعرف وشرع من قبلنا، وهي أدلّة اختلف في الاحتجاج بها فرأى بعض الأئمّة الاعتماد عليها، في حين رأى البعض الآخر أنّها غير صالحة للاستدلال بها.

وقد ظهر هذا المعنى من الاختلاف في آثارهم التي صدرت عنهم في عصرهم، فابتدأوا يذكرون أدلّة طرق الاستدلال، ويتناقشون فيها.

وبين أيدينا من ذلك مناقشات استدلالية بين الأئمّة هي وثائق هامة تقيم الدليل على ما امتازت به هذه المرحلة من هذا الدور الفقهي، نذكر منها:

*/ رسالة مالك بن أنس إلى الليث بن سعد:

هي وثيقة علميّة رائعة، وأنموذج للنقد الأدبي، لم نر في أدب

(١) روضة الناظر ص ١٤٥، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢٠١/٤، القرافي: شرح تنقيح الفصول ص ٤٤٥، إرشاد الفحول ص ٢٤٣، الرسالة للشافعي ص ٥٩٧، الزنجاني: تخريج الفروع على الأصول ص ١٦١، محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٤٤٢.

(٢) الموافقات ٣/٣٠٥ - ٣٠٦ و٤/١٩٨، الجواهر الثمينة في بيان أدلّة عالم المدينة ص ٢٢٥، الأصول العامة للفقه المقارن ص ٤١٤.

الاختلاف أرقى منه أدبا ونبلا، تتعلّق بمناقشة استدلالية فيما يعود إلى حجّية عمل أهل المدينة، ينصح فيها الإمام مالك معاصره فقيه مصر وعالمها الليث بن سعد بضرورة الأخذ بعمل أهل المدينة، ويدعوه إلى عدم مخالفتهم في ذلك، ونصّها:

«من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليكم، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد عصمنا الله وإياك بطاعته في السرّ والعلانية وعافانا وإياك من كلّ مكروه، اعلم رحمك الله أنّه قد بلغني أنّك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وبلدنا الذي نحن فيه وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإنّ الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية^(١)، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٢) فإنّما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحلّ الحلال وحرّم الحرام إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسنّ لهم فيتبعونه، حتّى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثمّ قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممّن وليّ الأمر من بعده فما نزل بهم ممّا علموا أنفذه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثمّ أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحدثا عهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره.

ثمّ كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافة للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادّعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من

(١) سورة التوبة - الآية ١٠٠.

(٢) سورة الزمر - الآية ١٧ - ١٨.

مضى منا لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك واعلم أنني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده، والنظر لك والظن بك، فأنزل كتابي منك منزلته، فإنك إن فعلت تعلم أنني لم ألك نصحا.

وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ لَطَاعَتِهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»^(١).

*/ جواب الليث بن سعد عن رسالة مالك بن أنس:

عرض الليث بن سعد في رده على هذه الرسالة وجهة نظره وأجاب الإمام مالك عن كثير مما ذهب إليه وخالفه فيه، مستشهداً بوقائع كثيرة، ورغم طول هذا الرد فإن كتابنا ليشرّف بإثباته على وجهه كاملاً، لنضع بين أعيننا وفي قلوبنا هذا المثال الرائع والسامي في أدب الخلاف والنقد من جهة ولتقييم الدليل من جهة ثانية على ما وصل إليه الأئمة في هذا العصر من ذكر لأدلة طرق الاستدلال والبرهنة عليها، وهذا نصّه:

«سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرّني، فأدام الله ذلك لكم وأتمّه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا فجزاك الله عمّا قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنّه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وآته لم

(١) ترتيب المدارك ١/٦٤ - ٦٥.

يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً إلا لآتي لم أذكرك مثل هذا، وأنه بلغك آتي أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وآتي يحق عليّ الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع متي بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه متي، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعاً لهم فيه فكما ذكرت، وأما ما ذكرت من قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ قَبْلِ يَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْكُتُبِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ يَوْمِ الْكُتُبِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجددوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموا شيئاً علموه، وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمراً فسر القرآن أو عمل به النبي ﷺ أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا آتي قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها

إليك، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ، سعيد ابن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت، وسمعت قولك فيه وقول ذوي الرأي من أهل المدينة يحيى بن سعيد وعبيد الله بن عمر وكثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسنّ منه حتى اضطرّك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت، تكرهان منه ما أكرهه ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير وعقل أصيل ولسان بليغ وفضل مستبين وطريقة حسنة في الإسلام ومودة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فرّبما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه.

وقد عرفت أيضاً عيب إنكاري إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله لم يجمع منهم إمام قطّ في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل، وقد بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قال: «أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(١)، وقال: يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة^(٢)، وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح، وكان أبو ذرّ بمصر والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، وبحمص سبعون من أهل بدر،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، المقدمة.

(٢) الرتوة: الخطوة، والحديث أخرجه أحمد في مسنده بلفظ: يحشر يوم القيامة بين يدي العلماء بنذة.

وبأجناد المسلمين كلّها وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن حصين ونزلها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجتة سنين، وكان معه من أصحاب رسول الله ﷺ فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قطّ.

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحقّ، وقد عرفت أنّه لم يزل يقضى بالمدينة به، ولم يقض به أصحاب رسول الله ﷺ بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، ثمّ وليّ عمر بن عبدالعزيز وكان كما علمت في إحياء السنن والجدّ في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس، فكتب إليه رزيق ابن الحكم: إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحقّ، فكتب عمر بن عبدالعزيز: إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلاّ بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين، ولم يجمع بين العشاء والمغرب قطّ ليلة المطر، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بخناصرة ساكنا.

ومن ذلك أنّ أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنّها متى شاءت أن تتكلّم في مؤخّر صداقها تكلمت فدفعت إليها، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك وأهل الشام وأهل مصر، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخّر إلاّ أن يفرّق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقّها.

ومن ذلك قولهم في الإيلاء: إنّه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف وإن مرّت أربعة أشهر، وقد حدّثني نافع عن عبدالله بن عمر - وهو الذي كان يروى عنه ذلك التوقيف بعد الأشهر - أنّه كان يقول في الإيلاء الذي ذكر الله في كتابه: لا يحلّ للمولى إذا بلغ الأجل إلاّ أن يفيء كما أمر الله أو يعزم الطلاق، وأنتم تقولون: إن لبث بعد أربعة الأشهر التي سمى الله في كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق، وقد بلغنا أنّ عثمان بن عفان

وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قالوا في الإيلاء: إذا مضت أربعة الأشهر فهي تطليقة بائنة، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب: إذا مضت أربعة الأشهر فهي تطليقة، وله الرجعة في العدة.

ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول: إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهي تطليقة، وإن طلقت نفسها ثلاثاً فهي تطليقة، وقضى بذلك عبدالملك بن مروان، وكان ربيعة بن عبدالرحمن يقوله، وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة، وإن طلقت نفسها ثلاثاً بانت منه ولم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها، إلا أن يردّ عليها في مجلسه فيقول: إنما ملكتك واحدة، فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته.

ومن ذلك أن عبدالله بن مسعود كان يقول: أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات، وكان ربيعة يقول ذلك، وإن تزوجت المرأة الحرّة عبداً فاشترته فمثل ذلك.

وقد بلغنا عنكم شيئاً من الفتيا مستكراً، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي، فتخوّفت أن تكون استثقلت ذلك، فتركت الكتاب إليك في شيء مما أنكره وفيما أوردت فيه على رأيك، وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي - حين أراد أن يستسقي - أن يقدم الصلاة قبل الخطبة، فأعظمت ذلك، لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداءه ثم نزل فصلى، وقد استسقى عمر بن عبدالعزيز وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما، فكلّهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة، فاستهتر الناس كلّهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه.

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول في الخليطين في المال: إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة، وفي

كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة ويترددان بالسوية، وقد كان ذلك يعمل به في ولاية عمر بن عبدالعزيز قبلكم وغيره، والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره.

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول: إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها أو أنفق المشتري طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً أو أنفق المشتري منها شيئاً فليست بعينها.

ومن ذلك أنك تذكر أن النبي ﷺ لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث، والأمة كلها على هذا الحديث، أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل إفريقية، لا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغي لك - وإن كنت سمعته من رجل مرضي - أن تخالف الأمة أجمعين.

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استثناسي بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيتي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك، فإنني أسرّ بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك ورحمة الله^(١).

*/ مناظرة بين أبي حنيفة والأوزاعي:

اجتمع أبو حنيفة مع الأوزاعي بمكة في دار الخياطين، فقال الأوزاعي: مالكم لا ترفعون الأيدي عند الركوع والرفع منه، فقال لأجل أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شيء - أي مما يجب العمل به بأن لا

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٨٣/٣ - ٨٨.

يكون له معارض أرجح منه أطلق لأنه أدعى إلى إلزام الخصم - فقال الأوزاعي: كيف لم يصح، وقد حدّثني الزهري عن سالم عن أبيه - أي ابن عمر - أنّ رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وعند الركوع، وعند الرفع منه، فقال أبو حنيفة: حدّثنا حمّاد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبدالله بن مسعود أنّ النبي ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ثم لا يعود، فقال الأوزاعي: أحذّثك عن الزهري عن سالم عن أبيه، وتقول حدّثني حمّاد عن إبراهيم، فقال أبو حنيفة: كان حمّاد أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر في الفقه وإن كانت لابن عمر صحبة، وإن كان له فضل صحبته فالأسود له فضل كثير، وعبدالله هو عبدالله^(١).

فأبو حنيفة اختار الترجيح بالفقه، فرجّح بفقهِ الرواة، في حين أنّ الأوزاعي اختار علوّ الإسناد فرجّح به.

*/ مناظرة بين الشافعي ومن يرى حرمة المصاهرة بالزنا:

تناظر الإمام الشافعي هو وبعض العراقيين في مسألة المصاهرة بالزنا، فقال الشافعي: الزنا لا يحرم الحلال، وقال به ابن عباس، قال الشافعي: لأنّ الحرام ضدّ الحلال، ولا يقاس شيء على ضده، فقال لي قائل: ما تقول لو قبلت امرأة الرجل ابنه بشهوة حرّمت على زوجها أبداً، فقلت: لم قلت ذا والله تعالى إنّما حرّم أمّهات نسائكم ونحو هذا بالنكاح، فلم يجز أن يقاس الحرام بالحلال؟ فقال: أجد جماعاً وجماعاً قلت: جماعاً حمدت به وأحصنت، وجماعاً رجمت به، أحدهما نقمة والآخر نعمة وجعله الله نسباً وصهرأ وأوجب به حقوقاً وجعلك محرماً لأمّ امرأتك وابنتها تسافر بهما، وجعل على الزنا نقمة في الدنيا بالحدّ وفي الآخرة بالنار إلا أن يعفو الله، فتقيس الحرام الذي هو نقمة على الحلال الذي هو نعمة؟ وقلت له: فلو قال لك وجدت المطلقة ثلاثاً تحلّ بجماع زوج وإصابة فأحلّها

(١) القاري: شرح نخبة الفكر ص ٥٩.

بالزنا لأنه جماع كجماع، قال: إذا أخطأ لأن الله تعالى أحلها بنكاح زوج، قلت: وكذلك ما حرّم الله في كتابه بنكاح زوج وإصابة زوج، قال: أفيكون شيء يحرمه الحلال ولا يحرمه الحرام أقول به؟ قلت: نعم، ينكح أربعاً فيحرم عليه أن ينكح من النساء خامسة، أفيحرم عليه إذا زنا بأربع، شيء من النساء؟ قال: لا يمنعه الحرام ممّا يمنعه الحلال قال: فقد تترتد فتحرم على زوجها، قلت: نعم وعلى جميع الخلق وأقتلها وأجعل مالها فيئا، قال: فقد نجد الحرام يحرم الحلال، قلت: أما في مثل ما اختلفنا فيه من أمر النساء، فلا^(١).

هذا، وقد انتصب الشافعي يوضح منهجه الواضح فيما سلكه هو خلافاً لغيره من الاستدلال، ووضح ذلك خاصة في الأوضاع القيمة التي أدرجها في كتابه العظيم الجامع كتاب «الأم»، فقد عقد كتاباً مندرجاً في جملة هذا الكتاب هي كتاب «جماع العلم» وكتاب «إبطال الاستحسان» وكتاب «اختلاف مالك والشافعي» وكتاب «الردّ على محمد بن الحسن» فأقام في كتاب «جماع العلم» مناقشة للذين لا يقولون بحجية الخبر، وناقش في كتاب «إبطال الاستحسان» أهل العراق، وأوضح في كتاب «اختلاف مالك والشافعي» مخالفة مالك لأحاديث رواها الشافعي عنه، لأنه عارضها بعمل أهل المدينة أو عارضها بالمصالح المرسلة، وبين في كتاب «الردّ على محمد بن الحسن» مخالفة محمد لأحاديث رواها عنه الشافعي مع أنه لم يقل بها بناء على أنه قدّم عليها بطريقة الترجيح أو بطريقة المعارضة بدليل آخر مثل الاستحسان.

وهكذا أقام الشافعي مناقشات بين الطرق المختلف فيها، وناقشها على طريقته^(٢).

*/ وانتصب كذلك أبو يوسف - صاحب أبي حنيفة - يوضح منهج

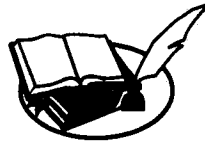
(١) إعلام الموقعين ٣/٢٤٤.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٦٠ - ٦١.

أستأذه فيما سلكه خلافاً لغيره من الاستدلال، ووضّح ذلك في الكتب التي دوّن فيها آراء أبي حنيفة ورواياته، فكتب أبو يوسف كتاب اختلاف ابن أبي ليلى، وهو كتاب جمع فيه مواضع الخلاف بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى (١٤٨هـ) - قاضي المنصور - وكان بينهما خلاف شديد، وفي هذا الكتاب انتصر أبو يوسف لآراء أبي حنيفة.

وكتب كتاب الردّ على سير الأوزاعي، وهو كتاب قيّم بيّن فيه اختلاف الأوزاعي في العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال الحرب وما يتبع في الجهاد، وفيه نقد الأوزاعي وانتصر لآراء فقهاء العراق.

وكثير من تلك المناقشات والمناظرات الدقيقة قد حفلت بها كتب التراجم والتاريخ ونحوها، ولا يكاد الناظر فيها يفتقد تلك الروح العلميّة المتّسمة بالنقد الرصين والاستدلال الوجيه القائم على أساس الحجّة والبرهان في أدب نبيل وسلوك راق، وهي وثائق قيّمة تبرهن على الأمر الذي امتاز به هذا العصر الذي اصطلحنا على تسميته بعصر استقرار المذاهب.



تسلسل الحلقة العلمية في مجال التشريع والفقه

بقيت الحركة الاجتهادية في الحجاز في هذا الدور في نمو، وكان أكثر اعتماد أهلها على الحديث والأثر، والفتيا المبنية على القرآن والسنة. ففي مكة ظلّ الفقهاء يتلقون العلم طبقة عن طبقة حتى وصل إلى أعلام هذا العصر، وكان منهم:

عبدالمك بن عبدالعزيز بن جريج (١٥٠هـ) فقيه الحرم المكي وأحد أوعية العلم، وكان قد رأى عددا من صغار الصحابة وجالس عمرو بن دينار بعد ما فرغ من عطاء بن أبي رباح سبع سنين، وله كتاب السنن يحتوي على أبواب شتى من مسائل الفقه^(١).

وممن تلقى عن ابن جريج الإمام الأوزاعي (١٥٧هـ) وسفيان بن عيينة (١٩٨هـ) وعن سفيان تلقى العلم الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) ثم انتهى علم أهل مكة إلى الإمام الشافعي وغلب عليهم تقليده.

أما المدينة المنورة فنبغ بها:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري (١٤٣هـ) ولم يكن أفقه منه في عصره^(٢).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١، شذرات الذهب ١/٣٧٠ - ٣٧١، الفهرست ص ٢٨٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦، شذرات الذهب ١/٣٥٠.

وأبو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي (١٤٨هـ) روى عن أبيه وجدّه وطبقتهما، وهو معدود عند الإماميّة الاثني عشرية من أئمتهم الاثني عشر^(١).

وابن أبي ذئب هشام بن شعبة القرشي (١٥٩): أبو الحارث محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن الحارث، وكان يشبه بسعيد بن المسيّب وما خلفه مثله^(٢).

وابن أبي سبرة القرشي (١٦٢هـ): أبو بكر بن عبدالله بن محمد العامري المدني، وكان قد تلقى العلم عن زيد بن أسلم وغيره^(٣).

وابن أبي سلمة الماجشون (١٦٤هـ): عبدالعزيز بن عبدالله المدني الفقيه، روى عن الزهري وطبقته، وكان إماماً مفتياً صاحب حلقة، وكان من العلماء الرّبّانيين والفقهاء المنصفين^(٤).

وفي هؤلاء الثلاثة قال مالك حين سأله أبو جعفر المنصور: من بقي بالمدينة من المشيخة، فقال: يا أمير المؤمنين، ابن أبي ذئب وابن أبي سلمة وابن أبي سبرة^(٥).

وانتهى علم المدينة بعد ذلك إلى الإمام مالك.

وفي العراق انضاف إلى البصرة والكوفة مركز جديد في هذا الدور، هو مركز بغداد الذي علا نجمه وما لبث أن أصبح من أهم المراكز الفقهية بحكم كون بغداد هي عاصمة الخلافة العباسية، وأصبح التنافس بين مدن العراق الثلاثة على قدم وساق وشهدت حركة الاجتهاد بها نمواً سريعاً.

فأما الكوفة فكان من أشهر أعلامها:

- (١) شذرات الذهب ٣٦٢/١، مرآة الجنان ٣٢٥/١ - ٣٢٦.
- (٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٣٩٩/١.
- (٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٤١٣/١.
- (٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٤١٨/١ - ٤١٩.
- (٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧.

أبو شبرمة عبدالله: ابن شبرمة (١٤٤هـ) فقيه الكوفة، وما رئي كوفي أفقه منه^(١).

وابن أبي ليلى: أبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن (١٤٨هـ) قاضي الكوفة ومفتيها، تفقه بالشعبي وطبقته، وكان من أفقه أهل الدنيا، وعنه أخذ الفقه سفيان الثوري، وكان سفيان الثوري يقول: فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن شبرمة، وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة وله كتاب في الفرائض^(٢).

وسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (١٦١هـ) من أعلم الناس بالحلال والحرام، ورأس الناس في زمانه، وسيد أهل زمانه علماً وعملاً، وأمير المؤمنين في الحديث، وهو أحد الأئمة المجتهدين في الفقه ومن أصحاب المذاهب المتبوعة، وقد بقي إلى آخر القرن الرابع سفيانيون^(٣).

وإليه وإلى أبي حنيفة انتهى علم الكوفة.

وأما البصرة فممن اشتهر فيها:

أبو عون: عبدالله بن عون (١٥١هـ) شيخ البصرة وعالمها، وما كان بالعراق أعلم بالسنّة منه^(٤).

وسليمان بن المغيرة البصري (١٥٨هـ) سيد أهل البصرة وعالمها في وقته^(٥).

ثم كان بعد هؤلاء عبيدالله بن الحسن بن الحصين العنبري (١٦٨) ثم أبو سعيد (١٩٨هـ).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤، شذرات الذهب ٣٥٣/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤، شذرات الذهب ٣٧٧/١، الفهرست ص ٢٥٦.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤ - ٨٥، شذرات الذهب ٤٠٥/١ - ٤٠٦.

(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٠، شذرات الذهب ٣٧٥/١.

(٥) شذرات الذهب ٤٢١/١.

عبدالرحمن بن مهدي^(١).

وأما بغداد فممن اشتهر فيها:

أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) الإمام القارئ الحافظ اللغوي الفقيه البغدادي المجتهد، صاحب التصانيف، وكان يحسن كل علم حتى كان الإمام أحمد ينعته بالأستاذ^(٢).

وأبو ثور: إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان (٢٤٠) تفقه بالشافعي وسمع من ابن عيينة وغيره وبرع في العلم ولم يقلد أحداً، صنف فجمع في تصنيفه بين الحديث والفقه، واستعمل أولاً مذهب أهل الرأي حتى قدم الشافعي العراق وصحبه فآتبعه، وهو غير مقلد لأحد^(٣).

وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) وكان إماماً في الحديث وضروبه، وفي الفقه ودقائقه وفي الورع وغوامضه، تلقى العلم عن سفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد ووكيع بن الجراح وعبدالرحمن بن مهدي وغيرهم من الأعلام وروى عنه الشافعي والبخاري ومسلم وأبو داود وأكثر عنه في سننه^(٤).

وأبو سليمان داود بن علي بن خلف (٢٠٠هـ - ٢٧٠هـ) الفقيه الظاهري، وكان حافظاً مجتهداً، تفقه على أبي ثور وعلى إسحاق بن راهويه وغيرهما، كان من أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي ثم أصبح صاحب مذهب مستقل وتبعه جمع كثير وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وكان غزير العلم^(٥).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٠.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢، شذرات الذهب ١٥٧/٢ - ١٥٨، البداية والنهاية ٢٩١/١٠ - ٢٩٢.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢، شذرات الذهب ٢٢١/٢.

(٤) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٢/١ - ٤٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩١ - ٩٢، شذرات الذهب ٢٢٤/٢ - ٢٢٦، البداية والنهاية ٣٢٥/١٠ - ٣٤٣، الفهرست ص ٢٨٥.

(٥) طبقات الفقهاء ص ٩٢، شذرات الذهب ٣١٩/٢، البداية والنهاية ١١/٤٧، الفهرست ص ٢٧١.

وفي مصر نبغت جماعة كبيرة من الفقهاء من أمثال:

عمرو بن الحارث (١٤٨هـ) الفقيه المصري الذي حدّث عن ابن أبي مليكة وطبقته، وكان من أحفظ الناس في زمانه^(١).

ثم انتهى علم أهل مصر إلى علمين من أعلام الفقه والاجتهاد، يعود الفضل في نبوغهما إلى شيخهما يزيد بن أبي حبيب الأزدي أحد أعلام الدور السابق، وهذان العلمان هما:

الليث بن سعد بن عبدالرحمن (١٧٥هـ) شيخ الديار المصرية وعالمها، كان قد اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان الشافعي يرى أنّ الليث أفقه من مالك إلا أنّ أصحابه لم يقوموا به^(٢).

وابن لهيعة (١٧٤هـ): أبو عبدالرحمن عبدالله بن عقبة، الفقيه قاضي مصر ومسندها، الذي ولي قضاء مصر من سنة ١٥٥هـ إلى سنة ١٦٤هـ، وعليه تفقه أقرانه من أمثال سفیان الثوري والأوزاعي وشعبة وماتوا قبله^(٣).

وآل علم الشام إلى أبي عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي (١٥٧هـ) كما آل علم الحجاز إلى مالك، وكما آل علم العراق إلى أبي حنيفة، وكما آل علم مصر إلى الليث بن سعد.

وكان الأوزاعي إمام الشاميين بلا منازع، وكان رأساً في العلم والعمل، كانوا يقولون: الأوزاعي أفضل أهل زمانه وعالم الأمة، له كتاب السنن في الفقه، وكتاب المسائل في الفقه^(٤).

وكان أبو محمد سعيد بن عبدالعزيز التنوخي (١٦٧) فقيه الشام مع الأوزاعي وبعده، وكان لأهل الشام كمالك لأهل المدينة، وعلى مذهب

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، شذرات الذهب ١/٣٦٦.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، شذرات الذهب ١/٤٥٧ - ٤٥٨.

(٣) شذرات الذهب ١/٤٥٥.

(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦، شذرات الذهب ١/٣٩٣ - ٣٩٤، الفهرست ص

الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز ثبتت الفتيا بالشام^(١).

وفي خراسان ظهر أئمة أعلام منهم:

إمام المسلمين أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك (١٨١هـ) الفقيه الحافظ الزاهد، لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه، تفقه بسفيان الثوري ومالك بن أنس، وله كتاب السنن في الفقه، وكان رأسا في العلم والعقل والذكاء، حتى قيل الأئمة أربعة: سفيان الثوري ومالك وحماد بن زيد وابن المبارك^(٢).

وعالم المشرق أبو يعقوب إسحاق بن راهويه (١٦١هـ - ٢٣٨هـ) الذي جمع بين الحديث والفقه ما رؤي أحفظ منه، وكان له كتاب السنن في الفقه، وناظر الشافعي فلما عرف فضله صحبه وصار من أصحاب الشافعي^(٣)، وكان إسحاق يكبر الشافعي بعشر سنين.

وفي اليمن استمر النشاط الفقهي خصباً، وكان على رأس هذا النشاط:

معمر بن راشد الأزدي (١٥٣هـ) وهو إمام اليمن وعالمها، كان ثقة حجة ورعاً، وإليه ارتحل السفينان: الثوري وابن عيينة^(٤).

وخلفه تلميذه عبدالرزاق بن همام (٢١٣هـ) أبو بكر الصنعاني، روى عن شيخه معمر وعن ابن جريج وطبقتهما، ورحل الأئمة إليه إلى اليمن، وكان فيه تشيع ووثقه غير واحد^(٥).

وفي إفريقية التونسية نبغ أعلام من الرعيل الأول ذاع صيتهم في الفقه

(١) طبقات الفقهاء ص ٧٦ - ٧٧، شذرات الذهب ١/٤٢٧.

(٢) طبقات الفقهاء ص ٩٤، شذرات الذهب ١/٤٧٤ - ٤٧٦، الفهرست ص ٢٨٤.

(٣) طبقات الفقهاء ص ٩٤، شذرات الذهب ٢/٢١٢ - ٢١٣، البداية والنهاية ١٠/٣١٧، الفهرست ص ٢٨٦.

(٤) شذرات الذهب ١/٣٨٣.

(٥) شذرات الذهب ٢/١١١ - ١١٢، البداية والنهاية ١٠/٢٥٦.

وقوة الاستنباط، وكان من أشهرهم:

أبو كريب عبدالرحمن كريب (١٣٩هـ) قاضي القيروان^(١).

وعبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (١٦١هـ) وقد تلقى العلم عن سعيد بن يحيى الأنصاري حين قدم إلى تونس عاملاً على الصدقات من جهة عمر بن عبدالعزيز، وتلقى العلم كذلك عن جميع أعضاء البعثة العلمية الذين تصدروا الإفتاء وقادوا حركة التشريع والفقه بإفريقيّة التونسية في الدور السابق، وأخذ عنه الكثير من فضلاء أهل الشرق من أمثال سفيان الثوري وابن لهيعة وعبدالله بن المبارك، وأهل مصر وإفريقيّة والمغرب يشنون عليه^(٢).

وأما الأندلس فقد كانت الفتيا بها تدور على الغازي بن قيس الذي كان يؤدّب الناشئة قبل رحلته إلى المشرق، وقد تلقى علمه عن مالك وابن أبي ذئب وابن جريج والأوزاعي، ثم عاد إلى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهلها، وعنه تلقى العلم عبدالملك بن حبيب^(٣).

وهكذا شهدت حركة الفقه والاجتهاد بهذه المراكز المختلفة نمواً متسلسلاً، مترابط الحلقات، وانتقل العلم فيها طبقة عن طبقة حتى توج ذلك بثمرة مثلت أثراً من آثار البيئات الفقهية المتنوعة بين تلك الأقاليم.

وتلكم الثمرة هي ظهور أئمة أعلام جمعوا علم من سبقهم فأصلوا مسائلهم وقعدوا نوازلهم وضبطوا أحكامهم، في مناهج صاغوها وأصول أبدعوها، فنشأت بهم المذاهب.

هذه نبذة وجيزة وفكرة إجمالية عن تسلسل الحلقة العلمية في مجال التشريع والفقه، تلك الحلقة التي ربطت بين مجتهدي هذا العصر الذين

(١) طبقات أبي العرب ص ٢١٧، المالكي: رياض النفوس ١/١٦٨ - ١٧٢، الدبّاغ: معالم الإيمان ١/٢٢٤ - ٢٢٩.

(٢) طبقات أبي العرب ص ٩٥ وما بعدها، رياض النفوس ١/١٥٢ وما بعدها.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ص ٣٠٥، ترتيب المدارك ١/٣٤٧ - ٣٤٨.

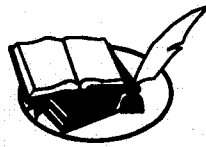
ترسّم الناس خطاهم وعملوا بمقتضى آرائهم، وبين مجتهدى الصحابة والتابعين وما نقل لهم من أقوال وآراء في كتب ومصنّفات أعلام هذا العصر.

ولكى نفصّل حركة التشريع والفقه في هذا الدور يحسن بنا أن نقسّمه إلى مرحلتين اثنتين:

مرحلة أولى: نصطلح على تسميتها بمرحلة التأسيس، وهي المرحلة التي ظهر فيها أغلب أئمة المذاهب الفقهية، الذين استخرجوا الأصول المتعلقة بطرق الاستدلال والاستنتاج، ووضعوا المبادئ الكلية والمناهج العملية التي ينبغي السير عليها في استنباط الأحكام.

مرحلة ثانية: نصطلح على تسميتها بمرحلة التفرع، وهي المرحلة التي تصدّر فيها المجتهدون من تلاميذ الأئمة لتدوين فقه أساتذتهم عن طريق الاجتهاد الفرعي على مقتضى أصول أئمتهم.

وهذا التقسيم الذي ارتأيناه إنما هو تقسيم اعتباري بحسب الحالة الغالبة على كلّ مرحلة من هاتين المرحلتين في هذا الدور، حتّى تتضح الصورة بين حالتي التأسيس والتفرع في المذهب الواحد، وإلا فإنّ واقع الحال لا يقبل هذا الفصل بين المرحلتين، ذلك أنّه في الوقت الذي نشأ فيه مثلاً مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بن أنس، ووضّح كلّ واحد منهما أصوله الاجتهادية وسار عليها في اجتهاداته، وانتسب إلى كلّ منهما أعلام اجتهدوا في فروع المذهبين، في الوقت الذي حصل هذا في المذهبين الحنفي والمالكي، نجد أنّ الأئمة أحمد بن حنبل وأبا ثور وداود بن عليّ ثمّ من بعدهم الطبري الذين جاؤوا بأخرة عن الإمامين أبي حنيفة ومالك، لم تتشكّل بعد مذاهبهم لا في أصولها ولا في فروعها.



المرحلة الأولى: مرحلة التأصيل — ظهور أئمة المذاهب الفقهية —

كان اختلاف الفقه في الدور السابق اختلاف أقوال وفتاوى، فلكل واحد من الصحابة أن يفتي بما سمعه من الرسول الأكرم ﷺ، ولكل واحد من التابعين أن يفتي بما حدّثه به الصحابي عن الرسول ﷺ، حتى أننا كنا إذا عبّرنا عن ذلك بالمذاهب فإنّما هو معنى من التسامح، فإذا قلنا مثلاً مذهب عطاء أو مذهب فقهاء المدينة، فإنّما تسامح في ذلك تسامحا، لأنّ المذهب الذي له قواعد واضحة وأصول مقرّرة لم يكن موجودا في ذلك الوقت^(١)، وإنّما الذي كان موجوداً آنذاك هي الأقوال والفتاوى التي كان فقهاء الصحابة والتابعين يفتون بها بحسب ما ثبت عندهم من أحاديث رسول الله ﷺ من ناحية، وبحسب اختلافهم في فهم النصوص وما يؤدّيه إليه اجتهادهم في ذلك من ناحية ثانية، إذ لم يكونوا على درجة واحدة في العلم والحفظ، ولا على نمط واحد في الاجتهاد والنظر، ولا على طراز واحد في الفهم والاستنباط.

فلما اتّجه فقهاء هذا الجيل إلى وضع الأصول، فإنّ هذا الذي يعلّل لنا أنّ المجتهدين الذين استقرّت بهم المذاهب بمعناها المعروف، هم الذين كان كلّ واحد منهم يعتبر ثمرة لمصر من الأمصار وأثرا من آثار البيئات الفقهية المتوزّعة بين تلك الأمصار، فظهر مالك بن أنس للمدينة، وظهر

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٧.

الشافعي لمكة، وظهر أبو حنيفة وسفيان الثوري للعراق، وظهر الأوزاعي للشام، وظهر الليث بن سعد لمصر.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الستة الذين هم فقهاء الأمصار الكبار الذين طبعت مذاهبهم، ودوّنت وسار الناس عليها فيما بعد، إذا أضفنا إلى هؤلاء اثنين - ممتن دوّنت مذاهبهم في المرحلة الثانية من هذا الدور - ظهوراً في بغداد، وكان لظهورهما في العراق أثر عكسي لاتجاه الفقه العراقي - كما يعبر عنه الآن بردّ الفعل - وهما: أحمد بن حنبل وداود بن عليّ علي درجتين، فإنّ هؤلاء الأئمة الثمانية نعتبرهم آثاراً لتقرير الأحكام الشرعيّة وهما عنصر الرأي وعنصر الأثر^(١).

وكان غير هؤلاء ممتن عدّوا في هذا الدور من أصحاب المذاهب أيضاً:

سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) نزيل مكة وعالم الحجاز، وإسحاق ابن راهويه (٢٣٨هـ) عالم المشرق وإمام أهل خراسان، وأبو ثور إبراهيم بن خالد (٢٤٠هـ) أحد المجتهدين ببغداد، وغيرهم كثير ممتن كانوا على علم واسع وفقه غزير.

وجميع هذه المذاهب تنسب إلى أهل الستة الذين كانوا ولا يزالون الجمهور الأعظم من المسلمين، غير أنه لم يكتب لجميعها البقاء، فبعضها لم يتنل حظّ التدوين، وبعضها حظي بتدوين جزئي، وبعضها حظي بالتدوين وعرفت أصوله وقواعده غير أنّ القائمين على نشره ممتن يقلّدونه قد انقرضوا، فلم يبق لها وجود إلا في بطون الكتب.

وأما المذاهب التي كتب لها البقاء وظلّت قائمة إلى يوم الناس هذا، وعليها مدار الفقه والفتوى عند أهل الستة فهي أربعة مذاهب مشهورة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد.

ومن المذاهب المنسوبة كذلك إلى أئمة هذا الدور، ولا يزال لها بقاء

(١) محاضرات، بتصرف ص ٥٧.

إلى يومنا هذا، مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية الذي ينسب إلى الإمام جعفر الصادق.

ويوجد أيضاً مذهب الشيعة الزيدية الذي ينسب إلى الإمام زيد بن عليّ (١٢٢) من فقهاء الدور السابق.

كما يوجد المذهب الإباضي المنسوب إلى عبدالله بن إباض التميمي (٨٠هـ) وهو مذهب من مذاهب الخوارج يتبعه بعض سكان جربة بتونس وبعض سكان الجزائر.

وفيما يلي تفصيل ما قد أجملناه:

★ أبو حنيفة النعمان ★ (٨٠هـ/١٥٠هـ).

هو النعمان بن ثابت بن زوطي الكوفي^(١) إمام أهل الرأي وفقهيه أهل العراق غير مدافع، وأحد أئمة الإسلام، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة عند أهل السنة، ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ وبها نشأ.

عاصر الدولتين الأموية والعباسية، عاش ٥٢ سنة من حكم الأمويين، وأدرك ١٨ سنة من حكم العباسيين.

كان في أيامه أربعة من الصحابة: أنس بن مالك بالبصرة، وعبدالله بن أبي أوفى الأنصاري بالكوفة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، ولكن لم تثبت له رواية عن أحد منهم، وأدرك جماعة من التابعين كالشعبي والنخعي وعلي بن الحسين وغيرهم، ولم يأخذ عن أحد منهم وذلك أنه حين كان يطلب العلم كان يشتغل خزازا وله دار كبيرة لعمل الخبز وعنده صناع وأجراء، فلم يتفرغ للعلم وطلبه، ثم رأى بعد ذلك أن يتفرغ له.

تفقه على الحكم بن عتيبة شيخ أهل الكوفة، وبصفة خاصة على حماد بن أبي سليمان - راوية إبراهيم النخعي وعامر الشعبي -، ولازمه ثمانية عشر عاما، ينهل من فقه أهل الكوفة القائم على الإكثار من

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي: ص ٨٦، اليافعي: مرآة الجنان ١/٣٣٠ - ٣٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/١٠٧، ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٥ - ٢٥٦، ابن العماد: شذرات الذهب ١/٣٧٢، حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/٥٥٦، الحجوي: الفكر السامي ٢/٤١٠ - ٤٣٤، الملل والنحل للشهرستاني ٢/٤٦.

القياس وإعمال الرأي، فلما مات حماد جلس أبو حنيفة مجلسه بالكوفة. وأتصل بالفقه المكي عن طريق فقيه التابعين عطاء بن أبي رباح الذي كانت له الحلقة في المسجد الحرام بعد ابن عباس.

كما نهل من الفقه المدني عن طريق ابن شهاب الزهري حافظ علم الفقهاء السبعة، ونافع مولى عبدالله ابن عمر المشهور بالحديث، ومحمد بن المنكدر الحافظ القدوة، ويحيى بن سعيد الأنصاري الفقيه الحافظ.

وأصل أبو حنيفة بثلاثة من أئمة أهل البيت هم الذروة في زمانه وهم: زيد بن علي، ومحمد الباقر بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق.

فأصبح أبو حنيفة بعد ذلك صاحب غوص في المسائل، مقامه في الفقه لا يلحق، حتى قال سفيان الثوري وعبدالله بن المبارك: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه، وشهد له بذلك خصوصا مالك والشافعي الذي قال فيه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، وقال: من أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة.

كان أبو حنيفة من أورع ومن أعقل أهل زمانه، وكان من أذكى بني آدم، جمع الفقه والعبادة والورع والسخاء، وكان كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى.

توسّع أبو حنيفة في استعمال القياس والاستنباط وتجرّد لفرض المسائل وتقدير وقوعها، وكان صاحب نظر واستدلال، وكان إذا رأى رأيا يقول: علمنا هذا الرأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى ولنا ما رأينا، وربما قال: ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه.

وكان إذا ناظر أصحابه في المقاييس فرّبا انتصفوا منه وعارضوه، فإذا قال: أستحسن لم يلحقه أحد لكثرة ما يورد في الاستحسان من مسائل فيدعن له الجميع ويسلم له.

أراده يزيد بن عمر بن هبيرة - أمير بني أمية على العراقيين - للقضاء بالكوفة فامتنع حتى ضرب بالسياط على ذلك فلم يقبل، وعرض عليه الخليفة العباسي المنصور قضاء الرصافة فأبى فسجنه حتى مات في سجنه

وقيل إن المنصور سقاه السم لقيامه مع إبراهيم، فمات شهيدا وهو ابن سبعين سنة.

أوضح أبو حنيفة منهجه في الاجتهاد، فقال: إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجده في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم النخعي والشعبي وابن المسيب - وعدد منهم رجالاً - فلي أن أجتهد كما اجتهدوا.

واعتمد في استنباطه للأحكام على أصول وقواعد كلية هي: القرآن والسنة والإجماع والقياس وقول الصحابي والاستحسان والعرف وقرّر أن الأخذ به كأصل شرعي يترك به القياس، واستوعب أصحابه من بعده في مصنفاتهم الأصول الثانوية لمذهبه المستخرجة من كلامه، والتي عليه مبنى جلّ مسائله.

ومن أصول مذهبه اعتماد الحيل الشرعية المعروفة بالمخارج من المضايق، وقد عابه بعضهم على ذلك وردّ عليه البخاري كثيراً وعقد لها كتاباً في الجامع الصحيح.

وتشدّد أبو حنيفة في قبول الأحاديث في الوقت الذي توسّع فيه في استعمال القياس والرأي، فلم يقبل خبر الواحد فيما عمّت به البلوى، وقدم القياس الجليّ على خبر الواحد المعارض له، حتّى أفرط أصحاب الحديث في ذمه - كما قال ابن عبد البر - وتجاوزوا الحدّ في ذلك.

والحقيقة أن ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد إنّما كان بتأويل محتمل، وكثير منه قد تقدّمه إليه غيره وتابعه عليه مثله ممّن قال بالرأي، ولا يخلو مذهب من المذاهب من ترك العمل ببعض السنن الثابتة، وليس لأحد من علماء الأمة يثبت حديثاً عن النبي ﷺ ثم يردّه دون عذر يبيديه أو يبيديه أتباعه من بعده، كادعاء نسخ عليه بأثر مثله أو بإجماع أو بعمل يجب على أصله الانقياد إليه أو طعن في سنده.

وهذا الليث بن سعد قد أحصى على الإمام مالك سبعين مسألة رأى

أنها مخالفة للسنن مما قال مالك فيها برأيه وكتب إليه في ذلك^(١).
 وذكر ابن خلدون في المقدمة^(٢) أنه يقال أن أبا حنيفة: بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها وبيّن أن السبب في ذلك إنما يعود إلى المنهج الذي اعتمده في التشدد في شروط الرواية والتحمل، وردّ على تقول بعض المبغضين المتعسفين الذين أرجعوا قلة روايته لقلّة بضاعته في الحديث، مبيّناً: أنه لا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأنّ الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعيّن عليه طلبه وروايته والجدّ والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة الأحكام عن صاحبها المبلغ لها.

وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها، سيّما والجرح مقدّم عند الأكثر، فيؤدّيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك فتقلّ روايته لضعف في الطرق.

ثمّ قال: والإمام أبو حنيفة إنّما قلّت روايته لما تشدّد في شروط الرواية والتحمل...، ويدلّ على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره ردّاً وقبولاً.

وختم هذا الفصل بقوله: فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم - أي الأئمة الأعلام - أحقّ الناس بالظنّ الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم.

هذا، ولقد روى عن أبي حنيفة ووثقه غير واحد من أهل عصره، فكان وكيع بن الجراح - إمام أهل الكوفة في الحديث - يفتي برأي أبي حنيفة، وكان يحفظ حديثه كلّّه، وكان قد سمع من أبي حنيفة حديثاً كثيراً^(٣)، وكان الحافظ القدوة يحيى بن سعيد الأنصاري يختار قوله في الفتوى، ويقول ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وكان يحيى بن معين

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٨١/٢ - ١٨٢.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢٧.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ١٨٣.

- أحد الذين انتهت إليهم الرئاسة في الحديث في عصره - يقول: ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله^(١).

وقد صنفت حول أبي حنيفة أبحاث كثيرة في ذكر مناقبه وفضائله ناهزت الثلاثين مصنفاً.

* أشاره:

يعتقد الكثيرون أنه لم يؤثر عن أبي حنيفة كتاباً في الفقه رغم ما يقال من أنه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة، وأن كل ما أثر عنه أو نسب إليه هو مجموعة رسائل في علم الكلام، وأن تلاميذه هم الذين قاموا بتدوين مذهبه وما روي عنه من آراء فقهية.

غير أن الناظر في هذا الدور يلاحظ انتشار التأليف والمصنفات في مختلف الأقطار الإسلامية، فهذا معاصره ابن أبي ليلى قاضي الكوفة ومفتيها، وهو ممن كان يفتي بالرأي مثل أبي حنيفة، وقد توفي قبل أبي حنيفة بستين، يصنف كتاباً في الفرائض^(٢).

وهذا ابن جريج من أعلام مكة، وقد توفي في نفس السنة التي توفي فيها أبو حنيفة، يصنف كتاب السنن ويحوي باب الطهارة والصيام والصلاة والزكاة ونحو ذلك^(٣)، وهذا الإمام الأوزاعي عالم أهل الشام يصنف كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه كذلك^(٤) فضلاً عن المصنفات التي ظهرت قبل هذا، وكنا قد ألمحنا لها.

فلا يتصور وأمر الأئمة على هذا النحو في التأليف والتصنيف أن يتخلف أبو حنيفة عن ركب معاصريه وهو من هو في سعة العلم وقوة الاستدلال وحضور الحجّة والبرهان.

ومما يقوي هذا الرأي ويرجّحه أن أخباراً وردت عن بعض أعلام هذا

(١) البداية والنهاية ١٠/١٠٧.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢.

(٤) نفس المصدر ص ٢٨٤.

الدور تفيد أنه كان لأبي حنيفة تأليف كتبها بنفسه في الفقه، من ذلك ما أورده الخطيب البغدادي^(١):

* أن عبدالله بن المبارك كان يحتفظ في بيته بكتب لأبي حنيفة أخرج منها مسائل من جواد المسائل وأطلع عليها الإمام الأوزاعي، ومن هنا نفهم معنى قول عبدالله بن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة لكنت كسائر الناس.

* أن أبا مسلم المستملي سأل يزيد بن هارون: ما تقول يا أبا خالد في أبي حنيفة والنظر في كتبه؟ قال: انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا، فإني ما رأيت أحداً من الفقهاء يكره النظر في قوله.

* أن سفیان الثوري كان قد احتال في كتاب الرهن لأبي حنيفة حتى نسخته. ومن الآثار التي تنسب إليه^(٢):

* كتاب الفقه الأكبر الذي يبدأ بأصل التوحيد، ويقال إن ابنه حماد رواه عنه.

* كتاب الفقه الأبسط ويقال أن تلميذه أبا المطيع الحكم بن عبدالله بن سلمة (١٩٩هـ) رواه عنه.

* الضوابط الثلاثة: وهو كتاب في الفقه.

* رسالة في الفرائض: وقد كتب معاصروه رسائل في هذا الفن.

* كتاب العالم والمتعلم: رواه عنه تلميذه أبو مقاتل حفص بن سلم السمرقندي (٢٠٨هـ).

* أربع وصايا: وصية في أصول الإسلام توجد في روايتين وبينهما بعض الاختلافات، وصية إلى ابنه حماد، وصية إلى تلميذه يوسف بن خالد

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٣٨/١٣ و٣٤٢ و٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ٣٧/٣ - ٥٠.

السَّمْتِي البصري، وصيّة إلى تلميذه أبي يوسف.

* رسالتان إلى عثمان بن سليمان البتي (١٤٣هـ).

* مخاطبة مع جعفر بن محمد بن أحمد الرضا (١٤٨هـ).

* مسند أبي حنيفة برواية برواية أبي يوسف، ورواه بعده ابنه يوسف، وكذلك برواية الحسن بن زياد اللؤلؤي (٢٠٤هـ).

وذكر ابن حجر أنّ هذا المسند ليس من جمع أبي حنيفة وأنّ الموجود من حديث أبي حنيفة إنّما هو كتاب الآثار التي رواها محمد بن الحسن عنه، وقد اعتنى في القرن الرابع الهجري الحافظ أبو محمد الحارثي بحديث أبي حنيفة فجمعه ورتبه على شيوخ أبي حنيفة، وخرّج منه الأحاديث المرفوعة الحافظ أبو بكر بن المقرئ^(١).

وذكر أبو المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي (٦٦٥هـ) أنّه كان في أهل الشام بعض الجاهلين بمقدار الإمام الأعظم أبي حنيفة ينسبونه إلى قلة رواية الحديث ويزعمون أنّه ليس لأبي حنيفة مسند وآته كان لا يروي إلّا عدّة أحاديث، فقام أبو المؤيد بجمع خمسة عشر من مسانيد أبي حنيفة التي جمعها له.

فحول علماء الحديث، ورتبها على أبواب الفقه بحذف المعاد وترك تكرير الإسناد^(٢).

وقد وقف الإمام الحجوي في الفتوحات الإلهية لابن عبد الله العلوي فيما انتقاه من مسانيد الأئمة الأربعة على ترجمة الأحاديث التي انفرد بها أبو حنيفة فكانت ٢١٥ حديثاً دون ما اشترك في إخراجه هو مع بقية الأئمة^(٣).

وبهذا يتضح أنّ ما قيل عن أبي حنيفة من أنّ روايته بلغت إلى سبعة

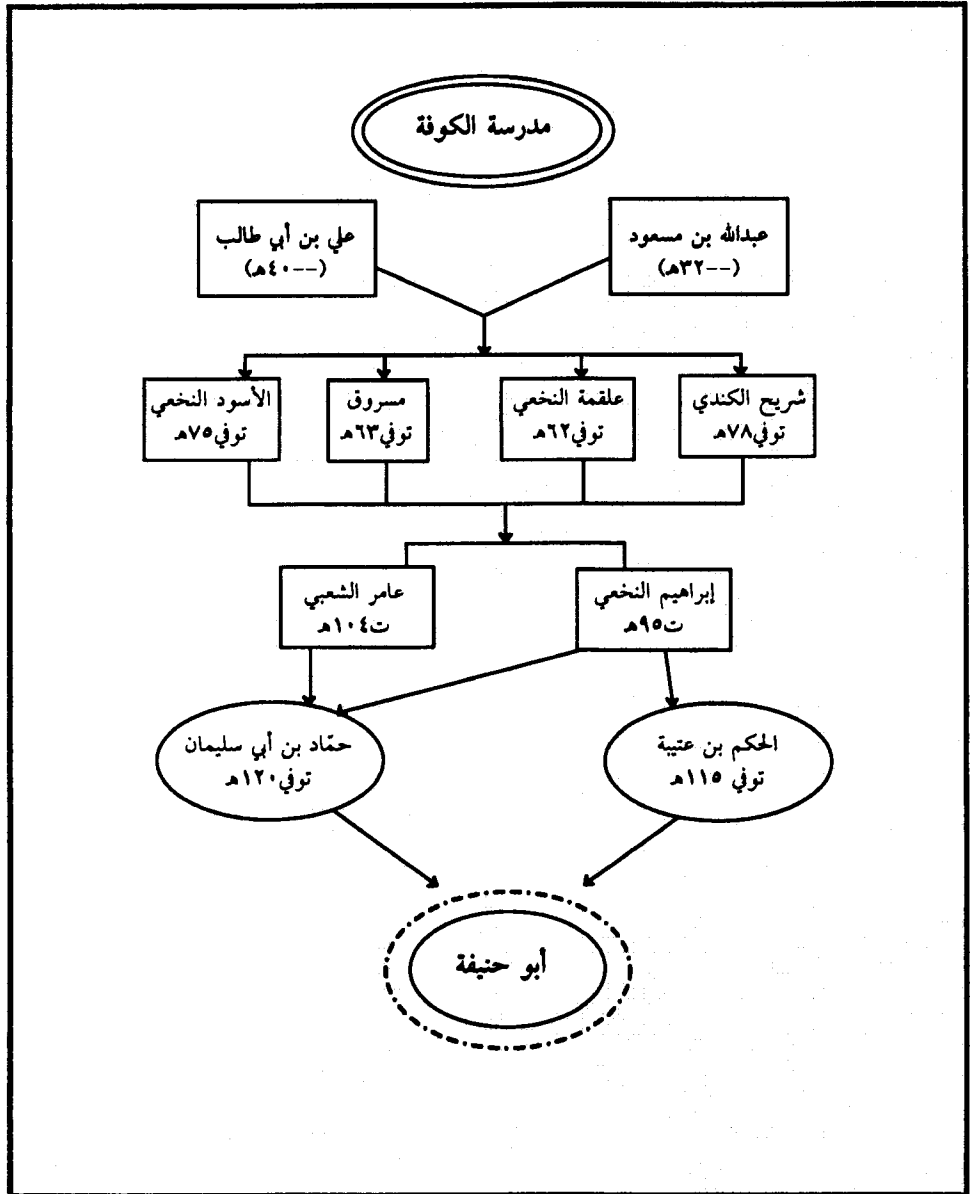
(١) الحجوي: الفكر السامي ٤١٢/٢ - ٤١٣.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ٥٥٦/٢ - ٥٥٧.

(٣) الفكر السامي ٤١٥/٢.

عشر حديثاً أو نحوها، هو قول خال من الصحّة.

وفيما يلي رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه بمدرسة الكوفة التي انتهى علمها إلى أبي حنيفة:



★ مالك بن أنس ★ (٥٩٣هـ/١٧٩هـ)

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني^(١) أمير المؤمنين في الحديث وإمام دار الهجرة، وفقه الحجاز، وعالمها في وقته.

وأبو عامر - جدّ أبي مالك - صحابي جليل، شهد جميع الغزوات مع الرسول ﷺ ما عدا غزوة بدر، وابنه مالك - جدّ مالك - من كبار التابعين ومن أفاضل الناس وعلماهم وكان عمر بن عبدالعزيز يستشيره.

نشأ مالك بالمدينة، وتلقّى علمه عن أعلام الفقهاء من شيوخها وخيرة علمائها.

واظب مالك على طلب العلم منذ صغره، فكانت أمّه تلبسه ثياب العلم وتعمّمه وتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه، فلا يزال مالك يتأدّب بأدب ابن ربيعة حريصاً على تنفيذ وصيّة أمّه حتى قال ابن وهب: الذي تعلّمنا من أدب مالك أكثر ممّا تعلّمنا من علمه، وكان ينهل من علم ابن ربيعة حتّى حفظه وزاد عليه وبرع فيه.

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ١/١٠٢ - ٢٧٩ ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٥٦ - ٧٩، الفهرست ص ٢٥١، طبقات الفقهاء ص ٦٧ - ٦٨، البداية والنهاية ١٠/١٧٥، مرآة الجنان ١/٣٨٧ - ٣٩٠، شذرات الذهب ١/٤٦٥ - ٤٦٨، تزيين الممالك بمناب سیدنا الإمام مالك للسيوطي ص ٢ - ٦١ وكتاب مناقب سیدنا الإمام مالك للعلامة الزواوي ص ٢ - ٦١، الفكر السامي ٢/٤٤٦ - ٤٦٣.

ولازم عبدالرحمن بن هرمز (١١٧هـ) المشهور بالأعرج، وفي ذلك يقول مالك: جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم أبته لأحد من الناس، وكان ابن هرمز يجلس الإمام مالك، فقد روي أنّ أبا هرمز قال لخدامته يوماً وقد أخبرته أنّ مالكاً بالباب، أدخله فإنّ ذلك عالم الناس.

وكان مالك حين يأتي بيت ابن هرمز بكرة يجعل في كفه تمرًا فيناوله صبيانه ويقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: مشغول، فما يخرج حتى الليل.

وسمع من نافع - مولى ابن عمر وناقل علمه - يقول مالك: كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام فينزل إليّ من درجة له فيقعدي معه فيحدثني، وكنت آتية نصف النهار وما تظلني شجرة من شمس أتحيّن خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كآتي لم أرد، ثمّ أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني ثمّ أحبس عنه وكان فيه حدة، ولما كفّ بصر نافع كان مالك يقوده من منزله إلى المسجد فيسأله فيحدثه.

كما أخذ العلم عن ابن شهاب الزهري - حامل علم سعيد بن المسيّب وفقه التابعين من أهل المدينة - فعن ابن عبدالحكم أنّه قال: قال لي مالك كئنا نأتي ابن شهاب في داره، وكانت له عتبة حسنة كئنا نجلس عليها نتدافع إذا دخلنا عليه، وقال: كئنا نزدحم على درج ابن شهاب حتى يسقط بعضنا على بعض.

فلذلك كان مالك يتحيّن الفرص للخلوة بأهل العلم والأخذ عنهم، وفي ذلك يقول: شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلّى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريتته انظري من على الباب، فنظرت فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك، قال: أدخله، فدخلت فقال: ما تريد، قلت: تحدّثني، قال: هات الألواح، فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثاً، فقلت زدني، قال: حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها فاجذب

الألواح من يدي ثم قال: حدث، فحدثته بها فردّها إليّ وقال: قم فأنت من أوعية العلم.

كما جلس إلى محمد بن المنكدر، ويحيى بن سعيد الأنصاري وإلى كثير من طبقتهم، وصحب جعفر الصادق وروى عنه، وقد بلغ عدد الذين أخذ عنهم أكثر من تسعمائة شيخ.

تعلم منهم وحفظ آراءهم ونقل آثارهم وعرف مذاهبهم وأحكم قواعدهم، وما زال حريصاً على طلب العلم حتى تبين فضله واشتهر علمه ونبل قدره وعظمت منزلته وعرفت مكانته وظهرت سيادته، فأقرّوا بفضله وأذعنوا لعلمه، فساد جميع أقرانه وفاق أهل زمانه واشتهر خبره في الأمصار وانتشر في سائر الأقطار حتى ارتحل الناس إليه من كلّ مصر وأتوه من كلّ قطر، فجلس لتدريس العلم وهو ابن سبع عشرة سنة وأشياخه متوافرون والمدينة تعجّ بالأئمة الأعلام - وما جلس حتى شهد له سبعون شيخاً من أهل العلم أنّه موضع لذلك.

ومكث يروي ويفتي ويسمع الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة حتى قال العلماء: لا يفتى ومالك في المدينة.

اشتهرت عنه رواية العلم حتى أخذ عنه أقرانه من الرواة ومشاهير الأئمة، وأشياخه من التابعين ومن غير التابعين الذين تعلم منهم وروى عنهم من أهل العراق والمشرق، ومن أهل الحجاز واليمن، ومن أهل القيروان، ومن أهل الأندلس، ومن أهل الشام، قال مالك: قلّ رجل كنت أتعلّم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني، وفي رواية: فلا رجل كتبت عنه إلاّ كان يأتيني فيستفتيني.

فمن أقرانه ونظرائه الذين أخذوا عنه محمد بن إبراهيم بن دينار (١٨٢هـ) الذي درس معه على ابن هرمز، والذي كان الشافعي يشهد له بالفقه، والمغيرة بن عبدالرحمن المخزومي (١٨٦هـ) الذي كان مدار الفتوى في زمان مالك وبعده عليه وعلى ابن دينار، وعبدالعزيز بن أبي حازم

(١٨٤هـ) الذي شهد له الإمام أحمد بالفقه، وكان سفيان الثوري إمام أهل العراق، يسأل مالكاً ويزاحم طلبة العلم على بابه.

وروى عنه كذلك من أرباب الاجتهاد في عصره عالم أهل العراق أبو حنيفة، وسفيان بن عيينة عالم أهل مكة، ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي، وابن جريج فقيه الحرم المكي، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر وابن أبي ذئب أحد أعلام المدينة، وعبدالله بن المبارك والقاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وغيرهم كثير.

ومن شيوخه الذين رووا عنه واحتاجوا إلى علمه زيد بن أسلم، وفي ذلك يقول ابن أبي حازم: رأيت زيد ابن أسلم واقفاً يستفتي مالكا، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وفي ذلك يقول مالك: قال لي يحيى بن سعيد حين خرج إلى العراق: التقط لي مائة حديث من أحاديث ابن شهاب أرويها عنك، فكتبتها ثم دفعتها إليه، فقال لي: أرويها عنك؟ قلت: نعم، وابن شهاب الزهري إمام السنة - وقد مات قبل مالك بخمس وخمسين سنة -، وربيعة الرأي فقيه أهل المدينة - وقد توفي قبل مالك بست وثلاثين سنة - وأيوب السختياني - وقد توفي قبل مالك بتسع وأربعين سنة - وغيرهم.

وبلغ عدد الذين رووا عنه ما يزيد عن ١٣٠٠ من الأعلام في سائر البلاد الإسلامية.

وهكذا حصل لمالك ما لم يحصل لغيره قط، برع في الحديث حتى لُقّب بأمير المؤمنين في الحديث، وتتبع فتاوى الصحابة وفقه التابعين حتى أصبح أثبت الناس في حديث المدنيين وأوثقهم إسناداً، وشهد له الجميع بالعلم والفضل، حتى الشافعي: إذا جاء الحديث فمالك النجم، وفي رواية: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال يحيى بن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه، وقال حميد بن الأسود: ما تقلد أحد من أهل المدينة بعد زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك، ولما حجج مالك ضاق الطواف بالناس يأتون به.

وكان مع علمه، أعظم الناس مروءة وأكثرهم سمياً، كثير الصمت قليل الكلام متحفظاً بلسانه، يعود المرضى ويقضي الحقوق، وكان من أحسن الناس خلقاً مع أهله وولده ويقول: في ذلك مرضاة لربك ومثارة في مالك ومنساة في أجلك وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب النبي ﷺ.

سعي به إلى والي المدينة جعفر بن سليمان، ف قيل له: إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم، وأنه أفتى بأن يمين المكره لا يلزم، وذلك يستتبع بالضرورة القول بأن بيعة أبي جعفر المنصور لا تلزم لأنها على الإكراه - وذلك عند قيام محمد بن عبدالله بن حسن العلوي - سنة ١٤٧هـ، فدعي به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلع كتفاه، وهو في ذلك كله يقول: «اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون»، حتى غشي عليه، وبقي بعد ذلك مطابق اليدين لا يستطيع أن يرفعهما ولا أن يسوي رداءه، وارتكب منه أمر عظيم، فلم يزل بعد ذلك في علو ورفعة وإعظام بين الناس، وكأتما كانت تلك السياط حلة عليه.

ترك في آخر حياته الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه، وترك اتباع الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد، ولا الجمعة، ولا يأتي أحداً يعزيه، فكان يعاتب على ذلك، فكان يقول: «ليس يقدر كل أحد أن يقول عذره»، والظاهر أن ذلك بسبب سلس البول الذي مرض به.

عاش نحو التسعين سنة، وتوفي بالمدينة ودفن بالبقيع وما ترك على وجه الأرض مثله.

تنافس العلماء على تدوين سيرته وألفوا في فضائله ومناقبه وأخباره جماعة من السلف والخلف.

أوضح الإمام مالك منهجه في الاجتهاد فقال: ما كان في كتاب الله أو فيما أحكمته السنة عن رسول الله ﷺ فهو حق لا شك فيه، وما كان من اجتهاد الرأي فالله أعلم به.

وبيّن طريقته التي لا تعتمد كثيراً على القياس ولا تميل إليه إلا إذا اقتضت الضرورة اللجوء إلى ذلك، فقال: أكثر ما في الكتاب - أي الموطأ

- برأيي فلعمري ما هو برأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدي بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى فكثرت عليّ، فقلت: «رأئي» وذلك رأئي إذ كان رأيهم رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثته توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا.

وما كان «أرى» فهر رأي جماعة ممن تقدّم من الأئمة، وما كان فيه «الأمر المجتمع عليه» فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم، لم يختلفوا فيه، وما قلت «الأمر عندنا» فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم، وكذلك ما قلت فيه «بيلدنا» وما قلت فيه: «بعض أهل العلم» فهو شيء استحسنته من قول العلماء.

وأما ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحقّ أو قريبا منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأي إليّ بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم، والأمر المعمول به عندنا منذ لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين مع من لقيت، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيره.

وقد بنى مذهبه على أدلة هي:

القرآن: فأخذ بنصّه، ثمّ بظاهره وهو العموم، ثمّ بدليله وهو مفهوم المخالفة، ثمّ بمفهومه وهو مفهوم الموافقة أو المفهوم بالأولى، ثمّ بتنبيهه وهو التنبيه على العلة، فهذه أدلة الكتاب الخمسة.

السنة: وأدلتها خمسة على منوال أدلة الكتاب.

فهذه أدلة عشرة، ثمّ الإجماع والقياس وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي - متى صحّ سنده -، والاستحسان - ويرى فيه تسعة أعشار العلم -، وسدّ الذرائع، والاستصحاب، ومراعاة الخلاف - إذا رجح دليل المخالف على دليله في اللزوم -، والمصالح المرسلة - وكان يسترسل فيها استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحيّة -.

* آثاره:

الموطأ: صنّفه الإمام مالك وتوخّى فيه القويّ من أحاديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين من بعدهم، وبناه على تمهيد الأصول للفروع ونوّبه فيه على معظم أصول الفقه التي يرجع إليها مسائله وفروعه، ورثب فيه الأحاديث على أبواب الفقه وموضوعاته، فجاء الموطأ مقسماً إلى ٦٣ كتاب وكلّ كتاب إلى أبواب.

وقد شغل كتاب الموطأ بال الكثير من العلماء، هل هو كتاب حديث أو كتاب فقه، ذلك أنّ منهجه يقوم على الجمع بين الفقه والحديث بصورة لا يكاد يتبيّن معها أنّه يخلص إلى الفقه أو يخلص إلى الحديث^(١).

وطريقته أن يذكر ما جاء من أحاديث عن النبي ﷺ، ثمّ يردفها بأقوال الصحابة والتابعين من أعلام أهل المدينة، ثمّ يذكر الأمر المجتمع عليه، والأمر المعمول به عند أهل المدينة، إذا اقتضى الحال ذلك.

يروى أنّ مالكا عند شروعه في تدوين الموطأ كان يروي مائة ألف حديث ضمّ الموطأ منها نحو عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر فيه ويختصره عاماً بعد عام حتّى جعله أربعة آلاف حديث، ثمّ ما زال ينظر فيه ويسقط منه حتّى بقي فيه ألف ونيّف، وقد أمضى في جمعه وتأليفه وترتيبه أربعين سنة.

وفي سبب تسميته بالموطأ، ذكر السيوطي في مقدّمة شرحه على الموطأ أنّ الإمام مالك قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلّهم واطأني عليه فسّمّيته الموطأ^(٢).

وأما سبب تأليفه، فقد روى الشافعي أنّ أبا جعفر المنصور بعث إلى

(١) ابن عاشور: محاضرات ص ٣٨٥.

(٢) السيوطي: تنوير الحوالك ص ٧.

الإمام مالك، فقال له: إنَّ الناس قد اختلفوا في العراق فضع للناس كتاباً نجمعهم عليه فوضع الموطأ^(١).

وفي رواية أنَّ أبا جعفر المنصور لما قال لمالك ضع كتاباً في العلم نجمع الناس عليه، قال له: اجتنب فيه شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود واقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة^(٢) فقال له مالك: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على قول رجل واحد يخطيء ويصيب وإنما الحق من رسول الله ﷺ، وقد تفرقت أصحابه في البلدان وقلد أهل كل بلد من صار إليهم، فأقر أهل كل بلد على ما عندهم^(٣).

وقد تقدّم أنَّ الإمام مالك قد أمضى في تأليف الموطأ أربعين سنة، وبما أنَّ أبا جعفر المنصور قد تقلد الخلافة من سنة ١٣٦هـ إلى سنة ١٥٨هـ، فيكون أبو جعفر قد توفي قبل أن يتم مالك جمع كتابه.

ويدعم هذا التمشي ما روي عن أبي مصعب - أحد رواة الموطأ - من أنَّ أبا جعفر قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه فكلّمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أحد أعلم منك، فوضع الموطأ، فلم يفرغ منه حتى مات أبو جعفر، وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، ... فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، وفي رواية: أعلم أهل الأرض، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: بلى، ولكنتك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، وفي رواية كما تكتب المصاحف ثم أعلقتها في الكعبة وأحمل الناس عليها، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل فإنَّ في كتابي حديث رسول الله ﷺ وقول الصحابة وقول التابعين ورأي هو

(١) مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.

(٢) ترتيب المدارك ١/١٩٣، مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.

(٣) مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.

إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أنني لا أرى أن يعلّق في الكعبة^(١).

غير أنّ البميل إلى هذه الرواية يفضي إلى القول بأنّ الإمام مالك لم ينته من موطئه - وقد أمضى في تأليفه وترتيبه أربعين سنة - إلاّ قبل وفاته بثلاث سنوات، أي سنة ١٧٦هـ، هذا إذا افترضنا أنّ أبا جعفر المنصور، قد طلب منه وضع الموطأ في أوّل سنة من خلافته، وهذا مستبعد جدّاً، خاصّة إذا علمنا أنّ الإمام الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠هـ قد حفظ الموطأ وعمره عشر سنوات.

وهناك ما يفيد أنّ الإمام مالك قد شرع في تدوين موطئه دون ما إشارة من أحد، ولكن حين وقع الموطأ بين يدي أبي جعفر المنصور ونظر فيه، أعجب به وأراد أن يحمل جميع الأمانة على ما فيه، فعن مالك قال: لَمَّا حَجَّ المنصور قال لي: إنّي عزمّت على أن أمر بكتيبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثمّ أبعث إلى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوها إلى غيرها من هذا العلم المحدث، فإنّني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعملهم، فقلت يا أمير المؤمنين: لا تفعل فإنّ الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنّ ردّهم عمّا اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم، فقال: لو طاوعتني على ذلك لأمرت به^(٢).

وإذا علمنا أنّ الإمام مالك قد جلس للناس وهو ابن سبع عشرة سنة، وأنّ مولده كان سنة ثلاث وتسعين على خلاف فيما قبلها، وأنّ أبا جعفر المنصور قد توفي سنة ١٥٨هـ فإنّ هذه الرواية تصبح أقرب للواقع

(١) ترتيب المدارك ١/١٩٢.

(٢) ترتيب المدارك ١/١٩٣، كشف الظنون ٢/٧٢٥، تزيين الممالك ص ٤٦.

وللمعقول، فإذا اعتبرنا مثلاً أنّ الإمام مالكا قد بدأ في جمع الموطأ منذ سنة ١١٠هـ - تاريخ جلوسه للحديث وتقلّده للفتيا بعد أن شهد له أهل العلم أنّه موضع لذلك - يكون قد أكمل تصنيفه وترتيبه سنة ١٥٠هـ.

ويقوي هذا الاعتبار ما ذهب إليه ابن حجر، وذكره السيوطي: من أنّ بداية التصنيف في الحديث كان في عصر واحد، عند انتشار العلماء في الأمصار، حتى أنّه لا ندري أيهم أسبق^(١)، وذلك في سنة بضع وأربعين ومائة^(٢).

ويبدو أنّ هذا الإجراء الذي خطر ببال أبي جعفر المنصور وهو أن يجعل العلم علماً واحداً، قد بدا لهارون الرشيد كذلك، فعن مالك أنّه قال: شاورني هارون الرشيد أن يعلّق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل فإنّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرّقوا في الآفاق وكلّ عند نفسه مصيب^(٣).

وقد روى الموطأ عن مالك كثير من الأعلام، من أهل المدينة ومكة والشام ومصر والعراق وإفريقية التونسية والأندلس.

وبين رواياتهم اختلاف من تقديم وتأخير وزيادة ونقص، ومن أكثرها زيادات رواية أبي مصعب الذي يزيد على سائر الموطآت نحو مائة حديث^(٤).

وهذا الاختلاف بين الموطآت باختلاف رواياتها عن مالك أماته ما اشتهر به الإمام مالك من شدة انتقاده للرجال والعلماء، ولذلك كان دائم النظر في موطنه يخلصه من عام إلى عام بقدر ما يرى أنّه أصلح للمسلمين

(١) تدريب الراوي ٨٨/١ - ٨٩.

(٢) مقدّمة الموطأ بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقى.

(٣) كشف الظنون ٧٢٥/٢، مناقب مالك للزواوي ص ٢٩، تزيين الممالك ص ٤٦.

(٤) تدريب الراوي ١٠٩/١ - ١١٠، تزيين الممالك ص ٤٨.

وأمثل في الدين، حتى قيل: أنه لو عاش مالك لأسقط علمه كله^(١).
والذي اشتهر من نسخ الموطأ مما رواه القاضي عياض، أو وقف عليه، أو كان في روايات شيوخه، أو نقل منه أصحاب اختلاف الموطآت نحو عشرين نسخة وذكر بعضهم أنها ثلاثون نسخة^(٢).
ومن هذه الروايات العديدة للموطأ:

- * رواية يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي (٢٣٤هـ).
- * رواية محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ).
- * رواية يحيى بن عبدالله بن بكير (٢٣١هـ).
- * رواية سويد بن سعيد بن سهل (٢٤٠هـ).
- * رواية عبدالرحمن بن القاسم (١٩١هـ).
- * رواية أبي مصعب الزهري (٢٤٢هـ).
- وللإمام مالك تأليف أخرى أشهرها^(٣):
- * رسالة إلى ابن وهب في القدر والرد على القدرية.
- * كتاب في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر.
- * رسالة في الأقضية: كتب بها إلى بعض القضاة.
- * رسالة في الفتوى: كتب بها إلى أبي غسان محمد بن المطرف، وكان من أعلام أهل المدينة وقرينا لمالك.
- * رسالة إلى هارون الرشيد: في الآداب والمواعظ، وقد حدث بها في الأندلس ابن حبيب عن رجاله عن مالك، وأنكرها غير واحد منهم

(١) ترتيب المدارك ١/١٩٣.

(٢) ترتيب المدارك ١/٢٠٣.

(٣) ترتيب المدارك ١/٢٠٤ - ٢٠٧، الديباج المذهب ص ٧٥، تاريخ التراث العربي ١٤١/٣.

أصبح بن الفرّج وحلف ما هي من وضع مالك، وشكّ السيوطي في صحّة نسبتها إلى مالك.

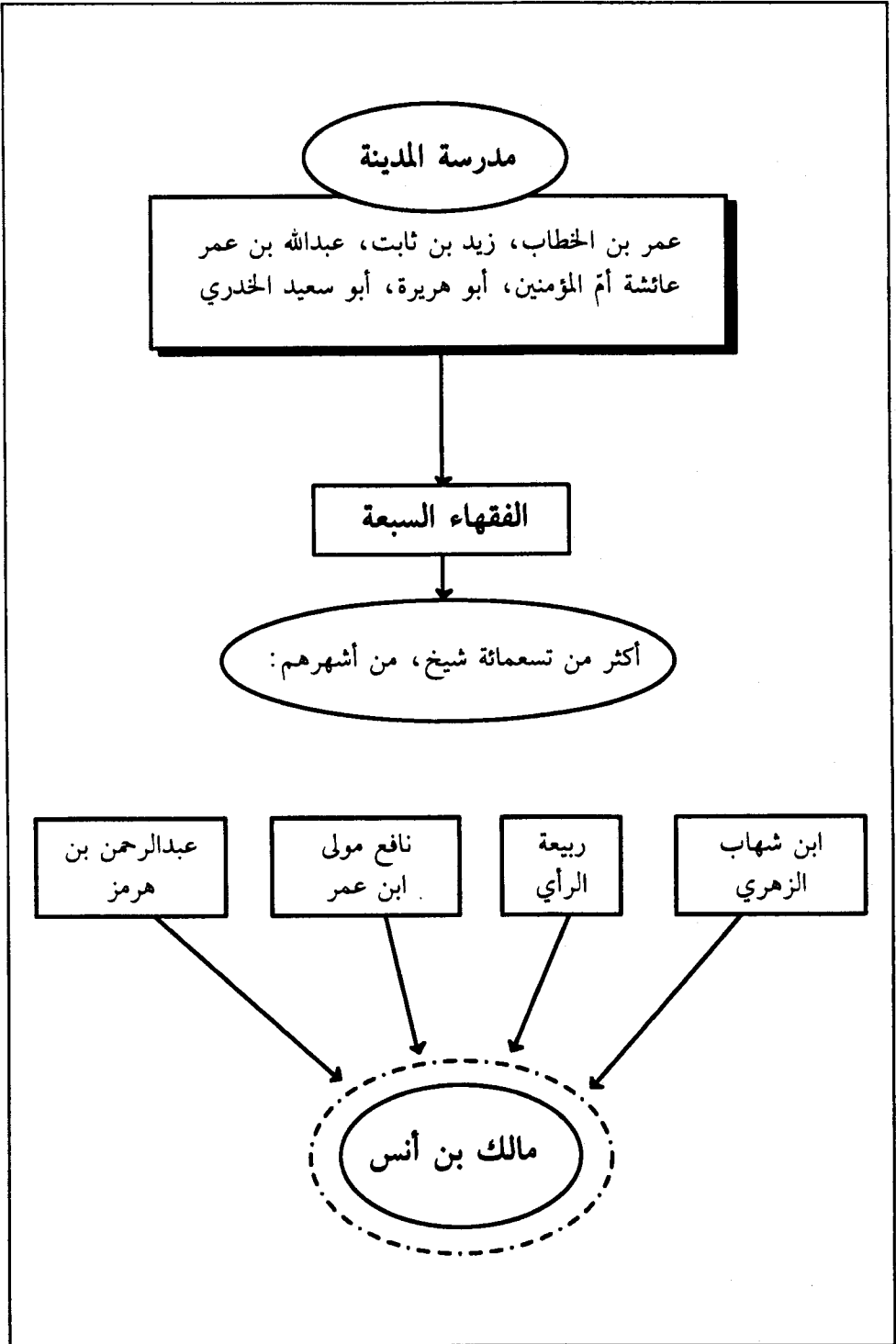
* كتاب في التفسير لغريب القرآن: رواه عنه خالد بن عبدالرحمن المخزومي.

* ونسب إلى مالك كتاب يسمّى كتاب السيرة من رواية عبدالرحمن بن القاسم عنه.

* رسالة إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة: وقد أثبتناها بكاملها في بداية هذا الفصل.

* مسائل وأجوبتها: رواها عبدالله بن عبدالحكم (٢١٤) وسمعها هو وعبدالله بن وهب وعبدالرحمن ابن القاسم.

وهذا رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه بمدرسة الحجاز التي انتهى علمها إلى مالك ابن أنس:



محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠هـ/٢٠٤هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلبى^(١) يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في بني عبد مناف.

ولد بغزة في السنة التي توفي فيها أبو حنيفة، ونقلته أمه إلى مكة وله ستان فنشأ بها وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين والموطأ وهو ابن عشر، وأتقن اللغة والشعر حتى أن الأصمعي على قدره وجلالته في الفصاحة سمع من الشافعي «ديوان الهذليين».

تلقى العلم عن مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، ثم رحل إلى المدينة فلأزم الإمام مالك، وقرأ عليه الموطأ كله، وأخذ عنه علم أهل المدينة، فأعجب مالك بنباهته وكان يثني على فهمه وحفظه، حتى قال فيه: إن يك أحد يفلح فهذا الغلام، وأذن له شيخه مسلم بن خالد في الإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة.

رحل مع عمه أبي مصعب إلى اليمن وهناك تولى الشافعي إحدى ولايات اليمن، ثم اتهم بالتشيع إلى يحيى بن عبدالله، والدعوة إلى آل البيت، وكان ذلك سنة ١٨٤هـ، فقبض عليه وحمل إلى هارون الرشيد فقيض الله له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة فتدخل له عند الرشيد

(١) طبقات الفقهاء ص ٧١ - ٧٣، شذرات الذهب ٨٠/٢ - ٨٢، الفهرست ص ٢٦٣ -

٢٦٤، الفكر السامي ٤٦٤/٢ - ٤٦٧، البداية والنهاية ٢٥١/١٠ - ٢٥٤.

وأحسن القول فيه حتى أقنعه ببراءته، وبيغداد أقام إلى جانب محمد بن الحسن وأطلع على كتب فقهاء العراق، حتى قال: خرجت من بغداد وقد حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير.

وكان الإمام الشافعي وقتها معدودا في أصحاب مالك يناهض قول محمد بن الحسن وأهل الرأي الموغلين في استعمال القياس، ويدافع عن فقه أهل الحجاز القائم على الأثر، حتى سمي بناصر الحديث وناصر السنة. وقد كان لإقامته هذه دور في تطوير منهجه الاجتهادي وبناء طريقته الجديدة، فتوجه بعد مغادرته بغداد إلى تأسيس مذهب مستقل به عن شيخه مالك.

خرج من بغداد سنة ١٨٨هـ فعاد إلى مكة، وما زال ينتقل بين العراق والحجاز، حتى توجه إلى مصر فأقام بها إلى غاية سنة ١٩٥هـ ثم غادرها إلى بغداد فاجتمع عليه علماءؤها وأخذوا عنه، وكان من بينهم أحمد ابن حنبل وأبو ثور وغيرهما، فاستقر له المقام بها سنتين حتى انتشر علمه في العراق واعتنق مذهبه كثير من الأعلام الذين أملى عليهم كتبه.

ثم عاد إلى مكة ومنها إلى بغداد سنة ١٩٨هـ فأقام بها شهرا ثم خرج إلى مصر فصنّف بها كتبه الجديدة وأملاها على تلاميذه، واستقرّ بها ملازما الاشتغال بالعلم والتصنيف إلى أن أصابته ضربة شديدة فمرض بها أيّاما وتوفي عن أربع وخمسين سنة، فسُميت الكتب التي صنّفها بالعراق بالكتب القديمة نسبة إلى مذهبه القديم، وسُميت كتبه التي صنّفها بمصر بالكتب الجديدة نسبة إلى مذهبه الجديد.

كان الشافعي شريف النسب، صحيح الدين والمعتقد، سخي النفس، من أحسن الناس قصدا وإخلاصا عارفاً بالحديث وناسخه ومنسوخه، حافظاً للكتاب والسنة، من أعلم الناس بمعانيهما، وأشدّ الناس نزعا للدلائل منهما، حسن التصنيف.

أثنى عليه غير واحد من كبار الأئمة منهم عبدالرحمن بن مهدي، وسأله أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن ويجمع فيه مقبول الأخبار وحجة

الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فكتب له كتاب الرسالة، فكان عبدالرحمن بن مهدي يدعو له في الصلاة دائما.

وكان أحمد بن حنبل يقول في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»^(١).

قال: فعمر بن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية.

كما أثنى عليه مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وإسحاق بن راهويه ومحمد بن الحسن الشيباني وغير واحد ممن يطول ذكرهم وبسط أقوالهم.

غير أن يحيى بن معين قد تكلم في الشافعي وأكثر القول فيه، وكذلك علي بن المديني، وكان أحمد بن حنبل ينهى أصحابه أول الأمر عن الشافعي ثم عدل عن ذلك - فكان يحرص على حضور مجالسه ويشهد له بالعلم والفقه، ويرى فيه مجدد لأمر دين -.

ولذلك صار القاضي عياض إلى القول بأنه وإن كان الشافعي يسلم له حسن الاعتبار وتدقيق النظر والقياس وجودة الفقه والإمامة فيه، ويسلم له في تقرير الأصول وتمهيد القواعد وترتيب الأدلة والمآخذ وبسطه ذلك ما لم يسبقه إليه من قبله، وكان فيه عليه عيالا كل من جاء بعده، مع التفتن في علم لسان العرب والقيام بالخبر والنسب، فإنه ليس له إمامة في الحديث ولا معرفة به ولا استقلال بعلمه ولا يدعيه ولا يدعى له، وقد ضعفه فيه أهل الصنعة.

وأضاف قائلاً: وإن كان الشافعي متبعا للحديث ومفتشا على السنن لكن بتقليد غيره، والاحتمال على رأي سواه، والاعتراف بالعجز عن معرفته، فقد كان يقول لابن مهدي وابن حنبل: أنتما أعلم بالحديث مني

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم.

فما صحَّ عندكما منه فعرفاني به لأخذ به، وهذه درجة تقصر عن درجة الاجتهاد العالية^(١).

هذا، وقد استطرد السبكي في طبقاته خلال الترجمة لأحمد بن صالح المصري، فنقل ما ثلب به الشافعي، ثم تصدّى للردّ عليه وأورد قول الإمام أحمد: من أين يعرف ابن معين الشافعي، ولا ما يقوله الشافعي^(٢).

دوّن الإمام الشافعي أصول وقواعد مذهبه في كتابيه الرسالة والأمّ ويتلخّص منهجه في الاعتماد على الأصول الأربعة المتفق عليها وهي على الترتيب: القرآن والسنة والإجماع والقياس^(٣)، وصرّح في مذهبه الجديد بأن قول الصحابة حجة يجب المصير إليه، على تفصيل في ذلك^(٤)، وقال في كتاب اختلافه مع مالك: العلم طبقات: الأولى: الكتاب والسنة، الثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنة، الثالثة: أن يقول صحابي فلا يعلم له مخالف من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس^(٥).

وأنكر الاحتجاج بالاستحسان، وخصّص فصلاً في كتابه الأمّ للتدليل على بطلان العمل بهذا الأصل، وردّ على إجماع أهل المدينة وأنكر حجّيته.

وقد نشر الإمام الشافعي مذهبه بنفسه، فهو الذي وضع المصنّفات ونشرها بالآفاق، وقد بلغت مصنّفات ١١٣ مصنفاً بين قديم - ما وضعه في بغداد ومكة - وجديد - ما وضعه بمصر - .

وأشهر هذه المصنّفات^(٦):

* كتاب الأمّ: هو من أعظم مؤلّفات الشافعي، بوّه على أبواب الفقه

(١) ترتيب المدارك ٩٢/١ - ٩٣.

(٢) الطبقات الكبرى.

(٣) الرسالة ص ٣٩ و ٥٠٨ و ٥٩٨ - ٥٩٩.

(٤) إعلام الموقعين ١٢١/٤ - ١٢٢، الرسالة ص ٥٩٦ - ٥٩٨.

(٥) إعلام الموقعين ١٢١/٤ - ١٢٢.

(٦) تاريخ التراث العربي ص ١٨٤ - ١٨٩.

وموضوعاته وأمله على تلاميذ في مصر، والكتاب يقع في سبعة أجزاء، رواها عنه تلميذه الربيع بن سليمان المرادي (٢٧٠هـ).

وقد أدرج الشافعي في الجزء السابع من الكتاب مجموعة كتب لطيفة في علم الخلاف والفقه المقارن وهي:

* اختلاف العراقيين: ضمّنه ملاحظاته على كتاب أبي يوسف «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلي».

* اختلاف عليّ وعبدالله بن مسعود:

* اختلاف مالك والشافعي: بيّن فيه مخالفة مالك لأحاديث رواها الشافعي عنه، عارضها مالك بعمل أهل المدينة أو بالمصالح المرسلة.

* جماع العلم: ناقش فيه الذين لا يقولون بحجّة الخبير.

* كتاب الردّ على محمد بن الحسن: بيّن فيه مخالفة محمد بن الحسن لأحاديث رواها عنه الشافعي، عارضها محمد بن الحسن أو رجّح عليها دليلاً آخر مثل الاستحسان.

* كتاب إبطال الاستحسان: ناقش فيه أهل العراق في قولهم بالاستحسان.

* كتاب سير الأوزاعي: ضمّنه ملاحظاته على كتاب أبي يوسف في الردّ على الأوزاعي.

وقد طبع كتاب الأمّ مرات عديدة في سبعة أجزاء كبيرة، وطبع بهامشه مختصر المزني وكتاب اختلاف الحديث، وطبع مرّة أخرى في ثمانية أجزاء وفي مقدّمها كتاب الرسالة.

* كتاب الرسالة: يعتبر هذا الكتاب الأساس الأوّل لوضع علم أصول الفقه، وقد صنّفه الشافعي بطلب من عبدالرحمن بن مهدي، حيث كتب إلى الشافعي أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن ويجمع قبول الأخبار

فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، وسمّاه الشافعي في مواضع عديدة من الرسالة بالكتاب، وصلنا برواية الربيع المرادي.

* كتاب اختلاف الحديث: عرض فيه الشافعي نظريته في كيفية الترجيح بين حديثين متعارضين، بيّن فيه أنّه لا تعارض حقيقي بين حديثين إلا أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر، أو أن يكون أحدهما ثابتاً والآخر غير ثابت وإذا كانا ثابتين فيجمع بينهما بأن يجعل لكلّ منهما محملاً خلافاً لغيره من الأئمة الذين قالوا يردّ حديث بحديث وطبع الكتاب في هامش الجزء السابع من كتاب الأم.

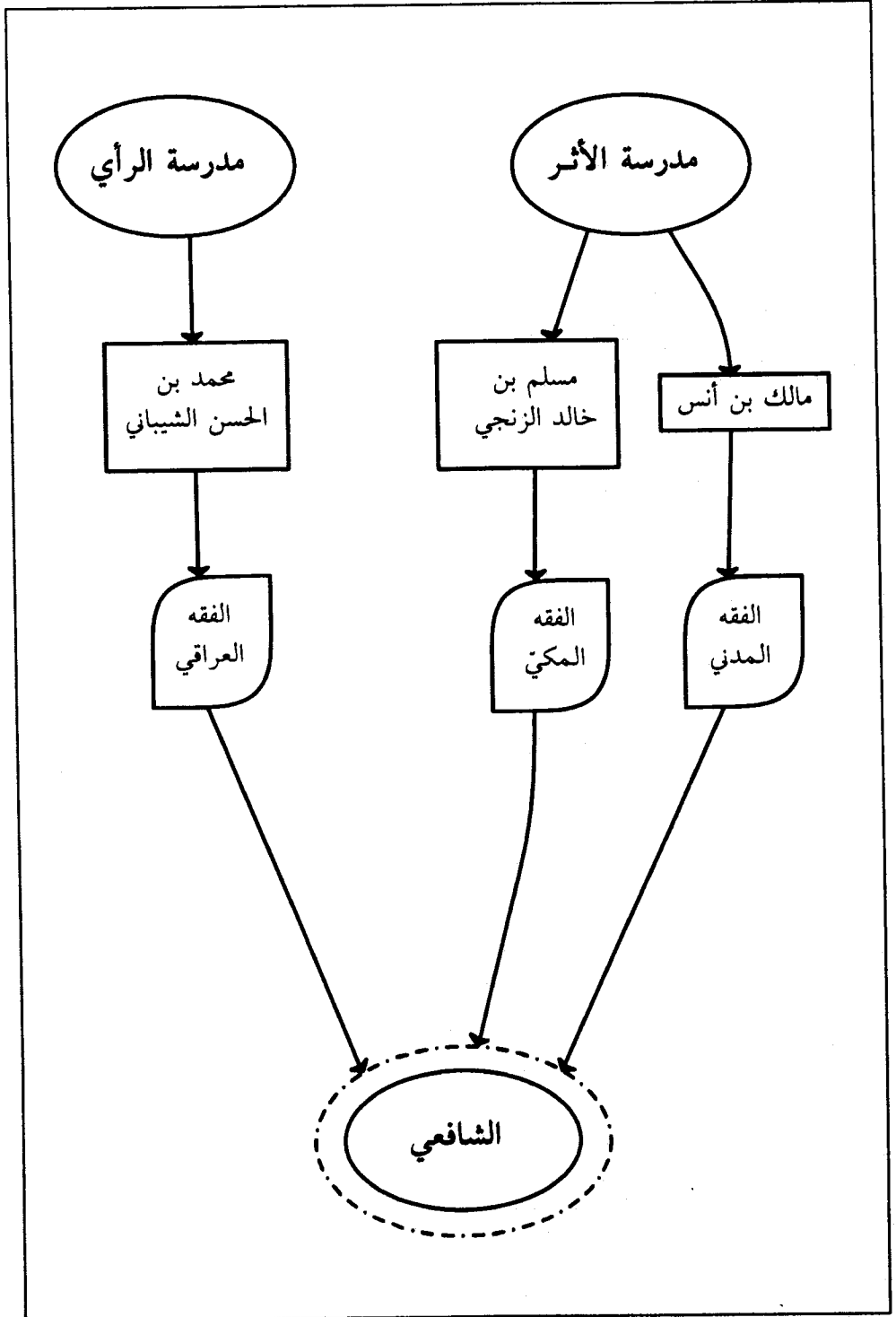
* أحكام القرآن: جمعه الحافظ البيهقي من نصوص الإمام الشافعي.

* المسند: يضمّ الأحاديث التي جمعها محمد بن يعقوب الأصمّ من مصنفات الشافعي المختلفة، وقد طبع في هامش الجزء السابع من كتاب الأم.

* مسائل في الفقه: سألها أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشافعي، وأجوبته لهما.

* الحجة: ذكره حاجي خليفة، وقال: هو مجلّد ضخّم ألفه بالعراق، وفي سبب تأليفه: أنّ أصحاب الحديث اجتمعوا على الإمام الشافعي فسألوه أن يضع على كتاب أبي حنيفة، فنظر في كتب محمد بن الحسن سنة حتّى حفظها، ثمّ وضع الكتاب البغدادي، يعني الحجة.

وفيما يلي رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه التي تكوّن بها الإمام الشافعي:



جعفر الصادق (٨٠هـ/١٤٨هـ)

هو أبو عبدالله جعفر بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الملقّب بالصادق^(١) سادس الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية الذين يرون أنّ الإمامة تكون في ذرية الحسين بن فاطمة الزهراء بعد مقتل الحسن رضي الله عنهم.

وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

روى عن أبيه الباقر وجده لأمه القاسم وطبقتهما، وكان سيّد بني هاشم في زمنه.

نشر الإمام الصادق آراءه في أصول الإسلام وفروعه، وشاع الجدل بينه وبين غيره من الفقهاء والعلماء في مباحث الفقه وأصوله وجمعت مدرسة الإمام الصادق آلاف الطلاب من مختلف الأقطار الإسلامية، وانتشر فقهه وحديثه بين الملايين من الناس، ومن أجل ذلك نسب إليه المذهب^(٢).

كان الإمام جعفر الصادق راوية للحديث عالماً بالاستنباط ووجهه، عالماً بأقوال العلماء مطلقاً على مختلف الآراء، يروى في ذلك عن أبي

(١) شذرات الذهب ١/٣٦٢، مرآة الجنان ١/٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٢٥.

حنيفة أنه قال: قال لي أبو جعفر المنصور، يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهتئى له من المسائل الشداد، فهتأت له أربعين مسألة، يقول أبو حنيفة: أتيت فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه وأوماً فجلست، ثم التفت إليه وقال: يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة، فقال: نعم، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبدالله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، ... فربّما تابعنا، وربّما تابعهم، وربّما خالفنا جميعاً، حتّى أتيت على الأربعين مسألة وما أحلّ منها بمسألة، فقال أبو حنيفة: إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس^(١).

أخذ عن الإمام جعفر الصادق أئمة الفقه وكبار الأعلام كسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والإمام مالك وأبو حنيفة وغيرهم.

وكان عالماً بالكيمياء، وأستاذاً لجابر بن حيّان الذي جمع له خمسمائة رسالة في كتاب.

مات وله من العمر ٦٨ سنة، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجدّه زين العابدين وعمّ جدّه الحسن بن عليّ رضوان الله تعالى عليهم، وأكرم بذلك القبر وما جمع من الأشراف الكرام أولي المناقب.

يقوم منهجه في التشريع على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ممّا صحّ من طريق أئمة الشيعة، واعتماد العقل فيما لم يرد فيه نصّ وردّ الاحتجاج بالإجماع وإبطال العمل بالقياس.

ومن أصول مذهبه اشتراط الاجتهاد في أئمتهم.

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص ٦٤٤.

ومن أشهر الآثار التي تنسب إليه^(١):

- * مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة: يحتوي على أقوال لجعفر الصادق ذات بعد أخلاقي في مائة باب.
- * وله حول القرآن: كتاب تفسير القرآن وكتاب منافع سور القرآن وكتاب خواص القرآن العظيم.
- * وله في مباحث الأصول: كتاب التوحيد وكتاب إثبات الصانع، والأدلة على الخلق والتدبير.
- * وله رسالة في الكيمياء، ورسالة في الإكسير ورسالة في الفأل، والقرعة: كتيب عن العرافة والفأل.
- وله أيضاً: * جدول في مذهب السنين والشهور والأيام.
- * وملحمة: تبحث في التنبؤات الجوية.
- * ومحمودات الأيام ومذموماتها ومتوسطاتها في أحوال من كل شهر.
- * اختيارات الأيام والشهور.

(١) تاريخ التراث العربي ٢٦٩/٣ - ٢٧٣.

علي بن أبي طالب

سلمان الفارسي، عمار بن ياسر، أبي بن كعب، أبو سعيد الخدري
عبدالله بن عباس، جابر بن عبدالله، أبو ذر الغفاري
الحسن بن علي، الحسين بن علي، محمد بن الحنفية

عليّ زين العابدين بن الحسين
حبيب بن ثابت، عليّ وعبدالله ابني أبي رافع، ثابت بن دينار،
ربيعة بن سميح، سليم بن قيس الهلالي، الحسن بن محمد بن الحنفية
عبدالله بن علي بن أبي شيبه، ثابت بن هرمز، عمرو بن خالد الواسطي

محمد الباقر بن
علي زين العابدين

زيد بن عليّ

جعفر الصادق

المدرسة الشيعية بفرعيها الإمامية والزيدية

عبدالرحمن الأوزاعي (١٥٧هـ/٨٨هـ)

هو أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي^(١)، كان إمام أهل الشام في عصره وفقهها بلا منازع، من كبار تابعي التابعين وأئمتهم البارعين، تلقى العلم عن مكحول وعطاء ثم رحل في طلب العلم إلى العراق والحجاز ومصر فتلقى عن جمع كثير من التابعين كابن شهاب الزهري ويحيى بن أبي كثير، حتى أصبح رأساً في العلم وبلغ الذروة في الفقه والحديث، حتى قال عبدالرحمن بن مهدي: الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري وحماد بن زيد، وقال: ما كان بالشام أحد أعلم بالسنّة من الأوزاعي.

اتفق العلماء على إمامته وعلوّ منزلته وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، فقال مالك: كان الأوزاعي إماماً يقتدى به، وقال سفيان بن عيينة: الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي.

أخذ عنه العلم جمع من الأعلام مثل عبدالله بن المبارك وسفيان الثوري وأبو إسحاق الفزاري الوليد بن مسلم وعمرو بن أبي سلمة وغيرهم. سئل عن الفقه وله ثلاث عشرة سنة، وأفتى في سبعين ألف مسألة،

(١) طبقات الفقهاء ص ٧٦، شذرات الذهب ١/٣٩٣ - ٣٩٥، مرآة الجنان ١/٣٥١ - ٣٥٢، البداية والنهاية ١٠/١١٥ - ١٢٠، الفكر السامي ٢/٤٣٦ - ٤٣٧.

وكان مع علمه رأساً في العمل كثير الاجتهاد في العبادة يحيي الليل صلاة وقرآنا وبكاء.

كان مجتهداً مستقلاً بآرائه صاحب مدرسة في الاجتهاد، وهو إلى أهل الأثر أميل منه إلى أهل الرأي، يرّد القياس ويعمل بالأثر، ويقول: عليك بأثر من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه، ويقول: اصبر على السنّة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكفّ عما كفّوا، وليسعك ما وسعهم.

كان على قدر عظيم من الفصاحة، ما يتكلّم بكلمة إلا كان المتعيّن على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

وكان مجتهداً مستقلاً بآرائه صاحب مدرسة في الاجتهاد، وهو إلى أهل الأثر أميل منه إلى أهل الرأي يرّد القياس ويعمل بالأثر، ويقول: عليك بأثر من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه، ويقول: اصبر على السنّة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكفّ عما كفّوا، وليسعك ما وسعهم.

ذكر ابن النديم أنّ الأوزاعي صنّف كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه^(١)، وقد وصل إلينا منهما بعض المقتبسات في المصادر المتأخّرة، وأقدم مصدر معروف يضمّ هذه المقتبسات هو كتاب «الردّ على سير الأوزاعي» للقاضي أبي يوسف الذي ورد مع شرح الشافعي في كتاب الأم^(٢).

كما احتفظ لنا ابن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل ببعض الرسائل التي كتبها الأوزاعي إلى خلفاء بني العباس، وهي تتضمّن آراءه الفقهية في مسائل مختلفة، ومواعظ شتى، وكانت رسائله حين ترد على المنصور

(١) الفهرست ص ٢٨٤.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢٤٤/٣.

وينظر فيها ويتأملها يتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها.

جمع الدكتور عبدالله الملا محمد الجبوري فقه الأوزاعي في كتاب بعنوان «فقه الإمام الأوزاعي» نال به شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر الشريف، وطبع الكتاب في مجلدين.

انتشر مذهبه انتشاراً واسعاً في الشام وبقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة، وانقرض في أوائل القرن الثالث، وعلى مذهبه كان أهل الأندلس أول الأمر لكثرة الداخلين إليها من الشام، ولم يغلب عليها مذهب مالك إلا بعد المائتين زمن بني أمية^(١).



(١) تاريخ التراث العربي ٢٤٣/٣، الفكر السامي ٤٣٧/٢، البداية والنهاية ١١٥/١٠.

سفيان الثوري (١٦١هـ/١٦١هـ)

هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي^(١) أحد الأئمة المجتهدين وأحد أئمة المذاهب المتبوعة في الفقه.

تلقى العلم عن أعلام التابعين من أمثال: الأسود بن يزيد، وزيد بن أسلم والأعمش وغيرهم.

وسمع منه أقطاب عصره مثل الإمام مالك وعبدالله بن المبارك وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج ومن في طبقتهم.

ساد الناس بالعلم والعمل والورع والزهد فكان أحد أئمة الإسلام وعبادهم والمقتدى بهم.

أراده أبو جعفر المنصور على قضاء الكوفة فأبى وخرج سنة ١٤٤هـ، وسكن مكة، ثم طلبه الخليفة العباسي المهدي فتواري، وانتقل إلى البصرة حتى مات فيها مستخفياً.

اتفق العلماء على إمامته وتقدمه في الفقه والحديث، وأثنى عليه أئمة عصره فقال فيه غير واحد من أهل عصره: هو أمير المؤمنين في الحديث.

(١) طبقات الفقهاء ص ٨٤ - ٨٥، الفكر السامي ٤٣٨/٢ - ٤٣٩، شذرات الذهب

٤٠٥/١ - ٤٠٧، البداية والنهاية ١٣٣/١٠ - ١٣٤، مرآة الجنان ٣٦١/١ - ٣٦٣.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك والثوري وحماد بن زيد.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي.

وقال عبدالله بن المبارك: كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من الثوري، وقال: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من الثوري.

وقال سفيان بن عيينة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

وقال أصحاب المذاهب الثلاثة: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه.

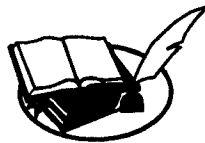
وكان أحمد ابن حنبل ينعته بالإمام.

كان مذهبه إلى الأثر أميل منه إلى الرأي.

من آثاره^(١):

كتاب التفسير وكتاب الفرائض وكتاب الاعتقاد وكتاب الجامع الكبير في الحديث، إضافة إلى رسائل في الزهد ومواعظ ووصايا.

كان له أتباع يفتون بمذهبه، إلا أن مذهبه لم يطل تقليده بل انقطع عن قريب لقلّة أتباعه، وذكر ابن العماد الحنبلي أنه وُجد في آخر القرن الرابع سفيانيون.



(١) تاريخ التراث العربي ٢٤٨/٣.

الليث بن سعد (١٧٥هـ/٩٤هـ)

هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي المصري^(١) إمام أهل عصره في مصر فقهاً وحديثاً، اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر. رحل إلى الحجاز ولم يتجاوز بعد العشرين من عمره فتفقه بعباء وقتادة ونافع والإمام مالك، وتفقه على ابن شهاب الزهري، وفي ذلك يقول الليث: كتبت من علم ابن شهاب علماً كثيراً، ولقي ربيعة الرأي وناظره في بعض المسائل.

ثم كان بينه وبين الإمام مالك مراسلات علمية ومشاورات كثيرة، حفظ لنا ابن قسيم الجوزية منها رسالة لليث - سبق عرضها - وهي تعتبر بحق أنموذجاً رائعاً لحبل التواصل بين أعلام هذا العصر، وصورة حية من مناقشاتهم الاستدلالية، وكان الليث أتبع للأثر من مالك.

يروى أنّ ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث فمرت به مسألة، فقال رجل: أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث.

ورغم إمامة الليث في الفقه وعلو مرتبته في الحديث إلا أنّ مذهبه سرعان ما انقطع منذ أواخر القرن الثاني لقلّة الأتباع وعدم تدوين آرائه،

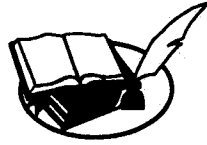
(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، الفهرست ص ٢٥٢، شذرات الذهب ١/٤٥٧ -

وفي ذلك يقول الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أنّ أصحابه لم يقوموا به، وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، لكن الحظوة لمالك.

وذكر ابن النديم أنّ له كتاب مسائل في الفقه، وأنه قبل أن يختار لنفسه ويستقلّ بمذهبه كان من أصحاب مالك وعلى مذهبه، وكان يكاتب مالك ويسأله.

عرضت عليه ولاية مصر فرفض وأبى ذلك.

هؤلاء الأئمة السبعة هم المجتهدون الذين حظيت مذاهبهم في هذه المرحلة من هذا الدور بالانتشار، وعرفت الأمصار اجتهاداتهم في الفقه، ثمّ شهدت المرحلة الثانية من هذا الدور ظهور تلاميذهم الذين قاموا على تلك المذاهب تفرّيعاً وتدويناً، غير أنّ مجتهدين آخرين ظهوروا في المرحلة الثانية دونت مذاهب ثلاثة منهم رأينا مراعاة للسير المنهجي في التقسيم المرحلي لهذا الدور أن نلحقهم بهؤلاء السبعة.



أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/٢٤١هـ)

هو أبو عبيدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني^(١) كان في حدائته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث وذلك سنة ١٨٧هـ.

طاف في البلاد والآفاق طلباً للعلم فرحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة وسمع من مشائخ عصره، وتفقه بسفيان بن عيينة وبالشافعي حين قدم بغداد ولازمه واستفاد منه، وسمع في صنعاء من عبدالرزاق بن همام، وسمع من وكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبدالرحمن بن مهدي، وغيرهم.

كان أوّل الأمر متبعاً لمذهب الإمام الشافعي ثم اختار لنفسه واجتهد. وعنه أخذ الحديث البخاري ومسلم وشيخه الشافعي وأبو داود وأكثر عنه في كتابه السنن، وعليّ بن المديني ويحيى بن معين وولده صالح وعبدالله وغيرهم.

كان إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه، إماماً في الفقه ودقائقه.

استكثر من الحديث وحفظه حتى عدّ إمام أهل الحديث في عصره،

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩١ - ٩٢، البداية والنهاية ١٠/٣٢٥ - ٣٤٣، شذرات

الذهب ٢/٢٢٤ - ٢٢٧، الفكر السامي ٣/٢٠ - ٢٨.

وكان الإمام الشافعي على جلاله قدره يعتمد على الإمام أحمد في النظر في صحّة الحديث ويقول له: يا أبا عبدالله إذا صحّ عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازيًا كان أو شاميًا أو عراقيًا أو يمنيًا.

وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لشأن الإمام أحمد وإجلال له، وآته عنده بهذه المكانة إذا صحّح أو ضعف يعود إليه ويعتمد على قوله.

وكان الشافعي يقول: خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال قتيبة بن سعيد: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثوري ومالك والأوزاعي والليث بن سعد لكان هو المقدم.

وكان أبو ثور معاصره وأحد أئمة المذاهب في عصره يفضله على الثوري ويقول: أحمد بن حنبل أعلم وأفقه من الثوري.

كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث وكان يقول: إذا جاء الحديث في فضائل الأعمال وثوابها وترغيبها تساهلنا في إسناده، وإذا جاء الحديث في الحدود والكفارات والفرائض تشدّدنا فيه.

وقف ابن حنبل وقفة مشهورة في محنة القول بخلق القرآن وابتلي ابتلاء شديداً في عهدي المعتصم وابنه محمد الواثق، حتى ضرب بالسياط وجلد ظهره.

عرضت عليه ولاية اليمن فأبى ورفض.

ورغم اتفاق أهل عصره على إمامته في الحديث إلا أنّ بعض العلماء لم يجعله في عداد أئمة الفقه، مثل ابن جرير الطبري والطحاوي والديبوسي والنسفي والغزالي وابن قتيبة والمقدسي وابن عبد البر.

وذكر ابن النديم الإمام أحمد في الفن السادس من المقالة السادسة

ضمن أخبار فقهاء المحدثين وكتاب الحديث، ولم يخصص له ما خصصه لمالك وأبي حنيفة والشافعي وداود وأصحابهم^(١).

ولعل ذلك يعود إلى كون الإمام أحمد كان أميل لرواية الحديث منه إلى الإفتاء، فهو صاحب المسند الذي ضمّنه ثلاثين ألف حديث من غير المكرّر كان قد انتقاها من أكثر من ٧٥٠ ألف حديث ممّا حدا بالقاضي عياض القول بأن الإمام أحمد من العارفين بعلم الحديث ولا تنكر إمامته فيه، ولكن لا يسلم له الإمامة في الفقه.

ولا جودة النظر في مأخذه، ولم يتكلّم في نوازل كثيرة كلام غيره وميله مع المفهوم من الحديث^(٢) فجاءت مسائل الفقه المروية عنه قليلة مقارنة بغيره من أئمة الفقه.

لكن أتباعه لم يسلموا بذلك وانتصروا له واعتبروه في عداد المجتهدين في الفقه، وأنّ فتاويه ومسائله قد رويت وحّدث بها قرناً بعد قرن، وجمعت نصوصه فبلغت نحو عشرين سفيراً أو أكثر، وأنّه صار إماماً وقدوة لأهل السنّة على اختلاف طبقاتهم حتّى إنّ المخالفين لمذهبه بالاجتهاد والمقلّدين لغيره ليعظّمون نصوصه وفتاويه^(٣).

وكانت فتاوى ابن حنبل مبنية على خمسة أصول^(٤):

الأصل الأول: النصوص قرآناً وسنّة، فإذا وجد النصّ أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائناً من كان.

الأصل الثاني: فتاوى الصحابة: فإذا وجد لبعض الصحابة فتوى لا

(١) الفهرست ص ٢٨٥.

(٢) ترتيب المدارك ٩٣/١.

(٣) إعلام الموقعين ٢٨/١.

(٤) المصدر السابق ٢٩/١ - ٣٣.

يعرف له مخالف منهم فيها لم يعدل بها إلى غيرها، ولم يقدم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

الأصل الثالث: الاختيار من أقوال الصحابة إذا اختلفوا: فيتخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول.

الأصل الرابع: الأخذ بالحديث المرسل والضعيف ما لم يجد أثراً يدفعه ولا قول صاحب ولا إجماعاً على خلافه، فيكون العمل بهذا الحديث أولى عنده من القياس.

الأصل الخامس: القياس للضرورة.

فهذه الأصول الخمسة من أصول فتاويه وعليها مدارها، وقد يتوقف في الفتوى لتعارض الأدلة عنده، أو لاختلاف الصحابة فيها، أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة والتابعين.

ومن أصول الإمام أحمد كذلك الاحتجاج بخبر الواحد من غير شرط ممن صحّ سنده، والعمل بسدّ الذرائع التي ظهرت في فروع كثيرة نقلت عنه^(١).

وبذلك يعتبر الإمام أحمد أوغل المذاهب الفقهية في الأثر، غير أنّ مذهبه لم يكتب له الانتشار بادية الأمر كما كتب للمذاهب الأخرى، وكان أكثر أتباعه من البغداديين، وربما ذلك يعود لسبقها في الظهور.

ومن المصنفات التي تركها الإمام أحمد نذكر^(٢):

* المسند: وهو كتاب جليل، يعدّ أجمع كتب السنة للحديث،

(١) إعلام الموقعين ١٣٥/٣ وما بعدها.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢١٨/٣ - ٢٢٧.

اشتمل على أربعين ألف حديث بالمكّرر، وعلى ثلاثين ألف حديث من غير المكّرر، كان قد انتقاه الإمام أحمد من ٧٥٠ ألف حديث، وأضاف ابنه عبدالله إلى المسند بعض الزيادات.

* علل الحديث: وقد أظهر فيه الإمام أحمد قدرة كبيرة على الفهم والحفظ ومعرفة المشتبه من أسماء الرواة وألقابهم وأوطانهم وشيوخهم وأحاديثهم.

* المسائل: يحوي إجابات الإمام أحمد على أسئلة تلاميذه في مسائل مختلفة من الفروع والأصول، وهذه الإجابات دونها تلاميذه وجمعها أبو بكر الخلال (٣١١هـ) في كتاب بعنوان الجامع لعلوم الإمام أحمد.

* فضائل الصحابة: برواية ابنه عبدالله مع إضافات وزيادات.

* العقيدة: وقد نقّحه ورواه عدد من تلاميذه وأتباعه.

* كتاب فضائل عليّ.

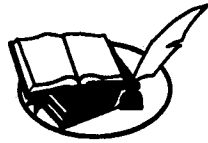
* كتاب الإيمان.

* كتاب الوقوف والوصايا.

* كتاب الترجّل: يبحث في العناية بالشعر من زاوية الفقه.

* كتاب أهل الملل والرّدّة والزنادقة وتارك الصلاة والفراض ونحو

ذلك.



أبو ثور (٢٤٠هـ)

هو أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان البغدادي^(١) أحد الفقهاء المشهورين، وأحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً.

كان أوّل أمره من أصحاب الرأي في بغداد ومن أتباع محمد بن الحسن الشيباني، فلما قدم الشافعي لازم دروسه للتعلم منه وصار من أصحابه وعدل عن الرأي إلى الأثر، وقلل من التردد على دروس محمد ابن الحسن فقال له يوماً: يا أبا ثور أحسب هذا الحجازي قد غلبنا عليك، فقال أبو ثور: أجل.

كما سمع من سفيان بن عيينة وعبدالرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح وغيرهم.

نقل عن الإمام الشافعي الأقوال القديمة التي أفتى بها في بغداد وقلده فيها، ثم صار يخالفه متى ظهر له الدليل، وبرع في الفقه حتى كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن مسألة، قال: سل الفقهاء، سل أبا ثور.

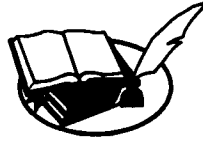
اختار أبو ثور لنفسه، وكان يعدّ من أئمة الاجتهاد وأصحاب المذاهب المستقلة، فأصبح له مذهب خاص به وأتباع ببغداد، وأكثر أهل أذربيجان

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢ و ١٠١ - ١٠٢، شذرات الذهب ٢/٢٢٠، البداية والنهاية ١٠/٣٢٢، الفهرست ص ٢٦٥، ترتيب المدارك ١/٨٠، الديباج المذهب ص ٤٨، الفكر السامي ١٩/٣ - ٢٠.

وأرمنيّة كانوا يتفقّون على مذهبه، ولكنّ أصحابه وأتباعه لم يكثروا ولا طالت مدّتهم فلم يعمر مذهبه كثيراً، وانقطع بعد ثلاثمائة.

صنّف الكتب فجمع في تصانيفه بين الفقه والحديث، وذكر ابن نديم له كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب المناسك.

ومن المرجّح أنّ الإمام الطبري قد أفاد في كتاب اختلاف الفقهاء من كتاب أو عدّة كتب لأبي ثور، ويستفاد ذلك من استعمال الطبري لعبارة «قال أبو ثور» أي دون إجازة بروايته^(١).



(١) تاريخ التراث العربي ١٩٣/٣.

داود بن علي (٢٠٠هـ/٢٧٠هـ)

هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري^(١) أول من استعمل قول الظاهر وألغى ما سوى الكتاب والسنة من الرأي والقياس.

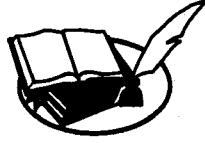
نشأ ببغداد وبها توفي، تلقى العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما، وكان ناسكاً زاهداً متقللاً كثير الورع، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد في عصره، وعنه تلقى ابنه الفقيه أبو بكر بن داود وغيره.

كان حافظاً مجتهداً، من أكثر الناس تعصباً للشافعي وصنف كتابين في فضائله والثناء عليه، ثم استقل بمذهب أساسه العمل بظواهر النصوص قرآناً وسنة، فنهج أتباع الظاهر واعتبر أن في عمومات النصوص ما يفي بكل جواب، وجعل المدارك الشرع كلها منحصرة في النصوص وما أجمع عليه الصحابة، فقال: الأصول هي الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول ولم يجوز الاحتجاج به، ولم ينظر إلى مقاصد النصوص وعللها، وقال أول من قاس إبليس، ونهى عن التقليد وجزأ العامة على استنباط الأحكام.

(١) طبقات الفقهاء ص ٩٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٨٤، شذرات الذهب ٢/٣١٧، الفهرست ٢٧١، البداية والنهاية ١١/٤٧، المقدمة ص ٤٢٨، تاريخ التراث العربي ٣/٢٥٣، الملل والنحل ٢/٤٥ ترتيب المدارك ١/٩٣، الديباج المذهب ص ٥٤، الفكر السامي ٣/٢٩.

انتشر مذهبه بادية الأمر بالشرق ثم انتقل إلى الأندلس وبقي العمل به حتى القرن الخامس الهجري وظهر في القرن الرابع بالعراق وإيران وخراسان وعمان والسند، ثم قلّ أتباعه وترك مذهبه حتى لم يعد له من يقوم عليه وينشره فدرس المذهب بدروس أتمته واندثر ولم يبق له وجود إلا في بطون الكتب والموسوعات الفقهية كمذهب من مذاهب أهل السنة.

تبنته الدولة الموحدية كمذهب رسمي لها في عهد ثالث خلفائها يعقوب بن منصور (٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ) صنّف كتاباً عديدة تدلّ على غزارة علمه أوصلها ابن النديم إلى حوالي ١٥٧ مصنفاً منها كتاب إبطال التقليد وكتاب إبطال القياس وكتاب خبر الواحد وكتاب الحجّة وغيرها.



المرحلة الثانية: مرحلة التفريع — تدوين فقه أئمة المذاهب —

إذا نظرنا إلى هذه المرحلة الثانية من هذا الدور، ومن ظهر فيها من أعلام الفقهاء الذين جاؤوا بعد هؤلاء الأئمة من المجتهدين، تبين لنا أنّ هذه المرحلة قد اختصت في الغالب بظهور الأعلام الذين كانوا يتبعون في آرائهم واجتهاداتهم أقوال وفتاوى شيوخهم من المجتهدين.

لكنّ الملاحظ أنّهم لم يكونوا متبعين ومقلّدين لهم التزاماً، ولا مقيدين بهم على معنى لا يقبل الخلاف فيما بين كلّ إمام وأتباعه، وإنّما كانوا مجتهدين كما كان أئمتهم مجتهدين، إلّا أنّ اجتهادهم كان اجتهاداً مقيداً، واجتهاد أئمتهم كان اجتهاداً مطلقاً، ومعنى الإطلاق والتقييد هنا يرجع إلى معنيي الأصول والفروع^(١).

فالذين اجتهدوا في وضع الأصول، والذين نظروا فيما ينبغي أن يكون حجّة، وما لا ينبغي أن يكون حجّة، وكونوا بذلك منهجاً في الطريقة الاستدلالية هم أئمة المذاهب، ثمّ جاء تلاميذهم مجتهدين متكوّنين تكوّن الأئمة في الاجتهاد، ولكنهم جعلوا الأصول التي وضعها أساتذتهم بالاستقراء ضابطة لحجّية ما يمكن أن تستخرج منه الأحكام الشرعية التفصيلية والعملية التشريعية فالتزموا ذلك، فكان ذلك مقيداً لاجتهادهم

(١) محاضرات ص ٦٧ - ٦٨، بتصرف.

لأنهم أصبحوا يجتهدون في الفروع ولا يجتهدون في الأصول، بينما كان أساتذتهم يجتهدون في الأصول والفروع^(١).

وبهذا المعنى اشتهرت المذاهب بالإضافة إلى أسماء الأئمة المجتهدين في الأصول والمناهج - من أعلام المرحلة السابقة - رغم أنهم لم يكونوا مخترعين ولا مبتدعين لتلك الأصول، وإنما كان الفقه يسير من قبل.

دون أن يقع الإفصاح والتعبير عنها أو التعريف بها، وكان هذا المعنى هو الذي جعل إمام كلِّ مذهب واضعاً لأصول مذهبه حتى صَحَّ أن ينسب المذهب إليه، وصَحَّ أن يحسب فقهاء المذهب عليه مع أنهم قد يوافقونه وقد يخالفونه^(٢).

وهكذا فلمَّا تكوّن بكلِّ إمام أعلام من الفقهاء كما تكوّن الأئمة بالفقهاء الذين قبلهم من التابعين، فإنَّ هؤلاء الذين تكوّنوا بهم أصبحوا منتسبين إليهم، فأصبحوا يعتبرون حنفيّة ومالكيّة وشافعيّة وحنابلة وزيدية وجعفرية وأوزاعيّين وسفيانيّين ونحو ذلك أو أصحاب أبي حنيفة وأصحاب مالك وأصحاب الشافعي وأصحاب أحمد وأصحاب زيد وأصحاب جعفر وأصحاب الأوزاعي وأصحاب الثوري أو تلاميذهم.

فإذا قيل مثلاً في شأن أبي يوسف ومحمد بن الحسن وزفر إنهم حنفيّة أو أصحاب أبي حنيفة أو تلامذته، فإنهم حنفيّة في الأصول وحنفيّة في المنهج، ولكنهم لم يكونوا مقيدين كما يقيد المستفتي مفتيه، لأنهم كانوا ينظرون في الأدلة ويستخرجون منها الفروع كغيرهم من أئمة الاجتهاد، بدليل أنهم قد اختلفوا عن أستاذهم أبي حنيفة اختلافاً واضحاً في مسائل كثيرة أصبحت قوام الدراسة الفقهيّة في المذهب الحنفي، حتى إننا لنجد كتب الحنفيّة تورد أحياناً في المسألة الواحدة أقوالاً أربعة، قولاً لأبي حنيفة وقولاً لأبي يوسف وقولاً لمحمد بن الحسن وقولاً لزفر.

(١) انظر: محاضرات ص ٦٧ - ٦٨ بتصرّف.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٦٦ بتصرّف.

ومع ذلك فإنهم فيما يعود إلى حجّية الأصول التي يرجع إليها أبو حنيفة في استخراج الأحكام الفرعية قد كانوا متبعين للطريقة الأصلية المنهجية التي وضعها إمامهم استقراءً من سير الفقه على عهد الصحابة والتابعين^(١).

وما قيل في شأن المذهب الحنفي يقال في شأن المذهب المالكي والشافعي والحنبلي والزيد والجعفري وغيرها من المذاهب.

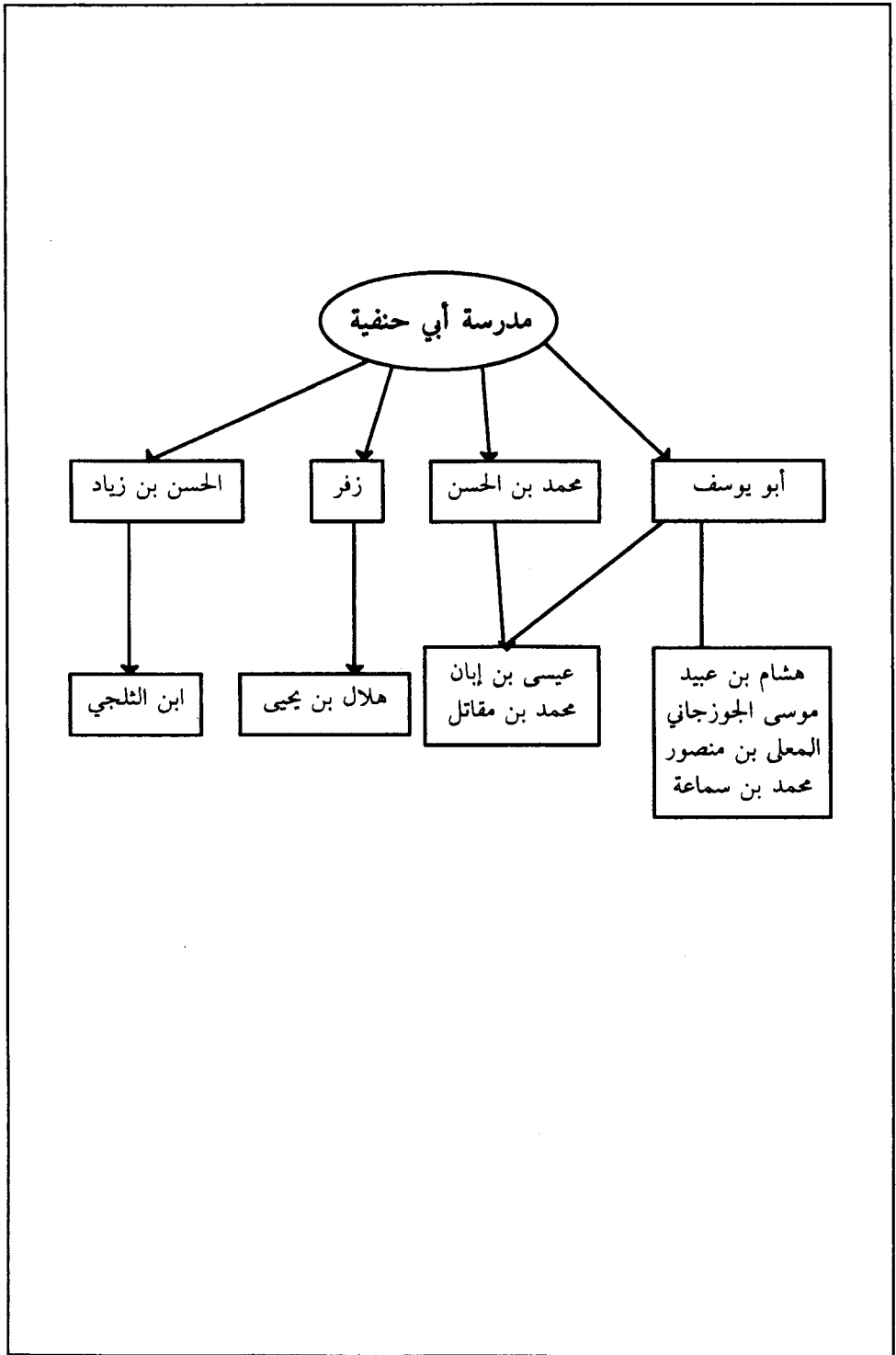
وبهؤلاء التلاميذ الذين تكوّنوا بأئمتهم وتخرّجوا بهم مجتهدين مقيدين تكوّنت حركة جديدة في التشريع والفقه نستطيع أن نصلح عليها بمرحلة التفريع.

هذه المرحلة التي أصبحت فيها حركة الاجتهاد وتقرير الجزئيات في الأحكام العملية التفصيلية تجري على أصول كلّ إمام من أئمة المذاهب، وبرز فيها بوضوح القيام على تدوين فقه الأئمة حيث اجتهد التلاميذ - الذين هم أعلام هذه المرحلة - اجتهاداً تفرّيعياً على مقتضى أصول أئمتهم وإن لم يلتزموا الفتاوى الجزئية في المسائل العملية التفصيلية التي ابتدأها الأئمة أنفسهم^(٢).

فتوطدت بذلك دعائم المدارس الفقهية بأعلامها وتصانيفهم.

(١) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ بتصرّف.

(٢) محاضرات ص ٦٨ بتصرّف.



- ١ - أبو يوسف:

هو قاضي القضاة يعقوب بن إبراهيم الكوفي^(١) كان حافظاً للحديث يحب أصحابه ويميل إليه جالس قاضي الكوفة - في عهد أبي جعفر المنصور - محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وروى الحديث عن الأعمش وهمام بن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم.

كان يطلب العلم وهو فقير الحال يحتاج إلى الشغل، فأعانه أبو حنيفة على معاش الدنيا حتى يلزم مجلسه ولا يتخلف عن حلقة العلم، فلازمه وتفقه عليه وصحبه سبع عشرة سنة حتى غلب عليه الرأي وأصبح على مذهبه وأكبر أصحابه، فلم يكن بعد ذلك في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، ولا أكثر حديثاً ولا أثبت منه، فكان أبو حنيفة يقول عنه: إنه أعلم أصحابه.

ومع طول صحبته لأبي حنيفة فقد خالفه في مواضع كثيرة، اجتهد فيها واستقل بها عن إمامه، وحين تناظر هو والإمام مالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضروات، رجع عن رأيه إلى قول الإمام مالك، وقال: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت.

يعتبر أبو يوسف أول من نشر علم أبي حنيفة وبثه في أقطار الأرض، ومما ساعده على ذلك توليه القضاء لثلاثة من خلفاء بني العباس: المهدي وابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكان الرشيد يجله وكان عنده حظياً مكيناً، فكان أبو يوسف يولي القضاة في أنحاء البلاد، وكان أغلب من ولأهم على مذهب أبي حنيفة فانتشر العمل بفقهاءه، وكان أبو يوسف قد عاش بعد

(١) الفوائد البهية ٢٢٥، الجواهر المضية ٦١١/٣، تاج التراجم ٢٨٢، البداية والنهاية ١٨٠/١٠ - ١٨٢، مرآة الجنان ٣٩٥/١ - ٤٠٠، الفهرست ص ٢٥٦ - ٢٥٧، شذرات الذهب ٤٧٨/١ - ٤٨١ طبقات الفقهاء ص ١٣٤ وفيات الأعيان ٣٧٨/٦ - ٣٩٠، الأعلام ٢٥٢/٩ معجم المؤلفين ٢٤٠/١٣ كشف الظنون ٤١٧/٦ تذكرة الحفاظ ٢٩٢/١.

أبي حنيفة ٣٢ عاماً، أمضى منها ١٢ سنة قاضي قضاة - من سنة ١٧٠هـ إلى ١٨٢هـ ..

وعن أبي يوسف تلقى العلم محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو يعلى معلى بن منصور الرازي، وقد روى عنه فقهه وأصوله وكتبه وغير هؤلاء كثير، وكان يحضر في مجلس قضاة العلماء على طبقاتهم حتى إن الإمام أحمد بن حنبل كان شاباً وكان يحضر مجلسه فيتناظرون ويتباحثون.

توفي سنة ١٨٢هـ، وقد عاش قريباً من سبعين سنة، ولما حانت ساعة وفاته سمعه تلميذه محمد بن سماعة يقول: اللهم إني أعلم أنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك متعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وستة نبيك ﷺ، وكلما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله من يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.

ويعتبر أبو يوسف أول من وضع التأليف في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، ووضع الكتب الجليلة، وقد جمع فقهه الأستاذ محمد مطلوب واختصه بالدراسة في كتاب بعنوان «أبو يوسف وفقهه».

- ٢ - محمد بن الحسن:

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن الشيباني الكوفي^(١) نشأ بالكوفة، لقي جماعة من أعلام الأئمة وطلب الحديث ثم حضر مجلس أبي حنيفة فتلقى عنه سنتين فقط - ومات أبو حنيفة ولمحمد بن الحسن ثمان عشرة سنة -

(١) الفوائد البهية ١٦٣، الجواهر المضية ١٢٢/٣، تاج التراجم ١٨٧، مرآة الجنان ٤٢٩/١ - ٤٣٠ البداية والنهاية ٢٠٢/١٠ - ٢٠٣، الفهرست ص ٢٥٧، شذرات الذهب ١٦/٢ - ١٩، طبقات الفقهاء ص ١٣٥ - ١٣٦، وفيات الأعيان ١٨٤/٤ - ١٨٥، الأعلام ٣٠٩/٦، معجم المؤلفين ٢٠٧/٩.

فتفقه على أبي يوسف وأتم على يديه ما كان قد بدأه مع أبي حنيفة حتى نظر في الرأي وغلب عليه وعرف به.

كما أخذ عن الإمام مالك بن أنس خلال رحلته إلى الحجاز، وله رواية للموطأ فيها زيادات كثيرة على غيرها من الروايات، ضمنها آثار من غير طريق الإمام مالك احتج فيها لفقهاء العراقيين، وسمع كذلك من سفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم.

أنفق ماله في سبيل طلب العلم، فقد روى في ذلك عن نفسه أنه قال: خلف أبي ثلاثين ألف درهم فأنفقت نصفها على النحو والشعر، وأنفقت الباقي على الفقه، وكان يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي، وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي.

استقر ببغداد، وبها حدث ونشر علم أبي حنيفة، وكان أفصح الناس، قيل أنه: إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته، حتى أن الشافعي كان يثني عليه ويقول: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن، ولا أفصح منه، وما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام، والعلل والناسخ والمنسوخ منه، وما جالست فقيهاً قط أفقه ولا أفتق لسانه بالفقه منه، إنه كان يحسن من الفقه وأسبابه أشياء تعجز عنها الأكابر.

ومن أشهر من أخذ عنه الإمام الشافعي حين التقى به في بغداد وجرت بينهما مجالس ومساائل، وحمل عنه الشافعي من العلم كما قال: «وقر بعير».

مات محمد بن الحسن سنة ١٨٩هـ هو والكسائي بالري في يوم واحد، فقال هارون الرشيد: دفنت الفقه والعربية بالري، وكان له من العمره ثمان وخمسون سنة.

يعتبر محمد بن الحسن محرر المذهب الحنفي، وله كتب كثيرة في فروع المذهب الحنفي وأصوله، وهي تعتبر المرجع الأساسي لما حوته من كثرة التفريعات، ولما لاقته من عناية واهتمام شرحاً وتعليقاً.

- ٣ - زفر:

هو أبو الهذيل، زفر بن الهذيل بن قيس العنبري^(١) كان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي حتى أصبح أقيس أصحاب أبي حنيفة، واشتهر بحسن استخدامه للعلل في كتاباته، ودقته في ذلك.

وهو الذي أدخل مذهب أبي حنيفة إلى البصرة وبها توفي سنة ١٥٨ هـ وله من العمر ثمان وأربعون سنة وهو بذلك أقدم أصحاب أبي حنيفة موتاً، وقد جمع فقهه الدكتور أبو اليقظان عطية الجبوري ونشره في بغداد سنة ١٩٧٩ م.

- ٤ - الحسن بن زياد:

هو الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي^(٢) أحد تلاميذ أبي حنيفة، كتب عن ابن جريج عشر ألف حديث، غير أن أصحاب الكتب الستة لم يخرجوا له، وعلماء الحديث يطعنون في روايته.

كان رأساً في الفقه وقد ذكر له ابن النديم كتاب النفقات وكتاب الخراج وكتاب الفرائض وكتاب الوصايا غير أنه لم يكن لأرائه ورواياته من الاعتبار ما كان لأراء محمد بن الحسن ورواياته، توفي سنة ٢٠٤ هـ وله من العمر نحو ثمان وثمانين سنة.

هؤلاء الأربعة هم الذين كانت لهم اليد الطولى والفضل الأكبر في نشر مذهب أبي حنيفة، غير أنه لم يكن لزفر وللحسن بن زياد ما كان لأبي يوسف ومحمد بن الحسن من الفضل في ذلك.

(١) الفوائد البهية ٧٥، الجواهر المضية ٢/٢٠٧، تاج التراجم ١٠٢، طبقات الفقهاء ص ١٣٥ مرآة الجنان ١/٣٥٦، شذرات الذهب ١/٣٩٦ - ٣٩٧، وفيات الأعيان ٢/٣١٧ - ٣١٩.

(٢) الفوائد البهية ٦٠، الجواهر المضية ٢/٥٦، تاج التراجم ٨١، طبقات الفقهاء ص ١٣٦، الفهرست ص ٢٥٨، شذرات الذهب ٢/٨٤، البداية والنهاية ١٠/٢٥٥، الأعلام ٢/٢٠٥، معجم المؤلفين ٣/٢٢٦.

فأما زفر فلتقدّم وفاته، وأما الحسن بن زياد فلنزول درجته عند أهل الحديث، ولذلك كان أبو يوسف ومحمد بن الحسن هما القائمان على مذهب أبي حنيفة بلا منازع حتى أطلق عليهما مصطلح «الصاحبان».

وممن هم دون هؤلاء الأربعة:

* هشام بن عبيدالله:

هو هشام بن عبيدالله - أو عبدالله - الرازي، كان تلميذا لأبي يوسف ولمحمد بن الحسن، روى عن ابن أبي ذئب ومالك والليث بن سعد وطبقتهم، وكان كثير العلم واسع الرواية غير أنه كان ليّنا في روايته، له كتاب النوادر في فروع الفقه الحنفي، توفي سنة ٢٢١هـ^(١).

* موسى بن سليمان:

هو أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني^(٢) أخذ عن أبي يوسف ومحمد بن الحسن وروى عنهما الكتب، عرض عليه المأمون العباسي القضاء فأبى ولم يتقلّده، له كتاب نوادر الفتاوى في الفقه، توفي بعد سنة ٢٠٠هـ بقليل.

* المعلى بن منصور:

هو أبو يعلى المعلى بن منصور الرازي، كان تلميذا لأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وروى عنهما الكتب، عرض عليه المأمون العباسي

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٨، تاريخ التراث العربي ٧٨/٣، شذرات الذهب ١٤٨/٢، البداية والنهاية ٢٨٣/١٠، تهذيب التهذيب ٤٧/١١ - ٤٨، الأعلام ٨٥/٩، معجم المؤلفين ١٤٩/١٣، كشف الظنون ٧٧٨/٢، تذكرة الحفاظ ٣٨٧/١ - ٣٨٨.

(٢) الفوائد البهية ٢١٦، الجواهر المضية ٥١٨/٣، تاج التراجم ٢٦٠، طبقات الفقهاء ص ١٣٧، الفهرست ص ٢٥٩، تاريخ التراث العربي ٧٩/٣، الأعلام ٢٧٢/٨، معجم المؤلفين ٣٩/١٣.

القضاء كما عرض على صديقه الجوزجاني، فأبى ولم يتقلده، له كتاب النوادر في الفقه، توفي سنة ٢١١هـ^(١).

* محمد بن سماعة:

هو أبو عبدالله محمد بن سماعة التميمي الكوفي^(٢) أخذ العلم عن أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وكان فقيهاً كتب النوادر عن محمد وروى عن الليث بن سعد، ولّي قضاء بغداد للمأمون سنة ١٩٢هـ، له مصنفات واختيارات في المذهب، صنّف كتباً في الفقه منها كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب، صنّفه على أساس كتاب الكسب لمحمد بن الحسن، وله أيضاً كتاب النوادر عن أبي يوسف، وكتاب المحاضر والسجلات.

كان ورده في اليوم واللييلة مائتي ركعة، جاوز المائة وهو في كامل القوة، وتوفي سنة ٢٣٣هـ وله من العمر مائة سنة وثلاث سنين.

* عيسى بن أبان:

هو القاضي أبو موسى عيسى بن أبان^(٣) كان تلميذاً لمحمد بن الحسن، ولّي القضاء عشر سنين ووصف بالذكاء والسخاء وسعة العلم، توفي سنة ٢٢٠هـ، له كتاب الحجّة.

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٧، تاريخ التراث العربي، ٨٠/٣ تهذيب التهذيب ٢٣٨/١٠ - ٢٤٠، طبقات ابن سعد ٣٧١/٧، الأعلام ١٩٨/٨، معجم المؤلفين ٣٠٩/١٢، كشف الظنون ٧٧٨/٢، تذكرة الحفاظ ٣٧٧/١.

(٢) الفوائد البهية ١٧٠، الجواهر المضية ١٦٨/٣، تاج التراجم ١٨٩، طبقات الفقهاء ص ١٣٨، الفهرست ص ٢٥٨، تاريخ التراث العربي ٨٢/٣، شذرات الذهب ١٩٤/٢، البداية والنهاية ٣١٢/١٠، تهذيب التهذيب ٢٠٤/٩، الأعلام ٢٣/٧، معجم المؤلفين ٥٧/١٠، كشف الظنون ٧٧٧/٢.

(٣) الفوائد البهية ١٥١، الجواهر المضية ٦٧٨/٢، تاج التراجم ١٧٠، الفهرست ص ٢٥٨، تاريخ التراث العربي ٨٠/٣ - ٨١، الأعلام ٢٨٣/٥، معجم المؤلفين ١٨/٨.

* محمد بن مقاتل:

هو محمد بن مقاتل الرازي^(١) كان تلميذاً لمحمد بن الحسن، روى عن وكيع بن الجراح وغيره، وسمع منه الإمام البخاري، وكان فقيهاً ذا مكانة، توفي سنة ٢٤٨هـ.

* هلال بن يحيى:

هو هلال بن يحيى بن مسلم البصري^(٢) أخذ العلم عن أبي يوسف وزفر، لقّب بهلال الرأي لسعة علمه وكثرة أخذه بالقياس، صنّف كتاب أحكام الوقف، وكتاب الشروط، وهو أول من صنّف في علم الشروط^(٣) توفي سنة ٢٤٥هـ.

* محمد بن شجاع:

هو أبو عبدالله محمد بن شجاع الثلجي، فقيه العراق وشيخ الحنفية في وقته، تفقّه بالحسن بن زياد اللؤلؤي، جمع بين الفقه والورع، وصنّف واشتغل حتى قيل أنّه فتق فقه أبي حنيفة واحتجّ له وأظهر علله وقواه بالحديث وحلّاه في الصدور، ولكنه كان متروك الحديث، توفي سنة ٢٦٦هـ وهو ساجد في صلاة العصر وله نحو من تسعين سنة، له كتاب

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٩، تاريخ التراث العربي ٨٤/٣ - ٨٥، تهذيب التهذيب ٤٦٩/٩ - ٤٧٠.

(٢) الفوائد البهية ٢٢٣، الجواهر المضية ٥٧٢/٣، تاج التراجم ٢٧٨، طبقات الفقهاء ص ١٣٩، تاريخ التراث العربي ٨٤/٣ - ٨٥، كشف الظنون ٧٦/٢.

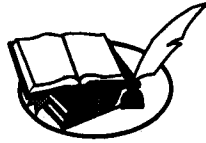
(٣) قال حاجي خليفة: علم الشروط والسجلات هو علم باحث عن كيفية ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي في الكتب والسجلات على وجه يصح الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال، وموضوعه تلك الأحكام من حيث الكتابة، وبعض مبادئه مأخوذ من الفقه، وبعضها من علم الإنشاء، وبعضها من الرسوم والعادات والأمور الاستحسانية، وهو من فروع الفقه من حيث كون ترتيب معانيه موافقاً لقوانين الشرع، وقد يجعل من فروع الأدب باعتبار تحسين الألفاظ (كشف الظنون: ٧٦/٢).

النوادر في الفروع وكتاب المضاربة وكتاب الكفارات وكتاب المناسك وكتاب تصحيح الآثار^(١).

وقد صنّف أبو الليث السمرقندي (- ٣٧٣هـ) (كتابين جمع فيهما آراء ابن شجاع الثلجي، ومحمد بن مقاتل الرازي، أحدهما عيون المسائل والآخر النوازل، وذكر أنّ جمعه لأقوال هؤلاء الأعلام بسبب أنّهم قد وقّفوا النظر فيما وقع لهم من النوازل، فيسهل على الناظر فيها طريق الاجتهاد^(٢). وغير هؤلاء كثير من أعلام المذهب الحنفي، من أمثال^(٣):

الحسن بن أبي مالك (- ٢٠٤هـ) وقاضي بغداد أبو الوليد بشر بن الوليد الكندي (- ٢٣٨هـ) وبشر بن غيّث المريسي، وقاضي مصر إبراهيم بن الجراح (- ٢١٧هـ) وهؤلاء كان أخذهم للعلم عن أبي يوسف خاصة.

وموسى بن نصر الرازي وعمرو بن أبي عمرو وسليمان بن شعيب الكيساني وعليّ بن معبد، وهؤلاء كان أخذهم للعلم عن محمد بن الحسن. ومحمد بن عبدالله الأنصاري وعبيدالله بن عبدالحميد وهما من أصحاب زفر.



- (١) الفوائد البهية ١٧١، الجواهر المضية ١٧٣/٣، تاج التراجم ١٩١، طبقات الفقهاء ص ١٤٠، الفهرست ص ٢٥٩، تاريخ التراث العربي ٨٥/٣، شذرات الذهب ٣٠٨/٢، - تهذيب التهذيب ٢٢٠/٩، الأعلام ٢٨/٧، معجم المؤلفين ٦٤/١٠، كشف الظنون ٣٤٢/١، ٣٨٦/٢، ٣٩١، و١٥/٦.
- (٢) كشف الظنون ٧٧٨/٢.
- (٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٣٨ - ١٣٩.

حركة التدوين والتفريع في المذهب الحنفي

تعتبر مؤلفات أبي يوسف ومحمد بن الحسن المراجع الأصلية لمذهب شيخهما أبي حنيفة، ففي مصنفاتهما دونت آراء أبي حنيفة ورواياته، وعن طريقهما وصلت إلينا أصول مذهبه.

كتب أبي يوسف:

لأبي يوسف مصنفات كثيرة منها:

١ - كتاب الخراج:

هو أول تأليف ظهر في العالم الإسلامي يبحث في تنظيم أصول الثروة وضبط أموال الدولة ومواردها الدورية منها - الزكاة والخراج والجزية والعشور - وغير الدورية - خمس الغنائم وخمس المعادن والركاز - على أساس قواعد عادلة تحقق رعاية المصالح العامة.

وهذا الكتاب وضعه أبو يوسف بطلب من الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث سأل هارون الرشيد أبا يوسف أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات، وغير ذلك مما يجب النظر فيه والعمل به.

فأجاب أبو يوسف الخليفة العباسي برسالة مفصلة سماها كتاب الخراج صدرها بخطاب منه إلى الخليفة ضمنه موعظة مطوّلة بقلم بليغ ولسان فصيح لا مداراة فيه ولا خوف إلا من الله.

ومما جاء في هذا الخطاب قوله: «يا أمير المؤمنين، إن الله وله الحمد قد قلّدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب... فلا تضيعن ما قلّدك الله من أمر هذه الأمة والرعيّة... وأقم الحق فيما ولاك الله... ولا تزغ فتزيغ رعيّتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للأخرة، والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإنّ الآخرة تبقى والدنيا تفتنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم، واحذر فإنّ الحذر بالقلب وليس باللسان، واثق الله فإنما التقوى بالتوقّي، ومن يتق الله يققه، واعمل لأجل مفضوض وسبيل مسلوک وطريق مأخوذ وعمل محفوظ ومنهل مورود، فإنّ ذلك المورد الحقّ والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب وتقطع فيه الحجج لعزّة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكأنّ ذلك قد كان، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يوم تزلّ فيه الأقدام وتتغير فيه الألوان ويطول فيه القيام ويشتدّ فيه الحساب... فيالها من عثرة لا تقال، ويا لها من ندامة لا تنفع... فالله الله فإنّ البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلا تلق الله غدا وأنت سالک سبيل المعتدين فإنّ ديان يوم الدين إنّما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم، وقد حذرك الله فاحذر فإنّك لم تخلق عبثا ولن تترك سدى، وإنّ الله سائلك عمّا أنت فيه وعمّا عملت به، فانظر ما الجواب... واحذر أن تضيع رعيّتك فيستوفي ربّها حقّها منك ويضيعك - بما أضعت - أجرك... وإنّ جور الراعي هلاك للرعيّة، واستعانتة بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة... وليس شيء أحبّ إلى الله من الصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي كفر النعم، وقلّ من كفر من قوم قطّ النعمة ثمّ لم يفرغوا إلى التوبة إلاّ سلبوا عزّهم وسلط الله عليهم عدوهم... وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك وبيّنته، فتفقّه وتدبره وردّد قراءته حتّى تحفظه، فإنّي قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك

والمسلمين نصحاً، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه، وإني لأرجو - إن عملت فيه من البيان - أن يوفّر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيتك، فإنّ صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم».

وأعقب هذه الموعظة البليغة بأحاديث وأثار حسنة فيها ترغيب وتحضيض.

ثمّ فضّل بعد ذلك القول في المسائل المتعلقة بمباحث النظام المالي وتوسّع في استقصاء الأخبار والآراء والاستدلال عليها بما يهتدى به إلى أقوم الطرق في تدبير شؤون الدولة الماليّة.

وقد استند في بناء آرائه وتقرير أقواله على روايات رواها عن بعض شيوخه الكوفيين، وأخرى رواها عن بعض شيوخه من أهل المدينة، كما روى أيضاً عن بعض الشيوخ من أهل الشام ومن علماء البصرة، وأكثر رواياته كانت عن شيخه أبي حنيفة، ثمّ عن الأعمش فالحجاج بن أرطاة فالقاضي ابن أبي ليلى، ولم يحدث عن الإمام مالك بن أنس إلا في موطن واحد.

وروى عن أهل الأثر وأصحاب الحديث من أمثال سفيان بن عيينة وعبد الملك ابن جريج والليث بن سعد وابن أبي نجيح وهشام بن عروة ويحيى بن سعيد وأمثالهم في مواضع عديدة من كتابه.

وقد فاق عدد شيوخه الذين روى عنهم ما في هذا الكتاب من تشريع وأحكام وأخبار، المائة شيخ، وذلك لأنّ أبا يوسف كان أتبع أصحاب أبي حنيفة للحديث، فكان يكثر من نقل الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، واستحقّ بذلك ثناء يحيى بن معين عليه وتوثيقه له.

وعموماً يعتبر كتاب الخراج لأبي يوسف أفضل أساس لنظام ماليّ عادل، وقد سار عليه هارون الرشيد، وكان من سيره عليه أن زادت ثروة

البلاد في ذلك العهد للدولة والأفراد حتى أن بعض أخبار الشراء في ذلك العهد لا تكاد تصدق^(١).

- ٢ - كتاب الأمالي:

ذكره ابن النديم في الفهرست، واعتمده السرخسي في كتابه الأصول^(٢)، والكتاب هو أمال أملاها أبو يوسف حين كان يجلس لإلقاء دروس العلم وحوله تلاميذه، فيتكلم أبو يوسف بما يفتح الله عليه من العلم ويكتب التلاميذ عنه ذلك، ويجمعون ما كتبه فتصير كتباً ويسمّون ذلك الإملاء والأمالي، وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم.

وقد روى أمالي أبي يوسف، تلميذه القاضي بشر بن الوليد الكندي، وقد احتوى كتاب الأمالي على ستة وثلاثين كتاباً مما فرّعه أبو يوسف.

- ٣ - كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى:

جمع فيه أبو يوسف مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى، وانتصر فيه لآراء شيخه، وروى الكتاب عن أبي يوسف محمد بن الحسن، وأورد هذا الكتاب الإمام الشافعي في الأم، حيث أورد آراء أبي حنيفة وابن أبي ليلى وأبي يوسف ثم يرجح بعد ذلك ما ظهر له منها، وربما ذهب إلى رأي مغاير لما ذهب إليه هؤلاء.

وإليك من هذا الكتاب مثالين^(٣):

أولهما من باب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، قال: إذا اشترى الرجل أرضاً فيها نخل فيها حمل، فلم يذكر النخل ولا الحمل، فإنّ أبا

(١) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاص ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) الفهرست ص ٢٥٦، أصول السرخسي ٣٣٣/١، تاريخ التراث العربي ٥٤/٣.

(٣) الأم ٩٣/٧ - ٩٤، ١٠١.

حنيفة رضي الله تعالى عنه كان يقول: النخل للمشتري تبعاً للأرض، والثمرة للبائع إلا أن يشترط المشتري، بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اشترى نخلاً مؤثراً فثمرته للبائع، إلا أن يستثنيه المشتري»، وبه يأخذ - يعني أبا يوسف -، وكان ابن أبي ليلى يقول: الثمرة للمشتري.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: وإذا اشترى الرجل أرضاً فيها نخل، وفي النخل ثمرة، فالثمرة للبائع إذا كان قد أثمر، وإن لم يؤثّر فهو للمشتري، والأرض بالنخل للمشتري.

والمثال الثاني من باب المزارعة، قال الشافعي: إذا أعطى الرجل أرضاً مزارعة بالنصف أو الثلث أو الربع، أو أعطى نخلاً أو شجراً معاملة بالنصف أو أقلّ من ذلك أو أكثر، فإنّ أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه كان يقول: هذا باطل لأنّه استأجر شيئاً مجهولاً، يقول: رأيت لو لم يخرج من ذلك شيء، أليس كان عمله ذلك بغير أجر؟، وكان ابن أبي ليلى يقول: ذلك كلّه جائز، بلغنا عن رسول الله ﷺ أنّه أعطى خيبر بالنصف، فكانت كذلك حتى قبض، وخلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وعامة خلافة عمر، وبه يأخذ - يعني أبا يوسف -، وإنّما القياس هذا عندنا مع الأثر، ألا ترى أنّ الرجل يعطي الرجل مالاّ مضاربة بالنصف، ولا بأس بذلك، وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب وعن عبدالله بن مسعود وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهم أنّهم أعطوا مالاّ مضاربة، وبلغنا عن سعد بن أبي وقاص وعن ابن مسعود أنّهما كانا يعطيان أرضهما بالربع والثلث.

- ٤ - كتاب الردّ على سيرة الأوزاعي:

بيّن أبو يوسف في هذا الكتاب ما اختلف فيه أبو حنيفة والأوزاعي في مسائل تتعلق بالجهاد، وانتصر في أغلبها لرأي شيخه، وأورد الشافعي هذا الكتاب في الأمّ، واستدرك على كلّ مسألة برأيه، وكان غالباً ما ينتصر للأوزاعي.

واليك مثلاً اقتبسناه من مسائل تحت عنوان: حال المسلمين يقاتلون العدو وفيهم أطفالهم^(١).

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا حصر المسلمون عدوهم فقام العدو على سورهم معهم أطفال المسلمين يتترسون بهم، قال: يرمونهم بالنبل والمنجنيق يعمدون بذلك أهل الحرب ولا يتعمدون بذلك أطفال المسلمين، وقال الأوزاعي: يكف المسلمون عن رميهم، فإن برز أحد منهم رموه، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ...﴾ حتى فرغ من الآية، فكيف يرمي المسلمون من لا يروونه من المشركين؟.

قال أبو يوسف: تأول الأوزاعي هذه الآية في غير موضعها، ولو كان يحرم رمي المشركين وقتالهم إذا كان معهم أطفال المسلمين لحرم ذلك أيضاً منهم إذا كان معهم أطفالهم ونساؤهم، فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والأطفال والصبيان، وقد حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف وأهل خيبر وقريظة والنضير، وأجلب المسلمون عليهم فيما بلغنا أشد ما قدروا عليه، وبلغنا أنه نصب على أهل الطائف المنجنيق، فلو كان يجب على المسلمين الكف عن المشركين إذا كان في ميدانهم الأطفال لنهى رسول الله ﷺ عن قتلهم لم يقاتلوا، لأن مدائنهم وحصونهم لا تخلو من الأطفال والنساء والشيخ الكبير والصغير والأسير والتاجر، وهذا من أمر الطائف وغيرها محفوظ مشهور من سنة رسول الله ﷺ وسيرته، ثم لم يزل المسلمون والسلف الصالح من أصحاب محمد ﷺ في حصون الأعاجم قبلنا على ذلك، لم يبلغنا عن أحد منهم أنه كف عن حصن برمي ولا غيره من القوة لمكان النساء والصبيان، ولمكان من لا يحل قتله لمن ظهر منهم.

والكتاب عموماً هو صورة معبرة ومثال حي عن منهج هؤلاء الأئمة

(١) الأم ٣١٧/٧ - ٣١٨.

الأعلام وطريقتهم في استنباط الأحكام واستقراء المسائل والتخريج عليها ونقد الخصم.

ولأبي يوسف كتباً أخرى، وهي: كتاب الآثار وكتاب الأصول وكتاب اختلاف الأمصار وكتاب الردّ على مالك بن أنس وكتاب الجوامع ألفه ليحيى بن خالد البرمكي يحتوي على أربعين كتاباً - فصلاً - ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به، وكتاب أدب القاضي وكتاب الصلاة وكتاب الزكاة وكتاب الصيام وكتاب الفرائض وكتاب البيوع وكتاب الحدود وكتاب الوكالة وكتاب الوصايا وكتاب الصيد وكتاب الذبائح وكتاب الغصب وكتاب الاستبراء^(١).

كتب محمد بن الحسن:

صنّف محمد بن الحسن الشيباني الكتب الكثيرة والمفيدة في المذهب، وقد لاقت كتبه من العناية شرحاً وتعليقاً ونظماً واختصاراً ما لم تلقه كتب غيره من الأقران والتلاميذ.

وأشهر كتبه ستّة وهي: المبسوط والجامع الصغير والجامع الكبير والزيادات والسير الكبير والسير الصغير، وتسمّى بالأصول أو بكتب ظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهي إما متواترة أو مشهورة عنه.

ثمّ تأتي كتبه التي لم ترق إلى منزلة كتب الصنف الأوّل، وهي التي تعرف بكتب مسائل النوادر أو غير ظاهر الرواية، وسمّيت بذلك لأنها لم ترو عن محمد بن الحسن بروايات ظاهرة صحيحة ثابتة كالكتب الأولى، وهذه الكتب هي: الكيسانيات والهارونيات والجرجانيات والرقيات^(٢).

(١) الفهرست ص ٢٥٦ - ٢٥٧، وفيات الأعيان ٣٧٨/٦، كشف الظنون ٤١٧/٦، تاريخ التراث العربي ٥٤/٣.

(٢) كشف الظنون ١٤١/١، و٢٥٩/٢ - ٢٦١.

كتب ظاهر الرواية:

- ١ - المبسوط^(١):

ويعرف أيضاً بكتاب الأصل سمي به لأنه أول كتبه تصنيفاً، وقد أملاه محمد بن الحسن على أصحابه فكانت نسخ المبسوط المروية عن محمد بن الحسن متعدّدة، غير أنّ أظهرها مبسوط أبي سليمان الجوزجاني.

ألّفه مفرداً، فألّف في بداية الأمر مسائل الصلاة وسمّاه كتاب الصلاة، ومسائل البيوع وسمّاه كتاب البيوع، وهكذا الإيمان والإكراه، ثمّ جمعت فصارت مبسوطاً.

وقد روي أنّ الإمام الشافعي استحسّنه وحفظه.

والمبسوط من أجل كتبه وأكبرها وأبسطها بل هو أطول كتب محمد بن الحسن وأغزرها مادة، حيث احتوى آلاف المسائل في مختلف الأبواب الفقهيّة، فيذكر المسألة ويفرّع عليها فروعاً كثيرة حتّى قيل إن العالم إذا طالع كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن يتحير من تبحر مؤلّفه وتغلّغه وتخريج المسائل الكثيرة.

ومنهجه في المبسوط: البدء بذكر الآثار في بداية كلّ كتاب ثمّ عرض المسائل المتعلّقة بها، وغالباً ما يختم كلّ كتاب بالتعرّض للمسائل التي اختلف فيها أبو حنيفة مع ابن أبي ليلى.

- ٢ - الجامع الصغير:

يشتمل هذا الكتاب على ألف وخمسمائة واثنين وثلاثين مسألة كما قال البزدوي، وقد ذكر الاختلاف فيه في مائة وسبعين مسألة، ولم يذكر القياس والاستحسان إلّا في مسألتين.

وأكثر مسائل الجامع الصغير مذكورة في المبسوط، ذكرها محمد بن الحسن غير مرتّبة.

(١) المبسوط، مقدّمة المحقّق ص ٦، كشف الظنون ١/١٤١، و٢/٢٦١، ٤٨٣.

وسبب تأليف محمد بن الحسن للجامع الصغير كان يطلب من أبي يوسف، وذلك أنّ محمد بن الحسن حين فرغ من تصنيف المبسوط أمره أبو يوسف أن يصنّف كتاباً يجمع فيه ما حفظ عنه ممّا رواه له عن أبي حنيفة فجمع ثمّ عرضه عليه، فكان أبو يوسف على جلالته لا يفارق هذا الكتاب في حضر ولا سفر.

وعلماء الحنفيّة يعظّمون هذا الكتاب، ويقولون: من فهم هذا الكتاب فهو أفهم أصحابنا، ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا، وكان المتقدمون من مشايخ الحنفيّة يرون أنّ المرء لا يصلح للفتوى ولا للقضاء إلّا إذا علم مسأله، وكانوا لا يقلّدون أحداً القضاء حتّى يمتحنوه، فإن حفظه قلّدوه القضاء وإلّا أمره بالحفظ.

وعلى الكتاب شروح كثيرة ومنظومات عديدة^(١).

- ٣ - الجامع الكبير :

وهذا الكتاب كاسمه جامع كبير لجلائل مسائل الفقه، قد اشتمل على عيون الروايات ومتون الدرايات بحيث كاد أن يكون معجزاً، ولتمام لطائف الفقه منجزاً، وقد امتدّت أعناق ذوي التحقيق نحو تحقيقه واشتدّت رغباتهم في الاعتناء بشرحه وواختصاره وشرح مختصراته ونظمه.

وقيل الجامع الكبير هو أحسن الكتب المؤلّفة في الفقه، وأحسن أبوابه كتاب الإيمان^(٢).

- ٤ - الزيادات :

سمّي به لأنّ محمد بن الحسن كان يختلف إلى أبي يوسف وكان يكتب من أماليه، فجرى على لسان أبي يوسف أنّ محمداً يشقّ عليه

(١) كشف الظنون ١/٤٤٣ - ٤٤٥، تاريخ التراث العربي ٣/٦٧ - ٧٠.

(٢) كشف الظنون ١/٤٤٨، تاريخ التراث العربي ٣/٥٩ - ٦٦.

تخريج هذه المسائل، فبلغه فبناه مفرعاً على كل مسألة باباً وسمّاه الزيادات، أي زيادات على ما أملاه أبو يوسف.

وقيل إنّما سمّي به لأنه لما فرغ من تصنيف الجامع الكبير تذكّر فروعاً لم يذكرها في الجامع الكبير فصنّف هذا الكتاب تفرعاً على التفرعات المذكورة واستدرك فيه ما فاته في الجامع الكبير من المسائل، ثمّ تذكّر فروعاً أخرى فجمعها وجعلها في مصنّف آخر سمّاه زيادات الزيادات وجعله في سبعة أبواب^(١).

- ٥ و ٦ - السّير الصغير والكبير:

صنّف محمد بن الحسن أوّل الأمر كتاب السّير الصغير فوقع بيد الأوزاعي، فقال: لمن هذا الكتاب؟ ف قيل لمحمد العراقي، فقال: ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب، فإنّه لا علم لهم بالسّير، فبلغ ذلك محمداً فصنّف عند ذلك السّير الكبير، فلمّا نظر فيه الأوزاعي قال: لولا ما ضمّنه من الأحاديث لقلت: إنّه يضع العلم من نفسه.

والسير الكبير هو آخر مصنّفات محمد بن الحسن، ولم يذكر اسم أبي يوسف في شيء منه لأنّ محمد بن الحسن كان قد كتبه بعد أن استحكمت النفرة بينهما، فكان كلّما احتاج إلى رواية عنه قال: أخبرني الثقة.

وقد حمل هذا الكتاب إلى الخليفة العبّاسي هارون الرشيد، فنظر فيه فأعجبه وعدّه من مفاخر أيامه ثمّ بعث بولديه الأمين والمأمون إلى مجلس محمد بن الحسن ليستمعوا منه، وكان إسماعيل بن توبة المؤدّب يحضر معهم^(٢).

(١) كشف الظنون ١٥/٢ - ١٦، تاريخ التراث العربي ٥٧/٣ - ٥٩.

(٢) كشف الظنون ٥٣/٢، تاريخ التراث العربي ٧١/٣ - ٧٢.

كتب غير ظاهر الرواية:

١ - الكيسانيات:

تعرف أيضاً بأمالي محمد بن الحسن، وسمّيت بالكيسانيات نسبة إلى سليمان بن سعيد الكيساني وهو الذي رواها عن محمد بن الحسن^(١).

٢ - الجرجانيات:

وهي مسائل رواها علي بن صالح الجرجاني عن محمد بن الحسن، فسمّيت نسبة إلى راويها^(٢).

٣ - الرقيات:

وهي مسائل جمعها محمد بن الحسن وفرّعها عندما كان قاضياً بالرقّة، فسمّيت لذلك بالرقّيات، وقد رواها عنه تلميذه محمد بن سماعة^(٣).

٤ - الهارونيات:

وهي مسائل جمعها محمد بن الحسن لرجل اسمه هارون، فسمّيت تبعاً لذلك بالهارونيات.

وذكر لمحمد بن الحسن من الكتب إضافة إلى ذلك: كتاب الاحتجاج على مالك^(٤)، وكتاب الآثار: وهو مختصر على ترتيب الفقه، ذكر فيه ما روي عن أبي حنيفة من الآثار^(٥)، وكتاب الكسب، ومنه مختصر لتلميذه محمد بن سماعة^(٦)، وكتاب الحجّة في اختلاف أهل الكوفة وأهل المدينة وذكر له عنوان آخر وهو: الحجج المبينة على أهل المدينة، ولعله أن يكون هو ذات الكتاب الذي ذكره ابن النديم بعنوان: كتاب الردّ

(١) كشف الظنون ٤٤١/٢، الفهرست ص ٢٥٨.

(٢) كشف الظنون ٤٥٨/١.

(٣) كشف الظنون ٦٨٠/١.

(٤) كشف الظنون ٧٧/١.

(٥) كشف الظنون ٣٣٧/٢، تاريخ التراث العربي ٧١/٣.

(٦) كشف الظنون ٣٨٦/٢، تاريخ التراث العربي ٧٥/٣.

على أهل المدينة، ويعتبر هذا التأليف أقدم كتاب وصل إلينا في مسائل الخلاف الفقهي^(١)، وذكر له ابن النديم من الكتب أيضاً: كتاب اجتهاد الرأي وكتاب الاستحسان وغيرها، وقد أوصل عدتها إلى سبع وستين كتاباً^(٢).

وذكر له من الكتب أيضاً: كتاب المخارج في الحيل عن أبي حنيفة برواية أبي يوسف^(٣) غير أنّ أبا سليمان الجوزجاني قال: كذبوا على محمد، ليس له كتاب الحيل^(٤).

وأما زفر والحسن بن زياد فلم يكن لهما ما كان للصاحبين من الحظ في ذلك، ولم تلق كتبهما من الاعتبار والاعتناء ما لاقته كتب أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

ثم هذا أتباع هؤلاء وتلاميذهم حذوهم وشاركوهم التصنيف في المذهب وكتبوا في الفتاوى والواقعات وجمعوا المسائل التي استنبطوها ولم يجدوا فيها رواية عن أصحاب المذهب المتقدمين عنهم، وربما خالفوا شيوخهم من أصحاب المذهب كما خالف الأصحاب أبا حنيفة للدلائل ظهرت لهم.

فصنّف في النوادر كلّ من هشام بن عبيدالله ومحمد بن سماعة والمعلّى بن منصور وبشر بن الوليد ومحمد بن شجاع والجوزجاني^(٥)، وصنّفوا في أبواب من الفقه مختلفة - كما مرّ أثناء ترجمتهم -.

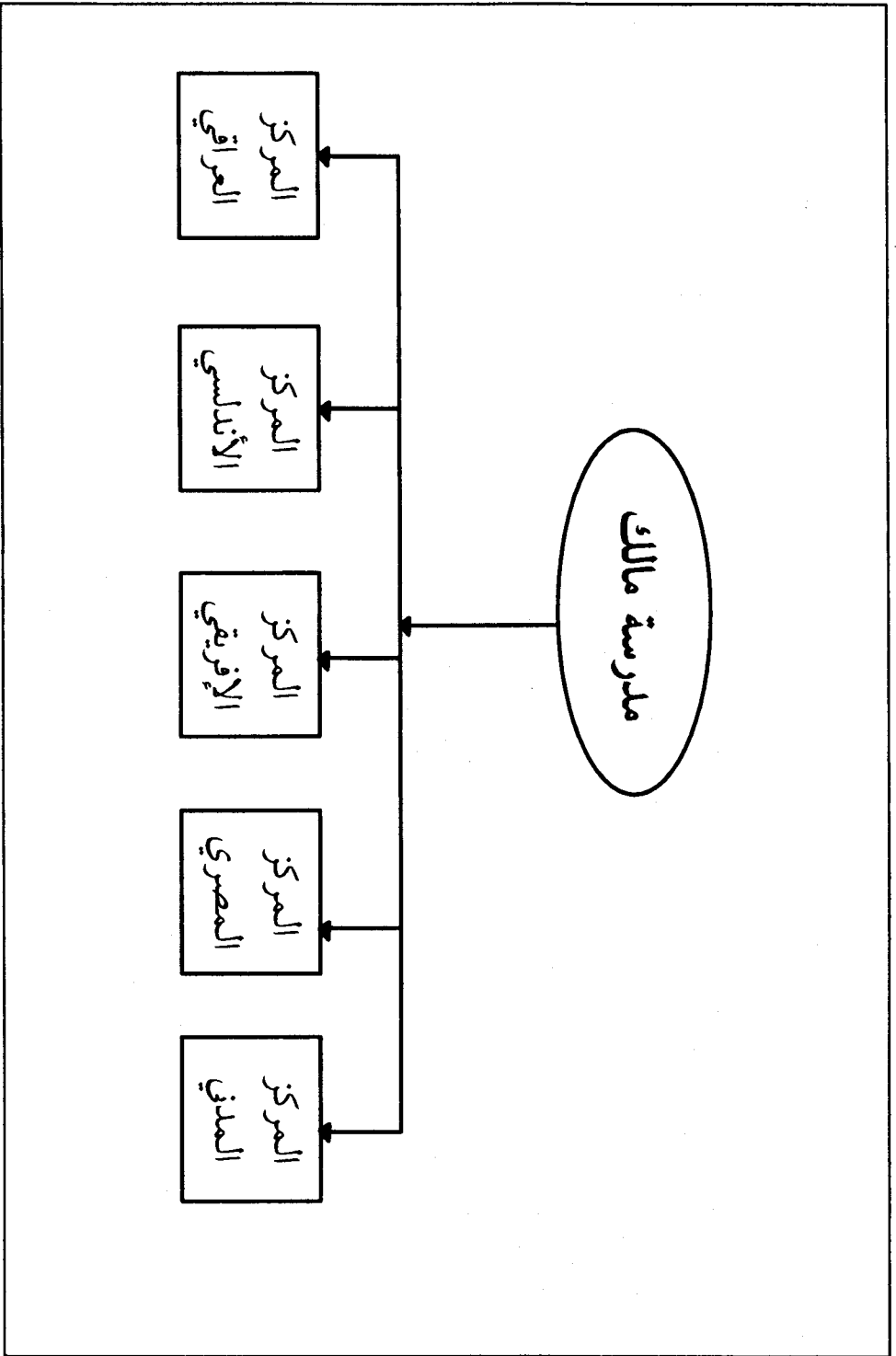
(١) تاريخ التراث العربي ٧٥/٣، الفهرست ص ٢٥٨.

(٢) الفهرست ص ٢٥٨.

(٣) تاريخ التراث العربي ٧٣/٣.

(٤) كشف الظنون ٣٥٩/٢.

(٥) كشف الظنون ٢٦٠/٢ - ٢٦١.



لقد كان المذهب المالكي مذهباً انتشارياً، تعددت مراكزه بين مصر والعراق وإفريقية والأندلس إضافة إلى مركزه الأصلي الذي هو الحجاز، وكان في جميع تلك المراكز مهيمناً لا يكاد ينازعه غيره من المذاهب الموجودة آنذاك، إلا ما كان من المركز العراقي مهد المذهب الحنفي ومرتعه الأصلي.

وقد بدأ انتشار المذهب المالكي بادية الأمر في حياة مؤسسه، ثم توسعت قاعدته توسعاً كبيراً، عرفت خلالها مراكزه نوعاً من الاختلاف في الفتوى والاجتهاد داخل المذهب - بحكم ما عرف به الإمام مالك من مراجعة مستمرة لأقواله وإعادة نظر متواصلة لاجتهاداته وفتاويه ..

فكان من أهل المدينة:

* المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي (١٢٤هـ - ١٨٦هـ) فقيه المدينة بعد مالك، وقد كان للإمام مالك مجلس كالدكة يقعد فيه وإلى جانبه المخزومي لا يجلس فيه سواه^(١).

* وعبدالعزيز بن أبي حازم (١٠٧هـ - ١٨٥هـ) وكان إمام الناس في العلم بعد مالك، ولم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه، وكان يذهب مذهب مالك^(٢).

* ومحمد بن إبراهيم بن دينار (١٨٢هـ) وكان له بالعلم رواية وعناية، وكان من فقهاء المدينة زمان مالك، وكان من قدماء أصحاب مالك وكبارهم، شركه في بعض رجاله ودرس معه على ابن هرمز، وما رئي في أصحاب مالك من المدنيين أفقه منه، وكان يفتي بما يعلم من مذهب

(١) ترتيب المدارك ١/١٨٢ - ١٨٣، الديباج المذهب ص ٤٢٥ - ٤٢٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

(٢) ترتيب المدارك ١/٢٨٦ - ٢٨٨، الديباج ص ٢٥٩ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

مالك، وكان هو والمغيرة أفقه أهل المدينة^(١).

وكان مدار الفتوى في زمان مالك وبعده على هؤلاء الثلاثة.

* وسليمان بن بلال (١٧٦هـ) أحد ثقات أهل المدينة، شارك مالكا في كثير من رجاله، وكان من أجل أصحابه وأخصهم به، وهو أول من جلس مع الإمام مالك حين انعزل عن مجلس ربيعة وجعل لنفسه مجلساً^(٢).

* عبدالعزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي (١٨٦هـ) صحب مالكا وغلب عليه الحديث، وكان يذهب مذهب مالك وعدّ من خير فقهاء المدينة بعد مالك^(٣).

* وعثمان بن عيسى بن كنانة (١٨٦هـ) أخذ عن مالك وكان يجلس عن يمين مالك لا يفارقه، وغلب عليه الرأي، فكان مالك يحضره لمناظرة أبي يوسف عند الرشيد، وهو الذي جلس في حلقة مالك بعد وفاته، ولم يكن عند مالك أضبط ولا أدرس من ابن كنانة، وكان ممن يخصه مالك بالإذن عند اجتماع الناس على بابه^(٤).

والملاحظ أنّ هؤلاء الأعلام كانوا يقاربون مالكا في السنّ حتى أنّ بعضهم قد شاركه في التلقّي عن بعض شيوخه، ورغم أنّ مدار الفتوى قد كانت عليهم منذ حياة مالك إلّا أنّ الجميع كانوا يسلمون لمالك بالزعامة والإمامة ويذهبون مذهبه، ومما يروى في ذلك أنّ رجلاً جاء إلى مالك إثر صلاة الصبح، وكان مالك لا يتكلم حتى تطلع الشمس، فجلس الرجل ما شاء الله ثمّ قام ليذهب، فقال له ابن دينار: ما شأنك؟ فأخبره، فأفتاه ابن دينار، فلما فرغ مالك قال لابن دينار: يا محمد تفتي؟ فقال:

(١) ترتيب المدارك ٢٩١/١ - ٢٩٢ الديباج ص ٣٢٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

(٢) ترتيب المدارك ٢٩٧/١ - ٢٩٨، الديباج المذهب ص ١٩٥.

(٣) ترتيب المدارك ٢٨٨/١ - ٢٩٠.

(٤) ترتيب المدارك ٢٩٢/١ - ٢٩٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦ - ١٤٧.

أصلحك الله لم يطمع الرجل فيك وقام ليذهب، فخشيت أن يذهب بحاله فأفتيته بما أعلم من مذهبك^(١)، وحتى من كانت بينه وبين مالك معارضة أول الأمر كما هو الحال بالنسبة للمغيرة المخزومي فقد سلم له بعد ذلك بالرياسة وجالسه^(٢) فكانوا جميعاً يرجعون إلى قوله ويفتون برأيه، ويلتزمون مذهبه.

وقد غلب على بعضهم الحديث والرواية حتى قيل في شأن الدراوردي: هو صاحب حديث وليس صاحب فتوى.

والملاحظ أيضاً أنّ هؤلاء الأصحاب لم يعمرّوا بعد شيخهم طويلاً فأغلبهم لم يبق بعد مالك سوى سبع سنوات على أقصى تقدير، فهياً الله للمدينة ثلثة من الأعلام قاموا مقامهم وكانوا قد تلقوا عنهم، كما تلقوا عن مالك ونظرائه، فكان تكوينهم مشتركاً بين الإمام وعلية أصحابه، وأشهر هؤلاء هم:

١ - عبدالله بن نافع الصائغ:

هو أبو محمد عبدالله بن نافع^(٣)، وكان أبوه صائغا فعرف بالصائغ، صحب الإمام مالك أربعين سنة ولزمه لزوماً شديداً وتفقه به ونظرائه، وما كتب عنه شيئاً وإنما كان يحفظ ما يسمعه منه، وفي ذلك يقول أشهب: ما حضرت لمالك مجلساً إلاّ وابن نافع حاضر، وما سمعت إلاّ وقد سمع، لكنّه كان لا يكتب.

وكان ابن نافع صاحب رأي مالك ومفتي أهل المدينة برأي مالك، وهو الذي سمع منه سحنون وكبار أتباع أصحاب مالك، والذي سماعه

(١) ترتيب المدارك ٢٩١/١ - ٢٩٢.

(٢) نفس المصدر ٢٨٣/١.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٧ - ترتيب المدارك ٣٥٦/١ - ٣٥٨ الديباج المذهب ص ٢١٣ شجرة النور الزكية ص ٥٥ - ٥٦، شذرات الذهب ٩١/٢، طبقات ابن سعد ٤٣٨/٥، تهذيب التهذيب ٥١/٦ - ٥٢.

مقرون بأشهب في العتبية، وروايته في المدونة نفيسة، وكان قد جلس مجلس مالك بعد عثمان بن عيسى بن كنانة، وعدّه ابن حبيب وابن حارث فيمن خلف مالكا في الفقه بالمدينة، وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٨٦هـ وذكره صاحب شذرات الذهب في وفيات سنة ٢٠٦هـ.

له تفسير في الموطأ رواه عنه يحيى بن يحيى.

- ٢ - عبدالملك بن الماجشون:

هو أبو مروان عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون^(١) تفقه بأبيه عبدالعزيز وبمالك وابن أبي حازم وابن دينار والمغيرة وغيرهم.

كان من الفقهاء المبرزين ومفتي أهل المدينة في عصره وعليه دارت الفتيا في زمانه، وعلى أبيه من قبله، فهو فقيه ابن فقيه، وكان إذا ناظر الشافعي لم يعرف الناس كثيراً ممّا يقولون لفصاحتها.

تفقه به خلق كثير وأئمة جلة كابن المعذل وابن حبيب وسحنون.

وكان صاحب أتباع وأثر، فقد روي أنّ سحنونا كتب إليه يذكر ما حدث عندهم من الكلام في التشبيه والقرآن، ويسأله الجواب عليه، فكتب إليه عبدالملك: من عبدالله بن الماجشون إلى سحنون بن سعيد، سلام عليكم فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد وفقنا الله وإياكم لطاعته، سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل، فيكيفك من مضى من صدر هذه الأمة أتبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء منها، وقد خلص الدين إلى العذراء في خدرها، فما قيل لها كيف ولا من أين؟ فاتبع لما أتبعوا واعلم أنّه العلم الأعظم الذي لا يشاء الرجل أن يتكلم في شيء من هذا، فيكبّ فيهوى في نار جهنم.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٨، الفهرست ص ٢٥١، ترتيب المدارك ٣٦٠/١ -

٣٦٥، الديباج المذهب ص ٢٥١ - ٢٥٢، شجرة النور الزكية ص ٥٦، وفيات

الأعيان ١٦٦/٣ - ١٦٧.

وكانت وفاته سنة ٢١٢هـ وقيل ٢١٤هـ، وقد جاوز الستين سنة.
له كتاب سماعته، وكتب ألفه في فروع الفقه المالكي يرويه عنه
يحيى بن حمّاد السجلماني.

- ٣ - مطرف بن عبدالله:

هو أبو مصعب مطرف بن عبدالله بن مطرف بن سليمان بن يسار^(١)
ابن أخت مالك، تفقه بمالك وعبدالعزیز بن الماجشون وابن أبي حازم وابن
دينار وابن كنانة والمغيرة.

صحب الإمام مالك سبع عشرة سنة وكان مقدماً على أصحابه، وكان
ممن امتحن في مسألة خلق القرآن أيام المأمون العباسي.
توفي بالمدينة سنة ٢٢٠هـ.

- ٤ - معن بن عيسى:

هو أبو يحيى معن - وقيل معين - بن عيسى بن يحيى بن دينار
القرظي^(٢) ربيب مالك ومن كبار أصحابه وأوثقهم وأثبتهم فيه.

كان أشد الناس ملازمة لمالك، وكان مالك يتكىء عليه عند خروجه
إلى المسجد حتى قيل له عصية مالك، وهو الذي قرأ عليه الموطأ للرشيد
وابنيه، وكان يتوسد عتبة مالك فلا يلفظ بشيء إلا كتبه، قال علي بن
المديني: أخرج إلينا معن أربعين ألف مسألة سمعها من مالك.

وقد ذكر الترمذي في جامعه الصحيح كثيراً من سماعات معن بن
عيسى وروايته عن مالك.

وكانت وفاته سنة ١٩٨هـ.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٧ ترتيب المدارك ٣٥٨/١ - ٣٦٠، الديباج ص
٤٢٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٨، ترتيب المدارك ٣٦٧/١ - ٣٦٩، الديباج ص
٤٢٦، شذرات الذهب ٥٩/٢، تذكرة الحفاظ ٣٣٢/١.

- ٥ - عبدالله إسماعيل بن أويس:

هو أبو عبدالله عبدالله بن عبدالله بن أبي أويس بن أبي عامر الأصبحي^(١) ابن عمّ مالك وابن أخته وزوج ابنته.

جالس خاله مالكا ٢١ سنة، من سنة ١٥٨هـ إلى أن مات، وقد روى عن مالك حديثاً كثيراً وفتحاً غزيراً وسمع منه الناس بالحجاز والعراق، وكانت وفاته سنة ٢٢٦هـ.

- ٦ - حبيب بن أبي حبيب:

هو مدني انتقل إلى مصر، وقد عدّه البعض في أعلام المصريين لأنه توفي بها، كان كاتب مالك وقارئه، وبقراته سمع الناس الموطأ.

روى عن مالك الموطأ والفقه وكثيراً من الحديث، وكانت وفاته بمصر سنة ٢١٨هـ^(٢).

- ٧ - أبو مصعب أحمد بن أبي بكر:

هو أبو مصعب أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث الزهري^(٣) فقيه أهل المدينة غير مدافع وقاضيها، روى عن مالك وتفقه بأصحابه المغيرة وابن دينار والدراوردي وغيرهم، وكان يميل إلى الرأي، ولي قضاء الكوفة ثم ولي قضاء المدينة.

روي أنه قال لأهل المدينة: لا تزالون ظاهرين على أهل العراق ما دمت لكم حياً.

له كتاب المختصر في الفقه مشهور، وروايته لموطأ مالك فيها زيادة

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩ ترتيب المدارك ٣٦٩/١ - ٣٧٠.

(٢) ترتيب المدارك ٣٧٨/١ - ٣٧٩.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩ ترتيب المدارك ٥١١/٢ - ٥١٣ الديباج المذهب ص ٨٣، شذرات الذهب ٢٢٩/٢، تهذيب التهذيب ٢٠/١، تذكرة الحفاظ ٤٨٢/٢.

مائة حديث على رواية يحيى بن بكير، وكانت وفاته بالمدينة سنة ٢٤٢هـ، وقد جاوز التسعين.

وكان من أهل مصر العدد الوفير من الذين نشروا مذهبه، من أشهرهم:

* عثمان بن عبدالحكم الجذامي (١٦٣هـ) كانت له روايات مشهورة عن مالك، وله عنه نحو سبعة عشر حديثاً، وهو أول من أدخل علم مالك إلى مصر^(١).

* وعبدالرحيم بن خالد الإسكندراني (١١٠هـ - ١٦٣هـ) كان من أقران ابن أبي حازم ومن نظرائه، روى عن مالك الموطأ، وكان مالك يعجب به، قدم مصر بمسائل مالك فتفقّه به عبدالرحمن بن القاسم قبل أن يرحل إلى مالك^(٢).

* وسعد بن عبدالله المعافري (١٧٣هـ) من أقران عبدالرحيم ومن كبراء أصحاب مالك من المصريين به تفقّه عبدالله بن وهب وابن القاسم، حتى قال ابن القاسم: ما خرجت إلى مالك إلا وأنا عالم بقوله، وكان سعد قد أعان ابن وهب على تأليفه^(٣).

* وطليب بن كامل اللخمي (١٧٣هـ) من كبار أصحاب مالك وجلسائه، وبه وبعبدالرحيم وسعد تفقّه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك، وكانوا عنده أوثق أصحاب مالك^(٤).

والملاحظ أنّ جميع هؤلاء الأعلام قد ماتوا قبل مالك، ورغم تقدّم وفاتهم إلا أنّهم قد هيّؤوا المركز المصري تهيئة كاملة تامّة، حتى أصبح

(١) ترتيب المدارك ٣٠٩/١ - ٣١٠ الديباج المذهب ص ٢٨٧.

(٢) ترتيب المدارك ٣١٠/١ - ٣١١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩.

(٣) ترتيب المدارك ٣١١/١ - ٣١٢ الديباج ص ٢٠٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠.

(٤) ترتيب المدارك ٣١٤/١ الديباج المذهب ص ٢١١.

بعد وفاة مالك المركز الأهم للمذهب من حيث العدد الأوفر والأكبر قيمة من أصحاب مالك، وقد روي أنّ سعداً المعافري كان قد أعان ابن وهب على تأليفه، وأنّ ابن القاسم ما خرج من مصر قاصداً الإمام مالك إلا وهو عالم بقوله مستوعب لآرائه^(١).

فنشأ بمصر أعلام قصدوا الرحلة إلى مالك واشتهروا بطول ملازمته وكثرة الرواية عنه حتى عدّوا مشائخ المذهب وكبراء أهله، أشهرهم أربعة، وهم:

١ - عبدالرحمن بن القاسم:

هو أبو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم العتقي^(٢)، ولد بمصر سنة ١٢٨هـ وقيل ١٣٢هـ، تفقه بمالك وبنظرائه، فروى عن الليث بن سعد وعبدالعزیز بن الماجشون ومسلم بن خالد الزنجي وابن الدراوردي وابن أبي حازم وعثمان بن عبدالحكم الجذامي وعبدالرحيم بن خالد الإسكندراني وسعد بن عبدالله المعافري وغيرهم.

ولم يخرج لمالك حتى سمع من المصريين، وفي ذلك يقول ابن القاسم: ما خرجت إلى مالك إلا وأنا عالم بقوله.

أنفق أموالاً كثيرة في طلب العلم وصحب مالكاً عشرين سنة سألها فيها عن دقائق الفقه، حتى أصبح راوية المسائل عن مالك واشتهر بالاختصاص في فقهه وطول صحبته له وحسن العناية بمتابعته بحيث لم يخلط به غيره، مع ما كان فيه من الفهم والعلم والورع فكان أفقه الناس وأعلمهم بعلم مالك والتفريع على أصوله، ولم يرو عن مالك أحد الموطأ

(١) ترتيب المدارك ٣١١/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ كشف الظنون ٧٢٤/٢، ٤١٧/٥، الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٤٣٣/٢ - ٤٤٧، الديباج المذهب ص ٢٣٩ - ٢٤١، شذرات الذهب ٢٦/٢ شجرة النور الزكية ص ٥٨ تهذيب التهذيب ٢٥٢/٦ - ٢٥٤، وفيات الأعيان ١٢٩/٣، تذكرة الحفاظ ٣٥٦/١.

أثبت منه، يقول ابن القاسم: أنخت بباب مالك سبع عشرة سنة ما بعث فيها ولا اشترت شيئاً.

وكان عنده ثلاثمائة جلد عن مالك من المسائل أو نحوها، سأله عنها أسد.

وكان على درجة كبيرة من الفضل والزهد وصحة الرواية وحسن الدراية وحسن الحديث حتى قال فيه الإمام مالك: مثله كمثل جراب مملوء مسكاً، وكانت وفاة ابن القاسم بمصر سنة ١٩١هـ.

- ٢ - عبدالله بن وهب:

هو أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم الفهري القرشي^(١)، ولد بمصر سنة ١٢٥هـ، طلب العلم وهو ابن ست عشرة سنة، وروى عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن أبي ذئب وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وابن جريج وبلغ عدد من روى عنهم نحو أربعمئة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين.

وتفقه بمالك وعبدالمالك بن الماجشون وابن أبي حازم ومحمد بن دينار والمغيرة بن عبدالرحمن المخزومي.

وسمع من مالك قبل ابن القاسم ببضع عشرة سنة، وكان أسنّ من ابن القاسم بثلاث سنين، ودرس على مالك منذ سنة ١٤٨هـ ولم يزل في صحبته إلى أن توفي مالك، وروى عن مالك كتبه وسننه وموطأه، وكان الإمام مالك حين يكتب إليه يلقبه بـ«فقيه مصر»، ولم يكن يفعل ذلك لغيره، فكان يكتب إليه: «عبدالله بن وهب فقيه مصر» و: «إلى أبي محمد

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٤٢١/٢ - ٤٣٣، الديباج المذهب ص ٢١٤ - ٢١٧ شذرات الذهب ٥٠/٢ - ٥١ تاريخ التراث العربي ١٤٤/٣ - ١٤٥ مرآة الجنان ٤٦١/١ شجرة النور الزكية ص ٥٨ - ٥٩ كشف الظنون ٧٢٤/٢، ٣٥٩/٥ - ٣٦٠ طبقات ابن سعد ٥٠٨/٧ تهذيب التهذيب ٧١/٦ وفيات الأعيان ٣٦٣/٣ - ٣٧ طبقات القراء ٤٦٣/١، تذكرة الحفاظ ٣٠٤/١ - ٣٠٦.

المفتي»، وكان مالك يشهد له بالعلم والإمامة فيقول: ابن وهب إمام عالم.
 وكان ابن دينار والمغيرة المخزومي وكبار أصحاب مالك من أهل
 المدينة إذا شكوا في شيء من رأي مالك - وذلك بعد موته - أو اختلفوا
 في قول من أقواله انتظروا قدوم ابن وهب فيصدرون عن رأيه، وربما كتبوا
 إليه فيأتيهم جوابه.

كان مقدماً في كثرة العلم والمسائل، ولم يكن مالك يتكلم بشيء إلا
 كتبه ابن وهب، وكان أفقه من ابن القاسم وأثبت الناس في مالك، وأعلم
 أصحاب مالك بالسنن والآثار، غير أنه كان يتساهل في المشائخ والأخذ
 عنهم تساهلاً شديداً، ولأجل ذلك كان الإمام مالك يقول عنه: أي فتى ابن
 وهب لولا الإكثار.

جمع ابن وهب الفقه والرواية والعبادة فكان إماماً ورزق من العلماء
 محبة وحظوة من مالك وغيره، وكان يسمى ديوان العلم.

كان قد جمع مائة ألف حديث حتى صار محدث بلده في عصره،
 وكان علمه المناسك وعلم ابن القاسم البيوع، وكان كثير الحج، فقد روي
 أنه حج أربعاً وعشرين حجة لقي فيها مالكا.

طلب لقضاء مصر فاستخفى سنة وأشهرها، وقال في ذلك: بينما أنا
 أرجو أن أحشر في زمرة العلماء أحشر في زمرة القضاة؟

وكانت وفاته بمصر سنة ١٩٧هـ، وسبب موته أنه قرىء عليه كتاب
 الأهوال من جامعه الذي كان يرويه، فأخذ في البكاء واستمر القارىء يقرأ
 وابن وهب ينشج رافعا صوته، فلم يزل كذلك حتى مال على الحائط الذي
 كان مستندا إليه ثم أغمي عليه فحمل إلى منزله ولم يعد يعقل شيئاً حتى
 قضى نحبه.

صنف تأليف كثيرة حسنة عظيمة المنفعة، منها سماعه من مالك:
 ثلاثون كتاباً، والموطأ الكبير الذي يكاد أن يكون أهم مصدر للمدونة،
 والموطأ الصغير، وكتاب الجامع في الحديث، الذي وجد غير كامل حديثاً

بمدينة «إدفو» وهو مكتوب على ورق البردي، وكتاب التفسير برواية يونس بن عبدالعلاء وكتاب البيعة وكتاب المناسك وكتاب المغازي والمجالسات عن مالك.

- ٣ - أشهب بن عبدالعزيز:

هو أبو عمرو أشهب بن عبدالعزيز القيسي المعارفي^(١) روى عن مالك والليث بن سعد وسليمان بن بلال وابن لهيعة والدراوردي، وتفقه بمالك والمدنيين والمصريين وقرأ على نافع، وإليه انتهت الرئاسة بمصر بعد وفاة ابن القاسم.

كان أشهب فقيهاً نبيها حسن النظر من المالكيين المحققين، وكان مهيباً، وما كان أحد يناظر أشهب إلا اضطره بالحجة حتى يرجع إلى قوله.

وكان أشهب والشافعي يتصاحبان بمصر ويتذاكران الفقه، وكان ما بينهما متقاربا، في حين كانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم، فكانا - كما قال فيهما سحنون - كفرسي رهان ربّما ووفق هذا وخذل هذا، وربّما خذل هذا ووفق هذا، ولقد كان يأتي حلقة ابن القاسم فيتكلّم في أصول العلم ويفسّر ويحتجّ، وابن القاسم ساكت ما يردّ عليه حرفاً.

وفي الوقت الذي كان ابن القاسم يعتدّ بأراء شيخه مالك ويجعلها أساساً لفتواه وأصلاً لها، نرى أشهب يتحرّر من كلّ قيد عدا قيد الحجة والبرهان، ومما يروى في ذلك أنّ أشهباً جلس يوماً بمكة إلى ابن القاسم فسأله رجل عن مسألة، فتكلّم فيها ابن القاسم فصعّر له أشهب وجهه، وقال: ليس هو كذلك، ثمّ أخذ يفسرها ويحتجّ فيها، فقال له ابن القاسم:

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ ترتيب المدارك ٤٤٧/٢ - ٤٥٣ الديباج المذهب ص ١٦٢ - الفهرست ص ٢٥٢ تاريخ التراث العربي ١٤٥/٣ شذرات الذهب ٨٣/٢ شجرة النور الزكية ص ٥٩ وفيات الأعيان ٢٣٨/١ - ٢٣٩ تهذيب التهذيب ٣٥٩/١ -

الشيخ يقوله عفاك الله - يعني مالكا - فقال أشهب: لو قاله ستين مرة، فلم يراده ابن القاسم.

ولما قرأ أسد بن الفرات على ابن القاسم الأسدية وضع أشهب يده في مثلها فخالفه في جلها، وهي المعروفة بمدونة أشهب، وبكتب أشهب - وقد صفها القاضي عياض بأنها كتاب جليل كبير كثير العلم - فقيل لابن القاسم: يا أبا عبدالله لو أعدت نظرك في هذه الكتب فإن صاحبك قد خالفك، فما لاءمك عليه أقررتة وما خالفك فيه أعدت النظر فيه، فقال: أفعل إن شاء الله، ثم بدا له غير ذلك وقال: لقد وجدت إجابتي يوم أجبته لله وحده فرجوت أن أوفق، وإجابتي اليوم إنما تكون نقضا على صاحبي فأخاف أن لا أوفق في الأمر فتركته.

ولأجل ما كان بين أشهب وابن القاسم من اختلاف في الرواية كان ابن القاسم يقول: كآتي كنت أنا وأشهب نختلف إلى عالمين مختلفين.

وقد صنف يحيى بن عمر (٢٨٩هـ) كتاباً سماه اختلاف ابن القاسم وأشهب جمع فيه ما اختلف فيه الفقيهان المصريان.

ويقال أنّ رجلين من أهل الأندلس قد مشيا بين ابن القاسم وأشهب حتى أفسدوا ما بينهما، فحلف أشهب بالمشي إلى مكة أن لا يكلم ابن القاسم، ثم ندم وأراد أن يمشي تكفيرا عن يمينه، فلما سمع بذلك ابن القاسم قال: هو يحث نفسه ويمشي وأمشي معه فمشيا جميعا وحبجا وعيسى بن دينار معهما.

ورغم ما كان بينهما في ظاهر الأمر من تباعد فإن ذلك لم يمنعهما من قول الحق والإنصاف، فقد ذكر سحنون أنّ ابن القاسم قد قال له: إن كنت مبتغيا هذا العلم بعدي فابتغه عند أشهب.

وبالمثل، فحين سئل أشهب عن ابن وهب وابن القاسم قال: لو قطعت رجل ابن القاسم لكانت أفقه من ابن وهب.

ومما أثر عنه من أقوال، قوله: إنما الورع في المشتبهات وأما الكبائر فكلّ أحد يتقيها.

توفي بمصر سنة ٢٠٤هـ بعد الشافعي بشهر، ودفن قبالة ابن القاسم.

عدد كتب سماعه عشرون كتاباً له كتاب في الفقه رواه عنه سعيد بن حسن الصائغ، وله كتاب اختلاف في القسامة وكتاب الحج برواية سحنون، وقد انتشرت مؤلفات أشهب بالخصوص في قرطبة إذ أن أبا عثمان سعيد بن حسن الصائغ مولى الأمير الحكم بن هشام كان من فقهاء قرطبة وكان راوياً لكتب أشهب ودرس في رحلته المشرقية التي استمرت من سنة ١٧٧هـ - تاريخ بداية الرحلة - إلى سنة ٢٠٤هـ - تاريخ عودته إلى الأندلس - درس بصفة خاصة على أشهب وكان الأغلب على سعيد حفظ رأي أشهب وفقهه.

- ٤ - عبدالله بن عبدالحكم:

هو أبو محمد عبدالله بن عبدالحكم بن أعين^(١) كان متحققاً بمذهب مالك، وممن عقد على مذهبه وفرّع على أصوله، وهو أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، أفضت إليه الرئاسة بعد أشهب.

سمع مالكا والليث بن سعد وابن لهيعة وابن عيينة وغيرهم، وله سماع من مالك الموطأ ونحو ثلاثة أجزاء، كما روى عن بن وهب وابن القاسم وأشهب كثيراً، صنّف كتاباً اختصر فيه أسماعته ثم اختصر منه كتاباً صغيراً وعلى هذين الكتابين مع غيرهما نقول المالكيين من البغداديين في المدارس.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥١ ترتيب المدارك ٥٢٣/٢ - ٥٢٨ الديباج المذهب ص ٢١٧ - ٢١٨، الفهرست ص ٢٥١ تاريخ التراث العربي ١٤٧/٣ شذرات الذهب ١٢٣/٢ شجرة النور الزكية ص ٥٩ البداية والنهاية ٢٦٩/١٠ كشف الظنون ٣٦٠/٥ تهذيب التهذيب ٢٨٩/٥ - ٢٩٠ وفيات الأعيان ٣٤/٣ - ٣٥ طبقات ابن السبكي ٢٨٣/٢.

وكان ابن عبدالحكم صديقاً للشافعي وعليه نزل حين جاء من بغداد، فأكرم مثواه وبالغ الغاية في بزه، يقال: إنّه دفع للشافعي عند قدومه ألف دينار وأخذ له من تاجر ألفاً، ومن رجلين آخرين ألفاً، وعنده مات وقد روى عن الشافعي وكتب كتبه لنفسه وابنه.

وكان ابن عبدالحكم ممّن امتحن في مسألة خلق القرآن وضرب بالسياط في مسجد مصر أيام المأمون العباسي، وكانت وفاته سنة ٢١٤هـ، ودفن إلى جانب الإمام الشافعي.

* من مؤلفاته:

المختصر الكبير الذي يعتبر مصدراً من مصادر الفقه المالكي ومرجعاً أساسياً عند مالكية العراق، يقال إنّه نحا به اختصار كتب أشهب، وقد بلغت مسأله ١٨٠٠٠ مسألة، والمختصر الأوسط وهو صنفان، فالذي في رواية القراطيسي فيه زيادة الآثار خلاف الذي في رواية ابنه محمد وسعيد بن حسان، وقد بلغت مسأله ٤٠٠٠ مسألة.

والمختصر الأصغر قصره على علم الموطأ، وقد بلغت مسأله ١٢٠٠ مسألة، وقد اعتنى العلماء بمختصراته ما لم يعتن بكتاب من كتب المذهب بعد الموطأ والمدونة، ومن أهمّ شروح المختصر الكبير شرح أبي بكر الأبهري الذي نقل مسائل المختصر نقلاً نصياً وعقب عليها بشرح تفصيلي.

ولابن عبدالحكم كذلك روايته لمسائل مالك وأجوبتها التي سمعها هو وعبدالله بن وهب وعبدالرحمن ابن القاسم، وله أيضاً كتاب الأهوال وكتاب القضاء في البنيان وكتاب المناسك.

وكان في زمن هؤلاء الأعلام الأربعة بمصر أيضاً:

- أبو نعيم إسحاق بن الفرات بن الجعد (٢٠٥هـ) من أكابر أصحاب مالك، وقد لقي أبا يوسف الحنفي وأخذ عنه، ولّي سنة ١٨٤هـ قضاء مصر، وكان الإمام الشافعي يجلّه ويعرف فضله ويقول: ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من إسحاق بن الفرات، وهو الذي أشار على بعض

الولاية أن يوليّه القضاء وزكّاه عنده وقال فيه: إنّه يتخيّر وهو عالم باختلاف من مضى، توفي وهو على القضاء^(١).

- وأبو عثمان سعيد بن كثير بن عفير (٢٢٦هـ) الذي سمع من مالك الموطأ وصحبه وكان آخر مشائخ مصر في وقته، وقد بقي العلم في بيته زماناً طويلاً^(٢).

- وأبو الخيار فتیان بن أبي السمح (٢٣٢هـ) الذي كان يروي عن مالك، وكان من كبراء أصحابه المتعصّبين لمذهبه، وكان بينه وبين الشافعي مناظرة، ولعصبيته لمالك وإفراطه فيها نشأت العداوة بين المالكية والشافعية بمصر فثاروا بالإمام الشافعي وأرادوا نفيه، فضرب له الأمير أجلاً فمات فيه^(٣).

- وأبو نصر يوسف بن عمرو بن يزيد الفارسي (٢٥٠هـ) الذي سمع من مالك وكان من فضلاء أصحابه وسمع من ابن وهب، وكان فقيهاً مفتياً أحد أوصياء الشافعي^(٤).

- ويحيى بن عبدالله بن بكير المخزومي (٢٣٢هـ) الذي كان فقيه الفقهاء بمصر في زمانه، وكان قد سمع من مالك الموطأ سبع عشرة مرّة، كما سمع من الليث بن سعد وابن لهيعة وابن وهب وغيرهم، وكان ابن عبدالحكم يعرف قدره ومنزلته ويقول فيه: هو شيخنا ومحدّث بلدنا، وعنه تلقى جماعة من أهل الأندلس وإفريقية^(٥).

- وعبدالرحمن بن أبي جعفر الدميّاطي (٢٢٦هـ) الذي روى عن مالك وأسند عنه، وسمع من أعالي أصحابه كابن وهب وابن القاسم

(١) ترتيب المدارك ٤٥٩/٢ - ٤٦٠ الديباج المذهب ص ١٥٨.

(٢) ترتيب المدارك ٤٥٤/٢ - ٤٥٥ شجرة النور الزكية ص ٥٩.

(٣) ترتيب المدارك ٤٥٧/٢ - ٤٥٩.

(٤) المصدر السابق ٤٦١/٢ - ٤٦٢.

(٥) ترتيب المدارك ٥٢٨/٢ - ٥٢٩، الديباج المذهب ص ٤٣٥.

وأشهب، وله عنهم سماع مختصر، مؤلف حسن يعرف بالدمياطية^(١).
غير أنه لم يكن لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروهم من المصريين ما
كان للأربعة المتقدمين - أعني ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن
عبدالحكم - من القيام على المذهب.

واستمرّ القيام على المذهب المالكي بمصر نشيطا بهؤلاء التلاميذ فنشأ
من بعدهم جماعة انتهى إليهم فقه مالك والتزموا مذهبه ولم يكونوا قد رأوه
ولا سمعوا منه وإنما تلقوا علمه عن أصحابه وأتباعه.

وكان من أشهرهم:

* أصبغ بن الفرّج:

هو أبو عبدالله أصبغ بن الفرّج بن سعيد بن نافع^(٢) كان قد رحل إلى
المدينة ليسمع من مالك، فدخلها يوم مات، فحضر جنازته.

صحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وسمع منهم وتفقه بهم، وكان
كاتب ابن وهب وأعلى أصحابه وأجلهم وأخصّ الناس به، وكان حسن
القياس من أفقه طبقتة من أهل مصر، وكان ماهراً في الفقه نظّاراً.

كان يستفتى بمصر مع أشهب وغيره من شيوخه، وكان شيوخ أهل
الأندلس يعظّمونه، وعند تلاميذهم هو أكبر أهل زمانه، وكانت بينه وبين
عبدالله بن عبدالحكم منازعة ومباعدة.

تكلم في أصول الفقه، وعليه تفقه ابن الموّاز وابن حبيب، وكان ابن
البّاد يقول: ما انفتح لي طريق الفقه إلا من أصول أصبغ.

(١) ترتيب المدارك ٥٣٢/٢ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤ الديباج المذهب ص ٢٤٢
شجرة النور الزكية ص ٥٩.

(٢) ترتيب المدارك ٥٦١/٢ - ٥٦٥ الديباج المذهب ص ١٥٨ - ١٥٩ طبقات الفقهاء
للشيرازي ص ١٥٣ شذرات الذهب ١٦٠/٢ شجرة النور الزكية ص ٦٦ كشف الظنون
١٨٤/٥ تهذيب التهذيب ٣٦١/١ - ٣٦٢، وفيات الأعيان ٢٤٠/١ تذكرة الحفاظ
٤٥٧/٢، البداية والنهاية ٢٩٣/١٠.

قال ابن معين: كان أصبغ من أعلم خلق الله كلهم برأي مالك، يعرفها مسألة مسألة، متى قالها ومن خالفه فيها.

ويروى عن أصبغ أنّ ابن القاسم أخذ يوماً بيده، وقال له: أنا وأنت في هذا الأمر سواء، فلا تسألني عن المسائل الصعبة بحضرة الناس، ولكن بيني وبينك حتى أنظر وتنظر.

طلب أيام المحنة في مسألة القول بخلق القرآن فاخفى واستتر عن أعين الناس حتى توفي سنة ٢٢٥هـ.

صنّف كتاب الأصول وكتاب تفسير غريب الموطأ وكتاب أدب الصائم وكتاب أدب القضاة وقيل آداب القضاء وكتاب المزارعة وكتب سماعه من ابن القاسم: اثنان وعشرون كتاباً.

* الحارث بن مسكين:

هو أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف^(١) سمع من ابن القاسم وأشهب وابن وهب ودون أسمعتهم وبوبها، وبهم تفقه وعدّ في أكابر أصحابهم، وله كتاب فيما اتفق فيه رأيهم الثلاثة، ورأي مالك والليث بن سعد والمفضل بن فضالة، وروى أيضاً عن سفيان بن عيينة وغيره.

حدّث ببغداد وبمصر وكان مفتياً فقيهاً على مذهب مالك، من علماء طبقة بمصر مع خيره وفضله وثقته في روايته.

حمل في أيام المأمون العباسي إلى بغداد، وكان ذلك بسبب جرأته وإيثاره لكلمة الحق، وقوله للمأمون: أحضرت فسمعت وأطعت حين دعيت، ثم سئلت عن أمر فاستعفيت فلم أعف ثلاثاً، فلما رأيت أنّه لا بدّ

(١) ترتيب المدارك ٥٦٩/٢ - ٥٧٧ الديباج المذهب ص ١٧٧ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤ شجرة النور الزكية ص ٦٧ شذرات الذهب ٢/٢٦١ - ٢٦٢ تهذيب التهذيب ٢/١٥٦ - ١٥٧ وفيات الأعيان ٢/٥٦ - ٥٧ طبقات ابن السبكي ٢/١١٣ - ١١٤ تذكرة الحفاظ ٢/٥١٤.

لي من الكلام كان الحق أثر عندي من غيره، فتخوّف المأمون من جرأته وقال: هذا رجل أراد أن يرفع له علم في بلده ثم أمر بإخراجه من مصر وحمله إلى العراق، فأقام بها ١٦ سنة حتى مات المأمون والمعتصم، فلما وليّ الوائق سمح له بالرجوع إلى مصر وذلك سنة ١٣٢هـ فلما وليّ جعفر المتوكل وآله قضاءها سنة ٢٣٧هـ.

بعد أن سجنه على إباته ذلك زماناً، فكان الحارث عدلاً في قضائه محموداً في سيرته، غير أنه كان يمنع أصحاب الشافعي وأبي حنيفة من الجامع ويأمر بإخراجهم وفضّ مجالسهم.

ثم استعفى فأعفي، وكان ذلك بسبب أنّ الحارث قد حكم في حبس بإخراج أولاد البنات منه وذلك على مقتضى مذهبه الذي هو مذهب مالك، فشكوه إلى المتوكل، فأفتى أهل العراق على مذهبهم وخطأوا الحارث، ونقضت القضية فاستعفى الحارث على إثر هذه الحادثة، وذلك سنة ٢٤٥هـ فكانت مدة تقلده للقضاء ٧ سنوات و١١ شهراً.

وكانت وفاته سنة ٢٥٠هـ وقد قارب المائة سنة.

* بنو عبدالله بن عبدالحكم:

وهم أربعة إخوة كانوا بمصر فقهاء ومن علماء طبقتهم، وهم: عبدالحكم وعبدالرحمن وسعيد ومحمد غير أنه قد اشتهر منهم بالخصوص عبدالحكم ومحمد.

فأمّا عبدالحكم بن عبدالله بن عبدالحكم^(١) فهو أكبر بني عبدالله، له سماع كثير من أبيه وابن وهب وغيرهما من رواة مالك، وكان من أكابر أصحاب ابن وهب.

امتنحن عبدالحكم مع سائر الفقهاء وأهل الفضل في مسألة خلق القرآن، وشدّد عليه وعلى إخوته واستصفيت أموالهم ونهبت منازلهم،

(١) ترتيب المدارك ٦٠/٣ - ٦٢ شجرة النور الزكية ص ٦٧ الديباج المذهب ص ٢٦٨.

وسجنوا وعذب عبدالحكم في سجنه في عهد الواثق ودخن عليه بالكبريت حتى مات من جرّاء ذلك سنة ٢٣٧هـ.

وأما محمد^(١) فقد سمع من أبيه ومن ابن وهب وابن القاسم وأشهب وغيرهم، وصحب الشافعي وكتب كتبه وأخذ عنه، وكان ممن يتعلّم منه، وكان أبوه قد ضمّه إليه وأمره أن يعول عليه وعلى أشهب.

فرسخ في مذهب الشافعي، وأصبح فقيه مصر في عصره على مذهب مالك، فكان يتخيّر قوله بحسب ظهور الحجّة له.

وقد روى محمد عن أبيه أنّه قال له: الزم هذا الرجل - يعني الشافعي - فإنّه كثير الحجج، فليس بينك وبين أن تقول: قال ابن القاسم فيضحك منك إلا أن تخرج من هذا البلد إلى غيره.

وكان محمد أفضل الناس فهما من العلماء الفقهاء، وكان من أهل النظر والمناظرة، وصاحب حجّة فيما يتكلّم ويتقلّده من مذهبه، حتى قيل إنّه كان أعرف أهل عصره بأقاويل الصحابة والتابعين، وإليه كانت الرحلة من المغرب في العلم والفقه من الأندلس، وهو أحد المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا في عصر واحد من أئمة المذهب المالكي.

إليه انتهت الرئاسة بمصر، فكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً، يجلس في حلّفته بجامع مصر خيار الفقهاء والعلماء.

له تاليف كثيرة في فنون العلم والردّ على المخالفين، مثل أحكام القرآن وكتاب الوثائق والشروط، وكتاب مجالسه وكتاب الردّ على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة وكتاب الردّ على أهل العراق وكتابه الذي زاد فيه على مختصر أبيه وكتاب أدب القضاة وكتاب اختصار كتب أشهب

(١) ترتيب المدارك ٦٢/٣ - ٦٩ شجرة النور الزكية ص ٦٧ - ٦٨ الديباج المذهب ص ٣٣٠ شذرات الذهب ٣١٣/٢ وفيات الأعيان ١٩٣/٤ - ١٩٤ طبقات القرّاء ١٧٩/٢ تهذيب التهذيب ٢٦٠/٩ - ٢٦٢ طبقات ابن السبكي ٦٧/٢ - ٧١ تذكرة الحفاظ ٥٤٦/٢.

وكتاب الصوم وكتاب الكفالة وكتاب الرجوع عن الشهادات وغيرها.

وقد ذكر من مناظرته للشافعي أنه قال: قلت للشافعي: لأي شيء أخذتم أنه إذا مسح الإنسان بعض رأسه وترك بعضه أنه يجزيه، قال: بسبب الباء الزائدة، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(١)، ولم يقل: رؤوسكم، قلت له: فأي شيء ترى في التيمم إذا مسح الإنسان بعض وجهه وترك بعضاً، قال: لا يجزيه، فقلت له: لم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾^(٢) فسكت الشافعي.

وقد ذكره الشيرازي في فقهاء الشافعية^(٣) رغم أن التزام محمد لمذهب مالك وإقامته فيه مشهورة وتأليفه على مذهبه والرد على الشافعي وغير ذلك من أخباره معروفة، ودراسته لمذهب أبيه عليه وعلى أصحابه أكثر من دراسته لمذهب الشافعي، وكانت وفاته سنة ٢٦٨هـ.

* محمد بن إبراهيم بن المَوَاز:

هو محمد بن إبراهيم بن رباح الإسكندراني، المعروف بابن المَواز^(٤) تفقه بابن الماجشون وابن عبدالحكم واعتمد على أصبغ وروى عن الحارث بن مسكين وغيره، وروى عن ابن القاسم وابن وهب وهو صغير، وكان راسخاً في الفقه والفتيا علماً في ذلك، وكان المعول بمصر على قوله، وهو أحد المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا في عصر واحد من أئمة المذهب المالكي.

طلب في محنة القول بخلق القرآن فخرج هارباً إلى الشام، فلزم حصناً بها إلى أن مات سنة ٢٦٩هـ.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) الطبقات ص ٩٩.

(٤) ترتيب المدارك ٧٢/٣ - ٧٤، الديباج المذهب ص ٣٣١ - ٣٣٢، شجرة النور الزكية ص ٦٨.

له كتاب مشهور في فروع الفقه المالكي يعرف بالموازية أو بكتاب محمد، وهو من أجل كتب قدماء المالكية وأصحها مسائل وأبسطها كلاماً وأوعبها، وقد رجّحه أبو الحسن القابسي على سائر الأمهات، لأنّ صاحبه لم يقتصر على جمع الروايات ونقل نصوص السماعات، وإنّما قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، كما بسط مسائل أوضح بها مواطن الخلاف مع الشافعي وأهل العراق.

وغير هؤلاء كثير من أعلام المالكية بمصر من أمثال: حرملة بن يحيى التجيبي (٢٤٣هـ) الذي روى عن ابن وهب والشافعي، وتفقه بهما، وكان قد رسخ في مذهب الشافعي ثم ترك الفتيا به، فكان لا يفتي إلا بمذهب مالك، ولم يكن بمصر أكتب عن ابن وهب منه، وكان حافظاً للحديث، وقد صنّف المبسوط والمختصر^(١).

وأبو حفص حرملة بن يحيى التجيبي (١٦٦هـ - ٢٤٣هـ) الذي روى عن عبدالله بن وهب مائة ألف حديث وروى عن الشافعي وبهما تفقه، كما روى عن سفيان بن عيينة، ولم يكن بمصر أكتب عن ابن وهب منه، وكان أعلم الناس بابن وهب، ومن أملاً الناس بما روى ابن وهب، والسبب في كثرة سماعه منه، أنّ الخليفة العباسي كتب إلى ابن وهب يطلبه لقضاء مصر، فظاهر ابن وهب بالجنون ولزم بيته ثم استخفى عند حرملة، فأخذ عنه حرملة حديثه كلّهُ إلا حديثين.

وكان حرملة إماماً جليل القدر رفيع الشأن في الحديث والفقه معاً، وخرّج له مسلم والنسائي، وهو شيخ مسلم.

عدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين وقال: ذكره ابن أبي دليم في فقهاء المالكية، وقال - ابن أبي دليم - : كان رسخ في مذهب الشافعي ثم ترك الفتيا به، فكان لا يفتي إلا بمذهب مالك، في حين عدّه أبو إسحاق الشيرازي في أصحاب الشافعي، وكان راوية كتبه الأخيرة.

(١) ترتيب المدارك ٧٦٣/٣ - ٧٧، شذرات الذهب ٢٣٤/٢ - ٢٣٥.

صتف المبسوط والمختصر وغيرهما من الكتب^(١).

ومحمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن أبي زرعة (٢٤٩هـ) الذي روى عن عبدالله بن عبدالحكم وأشهب وأصبغ بن الفرّج، ولم يلتق ابن وهب، وكان من أصحاب الحديث والفهم والرواية وصاحب تأليف في مختصر ابن عبدالحكم الصغير، وقد زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار^(٢).

ويونس بن عبدالأعلى بن موسى الصدفي (١٧١هـ - ٢٦٤هـ) الذي سمع من الشافعي وابن وهب وأشهب والشافعي وسفيان بن عيينة ومعن بن عيسى وعبدالله بن نافع الصائغ وغيرهم، وكان من أجل أصحاب ابن وهب وأوثق أصحابه وأحد الرواة المشهورين، وقد رحل إليه الناس وسمعوا منه.

قرأ القرآن على رواية ورش، وتصدّر للإقراء والفقه وإليه انتهت مشيخة بلده، وكان ورعاً صالحاً عابداً كبير الشأن ركناً من أركان الإسلام.

وروي عن الشافعي أنه قال: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس بن عبدالأعلى.

عدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين، في حين عدّه أبو إسحاق الشيرازي في أصحاب الشافعي، وترجم له السبكي في طبقاته تبعاً لغيره من الشافعية وذكر له فوائد ومسائل كثيرة^(٣).

(١) ترتيب المدارك ٧٦/٣ - ٧٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩، شذرات الذهب ٢٣٤/٢ - ٢٣٥، البداية والنهاية ٣٤٥/١٠، طبقات ابن السبكي ١٢٧/٢ - ١٣١، تهذيب التهذيب ٢٢٩/٢ - ٢٣١، وفيات الأعيان ٦٤/٢ - ٦٥.

(٢) ترتيب المدارك ٨٣/٣ - ٨٤، شذرات الذهب ٢٦٠/٢، الديباج المذهب ص ٣٣٢، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٩.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩، ترتيب المدارك ٧٨/٣ - ٨١، شذرات الذهب ٣٠٤/٢، وفيات الأعيان ٢٤٩/٤ - ٢٥٤، تهذيب التهذيب ٤٤٠/١١ - ٤٤١، طبقات الشافعية الكبرى ١٧٠/٢ - ١٨٠، طبقات القراء ٤٠٦/٢، البداية والنهاية ٣٧/١١، تذكرة الحفاظ ٥٢٧/٢.

وكان من أهل إفريقية:

* عبدالله بن فروخ الفارسي (١١٥هـ - ١٧٦هـ) من شيوخ أهل إفريقية، ولد بالأندلس ثم انتقل إلى إفريقية فسكن القيروان وأوطنها، ثم رحل إلى المشرق فلقي جماعة من العلماء والمحدثين من أمثال سفیان الثوري ومالك بن أنس أبي حنيفة وغيرهم، فسمع منهم وتفقه بهم، وكان اعتماده في الحديث والفقه على الإمام مالك، وبصحبه اشتهر، وكان يكتب الإمام مالك فكان مالك يعرفه ويكاتبه بجواب مسائله، وكان الإمام مالك يكرمه ويعظمه وقد أجلسه إلى جواره عندما زاره في رحلته الثانية للحج، وجعل الإمام مالك لا ترد عليه مسألة وابن فروخ حاضر إلا قال له: أجب يا أبا محمد، فيجيب، ثم يقول مالك: هذا كما قال، ثم التفت إلى أصحابه فقال: هذا فقيه المغرب.

وكان ابن فروخ يميل إلى النظر والاستدلال، فربما مال إلى قول أهل العراق فيما تبين له منه الصواب فقد سمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة، يقال أنها نحو عشرة آلاف مسألة، ويروى أنه ناظر زفر بن الهذيل في مجلس أبي حنيفة، فازدراه زفر للمغربية، فلم يزل به ابن فروخ حتى قطعه، فقال أبو حنيفة لزفر: لا خفف الله ما بك.

غير أن ابن فروخ - كما ذكر سحنون - كان لا ينص على الأصول، وإنما حين كان يسأل في المسألة يجيب فيها بالأقاويل المختلفة، على خلاف ابن زياد الذي قال في شأنه أعلام أهل المدينة: ما طرأ علينا طارئ من بلد من البلدان كشف لنا مالك عن الأصول كشف علي بن زياد، ولذلك كان سحنون يشهد له بحسن معرفته للمعاني وخاصة عندما يجلس لإسماع كتابه خير من زنته.

رحل في آخر حياته إلى مصر فلقي تقديرا يليق بمقامه وعلمه، واعتقد الناس في إمامته بعد الليث بن سعد، غير أنه ما لبث بها إلا يسيرا

حتى مات، فكانت لوفاته بمصر فجعة عظيمة عند أهل العلم^(١).

* وعليّ بن زياد التونسي (١٨٣هـ) ولد بطرابلس ثم انتقل إلى تونس فسكنها، رحل إلى الحجاز والعراق في طلب العلم، وسمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم، وروى عن الإمام مالك الموطأ، وتفقه به، وهو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان الثوري في الحديث إلى إفريقية، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه.

كان بارعاً في الفقه وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى عليّ بن زياد ليعلمهم بالصواب، وكان خير أهل إفريقية في الضبط للعلم وما أنجبت إفريقية مثله، وكان من نقاد أصحاب مالك وله كتاب في فروع الفقه المالكي سمّاه «خير من زنته».

ويعتبر عليّ بن زياد أول من كتب مسائل الفقه والفتاوي التي تكلم بها مالك بن أنس - غير ما اشتمل عليه الموطأ مما يتصل بالآثار - إذ لم يكن واحد من أصحاب مالك - حتى ابن القاسم - قد دوّن الفقه والمسائل كتابة، وقد أقبل عليّ بن زياد على تصنيف المسائل وتبويبها وخرّجها كتاباً كتباً على مواضع الأحكام الفقهية، وسمّى جملة الكتاب بذلك الاسم الطريف «خير من زنته».

سمع منه البهلول بن راشد وسحنون وأسد بن الفرات وغيرهم، وكان البهلول يفرع إلى عليّ بن زياد في العلم ويكاتبه من القيروان إلى تونس فيستفتيه في أمور كثيرة، ولم يكن سحنون يعدل بعليّ بن زياد أحداً من علماء إفريقية^(٢).

(١) طبقات أبي العرب ص ١٠٧ - ١١١، رياض النفوس ١٧٦/١ - ١٨٧، ترتيب المدارك ٣٣٩/١ - ٣٤٧ و ٣٢٦/١ - ٣٢٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٤، معالم الإيمان ٢٣٨/١ - ٢٤٨.

(٢) رياض النفوس ٢٣٤/١ - ٢٣٧، ترتيب المدارك ٣٢٦/١ - ٣٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٢، الديباج المذهب ص ٢٩٢، ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦.

* والقاضي عبدالله بن عمر بن غانم الرعيني (١٢٨هـ - ١٩٠هـ) وكان فقيهاً مقدّماً مع فصاحة لسان وحسن بيان، من أهل العلم والفضل والورع والتواضع، من نظراء ابن أبي حازم وأقرانه، روى بإفريقيّة عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم، ودخل إلى الحجاز فسمع من مالك، وكان عليه اعتماده، وقصد العراق فسمع من سفيان الثوري ومن أبي يوسف، وغيرهم.

ومن فصاحته وجزالته ما ورد عن عبدالله بن فروخ قال: دخلنا على سفيان الثوري، - أنا وابن غانم والبهلول بن راشد - فسألناه في السماع فأجاب إلى ذلك وقال: ليقراً عليّ أفصحكم لساناً فإنّي أسمع اللحنة فيتغيّر لها قلبي، قال: فقرأ لنا عليه ابن غانم شهوراً فما رأينا الثوري ردّ عليه في قراءته شيئاً ولا أخذ عليه لحنة واحدة.

وكان الإمام مالك إذا دخل عليه ابن غانم وقت سماعه أجلسه إلى جنبه ويقول لأصحابه: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم كريم قومه فأكرموه»^(١) وهذا كريم في بلده، حتّى كان أصحاب مالك يقولون: شغله المغربيّ عتاً، وقد بلغ من حبّ الإمام مالك وتقديره له ما يروى من أنّه قد عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده فامتنع ابن غانم من المقام وقال لمالك: إن أخرجتها معي إلى القيروان تزوّجتها.

ومع اعتماد ابن غانم على مالك وميله إلى فتاويه فقد كان يقرئ الناس كتب أبي حنيفة في الجمعة يوماً.

ولي سنة ١٧١هـ قضاء إفريقيّة وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، ولمّا بلغت مالكا ولأيته سرّ بها وأعلم بها أصحابه، وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد يكاتبه، فكان يعدّ قضاؤه من قبله.

(١) أورده السيوطي في جامعه بلفظ: «إذا جاءكم الزائر فأكرموه»، وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بن مالك، والخرائطي في كتاب مكارم الأخلاق (الجامع الصغير ٤٢٠/١).

وكان ابن غانم يوجّه بمسائله أيام قضاائه إلى مالك فيما ينزل به من نوازل الخصوم، فيكتب إلى عثمان ابن عيسى بن كنانة يسأل له مالكا عن أحكامه، وكان يكتب أيضاً إلى أبي يوسف يسأله، ولم يزل الأمر يتراعى بابن غانم في الرفعة والسمو في أحكامه وأموره يتراعى بابن غانم في الرفعة والسمو في أحكامه وأموره.

وكان إذا أشرف على إنفاذ حكم لأحد يصلّي حزبه من الليل، فإذا جلس في آخر صلاته عرض من أراد أن يحكم له على الله عزّ وجلّ في مناجاته، فلا يزال يعرض الخصوم على ربّه عزّ وجلّ ويسأله التوفيق والتسديد حتى يطلع الفجر وقد فرغ منهم.

ولم يزل عبدالله بن غانم على القضاء إلى أن توفي، فكانت ولايته نحواً من تسعة عشر عاماً، ولما بلغت وفاته عبدالله بن وهب غمّه ذلك غمّاً شديداً واسترجع وترخّم عليه وقال: لقد كان قائماً بهذا الأمر - يريد الفقه والعلم^(١).

* والبهلول بن راشد (١٢٨هـ - ١٨٣هـ) من أهل القيروان، وهو شيخ أهل المغرب وأحد الأعلام من أهل الفضل والعلم والورع والعبادة وكان مستجاب الدعوة مجتهداً صاحب علم كثير.

سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم، وسمع الموطأ من عليّ بن زياد وابن غانم، وسمع الجامعين الكبير والصغير لسفيان الثوري، ودوّن عنه الناس جامعاً وقام بفتياهم.

كان وتدا من أوتاد المغرب، ومنه سمع وجوه مشايخ إفريقيّة، وكان الغالب عليه مذهب مالك، وربّما مال إلى قول سفيان الثوري، ولما نظر إليه مالك قال: هذا عابد بلده، ولما نظر إلى عبدالله بن غانم قال: هذا

(١) طبقات أبي العرب ص ١١٦ - ١١٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ٣٠٤، رياض النفوس ٢١٥/١ - ٢٢٩، ترتيب المدارك ٣١٦/١ - ٣٢٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥١، معالم الإيمان ٢١٣/١ - ٢٨٨.

قاضي بلده، ولما نظر إلى عبدالله بن فروخ قال: هذا فقيه بلده، فصدقت فراسة الإمام مالك في ثلاثتهم، حتى إنَّ البهلول قد غلبت عليه العبادة، فكان سحنون يقول على إثر ذلك: هذا البهلول كان رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره، فنفخ الله تعالى به، وذكر رجلاً آخر فقال: إنَّه بحر من البحور ما نفعه الله بعلمه.

وجاءت إلى مالك من عند ابن غانم أقضية فقال: ما قال فيها المصفر؟ - يعني البهلول - وما قال فيها الفارسي - يعني عبدالله بن فروخ، ولبهلول مناقب كثيرة في ورعه وتواضعه وسائر أخباره.

وكانت وفاته بعد عليّ بن زياد بخمسة وثلاثين يوماً^(١).

* أسد بن الفرات: (٢١٣هـ).

هو أبو عبدالله أسد بن الفرات بن سنان، أصله من خراسان من نيسابور، قيل ولد بحرّان وقدم به أبوه وهو ابن ستين مع جيش محمد بن الأشعث الذي دخل إفريقية سنة ١٤٤هـ، وقيل بل قدم أبوه مع الجيش وأمه حامل به.

تعلّم أسد القرآن ببعض القرى وأقام بالقيروان خمس سنين ثمّ توجه إلى مدينة تونس فأقام بها نحو تسع سنين، ولازم عليّ بن زياد التونسي صاحب الإمام مالك فتعلّم منه العلم وسمع منه موطأ مالك وتفقه بفقهه ودرس عليه كتابه الذي وضعه في الأحكام الفقهية.

ثمّ قصد المشرق اقتداءً بشيخه ابن زياد، فكانت رحلته أولاً إلى الحجاز حيث التقى بإمام دار الهجرة مالك بن أنس فواظب عليه وأخذ منه العلم وحصل له منه سماع، وأقبل على مالك بالطريقة التي عهدا من عليّ ابن زياد: طريقة تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف عن

(١) ترتيب المدارك ١/٣٣٠ - ٣٣٩، الديباج ص ١٦٦، رياض النفوس ١/٢٠٠ - ٢١٤،

قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٥، طبقات أبي العرب ص ١٢٦ - ١٣٨، معالم

الإيمان ١/٢٦٤ - ٢٧٥.

الأصول يجدد في دروس مالك عهداً كان قد انقضى منذ فارقها علي بن زياد، - وفي ذلك يقول أسد: قال لي المغيرة المخزومي وابن كنانة: ما طراً علينا من بلد من البلدان كشف عن هذا الأمر، في رواية عن ابن كنانة، كشف لنا مالك عن الأصول كشف علي بن زياد - وقد كان مالك غير ميّال إلى تلك الطريقة، طريقة فرض الصور وتركيبها وتحليلها - وهي الطريقة التي يقوم عليها مذهب أهل العراق - ممّا حدا بأسد إلى التفكير بشدّ رحاله إلى العراق حيث التقى بأبي يوسف ومحمد بن الحسن فسمع منهما وواظب على دروسهما مدة حتى انكشفت له طرائق العراقيين في البحث وظهرت له مذاهبهم، وتكوّنت عنده بهما ملكة التفصيل والتأصيل التي ابتدأها مع علي بن زياد بتون.

ولمّا بلغ مراده وأدرك هدفه من فقه العراقيين ونعي مالك، أجمع أمره على الانتقال إلى مصر حيث أتباع مالك الأعظم شأنًا والأهمّ قيمة، فحمل أسد معه سماعاته من صاحبي أبي حنيفة وخاصة منها كتب محمد بن الحسن ودخل بها مصر، وأراد بذلك أن يخدم الفقه المالكي معهم خدمة جديدة، وذلك بأن يأخذ المنهج العراقي في تفصيل المسائل وتأصيلها ويدرج عليه من مسائل الأحكام على مذهب مالك، فيكون بذلك قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين الموصّل المرتب هو الذي ابتدأ به علي بن زياد، فقصد ابن وهب وقال له: هذه كتب أبي حنيفة وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك محاولاً بذلك أن يجعل المنهاج منهاجاً عراقياً والمادة حجازية، فتورّع ابن وهب وأبى، فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب وأجاب بما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شكّ قال: أخال وأحسب وأظنّ، فكان يسأله أسئلة العراقيين على قياس قول مالك فيجيبه.

وهكذا وجد أسد بن الفرات من يلبي له رغبته ويحقّق بغيته، فدوّن أسئلته لابن القاسم ومباحثاته معه وأجوبة ابن القاسم أحياناً بقول مالك وأحياناً بما رأى ابن القاسم من خلافه، وأخرج ذلك كتاباً كاملاً جامعاً قد

دوّن فيه المذهب المالكي لأوّل مرّة تدويناً وافياً: وهو الأسديّة التي اشتملت على ستّين كتاباً.

وبعد رحلة طويلة استغرقت من الزمان عشر سنين تقريباً - من سنة ١٧٢هـ إلى سنة ١٨١هـ - عاد أسد إلى إفريقية فدخل القيروان ونشر علمه بين الناس وشاع أمر ما دوّن في مصر فكتب عنه طلبة العلم وأصبحت له في القيروان رئاسة بفضل مصنفه.

كان أسد بن الفرات أعلم العراقيين بالقيروان كافة، وبسبب أسد ظهر علم أبي حنيفة بإفريقية، ولما قدم القيروان سمع منه علماؤها ووجوهها مثل سحنون وعمرو بن وهب وسليمان بن عمران من أتباع مالك، كما سمع منه سائر أتباع أبي حنيفة، وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشائخ المدنيين: أوقد القنديل الثاني يا أبا عبدالله فيسرد أقوال المدنيين.

والمشهور عن أسد أنّه كان يلتزم من أقوال المدنيين والعراقيين ما وافق الحق عنده لاستبحاره في العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين.

فكان عبدالرحمن بن غانم على مكانته يشاور أسد فيجيبه فيقول: ما أحبّ أن أشاور في هذا البلد غير هذا الفتى.

ونظراً لمكانة أسد العلمية ولأه الأمل الأغلبي زيادة الله القضاء شريكاً لأبي محرز الكناني سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين، فاشتركا في هذه المهمّة فكان أسد أغزرهما علماً وفقهاً، وأبو محرز أسدّهما رأياً وأكثرهما صواباً، ولم يعرف بالقيروان قاضيان قبلهما في وقت واحد غيرهما، فكان أسد يقول: ضربنا في طلب العلم أباط الإبل واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء وغيرنا إنّما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه ويريدون أن يلحقوا بنا - ويقصد بذلك أبا محرز -.

قام أسد على القضاء لسنوات عديدة إلى أن خرج سنة اثنتي عشرة ومائتين على رأس جيش لفتح صقلية وخرج معه وجوه أهل العلم والناس

يشيعونه، وأمر الأمير أن لا يبقى أحد من رجاله إلا شيّعه في حفل عظيم وجمع كثير وعدة كاملة، فلما نظر أسد إلى الناس حوله من كل جهة وقد سهلت الخيول وضربت الطبول وخفقت البنود، رفع صوته في الناس خطيباً وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر المسلمين ما وليّ لي أب ولا جد ولا رأى أحد الناس من سلفي مثل هذا ولا بلغت ما ترون إلا بالأقلام فاجتهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا به الدنيا والآخرة.

توفي شهيداً تحت سور مدينة سرقوسة^(١).

وبالرغم ما كان لهؤلاء الأعلام من الأثر الواضح في نشر المذهب المالكي بإفريقية أيام مؤسسه مالك بن أنس - وبأخرة عنهم أسد بن الفرات - باعتبارهم الإشرافة الأولى على أوطانهم بهذه الأوضاع الجديدة، وبالرغم ما حظيوا به من ملاقة للإمام مالك والتلقي عنه والسماع منه مباشرة، وبالرغم ما درجوا عليه من فقه مالك حتى أصبحوا - في نظر الناس إليهم - معدودين من المجتهدين المقيدين في المذهب المالكي، السائرين على نهجه وطريقته، والقائمين بالاجتهاد على ضوء أصوله وقواعده.

إلا أنّ هذه العوامل مجتمعة لم تكن لتمنعهم يوماً ما من النظر والاستدلال ولو أدى بهم الحال إلى مخالفة اجتهادات إمامهم.

فنجده عبدالله بن فروخ مع أخذه بمذهب مالك ومعرفته له كان

(١) ترتيب المدارك ٤٦٥/٢ - ٤٨٠ رياض النفوس ٢٥٤/١ - ٢٧٣ شذرات الذهب ١١٦/٢ ابن أبي دينار: المؤنس ص ٤٩ الديباج المذهب ص ١٦١ طبقات أبي العرب ص ١٦٣ - ١٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٥ - ١٥٦ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٥ معالم الإيمان ٢٣/٢ - ٢٦ ابن الأبار: الحلة السيرة ٣٨٠/٢ - ٣٨١ معجم المؤلفين ٢٤٠/٢ المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١٦٢/٣ محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ١٧/٤ - ٢٤ شجرة النور الزكية ص ٦٢ السراج: الحلل السندسية ٧٤١/٣ - ٧٥٥ ابن عذارى: البيان المغرب ٩٧/١، ١٠٢، ١٠٤ حسن حسني عبدالوهاب: كتاب العمر ٨٩٦/٢ - ٨٩٨ الفاضل ابن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦.

صاحب نظر واستدلال فتراه يميل أحياناً إلى قول أهل العراق إذا تبين له أنّ الصواب في قولهم.

ونجد القاضي ابن غانم مع اعتماده على مذهب مالك وميله إلى فتاويه، فقد كان يقرئ الناس كتب أبي حنيفة يوماً في الأسبوع.

ونجد أسد بن الفرات يلتزم من أقوال المدنيين والعراقيين ما وافق الحق عنده، ويفتي أحياناً بمذهب أهل العراق، وبأسد ظهر علم أبي حنيفة بإفريقية.

وبهؤلاء ونظرائهم أصبحت إفريقية مستعدة لتخريج أقطاب استقبلوا سير الحركة الاجتهادية وأقاموا صرح الفقه وعماده بهذه الأوطان حتى علا بهم مجد إفريقية، فنشأ أعلام وإن لم يكونوا قد رأوا مالكا ولم يسمعوا منه إلا أنهم كانوا فرسان رهان في هذه المرحلة.

وكان من أشهرهم:

١ - سحنون بن سعيد: (١٦٠هـ - ٢٤٠هـ).

هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التتوخي أصله من الشام، قدم أبوه سعيد في جند حمص، وسحنون لقب له واسمه عبدالسلام، سمي سحنونا لحدة ذهنه في المسائل.

نشأ بالقيروان وتلقى العلم عن مشائخها من أصحاب مالك بن أنس مثل البهللول بن راشد الذي كان وتدا من أوتاد المغرب، وعبدالله بن عمر بن غانم الرعيني الطائر الصيت في الفضل والعلم والورع ومعاوية بن الفضل الصمادحي، كما تلقى العلم عن أسد بن الفرات، ثم انتقل إلى مدينة تونس ليأخذ عن علي بن زياد التونسي صاحب مالك الذي لم يكن في عصره بإفريقية مثله، كما جلس إلى أبي مسعود بن أشرس الأنصاري.

ويبدو أنّ شهرة الفتى سحنون قد بدأت تظهر قبل رحلته إلى تونس إلى علي بن زياد بأنه طالب جاد وشاب ورع وصادق، فقد أورد القاضي عياض في مداركه أنّ سحنون حين عزم الذهاب إلى زياد بن علي كتب له

شيخه البهلول بن راشد كتاباً إلى ابن زيد يوصيه بالشباب سحنون خيراً، ومما جاء في هذا الكتاب: إنما كتبت إليك في رجل يطلب العلم لله، فلما وصل كتاب التوصية إلى ابن زياد لم ينتظر حتى يأتيه سحنون ويجلس في حلقة بجامع الزيتونة الأعظم، وإنما ذهب بنفسه إلى المكان الذي نزل فيه سحنون ليسمعه كتبه.

داوم سحنون على الرحلة إلى علي بن زياد بتونس فكان كلما اجتمعت له نفقة سافر إليه يطلب عليه العلم.

وبعد أن أحسّ سحنون أنه قد استوفى تكوّنه بإفريقية بين القيروان ومدينة تونس عزم على القيام برحلته المشرقية، فخرج إلى مصر أول سنة ١٧٨هـ في حياة الإمام مالك، قال سحنون: فكنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه، فقيل له: فما منعك من السماع منه؟ قال: قلّة الدراهم، لحى الله الفقر فلولا له لأدرت مالكا.

رجع سحنون إلى القيروان بعد هذه الرحلة الأولى التي اقتصر فيها على مصر، ثم جدّد العزم على الرحلة ثانية بعد عشر سنوات من سفرته الأولى، فقصّد مصر ولم يعد إلى إفريقية إلى حين توفي عبدالرحمن بن القاسم سنة ١٩١هـ.

وفي مصر سمع من ابن القاسم وكان اعتماده عليه ولا يكاد يفارقه، كما سمع من عبدالله بن وهب ومن أشهب ومن عبدالله بن عبدالحكم وعبدالله بن طليب المرادي وشعيب بن الليث بن سعد وغيرهم.

وكانت لسحنون في مصر صداقة منسجمة ورفقة متّصلة مع ابن القاسم وأشهب وابن وهب توجت برفقة مع هؤلاء الثلاثة إلى الحجّ، يقول سحنون: لما حججت كنت أزامن ابن وهب، وكان أشهب يزامله يتيمة وابن القاسم يزامله ابنه موسى، وكنت إذا نزلت سألت ابن القاسم، وكنا نمشي بالنهار ونلقى المسائل فإذا كان الليل قام كلّ أحد إلى حربه من الصلاة فيقول ابن وهب: ألا ترون هذا المغربي يلقي بالنهار ولا يدرس بالليل فيقول ابن القاسم: هو نور يجعله الله في القلوب.

لقي سحنون بمدينة الرسول الأكرم ﷺ جمهرة من العلماء أخذ عنهم، فسمع من عبدالله بن نافع الصائغ ومعن بن عيسى وأبي ضمرة أنس بن عياض وعبدالمملك بن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون ومطرف بن عبدالله وغيرهم، كما لقي العدد الوافر من الأئمة المجتهدين من غير أصحاب الإمام مالك أمثال: سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث من العراقيين وكان عند سحنون - كما يقول هو عن نفسه - عندي في البيت سماع سنتين لسفيان بن عيينة.

وحين نزل مكة لقي عبدالرحمن بن مهدي.

وبحلول سنة ١٩١هـ استكمل سحنون رحلته المشرقية وأضاف إلى ما كان عنده من روايات مغربية في تحقيق المذهب المالكي، الروايات المشرقية وحصل العلم في صدره كسورة في القرآن من حفظه.

عاد سحنون إلى إفريقية وقد بلغ من العمر ثلاثين سنة، وحفظ كتب العلم حتى صارت في صدره كأم القرآن - كما يقول هو عن نفسه -، وفي عودته هذه بدأ إنتاج سحنون العلمي بتخريج الأصحاب والتعليم حتى كَوّن الملكات الصحيحة في أصحابه بالمعنى الذي عبّر عنه أحد أصحابه وهو سليمان بن عمران بأنه كان إذا سئل أوحى في جوابه إلى سائله معنى زد من سؤالك.

توافد على سحنون عدد لا يحصى من المتعلمين من أنحاء إفريقية والأندلس وصارت حلقة العلم التي يعقدها سحنون من أكبر حلقات العلم فقيل إنه كان يجلس فيها أربعمئة طالب علم وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وتخرج على يديه مشاهير فقهاء إفريقية مثل يحيى بن عمر وابن مسكين وابن أبي سليمان وسعيد بن الحدّاد وحمديس وغيرهم كثير واعتبر أكثر الفقهاء أصحابا حتى قال ابن عجلان الأندلسي: ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه إنهم في كلّ بلد أئمة، وقال ابن الحارث: سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء دخل المغرب، كأن أصحابه مصابيح في كلّ بلدة

عدّ له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه.

وهكذا اجتمع لسحنون فضل الدين والعقل والورع والعفاف فبارك الله فيه للمسلمين ومالت إليه الوجوه وأحبّته القلوب وصار زمانه كأنّه مبتدئا قد أمحى ما قبله، وكان أصحابه سرج أهل القيروان.

والى جانب هذا الإنتاج في تخريج الأصحاب وبتّ العلم في صدور الرجال كان لسحنون إنتاجه في تدوين المدوّنة التي هي الأثر الخالد في الفقه المالكي.

ولّى سحنون القضاء سنة ٢٣٤هـ وسنّه إذ ذاك أربع وسبعون سنة وبقي سحنون على القضاء ستّ سنين - إلى أن توفّي سنة ٢٤٠هـ وهو على القضاء - أظهر فيها مقدرة منقطعة النظير ووضع الكثير من أصول المؤسسات الشرعية في إفريقية مثل وضعه لدستور في أحكام السوق ونظام قضاة الآفاق وكشف الشهود وكان له من قوّة شخصيّة ومركزه الاجتماعي أقوى حافظ على التوسّع في وظيفة القضاء.

وحصل للناس بولاية سحنون على شريعة من الحقّ وكان عمله العظيم في القضاء باعتبار التوفيق فيه وبعد النظر في تطبيق الأحكام على محالها الأثر العظيم في حياته القضائية الذي أصبح هو بذاته مادّة للفقه ومرجعاً لكتب الفقه فيما اشتملت عليه من الأفضية وخاصة الأفضية الإفريقية من بعده حيث أخذ القضاة بأعماله من بعده وجرى بها العمل مئات السنين^(١).

(١) ترتيب المدارك ٥٨٥/٢ - معالم الإيمان ٢٧/٢ - ١٠٧ رياض النفوس ٣٤٥/١ - ٣٧٥ شذرات الذهب ٢٢١/٢ البيان المغرب ١٠٩/١ - ١١١ طبقات علماء إفريقية ص ١٨٤ - ١٨٧ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٦ و ٣٠٥ الدبياج المذهب ص ٢٦٣ - ٢٦٨ طبقات الفقهاء ص ١٥٦ - ١٥٧ شجرة النور الزكية ص ٦٩ تراجم المؤلفين التونسيين ١٢/٣ - ١٨ كتاب العمر ٥٨٥/٢ - ٥٨٧، محاضرات للفاضل ابن عاشور ص ٣٠٣ - ٣٠٩ الحلل السندسية ٧٦٩/٣ - ٨٠٧.

- ٢ - محمد بن سحنون: (٢٠٢هـ - ٢٥٦هـ).

هو أبو عبدالله محمد بن سحنون، وارث علم أبيه وخليفته في حلقاته بالقيروان، نشأ بين يدي أبيه فتفقه به واعتمد عليه، وسمع من أعلام عصره منهم موسى بن معاوية الصمادحي (٢٢١هـ) عالم الحديث والفقه الذي قال فيه سحنون: ما جلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحقّ بالفتوى منه^(١)، وعبدالله بن أبي حسان اليحصبي (٢٢٦هـ) الذي كان غاية في الفقه بمذهب مالك، قويّ الحجّة في المناظرة، الذي قال فيه ابن وهب: ما رأيت مالكا أميل إلى أحد منه إليه^(٢)، وغيرهما من الأعلام.

فنشأ ابن سحنون من أكثر الناس حجّة وأتقنهم بها حتى إنّه كان يناظر أباه.

عزم ابن سحنون سنة خمس وثلاثين ومائتين على القيام برحلة إلى المشرق فلما وصل إلى مصر أقبل عليه علماؤها يسلمون عليه لما بلغهم من علمه وفضله، وأتاه المزني صاحب الشافعي فيمن أتاه وجلس معه كثيراً وأطال ليقلّ الناس ويخلو معه فلما خرج قدّمت إليه دابته ليركب فقبل له كيف رأيته فقال: لم أر والله أعلم منه ولا أحدَ ذهنًا على حدائته سنّه.

ولقي هناك جماعة من العلماء الأجلاء منهم أبو مصعب الزهري صاحب الإمام مالك.

تدرّج محمد بن سحنون في مسالك العلم حتى أصبح إماماً في الفقه عالماً بالآثار من الحفاظ المتقدمين المناظرين المتصرفين، وكان الغالب عليه الفقه والمناظرة وعلم الخلاف، فكان قويّ الحجّة سديداً في الذبّ عن مذهب مالك والرّدّ على أهل الأهواء، حتى قال تلميذه عيسى بن مسكين: ما رأيت بعد سحنون مثل ابنه، وقال حمديس القطان: رأيت العلماء بمكّة

(١) ترتيب المدارك ٦/٣ - ٩.

(٢) المصدر السابق ٤٨٠/٢ - ٤٨٥.

والمدينة ومصر فما رأيت فيهم مثل سحنون ولا مثل ابنه محمد، ولذلك حق له أن يجلس مجلس أبيه من بعده واعترف له أهل عصره بالإمامة في مذهب مالك بالمغرب لما اجتمعت فيه من خصال قل أن تجتمع في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر والجدل والحديث حتى قال أبو العرب في طبقاته: لم يكن في عصره أحذق بفنون العلم منه فيما علمت.

فتح الله على محمد بن سحنون باب التأليف فتحا عظيما، فكان كثير الكتب غزير التصنيف، له نحو من مائتي كتاب في فنون العلم يفخر بها أهل إفريقية، حتى أن القاضي إسماعيل بن إسحاق ذكر مرة في مجلسه ما ألفه أصحاب أبي حنيفة من الكتب، فقال القاضي إسماعيل: عندنا من ألف في مسائل الاجتهاد عشرين جزءا وهو محمد بن سحنون يفخر بذلك على أتباع أبي حنيفة، وتصفح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتاباً من كتب ابن سحنون فقال هذا كتاب رجل يسبح في العلم سبحا.

ألف ابن سحنون كتاباً في الحديث سمّاه المسند وكتاباً مشهوراً سمّاه الجامع، جمع فيه فنونا من العلم والفقه كثيرة، اعتمده عامّة من جاء بعده من المؤلفين في فقه المالكية، لا سيّما أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني في كتابه النوادر والزيادات، وكذلك عامّة من كتب تعليقا أو شرحاً على المدوّنة مثل ابن يونس وعبد الحميد بن الصائغ وأبي إسحاق التونسي وغيرهم، ولابن سحنون رسالة في أدب المناظرة، وكتاب تفسير الموطأ وكتاب الحجّة على القدرية وكتاب الحجّة على النصارى وكتاب الردّ على أهل الشرك وكتاب الردّ على أهل البدع وكتاب الردّ على الإمام الشافعي وعلى أهل العراق وله كتاب بعنوان أجوبة ابن سحنون تضمّن إجابات عن أسئلة وجهها إليه فقيه يدعى محمد بن سالم في مختلف أبواب الفقه - وقد وقع تحقيقه ونشره بدار سحنون التونسية - وله كتاب طبقات العلماء وكتاب الأشربة وكتاب التاريخ وكتاب السير وكتاب نوازل الصلاة وكتاب الزهد وكتاب في أحكام القرآن وكتاب آداب المعلمين - وقد قام على تحقيقه وطبعه بتونس سنة ١٩٣١ المرحوم حسن حسني عبدالوهاب -

وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ وقد بلغ من العمر ٥٤ سنة^(١).

- ٣ - محمد بن عبدوس (٢٦٠هـ).

هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير، أصله من العجم، وهو من موالي قريش، كان قرينا لمحمد بن سحنون وجارا له، نشأ معه بين يدي الإمام سحنون، وهو معدود من كبار أصحاب سحنون، ويروى أن ابن عبدوس أقام سبع سنين يدرس لا يخرج من داره إلا إلى الجمعة.

برع ابن عبدوس في دراسة العلم وتضلّع في الفقه حتى شهد له شيخه سحنون بذلك، فقد أورد القاضي عياض أن محمد بن عبدوس دخل يوماً على الإمام سحنون وعنده جماعة من كبار أصحابه وقد ألقى عليهم مسألة فبقي عليهم في الجواب فقال ابن عبدوس: فيم يتكلّمون؟ فقال سحنون: أخبروه، فلما أخبروه بالمسألة ذكر لهم وجه الجواب والاختلاف فيها، فقال سحنون: نعم، انظروا من يدرس وأنتم تركتم الدرس.

أصبح ابن عبدوس بفضل حرصه واجتهاده من أئمة وقته ورابع المحمّدين الأربعة اجتمعوا في عصره من أئمة مذهب مالك لم يجتمع في زمان مثلهم: اثنان مصريان، محمد بن عبدالحكم ومحمد بن الموّاز، واثنان قرويان: محمد بن عبدوس ومحمد بن سحنون.

وكان ابن عبدوس حسن التقييد عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه، حافظاً لمذهب مالك والرواة من أصحابه، إماماً فقيهاً غزير الاستنباط جيّد القريحة.

(١) ترتيب المدارك ٣/١٠٤ - ١١٨، رياض النفوس ١/٤٤٣ - ٤٥٨، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٧٨ و ٢٥٦ و ٢٩٦ معالم الإيمان ٢/١٢٢ - ١٢٤ طبقات الفقهاء ص ١٥٧ - ١٥٨ البيان المغرب ١/١١٥ الديباج المذهب ص ٣٣٣ - ٣٣٥ شذرات الذهب ٢/٣٠٧ شجرة النور الزكية ص ٧٠ تراجم المؤلفين التونسيين ٣/١٩ - ٢٤ كتاب العمر ٢/٥٨٨ - ٥٩٤ تاريخ التراث العربي ٣/١٥٦ - ١٥٧.

قال حبيب بن نصر - كاتب سحنون - كنت أسأل في المسائل النازلة سحنون فإن تعذر فابن عبدوس.

وكان قاضي القيروان عبدالله بن طالب - من كبار أصحاب سحنون - شديد الإعظام لابن عبدوس عارفاً بحقه، وكان يعتمد عليه في أحكامه ويطلبه بالمشاورة في كل وقت.

وكان سليمان بن عمران يقول لابن طالب: إن مات لك ابن عبدوس ما تصنع؟ فيقول ابن طالب: اللهم أبقني ما أبقيت محمد بن عبدوس أقتدي به في ديني ودنياي، وكان يثني عليه.

وكان ابن عبدوس مع إمامته في الفقه صالحاً زاهداً ناسكاً عابداً ظاهر الخشوع، إذا رأته يصلي علمت أنه ممن يخشى الله تعالى.

وذكر ابن اللباد أنّ محمد بن عبدوس صلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة، خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة، حتى قال حماس القاضي: ما رأيت مثل ابن عبدوس في الزهادة والفقه.

وكان من أشبه الناس بأخلاق الإمام سحنون في فقهه وزهاده وملبسه ومطعمه ذا ورع وتواضع.

قال تلميذه أحمد بن نصر: كنت إذا رحلت إلى محمد بن عبدوس وجدته قد جلس محتبياً متواضعاً زائلاً عن صدر مجلسه، فلا يعرفه أنه صاحب المجلس إلا من يدره.

وقال تلميذه محمد بن بسطام السوسي: كان مجلس ابن عبدوس في ركن المجلس، فإذا جاء السائل لم يعرفه حتى يقول من هو؟

وقال تلميذه حماس: كان ابن عبدوس يلقي علينا المسائل فإذا أشكلت شرحها فلا يزال يفسرها حتى نفقها، فيسرّ بذلك، وإن لم يرنا فهمناها غمّه.

ألف ابن عبدوس كتاباً جليلاً سمّاه المجموعة على مذهب الإمام مالك، ولكتّه لم يتمّه، وله كذلك كتاب فسر فيه أصولاً من مسائل من

المدوّنة كتفسير كتاب المراهبة وتفسير المواضعة وتفسير كتاب الشفعة وكتاب الدور، وله كتاب التفاسير في أبواب من الفقه، وكتاب الورع وكتاب فضائل أصحاب مالك وكتاب مجالس مالك، وقد عدّت هذه الكتب مؤلفات أخرى، فتضاف بعض هذه الكتب إلى المجموعة.

وقد تصفّح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتاباً لابن عبدوس فقال: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقد كانت كتبه هذه معتمدة في عصره، ولم يكن في وقته أفقه منه.

ومن الأرجح أنّ المجموعة التي لم تكتمل وتتكوّن من خمسين جزءاً هي مجموعة لكلّ مؤلفات ابن عبدوس، وقد أثنى ابن الحارث الخشني على الكتاب فوصفه بأنّه كتاب شريف على مذهب مالك وأصحابه، ويبدو أنّ عنوان الكتاب الكامل هو: المجموعة على مذهب مالك وأصحابه.

ولم تصلنا قطعة من هذا الكتاب، غير أنّه من الممكن البحث عن مضمونه أحياناً في كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني، إذ أنّ مجموعة ابن عبدوس هي من أهمّ مصادر كتاب النوادر ذلك أنّ حبيب بن نصر التميمي (٢٨٧هـ) قد عني بتوجيه مسائله الهامة في الفقه إلى أستاذه سحنون وإلى ابن عبدوس، ويبدو أنّ هذه الإجابات قد كانت فيما بعد تحت يد ابن أبي زيد.

كما أنّ الونشريسي قد أسند في معياره نقولاً عدّة وفتاوى عن ابن عبدوس في مواضع كثيرة منها نصّ بالنقل عن المجموعة^(١).

وهكذا فيقدر ما كان للمركز المصري من أهميّة باعتبار كونه الذي

(١) ترتيب المدارك ١١٩/٣ - ١٢٤ رياض النفوس ٤٥٩/١ - ٤٦١ معالم الإيمان ١٣٧/٢ - ١٤٤ قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ١٨٢ البيان المغرب ١١٦/١ الديباج المذهب ص ٣٣٥ - ٣٣٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨ شجرة النور الزكية ص ٧٠ كتاب العمر ٥٩٥/٢ - ٥٩٩ تراجم المؤلفين التونسيين ٣٤٥/٣ - ٣٤٧ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٤٠، ١٤٨، ١٨٧.

أوى إليه العدد الأكثر والأهم قيمة من أصحاب مالك، وبقدر ما كان للمركز المدني من شأن أيضاً باعتبار كونه المركز الأصلي الذي كان منه الانتشار، فإن المذهب المالكي قد أصبح بأهمية هذا المركز الإفريقي مذهباً إفريقيّاً باعتبار التدوين وباعتبار التطبيق^(١).

وكان من أهل الأندلس:

* أبو محمد الغازي بن قيس (حدود ١٩٩هـ) من أهل قرطبة، كان مؤدباً بقرطبة قبل رحلته إلى المشرق، وكان إمام الناس بها في القراءة، رحل فسمع من مالك الموطأ وسمع من ابن أبي ذئب وابن جريج والأوزاعي، ثم عاد لى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهلها، فكان يروي حديثاً كثيراً، وكان فقيهاً في المسائل رأساً في علم القرآن، وهو أول من أدخل موطأ مالك وقراءة نافع الأندلس، وقيل: إنه كان يستظهر الموطأ من حفظه^(٢).

* زياد بن عبدالرحمن (١٩٩هـ) أبو عبدالله الملقب بشبظون، كانت له إلى مالك رحلتان، سمع منه الموطأ، كما روى عن الليث بن سعد وسليمان بن بلال وسفيان بن عيينة وابن أبي حازم، وغيرهم من أهل العلم والفقه.

وعنه روى يحيى بن يحيى الليثي الموطأ، وسماعه من مالك قبل رحلته من الأندلس، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك وأخذه عنه، ففعل.

وكان زياد أول من أدخل إلى الأندلس علم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والأحكام، وكان أهل المدينة يسمون زياداً فقيه الأندلس.

(١) انظر: محاضرات للفاضل ابن عاشور ص ٣١١.

(٢) ترتيب المدارك ٣٤٧/١ - ٣٤٩ الديباج المذهب ص ٣١٤ جذوة المقتبس ص ٣٠٥ تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ٥٦/٢ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٥٧٨/٢ - ٥٧٩.

راوده الأمير هشام على القضاء فأبى عليه وخرج هارباً بنفسه، فقال هشام: ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفي أهل الرغبة في الدنيا، ثم أمّنه فرجع إلى قرطبة.

له عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد، وله كتاب الجامع قيل إنه كتاب غريب يشتمل على علم كثير^(١).

* أبو عثمان سعيد بن أبي هند (٢٠٠هـ) أصله من طليطلة وسكن قرطبة، لقي مالكا وسمع منه وكان له مكرما وكان يسميه حكيم الأندلس، فكان يقول لأهل الأندلس إذا قدموا عليه: ما فعل حكيمكم ابن أبي هند؟^(٢).

* أبو عبدالله محمد بن سعيد بن بشير (١٩٨هـ) رحل إلى المشرق فلقي مالكا وجالسه وسمع منه ثم عاد إلى الأندلس فاستدعي للقضاء بقرطبة، فكان خير القضاة بها وأعدلهم وأفضلهم، من عيون القضاة الهداة ومن أولي السداد والمذاهب الجميلة، وأصالة الرأي والسيرة العادلة، والذكر الجميل الخالد، وكانت له في قضائه مسالك رفاق ومذاهب لطاف لم تكن لقاض قبله بالأندلس، ولم يزل قاضياً إلى أن توفي، وكان يشاور في قضائه عدّة من أعيان الفقهاء وأكابر العلماء كعبدالمك بن الحسن زونان من أوائل علماء أهل الأندلس علماً وفتياً (٢٣٢هـ) والغازي بن قيس، والحارث بن أبي سعد (٢٢٢هـ) الذي كان من أهل العلم والفتيا والذي عليه دارت الفتيا في عصره، وإسماعيل بن البشير التجيبي المفتي أيام الأمير الحكم بن هشام، ومحمد بن يحيى السبائي المعروف بفتيس، فإذا اختلفوا

(١) ترتيب المدارك ١/٣٤٩ - ٣٥٣ الديباج المذهب ص ١٩٣ - ١٩٤ جذوة المقتبس ص ٢٠٢ - ٢٠٣ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٤ و ٣٣ و ٣٤ و ٤٦ تاريخ علماء الأندلس ١/٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) ترتيب المدارك ١/٣٥٣ - ٣٥٥ جذوة المقتبس ص ٢١٨ تاريخ علماء الأندلس ١/٢٨٨ - ٢٨٩ بغية الملتبس ٢/٤٠٣.

عليه كتب إلى عبدالرحمن بن القاسم وعبدالله بن وهب بمصر^(١).

* أبو محمد عيسى بن دينار (٢١٢هـ) سكن قرطبة، ورحل بعد موت مالك وأصحاب مالك متوافرون كابن القاسم وابن وهب وأشهب، غير أنّ عيسى بن دينار سمع ابن القاسم واقتصر عليه، وصحبه وعوّل عليه، فكان ابن القاسم يصفه بالفقه والورع، ووصّاه حين انصرافه وقال له: عليك بأعظم مدائن الأندلس فأنزلها ولا تنزل منزلاً يضيع فيه ما حملت من العلم، فلما عاد عيسى إلى الأندلس كانت له بها رئاسة، وكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه في وقته أحد بقرطبة، وكان لا يعدّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه.

وهو الذي علّم أهل الأندلس المسائل والفقه، وأوّل من أدخل الأندلس رأي ابن القاسم وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلاله قدر يحيى، وبه ويحيى انتشر علم مالك بالأندلس.

وكان مع فقهه مشهور بالورع، على طريقة عالية من الزهد والعبادة، وكان إذا قرأ القارىء على عيسى ومرّ بذكر الحجّة والتار لم ينتفع الطلبة به ذلك اليوم.

وكان ابن القاسم يجلّه ويثق في فقهه وعلمه، فقد روي أنّ سحنوناً لما أصلح الأسديّة على ابن القاسم - وكان لعيسى نسخة من الأسديّة سجّلها حين حضر أسئلة أسد بن الفرات لابن القاسم - كتب عيسى إلى ابن القاسم يسأله عمّا رجع عنه من مسائل ويطلب منه إعلامه بها - وكان ابن دينار يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث - فكتب إليه ابن القاسم: أعرضه على عقلك فما رأيت حسناً فأمضه، وما أنكرت فدعه.

ولعيسى سماع من ابن القاسم عشرون كتاباً، وله تأليف في الفقه

(١) ترتيب المدارك ٤٩٣/٢ - ٥٠٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٥٤ - ٥٥.

يسمى الهدية قيل هو من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك^(١).

* أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي (٢٣٤هـ) طلب العلم أول الأمر على زياد بن عبدالرحمن المعروف بشبطين، وكان شيخه زياد هو الذي اجتهد في تعليمه حتى برع، ثم شجعه على الرحلة إلى المشرق لملاقاة كبار الأئمة، فحج يحيى وهو ابن ٢٨ سنة فسمع بالمدينة من مالك ومن نافع بن أبي نعيم القاري وغيرهما، وكان مالك يعجبه سميت يحيى وعقله، وقد روي عنه أنه كان يوماً جالساً في جملة أصحاب مالك، فإذا قائل يقول: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إلا يحيى فإنه لم يخرج، فقال له مالك: لم لم تخرج فترى الفيل؟ فقال له يحيى: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلّم من علمك، لا أن أنظر إلى الفيل فأعجب به مالك وسماه عاقل الأندلس.

وسمع بمكة من سفيان بن عيينة، وبمصر من الليث بن سعد وعبدالله بن وهب، ثم كانت له رحلة ثانية لقي فيها جملة من أصحاب مالك وسمع من ابن القاسم وبه تفقه.

رجع إلى الأندلس بعلم كثير فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه، وسمع منه رجال الأندلس في وقته، ولم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى، فكان إمام بلده المقتدى به المنظور إليه المعول عليه، وكان يفتي برأي مالك لا يدع ذلك إلا في مسائل معدودة، خالف فيها مالك وأخذ فيها برأي الليث بن سعد فكان لا يرى القنوت في الصبح ولا غيرها اقتداء بالليث بن سعد، وخالف مالكاً في الأخذ باليمين مع الشاهد، فلم ير القضاء به، وأوجب شهادة رجلين أو رجل وامرأتين كما هو رأي الليث، وقضى برأي أمينين إذا لم يوجد من أهل الزوجين حكمان، ورأى كراء

(١) ترتيب المدارك ١٦/٣ - ٢١ الديباج المذهب ص ٢٧٩ - ٢٨٠ جذوة المقتبس ص

٢٧٩ تاريخ علماء الأندلس ٥٥٦/٢ - ٥٥٧.

الأرض بجزء مما يخرج منها على مذهب الليث.

وكان يقال: فقيه الأندلس عيسى بن دينار وعالمها ابن حبيب وعاقلها يحيى بن يحيى.

وكان مع إمامته ودينه مكيناً عند الأمراء معظماً، وعفيفاً عن الولايات متنزهاً، جلّت درجته عن القضاء، فكان أعلى قدراً من القضاة عند ولّاة الأمر بالأندلس لزهده في القضاء وامتناعه منه.

وكانت وفاة يحيى سنة ٢٣٤هـ وقد بلغ من العمر ٨٢ سنة^(١).

ثم نشأ بعد هؤلاء الأعلام من أهل الأندلس رجال تلقوا عن أصحاب مالك وسمعوا منهم فتكثروا على طريقتهم ملتزمين مذهب مالك ناهجين في التفقه نهجه ومسلكه، فكان من أشهرهم:

١ - سعيد بن حسان الصائغ (٢٣٦هـ) رحل إلى المشرق سنة ١٩٧هـ فروى عن عبدالله بن عبدالحكم وأشهب ومنه استكثر، حتى عدّ راوية أشهب، فسمع منه سماعه من مالك وكتب رأيه، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٢٠٤هـ فكان فقيهاً في المسائل مشاوراً مع يحيى بن يحيى وطبقته، وكان منقطعاً إلى مؤاخاة يحيى آخذاً بهديه معظماً له، لم يخالفه في شيء يراه، وكان الأغلب عليه حفظ رأي أشهب وفقهه وروايته عن مالك^(٢).

٢ - محمد بن عيسى المعافري (٢٢١هـ) أبو عبدالله المعروف بالأعشى، رحل في العام الذي مات فيه مالك، سمع من سفيان الثوري ووكيع بن الجراح وابن كنانة والمخزومي وغيرهم، وكان الغالب عليه الحديث والأثر، روى بمصر أربعين ألف مسألة عن ابن القاسم وابن وهب

(١) ترتيب المدارك ٥٣٤/٢ - ٥٤٧ الديباج المذهب ص ٤٣١ - ٤٣٢ جذوة المقتبس ص ٣٥٩ - ٣٦٠ تاريخ علماء الأندلس ١٩٠/٢ - ١٩٨ بغية الملتبس ٦٨٥/٢ - ٦٨٧.

(٢) ترتيب المدارك ٢١/٣ - ٢٢ جذوة المقتبس ص ٢١٣ تاريخ علماء الأندلس ٤٧٠/١ بغية الملتبس ٣٩٣/٢.

وأشهب سوى ما روى عن أصحاب مالك المدنيين، وكان يذهب في الأشربة مذهب أهل العراق^(١).

٣ - عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي (٢٣٨هـ) أصله من طليطلة، انتقل جدّه سليمان إلى قرطبة، وانتقل أبوه حبيب إلى البيرة، روى ابن حبيب بالأندلس عن صعصعة بن سلام تلميذ الأوزاعي والغازي بن قيس وزيايد بن عبدالرحمن، ورحل سنة ٢٠٨هـ فسمع ابن الماجشون ومطرف وابن أبي أويس وعبدالله بن عبدالحكم وأصبغ بن الفرج وجماعة سواهم، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٢١٠هـ وقد جمع علماً عظيماً، فنزل بلدة البيرة وقد انتشر علمه وروايته فنقله الأمير عبدالرحمن بن الحكم إلى قرطبة وجعله في المفتين بها، فأقام مع يحيى بن يحيى زعيمها في المشاورة والمناظرة.

انفرد عبد الملك بعد يحيى برئاسة الفقه بالأندلس، كان حافظاً للفقه على مذهب مالك نبيها فيه، جمّاعاً للعلم كثير الكتب، حتى روي أنّه كان إذا خرج من الجامع تبعه نحو ثلاثمائة طالب بين حديث وفرائض وفقه وإعراب.

أثنى عليه ابن الموّاز بالعلم والفقه، وكانت وفاته سنة ٢٣٨هـ وقيل ٢٣٩هـ وقد بلغ ستاً وخمسين سنة، ولما نعي إلى سحنون، استرجع وقال: مات عالم الأندلس، بل والله عالم الدنيا.

ألّف ابن حبيب كتباً كثيرة منها الواضحة في السنن والفقه، وقد قال فيها العتبي: ما أعلم أحداً ألّف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره.

وله أيضاً كتاب الجوامع وكتاب فضائل الصحابة وكتاب غريب

(١) ترتيب المدارك ٢٣/٣ - ٢٥ جذوة المقتبس ص ٦٩ تاريخ علماء الأندلس ٦٣٣/٢ -

وله أيضاً كتاب الجوامع وكتاب فضائل الصحابة وكتاب غريب الحديث وكتاب إعراب القرآن وكتاب الفرائض وكتاب المواعظ وكتاب الفضائل وكتاب فضائل النبي والصحابة وفضائل مالك بن أنس وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ وרגائب القرآن وغير ذلك من كتب سماعته في الحديث والفقه، وله تأليف في الطب وفي النجوم، حتى قيل إن بعض الفقهاء كانوا يحسدونه لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها^(١).

٤ - يحيى بن معمر بن عمران (٢٢٦هـ) من أهل إشبيلية، كان في وقته فقيه إشبيلية وفارضها، له رحلة لقي فيها أشهب بن عبدالعزيز وأخذ عنه وعن غيره من أهل العلم، وكان ورعاً زاهداً عفيفاً مقبلاً على عمارة ضيعته فاستقدمه الأمير عبدالرحمن بن الحكم وولاه قضاء قرطبة فكان من خير القضاة في قصد بصيرته وحسن هديه، وكان إذا أشكل عليه أمر من أحكامه واختلف عليه الفقهاء، كتب في المسألة إلى أصبغ بن الفرغ وغيره من نظرائه بمصر يسألهم وجه الصواب في الأمر.

وكانت آفة يحيى بن معمر قلة رضاه عن الفقهاء وقلة مداراته لهم، فتفرقوا عنه جميعاً وكان أشدهم عليه زعيم الجماعة يحيى بن يحيى، وسعوا عليه جهدهم حتى عزل.

ولما عزل أزمع على الرجوع إلى إشبيلية فنظروا في بيته فإذا فيه حصير وخابية من دقيق وقصعة وقلة الماء وقدح وفراش تبين وسريرة كان ينام عليها، فقال لخدامه فرق الدقيق على من بالباب من الفقراء وادفع الحصير والآنية إلى ضعفاء الحومة وقال: والله المحمود على اليسير وركب منصرفاً إلى بلده.

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٠ - ٤٨ الديباج المذهب ص ٢٥٢ - ٢٥٦ جذوة المقتبس ص

٢٦٣ - ٢٦٥ تاريخ علماء الأندلس ٢ - ٤٥٩ - ٤٦٣ تذكرة الحفاظ ٢/٥٣٧.

ثم ولي على قضاء قرطبة ثانية، واختلفت الأخبار هل مات معزولاً أو قاضياً^(١).

٥ - يحيى بن إبراهيم بن مزين (٢٥٩هـ) أصله من طليطلة، انتقل إلى قرطبة فسكنها، روى عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى والغازي بن قيس ونظرانهم، ورحل إلى المشرق فلقي مطرف بن عبدالله وروى عنه الموطأ ورواه أيضاً عن حبيب كاتب مالك، ودخل العراق وسمع من القعني، وسمع بمصر من أصبغ بن الفرغ وغيره.

كان حافظاً للموطأ فقيهاً فيه عارفاً بمذهب أهل المدينة، حتى قيل أنه كان أفقه أهل زمانه في علم مالك وأصحابه.

له كتاب في تفسير الموطأ وكتاب المستقصية استقصى فيه علل الموطأ وكتاب فضائل العلم وكتاب فضائل القرآن^(٢).

٦ - عبدالله بن محمد بن خالد بن مرتيل (٢٥٦هـ) سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وسمع بمصر من أصبغ بن الفرغ، ثم عاد إلى الأندلس فكان رأس المالكية بها والقائم بها، وكان ورعاً مهيباً معظماً للعلم ذا صلابة في الحق لا يرى التقيّة ولا يبالي ما دار عليه، وكان الناس في مجلسه كأنّ على رؤوسهم الطير من الإجلال^(٣).

٧ - أبو وهب عبدالأعلى بن وهب (٢٦١هـ) سمع من يحيى بن

(١) ترتيب المدارك ٥١/٣ - ٥٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٠ - ٧٥ و ٧٦ - ٧٨ جذوة المقتبس ص ٣٥٦ تاريخ علماء الأندلس ٨٩٧/٢ - ٨٩٨ تاريخ افتتاح الأندلس ٧٥/٢ بغية الملتبس ٦٨١/٢.

(٢) ترتيب المدارك ١٣٢/٣ - ١٣٤ جذوة المقتبس ص ٣٥٠ تاريخ علماء الأندلس ٩٠١/٢، بغية الملتبس ٦٩٩/٢ - ٦٧٠.

(٣) ترتيب المدارك ١٣٢/٣ - ١٣٤ الديباج المذهب ص ٢٢٨ جذوة المقتبس ص ٢٣٢ تاريخ علماء الأندلس ٣٦٩/١.

يحيى، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وسمع بالمدينة من مطرف بن عبدالله ومن أصبغ، وسمع بمصر من أصبغ واستكثر منه، ثم عاد إلى الأندلس فأصبح من أهل الشورى بها مع شيوخها يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبدالمك بن حبيب وأصبغ بن خليل^(١).

٨ - أبو عبدالله محمد بن يوسف بن مطروح (٢٧١هـ) من أهل قرطبة، كان أعرجا وبذلك يعرف، روى بالأندلس عن الغازي بن قيس وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى وغيرهم، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وأصبغ ومطرف بن عبدالله بالمدينة، وكانت رحلته برفقة ابن مزين وعبدالأعلى بن وهب وعبد الوهاب بن ناصح الجزيري.

كان فقيهاً حافظاً، وعالماً مبرزاً، من أهل الشورى بقرطبة مع شيوخها يحيى بن يحيى وابن حسان وابن حبيب، وكانت الفتيا تدور عليه مع أصبغ بن خليل وعبدالأعلى بن وهب^(٢).

٩ - أبو القاسم أصبغ بن خليل (١٦٥هـ - ٢٧٣هـ) قرطبي، سمع بالأندلس من الغازي بن قيس ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى، ورحل فسمع من سحنون وأصبغ وغيرهما.

كان بصيراً بعلم الوثائق، وكان من أهل العلم والورع والرئاسة في الفقه، فطنا بالمسائل حسن القريحة والقياس، حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه.

دارت عليه الفتيا خمسين عاماً، وكان شديد التعصب لرأي مالك وأصحابه وخاصة منهم ابن القاسم، وبلغ به التعصب أنه اختلق حديثاً في إبطال رفع اليدين في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام.

(١) ترتيب المدارك ١٣٨/٣ - ١٤٠ الديباج المذهب ص ٢٧٤ جذوة المقتبس ص ٢٧١ تاريخ علماء الأندلس ٤٧٤/١ - ٤٧٦.

(٢) ترتيب المدارك ١٤١/٣ - ١٤٢ الديباج المذهب ص ٣٥٩ - ٣٦٠ جذوة المقتبس ص ٩٠ تاريخ علماء الأندلس ٦٣٩/٢ - ٦٤٠ بغية الملتبس ١٨٢/١.

طال عمره، وكانت وفاته سنة ٢٧٣هـ وقد بلغ من العمر ٨٨ سنة^(١).

١٠ - محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العتبي (٢٥٥هـ) أبو عبدالله المعروف بالعتبي، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما، ورحل فسمع من سحنون وأصبع بن الفرغ.

كان حافظاً للمسائل جامعاً لها عالماً بالنوازل، ولم يكن بالأندلس في وقته من يتكلم معه في الفقه، ولا يفهم فهمه إلا من تعلم عليه.

وكان من أهل الخير والجهاد والمذاهب الحسنة، وكان لا يزول بعد صلاة الصبح من مصلاه إلى طلوع الشمس، حتى يصلّي الضحى، دارت عليه الأحكام والفتوى نحو ستين عاماً.

جمع المستخرجة - مجموعة الأسمعة المسماة بالعتبية - وكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة فإذا أعجبته، قال: اجعلوها في المستخرجة.

وذكر ابن حزم الظاهري المستخرجة، فقال: لها بإفريقية القدر العالي والطيران الحثيث^(٢).

واشتهر في هذه المرحلة من أهل الأندلس أيضاً أعلام سبعة كانوا في وقت واحد بالبيرة، رحلوا في طلب العلم إلى مختلف المراكز العلمية واعتنوا اعتناءً خاصاً بالتلقي عن مدرسة القيروان وجمعوا الرواية عن سحنون حتى عرفوا برواة سحنون، وهم: عمر بن موسى الكنانى (٢٥٧هـ) فقيه البيرة بعد خروج ابن حبيب منها، وسليمان بن نصر بن المرّي (٢٦٠هـ) والفقيه الحافظ إبراهيم بن شعيب الباهلي (٢٦٥هـ) وإبراهيم بن خالد الفهري (٢٦٨هـ) وسعيد بن النمر (٢٦٩هـ) وقد كان ذا فقه وورع، ومن أجل أعلام هذه الطبقة وأشهرهم، ومن عليّة أصحاب الإمام سحنون

(١) ترتيب المدارك ١٤٢/٣ - ١٤٤ الديباج المذهب ص ١٥٩ جذوة المقتبس ص ١٦٤ تاريخ علماء الأندلس ١٥٠/١ - ١٥٢.

(٢) ترتيب المدارك ١٤٤/٣ - ١٤٦ جذوة المقتبس ص ٣٦ - ٣٧ بغية الملتبس ٧٠/١.

في الفضل والعلم، ومحمد بن عبدالله اللبدي (٢٦٥هـ) والحافظ الفقيه أحمد بن سليمان بن أبي الربيع (٢٨٧هـ) وقد تأخرت وفاته عن أصحابه^(١).

ونشير ونحن بصدد الحديث عن مدرسة الأندلس أنّ الفتيا كانت تدور بها على رأي الإمام الأوزاعي إلى زمن الحكم بن هشام (١٨٠هـ - ٢٠٦هـ) نظراً لكثرة القادمين إليها من أهل الشام، وكان أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي أبو عبدالله صعصعة بن سلام (١٩٢هـ) الدمشقي، الذي دخل مصر وتلمذ على الأوزاعي، ثم دخل الأندلس فولّي خطابة جامع قرطبة في زمن هشام الأول (١٧٢هـ - ١٨٠هـ) ولم يزل بها إلى أن توفي^(٢)، ثم غلب على الأندلس بعد ذلك مذهب مالك، حتى أنّ بعض الذين كانوا يذهبون مذهب الأوزاعي مثل عبدالملك بن الحسن زونان - وهو من أوائل علماء أهل الأندلس علماً وفتياً - قد عدلوا عن مذهب الأوزاعي ومالوا إلى مذهب مالك، وعدّ القاضي عياض من أعلام الأندلسيين الملتزمين بالمذهب المالكي في هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها أكثر من تسعين فقيهاً.

بل إنّنا لنلاحظ أنّه بحكم الكثرة الكاثرة من الأندلسيين الآخذين على ابن القاسم قد أصبح أهل الأندلس أشدّ الناس التزاماً بالعمل بمقتضى فتاويه حتى كان القضاة لا يخرجون في أحكامهم عن قول ابن القاسم إلى غيره من أصحاب مالك، وقد روي في ذلك أنّ عبدالملك بن حبيب أراد من قاضي قرطبة يحيى بن معمر أن ينقذ حكماً أشار به عليه على قول أشهب خلافاً لقول ابن القاسم، فقال ابن معمر: والله لا أفعل، ولا أخالف ما وجدت عليه أهل البلد من العمل على قول ابن القاسم^(٣).

(١) جذوة المقتبس ص ٢٢٧، تاريخ علماء الأندلس ٣٥٤/١.

(٢) ترتيب المدارك ١٥٥/٣ - ١٥٧، تاريخ علماء الأندلس ٦٣٤/٢ - ٦٣٦.

(٣) ترتيب المدارك ٥٤/٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٧.

ورغم هذا التوجّه العام والجديد الذي سارت عليه الأندلس في التزام المذهب المالكي، فإنّ ذلك لم يمنع بعض الفقهاء من أمثال يحيى بن يحيى الليثي الذي كان يفتي برأي مالك ولا يدع ذلك، أن يفتي في مسائل برأي الليث بن سعد مخالفاً فيها ما سار عليه مالك وأصحابه.

ومن خلال تتبّع تراجم أعلام أهل الأندلس في هذه المرحلة نلاحظ كذلك سمتين بارزتين تكاد الأولى تنسحب على جميع الأعلام، وهي على الرغم من اشتهاار مالك بسعة علمه بالحديث ورجاله، إلى جانب اتّصافه بإتقان الفقه والتقدّم في مسائله، إلا أنّ هذه الصفة المتمثلة في الجمع بين سعة الرواية والعلم بالحديث من ناحية، ومثانة الفقه في المسائل من ناحية ثانية قد أعوزت الكثير من أعلام الأندلس، فلم يظهر في كثير منهم العناية بالحديث عناية لازمة لزوم أهل عصرهم، حتّى وصف الكثير منهم بقلّة البضاعة في الحديث.

فوجد عبدالله بن نافع الصائغ رغم أنّه صحب مالكا أربعين سنة ولزمه لزوماً شديداً وجلس مجلسه بعد ابن كنانة، فإنّه لم يكن صاحب حديث ولم يكن في الحديث بذاك وكان ضعيفاً فيه^(١).

ونجد قرعوس بن العباس (٢٢٠هـ) من أهل قرطبة رغم أنّه سمع من مالك وسفيان الثوري وابن جريج والليث بن سعد وابن أبي حازم وغيرهم، وكان عالماً بالمسائل على مذهب مالك وأصحابه، كثير الفقه، إلا أنّه لم يكن له علم بالحديث^(٢).

ونجد عبدالملك بن زونان الذي كان يفتي في أيام هشام بن عبدالرحمن مع يحيى بن يحيى، كان الأغلب عليه الفقه ولم يكن من أهل الحديث^(٣).

(١) ترتيب المدارك ١/٣٥٦ - ٣٥٧، الديباج المذهب ص ٢١٣.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٩٢، الديباج المذهب ص ٣٢٥.

(٣) ترتيب المدارك ٣/٢٠، الديباج المذهب ص ٢٥٨.

ونجد محمد بن خالد بن مرتيل المعروف بالأشجّ (٢٢٠هـ) الذي سمع من ابن وهب وأشهب وابن نافع ونظرائهم من المدنيين والمصريين، قد غلب عليه الفقه ولم يكن له علم بالحديث^(١)، وكذلك الشأن بالنسبة لابنه عبدالله الذي كان من أهل العلم وكان رأس المالكية بالأندلس والقائم بها، فعلى جلالة قدره وحفظه للفقه وتقدمه على أصحابه، فلم يكن له علم بالحديث^(٢).

ونجد قاسم بن هلال بن يزيد (٢٣٧هـ) الذي سمع من ابن القاسم وابن وهب وغيرهما، وتلقى عن المصريين والمدنيين من أصحاب مالك، كان عالماً بالمسائل ولم يكن عنده علم بالحديث^(٣).

وحتى عبدالملك بن حبيب الذي كان زعيم قرطبة في المشاورة والمناظرة مع يحيى بن يحيى، فقد ذكر ابن الفرضي: أنه لم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بصحيحه من سقيم^(٤).

وكذلك الشأن بالنسبة ليحيى بن يحيى الذي قال فيه ابن عبدالبر: لم يكن له تبصّر بالحديث^(٥).

ويحيى بن مزين الذي كان يحفظ الموطأ وكتبه حفظاً ويتقن ضبطها، والذي كان من أفاقه الناس في علم مالك وأصحابه، فرغم مكانته العلمية وإتقان الحفظ وجودة العقل فقد ورد بأنه كان قليل الرواية وبأنه لم يكن له علم بالحديث^(٦).

وعبدالأعلى بن وهب، فرغم أنه كان من شيوخ أهل الشورى

(١) ترتيب المدارك ٢٦/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ١٣٤/٣.

(٣) ترتيب المدارك ٢٧/٣.

(٤) ترتيب المدارك ٣٢/٣، ٣٧ الديباج المذهب ص ٢٥٣.

(٥) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ الديباج المذهب ص ٤٣١.

(٦) ترتيب المدارك ١٣٣/٣.

بقرطبة، فلم يكن هو الآخر له معرفة بالحديث^(١).

وأصبح بن خليل الذي كان حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه، فرغم أنّ الفتيا قد دارت عليه خمسين سنة فقد كان يعادي أهل الأثر ولم يكن له معرفة بالحديث - كما قال عياض - وبلغ به الحد فيما قاله ابن الفرضي وغيره أن اختلق حديثاً في إبطال رفع اليدين في الصلاة بعد الإحرام^(٢).

وأما السمة الثانية فتتمثل في التنازع والمهاجرة التي كانت مستحكمة بين علماء أهل الأندلس ولم يسلم من شرّها إلا القليل، حتى يكاد الدارس لهذه المرحلة أن يقتنع بأنّ المعاصرة بين العلماء تقتضي بالضرورة المنافرة.

فهذا قاضي قرطبة يحيى بن معمر^(٣) الذي عدّ من خير القضاة في قصد بصيرته وحسن هديه، والذي كان لا يخالف الحقّ ولا يخاف في الله لومة لائم، كان فقهاء قرطبة يتبعون عثراته، وكان أشدهم عليه يحيى بن يحيى الليثي، الذي سعى في عزله، وكان يحيى بن معمر لا يحضر مجلسه ولا يشاوره.

وقد كانت آفة هذا القاضي قلّة رضاه عن الفقهاء وتتبعه سقطاتهم وقلّة مداراته لهم، لا يلين لهم فيما يريدون، ولا يصغي إليهم فيما يحبّون، حتّى حمل سبعة عشر فقيهاً منهم السخط عليه، وتفرّقوا عنه بأجمعهم ورفعوا عليه من كلّ جانب وسعوا عليه جهدهم وشهدوا عليه شهادات أرسلوا بها إلى الأمير، فتصفّحها، ولمّا لم يجد فيها شهادة يحيى بن يحيى وجّه بالكتاب إليه لينظر فيه ويكتب له برأيه، فكتب يحيى بن يحيى: ما عندي من أخبار القاضي شيء لأنّه لم يكن يحضرني

(١) ترتيب المدارك ١٣٨/٣ الديباج ص ٢٧٤.

(٢) ترتيب المدارك ١٤٣/٣ - ١٤٤.

(٣) ترتيب المدارك ٥١/٣ - ٥٥ فضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٢ - ٧٤ و ٧٦ -

مجلسه ولا يشاورني، وأما الشهادات الواقعة عليه فلو وقع مثلها على مالك والليث ما رفعها بعدها رأساً، فأمر ابن معمر معزولاً.

ثم رأى الأمير بعد حين إعادة ابن معمر للقضاء ثانية وقال: والله ما أشك في فضل الرجل وورعه، وإني لأظن أن الواقعين قد تألبوا عليه بالباطل، فلما عاد ابن معمر للقضاء حلف ألا يستبقي يحيى بن يحيى ولا عبدالملك بن زونان ولا سعيد بن حسان وبقيت الأحكام معلقة إلى حين، فأنكر الأمير ذلك، فقال له ابن معمر: قد أقسمت على ذلك، وفي البيرة عبدالملك بن حبيب رجل من أهل العلم والتقدم ستغنى به عنهم، فأقدمه وانفرد بفتياه.

ويذكر عياض أن الفقهاء كانوا بعد ذلك يحسدون ابن حبيب لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها^(١).

ثم ما لبث أن اختلف ابن معمر وابن حبيب في قضية أراد ابن معمر أن يحكم فيها بقول ابن القاسم، وأفتاه ابن حبيب بقول أشهب، وما زال التراجع بينهما حتى قام ابن حبيب مغضباً، فقبل لابن معمر: هذا أبقه على أعدائك، كأتي به قد صار في عددهم، فقال ابن معمر: بالعزل تخوفوني، ليت بغلتي عجزت في سهولة الحدود منصرفاً إلى إشبيلية - مسقط رأس ابن معمر -^(٢).

ويبدو أن المنافرة بين ابن معمر ويحيى بن يحيى قد طالت إلى أن مات ابن معمر، فقد روي أنه لما احتضر يحيى بن معمر بأشبيلية، قال لمولى له من أهل الصلاح: أقسم بالله عليك أجل الأقسام إذا أنا مت أن تذهب ليحيى وتقول له يقول لك ابن معمر: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٣) ففعل ذلك، فبكى يحيى بن يحيى، وقال: إنا لله وإنا إليه

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٦٦.

(٢) ترتيب المدارك ٣/٥٤٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

راجعون، ما أظنه إلا خدعنا في الشيخ وسيء بيننا وبينه، ثم استغفر الله ملياً ودعا له^(١).

وهذا عبدالملك بن حبيب نفسه لما استحکم له الأمر بقرطبة قد أساء القول جدّاً في جماعة من أهل العلم منهم إبراهيم بن حسين بن خالد وابن الحارث وعبدالأعلى بن وهب - ممّن رأوا تنفيذ حكم الإعدام على هارون بن حبيب أخي عبدالملك بن حبيب - وحتى ممّن رأوا عدم قتل أخيه وأفتوا بحبسه وضربه كالقاضي سعيد بن سليمان البلوطي وإبراهيم بن حسن بن عاصم - في قصة مشهورة - وأتهمهم بعداوتة له وطلب من الأمير عبدالرحمن بن الحكم عدم قبول مشورتهم، وعرض بما يوجب إسقاط فتوَاهم واعتذر لأخيه برسالة طويلة تضمّنت حسن المخرج بكلام أخيه وإسقاط الحدّ عنه والعقوبة، فأخذ الأمير بقول ابن حبيب وأمر بإطلاق سراح أخيه هارون بن حبيب^(٢).

ويذكر عياض أيضاً أنّ الذي كان بين عبدالملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي سيء جدّاً^(٣).

ويذكر أنّ سبب تقديم عبدالأعلى بن وهب إلى الشورى تضافره مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسنّ علي عبدالملك بن حبيب، وذلك أنّ ابن حبيب كان يخالفهما كثيراً في الفتيا فاتّفق أن حضروا يوماً عند القاضي في المجلس مسألة أفتى فيها يحيى وسعيد بفتوى وخالفهما ابن حبيب وأدعى قوله في رواية عن أصبغ، وكان عبدالأعلى راوية أصبغ، لقيه واستكثر من الأخذ عنه، فاجتمع به سعيد بن حسنّ وسأله عن المسألة، وهل يذكر فيها عن أصبغ شيئاً، فأخبره عن أصبغ بما وافق فتياه وفتيا يحيى، واستظهر بالقرطاس الذي سمع فيه من أصبغ، فاجتمع سعيد ويحيى علي أن يسألا

(١) ترتيب المدارك ٥٥/٣ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٨.

(٢) ترتيب المدارك ٤٠/٣ - ٤٤.

(٣) ترتيب المدارك ٣١/٣.

القاضي إعادة الشورى وإحضار عبدالأعلى، ففعل ذلك، فأفتى ابن حبيب بمثل فتياه أولاً عن أصبغ، فقال له عبدالأعلى: كذبت وأخرج كتابه عن أصبغ، فأراه القاضي فعنف ابن حبيب وقال له: إنما تخالف أصحابك بالهوى، فرفع ابن حبيب بالأمر كتاباً إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم يشكو فيه تحامل يحيى وسعيد عليه، ويغري بالقاضي وأنه شاور عبدالأعلى دون إذنك، فأنكر الأمير ذلك وأغلظ للقاضي ولحقت عبدالأعلى غضاظة، فرفع إلى الأمير كتاباً يذكر فيه ولاءه ويصف رحلته وما عنده من العلم ويستقيه من وكسه إياه ويستشهد بالشيخين - يحيى وابن حسان - والقاضي فاستعطفه بذلك وأمر بإلحاقه مرتبة الشورى فتقلدها إلى أن توفي^(١).

وحضر بإثر ذلك في مجلسهم عند الأمير عبدالرحمن، فسألهم الأمير عن مسألة فبدر عبدالملك بن حبيب، وقال فيها بسماعه عن أصبغ بن الفرغ، فقال عبدالأعلى: صدق، سمعت أصبغ يقول مثله، فعاتبه يحيى وسعيد وغيرهما، وقالوا له: رجوناك أن تكفناه فصرت حزباً معه، فقال لهم عبدالأعلى: لو آتني بدأت بتكذيبه استجفاني الأمير، ولقد رأيت ترك ذلك حتى يظهر متي للأمير علم ثم لن يفوت هذا، فكان بعد ذلك يكذبه ويخالفه^(٢).

ومن غريب ما يذكر أيضاً أنّ الذين أوقعا بين ابن القاسم وأشهب حتى أفسدوا ما بينهما وحلف أشهب بالمشي إلى مكة أن لا يكلم ابن القاسم ثم ندم وأراد أن يمشي تكفيراً عن يمينه، كانا من أهل الأندلس أحدهما هو موسى بن الفرغ الذي روى عن أشهب وكان فقيهاً في المسائل على مذهب مالك، من أهل الفتيا، وقد دعا عليه ابن القاسم وقال: لأعرضته على الله بالبكور والأسحار^(٣).

(١) ترتيب المدارك ١٣٩/٣.

(٢) ترتيب المدارك ١٣٩/٣ - ١٤٠.

(٣) ترتيب المدارك ٤٩/٣.

وأما العراق:

فقد بدأ المذهب المالكي يأخذ طريقه إليه عن طريق ثلثة من أصحاب مالك مثلوا النواة الأولى للمالكية بالعراق، وتكوّنت بهم بيئة مالكية عراقية، وهم:

* سليمان بن بلال: الذي وُلِّي القضاء ببغداد للخليفة الرشيد وتوفي وهو على القضاء قبل وفاة مالك بثلاث سنوات^(١).

* محمد بن عمر الواقدي: أبو عبدالله المدني، وعداده في البغداديين، سكن بغداد وولِّي القضاء بها للرشيد ثمّ للأمين، روى عن مالك حديثاً كثيراً وفقها ومسائل، وكان واسع العلم كثير المعرفة عالماً بالحديث والسير والمغازي والفتوح والأخبار واختلاف الناس في الحديث والأحكام وإجماعهم، وكانت وفاته ببغداد وهو على القضاء سنة ٢٠٧هـ، وقد جاوز المائة^(٢).

* عبدالله بن مسلمة القعنبي: المدني الأصل الذي سكن البصرة، واعتبر من عداد البصريين، وقد روى عن مالك ولزمه عشرين سنة حتى قرأ عليه الموطأ، وروى عن ابن أبي ذئب والليث بن سعد والدراوردي وسليمان بن بلال وغيرهم، وكان مالك يجلّه وحين سمع بقدمه قال لمن حوله: قوموا بنا إلى خير أهل الأرض نسلم عليه، وقام فسلم عليه، وكانت وفاته بمكة سنة ٢٢٠هـ^(٣).

* يحيى بن يحيى بن بكير النيسابوري: روى عن مالك الموطأ، ولازمه مدة في الاقتداء به، وعدّه ابن عبدالبرّ في الفقهاء من أصحاب

(١) ترتيب المدارك ٢٩٨/١ الديباج المذهب ص ١٩٥.

(٢) ترتيب المدارك ٤٠٤/١ - ٤٠٧ الديباج المذهب ص ٣٢٩.

(٣) الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٣٩٨/١ - ٣٩٩ الديباج المذهب ص ٢١٤ تذكرة الحفاظ ٣٨٣/١.

مالك، وروى عن الليث بن سعد وابن لهيعة وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وسليمان بن بلال وغيرهم، وكان أحمد بن حنبل يثني عليه ويقول: ما أخرجت خراسان بعد عبدالله بن المبارك مثله، ولم ير محدث أروع منه، وكان قد أخذ تلك الشمائل من مالك بن أنس، أقام عليها لأخذها سنة كاملة بعد أن استكمل سماعه من مالك، وقال: إنما أقمت مستفيداً لشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين، وكانت وفاته سنة ٢٢٦هـ^(١).

* هارون بن عبدالله الزهري: أبو يحيى المكي، نزل بغداد، روى عن مالك وأسندوا له عنه أحاديث، وسمع من ابن وهب وابن أبي حازم، وهو أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك، وكان يقوم بنصرة مذهب أهل المدينة فيحسن.

ولاه المأمون القضاء ثم صرفه عنه في مناسبات ثلاث، آخرها قضاء مصر سنة ٢١٧هـ وصرفه عنه سنة ٢٢٦هـ، فكان في قضائه محموداً عفيفاً عدلاً ذا قدر، وكانت وفاته سنة ٢٢٨هـ^(٢).

ونشأ بعد هؤلاء جماعة من أئمة المذهب المالكي لم يدركوا مالكا فتفقهوا على أصحابه وأدركوا القمّة في الفهم وبلغوا الغاية في النظر والاجتهاد، وكان من أشهرهم:

- ١ - أحمد بن المعذل (٢٤٠هـ).

هو أحمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم البصري، أصله من الكوفة، كان من أصحاب عبدالملك بن الماجشون، وسمع ابن أبي أويس وغيره.

كان مفوهماً ورعاً متبعاً للسنة، من الفقهاء الأدباء الفصحاء النظّار، ومن المعدودين في زهاد البصرة وعلمائها، وكان فقيهاً بقول مالك، ولم

(١) ترتيب المدارك ٤٠٧/١ - ٤٠٩ الديباج المذهب ص ٤٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ٥١٥/٢ - ٥٢١ الديباج المذهب ص ٤٢٨.

يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بمذهب أهل الحجاز منه، وكان أهل البصرة يسمّونه الراهب لفقهه ونسكه.

تفقّه عليه جماعة من كبار المالكيّة كالقاضي إسماعيل بن إسحاق وأخيه حمّاد ويعقوب بن شيبة.

توفي وقد قارب الأربعين سنة.

صنّف كتاب الحجّة وكتاب الرسالة^(١).

- ٢ - إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد (٢٥٦هـ).

هو إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد البصري، - والد إسماعيل القاضي - وليّ المظالم بمصر أيام المأمون والخطابة، ووليّ مظالم البصرة.

كان جدّه حمّاد بن زيد إمام البصرة، مشهوراً، كان أولاً بزّازاً، ثمّ لزم العلم فانتفع وانتفع به، وارتفع ولده به وتجرّدوا لمذهب مالك في أيامه وتفقّهوا به، حتى قيل بلغوا مناصب القضاء والفتيا والتدريس، ولا يعلم بيت بلغ ما بلغه بيت آل حمّاد^(٢).

- ٣ - يعقوب بن شيبة (٢٦٢هـ).

هو يعقوب بن شيبة بن الصلت السدوسي، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، وكان بارعاً في مذهب مالك، وألّف فيه تأليف جليّة، تلقّى العلم عن أحمد بن المعذل وأصبغ بن الفرّج والحارث بن مسكين، ولقي جماعة من أصحاب مالك.

كان من ذوي السند وكثرة الرواية، وأحد أعلام أهل الحديث المسندين، وقيل إنّه لم يتكلّم أحد عن علل الحديث بمثل كلام يعقوب وعلي بن المدني والدارقطني.

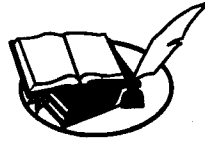
(١) ترتيب المدارك ٥٥٠/٢ - ٥٥٨ شذرات الذهب ٢/٢٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ٥٥٨/٢ - ٥٥٩.

سكن بغداد وحَدَّث بها، وتوفي وله من العمر ٨٠ سنة^(١).

وهكذا توزع المذهب المالكي على مراكز خمسة، هي المركز الأصلي الذي هو مركز المدينة المنورة وأربعة مراكز أخرى هي مصر وإفريقية والأندلس والعراق، فكان لكلّ مركز رجاله الذين قاموا على نشر المذهب، وكان أكثر المراكز عدداً وأسماهم قدراً المركز المصري الذي نشأ به عبدالرحمن بن القاسم أكثر أصحاب مالك شهرة وأتمهم قياماً على فقهه.

واستمرّ نشاط رجال المذهب في هذه المراكز مع التلاميذ الذين دوّنوا أسمعة شيوخهم من أصحاب مالك فأنّج هذا النشاط الموسع حركة تدوينيّة نشيطة داخل المذهب المالكي توجت بظهور مصنفات جامعة لفقه مالك ومسائله ولفتاوى وآراء كبار أصحابه وأكثرهم ملازمة له.



(١) ترتيب المدارك ٥٦/٣ - ٥٩ الديباج المذهب ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

حركة التدوين والتفريع في المذهب المالكي

إذا كان الإمام مالك قد دوّن الموطأ الذي هو كتاب علم وفقه أو كتاب أثر ونظر، فإن ناحية الفقه باعتبار التفريع التي يعبر عنها بالمسائل لم تدوّن من طرف مالك رضي الله عنه في حياته، وإنما ابتداءً بعده أصحابه في تدوينها^(١).

وقد عدّ أصحاب الطبقات من أصحاب مالك الذين أخذوا عنه الكثرة الكاثرة، وكان مالك إذا سئل عن مسألة كتبها أصحابه فيصير لكل واحد منهم سماع، غير أنّ الذين اشتهروا بتدوين سماعاتهم منه هم:

* عبدالرحمن بن القاسم المصري: وله سماعات من مالك بلغت عشرين كتاباً، وكتاب المسائل في بيوع الآجال، وكان عنده ثلاثمائة جلد عن مالك من المسائل أو نحوها^(٢).

* عبدالله بن وهب المصري: وله سماعاته على مالك بلغت ثلاثين كتاباً^(٣).

* أشهب بن عبدالعزيز المصري: وعدد كتب سماعه عشرون كتاباً^(٤).

(١) محاضرات ص ٧٠.

(٢) ترتيب المدارك ٤٣٤/٢، ٤٣٩.

(٣) ترتيب المدارك ٤٣٢/٢ - ٤٣٣.

(٤) ترتيب المدارك ٤٤٨/٢.

* ومعن بن عيسى المدني: له سماع مشهور من مالك ذكره ابن عبدوس في المجموعة^(١).

* عبدالله بن عبدالحكم المصري: له سماع من مالك، ونحو ثلاثة أجزاء ضمّنها في مختصره^(٢).

* عبدالمك بن الماجشون المدني: له كتاب سماعته وهي مشهورة^(٣).

* عليّ بن زياد التونسي: له سماع من مالك ثلاثة كتب^(٤).

* زياد بن عبدالرحمن: المعروف بشبطون القرطبي: وله عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد^(٥).

هذا النشاط الذي ابتداء بتدوين الأسمعة وتسجيل المسائل، قد أفرز في هذه المرحلة ميلاد مصنفات في المذهب المالكي احتوت فقه الإمام وفتاوى الشيوخ من أصحابه، وكان الأسبق إلى ذلك عليّ بن زياد التونسي الذي أقبل على تصنيف المسائل وتبويبها، وخرّجها كتباً كتباً على مواضيع الأحكام الفقهية وسمّاها: خير من زنته^(٦).

وبعليّ بن زياد تكوّن الفقيهان الجليلان اللذان قام عليهما دور تدوين المذهب المالكي، اشتراكاً مع عليّ بن زياد، وهما: أسد بن الفرات،

(١) ترتيب المدارك ٣٦٨/١.

(٢) ترتيب المدارك ٥٢٤/٢.

(٣) ترتيب المدارك ٣٦٢/١.

(٤) ترتيب المدارك ٣٢٦/١.

(٥) ترتيب المدارك ٣٤٩/١.

(٦) وذكر القاضي عياض عن سحنون أنّه قال: كتاب خير من زنته، أصله لابن الأشرس - أبو مسعود عبدالرحيم بن أشرس - إلاّ أنا سمعناه من ابن زياد، وكان يقرأه على المعنى، وكان أعرف من ابن الأشرس بالمعنى (ترتيب المدارك ٣٢٦/١).

والإمام سحنون، فكانا يتلقيان عن ابن زياد ما تضمّنته كتابه من المسائل والأحكام، يفسّر لهم الأقوال ويقرّر لهم المعاني بما انفرد به في ذلك، فكان تكوّنهما - كما يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور - موجّهاً لكلّ منهما إلى أن يدوّنا وإلى أن يكتبنا الكتب الجامعة للمسائل الفقهية على قول مالك وأصحابه، فدوّن أسد بن الفرات «مدوّنة» وذهب سحنون يتدارك تلك المدوّنة مع أسد وقد تلقّياها معاً عن عليّ بن زياد^(١).

وظهرت في هذه المرحلة كذلك الكتب الجامعة لمسائل الفقه المالكي في مختلف مراكز المذهب، فظهر مختصر ابن عبدالحكم بمصر ومن بعده الموازية لابن الموّاز، وظهرت الواضحة لابن حبيب بالأندلس ومن بعدها المستخرجة من الأسمعة المعروفة بالعتبية للعتبي.

وبهذه الكتب الجامعة أصبح المذهب المالكي مدوّناً مضبوط الفروع والمسائل.

وفيما يلي لمحة عن هذه المصنّفات الجامعة في المذهب المالكي:

* الأسدية والمدوّنة *

الأسدية نسبة لأسد بن الفرات الذي دوّن أسئلته لابن القاسم ومباحثاته معه وأجوبة ابن القاسم أحياناً بقول مالك، وأحياناً بما رأى ابن القاسم من خلافه، وأخرج ذلك في كتاب جامع دوّن فيه المذهب المالكي لأول مرّة تدويناً وافياً: وهو الأسدية التي اشتملت على ستين كتاباً.

وقد كانت إجابات ابن القاسم لأسد على أربعة أقسام:

* فما حفظه عن مالك أجابه فيه بقوله.

* وما شكّ فيه قال أخال وأحسب وأظنّ.

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٧٠، وأعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦، بتصرّف.

* وما كانت من مسائل مشابهة لما عند مالك قال فيها: سمعته يقول في مسألة كذا وكذا ومسألتك مثله.

* وما لم يكن لمالك فيها قول قال فيها باجتهاده على أصول مذهب مالك.

إلا أنّ هذا الأثر العظيم الذي أبرزه أسد قد بقي منقوصا - كما هو شأن كلّ عمل في ابتدائه -، وقد ظهر هذا النقص من جهتين:

الجهة الأولى: هو أنّه لما بنى أدراج مذهب على منهج مذهب آخر، فقد وقع فيه من الاختلاط في الأقوال والاختلال في عزوها أمور جاءت قاذحة في ما يطلب في كتب الأحكام من الصّحة المطلقة.

الجهة الثانية: هي أنّ فقهاء المالكية اعتادوا بناء الفقه على الأحاديث والآثار كما هي طريقة مالك في الموطأ، وقد سلك أسد في كتابه طريقة فقه خالص مبني على صريح الاجتهاد، فلذلك لقيت هذه الطريقة بعض ازورار منذ أن نشر كتاب أسد في مصر، ثمّ بعد أن عاد به إلى إفريقيّة، فكان الناس يقولون جئتنا بأخال وأظنّ وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف.

وتلقّى سحنون الأسدية عن أسد على ما فيها من قلة تحقيق الروايات وعلى ما فيها من اعتماد الفرض والتخريج والحسبان، وكان سحنون الذي تتلمذ لأسد بعد مقدمه من المشرق بالأسدية أتمّ الناس شعورا بتينك الناحيتين من نواحي النقص، وهو الذي ساوى أسدا في الأخذ عن مؤسس ذلك الصنيع عليّ بن زياد فانبرى سحنون ليسدّ الخلل ويرأب الصدع ورأى أن لا طريق إلى ذلك إلا بالعود بكتاب أسد إلى الأصل الذي أخذ عنه وهو ابن القاسم لتصحيح أقواله وضبط مشتبهه وبناء تلك المسائل على مسند الأخبار والآثار، من أجل تحقيق النقول وإتقان عزو المسائل والفتاوي والصور.

أو قل إنّ سحنونا قد لاحظ أنّ في الأسدية اختلافات عمّا يظنّ أنّه سمعه من عليّ بن زياد، فحدا به ذلك إلى أن يرجع في تحقيق ما وقع له

فيه الشك، إلى الذي كان مسلماً له من بين أصحاب مالك جميعاً بأنه أتمهم قياماً على فقه مالك، فتوجه إلى مصر في هذا السبيل سنة ١٨٨ هـ وعرض على ابن القاسم - وهو أصلها - ما أخذه عن أسد راجياً منه أن يحقق له نقولها وأن يتقن له عزو مسائلها ويزيل عنها أخال وأحسب وأظن، حتى يزول الشك ويندفع الاشتباه، فشافه وكاشفه عن جميع مسائلها مكاشفة فقيه يفهم، واستدرك ابن القاسم أشياء كثيرة وأسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك وأجابه فيه على رأيه، فكان سحنون بهذا الصنيع قد ردّ الفقه المالكي إلى طريقته المدنيّة الأولى مع الحفاظ على ما أفاده أسد من لقاح جديد بطريقة أهل العراق، وكتب ابن القاسم لسحنون كتاباً إلى أسد يأمره فيه أن يرّد الأسديّة على مدوّنة سحنون، فأنف أسد من ذلك وأبى الرجوع إلى المدوّنة فبلغ ذلك ابن القاسم فدعا أن لا يبارك الله له فيها وأن لا ينتفع بها، فأجيبته دعوته فلم يهتمّ الناس بالأسديّة وأعرضوا عنها من وقتها^(١)، وأفسح المجال أمام مدوّنة سحنون واقتصر الناس على التفقه فيها وصارت أصل المذهب المرجّح روايته على غيره في إفريقية، وعوّل عليها الناس وغلب عليها اسم سحنون وانتشر ذكرها في الآفاق.

وكان تصنيف سحنون أولاً غير مبوب على الأبواب، فكان يسمّى «المختلطة» لما كان فيه من اختلاط المسائل في الأبواب، ثمّ نظر فيها نظراً جديداً، فهذبها وبوّبها ووسّع دائرتها بإيراد الأقوال المخالفة لقول مالك وقول ابن القاسم وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره من بقية رجال التفريع في المذهب المالكي فروى عن عبدالله بن وهب وأشهب وعبدالرحمن بن مهدي وعليّ بن زياد، وذيل أبوابها بالأحاديث

(١) ذكر القاضي عياض أنّه كان لمحمد بن عبدالحكم فيها اختصار، ولأبي زيد ابن أبي الغمر فيها اختصار، وكان راوية الأسديّة وهو الذي صحّحها على ابن القاسم بعد أسد بن الفرات، وقال: له كتب مؤلّفة حسنة في مختصر الأسديّة، وللبرقي فيها اختصار وهو الذي كان صحّحها على ابن القاسم، وعليها كان مدار أهل مصر، (ترتيب المدارك ٤٧٢/٢ و٥٦٦).

النبوية والآثار التي أوردتها بأسانيدھا لتكون أصلاً للفروع التي ذكرھا - إلا كتبنا منها مفرقة بقيت.

على أصل اختلاطها في السماع - وأحياناً كان يورد مسائل بني فيها الحكم على عمل أهل المدينة، فاكتمل بذلك الصنيع وسمي «المدونة».

وقد بلغت عدّة مسائل المدونة ٣٦٠٠٠ مسألة - كما ذكر عياض - وهكذا يمكن أن نعتبر أنّ المدونة قد قامت على ثلاثة من الرجال، هم:

* أسد بن الفرات باعتباره مخطّط المنهج، ومدوّن الأسديّة التي عرضها سحنون على ابن القاسم.

* وعبدالرحمن بن القاسم باعتباره مصيغ المادة، والرجل الذي صحّحت لديه مدونة أسد.

* وسحنون باعتباره المحقّق المهدّب الجامع للمدونة في صورتها الأولى التي هي المختلطة حيث لم تكن مبوّبة ولا مستدلّ لها بالأحاديث والآثار، ثمّ المدونة التي بوّبت واستدلّ لها بالأحاديث والآثار.

تلك هي قصّة المدونة التي أصبحت الأصل الثاني بعد الموطأ، والمرجع الأخير للفقه المالكي، والتي أصبح عمود المذهب قائماً بها من بعد سحنون، واعتبرت أمّ المذهب المرجّح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم.

وقد رغب الإمام سحنون نفسه في تناول المدونة ودراستها، فقال: عليكم بالمدونة فإنّها كلام رجل صالح وروايته، وكان يقول: إنّما المدونة من العلم بمنزلة أمّ القرآن من القرآن، تجزىء في الصلاة عن غيرها، ولا تجزىء غيرها عنها.

ونوّه ابن رشد الجدّ بالمدونة واعتبر أنّه ليس بعد موطأ مالك ديوان في الفقه أفيد من المدونة، وأنها عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب أقليدس عند أهل الحساب.

ولذلك اعتنى سائر علماء المذهب بحفظها واستظهارها حتّى روي أنّه

كان يحضر بعض مجالس العلماء أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة من حفظه ويحفظها كما يحفظ القرآن.

وعلى المدونة مباشرة أو بواسطة وضعت التصانيف والتحرير والدراسات من مختصرات وشروح وتمهيدات وتعليقات وتقييدات وزيادات تواصلت بها حياة الفقه المالكي واستمرّ بها نشاط الحركة العلمية في المذهب عبر قرون.

وأطلق علماء المالكية على كتاب المدونة مصطلح الكتاب أو الأم، وقدموها على غيرها من كتب الأئمة في المذهب^(١).

* العتبية أو المستخرجة *

العتبية نسبة لمحمد بن أحمد العتبي القرطبي، وتسمى أيضاً بالمستخرجة من الأسمعة ممّا ليس في المدونة، وكان العتبي قد ضمّن كتابه هذا أسمعة تلاميذ مالك منه وأسمعة تلاميذهم منهم، وتوسّع في الرواية وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة فإذا أعجبه قال: أدخلوها في المستخرجة.

وقد تضاربت آراء الفقهاء المعاصرين للعتبي في مستخرجه فانتقدها من أهل الأندلس محمد بن وضاح القرطبي، وأورد في بيان ما اشتملت عليه من أخطاء حادثة وقعت له مع العتبي، قال ابن وضاح: سألت عبدالأعلى بن وهب عن مسألة، فذكر لي فيها عن أصبغ رواية، فمررت بالعتبي، فسألته عنها فلم يحفظ فيها رواية، فأخبرته بما قال لي عبدالأعلى عن أصبغ، فدعا بالمستخرجة فكتبها فيها، ثم لقيت بعد ذلك عبدالأعلى، فقال لي: وهمت في المسألة عن أصبغ، ليست كذلك، ولذلك قال ابن

(١) أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٧ - ٢٩ محاضرات ص ٧٠ و ٣١١ - ٣١٩ شجرة النور الزكية ص ٢١٨ - ٢١٩ ترتيب المدارك ٤٦٩/٢ - ٤٧٢، ٥٢٦ مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢ الديباج المذهب ص ١٦١ و ٢١٨ المقدمات لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام ٤٤/١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٦.

وضّاح: في المستخرجة خطأ كثير، وقال فيها محمد بن عبدالحكم المصري: رأيت جلّها مكذوبا ومساءل لا أصول لها.

في حين تقبلها آخرون بقبول حسن لاستيعابها وشمولها، وما تضمنته من حصر شامل لمسائل الفقه فكان ابن لبابة - تلميذ العتبي - الذي دارت عليه الأحكام والفتوى بقرطبة نحو ستين سنة، قد تصدّر لإقراء المستخرجة، حتى أخذها عنه خلق كثير وتبارى الناس في روايتها عنه وحفظها، وقد عاب عليه بسبب ذلك أحمد بن خالد - تلميذ ابن وضّاح - وقال لابن لبابة: أنت تقرأ هذه المستخرجة للناس وأنت تعلم من باطنها ما تعلم، فقال ابن لبابة: إنّما أقرأها لمن أعرف أنّه يعرف خطأها من صوابها، فكان أحمد بن خالد ينكر على ابن لبابة ذلك إنكاراً شديداً.

وكان ممّن تقبل المستخرجة أيضاً أبو زكرياء يحيى بن محمد بن عبدالعزيز المعروف بابن المواز الذي كان مشهوراً في القيروان بأنّه راوي مستخرجة العتبي.

وكان كتاب المستخرجة أحد المصادر الرئيسيّة لابن أبي زيد القيرواني، اعتمده في كتابه النوادر والزيادات، وكان يقتبس منه بصورة مباشرة أحياناً.

واهتمّ عبدالله بن محمد بن أبي الوليد - تلميذ العتبي - بتقسيم المستخرجة إلى أبواب على غرار أبواب المدوّنة.

وذكر ابن حزم المستخرجة فنوّه بها، وقال: لها عند أهل العلم بإفريقيّة القدر العالي والطيران الحثيث.

وتؤيّد الروايات المتفرّقة للكتاب في دوائر الفقهاء الأندلسيين على أهميّة الكتاب في ميدان الفقه في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

والواقع أنّ العتبي قد حفظ لنا في المستخرجة - فضلاً عن الروايات المشهورة - سماعات كثيرة من مالك وتلاميذه لولاه لضاعت، إلّا أنّه لم

يتمكّن من تمحيصها وعرضها على أصول المذهب ومقارنتها بالروايات الأخرى حتى جاء ابن رشد الجدّ فقام بعملية نقدية فشرحها وحقّق رواياتها في كتابه الشهير البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة.

وقد وصلت إلينا المستخرجة برواية أبي زكرياء يحيى بن عبدالعزيز - المعروف بابن الخرزّاز - عن العتبي، وقيل إنّ الذي روى المستخرجة عن العتبي هو أبو العباس أحمد بن مروان القرطبي المعروف بابن الرصافي، وقيل هو الذي أعان العتبي على تأليفها^(١).

* المختصر الفقهي الكبير *

هذا الكتاب الذي يعتبر واحداً من أقدم الكتب الفقهية التي وصلت إلينا ناقصة، من تأليف عبدالله بن عبدالحكم المصري، وهو يتناول مسائل فقهية متفرقة بناء على آراء قدامى المالكية من بينهم مالك ومن خلفه مباشرة.

يقال إنّه نحا به اختصار كتب أشهب، وقد بلغت مسائله ١٨٠٠٠ مسألة، في حين بلغت مسائل المختصر الأوسط ٤٠٠٠ مسألة، وبلغت مسائل المختصر الأصغر ١٢٠٠ مسألة.

يتناول الكتاب مسائل فقهية متفرقة مبنية على آراء مالك وأصحابه المصريّين مثل ابن القاسم وأشهب وعبدالله بن وهب، واعتمد كذلك على ابن الماجشون المدني.

ويفتح المؤلف الباب دائماً بعبارة: «أرأيت»، وهي عبارة متداولة كثيراً لدى أتباع الفقه المالكي.

(١) ترتيب المدارك ١٤٥/٣ - ١٤٦ شجرة النور الزكية ص ٧٦ ميكلوش موراني: دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١١٠ - ١١٢ و ١١٨ - ١٢٠، تاريخ التراث العربي ١٥٥/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٧ البيان والتحصيل ٢٠/١ - ٢١ مقدّمة المحقّق.

ويعتبر المختصر الكبير مصدراً من مصادر الفقه المالكي ومرجعاً أساسياً عند مالكيّة العراق، وعلى هذا الكتاب وسائر كتبه الأخرى نقول المالكيين من البغداديين في المدارس، وإياها شرح غير واحد من العراقيين وأهل المشرق.

اعتنى العلماء بمختصراته ما لم يعتن بكتاب من كتب المذهب بعد الموطأ والمدونة، ومن أهمّ شروح المختصر الكبير شرح الشيخ أبي بكر الأبهري الذي نقل مسائل المختصر نقلاً نصياً وعقب عليها بشرح تفصيلي^(١).

* الواضحة في السنن والفقه *

تناول الواضحة المسائل الفقهية المتضمنة لسماعات ابن حبيب التي نقلها عن فقهاء مصر والمدينة وحلّأها بتعليقات إضافية وضعها شرحاً على المسائل.

وهي مصنف فقهي شامل يضاهاي المدونة في بنائه وتكوينه الداخلي، تناول فيه ابن حبيب بالدراسة المستفيضة روايات تلاميذ مالك والمعاصرين له من المصريين والمدنيين الذين لقيهم ابن حبيب وأخذ عنهم من أسلافه وشيوخه.

ويورد ابن حبيب بالخصوص استشارات فقهية لأصبع بن الفرج ومطرف بن عبدالله، وكثيراً ما يرد أيضاً اسم شيخه عبدالملك بن الماجشون، فكان ابن حبيب ينقل عنه بصيغة: حدّثنا أو قال ابن الماجشون ثم يورد ابن حبيب بعد ذلك إمّا رأيه الفقهي أو رواية عن زميله الدراوردي الذي عدّه ابن حبيب خيراً فقهاء المدينة بعد مالك.

وتعتبر الواضحة من أهمّ الكتب الفقهية في القرنين الثالث والرابع

(١) ترتيب المدارك ٥٢٤/٢، ٥٢٦ الديباج المذهب ص ٢١٨ تاريخ التراث العربي

١٤٧/٣ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ٢٨ - ٣١.

الهجريين، وقد حظي الكتاب بمكانة متميزة بصفة خاصة في بلاد الأندلس. وقد نوّه العتبي - صاحب المستخرجة - بكتاب الواضحة وقال: رحم الله عبدالملك، ما أعلم أحداً ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره. وقال القاضي عياض: ألف ابن حبيب كتباً كثيرة حسناً، منها الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم يؤلف مثلها. وتعتبر الواضحة من الكتب المعتمدة في الفتوى بالأندلس، وقد نالت شهرة كبيرة إلى جانب العتبية وعليهما عكف أهل الأندلس. ويعزى للواضحة أهمية فقهية تاريخية فاصلة على أنه كتاب مادة فقهية متأثرة تأثير متعدد الجوانب^(١).

* الموازية *:

الكتاب نسبة لمحمد بن إبراهيم بن المّواز، ويعرف أيضاً بكتاب محمد، نوّه القاضي عياض بهذا الكتاب فقال: هو أجلّ كتاب ألفه قدماء المالكيين وأصحّها مسائل وأبسطها كلاماً وأوعبها.

رجّحه أبو الحسن القابسي على سائر الأمّهات، وقال: لأنّ صاحبه قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، وغيره إنّما قصد جمع الروايات ونقل نصوص السماعيات، وفي هذا الكتاب جزء تكلم فيه عن مسائل أوضح بها مواطن الخلاف مع الشافعي وأهل العراق، وهي مسائل من أحسن كلام وأجلّه.

وصل إلينا كتاب الموازية برواية درّاس بن إسماعيل الفاسي عن عليّ بن عبدالله بن أبي مطر، وكان درّاس قد سمع الموازية بالإسكندرية، ولم يرو هذا الكتاب بالقيروان إلاّ من طريقه.

(١) دراسات في مصادر الفقه الإسلامي ص ٥٠ - ٥٣ و ٥٩ - ٦٣ و ترتيب المدارك

٣٤٤/٣ - ٣٥ الديباج المذهب ص ٢٥٤، المقدمة ص ٤٣٢.

وأول من أدخل الموازية إلى إفريقية هو أبو القاسم زياد بن يونس اليحصبي، وقيل أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري.

وقد صارت في القرن الرابع الهجري أحد أشهر وأكبر كتب الفقه في شمال إفريقيا حيث ضمت كل المسائل العويصة في الفقه المالكي.

واصطلح علماء المالكية على تسمية المدونة والواضحة والعتبية والموازية بالأمهات لكونها احتلت الصدارة على بقية الكتب في المذهب^(١).

مقاربة نقدية

لقد كان الاختلاف فيما بين أصحاب مالك وتلاميذه في نقل الروايات عنه من ناحية، والتفاوت فيما بينهم في مدى اعتماد الرأي أو الأثر من ناحية ثانية أهم الأسباب التي قضت باختلاف الاجتهاد داخل المدرسة المالكية حتى أصبحنا نعدّ ضمن المذهب المالكي خمس مدارس مالكية.

فأما من حيث الاعتبار الأول: فإن الروايات المنقولة عن إمام المذهب والسماعات المدونة عنه قد اختلفت من راو إلى آخر ومن تلميذ إلى تلميذ، ذلك أنّ الإمام مالك كان دائم المراجعة للفتاوى التي يصدرها وللأحاديث والآثار التي يرويها حتى قيل: كان علم الناس في الزيادة وعلم مالك في النقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كله، وروي أنّ مالك قد وضع موطأه أول الأمر على نحو من عشرة آلاف حديث فلم يزل ينظر فيه سنة ويسقط منه حتى بقي هذا، ولو بقي قليلاً لأسقطه كله^(٢).

(١) ترتيب المدارك ٧٤/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٢ شجرة النور الزكية ص ٦٨ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٤٩ و١٥٢، أعلام الفكر الإسلامي ص ٣٦.

(٢) والروايات عن مالك مستفيضة في هذا الشأن، فمما يروي أنّ مالكا حين مات أخرجت كتبه فوجدوا فيها أحاديث كثيرة عن ابن عمر ليس في الموطأ منها شيء إلا حديثين، وفتحوا صندوقاً أخرجوا منه اثني عشر ألف حديث للزهري ما حدث بها أصحابه في حياته، وكان يقول: إذا حدثت الناس بكل ما سمعت إني أريد أن أضلهم إذا، ولقد خرجت مني أحاديث لوددت أنّي ضربت بكل حديث منها سوطاً ولم أحدث بها، ولذلك حين طلب منه أحد أصحابه أن يحدثه بحديث، رفض مالك =

ثم إن أصحاب مالك وتلاميذه لم يكونوا على درجة واحدة من الملازمة له وكثرة حضور مجالسه، فبعضهم قد لازمه عشرات السنين حتى اشتهر بانفراده بمالك وطول صحبته له، وأنه لم يخلط به غيره إلا في شيء يسير كما هو الحال بالنسبة لابن القاسم^(١)، ومما يروى في ذلك أنه لما كملت الأسديّة أخذها أشهب وأقامها لنفسه واحتجّ لبعضها، فلمّا بلغ ذلك ابن القاسم قال: أمة وكذا، تفعل مثل هذا؟ - لأنه وجد كتاباً تامّاً فبنى عليه - فأرسل إليه أشهب قائلاً: أنت إنّما غرفت من عين واحدة، وأنا من عيون كثيرة، فأجابه ابن القاسم: عيونك كدرة وعيني أنا صافية^(٢).

وبعضهم قد لازم مالكاً في أول حياته وبعضهم قد لازمه في آخرها، فقد قيل لعبدالله بن وهب: ابن القاسم يخالفك في أشياء، فقال: جاء ابن القاسم إلى مالك وقد ضعف، وكنت أنا آتي مالك وهو شاب قويّ يأخذ كتابي فيقرأ منه، وربّما وجد فيه الخطأ فيأخذ خرقة بين يديه فيبيلها في الماء فيمحوه، ويكتب لي الصواب^(٣).

واختلف ابن القاسم وأشهب في قول مالك في مسألة وحلف كل واحد على نفي قول الآخر فسألا ابن وهب فأخبرهما أنّ مالكاً قال القولين جميعاً^(٤).

= وأبي، فقال له: إنّ سفيان الثوري يرويه عنك، قال مالك: صدق، ولو كنت حدثت أحداً لحدثتك، إنّ العمل ببلدنا ليس عليه وليس صاحبه بذلك، وكان إذا شك في الحديث طرحه كلّهُ، وقيل لمالك: لم لا تحدث عن أهل العراق، فقال: لأنني رأيتهم إذا جاؤونا يأخذون الحديث عن غير ثقة، فقلت إنهم كذلك في بلادهم (ترتيب المدارك ١/١٤٨ - ١٥٠).

(١) ترتيب المدارك ٢/٤٢٥ الديباج المذهب ص ٢٤٠.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٤٩.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٢٧.

(٤) نفس المصدر ٢/٤٤٦.

ولمّا قرأ أسد بن الفرات على ابن القاسم الأسدية وضع أشهب يده في مثلها فخالفه في جلّها، وهي المعروفة بمدوّنة أشهب، ويكتب أشهب^(١).

ولأجل ما كان بين أشهب وابن القاسم من اختلاف في الرواية كان ابن القاسم يقول: كأتني كنت أنا وأشهب نختلف إلى عالمين مختلفين^(٢).

وقد صنّف يحيى بن عمر كتاباً سمّاه اختلاف ابن القاسم وأشهب جمع فيه ما اختلف فيه الفقيهان المصريان.

وإذا كان هذا الاختلاف في الرواية قائماً بين تلاميذ مالك الأشدّ ملازمة له الذين عرفوا بطول الصحبة فما بالك بين الذين قد عرفوا بملازمة مجالس مالك لبضع سنوات أو أقلّ من ذلك أو أكثر بقليل ثمّ رحلوا بتلك السماعات إلى أوطانهم.

بل إنّنا لنجد الرواية تختلف أحياناً عن الراوي الواحد، من ذلك ما روي عن يحيى قال: حمّلتني ابن بشير بمسائل أسأل عنها ابن القاسم فأجابني فيها، ثمّ قدم محمد بن خالد من المدينة فسأله أيضاً عنها، فخالفت روايتي روايته، فقدمت على ابن القاسم فقلت له: يا أبا عبدالله وفدنا إليك بمسائل أنا وصاحبي، وأهل بلدي ينظرون إلينا وقد اختلفت روايتنا عنك، فمتى سرنا إلى بلدنا عن رجل واحد بروايتين مختلفتين في شيء واحد أدخلنا عليهم فتنة، فتدارك النظر فيها، فقال: صدقت ونصحت، ثمّ أرسل إلى صاحبي فقال له: أوهمت عليك فردّ ما معك إلى ما مع صاحبي، ففعلنا^(٣).

(١) نفس المصدر ٤٤١/٢.

(٢) نفس المصدر ٤٣٩ / ٢.

(٣) ترتيب المدارك ٢٦/٣ - ٢٧ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٥٦.

وهذا الموقف هو نفسه كان مع المدونة حين راجع سحنون ابن القاسم في الأصدية فرجع عن كثير من الأقوال فيها.

وهو منهج في الحقيقة كان قد سار عليه مالك حين قال لأشهب: - وقد رآه يكتب جوابه في مسألة - فقال له: لا تكتبها فإني لا أدري أثبت عليها أم لا^(١).

وعن طريق هذا الاختلاف الناشئ بين الأصحاب في نقل الروايات توسعت دائرة الاختلاف داخل المذهب المالكي، وقد ظهر ذلك بالخصوص في تلك المصنفات والكتب الجامعة التي احتوت أقوال الإمام وأصحابه وأصبحت المرجع الأساسي لرواياتهم.

وأما من حيث الاعتبار الثاني: فرغم أن جميع تلاميذ مالك وأصحابه من المنتسبين له في المذهب معدودون من المدرسة الحجازية المعروفة بتقديم الأثر على الرأي، رغم ذلك فقد كان التفاوت واضحاً داخل المذهب في نسبة اعتماد كل واحد منهم على الأثر أو الرأي، فانقسموا باعتبار ذلك إلى اتجاهين:

اتجاه غلبت عليه الرواية واعتماد الحديث النبوي، واتجاه غلب عليه استعمال الرأي، وهذا التقسيم باعتبار النسبة التقديرية في اعتماد الرواية أو الرأي لم يكن بحسب المراكز والبلدان، وإنما كان أنصار كل من الاتجاهين موجودين في نفس الوقت في المركز الواحد.

ففي المركز المصري: كان ابن وهب صاحب سنة وآثار وكان محدث بلده في عصره وشهد له أصبغ بأنه أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار، فكان يمثل الاتجاه المكثر من الرواية على حساب الرأي، وقد لاحظ فيه شيخه مالك هذا المنحى حين قال له وقد نظر إليه يوماً: أي فتى لولا الإكثار^(٢).

(١) ترتيب المدارك ١/١٥٠.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٢٣ - ٤٢٨ الديباج المذهب ص ٢١٥.

واستمرّ هذا الاتجاه بعد ابن وهب مع تلاميذه من أمثال أبي طاهر أحمد بن عمرو (٢٥٠هـ) الفقيه الذي غلب عليه الحديث وكانت جلّ روايته عن ابن وهب^(١)، ويونس بن عبد الأعلى (٢٦٤هـ) الذي كان من أجلّ أصحاب ابن وهب وأوثقهم، فكان أحد الرواة المشهورين ورحل إليه الناس فسمعوا منه^(٢).

في حين كان أشهب يميل إلى التوسّع في استعمال الرأي وينظر ويجتهد في المسائل، فقد سأل أسد ذات مرّة أشهبا فأجابته، فقال أسد: من يقول هذا: أمالك أم أبو حنيفة؟ فقال أشهب: هذا قولي عافاك الله، فقال له: إنّما سألتك عن قول مالك وأبي حنيفة، فتقول هذا قولي؟ ودار بينهما كلام، فقال عبدالله بن عبد الحكم لأسد: ما لك ولهذا؟ هذا رجل أجابك بجوابه، فإن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك^(٣).

وما كان أحد يناظر أشهبا إلّا اضطرّه بالحجّة حتى يرجع إلى قوله، ولقد كان يأتي في حلقة ابن القاسم فيتكلّم في أصول العلم ويفسّر ويحتجّ، وابن القاسم ساكت ما يردّ عليه حرفا^(٤).

وكان من بعده محمد بن عبدالله بن عبد الحكم من أهل النظر والمناظرة والحجّة فيما يتكلّم فيه ويتقلّده من مذهبه^(٥).

أمّا ابن القاسم فكان بتوسّط بين تشدّد ابن وهب في تمسّكه بالرواية وبين توسّع أشهب في استعمال الرأي.

فأمّا مخالفته لمسلك ابن وهب فقد ورثه من شيخه مالك الذي كان يرى أنّ مدار قبول الحديث عنده ما كان عليه العمل، وقد روي في ذلك

(١) ترتيب المدارك ٧٧/٣ - ٧٨ الديباج المذهب ص ٩٤.

(٢) ترتيب المدارك ٧٨/٣ - ٧٩.

(٣) رياض النفوس ٢٦١/١.

(٤) ترتيب المدارك ٤٤٩/٢.

(٥) ترتيب المدارك ٦٣/٣ الديباج المذهب ص ٣٣١.

أن يحيى بن يحيى الليثي قال: كنت آتي عبدالرحمن بن القاسم فيقول لي من أين يا أبا محمد؟ فأقول له من عند عبدالله بن وهب، فيقول لي: اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل، ثم آتي عبدالله بن وهب، فيقول لي: من أين؟ فأقول له: من عند ابن القاسم فيقول لي: اتق الله فإن أكثر هذه المسائل رأي، ثم يرجع يحيى فيقول: رحمهما الله فكلاهما قد أصاب في مقالته، نهاني ابن القاسم عن اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن كلفة الرأي وكثرته وأمرني بالاتباع وأصاب، ثم يقول يحيى: أتباع ابن القاسم في رأيه رشد، وأتباع ابن وهب في أثره هدي^(١).

وأما مخالفته لمسلك أشهب فقد تمثل في التزامه بأقوال إمامه، فقد روي أن أشهباً جلس يوماً بمكة إلى ابن القاسم فسأله رجل عن مسألة، فتكلم فيها ابن القاسم فصعّر له أشهب وجهه، وقال: ليس هو كذلك، ثم أخذ يفسرها ويحتجّ فيها، فقال له ابن القاسم: الشيخ يقوله عفك الله - يعني مالكا - فقال أشهب: لو قاله ستين مرة، فلم يراذه ابن القاسم^(٢).

ولقد صور لنا هذا الاختلاف في مدى اعتماد الرأي والأثر خير تصوير ما حدث به أسد بن الفرات لما دخل مصر واجتمع بهؤلاء الأقطاب الثلاثة، وذلك أنه التقى بعبدالله بن وهب، فسأله عن مسألة فأجابه بالرواية، فأراد أن يدخل عليه، فقال له ابن وهب حسبك إذ أدينا إليك الرواية، ثم أتى إلى أشهب فأجابه، فقال له من يقول هذا، قال أشهب: هذا قولي، فدار بينهما كلام، فرجع إلى ابن القاسم فسأله فأجابه فأدخل عليه فأجابه حتى انقطع أسد في السؤال، فقام أسد في المسجد وقال: معاشر الناس إن كان مات مالك، فهذا مالك^(٣).

(١) ترتيب المدارك ٥٤١/٢.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) ترتيب المدارك ٤٧٠/٢ رياض النفوس ٢٦١/١.

وفي المدينة المنورة: التي هي دار الحديث، نجد ابن أبي حازم الذي لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه، كان رجل فقه ولم يكن يعرف بطلب الحديث^(١).

وعثمان بن عيسى الذي جلس في حلقة مالك بعد وفاته، قد غلب عليه الرأي ولم يكن له في الحديث ذكر، وكان مالك يحضره لمناظرة أبي يوسف عند الرشيد^(٢).

والمغيرة المخزومي فقيه المدينة بعد مالك، كان يناظر أبا يوسف بحضور مالك في مجلس هارون الرشيد، وقد ناظره يوماً فقويت حجة المغيرة على أبي يوسف وحيره حتى جعل بعض أصحاب أبي يوسف يتمنى أن يؤذن المؤذن بالمغرب فيتفرق المجلس لما لقي أبو يوسف منه^(٣).

وعبدالله بن نافع الذي كان صاحب رأي مالك، وفقه أهل المدينة برأي مالك، ولم يكن صاحب حديث حتى قيل: لم يكن في الحديث بذاك وكان ضعيفاً فيه^(٤).

ونجد في الاتجاه المقابل عبدالعزيز بن الدراوردي الذي غلب عليه الحديث، فكان صاحب حديث وليس بصاحب فتوى^(٥).

وسليمان بن بلال الذي كان من أجل أصحاب مالك وأخصهم به، وكان أروى الناس عن يحيى بن سعيد وكان أحفظ من الدراوردي وخرج عنه البخاري ومسلم^(٦).

وداود بن سعيد بن أبي زنبر الذي كان كثير الحديث^(٧).

(١) ترتيب المدارك ٢٨٦/١.

(٢) نفس المصدر ٢٩٢/١.

(٣) نفس المصدر ٢٨٣/١.

(٤) نفس المصدر ٣٥٦/١.

(٥) نفس المصدر ٢٨٨/١ - ٢٨٩.

(٦) المصدر السابق ٢٩٧/١ - ٢٩٨.

(٧) نفس المصدر ٣٧٢/١.

وفي المركز الإفريقي: نجد عبدالرحيم بن الأشرس الذي يمثل اتجاه الأصحاب المكثرين من الرواية^(١).

وموسى بن معاوية الصمادحي (٢٢١هـ) العالم بالحديث والفقه، وكان الأغلب عليه الحديث والرواية حتى قيل: لم يكن في إفريقية محدث إلا موسى بن معاوية^(٢).

ونجد في الاتجاه المقابل علي بن زياد الذي كان من نقاد أصحاب مالك، وكان أعرف من عبدالرحيم بن الأشرس بالمعنى^(٣).

وعبدالله بن أبي حسان اليحصبي القيرواني (٣٣٦هـ) الذي كان مفاوهاً قوياً على المناظرة ذاباً عن السنة^(٤).

وفي الوقت الذي يشتهر فيه المركز الأندلسي باعتباره مركزاً قائماً على الأثر لا نعدم فيه من أصحاب الرأي المشهورين بالنظر في عملهم الاجتهادي.

فهذا يحيى بن مضر القيسي من أهل قرطبة كان عالماً متقناً صاحب رأي^(٥).

وما الفتيا التي أفتى بها يحيى بن يحيى الليثي الأمير عبدالرحمن بن الحكم حين وقع على جارية من جواريه في يوم من رمضان، حيث ألزمه بصيام شهرين متتابعين إلا عمل بمطلق الرأي، وعلل فتواه تلك بقوله: لو فتحنا للأمير هذا الباب وطىء كل يوم وأعتق، فحمل على الأصعب عليه لئلا يعود، فما ذلك الفتوى^(٦).

(١) ترتيب المدارك ١/٣٢٩.

(٢) نفس المصدر ٦/٣.

(٣) نفس المصدر ١/٣٢٧.

(٤) نفس المصدر ٢/٤٨٢.

(٥) ترتيب المدارك ١/٣٥٥.

(٦) نفس المصدر ٢/٥٤٢.

وهذا عيسى بن دينار يجمع في آخر حياته على ترك الفتيا بالرأي والاعتماد على مقتضى الأثر فأعجلته المنية^(١).

وحاتم بن سليمان بن أبي يوسف بن أبي مسلم الزهري (٢٤٠هـ) الذي سمع من ابن كنانة وغيره من المدنيين والمصريين، كان فقيهاً في المسائل والرأي^(٢).

وهشام بن حبيش الطليطلي الذي رحل فسمع من ابن القاسم وأشهب كان هو الآخر صاحب رأي ومسائل^(٣).

وإبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتيل كان بصيراً بطريق الحجّة وكان يناظر يحيى بن مزين، وكان يذهب إلى النظر وترك التقليد^(٤).

وأصبغ بن خليل الذي كان فطناً بالمسائل والفقه حسن القريحة والقياس وكان حافظاً للرأي^(٥).

ومحارب بن قطن (٢٥٦هـ) من أهل قرطبة فقد كان كذلك من أهل العناية بالرأي والحفظ للمسائل الفقهية^(٦).

وعبدالرحمن بن عيسى بن دينار الذي سمع من سحنون وأصبغ ونظرائهما، فقد كان حافظاً للرأي معتنياً بالمسائل^(٧).

وعبدالرحمن بن سعيد التميمي (٢٦٥هـ) فقد كان فقيهاً عالماً بالمسائل، وكان يقوم بالرأي قياماً حسناً^(٨).

(١) نفس المصدر ١٩/٣.

(٢) نفس المصدر ٢٣/٣.

(٣) نفس المصدر ٤٩/٣.

(٤) نفس المصدر ١٣٦/٣.

(٥) ترتيب المدارك ١٤٢/٣.

(٦) المصدر السابق ١٤٧/٣.

(٧) نفس المصدر ١٥٢/٣.

(٨) نفس المصدر ١٥٣/٣ - ١٥٤.

وبالمقابل ففي الوقت الذي يشتهر فيه المركز العراقي باعتباره مركزاً قائماً على الرأي لا نعدم من وجود أقطاب الرواية به من أمثال يعقوب بن شيبه الذي كان من الفقهاء البغداديين على قول مالك، ومن ذوي السند وكثرة الرواية، وأعلام الحديث المسندين، وقد ورد أنه لم يتكلم على علل الحديث بمثل كلام يعقوب وعلي بن المدني والدارقطني^(١).

ومن خلال ما تقدّم يتّضح لنا أنّ المذهب المالكي بقدر ما كان قائماً على الرواية والحديث الأثر، فقد كان كذلك قائماً على الدراية والنظر والعقل، وبقدر ما كان له من اعتماد على المنهج النظري فقد كان له كذلك اعتماد على المنهج الأثري.

وبهذا المعنى وجدنا من أعلام المالكية من جمع علم الرواية إلى فقه المسائل، كما وجدنا أيضاً منهم من انصرف إلى الرواية على حساب الرأي، ومنهم من اعتنى بالنظر على حساب الأثر، وفي كلّ ذلك كان المذهب المالكي يسير عبر هذه الثنائية بالفقه نحو مرحلة هامة من مراحل تاريخ تطوره.

تأصيل المسائل

بقيت مسألة من الأهمية بمكان ارتأينا إدراجها في هذه المقاربة النقدية لما لها من وثيق الارتباط بعنصر الاختلاف بين المدارس داخل المذهب المالكي، غير أنّ مردّ الاختلاف في هذه المسألة لا يعود إلى اختلاف الروايات والسماعات بقدر ما يعود إلى منهجية التصنيف وطريقة التأليف.

ونقصد بالتأصيل اهتمام مصتفي هذه المرحلة بذكر أدلة المسائل الفقهية والاحتجاج لها من الأصول الكلية، وقد كان هذا العمل يتمّ إما بإيراد أقوال مالك فيما صرح به من أصول وقواعد ترجع إليها بعض المسائل والفروع، أو باستقراء الفتاوى والمسائل بحيث يقع تقرير الأصل

(١) المصدر السابق ٥٦٣.

وتثبيت القاعدة على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع، وذلك بحسب ما غلب عليه ظنهم أنّ تلك المسائل إنّما استخرجت من ذلك الأصل.

وهذا العمل التأصيلي إنّما كانت الغاية منه في هذه المرحلة إظهار الأصول وإبراز القواعد التي لم يصرح بها الإمام وكان بها العمل جارياً على مقتضى مذهبه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى محاولة إدراج المسائل والفروع ضمن أصولها وقواعدها لانتقاء أصحّها تعبيراً عن أصول المذهب في ضوء اختلاف الروايات وتشعب الآراء.

وقد برز هذا العمل بوضوح خلال هذه المرحلة في المركزين الإفريقي والعراقي:

فأما المركز الإفريقي: فقد تسنى لأصحابه القيام بهذا العمل لما امتاز به تكوّنهم من مزج بين الآراء المروية عن أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وبين الآراء المروية عن مالك وأصحابه، فضلاً عما عرفته إفريقيّة من احتكاك بمذهب الاعتزال أيام المأمون والمعتصم، في قضية خلق القرآن بالخصوص وما استتبع ذلك من استدراج علماء المالكيّة للإدلاء بدلهم في هذه المسألة وقيام الجدل حولها.

فهذا علي بن زياد - معلّم سحنون الفقه - كان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم^(١) فمزج بين علم أهل الحجاز وعلم أهل العراق حتّى تكوّنت لديه ملكة أفسحت مجالاً لإعمال العقل بقدر ما أفسحت مجالاً لإعمال النقل، فكان يحسن التكلّم في المعاني والأصول ويتقن ذلك، وقد شهد له بذلك أصحاب مالك المدنيين، فقد روي عن أسد أنّه قال، قال لي المخزومي وابن كنانة - وذلك حين التقى بهما في رحلته إلى المدينة -: ما طرأ علينا طارئ من بلد من البلدان كشف عن هذا الأمر، وفي رواية عن ابن كنانة، كشف لنا مالك عن الأصول كشف علي بن زياد^(٢).

(١) ترتيب المدارك ١/٣٢٦.

(٢) ترتيب المدارك ١/٣٢٧ رياض النفوس ١/٢٣٥.

ثم أسد بن الفرات الذي اختلف إلى علي بن زياد بتونس فتعلّم منه وتفقه بفقهه، ثم أقبل على الإمام مالك بالطريقة التي عهدها من علي بن زياد: طريقة تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف عن الأصول يجدد في دروس مالك عهداً كان قد انقضى منذ فارقتها علي بن زياد، وبعد أن جمع من مالك موطنه قصد العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وواظب عليهما حتى انكشفت له طرائق العراقيين في البحث وظهرت له مذاهبهم، وتكوّنت عنده بهما ملكة التفصيل والتأصيل التي ابتدأها مع علي بن زياد بتونس، فكتب الأسئلة من أسئلة العراقيين على قياس قول مالك^(١).

ثم انتقل إلى مصر حاملاً معه سماعاته من صاحبي أبي حنيفة وخاصة منها كتب محمد بن الحسن، وأراد بذلك أن يخدم الفقه المالكي خدمة جديدة، وذلك بأن يأخذ المنهج العراقي في تفصيل المسائل وتأصيلها ويدرج عليه من مسائل الأحكام على مذهب مالك، فيكون بذلك قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين الموصّل المرتّب هو الذي ابتدأ به علي بن زياد، في محاولة منه لجعل المنهاج منهاجاً عراقياً والمادة مادة حجازية^(٢).

ثم سحنون الذي داوم على الرحلة إلى علي بن زياد بتونس، وتلمذ لأسد بعد مقدمه من المشرق وكان من قبل قد ساوى أسداً في الأخذ عن علي بن زياد، قد تكوّن بهذا المنهج التأصيلي الذي جعله يثبت في المدونة مجالاً فسيحاً للمسائل القائمة على الاستدلال بالرأي ويعضد أبوبها بالأحاديث النبوية والآثار التي أوردها بأسانيدھا لتكون أصلاً للفروع التي ذكرها.

وورث عنه هذا النهج ابنه محمد بن سحنون الذي كان من أكثر

(١) أعلام الفكر الإسلامي للفاضل ابن عاشور ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧.

الناس حجة وأتقنهم بها، حتى إنه كان يناظر أباه، وكان الغالب عليه الفقه والمناظرة وعلم الخلاف، فكان قويّ الحجة سديداً في الذبّ عن مذهب مالك، وقد برز ذلك بالخصوص في تأليفه التي منها كتاب الحجة على القدرية وكتاب الحجة على النصارى وكتاب الردّ على أهل الشرك وكتاب الردّ على أهل البدع وكتاب الردّ على الإمام الشافعي وعلى أهل العراق، وقد دخل عليه أبوه سحنون وهو يؤلف كتاب تحريم النبيذ فقال له: يا بنيّ إنك تردّ على أهل العراق ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد فأياك أن يسبقك قلمك لما تعتذر منه^(١).

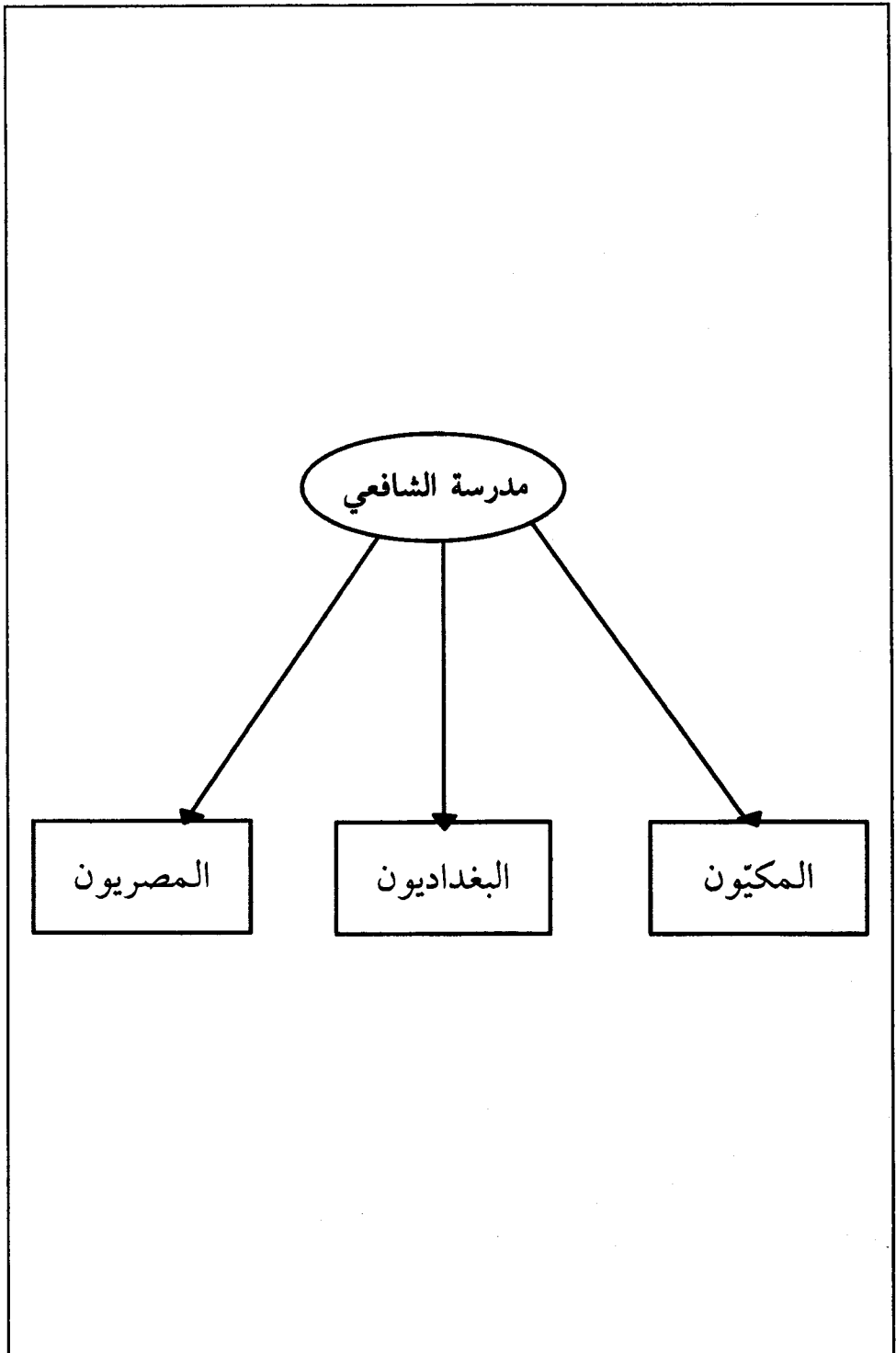
حتى أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق كان يفخر على أتباع أبي حنيفة بتأليف ابن سحنون في مسائل الاجتهاد.

وأما في المركز العراقي: فقد تكوّن في أتباع مالك هذا النهج التأصيلي بحكم البيئة العراقية التي كانت منبع الفرق وملتقى التيارات ومسرح الأحزاب سواء منها المنبثقة من الفكر الإسلامي أو الدخيلة عنه، وما يتطلّب ذلك من جدل يستدعي التأمل والتفكير وإعمال الرأي وتأصيل المسائل، فكان طبيعياً أن يظهر هذا النهج التأصيلي في أتباع مالك العراقيين في وقت كانت الحاجة ملحة لظهوره.

وقد مثل هذا النهج خير تمثيل في هذه المرحلة أحمد بن المعذل الذي لم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بالمذهب منه^(٢).

(١) ترتيب المدارك ١٠٧/٣ معالم الإيمان ١٢٤/٢.

(٢) ترتيب المدارك ٥٢٢/٢.



للشافعي أتباع كثيرون حملوا عنه مذهبه القديم بالعراق ورووا عنه الكتب التي دوّنها ببغداد، ولمّا انتقل إلى مصر نشأ له بها أتباع حملوا عنه مذهبه الجديد ورووا عنه كتبه الأخيرة، فأما رواة مذهبه القديم فأشهرهم:

١ - الحسن بن محمد بن الصباح: أبو علي الزعفراني (٢٦٠هـ).
كان إماماً جليلاً وفقياً ومحدثاً ومن أذكياء العلماء، تفقّه على سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وطبقتهما، ولمّا قدم الشافعي ببغداد أصبح الزعفراني من الملازمين له، وروى عنه كتب الرسالة والأئمّ والمبسوط ودوّنهما الزعفراني بإملاء الشافعي، وذلك قبل انتقاله إلى مصر سنة ١٩٩هـ، وكان الزعفراني حسن القراءة، فكان يقرأ للشافعي في مجلسه ببغداد، وهو أثبت رواة القديم، وفي ذلك يقول فيما رواه عن نفسه: قرأت على الشافعي الكتب كلّها إلاّ كتابين فإنّه قرأهما علينا كتاب المناسك وكتاب الصلاة^(١).

٢ - أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي (٢٤٥هـ).

كان إماماً جليلاً متكلماً، وجامعاً متضلّعاً في الفقه والحديث والأصول ومعرفة الرجال، له تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه، تفقّه أولاً بمذهب العراقيين ثمّ تفقّه بالشافعي وأجازته^(٢).

٣ - أبو جعفر أحمد بن خالد الخلال البغدادي (٢٤٧هـ).

روى عن الشافعي وسفيان بن عيينة ومعن بن عيسى وغيرهم، وكان من أهل الورع والحديث، ومن جلة الفقهاء، وهو معدود من الطبقة الأولى من أصحاب الشافعي الذين جالسوه ورووا عنه^(٣).

(١) الفهرست ص ٢٦٥ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠ شذرات الذهب ٢/٢٩٠ البداية والنهاية ١١/٣٢ طبقات ابن السبكي ٢/١١٤ - ١١٦ وفيات الأعيان ٢/٧٣ - ٧٤ تهذيب التهذيب ٢/٣١٨ - ٣١٩ تذكرة الحفاظ ٢/٥٢٥.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٢ شذرات الذهب ٢/٢٥٥ - ٢٥٦ وفيات الأعيان ٢/١٣٢ - ١٣٣ تهذيب التهذيب ٢/٣٥٩ - ٣٦٢ طبقات ابن السبكي ٢/١١٧ - ١٢٦.

(٣) طبقات ابن السبكي ٢/٥ تهذيب التهذيب ١/٢٧.

وأما رواة مذهبه الجديد فأشهرهم ستة^(١) ثلاثة اشتهروا بالتمذهب بمذهبه والقيام على نشره، وثلاثة تنازع أصحاب الطبقات في عدّهم من المالكية أو الشافعية لاشتراكهم في الأخذ عن الشافعي وعن أصحاب مالك المصريين:

فأما الثلاثة الذين اشتهروا بالانتساب إلى مذهبه فهم:

١ - أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي (٢٣١هـ).

أكبر أصحاب الشافعي المصريين، كان إماماً جليلاً فقيهاً عظيماً ومناظراً، جلا من جبال العلم والدين غالب أوقاته الذكر والاشتغال بالعلم، وكان مجتهداً كبير القدر، ولم يكن في أصحاب الشافعي أصلح منه.

تفقه على الشافعي واختصّ بصحبته وحَدَّث عنه وعن ابن وهب وغيرهما، وكان الشافعي يعتدّ به في الفتيا، ويحيل عليه إذا جاءته مسألة، واستخلفه في حلقاته في الدرس والإفتاء، وكان الشافعي يقول: ليس أحد أحقّ بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه، وروي عنه أنه قال: أبو يعقوب لساني، وقال الربيع بن سليمان: ما رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي، وقال: كان أبو يعقوب من الشافعي بمكان مكين.

حمل محنة القول بخلق القرآن من مصر إلى بغداد، وسجن حتى مات في سجنه والقيد في رجله.

صنّف المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي، وصفه العبادي الشافعي بأنه في غاية الحسن على نظم أبواب كتاب المبسوط للشافعي، وله كتاب الفرائض.

تخرّج على يديه أئمة تفرّقوا في البلاد ونشروا علم الشافعي في

(١) انظر: شذرات الذهب ٢/٢٩٠.

الآفاق، وذكر له السبكي في طبقاته فوائد وغرائب وقعت في مختصره^(١).

- ٢ - أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني (١٧٥هـ - ٢٦٤هـ).

هو إمام الشافعية وأعرفهم بطرق المذهب وفتاويه، صاحب الشافعي وأحد رواة الحديث عنه، وأخص تلاميذه، وناصر مذهبه، قال فيه الشافعي: المزني ناصر مذهبي.

كان عالماً مجتهداً مناظراً محجاجاً غوّاصاً في المعاني الدقيقة، قويّ الحجّة في المناظرة حتى قال عنه الشافعي: لو ناظر الشيطان لغلّبه.

كان من أشدّ الناس تضيقاً على نفسه في الورع وأوسع في ذلك على الناس، وكان يقول: أنا خلق من أخلاق الشافعي.

صنّف كتباً كثيرة: الجامع الكبير والجامع الصغير والمنثور والسنن المأثورة التي رواها عن الشافعي والمسائل المعتمدة، وكتاب العقارب الذي قدّم فيه أربعين سؤالاً، ومنه مقتبسات في طبقات الشافعية للسبكي والمختصر الصغير المشهور بمختصر المزني الذي عليه معول أصحاب الشافعي وقد كان المزني يصلّي لكلّ مسألة يسجلها في مختصره ركعتين، فصار هذا المختصر أصل الكتب المصنّقة في المذهب الشافعي وعلى منواله رتبوا ولكلامه فسروا وشرحوا^(٢).

- ٣ - أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي (١٧٤هـ -

٢٧٠هـ).

كان مؤدّباً بالمسجد الجامع بفسطاط بمصر المعروف بجامع عمرو بن

(١) الفهرست ص ٢٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٨ تاريخ التراث العربي ١٩٢/٣ شذرات الذهب ١٨٥/٢ - ١٨٦ تهذيب التهذيب ٤٢٧/١١ - ٤٢٩ وفيات الأعيان ٦١/٧ - ٦٤ طبقات ابن السبكي ١٦٢/٢ - ١٧٠.

(٢) الفهرست ص ٢٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٧ شذرات الذهب ٣٠٢/٢ - ٣٠٣ البداية والنهاية ٣٦/١١ تاريخ التراث العربي ١٩٦/٣ - ١٩٧ طبقات ابن السبكي ٩٣/٢ - ١٠٧ وفيات الأعيان ٢١٧/١ - ٢١٨.

العاص، وهو راوي كتب الشافعي الجديدة ومذهبه الجديد بمصر، الثقة الثبت فيما يرويه.

كانت الرحلة إليه من الآفاق في طلب كتب الشافعي وكان صاحب حلقة بمصر، وهو آخر من روى عن الشافعي بمصر، وعنه قال الشافعي: الربيع راويتي وكان الشافعي يحبه حتى قال له يوما: ما أحبك إليّ، وقال له يوما: يا ربيع لو أمكنتني أن أطعمك العلم لأطعمتك.

وعند الشافعية إذا تعارضت رواية الربيع ورواية المزني قدمت رواية الربيع مع علوّ قدر المزني علماً وجلالة.

عمر الربيع طويلاً - نحو ست وتسعين سنة - حتى أدرك الدولة الطولونية وانتدبه مؤسسها أحمد بن طولون - الذي كان يقرب إليه العلماء - للتدريس بالجامع الذي بناه.

وقد ذكر له السبكي في طبقاته نخبا وفوائد كثيرة^(١).

وأما الثلاثة الذين اختلف أصحاب الطبقات في عدّهم من أصحاب الشافعي أو من أتباع مالك فهم:

- ١ - أبو حفص حرملة بن يحيى التجيبي.
- ٢ - أبو حفص يونس بن عبد الأعلى الصدفي.
- وقد تقدّمت ترجمتهما في أتباع مالك المصريين.
- ٣ - أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود الجيزي (٢٥٦هـ).

روى عن ابن وهب ونظرائه من أصحاب مالك، وصاحب الشافعي،

(١) الفهرست ص ٢٦٤ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٨ شذرات الذهب ٣١٩/٢ البداية والنهاية ٤٨/١١ طبقات ابن السبكي ١٣٢/٢ - ١٣٩ وفيات الأعيان ٢٩١/٢ - ٢٩٢ تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ - ٢٤٦ تذكرة الحفاظ ٥٨٦/٢.

وروى عنه، وعدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين، وذكره الشافعية في طبقاتهم، ولعلّه الأشبه^(١).

وأما أصحابه من المكّيين فقد اشتهر منهم:

١ - أبو بكر عبدالله بن الزبير الحميدي (٢١٩هـ).

مفتي أهل مكّة ومحدّثها وفقهها، كان قد تلقى العلم عن مسلم بن خالد الزنجي والدراوردي وسفيان بن عيينة شيوخ الشافعي، وكان يحفظ لابن عيينة عشرة آلاف حديث، وروى عن فضيل بن عياض وطبقته وكان إماماً حجّة.

كان أوّل الأمر نافرا عن الشافعي ثمّ صحبه ووالاه، ورحل معه إلى مصر ولزمه، فلما مات الشافعي رجع الحميدي إلى مكّة، وعدّه بعضهم لأهل الحجاز في السّنة كأحمد بن حنبل لأهل العراق^(٢).

٢ - أبو الوليد موسى بن أبي الجارود:

راوى كتاب الأمالي عن الشافعي وأحد الثقات في أصحابه العلماء، روى عن يحيى بن معين والبويطي وروى عنه الزعفراني والربيع، وكان فقيهاً جليلاً.

أقام بمكّة، وهو معدود من فقهاءها، وكان يفتي بها على مذهب الشافعي^(٣).

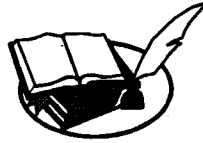
٣ - عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكي: (كان حيّاً سنة ٢٤٠هـ).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩ شذرات الذهب ٣١٩/٢ البداية والنهاية ٤٨/١١ ترتيب المدارك ٨٦/٣ وفيات الأعيان ٢٩٢/٢ تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ طبقات ابن السبكي ١٣٢/٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩ - ١٠٠ شذرات الذهب ١٤١/٢ - ١٤٢ البداية والنهاية ٢٨٢/١٠ طبقات ابن السبكي ١٤٠/٢ - ١٤١ طبقات ابن سعد ٥٠٢/٥ تهذيب التهذيب ٢١٥/٥ - ٢١٦.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠ طبقات ابن السبكي ١٦١/٢ - ١٦٢ تهذيب التهذيب ٣٣٩/١٠.

كان من أهل العلم والفضل، وكان ممن تفقه على الشافعي واشتهر بصحبته، وهو معدود في أتباع الشافعي والمقتبسين عنه، طالت صحبته للشافعي وأتباعه له، وقد خرج معه إلى اليمن. له مصنفات عدة وآثار الشافعي في كتبه ظاهرة^(١).



(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٣ طبقات ابن السبكي ١٤٤/٢ - ١٤٥.

حركة التدوين والتفريع في المذهب الشافعي

سبق أن أشرنا إلى أن الإمام الشافعي قد نشر مذهبه بادية الأمر بنفسه، بفضل ما ألفه من كتب ورسائل بلغت نحو ١١٣ مصنفًا بين قديم - ما وضعه في بغداد ومكة - وجديد - ما وضعه بمصر - عمل على نشرها بالآفاق خلال تطوافه بالمدن والأقاليم.

دوّن في تصانيفه هذه أصول مذهبه، وتكلّم فيها عن أحكام القرآن وعلوم الحديث ومسائل الفقه، وعلوم شتى.

فكان الشافعي بعمله هذا قد دفع بحركة التدوين في المذهب دفعاً قوياً، فألف أصحابه الكتب في المذهب مثل المختصر والمبسوط لحرملة بن يحيى، غير أن أشهر كتاب صنّف في هذه المرحلة ووقع التعويل عليه عند الشافعية هو مختصر المزني:

* مختصر المزني *

صنّف المزني مختصرين، كبير لم يقع الاعتناء به، وصغير وهو الذي عليه التعويل عند الشافعية، وهو أول من صنّف في المذهب بعد الإمام الشافعي.

قال المزني في مقدّمة هذا المختصر: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله لأقربه على من أراه»

مع إعلاميه نهييه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه وبالله التوفيق».

والكتاب مرتّب على أبواب الفقه، قام المزني فيه بنقل أقوال شيخه الشافعي باختصار، مع ذكر الأدلة والتعليل.

واعتبر الإمام النووي أنّ هذا المختصر هو أحد الكتب الخمسة المشهورة بين الشافعية التي يتداولونها أكثر تداول، وهي سائرة في كلّ الأمصار، كما ذكر ذلك في التهذيب.

ونقل حاجي خليفة عن ابن سريج قوله: تخرج مختصر المزني من الدنيا عذراء، وعلى منواله رتبوا ولكلامه فسروا وشرحوا، والشافعية عاكفون عليه ودارسون له ومطالعون به دهرا، ثم كانوا بين شارح مطول ومختصر معلل، والجمع منهم معترف أنّه لم يدرك من حقائقه غير اليسير.

وذكر حاجي خليفة شروحا كثيرة وتعليقات عديدة وزيادات ونظما على هذا المختصر.

وقد طبع الكتاب بهامش الأجزاء الخمسة الأولى لكتاب الأئم للشافعي.

وتجدر الإشارة ونحن بصدد الحديث عن حركة التدوين والتفريع في المذهب الشافعي أن نشير إلى أنّ المزني كان يختار لنفسه أحيانا آراء فقهية يخالف فيها الشافعي، وينحاز بها عن المذهب، ويستقلّ بها عنه، ضمّنها كتابه نهاية الاختصار.

وقد تطرّق السبكي في طبقاته إلى مسألة تخريجات المزني وآراءه، هل تلتحق بالمذهب؟ فذكر أن الرافعي صرح بأنّ تفردات المزني لا تعدّ من المذهب إذا لم يخرجها على مقتضى أصول الشافعي، غير أنّ السبكي رأى - كما هو رأي إمام الحرمين الجويني - أن يلحق آراء المزني في جميع المسائل بالمذهب لأنّه ما انحاز عن الشافعي في أصل يتعلّق الكلام فيه بقاطع، وإذا لم يفارق الشافعي في أصوله فتخريجاته مبنية على قاعدة

إمامه، وإن كان لتخريج مخرج إلحاق بالمذهب فأولها تخريج المزني لعلو مكانته وتلقيه أصول الشافعي.

وكان من صيغة تخريجه أن يقول قياس مذهب الشافعي كذا وكذا، فإذا انفرد بمذهب في المسألة استعمل لفظه تشعر بانحيازه، وذلك كأن يحكي مذهب الشافعي ثم يقول: ليس هذا عندي بشيء، ويندفع في توجيه مذهبه.

ويرى الشافعية أن ما ذكره المزني في مختصره من مسائل تلتحق بالمذهب لأنه بناها على أصول المذهب، وقد أشار إلى ذلك بقوله في مقدمة الكتاب «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله».

وأما ما ليس في المختصر وذكره في تصانيفه الأخرى - كنهاية الاختصار والعقارب - فما اختاره المزني وصرح فيه بمخالفة الشافعي في مواضع فلا يعدّ عند الشافعية من المذهب قطعاً.

من ذلك: نقل المزني في كتاب العقارب إجماع العلماء أن من حلف ليقضين فلانا حقّه غداً، واجتهد فعجز أنّه حانث، واستشهد به للردّ على الشافعي وأبي حنيفة ومالك، فإنه نقل عنهم فيمن قال لامرأته: إن لم أطأك الليلة فأنت طالق، فوجدها حائضاً أو محرمة أو صائمة أو كان قد ظاهر منها ولم يكفر، أنّه لا حنث عليه لأنه لا سبيل له إلى وطنها.

وذكر المزني في كتابه نهاية الاختصار: أنّه لا حدّ لأقلّ الحيض، وقال في النفاس أكثره ستون يوماً في رأي الشافعي، وفي رأي أربعون يوماً.

وذكر في باب الكتابة مذهب الشافعي في وجوب إتيان المكاتب ولم يوافق^(١).

(١) كشف الظنون ٥٢٣/٢ - ٥٢٥ مختصر المزني ٢/١ بهامش كتاب الأم، طبقات ابن

مدرسة الإمام أحمد

ابناء صالح وعبدالله
أبو بكر الأثرم
أبو إسحاق الكوسج
أبو بكر بن الحجاج
أبو إسحاق الحربي

كان ظهور إمام مذهب أهل السنة أحمد بن حنبل بأخرة عن المذاهب الآخرين، فقد ولد بعد وفاة أبي حنيفة بـ ١٤ سنة، وحين مات مالك كان لأحمد من العمر ١٥ سنة، لذلك لم يدرك إلا الشافعي الذي تتلمذ عليه ببغداد ولازمه حتى قال الزعفراني - صاحب الشافعي - ما قرأت على الشافعي حرفاً إلا وأحمد حاضر، وما ذهبت إلى الشافعي مجلساً إلا وجدت أحمد فيه^(١).

وتبعاً لذلك فقد تأخرت حركة التدوين والتفريع في المذهب الحنبلي مقارنة بالمذاهب الأخرى، إذ أنّ أقدم مختصر فقهي وأشهره عند الحنابلة هو مختصر الخرقى (٣٣٤هـ) الذي يعود ظهوره إلى أواخر القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري.

وأما أعظم أتباع أحمد بن حنبل الذين عملوا على نشر مذهبه في هذه المرحلة فهم:

١ - أبو بكر أحمد بن محمد بن هانيء (٢٦١هـ) المعروف بالأثرم.

أحد الأئمة المشاهير وصاحب التصانيف، نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة وصنّفها وربّتها أبواباً، كان جليل القدر من أذكى الأئمة، ولشدة ما كان معه من تيقّظ عجيب نسبة يحيى بن معين فقال: أحد أبوي الأثرم جتني.

له كتاب السنن في الفقه على مذهب أحمد بن حنبل وشواهد من الحديث، وله أيضاً مسائل أحمد بن حنبل وكتاب ناسخ الحديث ومنسوخه^(٢).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٠٨/١ - ١١٦ الفهرست ص ٢٨٥ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٠ شذرات الذهب ٢/٢٩٣ - ٢٩٣ تاريخ التراث العربي ٣/٢٢٩ تهذيب التهذيب ١/٧٨ - ٧٩ الأعلام ١/١٩٤ معجم المؤلفين ٢/١٦٧ تذكرة الحفاظ ٢/٥٧٠.

٢ - أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكوسج (٢٥١هـ) الإمام الحافظ

المروزي.

ولد بمرورحل إلى العراق والحجاز والشام، وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته وتفقه على أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وسجل خلاصة دراسته عليهما في كتاب سماه مسائل أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، جمعه في حياة الإمام أحمد.

كان فقيهاً عالماً وأحد الأئمة من أصحاب الحديث، وروى عنه البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث^(١).

٣ - أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (٢٠٣هـ - ٢٦٦هـ).

هو أكبر أولاد الإمام أحمد، اعتنى بجمع فقه أبيه وإجاباته على المسائل، ذلك أن أكثر المسائل الفقهية عند الإمام أحمد كانت في صيغة إجابات على أسئلة التلاميذ، وقد نشر صالح علم أبيه عن طريق المراسلات، إذ كانت ترسل إليه الأسئلة فيجيب عليها بما حفظ من رأي أبيه وفقهه.

تولّى القضاء بإصبهان فسّهّل له ذلك نشر الفقه الحنبلي^(٢).

ويبدو أن ما لاقاه الإمام أحمد من شدائد وتنكيل وتعذيب أثناء محنة القول بخلق القرآن قد تركت بصماتها في أكبر أولاده ستاً الذي لم يصتف خلال مسيرته العلمية كتاباً في فقه أبيه رغم اعتنائه بنشر ذلك عبر مراسلاته، وإنما ترك لنا شهادة منه على ما كان قد عاينه من أبيه خلال

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ١/١٧١ - ١٧٣ شذرات الذهب ٢/٢٦٥ تاريخ التراث العربي ٣/٢٢٨ تهذيب التهذيب ١/٢٤٩ الأعلام ١/٢٨٩ معجم المؤلفين ٢/٢٣٩ تذكرة الحفاظ ٢/٥٢٤.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١/٢٥٠ - ٢٥٣ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩ تاريخ التراث العربي ٣/٢٣٠ البداية والنهاية ١١/٤٠ شذرات الذهب ٢/٣٠٥.

المحنة التي مرّ بها، فجاد علينا بكتابين هما: سيرة أحمد بن حنبل ومحنة أحمد بن حنبل.

٤ - أبو عبدالرحمن عبدالله بن أحمد (٢١٣هـ - ٢٩٠هـ).

كان إماماً خبيراً بالحديث وعلله، مقدماً فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وقد سمع من صغار شيوخ أبيه، وهو الذي رتب مسند والده.

يقال إنّ والده حفظه خمسة عشر ألف حديث عن ظهر قلب ثم قال له: لم يقل النبي ﷺ شيئاً من هذا، فقال: ولم أذهب أيامي في حفظ الكذب؟ قال: لتعلم الصحيح، فمن الآن احفظ الصحيح وذكر ابن كثير عن ابن المنادي قوله: لم يكن أحد أروى عن الإمام أحمد من ابنه عبدالله، وما زلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال وعلل الحديث والأسماء والكنى والمواظبة على طلب الحديث في العراق وغيرها، ويذكرون عن أسلافهم الإقرار له بذلك، حتى أنّ بعضهم أسرف في تقرّظه له بالمعرفة وزيادة السماع للحديث عن أبيه، من آثاره كتاب الستة ومسند الأنصار وتنقيح مسائل والده^(١).

٥ - أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي (٢٧٥هـ).

هو من أجل أصحاب الإمام أحمد وأخصهم بخدمته، وكان يأنس به وينبسط إليه ويبعثه في حوائجه، وهو المقدم من أصحابه لفضله وورعه، وكان الإمام أحمد يقول له: كلّ ما قلت فهو على لساني وأنا قلته.

روى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، وكان إماماً في الفقه والحديث، كثير التصانيف.

خرج إلى الجهاد فشيّعه نحو خمسين ألفاً من أهل بغداد إلى سامراء، فقيل له يا أبا بكر: هذا علم قد نشر لك، فبكى ثم قال: ليس هذا العلم

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ١/٢٦٠ - ٢٧٠ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩ شذرات

الذهب ٢/٣٧٥ - ٣٧٦ البداية والنهاية ١١/٩٦ - ٩٧ تاريخ التراث العربي ٣/٢٣٢ -

٢٣٣ تهذيب التهذيب ٥/١٤١ - ١٤٣.

لي إنما هو علم أحمد بن حنبل، وكان يقول: قليل تقوى يهزم كثير الجيوش.

من مصنفاته كتاب السنن بشواهد الحديث^(١).

- ٦ - أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير الحربي (١٩٨ هـ - ٢٨٥ هـ).

أحد الأئمة الأعلام ببغداد، تفقه على أحمد بن حنبل وروى عنه كثيراً، وبرع في العلم والعمل، فكان إماماً في العلم رأساً في الزهد عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام حافظاً للحديث، وكان يشبه بأحمد بن حنبل في زهده وورعه وعلمه.

نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة جداً، وصفها ابن العماد الحنبلي نقلاً عن المرदाوي في الإنصاف بأنها مسائل حسان جواد، وله مصنفات كثيرة^(٢).

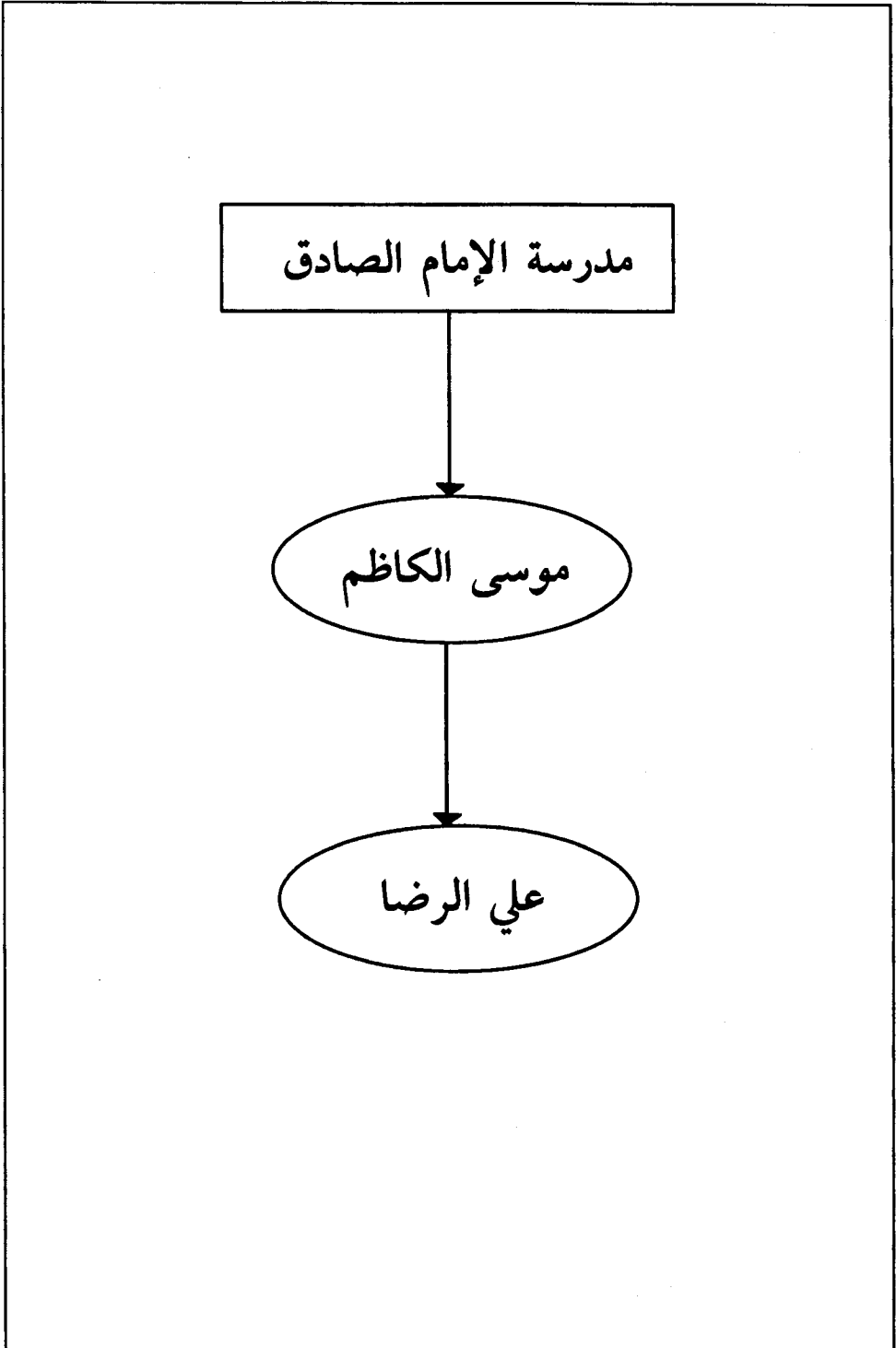
(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٩٦/١ - ١٠٤ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٠ شذرات الذهب ٣٣٠/٢ تهذيب التهذيب ٦٢/١.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٣٤/١ - ١٤٣ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧١ شذرات الذهب ٣٦٠/٢ البداية والنهاية ٧٩/١١، طبقات ابن السبكي ٢٥٦/٢ - ٢٥٧ فوات الوفيات ١٤/١ - ١٧ تذكرة الحفاظ ٥٨٤/٢.

مدرسة الإمام الصادق

موسى الكاظم

علي الرضا



أشهر أعلام المذهب الجعفري في هذه المرحلة: موسى الكاظم وابنه عليّ الرضا:

فأما موسى الكاظم: فهو أبو الحسن بن جعفر الصادق (١٢٨هـ - ١٨٣هـ).

الإمام السابع عند أئمة الشيعة الإمامية، كان أحد أئمة المسلمين، وكان صالحاً عابداً جواداً حليماً كبير القدر، كان يدعى العبد الصالح لعبادته واجتهاده.

روى عن أبيه وعن عبدالله بن دينار وغيرهما، وعنه روى أخواه عليّ ومحمد وأولاده إبراهيم وحسين وإسماعيل وعليّ الرضا، وغيرهم.

استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه ثم أمر بإطلاق سراحه وردّه إلى المدينة المنورة، ثم استدعاه هارون الرشيد سنة ١٦٩هـ فسجنه وأطال سجنه حتى مات في حبسه.

صنّف كتاباً في الفقه يضمّ إجابات عن أسئلة وجّهت إليه من أخيه عليّ بن جعفر (٢١٠هـ)^(١).

ومن أشهر أصحابه الذين تلقّوا عنه^(٢):

١ - يونس بن عبدالرحمن علامة زمانه، وكان كثير التصنيف والتأليف على مذهب الشيعة.

٢ - أحمد بن محمد البنزطي.

٣ - ظريف بن ناصح الكوفي البغدادي.

(١) شذرات الذهب ٤٨٥/٢ - ٤٨٦ البداية والنهاية ١٨٣/١٠ تاريخ التراث العربي ٢٧٩/٣ - ٢٨٠ وفيات الأعيان ٣٠٨/٥ - ٣١٠ تهذيب التهذيب ٣٣٩/١٠ - ٣٤٠ مروج الذهب للمسعودي ٣٥٦/٣ الأعلام ٢٧٠/٨.

(٢) الفهرست ص ٢٧٦ تاريخ التراث العربي ٢٨٤/٣.

* وأما عليّ الرضا: فهو أبو الحسن ابن موسى الكاظم (١٥٣هـ - ٢٠٣هـ).

الإمام الثامن في اعتقاد أئمة الشيعة الإمامية، روى عن أبيه موسى الكاظم عن جدّه جعفر الصادق، وسمع عمومته إسماعيل وعبدالله وإسحاق وغيرهم من أهل الحجاز، وروى عنه ابنه محمد وكثير من أئمة الحديث.

كان يفتي في مسجد رسول الله ﷺ وهو ابن نيف وعشرين سنة، وكان المأمون العباسي قد همّ بالتنازل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك، فجعله وليّ العهد من بعده، فحدث بسبب ذلك ثورات واضطرابات، وأعلن إبراهيم بن المهدي خليفة، ولم تخمد الفتن إلاّ بعد موت عليّ الرضا، حيث عاد الأمر إلى المأمون وطاوعه الجند على السمع والطاعة.

كان عليّ الرضا عالماً مشاركاً في علوم مختلفة، كالفقه وأصوله، والحديث وعلومه، والطب وفروعه له إجابات على أسئلة فقهية وجهها إليه المأمون العباسي، وله صحيفة الرضا وهي مجموعة أحاديث وصلت إلينا برواية الفضل بن الحسن الطبرسي، وينسب إليه فقه الرضا الذي يعتبر أهمّ مصنف في الفقه الجعفري، ويرى البعض أنّ نسبة هذا الكتاب إلى عليّ الرضا هو موضع شك، وأنّ من المحتمل أن يكون مؤلفه هو عليّ بن بابويه، وهذا الكتاب قد طبع بایران^(١).

ومن أشهر أصحابه الذين تلقوا عنه^(٢):

١ - أبو عبدالله محمد بن خالد البرقي القمي، وكان عالماً شيعياً كثير المصنّفات، وقد ذكر له نحو مائة كتاب.

(١) انظر: شذرات الذهب ٧٥/٢ - ٧٦ البداية والنهاية ٢٥٠/١٠ تاريخ التراث العربي ٢٨١/٣ - ٢٨٤ تهذيب التهذيب ٣٨٧/٧ - ٣٨٩ وفيات الأعيان ٢٦٩/٣ - ٢٧١ الأعلام ١٧٨/٥.

(٢) انظر: الفهرست ص ٢٧٦ - ٢٧٨ تاريخ التراث العربي ٢٨٥/٣ - ٢٨٦.

٢ - أبو محمد الفضل بن شاذان بن الخليل الأزدي النيسابوري، وكان متكلماً فقيهاً كثير التصانيف، ويقال أنه صنف نحو ١٨٠ كتاباً.

٣ - أبو الحسن عليّ بن أسباط بن سالم الكوفي، وكان فقيهاً وقارئاً ومفسراً.

٤ - الحسن والحسين ابنا سعيد بن حمّاد الأهوازيين، من أهل الكوفة، وكانا أوسع أهل زمانهما علماً بالفقه والآثار والمناقب وغير ذلك من علوم الشيعة.

٥ - أبو علي الحسن بن علي بن فضال، وكان من خاصّة أصحابه. وأما أشهر أعلام المذهب الزيدي في هذه المرحلة، فمنهم:

١ - أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي (١٦٩هـ - ٢٤٦هـ).

كان من أعلام الزيدية في عصره، صنف أكثر من ٣٠ مصنفاً في علوم مختلفة ومواضيع شتى، منها الناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن، وكتاب المسائل ممّا سأل عنه الحسن، ويضمّ هذا الكتاب إجابات على أسئلة لابنه الحسن، ولك كتاب المسائل المنثورة، ويضمّ إجابات على أسئلة لابنه محمّد، وكتاب الأصول الخمسة، ويعدّ أقدم كتاب معروف يضمّ أصول الزيدية، وله كذلك كتباً عديدة في الردّ على الخوارج وعلى المجبرة وعلى الروافض من أصحاب الغلوّ، وفي أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه، وقضايا أخرى من أصول الدين^(١).

٢ - أبو عبدالله أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ البغدادي (١٥٧هـ - ٢٤٧هـ).

هو إمام الزيدية في عصره، وكان عند أهل الكوفة عالماً حجّة، أحضره هارون الرشيد إلى بغداد وسجنه، فهرب من السجن وأمضى بقية

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٨ - ٣٣٣ الأعلام ٥/٦ معجم المؤلفين ٩١/٨.

حياته مختفياً بالبصرة حتى سنة وفاته^(١).

صنّف كتاب الأمالي رواه عنه تلميذه أبو جعفر محمد بن منصور بن يزيد المرادي، المفسّر، والمحدّث والفقّيه والمؤرّخ، الزيدي المذهب^(٢).

وقد قام أبو عبدالله محمد بن علي الحسنّي (٤٤٥هـ) في كتابه «الجامع الكافي في فقه الزيدية» بجمع كتب أبي جعفر محمد بن منصور، مع كتب أحمد بن عيسى، والقاسم بن إبراهيم، والحسن بن يحيى، وهذه الكتب هي^(٣):

زيادات إلى أمالي أحمد بن عيسى، كتاب المجموع وكتاب المسائل وكتب الطهارة والنهي عن المسح على الخفين والصلاة والجنائز والزكاة والخمس والصوم والحجّ ومناسك الحجّ والنكاح وإبطال المتعة والطلاق وإيقاع الطلاق والرضاع والبيوع والأيمان والكفّارات والحدود والديات والفرائض والقضاء والسيرة والصيد والذبائح والعصير والطلاق ومعرفة الأوزان وتحريم الأشربة والملاهي.

٣ - - أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم (٢٢٠هـ - ٢٩٨هـ) الملقّب بالهادي إلى الحقّ.

نشأ بالحجاز وتعلّم الفقه وسائر العلوم، وكان عالماً ورعاً، فيه شجاعة وبطولة، لقّب في عهد المعتضد بالخليفة، ودانت له صنعاء بالولاء، ودعي له في الخطبة بالحرم المكيّ.

صنّف كتباً كثيرة في مواضيع مختلفة، له تفسير القرآن، وهذا الكتاب تتمّة للكتاب الذي كان قد بدأه جدّه القاسم وعمّه محمد، ثمّ أكمله من بعده ابنه المرتضى والناصر، وله الجامع المسمّى بالإحكام في الحلال والحرام والسنن والأحكام الذي بدأ تأليفه حين كان بالمدينة ولكنّه لم

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٧ المعارف لابن قتيبة ص ١١١.

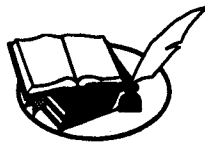
(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٨، ٣٣٣.

(٣) تاريخ التراث العربي ٣/٣٣٤ - ٣٣٥.

يكمله، وله كتاب الرضاع، وكتاب المنتخب من الفقه وفيه إجاباته إلى أبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي الذي قام بجمعها، وله في أصول الفقه كتاب تفسير معاني السنّة، وكتاب القياس، كما له كتاب الأحاديث النبوية، وهذا الكتاب مبوب على أبواب الفقه، فضلاً عن المصنّفات الأخرى في مجال العقيدة وأصول الدين، وله رسائل كثيرة^(١).

هذه فكرة عامّة عن نشاط المذاهب الفقهية في هذه المرحلة من هذا الدور حاولنا إظهارها، ولم يكن من غايتنا أن نستقصي جميع الأعلام، ولا هو بوسعنا في هذا الكتاب، ذلك أنّ الذين انتسبوا إلى تلك المذاهب في هذه المرحلة وقاموا بنشر آراء شيوخهم كثرة كاثرة، اقتصرنا على من رأيناهم قد حازوا الشهرة في ذلك بعلمهم وفقههم، واقتفوا آثار أئمتهم واختاروا مناهجهم وطرائقهم، فكان لهم الفضل في تكوين الأتباع وبتّ العلم ونشره في صدور الرجال، كما كان لهم الفضل في إنتاج المصنّفات بالتخريج والاجتهاد على مقتضى أصول مذاهبهم، وتقرير الأحكام وفق قواعد أئمتهم، والتصرّف فيما رووا ونقلوا عن شيوخهم توجيهاً واستنباطاً.

وإتماماً للفائدة رأينا من المناسب بعد هذا العرض لنشاط الفقه والتشريع في هذه الدور أن نختم الفصل بجملّة من النتائج كما فعلنا في الفصل الذي قبله.



(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٣٥ - ٣٤١ الأعلام ١٧١/٩ معجم المؤلفين ١٣/١٩١ - ١٩٢.

استخلاص ونتائج

في نهاية هذا الدور نصل إلى تقرير جملة من النتائج التالية:

١ - إنّ أئمة المذاهب رغم تمام إدراكهم بأنّ ما يأمر به كتاب الله وسنة رسوله، بعضه مطلوب القيام به على سبيل الوجوب والحتم، وبعضه دون ذلك، وأنّ ما ينهى عنه كتاب الله وسنة رسوله، بعضه مطلوب تركه على سبيل الوجوب والحتم، وبعضه دون ذلك، رغم إدراكهم ذلك تمام الإدراك، فقد كانوا مع ذلك يتورعون عن إطلاق لفظ التحريم ويتحرون في تختيار الألفاظ واستعمال المصطلحات، وقد كان هذا الاحتياط والتحري منهم تأسياً بمن سبقهم من أعلام التابعين، فعن عبدالله بن وهب قال: سمعت مالكا يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً أفتدي به يقول في شيء، هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنّما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسناً، فينبغي هذا، ولا نرى هذا، وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله، أما سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقِي فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾ [سورة يونس - الآية ٥٩]، لأنّ الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه^(١).

لذلك كان أئمة المذاهب أكثر ما يستعملون ألفاظ: لا يعجبني، ولا

(١) ترتيب المدارك ١٤٥/١ إعلام الموقعين ٣٩/١ مناقب الإمام مالك للزاوي ص ٣٩.

ينبغي، ولا أراه، ولا أحبّه، ولا أجيز، ولا يجوز، ومكروه ولا خير فيه، للتعبير عن التحريم، ويستعملون ألفاظ لا بأس بذلك، وأرجو أن لا يكون به بأس، للتعبير عن الحلّية، وغير ذلك من الألفاظ الدالة على شدّة تحريمهم في الفتيا وورعهم في تخيير الألفاظ أدباً مع الله ورسوله، وتأسياً بمن سبقهم من السلف الصالح^(١).

وهذا يدلّ على أنّ الحاجة في بداية هذا الدور لم تكن بعد ملحة لإضفاء تعبيرات دقيقة لمفهوم التحريم والتحليل بالمعنى الاصطلاحي المحدّد للفظ، لذلك نرى الأئمة يستعملون ألفاظ متعدّدة للتعبير عن هذا المعنى أو ذاك، ويعبّرون عن الكراهة بمعنى التحريم، ويقصدون بذلك حرمة الفعل لا كراهته.

وقد نبّه على ذلك ابن قيم الجوزية حين قال: وقد غلط كثير من المتأخّرين من أتباع الأئمة على أنتمهم بسبب ذلك، حيث توزّع الأئمة عن إطلاق لفظ التحريم، وأطلقوا لفظ الكراهة، فنفى المتأخّرون عمّا أطلق عليه الأئمة الكراهة، ثمّ سهل عليهم لفظ الكراهة وخفّت مؤنّته عليهم، فحمله بعضهم على التنزيه، وتجاوز به آخرون إلى كراهة ترك الأولى، وهذا كثير جدّاً في تصرفاتهم، فحصل بسببه غلط عظيم على الشريعة وعلى الأئمة^(٢).

٢ - أنّ هذا الدور قد مثل البدايات الأولى لظهور ما يسمّى بالفروض الفقهية - أو الفقه الافتراضي - القائم على أساس تصوّر مسائل نظريّة تفنى الأعمار ولا يتصوّر حدوث واقعة منها، وكان أوّل من ابتدع هذا الفقه الافتراضي، الإمام أبو حنيفة الذي كان يرى ضرورة الاستعداد للبلايا قبل وقوعها، ثمّ تأثّر بهذا المنهج الافتراضي بعد ذلك بعض المالكية مثل الإمام سحنون الذي فرّع في مدوّنته فروعاً كثيرة على كلّ مسألة فقهية

(١) انظر على سبيل المثال: الموطأ ٦٨١/٢، ٦٨٤، ٦٨٦، ٦٨٨، ٦٩٠، الأم ٢٠/٣، ٢٢، ٧٠، إعلام الموقعين ٤٠/١، ٤٢.

(٢) إعلام الموقعين ٢٩/١ - ٣٠.

مما جعل بعض هذه الفروع لا تعدو أن تكون احتمالاً نظرياً بعيداً عن الواقع.

وهذا المنهج الافتراضي الذي أدى إلى اتساع مسائل الفقه شيئاً فشيئاً لا شك أن تداعياته ستكون أعمق أثراً في الدور القادم.

٣ - يلاحظ في المرحلة الثانية من هذا الدور اتساع المسائل وكثرة التفرع واختلاف الأقوال في المذهب الواحد، واختلاف الطرائق التي بسببها اختلفت الأقوال، مع أن الأصول التي أرجع إليها في ذلك هي أصول مسلمة متحدة، وهي الأصول التي بها تكون تلاميذ وأتباع كل مذهب من المذاهب الفقهية، ولكن طريقة التفرع وصورة التطبيق وتقدير الواقعة والرجوع إلى الدليل الإجمالي الذي ينطبق عليها، والتصرف فيما نقل عن أئمة المذاهب من أقوال بالتوجيه والاستنباط، هو الذي قضى باختلاف الأنظار في الفتاوى، مما اختلفت به المسائل، فكونت هذه المرحلة التي هي مرحلة التفرع دوراً جديداً من بعدها نستطيع أن نصلح على تسميته دور التطبيق^(١).

٤ - أن مرحلة التفرع تعتبر مرحلة متممة ومكملة لمرحلة التأصيل في حركة الاجتهاد وبناء صرح الفقه، ذلك أن أقطاب هذه المرحلة - وهم تلاميذ أئمة المذاهب - الذين كانوا يجتهدون في تطبيق الأحكام على الوقائع باختيار ما يناسب من أقوال أئمتهم، وكانوا كذلك يجتهدون في استنباط الأحكام والنظر في نصوص الوحي مباشرة، إلا أنهم كانوا في كل ذلك يلتزمون أصول أئمتهم ولا يخرجون عن مناهجهم الاستدلالية، وإن كانوا يخالفونهم أحياناً في كثير من المسائل الفقهية العملية التفصيلية.

٥ - أن مساندة الحكام والأمراء لبعض المذاهب الفقهية ممثلة في بعض أعلامها على حساب البعض الآخر، قد كان له الدور الفعال في توفير الظروف الملائمة لنمو هذه المذاهب وانتشارها بفضل ما نال أنصارها

(١) محاضرات مغاربية ص ٧٨.

من احترام وإجلال وتقدير وتشجيع لم ينله غيرهم، كما هو الحال بالنسبة لبني العباس الذين آثروا تعيين قضاتهم من أتباع المذهب الحنفي أخذاً بقرار أبي يوسف قاضي القضاة الذي كان لا يولّي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه، وكما هو الحال بالنسبة للمذهب المالكي في الأندلس حيث كان يحيى بن يحيى مكيناً عند أمراء بني أمية، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في الأندلس إلا بمشورته واختياره وكان لا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه^(١).

في حين كان بعض أنصار المذاهب الأخرى قد ابتلوا بالتتبّع وبالمطاردة والملاحقة، وربما وصل الأمر إلى التعذيب والتنكيل، كما هو الحال بالنسبة لموسى الكاظم - أحد أئمة المذهب الجعفري - الذي أطال هارون الرشيد حبسه حتى مات في سجنه، وكذلك أحمد بن عيسى - أحد أعلام المذهب الزيدي - الذي هرب من سجنه وأمضى بقية حياته مختفياً بالبصرة حتى سنة وفاته، ولا شك أنه إزاء هذا الضغط السياسي فإنه لم يتيسر لأنصار المذهب الشيعي نشر آرائهم وفقههم بسهولة ويسر.

٦ - أنّ كلّ مركز من مراكز البلاد الإسلاميّة قد حظي في هذا الدور بنشاط فقهي خصب قام بادىء الأمر على أئمة اشتهرت المذاهب بالإضافة إلى أسمائهم رغم أنهم لم يكونوا منشئين ولا مخترعين ولا مبتدعين للأصول التي بنوا عليها مذاهبهم، وإنما كانت تلك الأصول يسير عليها الفقه من قبل دون أن يقع التعبير عنها أو التعريف بها^(٢).

ثمّ قام هذا النشاط بعد ذلك على الذين تكوّنوا بهؤلاء الأئمة وتخرّجوا عليهم مجتهدين على مقتضى الأصول التي بنوها والمناهج التي ارتأوها.

فكنا نرى أحياناً مذهباً يسود مركزاً من المراكز ولا ينافس في زعامته

(١) جذوة المقتبس ص ٣٦٠ - ٣٦١ بغية الملتبس للضبي ٢/٦٨٦.

(٢) محاضرات مغربية ص ٦٨.

أبي مذهب آخر، كما هو الشأن بالنسبة للمذهب المالكي الذي استقلّ في هذا الدور بالمدينة المنورة.

وربّما ساد مذهب من المذاهب إحدى المراكز، واختصّ به أهلها واقتصروا عليه، ثمّ تحوّلوا عنه واعتنقوا غيره، كما هو الشأن بالنسبة للمذهب الأوزاعي الذي سار عليه أهل الأندلس ثمّ انصرفوا عنه إلى المذهب المالكي.

وغالباً ما كان يتجمّع في المركز الواحد أنصار مذاهب عديدة يترسّم الناس خطاهم ويعملون بمقتضى آرائهم، فيحدث نتيجة ذلك تنافس بين أنصار المذاهب في تنازع الزعامة، كما هو الشأن بالنسبة للمركز العراقي الذي ظهر به أوّل الأمر المذهب الحنفي، ثمّ انتشر به المذهب الشافعي والمالكي، ثمّ المذهب الحنبلي، فالمذهب الظاهري.

وربّما ساد مذهب على حساب آخر واستقلّ بزعامة المركز وريادته، كما هو الشأن بالنسبة للمركز الإفريقيّ الذي تنافس عليه الأحناف والمالكية وسادا بها، غير أنّه اختصّ في نهاية المطاف بالمذهب المالكي حيث كانت الغالبية تميل إلى المالكية.

وربّما تزعم المركز الواحد مذهباً، وتنافسوا عليه كفرسي رهان، كما هو الشأن بالنسبة للمركز المصري الذي ترعّج عليه أكبر أصحاب مالك وأسماهم قدراً وأكثرهم عدداً، وبقي المذهب المالكي هو المذهب الأوّل بمصر، ثمّ دخل عليهم الشافعي في آخر حياته - سنة ١٩٩هـ - وأنشأ لنفسه أتباع نافسوا المالكية، حتى صاروا المذهب الغالبان في مصر، في حين تأخّر ظهور المذهب الحنفي بها إلى أن نزلها قضاة بغداد الأحناف.

٧ - أنّ الكثير من الأعلام كانوا يتفقّهون في أكثر من مذهب، وقد برز ذلك بالخصوص في المركز الإفريقي مع عبدالله بن فروخ وعليّ بن زياد وأسد بن الفرات، الذين تلقّوا عن الإمام مالك وعن أصحاب أبي حنيفة، كما ظهر هذا الأمر بوضوح أيضاً في المركز المصري مع محمد بن عبدالحكم وحرملة بن يحيى التجيبي ويونس بن عبدالأعلى والربيع الجيزي الذين تلقّوا عن عبدالله بن وهب ونظرائه من أصحاب مالك المصريين وصاحبوا الشافعي ورووا عنه، حتّى تنازع أصحاب الطبقات في عدّهم من

أصحاب الشافعي أو من أتباع مالك المصريين.

٨ - أن المرأة المسلمة لم تعدم نشاطاً ومشاركة في سير الحركة الفقهية والتشريعية في هذا الدور من تاريخ الفقه الإسلامي، بل إننا لنجد أعلام من النساء العالمات، والفقيهات الفاضلات اللاتي ساهمن مساهمة فعالة في بناء صرح الفقه وتطور حركة التشريع في هذا الدور، نذكر منهن^(١):

فاطمة بنت الإمام مالك التي روت عن أبيها الموطأ، وقد ذكرها الحافظ أبو بكر البغدادي في الرواة عن مالك، وذكرها القاضي عياض في من روى الموطأ من الجلة والأعلام المشاهير والثقات عن مالك.

ونفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٥٠هـ - ٢٠٨هـ) وزوجة إسحاق بن جعفر الصادق، التي كانت من النساء الصالحات، ويروى أن الإمام الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث، وكان ربّما صلى بها في شهر رمضان، ولما توفي أمرت بجنائزه فأدخلت إليها فصلت عليه، ولا شك أن سلسلتها في النسب، وسماع الشافعي منها وعليها، وحمله ميتا إلى بيتها، أعظم منقبة، فلم يكن ذلك إلا عن قبول وإقبال وصيت وإجلال.

وكانت خديجة بنت الإمام سحنون عالمة من أحسن النساء وأعقلهن. وكانت خديجة أم محمد تتردد على الإمام أحمد بن حنبل، ويحدثها فروت الحديث وأخذ الأعلام عنها، وكانت أم عيسى بنت إبراهيم بن إسحاق الحربي، فاضلة عالمة تستفتى فتفتي في مسائل الفقه.

وقد حفظ لنا الإمام النسائي نصاً فريداً وثيقة هامة في فنّ الشروط تبرز بوضوح كيف أن النساء كنّ يشاركن الرجال في صنعة التوثيق المعروفة بعقد الشروط، وفي ذلك دلالة على أن النساء كنّ يعقدن العقود بأنفسهنّ، ويشاركن في تحريرها بأيديهنّ، ولا يتأتى لهنّ ذلك إلا إذا كنّ يفقهن الأحكام وما يجري عليه العمل في وقتهنّ.

(١) تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك ص ٣٥ ترتيب المدارك ٢٠٢/١، ١١٩/٣ وفيات

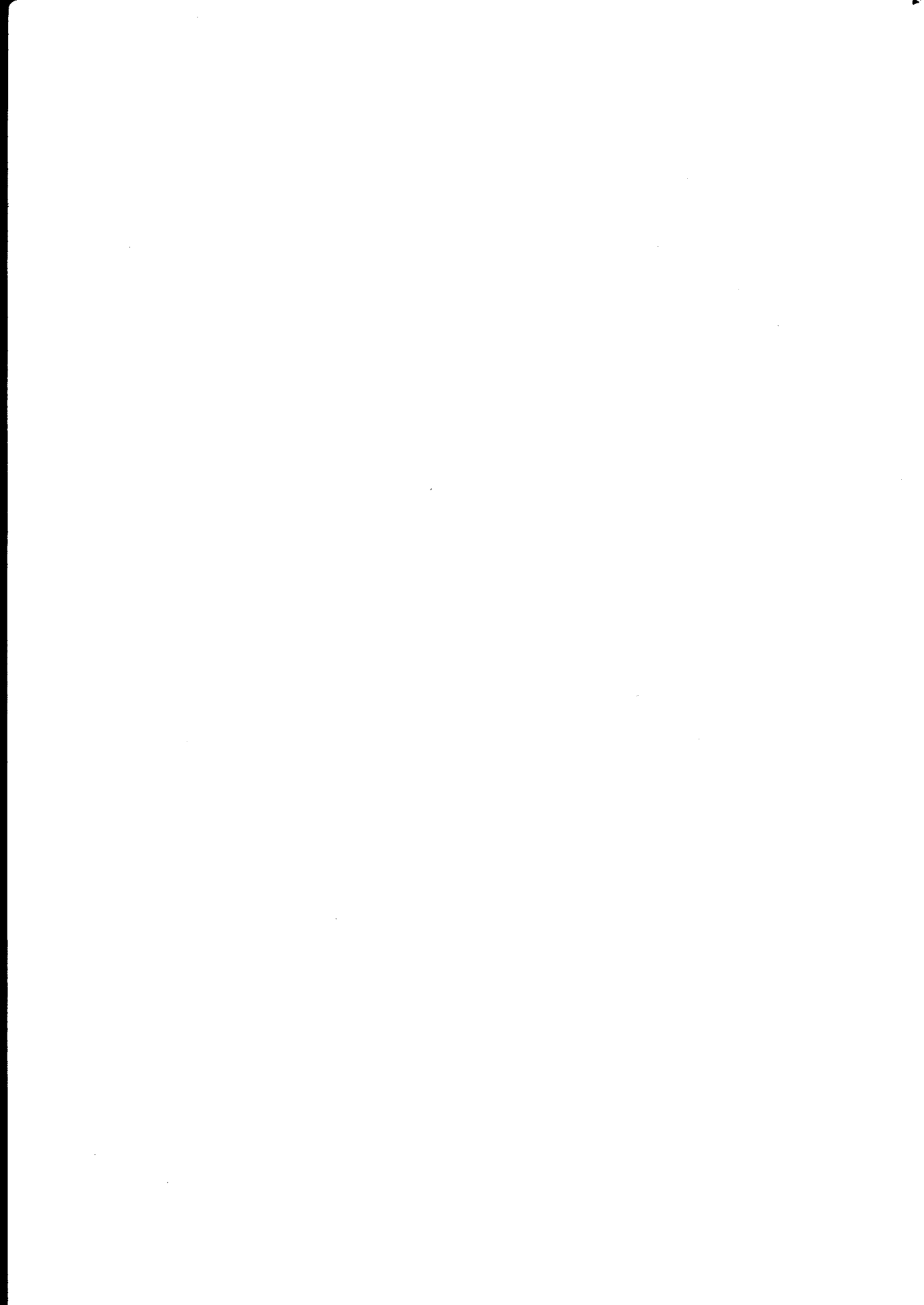
الأعيان ٤٢٣/٥ شذرات الذهب ١٠١/٢ - ١٠٢ البداية والنهاية ١٠/٢٦٢.

وهذا نص الوثيقة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾^(١).

هذا كتاب كتبه فلانة بنت فلان بن فلان في صحّة منها وجواز أمر فلان بن فلان بن فلان، إني كنت زوجة لك وكنت دخلت بي فأفضيت إليّ، ثمّ إني كرهت صحبتك وأحببت مفارقتك عن غير إضرار منك بي ولا منعي لحقّ واجب لي عليك، وإني سألتك عند ما خفنا أن لا نقيم حدود الله أن تخلعني فتبينني منك بتطليقة بجميع مالي عليك من صداق، وهو كذا وكذا ديناراً جياداً مثاقيل، وبكذا وكذا ديناراً جياداً مثاقيل أعطيتكها على ذلك سوى ما في صداقي، ففعلت الذي سألتك منه فطلقتني تطليقة بائنة بجميع ما كان بقي لي عليك من صداقي المسمّى مبلغه في هذا الكتاب وبالذنانير المسمّاة فيه سوى ذلك، فقبلت ذلك منك مشافهة لك عند مخاطبتك إياي به ومجاوبة على قولك من قبل تصادرنّا عن منطقتنا ذلك، ودفعت إليك جميع هذه الذنانير المسمّى مبلغها في هذا الكتاب الذي خالعتني عليها وافية سوى ما في صداقي، فصرت بائنة منك مالكة لأمري بهذا الخلع الموصوف أمره في هذا الكتاب، فلا سبيل لك عليّ ولا مطالبة ولا رجعة، وقد قبضت منك جميع ما يجب لمثلي ما دمت في عدّة منك وجميع ما احتاج إليه بتمام ما يجب للمطلّقة التي تكون في مثل حالي على زوجها الذي يكون في مثل حالك، فلم يبق لواحد منّا قبل صاحبه حقّ ولا دعوى ولا طلب، فكلّ ما ادّعى واحد منّا قبل صاحبه من حقّ ومن دعوى ومن طلبه بوجه من الوجوه فهو في جميع دعواه مبطل وصاحبه من ذلك أجمع بريء، وقد قبل كلّ واحد منّا كلّ ما أقرّ له به صاحبه وكلّ ما أبرأه منه ممّا وصف في هذا الكتاب مشافهة عند مخاطبته إياه قبل تصادرنّا عن منطقتنا وافتراقنا عن مجلسنا الذي جرى بيننا فيه، أقرت فلانة وفلان^(٢).

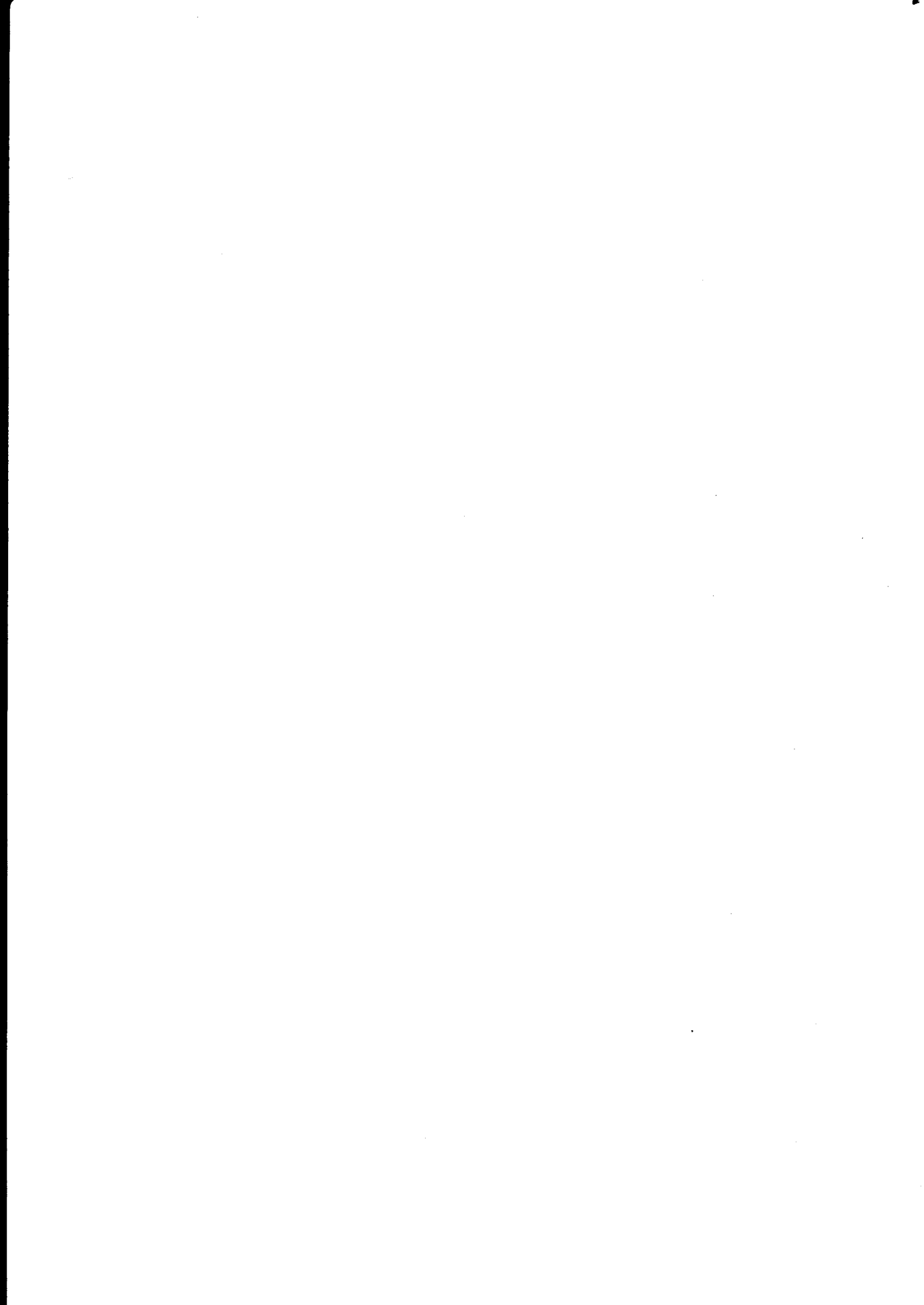
(١) سورة البقرة - من الآية ٢٢٩.

(٢) سنن النسائي، كتاب المزارعة، باب تفرّق الزوجين عن مزاوجتهما.



الجزء الثاني

يشمل الأدوار الثلاثة اللاحقة من تاريخ الفقه وهي
الفترة التاريخية الممتدة من منتصف القرن الثالث الهجري إلى
منتصف القرن الثالث عشر الهجري.



الدور الرابع

دور التطبيق - عصر مجتهدى المسائل -
من حوالي منتصف القرن الثالث
إلى منتصف القرن الخامس الهجرى

تمهيد:

أتمت الحياة السياسيّة في هذا الدور بثلاثة مظاهر كان لها الأثر البالغ في تاريخ المسلمين^(١):

أولها: انتشار الثورات وتتابع الفتن الداخليّة التي كانت تقوم من حين لآخر، ونذكر منها بالخصوص ثورتي الزنج والقرامطة، فأما ثورة الزنج فقد استطاع الموقّق لعهد أخيه المعتمد (٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ) أن يقضي بعد جهاد عنيف عليها قضاء مبرما، وأما القرامطة فقد ظلّوا حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ينزلون ببني العباس خسائر فادحة في الجنود والعتاد، حتّى استولوا على مكّة وارتكبوا بها أبشع الجرائم، ونهبوا الحجّاج ونكّلوا بهم أشنع تنكيل، وقتلوا منهم في سنة ٣١٢هـ ثلاثة آلاف، واقتلعوا الحجر الأسود من موضعه، وبقي في إحدى زوايا «الإحساء» إلى سنة ٣٣٩هـ حيث أرجعه القرامطة بأمر من المنصور الفاطمي.

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ١/٣ - ١٩١ و ٣٣٢ وما بعدها تاريخ الدولة العليّة

كما تحرّكت الخوارج في الموصل وخراسان، وكثر الثائرون من العلويين، وقويت دعوة الشيعة في المشرق، ولم يهفت لهم بال حتى نهضوا بالدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر.

ثانيها: اتّسع نفوذ الأتراك الذين سيطروا على أداة الحكم، وغلبوا خلفاء بني العبّاس على أمرهم حتى أصبح الخليفة أسير نفوذهم، إن شاؤوا أبقوه وإن شاؤوا خلعوه وقتلوه أو سملوا عينيه وسجنوه حتى يموت صبراً، فتردّت الدولة في هوة بعيدة القرار، وكلّما تقدّمتنا خلال هذه الفترة اتّسع الخرق ولم يعد بالإمكان رتقه.

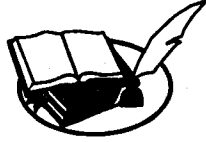
ثالثها: اقتطع الخلافة العبّاسية وانقسام البلاد الإسلامية: حيث استقلّت الكثير من الولايات عن الدولة المركزية بعد أن عجز أصحاب النفوذ والسلطة عن جمع أطراف الدولة، فبعد أن قامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨هـ - ٤٢٢هـ) وتأسست دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢هـ - ٣٧٥هـ)، استأثر الطولونيون (٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ) فالإخشيديون (٣٢٣هـ - ٣٥٨هـ) ثمّ الفاطميون (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ) بمصر.

وقامت الدولة الصفارية (٢٥٤هـ - ٢٩٠هـ) والسامانية (٢٦٦هـ - ٣٨٩هـ) التي تفرّعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١هـ - ٥٨٢هـ) في خراسان وما جاورها، وساد الحمدانيون (٣١٧هـ - ٣٩٤هـ) في الموصل وحلب.

وهكذا لم يبق تحت نفوذ الخليفة العبّاسي سوى بغداد التي استولى عليها البويهيون (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) وأصبحوا هم أصحاب الشأن في تولية الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدعى له على المنابر.

وعلى الرغم من كلّ هذا الفساد الذي ساد نظام الحكم، وعلى الرغم ممّا اكتنف هذا العصر من اضطرابات ومآسي، فإنّ من أغرب ما نلاحظه هو امتزاج ذلك الاختلال في المجال السياسي بالرقّي في الميدان الثقافي،

وذلك بسبب ظهور التنافس في المجد العلمي بين تلك الدول والإمارات العديدة التي قامت في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، فتعددت بذلك عواصم العلم التي استقطبت العلماء، وراجت الثقافة، وتنقل أهل العلم طلبة وشيوخا بين تلك العواصم، وتنافس الأمراء في التقرب إليهم واستمالتهم للاستقرار تحت ظل دولتهم.



مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذا الدور

١ - القرآن الكريم:

زاد الاعتناء بتفسير كتاب الله باعتباره أم العلوم القرآنية، فمنما تفسير القرآن الكريم نموًا سريعًا، وخطا خطوة حاسمة انفصل بها عن الحديث، فأصبح علماء قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على ترتيب المصحف، وأتضح في تفسير القرآن اتجاهان رئيسيان^(١):

اتجاه التفسير بالمأثور: وكان من أشهر المتصدّين له في هذا الدور، المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ) الذي صتّف جامع البيان في تفسير القرآن، وجمع فيه عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر عن الصحابة والتابعين في تفسير آيات القرآن، وقد اعتبر تفسيره أجلّ التفاسير وأعظمها، لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط، وشهد العارفون بأنه لا نظير له في التفاسير، وكذلك أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الحنفي (٣٧٥هـ) صاحب التفسير المسمّى ببحر العلوم والمعروف بتفسير أبي الليث، وأبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (٤٢٧هـ) صاحب كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن.

(١) الإتيان في علوم القرآن ١٩٠/٢ - ١٩١ كشف الظنون ٣٦٠/١ و٣٦٣ و٣٦٧، التفسير والمفسرون ١٤١/١ و٢٠٤ - ٢٣٤ و٣٨٧ - ٤٠٢ و٤٢/٢ و٢٨٢ و٤٣٥، مناهل العرفان ٢٤/١ - ٢٥ و٤٩٧.

اتَّجَاه التفسير بالمعقول: وأشهر من مثل هذا الاتجاه هم المعتزلة والشيعة الذين نظروا إلى القرآن من خلال عقائدهم، وأخضعوا عباراته لخدمة آرائهم وأولوها تأويلات تتفق وأصول مذاهبهم.

وكان من أشهر تفاسير المعتزلة: تفسير أبو علي الجبائي (٣٠٣هـ) وتفسير أبي الحسن علي بن عيسى الرقاني (٣٨٤هـ) وتفسير القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) المسمّى بتزيه القرآن عن المطاعن.

وكان من أشهر تفاسير الشيعة: تفسير محمد بن مسعود الكوفي المعروف بالعيشي، من علماء القرن الثالث الهجري، وتفسير علي بن إبراهيم القمي، من علماء أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري وتفسير أبي جعفر الطوسي (٤٦٠هـ) المسمّى بالتيبان، وتلك كتب التفسير عند الإمامية الاثني عشرية.

ومن أشهر كتب التفسير عند الزيدية في هذا الدور: تفسير إسماعيل بن علي الزيدي (حدود ٤٢٠هـ) وظلّ القرآن الكريم مصدر علوم عديدة ازداد اهتمام العلماء بها في هذا الدور، ونشأت علوم جديدة للقرآن وظهرت مصنفات في كل نوع منها.

وتبارت الهمم في الاشتغال بعلمه، فعلماء اللغة شرحوا مفردات ألفاظه ومدلولاتها بحسب الوضع، واتَّجهت عنايتهم لمعرفة خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ومعرفة وجوه تحسين الكلام ومراعاة ما يقتضيه الإعجاز.

والفهاء استندوا إلى القرآن لاستنباط الأحكام منه باعتباره المصدر الأول للتشريع الإسلامي، وبعد أن كان الإنتاج التفسيري للفقهاء قبل هذا الدور عبارة عن متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين يرويها عنهم أصحاب التفاسير المختلفة، يطالعنا أبو بكر الرازي الحنفي (٣٧٠هـ) المعروف بالجصاص في هذا الدور بكتاب أحكام القرآن الذي يعدّ من أهم التفسير الفقهي خصوصاً عند الحنفيّة.

وأصحاب الفرق العقائدية توجَّهوا إلى القرآن لتأويله تأويلات ترضي

عقيدتهم وتمشّي مع مذاهبهم، حتى يجعلوا من آيات القرآن شاهدا لهم. وأخذت القراءات مكانها من التدوين في خاتمة القرن الثالث، حيث نهض ببغداد ابن مجاهد أحمد بن موسى ابن عباس فجمع قراءات سبعة من القراء، وكان عدد القراء لا يحصون كثرة، وأخذ على نفسه ألا يروي إلا عمّن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة، واتّفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقّي منه، فجاء اقتصاره على القراء السبعة مصادفة واتّفاقا من غير قصد ولا عمد^(١).

- ٢ - السنة النبوية:

ازدادت في هذا الدور حركة جمع الحديث، وتناولت مختلف طرق العمل لجمعه وترتيبه، فظهرت كتب السنن الأربعة - سنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه - وكان لكل كتاب منها ميزته التي يمتاز بها، واشتهر كثير من كبار المحدثين وجهابذة السنة وحقّاق الناقدين ومهرة المصنّفين الذين كانت لهم أياد بيضاء في خدمة الحديث ومعرفة رجاله والبحث عن علله، من أمثال ابن جرير الطبري الذي صنّف كتاب تهذيب الآثار - إلا أنه لم يتمّه - تكلم فيه على كلّ حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة، وهو كتاب قد تفرّد في بابيه بلا مشارك.

وما كانت شمس القرن الثالث الهجري تؤذن بمغيب حتّى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه، وصار العلماء في القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرّق في كتب الأولين أو يختصرونها بحذف الأسانيد، أو يقومون بشيء من التهذيب والترتيب لكتب السابقين، ونحو ذلك من طرق العناية، حتّى لفظت الرواية الشفاهية عند أغلب المحدثين أنفاسها، وذهب من بين الرواة ريحها، وطفى عليها التدوين الذي بلغ أشده في النصف الثاني من هذا الدور.

(١) النشر في القراءات العشر ٣٤/١، مناهل العرفان ٤٠٩/١ - ٤١٠.

وكان من بين أعلامه مجموعة كبيرة من أبرزهم: الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) الذي بلغت كتبه ألفاً وخمسمائة جزء، والحافظ الدارقطني (٣٨٥هـ) إمام عصره في صناعة الجرح والتعديل وِتساع الرواية والحافظ ابن حبان (٣٥٤هـ) والإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني (٣٦٠هـ) صاحب المعاجم الثلاثة في الحديث - الكبير والأوسط والصغير -، وأبو جعفر الطحاوي (٣٢١هـ) صاحب معاني الآثار، وهو كتاب في الأحكام جعله أبواباً، وذكر في كل باب ما فيه من الناسخ والمنسوخ، وتأويل العلماء، وإقامة الحجّة على الصحيح، وإمام المحدثين الحافظ البيهقي (٤٥٨هـ) صاحب السنن الكبرى.

وتواصلت جهودهم في توسيع ما كان قد ابتكره أسلافهم - من أعلام الدور السابق - في خدمة علوم السنة فصنّفوا في الجرح والتعديل، وفي بيان أحوال الرواة، وفي غريب الحديث، وفي علل الحديث، وفي مختلف الحديث، وفي ناسخ الحديث ومنسوخه، وغيرها من العلوم التي كانت قد نشأت حول دراسة الحديث النبوي الشريف^(١).

وكان للشيعة الإمامية الاثني عشرية كتب حديث كثيرة يعتمدون عليها في رواية الأحاديث، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، من أهمّها: كتاب الكافي لأبي جعفر الكليني (٣٢٨هـ) الذي يعتبر عند أهل الشيعة بمقام صحيح البخاري عند أهل السنة^(٢).

- ٣ - الاجتهاد:

هذا الدور الذي ظهر نشيطاً من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري، اعتمد على دراسة المسائل التي جمعت في

(١) الحديث والمحدثون ص ٣٤٧ و٣٦٧ و٤٢٣ - ٤٢٨ و٤٥٧ - ٤٥٨ و٤٦٢ و٤٦٦.

أصول الحديث ص ٢٧٨ و٢٨٦ و٢٨٩ و٢٩٦.

(٢) التفسير والمفسرون ٣٩/٢.

المصادر الأولى للدور السابق، على معنى تفكيك الصور وبيان الأركان والشروط التي تتميز بها صورة عن أخرى، أو يتميز بها باب عن باب آخر، ويضبط مواقع الاتفاق والاختلاف بين تلك الأقوال العديدة المأثورة على الأئمة مما قد يتبادر أنه مختلف مع كونه لا اختلاف فيه أو مما قد يظن أنه متفق مع أنه في حقيقته يؤول إلى الاختلاف، ثم على النظر في الصور الحادثة التي حدثت فيما بعد انقراض هؤلاء الأئمة، وإدراجها تحت المسائل التي قرروها وتطبيقها على تلك الأحداث بصورة أصبح العمل الاجتهادي بها كما يعبر عنه عند الفقهاء اجتهادا في المسائل، أي اجتهادا في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها.

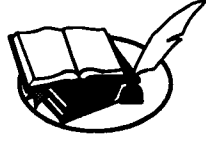
وظهرت في هذا الدور كتب التهذيب التي هذبت بها كتب الدور السابق، والمختصرات التي لخصت فيها، والشروح التي شرحت بها، ودقق النظر في المسائل لأجل بيان ما بينها من الاتفاق والاختلاف، ثم صور النوازل والفتاوي التي تشتمل على بيان الوقائع الحادثة، وعلى بيان ما يرى الفقهاء المتأخرون من رجال دور التطبيق من انطباق أو عدم انطباق لقول من الأقوال المأثورة من المصادر القديمة من مرحلة التفريع على تلك الجزئية الحادثة^(١).

وهكذا عرف هذا العصر تحوُّلاً واضحاً ومنعرجاً حاسماً في مسيرة تاريخ التشريع تحوُّل الفقه فيها من طور الاجتهاد واستنباط الأحكام مباشرة من كتاب الله وستة نبيه ﷺ، إلى طور التطبيق القائم على التهذيب والاختصار أو الشرح والتحليل مع التحقيق في المضامين والتعليل وتفصيل الدلائل وتتبع الاختلاف بين الأقوال وتحرير أوجه الخلاف والترجيح بينها.

إلا أن هذه المسحة الغالبة على النشاط الفقهي في هذا الدور لم تمنع من ظهور مجتهدين كَوَّنوا لأنفسهم مذاهب اجتهادية ساروا عليها، وإن كان لم يكتب لها الاستمرار بعد ذلك طويلاً.

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات مغاربية ص ٧٨.

لذلك ارتأينا أن نقسم هذا الدور إلى مرحلتين: مرحلة أولى هي عبارة عن نبضات أخيرة لعصر الابتكار والاجتهاد، ومرحلة ثانية: جنح فيها الفقهاء إلى التقليد، وأعلنوا فيها غلق باب الاجتهاد.



المرحلة الأولى: النبضات الأخيرة لعصور الاجتهاد المطلق

رغم التفكك السياسي الذي عرفته البلاد الإسلامية وتعدّد العواصم السياسية، فإنّ ذلك لم يمنع المجتمع الإسلامي من التواصل عبر الرحلات والمراسلات التي كانت تمثل أهمّ مظاهر الحركة العلميّة في هذه المرحلة، الأمر الذي جعل من البلاد الإسلاميّة من مشرقها إلى مغربها وطناً واحداً في نظر العلماء رغم تعدّد حكوماتها وملوكها.

ذلك أنّ العالم كلّه في نظر الفقهاء إمّا دار حرب أو دار إسلام، ودار الإسلام وطن واحد، لذلك لم يعبأ العلماء يوماً بالحدود التي رسمتها السياسة.

فلم يكن نشاط العلماء ليحدّ بحدود ويقدر بمسافات، لذلك وثق الاتصال بين سائر المراكز الفقهيّة، وما كان يظهر امتياز في مركز إلاّ استمدته المراكز الأخرى وحذقتة واستغلّته^(١).

فكان ذلك سبباً مباشراً في نموّ وازدهار الحركة العلميّة مهّدت إلى نوع آخر غير مباشر هو المراسلات التي كانت من الوسائل المنتشرة لمدّ الجسور والتبادل العلمي بين المراكز الفقهيّة.

في هذا الجوّ العلمي كُنّا نشهد من حين لآخر ظهور مجتهدين برعوا

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٣١٥/١ و٢٨/٣ بتصرف.

في كلِّ علم وفنّ وتكوّنوا تكويناً مستقلاً مبنياً على الاجتهاد المطلق والرجوع المباشر إلى القرآن والسنة، وكان من أشهرهم:

١ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ).

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب^(١) تلقى فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر، وعن الزعفراني ببغداد، وأخذ فقه مالك عن بني عبدالحكم محمد وعبدالرحمن، ويونس بن عبدالأعلى، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالريّ، وأدرك الأسانيد العالية بمصر والشام والعراق والكوفة والبصرة والريّ.

كان من أكابر أئمة العلماء، ومن كبار الصالحين، يحكم بقوله ويرجع إلى معرفته وفضله.

كان ذا زهد وقناعة وعبادة وقيام في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلّها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وتفسيره الكبير المسمّى بجامع البيان في تفسير القرآن - وقد أشرنا إليه سابقاً - خير شاهد على ذلك.

وكان عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وبأحوال الأمم وأوضاعها، وموسوعته التاريخية المشهورة في تاريخ الأمم والملوك خير شاهد على ذلك.

وكان أحد المحدّثين الكبار، وكتابه تهذيب الآثار - لم يتمّه - الذي

(١) الفهرست ص ٢٩١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣ البداية والنهاية ١١/١٤٥ - ١٤٧ شذرات الذهب ٢/٤٥٠ الديباج المذهب ص ٤٨ الفكر السامي ٣/٤٥ - ٤٧ كشف الظنون ١/٩٠ طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠ - ١٢٨ وفيات الأعيان ٤/١٩١ - ١٩٢ تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠ معجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/٢٤٤١ - ٢٤٦٩ طبقات المفسرين للداوودي ص ٣٧٤ - ٣٧٩.

تكلم فيه على كلّ حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة، خير شاهد على ذلك، إذ بانّت به براعته وحذقه وتفوّقه، حتّى أنّ الخليفة المقتدر حين أراد أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متفقاً عليها بين العلماء، قيل له: لا يقدر على استحضار ذلك إلاّ محمد بن جرير الطبري، فطلب منه ذلك، فكتب له.

وله كتاب اختلاف الفقهاء، قصد به إلى ذكر أقوال العلماء: مالك بروائتين، والشافعي ما حدّث به الربيع عنه، وأبو حنيفة والصاحبان وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، وأبو ثور إبراهيم بن خالد والأوزاعي، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى حدود المائة الثانية، ولكته لم يذكر أحمد بن حنبل، ولما سئل عن أسباب ذلك قال: لم يكن فقيهاً، إنّما كان محدثاً.

وله كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام وهو عبارة عن مجموع مذهبه الذي يعوّل عليه جميع أصحابه، ويعتبر هذا الكتاب من أنفس كتب الفقهاء، وأفضل أمّهات كتب المذاهب، وأسدها تصنيفاً.

وكان الإمام الطبري يفتخر بهذين الكتابين ويقول: لي كتابان لا يستغني عنهما فقيه الاختلاف واللطيف.

اختصر اللطيف في كتاب سمّاه الخفيف، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيارات من أقوال الفقهاء تدلّ على غزارة علمه وسعة فهمه، غير أنّ معظم كتبه قد فقدت وبقي منها القليل وهي تفسيره، وتاريخه، وتهذيب الآثار وتبصير أولي النهى معالم الهدى، واختلاف الفقهاء، إلاّ أنّ الكتابين الأخيرين قد ضاع أغلبهما ووجد منهما النزر القليل.

تفرّد بمسائل حفظت عنه، ثمّ انتحى لنفسه مذهباً بعد أن جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، حتّى قال العلماء من بعده: لم ير بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكّنه من العلوم، منه.

وقد كان له أتباع، غير أنّ انتشار مذهبه كان محدوداً بحدود بغداد،

واختفى مذهبه مع نهاية هذا الدور وفي ذلك يقول ابن فرحون: وانقطع أتباع الطبري بعد أربعمائة.

استوطن بغداد وأقام بها، وحين توفي اجتمع الناس من سائر أنحاء بغداد وصلّوا عليه بداره ودفن بها، ومن أشهر أصحابه المتفقهين على مذهبه^(١):

* علي بن عبدالعزيز الدولابي صاحب كتاب الردّ على ابن المغنّس - أحد أتباع المذهب الظاهري - .

* وأبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج الكاتب.

* وأبو الحسن أحمد بن يحيى بن علي بن أبي منصور صاحب كتاب المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه.

وأبو الحسن الدقيقي الحلواني الطبري وأبو الحسين بن يونس وأبو إسحاق إبراهيم بن حبيب من أهل البصرة.

ومن المتفقهين على مذهبه أيضاً:

* القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء النهرواني (٣٩٠هـ) المعروف بابن طرارا الجريري، نسبة إلى مذهب ابن جرير الطبري، وهو معدود في أشهر أتباعه، وكان في سنّ أبي جعفر.

سمع فأوعى وجمع فأكثر وبرع في عدّة علوم، فكان عالماً في القرآن والحديث والفقه، ومنتقناً للشعر والنحو، وأصناف الآداب، وكان أبو الفرج علامة زمانه وأوحد عصره في مذهب أبي جعفر وحفظ كتبه وكان في نهاية الذكاء وحسن الحفظ وسرعة الخاطر في الجوابات، حتّى قيل: إذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلّها، ولو أوصى رجل بشيء أن يدفع إلى أعلم الناس، لوجب أن يدفع إليه.

صنّف أكثر من خمسين كتاباً، منها التفسير الكبير وكتاب الجليس

(١) الفهرست ص ٢٩٢.

الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي والحدود والعقود في أصول الفقه والمرشد في الفقه^(١).

* أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادي (٢٦٠هـ - ٣٥٠هـ) كان تلميذا للطبري، ولي قضاء الكوفة، كان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن، له مصنفات في أغلب العلوم، ناهز التسعين من عمره، وبعد أن كان جريري المذهب خرج عن مذهب شيخه، وأصبح يختار لنفسه، ولا يقلد أحداً^(٢).

٢ - أبو حاتم محمد بن حبان السمرقندي (٣٥٤هـ).

هو القاضي أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي التميمي السمرقندي^(٣) أحد الحفاظ الكبار المصنفين المجتهدين، رحل إلى البلدان وسمع الكثير من المشائخ وكتب عن أكثر من ألفي شيخ، رحل إلى الآفاق وغاب دهرأ عن وطنه واشتغل بخراسان والشام والعراق ومصر والجزيرة، ثم رجع إلى وطنه «بست» وانتصب بها لسماع مصنفاته إلى أن توفي.

كان من أوعية العلم في الحديث والفقه واللغة والوعظ وعلم الكلام والنجوم، ولي قضاء سمرقند مدة وتفقه به الناس، ثم ولي قضاء غيرها من البلاد.

اشتهر بالمسند الصحيح المسمى بسنن ابن حبان، وقد قال فيه: لعلنا

(١) الفهرست ص ٢٩٢ - ٢٩٣، تاريخ التراث العربي ٢٥٥/٣ - ٢٥٧، شذرات الذهب ٢٦٥/٣ - ٢٦٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، البداية والنهاية ٣٢٨/١١، تذكرة الحفاظ ١٠١٠/٣ - ١٠١٢، هدية العارفين ٤٦٤/٢ - ٤٦٥، معجم الأدباء ٢٧٠٢/٦ - ٢٧٠٣، طبقات المفسرين ص ٥١٦ - ٥١٧.

(٢) غاية النهاية ٩٨/١، معجم الأدباء ٤٢٠/١ - ٤٢١، تاريخ التراث العربي ٢٥٧/٣ - ٢٥٨.

(٣) شذرات الذهب ١١٣/٣ - ١١٤، البداية والنهاية ٢٥٩/١١، تذكرة الحفاظ ٩٢٠/٣ - ٩٢٤، طبقات الشافعية الكبرى ١٣١/٣ - ١٣٥، هدية العارفين ٤٤/٢ - ٤٥.

كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش - طشقند - والإسكندرية، وكتابه هذا على طريقة جديدة في الترتيب، فلا هو على ترتيب الأبواب الفقهية، ولا هو على المسانيد، وإنما رتبته على خمسة أقسام، وهي: الأوامر والنواهي والأخبار والإباحات وأفعال النبي ﷺ.

٣ - محمد بن إسحاق بن خزيمة: (٢٢٢هـ - ٣١١هـ).

هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري^(١) الملقب بإمام الأئمة، كان إمام أهل زمانه بخراسان، وبحرا من بحور العلم.

رحلت إليه الطلبة من الآفاق، وقصده الناس من كل ناحية، وكان قبلة العلم والعلماء، حتى قال الدارقطني في شأنه: كان إماماً معدوم النظر.

طاف البلاد ورحل إلى الآفاق في الحديث وطلب العلم، فدخل الشام والحجاز والعراق ومصر، وتفقه على المزني وغيره، جمع بين الفقه والحديث، وكان يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارئ السورة.

كتب الكثير وصنّف وجمع، ومصنّفاته تزيد على مائة وأربعين كتاباً سوى المسائل، وكتابه الصحيح من أنفع كتب الحديث وأجلّها، يتلو صحيح مسلم حسب ما ذكره السيوطي في ألفيته، غير أنّ أغلبه قد ضاع.

وكان المزني يقول: إذا جاء الحديث فابن خزيمة يناظر لأنه أعلم بالحديث مني، وأنا أتكلّم.

وقال شيخه الربيع: استفدنا من ابن خزيمة أكثر ممّا استفادنا.

وروي عن ابن خزيمة أنّه كان يقول: ليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول إذا صحّ الخبر عنه وهو معدود من المجتهدين في الإسلام، وقد حكى

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٥ - ١٠٦، شذرات الذهب ٤٥٣/٢ - ٤٥٤، البداية والنهاية ١٤٩/١١، معرفة علوم الحديث ص ٨٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٣ - ١١٩، غاية النهاية ٩٧/٢ - ٩٨.

الشيرازي في طبقاته عن ابن خزيمة أنه قال: ما قلّدت أحداً في مسألة منذ بلغت ست عشرة سنة.

وكان أبو محمد دعلج بن أحمد بن دعلج (٢٦٠هـ - ٣٥١هـ) السجستاني ثم البغدادي، وهو أحد أوعية العلم وبحور الرواية، يفتي بمذهب ابن خزيمة^(١).

٤ - محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (٣٠٩هـ).

هو الحافظ الأوحد العلامة شيخ الحرم ومفتيه أبو بكر ابن المنذر المجتهد الأصولي^(٢) أحد علماء الخلاف والفقه المقارن، وأحد الذين يقتدى بهم في الحلال والحرام، كان مجتهداً لا يقلّد أحداً.

ذكره السبكي في من بلغ درجة الاجتهاد المطلق، ولكنه لم يخرج عن كونه من أصحاب الشافعي المخرجين على أصوله المتمذهيين بمذهبه، حيث قال: المحمّدون أربعة: محمد بن نصر، ومحمد بن جرير الطبري، وابن خزيمة، وابن المنذر، من أصحابنا، وقد بلغوا درجة الاجتهاد المطلق ولم يخرجهم ذلك عن كونهم من أصحاب الشافعي المخرجين على أصوله المتمذهيين بمذهبه، لوفاق اجتهادهم اجتهاده.

ثم قال: فإن هؤلاء الأربعة وإن خرجوا عن رأي الإمام الأعظم - أي الشافعي - في كثير من المسائل فإنهم لم يخرجوا في الأغلب، فاعرف ذلك واعلم أنهم في أحزاب الشافعية معدودون، وعلى أصوله في الأغلب مخرجون، وبطريقته متهدّبون، وبمذهبه متمذهبون^(٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٩١/٣ - ٢٩٣، تذكرة الحفاظ ٨٨١/٣ - ٨٨٢، وفيات الأعيان ٢٧١/٢ - ٢٧٢، شذرات الذهب ١٠٢/٣.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٨، شذرات الذهب ٤٧٨/٢، كشف الظنون ١٣٨/١، تاريخ التراث العربي ٢٠٠/٣ - ٢٠٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٣ - ١٠٨، تذكرة الحفاظ ٧٨٢/٣ - ٧٨٣، وفيات الأعيان ٢٠٧/٤، طبقات المفسرين ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٣ - ١٠٣.

غير أنّ الإمام الذهبي وغيره ذكروا أنّه كان مجتهداً لا يقلّد أحداً، ذلك أنّ نسبة هؤلاء لتقليد المذهب الشافعي غير ثابتة ثبوتاً قطعياً، إذ أنّهم قد بلغوا درجة الاجتهاد، وتقليدهم للإمام الشافعي في بعض المسائل إنّما كان من باب الاتفاق في الاجتهاد، والموافقة في الاستنباط ولم يكن من باب التقليد والاتباع في الأحكام.

هذا، وقد صنّف ابن المنذر في اختلاف العلماء كتباً لم يصنّف أحد مثلها، واحتاج إلى كتبه الموافق والمخالف، ومن بين تأليفه: الإشراف على مذاهب الأشراف، وكتاب الإجماع، وكتاب الأوساط من السنن والإجماع والاختلاف وغيرها، توفي بمكة، وفي تاريخ وفاته خلاف كثير.

- ٥ - بقي بن مخلد: (٢٠١هـ - ٢٧٦هـ).

هو أبو عبدالرحمن الأندلسي^(١) أحد الحفاظ المحدثين، وأحد الأئمة الأعلام، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى الليثي، ورحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة، منهم الإمام أحمد وابن أبي شيبة وجماعة أعلام يزيدون على المائتين بأربعة وثمانين شيخاً، سائرهم أعلام مشاهير.

كان ذا خاصّة من أحمد بن حنبل، وجارياً في مضمار أبي عبدالله البخاري، وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبي عبدالرحمن النسائي.

بالغ في الجمع والرواية، ورجع إلى الأندلس فملاها علماً جمّاً، وألّف كتباً حسناً تدلّ على استكثاره.

صنّف كتاباً في تفسير القرآن، قال عنه ابن حزم: أقطع قطعاً لا

(١) البداية والنهاية ٥٦/١١، شذرات الذهب ٣٣٣/٢، جذوة المقتبس ص ١٦٧ - ١٦٩ معجم البلدان ٧٤٦/٢ - ٧٤٩، علماء الأندلس مج ٣، ج ١/١٦٩ - ١٧٢، الصلة لابن بشكوال مج ١١، ج ١/١٩٥ - ١٩٨، معجم الأدباء ٧٤٦/٢ - ٧٤٩، تذكرة الحفاظ ٦٢٩/٢، نفع الطيب ٤٧/٢.

أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.

وله في الحديث المسند الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضي الله عنهم، فروى فيه عن أكثر من ألف وثلاث مائة صاحب، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند، وقد فضله ابن حزم على مسند الإمام أحمد بن حنبل، غير أن ابن كثير: اعتبر أن مسند أحمد أجود منه وأجمع.

وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم، انتظم علماء عظيماً لم ينتظم في غيره من الكتب.

كان بقي بن مخلد متخيراً لا يقلد أحداً، وإنما كان يعود إلى القرآن والسنة مباشرة ليستنبط منهما فقهه وآراءه، فأنكر عليه معاصروه من علماء أهل الأندلس ذلك، وكان أكبر خصومه أصبغ بن خليل ومحمد بن الحارث وابن مرتينيل شيخ المالكية في عصره، وفي تاريخ وفاته خلاف، والراجح أنه توفي سنة ٢٧٦هـ.

٦ - سعيد بن محمد الغساني: (٢١٩هـ - ٣٠٢هـ).

هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني المعروف بابن الحداد^(١) نشأ نشأة إفريقية صرفة لم يرحل إلى المشرق، ولم يتخرج على غير شيوخ إفريقية بالقيروان وتونس وطرابلس.

صحب في أول أمره الإمام سحنون وسمع منه واختص به، ثم صار إلى مذهب الشافعي فدرسه ومال إليه من غير تقليد له، بل كان كثيراً ما يخالفه، ولا يعتقد مسألة إلا بنظر وحجة، إذ كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد، لا يتحلى بتقليد أحد من العلماء، ويقول: إنما أدخل كثيراً من

(١) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٠١ - ٢٠٤ و ٢٥٨ - ٢٧٥، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٢ - ٤٣، رياض النفوس ٥٧/٢ - ١١٥، البيان المغرب ١/١٧٢، شذرات الذهب ٤١٩/٢، معالم الإيمان ٢/٢٩٥ - ٣١٥.

الناس إلى التقليد نقص العقول ودناءة الهمم، وكان يقول: كيف يسع مثلي ممن آتاه الله فهما أن يقلد أحداً من العلماء بلا حجة ظاهرة؟.

كان آنس الفقهاء مجلساً، وأغزهم خبراً، وكان قليل الاشتغال بجمع الكتب وبالرواية، وكان يقول: إنما هو النظر والخبر، فلو دخلت المشرق ما كانت لي فيه حاجة غير الخبر.

وكان غزير التأليف في مختلف العلوم الشرعية، له كتب مؤلفة في فنّ الكلام والجدل، وله كتب في الفقه والمسائل، وله كتب في النظر، درس كلّ المذاهب ونقدها في كتاب سماه المقالات ردّ فيه على المذاهب كلّها وانتقد مدونة سحنون فكان يسميها المدوذة، فهجره المالكية ثمّ أحبّوه لما قام على أبي عبدالله الشيعي وناظره ونصر السنة.

وله كتاب ردّ به على الشافعي، بعث به إلى أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، جاء في أوله: أمّا بعد فإنه لما بعدت داري عن أندية العلماء، ولم أجد بالمحلّ الذي أنا به مفيدا أستمدّ منه معونة، ولا إنسيّاً يشاركني في فكرة، وأعرض عليه ما يفرق لي من تدبير مسألة، وكثر أشياع الباطل، وقامت دولة الجهل، حاولت النهوض لأداء ما افترض الله عليّ من حجّ بيته الحرام، وأن أضرب إلى كلّ أفق فيه عليم بالحقّ أناصحه وأسترشده، فحالت العوائق دون مرامي، وحبستني دون سؤلي. «... وإني تعقبت ديوان محمد بن إدريس الشافعي، فأطلعت على ما ذكرته...» فلما ورد الكتاب على المزني قرأه وسكت، وجعل فتى من البغداديين يحركه في جوابه، والمزني يعرض عنه، فلما أكثر عليه، رمى إليه الكتاب، وقال: أمّا أنا فقد قرأت وسكت، فمن كان عنده علم فليتكلم.

كان شديد الاعتداد بنفسه، فقد ألقى عليه يوماً مسألة معضلة معقدة من كتاب أشهب بن عبدالعزيز، فبدأ بتنزيلها وبالنظر فيها، فلم يزل يلخصها شيئاً فشيئاً حتى بلغ فيها إلى ما بلغ أشهب، فقيل له: أصبت أبا عثمان، هكذا قال أشهب في كتابه، فقال ابن الحداد: لعلّ أشهب ما

وضعها حتى تدبرها أياما، ونظر فيها حيناً، وقد أتينا نحن بجوابها بنظر ساعة واحدة.

وكان يقول: ما من شيء أحب إليّ من دفع الضلال بالحق، ولو أنّ ضلالة ألقاها إبليس اللعين بالصين ثم وردت عليّ لكشفت عن باطلها وأظهرت حقّ الله سبحانه وتعالى فيها.

وكان يقول: ليس الفقه حمل الفقه، وإنّما الفقه معرفة الفقه والفتنة فيه والفهم بمعانيه.

كانت له مجالس كثيرة مع أتباع أبي حنيفة من أهل القيروان، وكان كثير الردّ على أبي حنيفة، وكان يقول: تذكرت بقلبي مسائل لأبي حنيفة ركب فيها المحال اضطراباً نحواً من أربعمئة مسألة.

وكانت له كذلك مجالس مع الذين ينتحلون مذهب المعتزلة، ذكر منها المالكي مجلساً واحداً يستبين للناظر فيه موضع ابن الحدّاد من العلم وقيامه بالحجّة لأهل الحقّ.

ناظر الشيعة عند دخولهم إفريقيّة، وردّ عليهم في ابتداء حكمهم وعنفوان أمرهم، وكانت له مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذّب عن السنّة، ناظر فيها أبا العباس، أخا أبي عبيدالله الشيعي، بملء فمه ومنى نفسه، ناظره مناظرة القرين المساوي، لا بل مناظرة المعتزّ المتعالي لم يتلثم لفظاعة المقام، ولا أحجم لهيبة السلطان، ولا خاف ما خيف عليه من سطوة الحدثان، ولقد قال له ابنه محمد يوماً: اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل، فقال: حسبي من له غضبت، وعن دينه ذببت.

وقد حفظ لنا ابن حارث الخشني من ذلك أربعة مجالس، مع أبي العباس الشيعي، كما حفظ لنا المالكي من بعده مجالس أيضاً لأبي عثمان مع أبي عبدالله الشيعي، وقد اجتمع لأبي عثمان جهارة الصوت وفخامة

المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعاني، ما جعل لسانه سيف الله وصدوره خزانة الله كما شهد له بذلك قرناؤه.

فهؤلاء ستة من المجتهدين في الإسلام، من الذين بلغوا درجة الاجتهاد، ومن الذين عرفوا بالاستقلال في الرأي واستنباط الأحكام من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مباشرة، ومن الذين كان مذهبهم النظر والقياس والاجتهاد، فلم يتحلوا بتقليد أحد من المجتهدين، وكان اتفاقهم مع بعض الأئمة في بعض المسائل من باب الاتفاق في الاجتهاد، ولم يكن من باب الاتباع والتقليد، ووجد في هذه المرحلة غيرهم، مثل^(١):

* أبو القاسم عبدالعزيز بن عبدالله الداركي الذي كان يتخير ولا يلتزم مذهباً بعينه، وقد انتهى التدريس إليه في بغداد، وكان يستفتى في المسألة فيتفكر طويلاً ثم يفتي فيها، وربما كانت فتواه خلاف مذهب الشافعي وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول: الأخذ عن رسول الله أولى من الأخذ بقول الشافعي وأبي حنيفة إذا خالفاه.

* أحمد بن ميسر بن محمد بن إسماعيل القرطبي ت ٣٢٨هـ الذي كان يميل إلى النظر والحجة، وكان إذا استفتي ربما يقول: أما مذهب بلدنا فكذا، وأما الذي أراه فكذا.

وهؤلاء قد كان ظهورهم وانتصابهم للتعليم وتصديهم للاجتهاد من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع، ولذلك اعتبرنا هذه الفترة عبارة عن نبضات أخيرة لحركة الاجتهاد.

وقد تزامن بروز هؤلاء المجتهدين مع ظهور نخبة من الأعلام من أتباع أصحاب المذاهب المشهورة، تصدروا مراكز الفقه، وكانوا من أبرز القائمين عليها لنصرة مذاهبهم، وفيما يلي لمحة عن هذه المراكز وأشهر القائمين عليها في هذه المرحلة:

(١) الفكر السامي ١٠/٣.

مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام

١ - مصر:

انتشر بهذا المركز ثلاثة مذاهب في هذه المرحلة:

* المذهب المالكي الذي غلب في الدور السابق على هذا الإقليم وانتشر فيه عن طريق تلاميذ مالك الأهم قيمة والأكثر عدداً، وتواصل نموه في هذا الدور تبعاً لسنة التطور.

* والمذهب الحنفي الذي لم يكن له مدخل في هذه البلاد أول الأمر، وتأخر ظهوره إلى أن نزلها قضاة بغداد الأحناف تبعاً للأمر الذي كان قد جرى به العمل أيام أبي يوسف الذي لم يكن يعين في الغالب إلا من كان على مذهب أبي حنيفة.

* والمذهب الشافعي الذي كان أول ظهوره بمصر، حيث انتشر أتباعه وظهر مذهبه ظهور مذهبي مالك وأبي حنيفة قبله، وكثر أصحابه بها مع المالكية^(١) حتى أصبح هذا الإقليم يعدّ مركز ملك الشافعية، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم، ومنذ انتشر مذهب الشافعي لم يتولّ أحد على قضاء الديار المصرية إلا علي مذهب الشافعي، إلا ما كان من القاضي الحنفي بكار بن قتيبة الذي ولي قضاء مصر سنة ٢٤٦هـ وبقي قاضياً حتى

(١) ترتيب المدارك ٨٠/١، الدياج المذهب ص ٤٨.

سنة ٢٧٠هـ تاريخ وفاته، وأما قبل ظهور مذهب الشافعي بالديار المصرية فلم يكن يلي القضاء والخطابة إلا من هو على مذهب مالك^(١).

ويذكر أنه في هذه المرحلة كان للمالكية في المسجد الجامع خمس عشر حلقة، وللشافعية مثلها، وللأحناف ثلاث حلقات فقط.

* أما المذهب الحنبلي فقد ظلّ غائباً عن مصر طيلة هذا الدور، ويعلّل السيوطي هذا الغياب في كتابه حسن المحاضرة - فصل ذكر من كان بمصر من أئمة الفقهاء الحنابلة - بقوله: هم بالديار المصرية قليل جداً ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده، وذلك لأنّ الإمام أحمد رضي الله عنه كان في القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع^(٢).

* وأما مذهب الليث بن سعد - إمام أهل عصره في مصر -، فقد انقطع مذهبه منذ أواخر القرن الثاني لقلّة الأتباع وعدم تدوين آرائه - كما بيّنا سابقاً -.

ومن أشهر القائمين على هذا المركز من أتباع المذاهب الثلاثة المنتشرة نذكر من أئمة الحنفية:

* أبو جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي : (٢٨٠هـ) شيخ الطحاوي وأستاذه، ومن أكابر الحنفية، تفقّه على محمد بن سماعة وبشر بن الوليد وغيرهما.

قدم مصر فحدّث بها وروى الكثير من حفظه لأنّه عمي بها، وتولّى قضاء ديارها، وكان شيخ أصحاب أبي حنيفة بمصر في وقته^(٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١/٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) حسن المحاضرة ١/٢٢٢.

(٣) الفوائد البهية ١٤، الجواهر المضية ١/٣٣٧، تاج التراجم ٥٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٠، حسن المحاضرة ١/٢١٣، شذرات الذهب ٢/٣٤٣، البداية والنهاية ١١/٦٩.

* أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٢٣٩هـ - ٣٢١هـ) الأزدي الحجري المصري^(١) برع في الفقه والحديث وفاق أهل عصره حتى انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر.

تعلم بادية الأمر مذهب الشافعي على خاله إسماعيل المزني - صاحب الشافعي - فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى أبي جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى الفقيه الحنفي، ولما بلغ من العمر ٢٩ سنة رحل إلى دمشق، وهناك لقي شيخ القضاة أبا حازم عبدالحميد بن عبدالعزيز، وأخذ عنه، ثم عاد إلى مصر.

صنّف الكتب المعتمدة في المذهب الحنفي من أهمّها المختصر الفقهي الذي رتبّه كترتيب مختصر المزني، وقال في مقدمته: «جمعت في كتابي هذا أصناف الفقه التي لا يسع الإنسان جهلها، وبيّنت الجوابات عنها من قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد» وقد اعتنى الأحناف بشرحه، وحين أكمل تصنيفه قال: رحم الله أبا إبراهيم - يعني خاله إسماعيل المزني - لو كان حيّاً لكفر عن يمينه.

وصنّف كذلك معاني الآثار، وقد ذكر فيه أنّه سأله بعض أصحابه تأليفه في الآثار الماثورة عن رسول الله ﷺ في الأحكام التي يتوهم أهل الإلحاد والضعفة أنّ بعضها ينقض بعضاً لقلّة علمهم بناسخها ومنسوخها، وجعل أبواباً، فذكر في كلّ منها ما فيه من الناسخ والمنسوخ وتأويل

(١) الفوائد البهية ٣١، الجواهر المضية ٢٧١/١، تاج التراجم ٢١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢، تاريخ التراث العربي ٩١/٣ - ٩٦، الفهرست ص ٢٦٠ شذرات الذهب ٤٨٩/٢ - ٤٩٠، البداية والنهاية ١٧٤/١١، كشف الظنون ٧٦/١ و ٨٠ و ٩٠ و ٥١٧/٢ و ٥٩١، وفيات الأعيان ٧١/١ - ٧٢، تذكرة الحفاظ ٨٠٨/٣ - ٨١١، طبقات المفسرين ص ٥٥ - ٥٧.

العلماء وإقامة الحجّة على الصحيح، وقد اهتم العلماء بشرحه واختصاره.

وله كتاب اختلاف العلماء، ويقال له اختلاف الروايات وهو في أكثر من مائة وثلاثين جزءاً.

وله كتاب الشروط وكتاب أحكام القرآن.

وكان من أشهر فقهاء المالكية بهذا المركز:

* أبو الزنباع روح بن الفرغ بن عبدالرحمن الزبيري: (٢٠٤هـ - ٢٨٢هـ) وكان عالماً فقيهاً بمذهب مالك، وكان أوثق الناس في زمانه، وقرّنه الله بالعلم ورفعته^(١).

* القاضي أبو بكر أحمد بن الحارث بن مسكين: (٢٣٩هـ - ٣١١هـ) الذي جلس مجلس أبيه بعده بجامع الفسطاط المعروف بجامع عمرو بن العاص، وأخذ الناس عنه^(٢).

* أحمد بن محمد بن خالد بن ميسر الإسكندراني: (٣٣٩هـ) الذي انتهت إليه الرئاسة في الفقه المالكي بمصر بعد ابن الموزان^(٣).

* أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان: (٣٥٥هـ) المعروف بابن القرطي^(٤) كان شيخ الفتوى وحافظ البلد ورأس الفقهاء المالكيين بمصر في وقته، وأحفظهم لمذهب مالك، مع التفنّن في سائر العلوم من الخبر والتاريخ والأدب إلى التديّن والورع، وكان واسع الرواية كثير الحديث مليح التأليف، وإليه انتهت رئاسة المالكيين بمصر.

وأما كتبه ففيها غرائب من قول مالك وأقوال شاذة عن قوم لم يشتهروا بصحبته، ليست ممّا رواه ثقات أصحابه واستقرّ من مذهبه.

(١) ترتيب المدارك ٣/١٩١، حسن المحاضرة ١/٢٠٦، الديباج المذهب ص ١٩١.

(٢) الديباج المذهب ص ٨٩ حسن المحاضرة ١/٢٠٦.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤، حسن المحاضرة ١/٢٠٦ - ٢٠٧.

(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٥، ترتيب المدارك ٣/٢٩٣ - ٢٩٤.

صنّف كتابه الزاهي المشهور في الفقه والمعروف بالشعباني نسبة إليه، وله كتاب في أحكام القرآن، وكتاب مختصر ما ليس في المختصر، وكتاب مناقب مالك، وكتاب شيوخ مالك، وكتاب الرواة عن مالك، وغيرها. توفي سنة ٣٥٥هـ وقيل سنة ٣٥٦هـ وقد جاوز سنّه الثمانين وصلّى عليه خلق عظيم.

وغير هؤلاء كثير، وقد عدّ القاضي عياض في مداركه ممّن اشتهر بمصر من أعلام المالكيّة أكثر من عشرين فقيهاً من أقران روح بن الفرّج، وذكر ثلاثة عشر من مشاهير فقهاء المالكيّة من طبقة ابن شعبان. وعدّ السيوطي في حسن المحاضرة من تلاميذ ابن وهب وابن القاسم وابن عبدالحكم خمسة عشر من كبار فقهاء المالكيّة بمصر في هذه المرحلة.

وأما الشافعيّة فكان من أشهر أعلامهم:

* أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر: (٣٠٦هـ) التميمي المصري^(١) أحد أئمّة الشافعيّة، كان فقيهاً متصرفاً في علوم كثيرة، ولم يكن في زمانه في مصر مثله، أخذ الفقه عن أصحاب الشافعي وأصحاب أصحابه، له مصنفات عديدة في المذهب أهمّها كتاب الهداية في الفروع، والمسافر أو زاد المسافر.

* القاضي أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب بن عيسى: (٣١٩هـ) المعروف بابن حربويه^(٢) تفقّه على مذهب أبي ثور ثمّ انتقل إلى المذهب

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ص ١٠٧ - ١٠٨، كشف الظنون ٥٤٢/٢ و ٨١٦، حسن المحاضرة ١٨٢/١، البداية والنهاية ١٣٠/١١، شذرات الذهب ٤٣٥/٢ - ٤٣٦، طبقات الشافعيّة الكبرى ٤٧٨/٣ - ٤٨٣، وفيات الأعيان ٢٨٩/٥ - ٢٩٢، معجم الأدباء ٢٧٢٣/٦ - ٢٧٢٦.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٠، حسن المحاضرة ١٨٢/١، شذرات الذهب ٤٨١/١ - ٤٨٢، البداية والنهاية ١٦٧/١١، طبقات الشافعيّة الكبرى ٤٤٦/٣ - ٤٥٥، تهذيب التهذيب ٣٠٣/٧ - ٣٠٤.

الشافعي، تقلد قضاء مصر مدة طويلة جداً، وكان ثقة عالماً من خيار القضاة وأعدلهم، وهو من أصحاب الوجوه فكان يختار في أحكامه، وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، فلم ينكر عليه أحد لأنه كان لا يطعن عليه في علم ولا تلحقه تهمة في رشد.

وكان ابن حربويه آخر من ركب إليه الأمراء، وكان لا يقوم للأمير إذا أتاه.

* أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي: (٣٤٠هـ) الذي انتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي ببغداد^(١) شيخ الشافعية وصاحب ابن سريج، أخذ عنه الأئمة، وانتشر الفقه عن أصحابه حيث تخرّج من مجلسه إلى البلاد سبعون إماماً.

انتقل إلى مصر واستقرّ بها، وجلس مجلس الشافعي، فاجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل.

كان إماماً جليلاً غوّاصاً في المعاني، صنّف كتباً في الأصول وفي الفروع، من أهمّها شرح مختصر المزني، توفّي بمصر ودفن عند ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنهما.

* أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد المصري: (٢٦٤هـ - ٣٤٤هـ) شيخ الشافعية^(٢)، ولد يوم وفاة المزني سمع من النسائي وغيره.

كان فقيهاً محققاً وفروعياً مدققاً، إليه غاية التحقيق ونهاية التدقيق، وكان صاحب وجه في المذهب متبحراً في الفقه متفتناً في العلوم معظماً في النفوس، له الإمامة في علوم كثيرة وخصوصاً في الفقه.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، شذرات الذهب ٦٢/٣، الفهرست ص ٢٦٦، وفيات الأعيان ٢٦/١ - ٢٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٤، شذرات الذهب ٧٥/٣ - ٧٦، البداية والنهاية ٢٢٩/١١ - ٢٣٠، كشف الظنون ١٠٠/١ و ٢٢٠، طبقات الشافعية الكبرى ٧٩/٣ - ٩٨، وفيات الأعيان ١٩٧/٤ - ١٩٨، تذكرة الحفاظ ٨٩٩/٣ - ٩٠٠.

ولي قضاء الأقاليم، وتولى بمصر القضاء نيابة عن أبي عبيد بن حربويه، كما تولى التدريس بها، فافتخرت به على سائر الأمصار وكاثرت بعلمه بحرهما بل جميع البحار، وكان الناس يقصدونه في الفتاوى والحوادث، وكان يقال في زمنه: عجائب الدنيا ثلاث: غضب الجلاد، ونظافة السماد، والردّ على ابن الحداد، اعترافاً له بالدقة في الفقه والتحقيق فيه.

كان كثير العبادة، يصوم صوم داود، ويختم في اليوم والليلة، وكان جدّاً كلّه.

صنّف في الفقه كتاب الفروع المولّدات المبتكرة الغربية، وقد اعتنى الأئمة بشرحه، وكتاب الباهر وكتاب جامع الفقه وكتاب أدب القاضي أو أدب القضاء وكتاب الفرائض.

مرض في طريق عودته من الحجّ، وتوفي يوم دخل الحجّاج مصر سنة ٣٤٤هـ وقيل سنة ٣٤٥هـ.

* أبو بكر محمد بن عبدالله الصيرفي: (٣٣٠هـ) صاحب المصنّفات في المذهب، وهو صاحب وجه كان إماماً في الفقه والأصول، وكان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي، تفقّه على أبي العباس ابن سريج له شرح الرسالة وكتاب في الشروط أحسن فيه كلّ الإحسان، توفي بمصر^(١).

- ٢ - الشام:

انتشر بهذا المركز من المذاهب في هذه المرحلة:

* مذهب الأوزاعي الذي ظلّ منتشرًا بالشام طويلاً إلى جانب بعض المذاهب الأخرى، ولم يكن يلي القضاء بها والخطابة والإمامة إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي، وذلك قبل ظهور مذهب الشافعي في

(١) شذرات الذهب ٢٥٣ - ٢٦، الفهرست ٢٦٦، كشف الظنون ١/٦٥٥.

دمشق^(١)، ويذكر ابن تغري بردي أنه توفي لسنة ٣٤٧هـ قاضي دمشق أحمد بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب، ويذكر أنه كان له حلقة بالجامع الأموي^(٢)، وهذا يعني أنّ مذهب الأوزاعي قد ظلّ قائما في هذا المركز وثبت على مذهبه بقايا كثيرون لم يفارقوه إلى نهاية هذه المرحلة من هذا الدور.

* المذهب الشافعي الذي كان له الصيت العالي واليد الغالبة في هذه البلاد، وكان القاضي أبو زرعة محمد ابن عثمان (٣٠٢هـ) أوّل من أدخل مذهب الشافعي إلى الشام وحكم به وأشاعه بها، بعد أن كان أهل الشام على مذهب الأوزاعي^(٣)، وقد ولي أبو زرعة قضاء الشام ما يزيد على عشرة سنين^(٤)، ولم يل بعد أبي زرعة قضاء الشام إلاّ شافعيّ المذهب، غير ابن خديم - وقيل ابن حذلم - فإنّه كان أوزاعيّ المذهب ثمّ لم يزل القضاة من بعده يحكمون الشام بمذهب الشافعي بعد أن كان الغالب عليهم مذهب الأوزاعي^(٥).

* والمذهب الحنفي الذي كان أغلب أعلامه من قضاة الأحناف النزلاء ببلاد الشام.

* وأمّا المذهب الحنبلي فكان الأقلّ أتباعاً في هذه الديار، ولم ينتشر في الشام انتشاراً واسعاً إلاّ في نهاية هذا الدور وبداية الدور القادم.

* وأمّا المذهب المالكي فلم يكن له وجود يذكر في هذه الديار خلال هذا الدور، ولم يبدأ نشاطه إلاّ مع مجيء الدولة الأيوبيّة لاحقاً.

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٦/١.

(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣.

(٣) البداية والنهاية ١١/١٢٢.

(٤) شذرات الذهب ٤٢٠/٢.

(٥) حسن المحاضرة ١٨٢/١، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٩٦.

ومن أشهر القائمين على هذا المركز من أتباع المذاهب، نذكر من فقهاء الشافعية:

* أبو زرعة محمد بن عثمان: (٣٠٢هـ).

* عبدالله بن محمد القزويني: (٣١٥هـ) قاضي الرملة^(١).

* الحسين بن أبي زرعة محمد بن عثمان: (٣٢٧هـ) قاضي دمشق^(٢)، وسليل قاضيها، وولي القضاء هو وابن حدّاد في عهد الأخشيديين الذين حكموا مصر والشام من سنة ٣٢٣هـ إلى سنة ٣٥٨هـ. كان عارفاً بالأحكام منفذاً، وكان ابن حدّاد ينوب عنه.

* وأبو يحيى زكرياء بن أحمد بن يحيى بن موسى البلخي (٣٣٠هـ) قاضي دمشق، وهو صاحب وجه فارق وطنه ومسح عرض الأرض وسافر إلى أقاصي الدنيا في طلب الفقه، وكان حسن البيان في النظر، عذب اللسان في الجدل، وولي قضاء الشام أيام المقتدر بالله، وتوفي بدمشق^(٣).

* أبو علي الحصائري الحسن بن حبيب الدمشقي (٣٣٨هـ) الفقيه الشافعي الذي روى عن الربيع بن سليمان وابن عبدالحكم، وحدث بكتاب الأم للشافعي، وكان حافظاً لمذهب الشافعي^(٤).

ومن أشهر فقهاء الحنفية نذكر:

* أبو خازم عبد الحميد بن عبدالعزيز القاضي من أهل البصرة، كان من خيار القضاة وأعيان الفقهاء ومن أئمة العلماء، كثير الورع والنزاهة والديانة والأمانة، أخذ العلم عن شيوخ البصريين، وولي القضاء بالشام

(١) البداية والنهاية ١١/١٥٧، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٢٠ - ٣٢٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٨١.

(٣) شذرات الذهب ٣/٢٧.

(٤) شذرات الذهب ٣/٥٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٥٥ - ٢٥٦، النجوم الزاهرة ٣/٣٠٠.

والكوفة والكرخ من بغداد^(١).

* أبو طاهر محمد بن محمد بن سفيان الذي كان أكثر أخذه عن القاضي أبي خازم، وقد ولي القضاء بالديار الشامية^(٢).

* علي بن محمد بن الحسن أبو القاسم المعروف بابن كاس (٣٢٥هـ) النخعي الكوفي، كان إماماً في الفقه كبير القدر^(٣).

* ابن أبي الفهم التنوخي الأنطاكي (٢٧٨هـ - ٣٤٢هـ) وكان فقيهاً بارعاً في الأصول والفروع^(٤).

* وأما المذهب الحنبلي فمن أوائل من أدخلوه إلى دمشق:

* أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقى (٣٣٤هـ) أحد سادات الفقهاء والعباد^(٥) قرأ العلم على صالح وعبد الله ابني الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما، له المصنفات الكثيرة في المذهب الحنبلي.

خرج من بغداد لما ظهر فيها سب الصحابة رضوان الله عليهم، وأودع فيها كتبه فاحترقت الدار التي كانت فيها الكتب وعمدت مصنفاته.

قصد الخرقى الشام فأقام بها واستقر بقية حياته، وكانت له تخريجات على المذهب.

لم ينتشر من كتبه إلا المختصر في الفقه الذي كان عليه الاعتماد في

(١) الفوائد البهية ٨٦، الجواهر المضية ٣٦٦/٢، تاج التراجم ١٢٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤١، شذرات الذهب ٣٨٤/٢، البداية والنهاية ٩٩/١١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢.

(٣) الجواهر المضية ٥٩٣/٢، النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣.

(٤) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ٤٠/٣، البداية والنهاية ٢١٤/١١، كشف الظنون ٥١٦/٢، تاريخ التراث العربي ٢٣٥/٣ - ٢٣٦، طبقات

الفقهاء الحنابلة ١٠٤/٢ - ١٥٢ وفيات الأعيان ٤٤١/٣، النجوم الزاهرة ٢٨٩/٣.

المذهب، وتبلغ مسائله ٢٣٠٠ مسألة، وقد اعتنى علماء الحنابلة بشرحه، وأشهر شروحه كتاب المغني لابن قدامة.

وساق له ابن أبي يعلى في ثنانيا ترجمته ثمانى وتسعين مسألة في الفقه.

وأما عن المذهب الأوزاعي فإنّ أبا الحسين بن حذلم، وهو أحمد بن سليمان بن أيوب الأسدي الدمشقي الذي ناب في قضاء بلده، فهو آخر من كانت له حلقة بجامع دمشق يدرّس فيها مذهب الأوزاعي^(١).

- ٣ - العراق:

رغم ما بلي به هذا الإقليم الذي هو مركز الخلافة العبّاسيّة، من وقائع مؤلمة وحوادث مفرجة، فلم يمنع ذلك من استمرار نشاطه العلمي، إذ بقي رغم توالي الأحداث عليه موطنًا لاستقطاب العلماء ودار الدنيا وحاضرة الربع العامر.

ويكاد ينفرد هذا المركز على جميع المراكز الأخرى بتواجد جميع أنماط الأفكار الاجتهادية وسائر أنواع المذاهب الفقهية، إذ نجد في رحابه مشاهير الأعلام من المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهرى والجريري والشيعة.

* فأما المذهب الحنفي فقد كان المذهب الغالب في هذا المركز لكونه مستقرّ أبي حنيفة، ثمّ لإيثاره في القضاء على ما سواه من المذاهب.

* وأما المذهب المالكي فقد ظهر ببغداد ظهوراً كثيراً، ثمّ ضعف فيها في نهاية هذا الدور.

* وأما مذهب الشافعي فقد انتشر بالعراق لآته موطن نشر مذهبه القديم.

(١) شذرات الذهب ٥٨٣، النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣.

* وأما المذهب الحنبلي فقد كان له القول النافذ والسلطان الأكبر خلال هذه المرحلة في هذه البلاد، وعظم أمر أتباعه وقويت شوكتهم، ووصل بهم الأمر إلى منع الناس من الجلوس إلى ابن جرير الطبري لأنه صنف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه الإمام أحمد.

* وأما ابن جرير الطبري فقد كان له ببغداد خلال هذه المرحلة أتباع كثيرون تقلدوا مذهبه أتينا على ذكرهم.

* وأما المذهب الظاهري فقد كثر أتباعه بهذه البلاد لأنها كانت مستقرّ داود بن عليّ الأصبهاني مؤسس المذهب الظاهري، ومستقرّ ابنه محمد الذي تولّى رئاسة المذهب من بعد أبيه، فانتشر بهما المذهب الظاهري.

* وأما المذهب الشيعي - الإماميّة على وجه التحديد - فقد شكّل نشاطاً فقهياً مستقلاً سواء تعلق ذلك بمقالاته في مواضيع الفقه وأصوله، أو تعلق بالمسائل الاعتقاديّة المرتبطة بأصول الدين، وقد عكس ذلك.

بجلاء مدى الاختلاف الواضح بين المذهب الشيعي والمذاهب السنيّة الأخرى في طرق اعتماد الأسانيد والمقاييس في التعديل والتجريح من ناحية، وفي اعتماده على أصول اجتهاديّة على غير الصورة التي ظهرت بها في المذاهب السنيّة من ناحية أخرى.

وفيما يلي لمحة عن أعلام الفقه بهذا المركز:

فمن أشهر أتباع المذهب الحنفي نذكر:

* أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعي (٣٣٤هـ) شيخ الحنفيّة ببغداد، وهو أستاذ أبي الحسن الكرخي وأبي طاهر الدبّاس وأبي عمرو الطبري^(١).

* أبو الحسن عبيدالله بن الحسين الكرخي (٢٦٠هـ - ٣٤٠هـ) وهو

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤١، الفهرست ص ٢٦١، النجوم الزاهرة ٢٢٦/٣.

أحد أئمة الحنفيّة المشهورين، انتهت إليه رئاسة العلم في أصحاب أبي حنيفة بعد القاضي أبي سعيد البردعي، سكن بغداد ودرّس فقه أبي حنيفة، وكان أوحد عصره غير مدافع ولا منازع، وعليه قرأ المبرّزون من فقهاء الحنفيّة، وممّن تفقّه عليه أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالخصّاص وأبو بكر الدامغاني وأبو علي الشاشي وأبو عبدالله البصري وأبو القاسم علي بن محمد التنوخي.

كان معدوداً من المجتهدين القادرين على حلّ المسائل التي لا نصّ فيها على مقتضى أصول وقواعد المذهب الحنفي، وكان قانعاً متعقفاً صبوراً على الفقر، عزوفاً عمّا في أيدي الناس صواماً قواماً كبير القدر.

أصابه الفالج في آخر عمره، فاجتمع عنده بعض أصحابه وتشاوروا فيما بينهم أن يكتبوا إلى سيف الدولة ابن حمدان ليساعده بمال يستعين به في مرضه، فلمّا علم بذلك بكى ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم لا تجعل رزقي إلّا من حيث عوّدتني، فمات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة - وهي عشرة آلاف درهم - فتصدّقوا بها بعد وفاته.

صنّف المختصر في الفقه الذي يعدّ من أمّهات الكتب في فقه الحنفيّة، وعليه شروح من أهمّها شرح القدوري - من أعلام المرحلة الثانية من هذا الدور - وشرح الجامعين الكبير والصغير لمحمد بن الحسن، وقال في مختصره الفقهي: من أراد مجاوزة ما في هذا الكتاب - يعني المختصر - فلينظر في الجامع الصغير الذي ألفناه، وإن أراد أكثر من ذلك فالكبير يستغرق ذلك كله.

وله رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفيّة، شرحها أبو حفص عمر النسفي فذكر أمثلتها ونظائرها وشواهدا^(١).

(١) الفهرست ص ٢٦١، الفوائد البهية ١٠٨، الجواهر المضية ٤٩٣/٢، تاج التراجم ١٣٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢، شذرات الذهب ٦٤/٣، كشف الظنون ٤٥٠/١ و ٥٢٣/٢، تاريخ التراث العربي ١٠١/٣ - ١٠٢، رسالة الكرخي في الأصول، البداية والنهاية ٢٢٤/١١ - ٢٢٥، النجوم الزاهرة ٣٠٦/٣.

* أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبدالرحمن الطبري (٣٤٠هـ) الملقب بابن دانكا، تفقه على أبي سعيد البردعي، وكان يدرّس ببغداد في حياة أبي الحسن الكرخي، وله شرح الجامعين الكبير والصغير لمحمد بن الحسن^(١).

* أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي (٣٤٤هـ) وكان أبو الحسن الكرخي جعل التدريس إليه حين أصابه الفالج، والفتوى إلى أبي بكر الدامغاني^(٢).

* أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص (٣٠٥هـ - ٣٧٠هـ) صاحب أبي الحسن الكرخي، وإليه انتهت رئاسة العلم لأصحاب أبي حنيفة ببغداد، وعنه أخذ فقهاؤها، ورحل إليه الطلبة من الآفاق.

كان عابداً ورعاً زاهداً، حاله يزيد على حال الرهبان من كثرة التقشّف، له من المصنّفات المفيدة كتاب أحكام القرآن وكتاب أصول الفقه وشرح مختصر الطحاوي واختصر كتاب اختلاف الفقهاء للطحاوي وشرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن^(٣).

ومن أشهر أتباع المذهب المالكي بالعراق نذكر: «آل حمّاد» الذين تجرّدوا لمذهب مالك وتفقهوا فيه حتّى أصبح بيتهم على كثرة رجاله وشهرة أعلامه من أجل بيوت العلم بالعراق، وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وكان فيهم رجال أجلة من أهل الفقه والسنة، ومن أهل الصدق والخير، وأئمة الورع والعلم والفضل، روي عنهم في أقطار الأرض،

(١) الفوائد البهية ٣٥، الجواهر المضية ٢٩١/١، تاج التراجم ٥١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٣، كشف الظنون ٤٤٤/١ و ٤٤٩.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٣.

(٣) الفهرست ص ٢٦١، الفوائد البهية ١٧، الجواهر المضية ٢٢٠/١، تاج التراجم ١٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤، شذرات الذهب ١٨٤/٣، البداية والنهاية ٢٩٧/١١، النجوم الزاهرة ١٣٨/٤، تاريخ التراث العربي ١٠٢/٣ - ١٠٣، كشف الظنون ٨١/١ و ٩٠ و ١٤٤ و ٤٤٩/٢ و ٥١٧، طبقات المفسرين ص ٤٤.

وانتشر ذكرهم ما بين المشرق والمغرب، وتردد العلم في بيتهم نحو ثلاثمائة عام - من زمن جدّهم الإمام حمّاد بن زيد وأخيه سعيد ومولدهما نحو المائة، إلى وفاة آخر من وصف منهم بعلم، المعروف بابن أبي يعلى، ووفاته قرب عام أربعمائة^(١).

وكان أشهر أئمة الفقه والشيخة منهم في هذه المرحلة:

١ - القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد بن زيد: (١٩٩هـ - ٢٨٢هـ) أصله من البصرة وبها نشأ واستوطن بغداد، سمع من أبي مصعب وابن أبي أويس وغيرهما، وتفقه بأعلام مشيخة العراق كأبي الفضل أحمد بن المعدّل الذي لم يكن للمالكية بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بالمذهب منه، وكان يقول: أفخر على الناس برجلين بالبصرة: أحمد بن المعدّل يعلمي الفقه، وعليّ بن المدني يعلمي الحديث.

أخذ القراءة عن الإمام قالون، وله فيه حرف، وروى عن ابن مجاهد وابن الأنباري وغيرهما.

وممن تفقه عليه وروى عنه وسمع منه كثير من الأعلام المغاربة والأندلسيين مثل يحيى بن عمر وقاسم ابن أصبغ، ومن المشاركة خلق عظيم.

كان إسماعيل عالماً متفتناً، تقدّم في العلم حتى صار علماً، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، فشرح المذهب المالكي ولخصه واحتجّ له، ما صار لأهل هذا المذهب معالم يحتذونه وطريقاً يسلكونه.

يعتبر القاضي إسماعيل أول من بسّط قول مالك وأظهره بالعراق، وردّ على المخالفين من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة حتى أنّ أبا حازم القاضي

(١) ترتيب المدارك ١٦٦/٣ - ١٦٧، الديات المذهب ص ١٥١.

الحنفي كان يقول: لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق.

انفرد بالإمامة في وقته ولم ينازعه أحد في عصره، وكان ابن أبي زيد القيرواني يقول: القاضي إسماعيل شيخ المالكيين في وقته، وإمام تام الإمامة، يقتدى به.

جمع علوم القرآن والحديث وآثار العلماء والفقه والكلام والمعرفة بعلم اللسان، حتى أنّ المبرّد - عالم النحو - كان يقول: لولا شغله برئاسة العلم والقضاء لذهب برئاسة النحو والأدب.

بلغ من العمر ما صار واحد عصره في علوم الإسناد، فحمل الناس عنه من الحديث الحسن ما لم يحمل عن كثير، وكان كثير من الناس يصيرون إليه، فيقتبس منه كلّ فريق علماً لا يشاركه فيه الآخرون.

وقال القاضي أبو الوليد الباجي - وقد ذكر من بلغ درجة الاجتهاد، وجمع إليه من العلوم -: ولم تحصل هذه الدرجة بعد مالك إلا لإسماعيل القاضي.

ولي القضاء اثنتين وثلاثين سنة، وصنّف مصتفات في القراءات والحديث والفقه وأحكام القرآن والتفسير والأصول، ولم يسبقه أحد من أصحابه إلى مثلها، وذكر له القاضي عياض أكثر من عشرين عنوان منها كتاب أحكام القرآن وكتاب معاني القرآن وإعرابه الذي شهد المبرّد بتفضيله فيه، وكتاب الردّ على أبي حنيفة وكتاب الردّ على الشافعي، وكتاب الردّ على محمد بن الحسن، وكتاب المبسوط في الفقه ومختصره وغيرها من المؤلفات المفيدة التي هي أصول في فنونها^(١).

(١) ترتيب المدارك ١٦٨/٣ - ١٨١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٤ - ١٦٥، الديباج المذهب ص ١٥١ - ١٥٤، الفهرست ص ٢٥٢، شذرات الذهب ٣٤٦/٢، البداية والنهاية ٧٢/١١، كشف الظنون ٨٠/١، غاية النهاية ١٦٢/١، معجم الأدباء ٦٤٧/٢ - ٦٥١، طبقات المفسرين ص ٧٦ - ٧٧.

٢ - يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد: (٢٩٧هـ) ابن عمّ القاضي إسماعيل، سمع الحديث ودرس الفقه، وكان أكثر تفقّهه مع ابن عمّه إسماعيل.

كان رجلاً صالحاً عفيفاً خيراً، ذا جلاله وقدر عظيم ببغداد، وكان فقيهاً متفتناً، من أكابر العلماء وأعيانهم، سمع منه الناس قراءة وإملاء، وكتبوا وحملوا عنه علماً كثيراً.

وكان حسن العلم بصناعة القضاء، شديداً في الحكم، وكان ثقة أميناً، فلما ولي القضاء حمدت مذهبها وحسن حكمه واستقامت طريقته وكثر الشاكر له^(١).

٣ - قاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل (٢٤٣هـ - ٣٢٠هـ) وهو ابن صاحب الترجمة السابقة - القاضي ببغداد ومعاملاتها في سائر البلاد، كان من خيار القضاة حلماً وعقلاً وجلالة وذكاء، وكان من أئمة الإسلام علماً ومعرفة وفصاحة وعقلاً، بحيث كان يضرب بعقله المثل.

روى الكثير عن المشايخ وحديث عنه الإمام الدارقطني وغيره من الحفاظ، وحمل الناس عنه علماً كثيراً من الفقه والحديث.

ولي قضاء مدينة المنصور في عهد المعتضد، ثم ولي قضاء الجانب الشرقي في عهد المقتدر، ثم جمع قضاء القضاة سنة ٣١٧هـ، ولم ينتقد عليه حكم من أحكامه أخطأ فيه قط.

وذكر أبو إسحاق الشيرازي أنّ الناس كانوا ببغداد إلى عهده إذا رأوا إنساناً له أبهة وجمال هيئة ووقار قالوا: كأنه أبو عمر القاضي.

(١) ترتيب المدارك ١٨٢/٣ - ١٨٦، الديباج المذهب ص ٤٤٣، شذرات الذهب

٤٠٤/٢، النجوم الزاهرة ١٧١/٩ البداية والنهاية ١١٢/١١.

كان له مجلس علم في غاية الحسن، كان يعقد للإملاء، وله مصنفات كثيرة وجمع مسندا حافلا^(١).

- ٤ - قاضي القضاة أبو الحسين عمر بن قاضي القضاة أبي عمر محمد بن القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد: (٢٨٩هـ - ٣٢٨هـ) - وهو ابن صاحب الترجمة السابقة - كان من أحذق أحداث المالكيين في وقته، ذكياً فطنا حاذقا بالمذهب، أخذ من كل علم بنصيب.

كان نظير أبيه في الفضل وتاليه في العقل، سلك مسلك سلفه وجرى على مذاهب أوله، بلغ في العلوم مبلغا عظيما قلّما اجتمعت في مثله من أهل زمانه، ولا يعرف قاض في سنّه ولا أعلى منه، يشتغل بالعلوم التي يشتغل بها، من حفظ الحديث وعلم به، واستبحار في الفقه واحتجاج له، وتقدّم في النحو واللغة، وحظّ جزيل من البلاغة نظما ونثرا، وغير ذلك.

رزق قوّة الفهم وجودة القريحة وشرف الأخلاق وكان يخلف أباه في قضائه وهو صغير السنّ، ثمّ ولي قضاء مدينة المنصور سنة ٣٢٠هـ، ولما توفي أبوه من هذه السنة قلّد جميع ما كان يتقلّده أبوه من أعمال القضاء إلاّ قضاء القضاة، التي وليها بعد ذلك بخمس سنوات.

تلقى الفقه عن أبيه، ولم يدرك عمّه القاضي إسماعيل بن إسحاق فأخذ عن كبار أصحابه، وعن القاضي أبي الحسين وأبيه أبي عمر أخذ الشيخ أبو بكر الأبهري وغيره.

توفي أبو الحسين ببغداد وهو يتولّى قضاء القضاة، وقد اخترمته المنية قبل استيفاء أقرانه وطبقته وسنّه يوم مات تسع وثلاثون سنة، وصلى عليه ابنه أبو نصر وولي بعده القضاء.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٥، شذرات الذهب ٤٨٧/٢، البداية والنهاية ١٧١/١١ - ١٧٢ النجوم الزاهرة ٢٣٥/٣.

له كتاب في الردّ على من أنكر إجماع أهل المدينة، وله كتاب الفرج بعد الشدة^(١).

- ٥ - أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف : (٣٠٥هـ - ٣٥٦هـ) - وهو ابن صاحب الترجمة السابقة - نشأ نبيلًا حاذقًا بصناعة القضاء، بارعًا في الأدب والكتابة، حسن الفصاحة، واسع العلم بالغة والشعر، وكان فقيهاً فاضلاً، وهو آخر من وليّ القضاء ببغداد من آل حمّاد.

اقتدر على أمره بالنزاهة والتصاوت والعفة حتّى وصفه الناس من ذلك بما لم يصفوا به أباه وجدّه مع حداثة سنّه، ولا يوجد قاض تقلّد قضاء بغداد أعرق في القضاء منه ومن أخيه الحسين، لأنّ أباه أبا الحسين وجدّه أبا عمر، ووالد أبي عمر يوسف بن يعقوب، وأباه يعقوب، كلّهم ولّوا القضاء ببغداد ما عدا يعقوب فإنّه وليّ قضاء المدينة ثمّ قضاء فارس.

وزعم بعضهم أنّ أبا نصر انتقل من مذهب مالك إلى مذهب داود الظاهري وتقدّم فيه، وتّم كتاب الإيجاز لمحمد بن داود^(٢).

واشتهر من أعلام الشافعيّة:

* القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج : (٢٤٩هـ - ٣٠٦هـ) كان من عظماء الشافعيّة وأئمّة المسلمين، وكان يقال له الباز الأشهب.

ولي القضاء بشيراز، قام بنصرة المذهب الشافعي وردّ على المخالفين، وفرّع على كتب محمد بن الحسن وكان يفضل على جميع أصحاب الشافعي حتى على المزني، وكان الشيخ أبو حامد الإسفراييني -

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦، ترتيب المدارك ٢٧٨/٣ - ٢٨١، الديباج المذهب ص ٢٨٤ - ٢٨٥، شذرات الذهب ٣٢٨/٣، البداية والنهاية ١١/١٩٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦ و ١٧٩، ترتيب المدارك ٢٨٢/٣ - ٢٨٤.

على جلالته قدره - يقول: نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون الدقائق.

أخذ عنه فقهاء الإسلام، وعنه انتشر فقه الشافعي في أكثر الآفاق، وكان يناظر محمد بن داود الظاهري.
صنّف نحو أربعمئة كتاب^(١).

* أبو إسحاق المروزي: (٣٤٠هـ) تقدّمت ترجمته ضمن أعلام مصر - وهو معدود أيضاً من أعلام العراق، إذ إليه انتهت رئاسة الشافعية ببغداد بعد شيخه ابن سريج، وقد أقام مدة طويلة بالعراق، قبل أن ينتقل إلى مصر، حتى انتشر عنه المذهب الشافعي^(٢).

* أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى الإصطخري (٢٤٤هـ - ٣٢٨هـ) شيخ الشافعية بالعراق، كان موصوفاً بالزهد والقناعة، وهو أحد الرفعاء من أصحاب الوجوه، ومن شيوخ الفقهاء الشافعيين.

كان هو وابن سريج من شيوخ الشافعية ببغداد، صنّف كتباً كثيرة منها كتاب آداب القضاة، لم يصنّف في الباب مثله، وقد استحسنت الأئمة، كما صنّف كتاب الشروط والوثائق والمحاضر والسجلات^(٣).

* القاضي أبو علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة البغدادي: (٣٤٥هـ) أحد أئمة الشافعية، تفقّه بآب سريج ثم بأبي إسحاق المروزي، درّس ببغداد وتخرّج به خلق كثير، وإليه انتهت إمامة العراقيين.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٩، البداية والنهاية ١٢٩/١١، النجوم الزاهرة ١٩٤/٣، شذرات الذهب ٤٣٢/٢ - ٤٣٣، طبقات الشافعية الكبرى ٢١/٣ - ٣٩، الفهرست ص ٢٦٦، تذكرة الحفاظ ٨١١/٣ - ٨١٣، وفيات الأعيان ٦٦/١ - ٦٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، شذرات الذهب ٦٢/٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١١، شذرات الذهب ١٢/٣، البداية والنهاية ١٩٣/١١، النجوم الزاهرة ٢٦٧/٣، كشف الظنون ١٠٠/١، الفهرست ص ٢٦٧، وفيات الأعيان ٧٤/٢ - ٧٥، طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٠/٣ - ٢٥٣.

له اختيارات كثيرة غريبة في المذهب^(١).

واشتهر من أعلام الحنابلة:

* أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال: (٣١١هـ) تلقى العلم عن صالح وعبدالله ابني الإمام أحمد وعن أبي بكر المروزي.

كان فقيهاً حبراً، أنفق عمره في جمع مذهب الإمام وتصنيفه، وكان واسع العلم شديد الاعتناء بالآثار، له مصنفات الكثيرة في الفقه منها كتاب الجامع لعلوم الإمام أحمد، ويشتمل على مجموعة من نصوص ورسائل ومسائل الإمام أحمد التي تتألف من عشرين جزءاً أو أكثر، قيل إنه لم يصنف في مذهب الإمام أحمد مثل هذا الكتاب^(٢).

* أبو القاسم الخرقى: صاحب المختصر المشهور في الفقه، وقد تقدّمت ترجمته في أعلام الشام، وقد كان يقيم ببغداد، فلما ظهر بها سبّ السلف، خرج منها واستقرّ بدمشق.

* أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري البغدادي: (٢٣٣هـ - ٣٢٩هـ) شيخ الحنابلة بالعراق في وقته، ومتقدّمها في الإنكار على أهل البدع، كان له صيت عظيم عند السلطان، وقدم عند الأصحاب، وكان أحد الأئمة العارفين الحقاظ للأصول المتقين والثقات المأمونين.

كان عالماً فقيهاً زاهداً واعظاً شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر معظماً عند العامة والخاصة.

كانت له مجاهدات ومقامات في الدين كثيرة، وقد نجح أعداؤه من أهل البدع والأهواء في إيغار قلب السلطان عليه، حتى قبض على جماعة

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢ - ١١٣، شذرات الذهب ٧٨/٣ - ٧٩، البداية والنهاية ٣٠٤/١١، وفيات الأعيان ٧٥/٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ١٧١، شذرات الذهب ٤٥٢/٢، البداية والنهاية ١٤٨/١١، النجوم الزاهرة ٢٠٩/٣، تاريخ التراث العربي ٢٣٣/٣ - ٢٣٤، أعلام الموقعين ٢٨/١، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٩/٢ - ٢٢، تذكرة الحفاظ ٧٨٥/٣ - ٧٨٦.

من أصحابه واستتر البربهاري وذلك سنة ٣٢١هـ، ثم تغيّرت الأحوال فظهر البربهاري وعلت كلمته وزاد قدره علواً وشأناً، ونشط أصحابه في الإنكار على أهل البدع غير أنّ المبتدعة استطاعوا للمرة الثانية أن يوغروا قلب الحاكم العباسي حتى نودي في بغداد أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتر وتوفّي وهو مستخف^(١).

* أبو بكر أحمد بن سلمان بن الحسن النجاد البغدادي (٢٥٣هـ - ٣٤٨هـ) الفقيه الحافظ، شيخ الحنابلة بالعراق، وصاحب التصانيف، تلقى العلم عن أبي داود السجستاني وإبراهيم الحربي وعبدالله ابن الإمام أحمد وطبقتهم.

كان رأساً في الفقه، رأساً في الحديث، ولقد كانت له حلقتان في جامع المنصور، حلقة قبل الصلاة للفتوى على مذهب الإمام أحمد، وحلقة بعد الصلاة لإملاء الحديث، واتسعت رواياته وانتشرت أحاديثه ومصنفاته.

توفّي النجاد وقد كفّ بصره وله من العمر خمساً وتسعين سنة^(٢).

* أبو بكر عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد المعروف بغلام الخلال : (٢٨٥هـ - ٣٦٣هـ) شيخ الحنابلة وعالمهم المشهور.

كان أحد أهل الفهم، موثقاً به في العلم، متسع الرواية مشهوراً بالديانة، موصوفاً بالأمانة، مذكوراً بالعبادة، وكان صاحب مصنفات في علوم مختلفة، ممّن صتّف وجمع وناظر.

من أشهر مصنفاته الشافي والمقنع وتفسير القرآن والخلاف مع الشافعي وكتاب القولين وزاد المسافر والتنبيه ومختصر السنّة وغير ذلك^(٣).

(١) شذرات الذهب ١٩/٣ - ٢٣، البداية والنهاية ٢٠١/١١، طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٧/١ - ٥٩.
 (٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ٨٨/٣ - ٨٩، البداية والنهاية ٢٣٤/١١، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٣/٢ - ١٩، تذكرة الحفاظ ٨٦٨/٣ - ٨٦٩.
 (٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ١٥١/٣ - ١٥٢، البداية والنهاية ٢٧٨/١١، النجوم الزاهرة ١٠٥/٤، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٥٤/٢ - ١٦٤، هدية العارفين ٥٧٧/١.

وأما الظاهرية الذين كثر أتباعهم بهذا المركز فقد اشتهر منهم:

* أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود الظاهري: (٢٥٥هـ - ٢٩٧هـ)

ابن مؤسس المذهب الظاهري، كان فقيهاً ماهراً، تبع أباه في مذهبه ومسلكه وما اختاره من الطرائق وارتضاه، وكان أديباً شاعراً إخبارياً، فاضلاً بارعاً ظريفاً، وأحد أذكىء زمانه، خلف أباه في حلقاته وتصدّر للفتوى ببغداد وهو ابن خمسة عشر عاماً، فلما جلس يفتي استصغره الناس، فبعثوا إليه رجلاً يسأله وقالوا له: سله عن حدّ السكر ما هو؟ فأتاه الرجل فسأله عن حدّ السكر ومتى يكون الإنسان سكراناً، فقال محمد بن داود: إذا عزبت عنه الهموم وباح بسرّه المكتوم، فاستحسن الحاضرون منه ذلك وعظم في أعين الناس، وعلم موضعه من أهل العلم.

وجاءته امرأة يوماً فقالت له: ما تقول في رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلقها؟ فقال لها: اختلف في ذلك أهل العلم، فقال قائلون: تؤمر بالصبر والاحتساب ويبعث على التطلّب والاكتساب، وقال قائلون: يؤمر بالإنفاق وإلاّ يحمل على الطلاق، فلم تفهم المرأة قوله، فأعادت مسألتها، فقال لها: يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك إلى طلبك، ولست بسلطان فأمضي، ولا قاض فأقضي، ولا زوج فأرضي، فانصرفت المرأة ولم تفهم جوابه.

وكان يناظر أبا العباس بن سريج شيخ الشافعية في عصره، بحضور القاضي أبي عمر محمد بن يوسف المالكي فيعجب الحاضرون من مناظرتها وحسنها، وله مصنفات في المذهب منها: كتاب الإنذار وكتاب الإعذار وكتاب الإيجاز وكتاب اختلاف مسائل الصحابة وغيرها.

كان يبيح العشق بشرط العفاف، وهو ممن قتله الهوى وله نيف وأربعون سنة^(١).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٥ - ١٧٦، الفهرست ص ٢٧٢، شذرات الذهب

٤٠٣/٢، البداية والنهاية ١١٠/١١ - ١١١، وفيات الأعيان ٢٥٩/٤ - ٢٦١.

* أبو إسحاق إبراهيم بن جابر، وكان من علماء الظاهرية وكبارتهم، له كتاب الاختلاف، وأصحابه يستحسنونه^(١).

* أبو الحسن عبدالله بن أحمد بن محمد بن المغلس: (٣٢٤هـ) أخذ العلم عن محمد بن داود، وإليه انتهت رئاسة المذهب الظاهري في وقته، كان مقيماً ببغداد، وعنه انتشر علم داود الظاهري فيها.

كان مقدماً عند جميع الناس، يقصده العلماء من جميع البلدان، له تصانيف عديدة^(٢).

* أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف: (٣٠٥هـ) - (٣٥٦هـ) الذي ولي قضاء بغداد، وكان آخر من ولي بها القضاء من آل حماد - وقد تقدم ذكره في أعلام المالكية -.

وذكر الشيرازي أنّ أبا نصر يوسف قد انتقل من مذهب مالك إلى مذهب داود الظاهري وتقدم فيه، وتمم كتاب الإيجاز لمحمد بن داود^(٣).

* أبو الحسن حيدر بن عمر الزندوردي: (٣٥٨هـ) كان من العلماء الأخيار وفقهاء، وعنه أخذ البغداديون مذهب داود، وقال ابن النديم: ورأيتُه وكان لي صديقاً^(٤).

وأما المذهب الشيعي فقد نشط خاصة بالكوفة وكان من أبرز أعلامه:

* أبو محمد الحسين بن سعيد بن حماد بن سعيد بن مهران الأهوازي الكوفي، كان هو وأخوه الحسن يعدّان من أوسع أهل زمانهما علماً بالفقه والآثار والمناقب وغير ذلك من العلوم، وكانا من كبار علماء

(١) الفهرست ص ٢٧٢.

(٢) الفهرست ص ٢٧٢ - ٢٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧.

(٣) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦ و ١٧٩، ترتيب المدارك ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٤.

(٤) الفهرست ص ٢٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧.

الشيعة الإمامية، وكان أبو محمد الحسين على قيد الحياة نحو سنة ٣٠٠هـ^(١).

* فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (٣١٠هـ) روى عن أبي محمد الحسين بن سعيد الكوفي، وروى عنه أبو الحسن علي بن الحسين بن بابويه (٣٢٩هـ)^(٢).

* أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (٣٢٨هـ) أكبر علماء الشيعة الإمامية وشيخ مذهبهم في وقته ببغداد، كان معتبراً أحد المجتهدين واشتهر بذلك بين أهل عصره من علماء الشيعة.

صنّف كتاب الكافي في علم الدين، الذي يعتبر من أهمّ الكتب المعوّل عليها عند الشيعة الإمامية، وعلى هذا الكتاب شروح كثيرة^(٣).

* أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (٣٥٢هـ) كان أوّل الأمر إمامياً، ثم أصبح من غلاة الشيعة، وقد صنّف كتباً عديدة في موضوعات الفقه والعقائد^(٤).

* أبو غالب أحمد بن محمد بن سليمان الزراري (٢٨٥هـ - ٣٦٨هـ) سكن بغداد وكان شيخاً للإمامية في وقته^(٥).

٤ - بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

أما البلاد التي عرفت ببلاد فارس، فهي جمهورية إيران اليوم، وهي مدائن كثيرة منها: أصفهان أو أصفهان وقم وكرمان وإصطخر ونهاوند وهمدان وغيرها من المدن، غير أنّ أهمّ قواعدها هي شيراز في جنوب

(١) الفهرست ص ٢٧٧، تاريخ التراث العربي ٢٨٨/٣، معجم المؤلفين ١٠/٤.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢٨٩/٣.

(٣) تاريخ التراث العربي ٢٩١/٣ - ٢٩٥، معجم المؤلفين ١٢/١١٦، الأعلام ١٧/٨.

(٤) الفهرست ص ٢٧٨، تاريخ التراث العربي ٢٩٦/٣، معجم المؤلفين ٢٤/٧، الأعلام

٥٧/٥، هدية العارفين ٦٨٠/١ - ٦٨١.

(٥) تاريخ التراث العربي ٢٩٩/٣، معجم المؤلفين ١٠٨/٢، الأعلام ٢٠٢/١.

غربي إيران والريّ في الشمال بضاحية طهران، وإلى هذه المدائن ينسب علماء كثيرون.

وأما خراسان فمن أعظم مدنها التي وصفت بأنّها ديار العلم مع اختلاف فنونه: نيسابور التي قيل عنها أنّه لم يكن بعد بغداد مثلها، وهراة وبلخ ومرو التي قيل عنها إنّها المدينة الكبرى والدار العظمى ومربع العلماء، وأنّها واسطة العقد وخلاصة النقد.

وأما ما وراء النهر: فهو اسم أطلقه العرب قديماً على البلاد الواقعة شمالي نهر جيحون أو آمودريا بتركستان وأهمّ مدنها بخارى وسمرقند حيث ضريح الصحابي الفاتح قثم بن العباس بن عبد المطلب ابن عمّ الرسول وطشقند - بلاد الشاش قديماً - وخوارزم.

وقد انتشر بهذه البقاع من المذاهب في هذه المرحلة الشافعيّة وهم الأكثر أتباعاً والحنفيّة والظاهرية من أهل السنّة، والإماميّة من الشيعة.

أما المذهب الحنبلي فلم يكن منتشراً في أيّ إقليم من أقاليم هذه البلاد، ومع ذلك فلا نعدم أن نجد بعض الحنابلة في هراة وهمذان من مثل أبي سليمان عبدالله بن محمد الأنصاري.

في حين أنّ المذهب المالكي كان أقلّ المذاهب أتباعاً في هذا المركز حتّى أنّ أبا الحسن أحمد بن فارس الرازي الفقيه اللغوي المشهور، كان يقيم بهمذان ثمّ حمل منها إلى مدينة الريّ ليقراً عليه أبو طالب بن فخر الدولة فسكنها، وكان شافعيّاً على مذهب أبيه فصار مالكيّاً، ولما سئل عن ذلك؟ قال: أخذتني الحميّة لهذا الإمام المقبول القول على جميع الألسنة أن يخلو مثل هذا البلد - يعني الريّ - عن مذهبه^(١).

وممّن نبغ من أعلام الشافعيّة في هذه البلاد:

* أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي (٢٩٤هـ) ولد ببغداد ونشأ

(١) معجم الأدباء ٤١١/١، طبقات المفسرين ص ٤٧.

بنيسابور وتفقه بمصر على أصحاب الشافعي واستوطن سمرقند إلى أن توفي بها.

كان أعلم الناس في وقته، رأساً في الفقه، رأساً في الحديث، رأساً في العبادة، إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، إذ كان أجمع أهل عصره للسنن وأضبّطهم لها وأذكرهم لمعانيها وأدراهم بصحتها وبما أجمع الناس عليه ممّا اختلفوا فيه، ومن أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام بحيث لم يكن للشافعية في وقته مثله.

صنّف كتباً ضمّنها الآثار والفقه، وصنّف كتاباً فيما خالف أبو حنيفة عليّاً وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما^(١).

* أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج (٣٠٦هـ) وقد تقدمت ترجمته في أعلام العراق، وعنه انتشر فقه الشافعي في شيراز حين ولّي قضاءها، كما انتشر فقهه في أكثر الآفاق.

* أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري (٢٤٤هـ - ٣٢٨هـ) أحد الرفعاء من أصحاب الشافعية، ومن شيوخ فقهاءهم، ولّي قضاء مدينة قم الإيرانية، كما ولّي قضاء سجستان، وقد تقدمت ترجمته في أعلام العراق، وكان قد ولّي الحسبة بها.

* أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبراني (٣٣٥هـ) المعروف بابن القاص^(٢) صاحب ابن سريج، من أئمة الشافعية ومن أصحاب الوجوه المتقدمين، صنّف الكتب الكثيرة منها التلخيص وهو مختصر مشهور في

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٦ - ١٠٧، شذرات الذهب ٣٩٣/٢ - ٣٩٤، النجوم الزاهرة ١٦١/٣، البداية والنهاية ١٠٢/١١ - ١٠٣، طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٦/٢ - ٢٥٥، تهذيب التهذيب ٤٨٩/٩ - ٤٩٠.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١١، طبقات الشافعية الكبرى ٥٩/٣ - ٦٢، النجوم الزاهرة ٢٩٤/٣، شذرات الذهب ٤٣/٣، البداية والنهاية ٢١٩/١١، وفيات الأعيان ٦٨/١ - ٦٩.

فروع الفقه الشافعي، اعتنى بشرحه علماء الشافعية، وكتاب المفتاح، وأدب القاضي، وغيرها.

كان شيخ الشافعية بطبرستان، وعنه أخذ أهلها الفقه، تولى قضاء طرسوس وكان يعظ الناس بها فحصل له مرة خشوع فسقط مغشياً عليه فمات.

وفيه قال شارح كتاب التلخيص أبو عبدالله ختن الإسماعيلي: تمثلت فيه بقول الشاعر.

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

* أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي (٣٦٥هـ) المعروف بالقفال الكبير^(١) درس على أبي العباس ابن سريج، وسمع من أبي بكر بن خزيمة وابن جرير الطبري وطبقتهما.

كان إمام عصره، فقيهاً محدثاً، مفسراً، أصولياً متقناً، ذا طريقة حميدة، وكان لغويًا، شاعراً، وله مصنفات كثيرة، وكان أعلم أهل ما وراء النهر بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث، ولم يكن للشافعية بتلك البقاع مثله في وقته، وعنه انتشر فقه الشافعي هناك، وهو صاحب وجه في المذهب.

رحل إلى خراسان والعراق والشام وسار ذكره في الآفاق واشتهر اسمه في سائر البلاد.

له مصنفات كثيرة، صنف التفسير الكبير ودلائل النبوة ومحاسن الشريعة وأدب القضاء، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، وله كتاب في أصول الفقه.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٠٠ - ٢٠٣، هدية العارفين ٢/٤٨، شذرات الذهب ٣/١٦٠ - ١٦١، طبقات المفسرين ص ٤٣٢ - ٤٣٤، النجوم الزاهرة ٤/١١١، وفيات الأعيان ٤/٢٠٠ - ٢٠١، الفهرست ٢٦٨.

وفي تاريخ وفاته خلاف، فقبل سنة ٣٣٦هـ، وقبل سنة ٣٦٥هـ،
وقبل سنة ٣٦٦هـ.

* أبو زيد محمد بن أحمد بن عبدالله بن المروزي (٣٧١هـ) شيخ
الشافعية في زمانه، وإمام أهل عصره في الفقه والزهد والورع، كان من
أحفظ الناس لمذهب الشافعي وأحسنهم نظراً، وعنه أخذ فقهاء مرو.

قال البزار: عادلته الفقيه أبا زيد من نيسابور إلى مكة، فما أرى أن
الملائكة قد كتبت عليه خطيئة.

جاور بمكة سبع سنين ثم عاد إلى مرو وبها مات وله تسعون سنة.

له مصنفات كثيرة، منها التفسير الكبير ودلائل النبوة ومحاسن الشريعة
وأدب القضاء^(١).

* أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني (٢٧٧هـ -
٣٧١هـ) الحبر الإمام الجامع الحافظ الفقيه الشافعي، ذو التصانيف المفيدة
في الحديث والفقه بجرجان.

كان أول سماعه وعمره ١٢ سنة، ولما بلغ ١٧ سنة رحل في طلب
العلم وسماع الحديث، فجمع بين الفقه والحديث حتى صار أوحد عصره
وشيوخ المحدثين والفقهاء، وإمام أهل جرجان المرجوع إليه في الفقه
والحديث، وجمع بين رئاسة الدين والدنيا، وكان أجمل الناس مروءة
وسخاء، وعنه أخذ فقهاء جرجان.

توفي سنة ٣٧١هـ وله من العمر ٩٤ سنة، وقبل توفي سنة ٣٦٩هـ^(٢).

(١) شذرات الذهب ١٩١/٣ - ١٩٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٥، البداية والنهاية
٢٩٩/١١، طبقات الشافعية الكبرى ٧١/٣ - ٧٧، وفيات الأعيان ٢٠٨/٤ - ٢٠٩،
هدية العارفين ٥٠/٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٦، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣ - ٨، شذرات
الذهب ١٩٠/٣.

* أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي (٢٩٦هـ - ٣٦٩هـ) صاحب أبي إسحاق المروزي، شيخ عصره وقُدوة أهل زمانه وإمام وقته في الفقه والتفسير واللغة والنحو والشعر والعروض والكلام والتصوّف وأصناف العلوم.

طلب العلم وتبحّر فيه ثم خرج إلى العراق سنة ٣٢٢هـ وهو إذ ذاك أوحد بين أصحابه وعمره ٢٦ سنة، ثم دخل البصرة ودرّس بها سنين، ثم ورد نيسابور سنة ٣٣٧هـ وعقد له هناك مجالس للتدريس والإفتاء فاستقرّت به المقام، ولم يبق في البلد موافق ولا مخالف إلّا وهو مقرّر له بالفضل والتقدّم، فدرّس وأفتى ورأس أصحابه بنيسابور اثنتين وثلاثين سنة، وعنه أخذ فقهاء نيسابور العلم^(١).

والقائمة بأعلام الشافعية في هذه الأصقاع طويلة جدًا، وحيثما قرأت في كتب طبقات الفقهاء أو المحدثين أو المفسرين يشدّ انتباهك كثرة المنتمين إلى المذهب الشافعي من أبناء هذه البلاد.

وأما الحنفية فقد نبغ من أعلامهم:

* أبو الفضل محمد بن محمد بن أحمد المروزي (٣٣٤هـ) الشهير بالحاكم الشهيد، كان عالم مرو وإمام الحنفية في عصره، ولّي قضاء بخارى، ثم ولاه صاحب خراسان الوزارة.

من مصنفاته الكافي، وقد اعتمد في تأليفه على كتاب محمد بن الحسن، وله المنتقى، وهما أصلان من أصول المذهب الحنفي بعد كتب محمد بن الحسن^(٢).

* أبو الحسين أحمد بن محمد بن عبدالله النيسابوري (٣٥١هـ) قاضي

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٥، طبقات الشافعية الكبرى ١٦٧/٣ - ١٧٣، طبقات المفسرين ص ٤٠١ - ٤٠٣.

(٢) هدية العارفين ٣٧/٢، الأعلام ٢٤٢/٧، معجم المؤلفين ١١/١٨٥، تاريخ التراث العربي ٩٩/٣ - ١٠١.

الحرمين، وشيخ الحنفيّة في عصره، وليّ قضاء الحجاز مدّة، ثمّ قدم نيسابور ووليّ قضاءها واستقرّ بها إلى حين وفاته، تفقّه على أبي الحسن الكرخي ثمّ انتقل إلى أبي طاهر الدبّاس وبرع في الفقه، وبه وبأبي سهل الزجاجي تفقّه فقهاء نيسابور من أصحاب أبي حنيفة^(١).

* القاضي أبو الهيثم محمد بن جعفر بن إسماعيل، فقيه نيسابور، الذي تتلمذ على أبي الحسين قاضي الحرّمين^(٢).

* أبو جعفر محمد بن عبدالله بن محمد البلخي (٣٦٢هـ) المعروف بأبي حنيفة الصغير لبراعته في الفقه، شيخ الحنفيّة ببخارى وإمام عصره بلا مدافعة^(٣).

* أبو الحسن عليّ بن موسى بن يزيد القميّ (٣٥٠هـ) الفقيه الحنفي، أحد العلماء الفضلاء، وإمام أهل الرأي في عصره بلا مدافعة، سمع من محمد بن شجاع الثلجي وعنه تلقّى الفقيه البخاري أبو بكر بن سعيد بن نصر، وتخرّج به جماعة من كبار العلماء.

عدّه ابن النديم ضمن أعلام الفقهاء العراقيين المشهورين، غير أنّ أبا الحسن القميّ قد أملى بنيسابور كما ذكر الداوودي.

له مصتفات جليّة منها أحكام القرآن، وكتاب نقض ما خالف فيه الشافعي العراقيين في أحكام القرآن، وكتاب إثبات القياس والاجتهاد وخبر الواحد^(٤).

(١) الفوائد البهية ٣٦، الجواهر المضية ٢٤٨/١، تاج التراجم ٤٨، شذرات الذهب ١٠١/٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤.

(٣) الفوائد البهية ١٧٩، الجواهر المضية ١٩٢/٣، تاج التراجم ٢٢٠، هديّة العارفين ٤٧/٢، النجوم الزاهرة ٦٩/٤، شذرات الذهب ١٤٧/٣.

(٤) الجواهر المضية ٦١٨/٢، تاج التراجم ١٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ١٤١، الفهرست ص ٢٦٠، طبقات المفسرين للداوودي ص ٣٠١.

وأما عن أعلام الظاهرية فمن أشهرهم في هذه الأصقاع:

* أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل الشيباني (٢٨٧هـ) البصري، الذي ورد أصبهان وسكنها وولي قضاءها بعد وفاة صالح بن أحمد بن حنبل.

طاف البلاد في طلب الحديث، وكان إماماً فقيهاً ظاهرياً صالحاً ورعاً كبير القدر صاحب مناقب، وكان من الصيانة والعفة بمحلّ عجيب، جمع بين العلم والفهم والحفظ والزهد والعبادة والفقه.

صنّف كتباً عديدة منها كتاب الديّات وكتاب الجهاد وكتاب الأوائل وكتاب المذكّر والتذكير والذكر وكتاب عوالي الأحاديث والأعالي وفوائد الخرائد واللاكي، جمع فيه الأحاديث التي أفاد منها الإمام الشافعي في بناء مذهبه الفقهي^(١).

قاضي القضاة أبو سعيد بشر بن الحسين، وكان إماماً في أصحاب داود، تلقى العلم عن عليّ بن محمد البغدادي صاحب ابن المغلس، خرج إلى بلاد فارس - إيران - فأخذ عنه بشر بن الحسين^(٢).

وقد حفل كتاب الفهرست لابن نديم بسرد مجموعة هائلة من أعلام الظاهرية في هذا الدور الفقهي^(٣)، وكان المذهب الظاهري أكثر أتباعاً في بلاد فارس - إيران - منه في خراسان وما وراء النهر، إلاّ أنّه ما لبث أن تراجع وقلّ أتباعه أمام مذهبي الشافعي وأبي حنيفة من أهل السنة، وأمام مذهب الإمامية من الشيعة.

وكان للشيعة بإيران أعلام وأتباع كثيرون منهم:

(١) شذرات الذهب ٣٦٦/٢ - ٣٦٧، البداية والنهاية ٨٤/١١، تذكرة الحفاظ ٦٤٠/٢ -

٦٤١، الأعلام ١٨١/١ - ١٨٢، معجم المؤلفين ٣٦/٢، تاريخ التراث العربي ٢٥٤/٣ -

٢٥٥ -

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) الفهرست ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

* أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار الأعرج القمي (٢٩٠هـ) وكان أحد العلماء المشهورين في فقه الشيعة الإمامية، من مصنفاته بصائر الدرجات في علوم آل محمد وما خصهم الله به^(١).

* أبو القاسم سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمي (٣٠١هـ) وكان فقيهاً ومحدثاً صنف كتاب المقالات والفرق وكتاب بصائر الدرجات، له ٣٧ مصنفًا^(٢).

* أبو محمد جعفر بن أحمد بن عليّ - وقيل جعفر بن عليّ بن أحمد - القمي الشهير بابن الرازي، نزيل الريّ وأحد شيوخ أبي جعفر محمد بن عليّ بن بابويه القمي، ويقال إنّه ألف ٢٢٠ كتابًا^(٣).

* أبو القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه القمي (٣٦٩هـ) كان محدثاً وفقياً^(٤).

ونلقى في آخر هذه المرحلة:

* أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (٣٨١هـ) ويعرف بالشيخ الصدوق، من أهل خراسان وبها ارتفع شأنه، ورد بغداد ونزل بالريّ، كان أبوه إمام الشيعة بمدينة قم، ويعتبر ابن بابويه أحد مشاهير المؤلفين عند الشيعة الإمامية، ولم ير في القميين مثله.

صنف كتاب معاني الآثار ويشتمل على مجموعة من الأحاديث، وله مجالس المواعظ أو الأمالي، وعيون أخبار الرضا ويشمل حياة عليّ بن موسى الرضا وأقواله، وكتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه وهو أحد الكتب الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإمامية، وقد ألفه صاحبه

(١) معجم المؤلفين ٢٠٨/٩، هدية العارفين ٢٤/٢، تاريخ التراث العربي ٢٨٧/٣.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢٨٨/٣، الأعلام ١٣٥/٣ - ١٣٦، معجم المؤلفين ٢١١/٤ - ٢١٢.

(٣) تاريخ التراث العربي ٢٩٧/٣ - ٢٩٨، معجم المؤلفين ١٣٢/٣ - ١٣٣.

(٤) تاريخ التراث العربي ٣٠٠/٣، معجم المؤلفين ١٤٦/٣.

تلبية لرغبة محمد بن الحسن بن إسحاق بن الحسين الذي قابله في بلخ، وقد اعتنى أعلام الشيعة بهذا الكتاب فتناولوه بالشرح والتعليق، وله كذلك علل الشرائع والأحكام والأسباب وله المقنع في الفقه وكتاب الهداية في الأصول والفروع، وغيرها من الكتب، وقد ذكروا له ٣٠٠ مصتفاً، وكانت وفاته بالري^(١).

تلك فكرة إجمالية عن انتشار المذاهب الفقهية بهذه الأصقاع من البلاد الإسلامية، ومدى مساهمة أبناء هذا المركز الإسلامي في تطوّر حركة الفقه في هذه المرحلة، سواء منهم الذين استقرّوا واستوطنوا بهذا المركز، أو الذين طافوا البلاد شرقاً وغرباً وأسهموا في تنشيط الحركة الفكرية بالمراكز الأخرى، من الذين تدلّ نسبتهم عليهم، كالأصفهاني والقمي والإصطخري والنيسابوري والمروزي والهروي والقاشاني والشاشي والخوارزمي والسمرقندي والبلخي والجرجاني وغيرها من الألقاب.

- ٥ - بلاد المغرب:

بلي هذا المركز الإفريقي في هذه المرحلة من هذا الدور بظهور بني عبيد الفاطميين الذين بسطوا سلطانهم على هذه البلاد واستحكم أمرهم بها من سنة ٢٩٦هـ إلى سنة ٣٦٢هـ، تاريخ انتقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب إلى مصر.

وقد حرص بنو عبيد من ساعة قيامهم على محاولة القضاء على المذهب المالكي الذي كان يسود في هذه البلاد، وأحدثوا المدارس بالمساجد لتكوين الدعاة لنشر المذهب الشيعي، وأسكتوا بقوة السلطان أصوات علماء المذهب المالكي المعارضين لسياستهم، وقاموا بحملات اضطهادية واسعة عرف خلالها الفقهاء والعلماء شتى أنواع التنكيل، إلاّ أنّه بحكم ما كان يتمتع به بعض العلماء من شهرة واسعة لدى جمهور الناس وبحكم ما عرف به بعض الفقهاء من رأي نافذ وإرادة صلبة، اضطرت

(١) الأعلام ١٥٩/٧، معجم المؤلفين ٣/١١، تاريخ التراث العربي ٣٠١/٣ - ٣٠٩.

الدولة الشيعة أن تتوخى أحياناً الحيطة، وربما اتخذت أحياناً أخرى مبدأ المداراة^(١).

ورغم تلك الأحداث التي دارت بهذه البلاد، والمعاناة التي لاقاها كثير من أعلامها، فإنَّ جبل العلم بها لم ينقطع، واستمرَّ على الرغم من كلِّ ذلك أعلام هذا المركز على العطاء دون انقطاع في محاولة منهم للمحافظة على خصوصياتهم.

وأما المذاهب الفقهية التي عرف لها أتباع في هذه البلاد فهي:

* المذهب المالكي الذي مال إليه أغلب فقهاء هذه البلاد، فكان غالبية الناس يلتزمون بالمالكية^(٢).

* والمذهب الحنفي الذي ظهر هو الآخر بإفريقية التونسية، فقد استمرَّ وجوده بها إلى نهاية هذه المرحلة من هذا الدور، ودخل منه شيء بمدينة فاس^(٣).

* المذهب الشيعي الذي ظهر له أتباع بظهور الدولة العبيدية التي حاولت أن تمكِّن له بهذه البلاد.

وذكر القاضي عياض أنه كان بالقيروان قلة قد أخذوا بمذهب الشافعي وأنه قد دخلها شيء من مذهب أهل الظاهر^(٤).

(١) انظر كتابنا: سوسة من قيام الدولة الأغلبية إلى انتصاب الحماية الفرنسية ص ٧٧.
(٢) وقد جانب ابن تغري بردي الحقيقة والواقع حين قال: «كان الغرب يوم ذاك - أيام الدولة العبيدية - غالبه حنفيّة إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط المعزّ بن باديس» والواقع أنّ الظهور لمذهب الكوفيين في تلك المدّة إنّما كان في القضاء والرئاسة، أما على مستوى القاعدة الشعبية فقد كان المالكية هم الغالبية، وعامة الناس يقتدون بهم، إلى أن ضعفت دولة بني عبيد، فأصبحت سائر بلاد المغرب مطبقة على هذا المذهب مجمعة عليه لا يعرف لغيره قائم (النجوم الزاهرة ٤/١٥٥)، وانظر: ترتيب المدارك ١/٥٤ - ٥٥).

(٣) ترتيب المدارك ١/٨٠، الدياج المذهب ص ٤٧.

(٤) ترتيب المدارك ١/٥٤.

ومن أشهر أعلام المالكية في هذه المرحلة:

* القاضي أبو العباس عبدالله بن أحمد بن طالب الأغلبي التميمي:
(٢١٧هـ - ٢٧٥هـ) - ابن عمّ بني الأغلب أمراء القيروان - تفقه بسحنون
وكان من كبار أصحابه، ولقي أصحاب مالك المصريين مثل محمد بن
عبدالحكم ويونس بن عبدالأعلى، وعنه أخذ أبو بكر بن اللباد.

ولي قضاء القيروان مرتين، فكان عدلا في قضاؤه، صارما في جميع
أمره، ورعا في حكمه، قليل الهيبة في الحق للسلطان، فمال الناس إليه
وأحبوه لعدله وسماحته وعقله وحسن سيرته وعلمه.

كان فطنا جيّد النظر، يتكلّم في الفقه فيحسن، وكان إذا تكلم أجاد
وأبان حتى يودّ السامع ألا يسكت، وكان حريصا على المناظرة فيجمع في
مجلسه بين أهل المناظرة في الفقه، ويغري بينهم لتظهر الفائدة.

لم يكن شيء أحبّ إليه من المذاكرة في العلم، وقد قال ابن اللباد:
ما رأيت بعيني أفقه من ابن طالب إلا يحيى ابن عمر، امتحن وسجن،
فكان يقول: إنما العزيز من كان معه القرآن والعلم، وأما من كان معه
السلطان فليس بعزيز، سقي سمّا، وتوفّي وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

له كتاب في الردّ على من خالف مالكا، وتأليف في الردّ على
المخالفين من الكوفيين، وعلى الشافعي، وثلاثة أجزاء من أماليه^(١).

* القاضي عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقي: (٢١٤هـ - ٢٧٥هـ)
كان ابتداء طلبه للعلم سنة ٢٢٤هـ حيث سمع من شيوخ إفريقية مثل
سحنون وابنه، ثم رحل إلى الشام ومصر، وبمصر سمع من الحارث بن

(١) ترتيب المدارك ١٩٤/٣ - ٢١٢، الديباج المذهب ص ٢١٨ - ٢١٩، رياض النفوس
٤٧٤/١ - ٤٧٩، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٨٦ - ١٨٨ و ٢٥٧ و ٢٩٧ و ٣٠٦،
طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨، معالم الإيمان ١٥٩/٢ - ١٧٤، شجرة النور
الزكية ص ٧١.

مسكين والربيع وابن المواز ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وغيرهم. كان فقيهاً عالمياً فصيحاً ورعاً مهيباً وقوراً ثقة مأموناً صالحاً، متفتناً في علوم كثيرة: الحديث ورواته والفقه وأحكامه، واللغة والشعر، وكان كثير الكتب في الفقه وكان ذا سمت وخشوع، دائم الحمد رقيق القلب غزير الدمعة.

كانت ولايته للقضاء ثمان سنين وأحد عشر شهراً، وقرية مسجد عيسى بالساحل التونسي معروفة به إلى هذا الوقت^(١).

* أبو زكرياء يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى : (٢١٣هـ - ٢٨٩هـ) ولد بالأندلس وبها نشأ، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها منهم عبدالمك بن حبيب عالم الأندلس ومفتي قرطبة وزعيمها في المشاورة والمناظرة، ثم شد رحاله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهناك طلب العلم عند قاضي المدينة أبي مصعب الزهري (٢٤٢هـ) وعند نصر بن مرزوق وابن كاسب (٢٤٠هـ) المدني وغيرهما.

ومن أرض الحجاز توجه إلى مصر حيث تلامذة عبدالله بن وهب فقيه مصر، وحيث أتباع عبدالرحمن بن القاسم أعلم العلماء بعلم مالك وآمنهم عليه، وحيث أصحاب أشهب صاحب الرئاسة في الفقه المالكي بمصر بعد ابن القاسم.

قصد يحيى مصر وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشر من عمره، وسن أخيه مرافقه العاشرة، فأقام هناك مدة أخذ فيها العلم عن أئمة محدثيها وجلّة فقهاءها من المالكية من أمثال يحيى بن بكير (٢٣١هـ) أحد أصحاب الرواية المشهورة للموطأ، وابن رمح (٢٤٢هـ) وحرملة بن يحيى (٢٤٣هـ) صاحب الشافعي، والحرث بن مسكين (٢٥٠هـ) قاضي مصر وأحد الراويين عن ابن القاسم، وغيرهم من أصحاب ابن وهب وابن القاسم

(١) ترتيب المدارك ٢١٢/٣ - ٢٢٨، الديباج ص ٢٨٠ - ٢٨١، قضاة قرطبة وعلماء

إفريقية ص ١٩٣ - ١٩٥ و٣٠٨، شجرة النور الزكية ص ٧٢ - ٧٣.

وأشهب، وقد بلغ عدد شيوخه بمصر حسب ما ورد في كتب الطبقات ستة عشر شيخاً.

وبعد أن اتصل يحيى بالمركز المدني وارتوى من معين المركز المصري، حطّ رحاله بإفريقية وصحب سحنون وبه تفقّه وصار من رواده وعدّ في كبراء أصحابه، وتلقّى أيضاً علمي الفرائض والحساب عن أبي زكرياء الحضرمي (٢٣٧هـ).

كان يحيى بن عمر فقيهاً حافظاً للرأي، ثقة ضابطاً لكتبه متقدماً في الحفظ، وكان من أهل الوقار والسكينة على ما يجب لمثله، تأدّب في ذلك بأداب مالك.

قال تلميذه عبدالله الأبياني: ما رأيت مثل يحيى في علمه وورعه وكثرة دعائه وبكائه، وكان حريصاً على أهل العلم يحرض طالبه ويشرفه، والوصف والله يقصر عن يحيى وفضله، وما يجهل أمره إلا جاهل.

انتهت إلى يحيى بن عمر الرحلة في وقته، وسكن بادية الأمر القيروان فشرفت بها منزلته عند العامة والخاصة ورحل الناس إليه لا يروون مدونة سحنون وموطأ مالك إلا عنه.

وكان يجلس في جامع القيروان ويجلس القاريء على كرسي يسمع من بعد من الناس لكثرة من يحضره، وكان يحيى جليلاً في قلوب الناس عظيماً في أعينهم ما رأى الناس أحفظ منه ولا رأوا مثله في علمه وورعه.

سمع عليه خلق عظيم من أهل القيروان في جامع عقبة، وكان إذا انصرف من الجامع تبعه الناس.

ولم تقتصر مجالس العلم التي كان يعقدها يحيى بن عمر على القيروان وجامعها، بل شملت كذلك مدينة سوسة وجامعها الكبير، فقد قال أبو الحسن اللواتي: كان عندنا يحيى بن عمر بسوسة يسمع الناس في المسجد الجامع فيمتلىء المسجد وما حوله فسألوه الانتقال منه لما هو أوسع فلم يفعل.

تفقه بيحيى خلق كثير وتخرج على يديه علماء أفذاذ نذكر منهم أخوه محمد بن عمر (٣١٠هـ) وأبو العرب التميمي (٣٣٣هـ) مؤرخ إفريقية وأبو العباس الأبياني التونسي (٣٥٢هـ) وأشهر تلاميذه على الإطلاق أبو بكر محمد بن اللباد (٣٣٣هـ) رئيس المالكية بإفريقية وشيخ ابن أبي زيد القيرواني، وغير هؤلاء كثير أوصلهم أصحاب الطبقات إلى خمسة وثلاثين عالماً قد أصبحوا فيما بعد أصحاب شأن.

كان يحيى بن عمر من أشد العلماء مقاومة للبدع المخالفة للكتاب والسنة، ولقد ألف كتاباً خاصاً في الرد على أهل البدع، وهو كتاب النهي عن حضور «مسجد السبت» بريض المتبتلين بالقيروان، حيث كان يجتمع فيه كل سبت بعض أهل التصوف للذكر والعبادة وينشدون الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وهم يمثلون بذلك لوناً من الحياة تميل إلى الزهد والنسك.

ألف يحيى نحو أربعين مصتفاً في الحديث والفقه وفي الرد على أهل البدع والأهواء وفي مسائل من العلم متفرقة أهمها: كتاب الرد على الشافعي وكتاب المنتخبة، وهو اختصار للمستخرجة التي تسمى بالعتبية المنسوبة إلى محمد بن أحمد العتبي، وقد كان لها بإفريقية القدر العالي والصيت الرفيع، وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب وكتاب أحكام السوق، وهو أول تأليف ظهر في العالم الإسلامي يبحث في شؤون الأسواق ويضبط أحوالها، وينزل الأحكام الفقهية عليها بما صير لها مادة متميزة عن عموم الفقه^(١).

* أبو بكر محمد بن اللباد (٣٣٣هـ) من أصحاب يحيى بن عمر وبه

(١) ترتيب المدارك ٢٣٤/٣ - ٢٤١، رياض النفوس ٤٩٠/١ - ٥٠٤، معالم الإيمان ١٥٦/٢ - ١٦٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٨٤ و ٢٩٧، جذوة المقتبس ص ٣٥٤ - ٣٥٥، الديباج المذهب ص ٤٣٢ - ٤٣٣، تاريخ العلماء والرواة ١٨١/٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٣، تراجم المؤلفين التونسيين ٤٢٥/٣ - ٤٢٦، كتاب العمر ٦٠٩/٢ - ٦١٣.

تفقّه وأخذ عن أخيه محمد بن عمر وابن طالب وسمع من الشيوخ الذين كانوا في وقته، وبه تفقّه أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني وروى عنه درّاس بن إسماعيل.

كان فقيهاً جليل القدر عالماً باختلاف أهل المدينة واجتماعهم مهيباً مطاعاً، له حظّ وافر من الفقه والحفظ فكان من الحفاظ المعدودين والفقهاء المبرزين.

كان رئيس المالكية في وقته بالقيروان، وكان من أعظم المناهضين لحكم بني عبيد ومذهبهم، فسجنوه مدة ثم أطلقوا سراحه ومنعوه من الإفتاء وإسماع التلاميذ، ومنعوا الطلبة من الاجتماع حوله، فكان أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني وأبو محمد بن التبان الفقيهان وغيرهما يأتون إليه خفية، وكانوا ربّما جعلوا الكتب في أوساطهم وحجرهم حتى تبتلّ بعرقهم خوفاً منهم على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه^(١).

* أبو سليمان ربيع بن سليمان بن عطاء الله القرشي: (٢٨٨هـ - ٣٣٤هـ) المعروف بالقطان، من الفقهاء المعدودين والعبّاد المجتهدين والنسّاك أهل الورع والدين، كان عالماً بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانيه، حافظاً للحديث عالماً بمعانيه وعلله ورجاله وغريبه، معتنياً بالمسائل والفقه، فقيهاً مفتياً حسن التصرف، عالماً بالوثائق.

اشتهر ربيع القطان بجودة الذهن والفقه الجيّد والضبط، وكانت له حلقة بجامع القيروان إذ كان لسان إفريقية في زمانه في الزهد والرقائق، لا يفوته في ذلك أحد في وقته.

وبعد أن رجع من الحجّ سنة ٣٢٤هـ لزم الانقباض والاشتغال بنفسه

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٠٤ - ٣١١، الديباج المذهب ص ٣٤٦ - ٣٤٧، رياض النفوس

٢/٢٨٣ - ٢٩٢، معالم الإيمان ٣/٢٣ - ٣١، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٠،

طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠.

والتزم للإقراء في دكانه الذي يبيع فيه القطن، وفيه كان يأتيه من يدرس عليه من الطلبة أم من يسأله ويستفتيه.

كان ربيع ممتن عقد الخروج لمحاربة بني عبيد في حصار المهديّة، وكان قد جعل على نفسه عهداً ألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله عزّ وجلّ دولة بني عبيد، فكانت رغبة بين عبيد ورجالهم أن يأخذوا ربيع حياً ليشفوا منه نفوسهم، فلما لقوه في القتال أقبل وهو يطعن فيهم ويضرب وهم يتوقفون عنه رجاء القبض عليه حياً فلما أئخنهم بالضرب حملوا عليه فقتلوه وأخذوا رأسه فطيف به^(١).

* أبو العباس عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الأبياني: (٣٥٢هـ) تفقه بيحيى بن عمر وبغيره من أصحاب سحنون وبه تفقه أهل مدينة تونس.

كان أبو العباس من شيوخ أهل العلم، وحافظ مذهب مالك، وله ميل إلى مذهب الشافعي، وكان عالم إفريقية غير مدافع، حسن الضبط جيّد الاستنباط، وكان ابن أبي زيد القيرواني إذا نزلت به نازلة مشكلة كتب إليه بيّتها له.

لما ذهب إلى مصر تلقاه نحو أربعين فقيهاً لم يكن فيهم أفقه منه، وقال أبو إسحاق ابن شعبان: ما يزال بالمغرب عالم ما دام بين أظهرهم، وما عدى التّيل منذ خمسين سنة أعلم منه^(٢).

وفي أقصى المغرب تلقى:

* أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل: (٣٥٧هـ) من أهل مدينة فاس، سمع من شيوخ بلده، وسمع بإفريقية من أبي بكر ابن اللباد وغيره، وسمع كذلك من شيوخ الأندلس وفقهائها، وبالإسكندرية سمع الموازية - كتاب محمد ابن المواز - حدّث بها بالقيروان وسمعها منه ابن أبي زيد القيرواني

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٢٣ - ٣٣١، معالم الإيمان ٣/٣٥ - ٤٢، رياض النفوس ٢/٢٢٣ - ٣٤٦ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٣٤.

(٢) ترتيب المدارك ٣/٣٤٧ - ٣٥٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠.

وأبو الحسن القاسبي وغيرهما من أهل العلم.

كان أبو ميمونة من الحفاظ المعدودين والأئمة المبرزين من أهل الفضل والدين، حافظاً للرأي على مذهب مالك، ولما نزل القيروان أطلع الناس من حفظه على أمر عظيم، حتى كان يقال: ليس في وقته أحفظ منه وقيل إنّه كان أحفظ أهل زمانه بمذهب مالك وأصحابه، وكان نزوله عند ابن أبي زيد.

رجع إلى فاس واستقرّ بها إلى أن توفي سنة ٣٥٧هـ وقيل سنة ٣٥٨هـ، وهو أول من أدخل مدوّنة سحنون مدينة فاس وبه اشتهر مذهب مالك هنالك^(١).

وبدّراس تأسس هذا الفرع الجديد من المركز الإفريقي الذي هو الفرع الفاسي، هذا الفرع الذي لم يتكوّن إلا في أوائل القرن الرابع الهجري، بهذا الفقيه الفاسي الذي افتتح به القاضي عياض سلسلة فرع المغرب الأقصى من فقهاء المالكية.

فكان درّاس الحلقة الأولى في سلسلة الفقهاء التي امتدّت ألف سنة، فتقوم بها مركز نابيه من مراكز التوجيه الإسلامي، اعتزّت به فاس بين عدوتيهما: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين^(٢).

ومن مشاهير فقهاء فاس ومتقدّميهم كذلك خير الله بن القاسم الفاسي^(٣).

وفي مدينة سبتة نلتقي بأبي الأصبح عيسى بن علاء ابن نذير بن أيمن (٢٥٠هـ - ٣٣٦هـ) الذي سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وطبقته من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٢٤هـ، ثم عاد إلى مسقط رأسه سبتة وولي بها الصلاة

(١) ترتيب المدارك ٣٩٥/٤ - ٣٩٧، شجرة النور الزكية ص ١٠٣، تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ٢٦٤/١.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي ص ٣٦.

(٣) ترتيب المدارك ٣٩٧/٤.

والقضاء، وكان فقيهاً عالمياً ومحدثاً ضابطاً، فسمع منه الكثير من أعلام أهل سبته^(١).

ونلتقي بمدينة سبته أيضاً بأبي موسى عيسى بن سعادة السجلماسي (٣٥٥) الذي وشّحه عياض بقوله: «من فقهاء بلدنا ومشاهير المغرب»، وكان قد تلقى العلم عن خير الله بن قاسم.

رحل في طلب العلم سنة ٣٠٣هـ، فطلب بالقيروان ومصر والأندلس، وحفظ الحديث وفاق فيه غيره، وكان في الحفظ عجباً.

ولما مات تنازع الفقهاء والمحدثون كلهم يدّعيه، ويقول: أنا أحقّ بالصلاة عليه^(٢).

وفي ليبيا التي كان جميع أهلها على مذهب مالك حيث نشره فيهم الإمام سحنون الذي حطّ رحاله في مدينة إجدابية الليبية سنة ١٩١هـ عند عودته من رحلته المشرقية، فسمع منه أهلها، كما صرح بذلك الإمام سحنون نفسه^(٣) ثم توقف بطرابلس ومكث بها مدة لتعليم أهلها وإسماعهم المدونة^(٤).

في هذه المنطقة من بلاد الغرب الإسلامي نلتقي بالكثير من أعلام المالكية في هذه المرحلة من هذا الدور، فنلقى منهم بمدينة سرت: أبو حفص عبدالجبار بن خالد السرتي (٢٨١هـ) أحد عقلاء شيوخ إفريقية، وكان من أكابر أصحاب الإمام سحنون وعليه اعتماده، وكان سحنون إذا اجتمع إليه الناس للسمع منه لا يبدأ درسه حتى يحضر عبدالجبار.

كان صاحباً لحمديس القطان، وبهما يضرب المثل في الفضل والدين، إلا أنّ عبدالجبار كان أبه وأفهم لمعاني العلم والفقه من حمديس.

(١) المصدر السابق ٥٣٩/٤.

(٢) نفس المصدر ٥٣٩/٤ - ٥٤٠.

(٣) طبقات أبي العرب ص ١٨٦، ترتيب المدارك ٥٨٧/٢.

(٤) ترتيب المدارك ٥٩١/٢.

كان ذا رئاسة في العلم ونظر تام، عالماً واسع العلم، درّس العلم حتى كاد يبلغ مبلغ سحنون، وعنه أخذ أبو بكر ابن اللبّاد وغيره من أعلام إفريقية^(١).

وفي برقة تلقى الفقيه أبو محمد عبدالله بن إسماعيل البرقي (٣١٧هـ) وكان من أهل الفقه والأدب، صاحب مناظرة حسنة وحفظ جيّد، غلب عليه في آخر عمره الورع والزهد وأشرب قلبه الخوف من الله، فكان دائم البكاء ولسانه يلهج بتعظيم الله وتحميده، وكان يختم القرآن في كلّ يوم ختمة.

وفي سنة وفاته خلاف كبير، فحكى ابن حارث الخشني أنّه توفي سنة ٣١٠هـ، وذكره المالكي في وفيات سنة ٣٢٢هـ، ونقل عن القاضي عياض في إحدى روايتين أنّ وفاته كانت سنة ٣١٧هـ^(٢).

وفي مدينة تاهرت الجزائرية - وكان قد خرّبها الفاطميون - تلقى أبو العباس فضل بن نصر التاهرتي المعروف بابن الرايس، كان فقيهاً صالحاً عالماً بمذهب الشافعي، وكان له حظّ من قيام الليل، فكان يصلي كلّ ليلة بثلاث القرآن، وكانت وفاته سنة ٣٤٤هـ، وقيل سنة ٣٤٥هـ، وصحّح ابن ناجي القول الأول^(٣).

وكذلك الأمر في سائر مدن ومناطق هذا المركز الفقهي، ففي كلّ موقع تجد عالماً ينشر علماً، وفي كلّ بقعة تجد فقيهاً يملي درساً، وفي كلّ مسجد تجد طلبة يستفرغون الوسع ويبذلون الجهد في جمع أنواع العلوم واستيعاب شتى الفنون.

وهكذا فرغم سياسة بني عبيد الفاطميين القائمة على اضطهاد أعلام

(١) رياض النفوس ٤٦٣/١ - ٤٧٠، فقهاء قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٩٧، معالم الإيمان ١٨٥/٢ - ١٩٢، ترتيب المدارك ٢٦٠/٣ - ٢٦٣.

(٢) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٣٣، ترتيب المدارك ٣٦٢/٣، رياض النفوس ٢٠٠/٢ - ٢٠١.

(٣) رياض النفوس ٤١٩ / ٢ - ٤٢١، معالم الإيمان ٦٨/٣ - ٧٠.

المالكية ومحاولة إخماد أصواتهم والقضاء على مذهبهم، فلم يمنع ذلك من ظهور أفذاذ من أتباع المذهب المالكي بهذه البلاد خلال هذه المرحلة من تاريخ الفقه الإسلامي، وبذل عدد كبير منهم كل ما في وسعهم من أجل حماية وجودهم وإثبات جذورهم باعتبارهم أتباع أعظم مذهب من حيث الانتشار والقبول بهذه البلاد، فنبغ الرجال الذين ازدحمت بهم تراجم أصحاب الطبقات كما ازدحمت بهم مساجد وجوامع هذا المركز المغربي.

ولم يقتصر نشاط حركة الفقه على الرجال فقط بل شملت كذلك النساء الفقيهات من أمثال خديجة بنت سحنون التي كانت من أحسن النساء وأعقلهن^(١)، وغيرها من المتفقيات في هذه المرحلة من أمثال بنت القاضي عيسى بن مسكين وبنات أخيه اللائي كنّ يتعلمن القرآن والعلم عليه^(٢)، وغيرهن كثيرات.

أما صقلية فقد كان ظهور المذهب المالكي بها في بدايات هذه المرحلة عن طريق قضاة صقلية الذين كانوا يفقهون الناس على مقتضى المذهب المالكي، أو عن طريق بعض أعلام المالكية الذين كانوا يخرجون إلى صقلية ويستقرون بها ونذكر من هؤلاء:

القاضي أبو الربيع سليمان بن سالم القطان: (٢٨٩هـ) المعروف بابن الكحالة، من أصحاب سحنون ومن مشايخ إفريقية، وكان الغالب عليه الرواية والتقيد، وله تأليف في الفقه يعرف بكتاب السليمانية، ولأه عبدالله بن طالب قضاء باجة ثم ولي قضاء صقلية سنة ٢٨١هـ، فنشر بها علماً كثيراً، وعنه انتشر الفقه المالكي بصقلية، ولم يزل عليها قاضياً إلى أن مات سنة ٢٨٩هـ^(٣).

(١) ترتيب المدارك ١١٩/٣.

(٢) ترتيب المدارك ٢٢٧/٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨، قضاء قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٠٠ - ٢٠١، ترتيب المدارك ٢٣٣/٣ - ٢٣٤ الديباج المذهب ص ١٩٥، شجرة النور الزكية ص ٧١.

ولقمان بن يوسف (٣١٩هـ) الذي كان حافظاً لمذهب مالك حسن القريحة فيه، وكان قد تتلمذ على يحيى بن عمر وعيسى بن مسكين وغيرهما من أهل إفريقية، ورجل حاجاً فسمع بمصر حديثاً كثيراً، ثم سكن جزيرة صقلية أعواماً^(١).

وأما أشهر أعلام الحنفية بإفريقية فمنهم:

عبدالله بن محمد بن الأشج: وقد كان مذهبه مذهب الكوفيين - كما ذكر ابن حارث الخشني - وكان من أهل الجدل والكلام على مذهبه^(٢).

أحمد بن بحر: الذي قال عنه ابن حارث الخشني: «وكان قد جنح إلى مذهب العراقيين» وقد ولي مظالم القيروان ثم ولي قضاء طرابلس، ثم نقل إلى قضاء القيروان^(٣).

القاضي أبو العباس محمد بن عبدون بن أبي ثور: (٢٩٧هـ) الذي كان من أعلام الحنفية بإفريقية، تلقى علمه على القاضي سليمان بن أبي عمران (٢٦٩هـ).

تولى القضاء سنة ٢٧٥هـ، وكان ابن عبدون من كبار الكوفيين المتعصبين لمذهب أبي حنيفة، فامتحن على يديه خلال فترة قضائه جماعة من فقهاء المالكية، ودارت عليهم منه محنة نتيجة للجدل المذهبي الذي كان على أشده بين فقهاء الحنفية الذين تحالفوا مع التيار المعتزلي وبين فقهاء المالكية الذين وقفوا سداً منيعاً ضدّ القول بخلق القرآن، فما كان من ابن عبدون إلا أن أغرى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى بأعلام المالكية، وأخافهم ونكل بهم حتى توارى واختفى بعضهم، وفرّ البعض الآخر، وما زال ابن عبدون يطلب مخالفه ويلاحقهم حتى كثرت اعتدائه وفشا

(١) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٢٤.

(٢) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٥٠.

(٣) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٣.

ظلمه، فعزله الأمير الأغلبي بعد ثلاثين شهراً من توليته، وقال: لو تركته لأحدثت له مقبرة^(١).

ورغم ميل الكثرة الكاثرة من الفقهاء في هذه البلاد إلى مذهب مالك، والتزام البعض الآخر بمذهب أبي حنيفة، لم نعدم في هذه الديار خلال هذه المرحلة من الظفر ببعض الأتباع من أصحاب المذاهب السنية الأخرى، فقد ذكر القاضي عياض أنه كان بالقيروان قوم قلّة أخذوا بمذهب الشافعي ودخلها شيء من مذهب داود^(٢).

وأما أشهر أعلام الشيعة الإسماعيلية الذين نشطوا بهذه البلاد تحت رعاية الدولة العبيدية فنذكر منهم:

القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القيرواني: (٣٦٣هـ) المعروف بأبي حنيفة المغربي، كان مالكي المذهب ثم انتحل المذهب الإسماعيلي الشيعي وأخلص له حتى عين قاضياً في عهد المهدي (٢٩٦هـ - ٣٢٢هـ) أول خلفاء بني عبيد الفاطميين، وتولى قضاء طرابلس في عهد القائم (٣٢٢هـ - ٣٣٤هـ) ثاني خلفائهم، ثم جعله المنصور بالله (٣٣٤هـ - ٣٤١هـ) قاضي قضاة الدولة العبيدية، وبقي على هذه الخطة إلى حين وفاته بمصر في عهد المعزّ الفاطمي (٣٤١هـ - ٣٦٥هـ).

ألف أكثر من عشرين مصتفاً من بينها: كتاب دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله، وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة في الفقه وعلم الكلام عند الإسماعيلية، وهو عمدة كتب الإسماعيلية في الفقه، وله مختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار، ألفه بأمر من المعزّ لدين الله، وله الاقتصار والينبوع والإيضاح كلّها في فروع الفقه الإسماعيلي، وله افتتاح الدعوة وابتداء الدولة الذي ألفه

(١) الجواهر المضية ١٨٩/٣، ترتيب المدارك ٢٣٣/٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٧، رياض النفوس ٥٠٠/١ و ٤٣/٢ - ٤٤ و ٦٧ و ٣١٤.

(٢) ترتيب المدارك ٥٤/١.

سنة ٣٤٦هـ وموضوعه بداية الخلافة الفاطمية، وله ردود على المخالفين، له ردّ على أبي حنيفة وعلى مالك وعلى الشافعي وعلى ابن سريج^(١).

وبخروج الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ عاد للمذهب المالكي نشاطه المعهود بهذه الديار، وأفشى شيوخه علمهم، وقام منهم جلة بالاعتناء بالمذهب تصنيفا وتديسا حتى طار ذكرهم بجميع أقطار البلاد^(٢).

فرجحت كفة المذهب المالكي على كفة أصحاب أبي حنيفة، حتى إذا كان عهد المعز ابن باديس الصنهاجي الذي حمل الناس والفقهاء على التزام مذهب مالك قلّ الاعتناء بالمذهب الحنفي وبدأ أتباعه في الانقراض بهذا المركز العلمي مع نهاية المرحلة الثانية من هذا الدور.

- ٦ - الأندلس:

كان رأي أهل الأندلس - كما سبق وأن بيّنا - منذ فتحت على رأي الإمام الأوزاعي، إلى أن رحل إلى الإمام مالك زياد بن عبدالرحمن اللخمي والغازي بن قيس وغيرهما من أهل طبقتهما، فحملوا عنه علمه، ثم تصدّروا عند عودتهم لتدريس مذهبه، إلى أن كان عهد هشام بن عبدالرحمن الداخل (١٧٢هـ - ١٨٠هـ) الذي حمل الناس جميعا على التزام مذهب مالك وصيّر القضاء والفتيا عليه، وشيخ المفتين يومئذ صعصعة ابن سلام إمام الأوزاعية وراويته^(٣)، ومنذ ذلك الوقت غلب مذهب مالك على بلاد الأندلس.

وعرفت الأندلس كذلك المذهب الشافعي الذي يعزى انتشاره بها إلى

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٦٣ - ٣٦٧، شذرات الذهب ٣/١٥٣ - ١٥٤، كشف الظنون ١/٥٧٧، هدية العارفين ٢/٤٩٥، النجوم الزاهرة ٤/١٠٦ - ١٠٧، وفيات الأعيان ٥/٤١٥ وما بعدها تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم ص ٤٧٤ - ٤٧٨.

(٢) ترتيب المدارك ١/٥٥.

(٣) ترتيب المدارك ١/٥٥.

ابن سيار القرطبي، والمذهب الظاهري وكان أول من نشره بها عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال.

كما عرفت كذلك المذاهب الثلاثة السنية الأخرى: الحنفية والحنبلية والظاهرية، أدخلها قوم من الرخالين والغرباء، غير أنهم لم يتمكنوا من نشرها فاندثرت تلك المذاهب بموتهم على اختلاف أزمانهم^(١).

ومن أشهر أعلام المالكية بهذا القطر نذكر:

* أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (٣٣٠هـ) الملقب بالبربري، كان جلّ سماعه من عمّه محمد بن عمر بن لبابة، ثم رحل فسمع بالقيروان من حماس بن مروان.

كان فقيهاً مقدّماً، من أحفظ أهل زمانه للمذهب، وله اختيارات في الفتوى والفقه خارجة عن المذهب، وله في الفقه كتب مؤلفة منها: المنتخبة الذي ألفه على مقاصد الشرح لمسائل المدونة، جمع فيه روايات المذهب وشرح مستغلقها وفرّع وجوهها، وقد أثنى عليه ابن حزم الفارسي بقوله: ليس لأصحابنا مثله.

ولي قضاء البيرة والشورى بقرطبة، ثم أسقطت منزلته من الشورى والعدالة وألزم بيته ومنع من الإفتاء، فأقام على ذلك وقتاً، ثم أعيد لخطة الشورى وبقي بها إلى أن مات^(٢).

* أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن يحيى (٢٨٤هـ - ٣٣٩هـ) المعروف بابن أبي عيسى من بيت يحيى بن يحيى منتهى النباهة والرئاسة في العلم، سمع بقرطبة من عمّ أبيه عبيدالله، ومن محمد بن لبابة وغيرهما.

(١) ترتيب المدارك ٥٥/١.

(٢) ترتيب المدارك ٣٩٨/٤ - ٤٠٣، الديباج ص ٣٤٨، جذوة المقتبس ص ٥٩ و ٩١، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٧٠٦ - ٧٠٧، بغية الملتبس مج ١٤، ج ١، ص ١٨٦.

رحل سنة ٣١٢هـ فحجّ وسمع من ابن المنذر وغيره، والتقى بجامعة من العلماء عند مروره بإفريقية ومصر.

كان حافظاً للرأي معتنيا بالآثار جامعا للسنن، ولم يزل في حداثة سنّه مشهوراً بضل، ظاهر السؤدد، طالباً للعلم، مجمعاً على تفضيله حتى تقلّد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٢٦هـ، فالتزم الصرامة في قضائه في تنفيذ الحقوق وإقامة الحدود والكشف عن أحوال الشهود والصدع بالحقّ في السرّ والجهر، ولم يدهن ذا قدر ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان عن هنة حتى تحاموا جانبه، فلم يكونوا يطمعون فيه، وله في التقصي عن إخراج الحقوق من أكابر الناس أخبار كثيرة.

كان يذهب أحسن المذاهب، بسط الحقّ وأحي العدل ونصر المظلوم وقمع الظالم، ولم يطمع شريف في حيفه ولا يئس وضيع من عدله، ولم يكن الضعفاء قطّ أقوى قلبوا ولا السنة منهم في أيّامه مع لطافة برّه وكثرة بشره.

توفي وله من العمر ٥٤ سنة ودفن بطليطلة^(١).

* أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد (٢٤٧هـ - ٣٤٠هـ) ويعرف بالبيّاني، نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة، سمع من بقيّ بن مخلد وأصبغ بن خليل وغيرهما من أعلام الأندلس، ورحل إلى المشرق مع محمد ابن عبدالملك بن أيمن (٣٣٠هـ) فسمع بمكة من ابن الصائغ، وبالعراق من القاضي إسماعيل وعبدالله بن أحمد بن حنبل وآخرين من طبقتهم، وبمصر من أبي الزنباع روح بن الفرج وغيره، ثم عاد إلى الأندلس بعلم كثير وسكن قرطبة فكان له بها قدر عظيم وسمع منه الناس ومالوا إليه.

كان بصيراً بالحديث والرجال، وغلبت عليه الرواية والسماع، وطال

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٠٥ - ٤١٢، الديباج ص ٣٦١، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص

١٧٢ - ١٧٥، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٧١٨ - ٧١٩.

عمره فلحق الأصغر فيه الأكبر، وشارك الآباء فيه الأبناء، وكانت الرحلة إليه بالأندلس، وهو مذكور في أئمة المالكية.

صنّف في الحديث مصتقات كثيرة، وله كتاب في أحكام القرآن صنّفه على منوال كتاب القاضي إسماعيل، وله كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن، وغيرها من الكتب.

تغيّر ذهنه قبل ثلاث سنوات من وفاته، وتوفي وله من العمر اثنتان وتسعون سنة^(١).

* أبو عيسى يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي (٢٦١هـ - ٣٤٦هـ) سمع من عمّ أبيه عبيدالله بن يحيى ومحمد بن لبابة وطبقتهما، وعمر إلى أن كان آخر من حدّث عن عبيدالله.

رحل إليه الناس من جميع الأندلس لرواية الموطأ وحديث الليث وكتاب سماع ابن القاسم وتفسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وعشرة جدّه يحيى الليثي، وهي كتب عشرة تلقّاها يحيى بن يحيى الليثي عن زياد بن عبدالرحمن المعروف بشبطون، وكان يحضر إليه لسماع الموطأ أكثر من خمسمائة تلميذ.

تفرّد بالقضاء والنظر في الأحباس فأدنى الضعيف وثبت في الحكم وتحقّق من شهود زمانه وتواضع في أمره وتعفّف، وكان جليل القدر عالي الدرجة في الحديث حمد الناس أحكامه وجميع أحواله.

وفي تاريخ ميلاده ووفاته خلاف كبير^(٢).

(١) جذوة المقتبس ص ٣١١ - ٣١٢، الديباج ص ٣٢١ - ٣٢٤، طبقات المفسرين ص ٣٢٤ - ٣٢٥، كشف الظنون ٦٥٨/٥، نفع الطيب ٤٧/٢ - ٤٩، معجم الأدباء ٢١٩٨/٥، تذكرة الحفاظ ٨٥٣/٣ - ٨٥٥، تاريخ علماء الأنندلس مج ٤، ج ٢، ص ٦١١ - ٦١٣.

(٢) ترتيب المدارك ٤١٢/٤ - ٤١٤، الديباج ص ٤٣٤، شذرات الذهب ١٧٥/٣.

* محمد بن أحمد بن عبدالله - ويقال أحمد بن عبدالله - بن أحمد الأموي (٣٥٠هـ) القرطبي المعروف باللؤلؤي - صناعة أبيه - كان أفقه أهل زمانه بعد موت ابن أيمن، ومن أحفظهم لمذهب مالك، وكان قد برع في علم السنن وتقدّم في الفتيا وأخذ من جميع العلوم بنصيب وافر.

كان كثير الرواية جيّد القياس صحيح الفطنة عالماً بالاختلاف، وكان من أهل الحدس الصادق والرأي المصيب^(١).

* أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي (٣٥٢هـ) طليطلي الأصل، سكن قرطبة لطلب العلم ثم استوطنها، وسمع بها من ابن لبابة وابن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهم، وكان أكثر أخذه عن ابن لبابة وبه تفقّه.

كان مجتهداً، من أهل العلم والفهم والعقل والدين المتين والزهد والتقى والبعد عن السلطان، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان متصرفاً مع الحق حيث ما تصرف.

كان من الراسخين في العلم، حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه، متقدماً فيه، صدرأ في الفتوى، وكان يناظر عليه في الفقه.

لم يكن في عصره أبين منه خيراً، ولا أكمل ورعاً، من المشاهير في الجمع والعلم والحفظ، من مصنفاته: معالم الطهارة، والصلاة، والنصائح.

كانت وفاته بطليطلة سنة ٣٥٢هـ، وقيل سنة ٣٥٤هـ، وسنّه خمس وسبعون سنة، ولما ورد خبر موته على أمير الأندلس الحكم الثاني المستنصر قال: الحمد لله الذي كفانا شرّه وخلّصنا منه، لخوفه منه وطوع العامة له^(٢).

(١) ترتيب المدارك ٤/٤١٤ - ٤١٨، الديباج ص ٣٤٩ - ٣٥٠، شجرة النور الزكية ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٤٢٤ - ٤٢٩، الديباج ص ١٥٧ - ١٥٨، جذوة المقتبس ص ١٥٨، شجرة النور الزكية ص ٩٠.

هذا، وقد حفل كتاب المدارك لعياض بترجمة جمع وافر لأعلام الفقه بالأندلس خلال هذه المرحلة، فذكر أكثر من تسعين ترجمة من أصحاب الطبقة الخامسة^(١)، وأكثر من سبعين ترجمة من أصحاب الطبقة السادسة^(٢) من أبناء قرطبة وطليلة ومالقة وإشبيلية وبطليوس ومرسيه وبلنسية وغيرها من عواصم الحضارة الإسلامية بالأندلس.

وكان أغلبهم من أهل العلم والعناية، ومن أحفظ أهل زمانهم لمذهب مالك، ومن أصحاب التصرف في الفقه والتوسع في الرواية، ممن تقدموا في الفتيا، وأخذوا منها بنصيب كبير وحظ وافر، حتى سارت بأنحاء الأندلس أخبارهم، وعرفت بها آراؤهم وأفكارهم، وحمدت في ذات الله مآثرهم وآثارهم.

ولولا خوف الإطالة لأتينا منهم بجمع غير.

وأما المذهب الشافعي فيعزى انتشاره في الأندلس إلى:

* قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار الأموي (٢٧٦هـ) القرطبي، له رحلتان إلى المشرق أقام في إحداها اثني عشر عاما، وفي الأخرى ستة أعوام، تفقه على الحارث بن مسكين ومحمد عبدالله بن عبدالحكم والقاضي إسماعيل بن إسحاق وغيرهم، ولزم ابن عبدالحكم والمزني للتفقه والمناظرة، حتى برع في الفقه، ومال إلى قول الشافعي وتحقق بمذهبه دون تقليد له.

لما عاد إلى الأندلس اعتنى بنشر المذهب الشافعي، وكان يفتي بمذهب مالك ويتحفظ كثيراً من مخالفة المالكية، فقال له تلميذه أحمد بن خالد: أراك تفتي الناس بما لا تعتقد؟ وهذا لا يحلّ لك، فقال: إنما يسألونني عن مذهب جرى في البلد يعرف فآفتيهم به، ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم.

(١) ترتيب المدارك ٣٩٧/٤ - ٤٦٣.

(٢) المصدر السابق ٥٤١/٤ - ٥٨٤.

صنّف كتاب الإيضاح في الردّ على ابن مزين والعتبي المالكيين وسمّاه الإيضاح في الردّ على المقلّدين، وكان يميل إلى النظر والاجتهاد وترك التقليد.

سأله ابنه أن يوصيه فقال: أوصيك بكتاب الله، فلا تنس حظك منه، واقرأ منه كلّ يوم جزءاً، واجعل ذلك عليك واجباً، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظّ - يعني الفقه - فعليك برأي الشافعي فإنّي رأيت أقلّ خطأ.

روى عنه ابنه محمد، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأسلم بن عبدالعزيز، وأحمد بن خالد وابن أيمن وغيرهم وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٢٧٦هـ وقيل سنة ٢٧٨هـ وقيل سنة ٢٧٧هـ^(١).

* أبو زكرياء يحيى بن عبدالعزيز (٢٩٥هـ) المعروف بابن الخرز، سمع من العتبي ونظرائه بالأندلس ثم رحل إلى مصر فتلقّى عن المزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وغيرهم.

عاد إلى قرطبة فنشر بها مختصر المزني ورسالة الشافعي، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الإمام الشافعي وأخذ الناس عنه بالقيروان العتبية^(٢).

* أبو الخيار هارون بن نصر القرطبي (٣٠٢هـ) لازم بقيّ بن مخلد نحواً من أربع عشرة سنة وأكثر الرواية عنه، وتلمذ كذلك على قاسم بن محمد، كان من أهل النظر والحجّة، وكان يميل إلى كتب الإمام الشافعي فاعتنى بها وحفظها وتفقه فيها، وكان محمد بن عمر بن لبابة يثني على أبي الخيار^(٣).

- (١) جذوة المقتبس ص ٣١٠، شذرات الذهب ٣٣٥/٢، الديباج ص ٣٢٠ - ٣٢١، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٤/٢ - ٣٤٥، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٥٩٧ - ٦٠٠، نفع الطيب ٥٠/٢ - ٥١، بغية الملتبس مج ١٥، ج ٢، ص ٥٨٧.
- (٢) تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٩٠٧ - ٩٠٩.
- (٣) جذوة المقتبس ص ٣٤١، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص.

* أبو الجعد أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم (٣١٧هـ) تتلمذ بالأندلس على بقي بن مخلد وصحبه طويلاً، وتتلّمذ أيضاً على قاسم بن محمد، وغيرهما من رجال الأندلس، وكانت له رحلة سنة ٢٦٠هـ روى فيها بمصر عن الربيع بن سليمان وإسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي، وسمع يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وكان أسلم إذا أتى مجلس ابن عبدالحكم وقد كثر الناس فيه، يقول له: خُلف إلى ها هنا، فيدنيه ويكرمه، ولقي سليمان بن عمران بالقيروان.

ولما قضى أسلم بالمشرق حجّه وسماعه عاد إلى الأندلس فنال بها الوجاهة العظيمة والمنزلة الشريفة، وكان يميل إلى مذهب الشافعي.

كان عظيم القدر شريف البيت معروف النصيحة، مع الجلالة في العلم والإدراك في الرواية، والرحلة في الطلب، والصحة في الديانة.

ولي قضاء الجماعة بالأندلس مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر، كانت الأولى من سنة ٣٠٠هـ إلى سنة ٣٠٩هـ، فكان شديد المباينة في الحق قليل المداراة فيه، لا هوادة عنده لظالم، ولا مداينة مع مبطل، من عيون القضاة في إثارة الحق ونفوذه، محمود السيرة، مشكور الحال.

ألح أسلم على الأمير في الاستعفاء من القضاء فعافاه منه، ثم ولاه ثانية سنة ٣١٢هـ، فكان أسلم قد أدركه الوهن وأخذت منه السنّ فانكسر بعض الانكسار، غير أنّه باقى الفطنة مجتمع الفهم يقرأ عليه العلم وتعرض عليه الكتب من فنون الحديث وأبواب الفقه ما يشدّ على مثله من أهل السنّ، فكان على تلك الحال حتّى كفّ بصره وضعف بدنه وعجز عن التصرف فعزله الأمير عن القضاء سنة ٣١٤هـ.

وكان رغم ميله لمذهب الشافعي يقضي بما عليه أمر الناس في قرطبة من مذهب مالك، وعدّه ابن فرحون من أعلام المالكية، وفي تاريخ وفاته

خلاف، فقيل توفي سنة ٣١٧هـ، وقيل سنة ٣١٩هـ^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير عبدالله (٣٣٩هـ) ابن عبدالرحمن الناصر صاحب الأندلس، كان فقيهاً شافعيًا وأديبا متنسكا، وقد سمت نفسه إلى طلب الخلافة في حياة أبيه، وتابعه قوم وأخفوا أمرهم وبيتوا على اغتيال والده وأخيه المستنصر ولي عهد أبيه، فبلغ أباه الخبر فقتله ومن معه ممن ناصره^(٢)، ولو كتب لهذا الأمير أن يعتلي عرش الأندلس لربما كان للمذهب الشافعي بتلك البلاد شأوا عظيما.

ومن أعلام الشافعية الذين وفدوا على الأندلس في هذه المرحلة:

* أبو الطيب محمد بن أبي أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة البغدادي (٣٧٢هـ) الذي دخل الأندلس سنة ٣٦١هـ فأكرمه الأمير المستنصر، وكان أبو الطيب من أعلم الناس بمذهب الشافعي وأحسنهم قياما به، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب، غير أنه قد أخرج منها بسبب آرائه التي تميل إلى الاعتزال^(٣).

* أبو القاسم عبدالله - وقيل عبيدالله - بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي (٢٩٥هـ - ٣٦٠هـ) الذي قدم الأندلس سنة ٣٤٧هـ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي إماماً فيه بصيراً به، عالماً بالأصول والفروع حسن النظر والقياس، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والحجة والرد والقراءات والفرائض، وقد استقرّ بقرطبة حتى توفي بها^(٤).

أما المذهب الظاهري فقد عرف بالأندلس في هذه المرحلة عن طريق:

-
- (١) جذوة المقتبس ص ١٦٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٥٥ - ١٦٠ و ١٦٢ - ١٦٣، الديباج ص ١٦٢ - ١٦٣، شذرات الذهب ٢/٤٨٠ - ٤٨١، تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ١٦٧ - ١٦٨.
- (٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٠٩ - ٣١٠.
- (٣) تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٨٠٤ - ٨٠٥.
- (٤) تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ٤٣٣ - ٤٣٥.

* أبو محمد عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال (٢٧٢هـ) من أهل قرطبة، وقد كان أول من نشر المذهب الظاهري بالأندلس بعد أن تتلمذ على مؤسسه داود الظاهري ببغداد - وكان من الدفعة الأولى المتخرجين على هذا المذهب - وكتب عن داود الظاهري كتبه كلها ودخل بها إلى الأندلس.

وكان عبدالله بن محمد بن قاسم قد نظر في علم الإمام مالك نظراً حسناً، ولقي المزني صاحب الشافعي وحدث عنه، غير أنه كان يميل إلى علم داود، فكان الأغلب عليه، وتقدم فيه واجتهد في نشره.

حدث عنه محمد بن عبدالملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ ومحمد بن قاسم وغيرهم من الأندلسيين^(١).

* أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبدالله البلوطي (٢٦٥هـ - ٣٥٥هـ) الذي كانت له رحلة سنة ٣٠٨هـ دامت ثلاث سنوات وأربعة أشهر، أخذ خلالها بمكة عن ابن المنذر كتابه في الاختلاف المسمى كتاب الإشراف، وأخذ عن غيره من أعلام عصره، ولما عاد إلى قرطبة تولّى القضاء بعض أعمال الأندلس، ثم ولّاه عبدالرحمن الناصر سنة ٣٣٩هـ، قضاء الجماعة والصلاة فكان صارماً غير هيب ولا جبان، وبقي على القضاء إلى أن مات الأمير عبدالرحمن سنة ٣٥٠هـ، فلما ولي الحكم المستنصر بالله، أقره على خطّيه، فلم يزل قاضياً وصاحب صلاة، وكانت صلواته في جامع الزهراء طول فترة قضاائه، فلم تحفظ له قضية جور ولا جرّبت عليه في أحكامه زلة.

كان عالماً فقيهاً وأديباً بليغاً، وخطيباً على المنابر وفي المحافل مصقعا، قوَّالاً للحق ناصحاً للخلق، فطناً مناظراً، ذكياً، بصيراً بالجدل، لهجا بالاحتجاج، مذهبه في الفقه مذهب النظر والاحتجاج وترك التقليد، وكان عالماً باختلاف العلماء، يميل إلى رأي داود ويحتج له وكان قوياً

(١) تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

على الانتصار لذلك، كثير التصانيف فمنها: كتاب الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله، وكتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة.

توفي وله من العمر ٨٢ سنة، وقيل ٨٤ سنة^(١).

وقد لقي مذهب أهل الظاهر معارضة شديدة من قبل أعلام المذهب المالكي بالأندلس، فهل سيكتب له النجاح بهذه البلاد، أم لا؟ ذلك ما يمكن أن نعرفه خلال الأدوار اللاحقة.

- ٧ - اليمن وبلاد الحجاز:

عرفت هذه الناحية من بلاد الإسلام خلال هذه المرحلة نكبات متتالية وأزمات متلاحقة، حيث اكتسحها الخوارج وعاث فيها القرامطة فسادا وإفسادا وصل بهم الأمر إلى انتزاع الحجر الأسود من موضعه بالكعبة المشرفة، وحمله إلى إحدى زوايا «الإحساء» إلى سنة ٣٣٩هـ.

وكنتيجة طبيعية للأحداث الشنيعة التي عرفت هذه المنطقة من العالم الإسلامي، هاجر الكثير من العلماء وذوي الشأن إلى المراكز الأخرى من بلاد الإسلام بحثا عن الأمن والاستقرار اللذان هما شرطان أساسيان من شروط تحقيق البناء الحضاري، وبفقدتهما تصرف الطاقات العلمية الخلاقة عن غايات البناء الفكري، وتفتقر الهمم وتضطرب العقول عن مراقبي الإنتاج الخصب، ويعتّم البلاد الكساد والإهمال، وابتلى الناس بخصم عنيد اسمه الفقر، فالسعيد منهم حينئذ من يتمكن من مهاجرة دياره.

وهذا ما يفسر لنا شخّ كتب الطبقات والتراجم التي جفت مادتها عن مدنا بأسماء أعلام هذا المركز خلال هذه المرحلة، وقصرت عن أن تشفي غليلنا في هذا المجال.

(١) جذوة المقتبس ص ٣٢٦ - ٣٢٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٧٥ - ١٧٦، شذرات الذهب ١١٦/٣ - ١١٧، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٨٤٥ - ٨٤٧، معجم الأدباء ٢٧١٧/٦ - ٢٧٢٢، نفع الطيب ٣٧٢/١، هدية العارفين ٤٧٢٩/٢.

ناهيك أن أعلام المذهب المالكي الذين سادوا الديار الحجازية منذ ظهور الإمام مالك، قد انقطع ذكرهم خلال هذه المرحلة، حتى أن القاضي عياض بعد أن ترجم لعدد وافرن أصحاب مالك المدنيين ممن كان لهم ظهور في العلم مدة حياته وقاربت وفاتهم وفاته، ثم من بعدهم ممن عرفوا بطول ملازمته وصحبته وشهروا بعده بتفقههم عليه، ثم من صحبوه صغار السن وقاربوا أتباع أتباعه وفضلوا بشرف مجالسته وسماعه.

فبعد وفرة هؤلاء الأعلام، نراه يقتصر في الطبقات الموالية على ترجمة أربعة أعلام^(١)، أو ترجمة علميين^(٢)، وربما اقتصر على ترجمة وحيدة يتيمة لم يتجاوز بها أربعة أسطر^(٣).

ومن هؤلاء نذكر:

* أبو القاسم محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالمؤمن^(٤) الذي سكن مكة وكان يذهب مذهب مالك، روى عنه جملة من الناس من الراحلين وغيرهم منهم أبو الحسن القاسبي.

* أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالمؤمن^(٥) الذي هاجر مكة ودخل العراق ثم سكن آخر أمره القيروان وصحب أبا محمد ابن أبي زيد وغيره من أئمتها وناظرهم وذاكروه وأثنوا عليه وأخذوا عنه.

* أبو إسحاق بن إبراهيم بن محمد الدينوري^(٦) الذي نزل مكة ولزمها وكان فقيهاً مالكيًا، من جلة العلماء، وكان حيًا بمكة سنة ٣٧٢هـ وقد نيف على الثمانين سنة.

(١) ترتيب المدارك ٣/٤٦٤ - ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق ٣/١٦٦.

(٣) نفس المصدر ٣/٥٥.

(٤) ترتيب المدارك ٤/٤٦٥.

(٥) المصدر السابق.

(٦) نفس المصدر ٤/٤٦٤.

* أبو القاسم سليمان بن علي بن سليمان الجبلي^(١) من جبلة الحجاز، وكان مقيماً بمكة رأس الثلاثمائة، وكان فقيهاً مالكيًا من أهل العلم.

وهذا يعني أنّ نشاط الفقه المالكي بعد أن كان الغالب على هذه البقاع حتى بداية هذه المرحلة قد قارب الانقطاع في نهايتها ليفسح المجال للمذاهب الأخرى وخاصة منها الشافعية والزيدية.

فأما الشافعية فقد أخذ أعلامه يعنون بنشر مذهبهم، وكان في مقدمتهم موسى بن عمران المعافري، وآل زرقان الذين كان من بينهم علماء عديدون عنوا بالفقه الشافعي، حتى استغرق مكة والمدينة.

ولم تبرح خطط القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة منذ ظهور مذهب الشافعي بهذا المركز في أيدي الشافعية^(٢).

وأما اليمن فكان الغالب على أهلها أيضاً مذهب الشافعي، لا يوجد بها غير شافعي إلا بعض زيدية^(٣) غير أنّ مذهب الزيدية قد عمّ اليمن بعد ذلك واشتهر منهم بالخصوص:

* أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم (٢٩٨هـ) الملقّب بالهادي إلى الحقّ، الذي نشأ بالحجاز ودانت له صنعاء بالولاء، ودعي له في الخطبة بالحرم المكي، ولقّب بالخليفة، وكان صاحب تصانيف منها: تفسير القرآن، والجامع في الحلال والحرام والسنن والأحكام، والمنتخب في الفقه، وتفسير معاني السنة، وكتاب السنة، والقياس، وغيرها من المصنّفات الأخرى في العقيدة وأصول الدين^(٤).

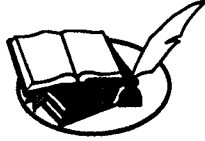
(١) نفس المصدر ٥٨٥/٤.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٧/١.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٧/١.

(٤) تاريخ التراث العربي ٣٣٥/٣ - ٣٤١، الأعلام ١٧١/٩، معجم المؤلفين ١٩١/١٣ -

- * أبو القاسم محمد بن يحيى بن الحسين المرتضى لدين الله (٢٧٨هـ - ٣١٠هـ) الذي ولد في صعدة ولزم أباه الهادي إلى الحق في اليمن^(١).
- * أحمد بن يحيى بن القاسم الحسيني الناصر لدين الله (٣٢٥هـ) ابن الهادي إلى الحق^(٢).



(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٤٣، الأعلام ٣/٨، معجم المؤلفين ١٢/١٠١.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٤٥، الأعلام ١/٢٥٣، معجم المؤلفين ٢/٢٠٢.

المرحلة الثانية:

جنوح الفقهاء إلى التقليد وغلق باب الاجتهاد

بداية من منتصف القرن الرابع الهجري تقريبا توقفت النبضات الأخيرة لعصر الاجتهاد، وعرف تاريخ التشريع الإسلامي نقطة فاصلة تمثلت في توقف التكوّن المستقلّ المبني على الاجتهاد والرجوع المباشر إلى القرآن والسنة لاستنباط الأحكام والآراء الفقهية، كما كُتبا نلاحظه في بداية هذا الدور عند بقيّ بن مخلد وابن ميسر بالأندلس، وعند ابن الحذّاد بالقيروان، وعند ابن جرير الطبري وابن شجرة وأبي القاسم الداركي ببغداد، وعند ابن حبان السمرقندي وابن خزيمة وابن المنذر النيسابوريين ببلاد خراسان وما وراء النهر، وعند غيرهم من أمثالهم، وأصبح نظر الفقهاء مقتصرًا على مذهب معين لا يتعدّوه، ويبدلون ما في وسعهم في سبيل تأييد أفكاره، ونصرة آرائه، ولا يجيزون لأنفسهم بأيّ حال من الأحوال أن يخرجوا عن آراء المذهب الذي يتبعونه، ويؤلفون التأليف في ذكر مناقب أئمتهم وتفضيلهم عمّن سواهم من أئمة المذاهب الأخرى، وأصبح مدّعي الاجتهاد - كما قال ابن خلدون - مردود منكوص على عقبه مهجور تقليده^(١)، وربما شتّعوا على من ادّعى التخيّر لنفسه وعدم التقليد، وأنكروا عليه منهجه وتجديده، كما فعل أصبغ بن خليل ومحمد بن الحارث وابن مرتنيل - شيوخ

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٣٠.

المالكية بالأندلس - مع بقي بن مخلد^(١).

وهكذا انصرف أغلب الفقهاء عن طلب الاجتهاد، وضعفت نفوسهم عن التعلّق به، وقصرت هممهم عن إدراكه، وسدّ الناس باب الخلاف وطرقه وصرّحوا بالعجز والإعواز، وأجري الخلاف بين المتمسّكين بالمذاهب الفقهيّة والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعيّة والأصول الفقهيّة^(٢).

ناهيك أنّ قطبا من أقطاب الحنفيّة وأحد كبار أعلامها في هذه المرحلة، ممّن كانت الفتيا تدور عليه في وقته، قد صرّح بأنّ: «الأصل أنّ كلّ آية تخالف قول أصحابنا فإنّها تحمل على النسخ أو على الترجيح، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق»^(٣)، وأنّ: «الأصل إنّ كلّ خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنّه يحمل على النسخ أو على معارض بمثله، ثمّ صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه بما يحتجّ به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق، وإتّما يفعل ذلك على حسب قيام الدليل، فإن قامت دلالة النسخ يحمل عليه، وإن قامت الدلالة على غيره صرنا إليه»^(٤).

وكان الأجدر والأنسب بإمام كالكرخي أن يردّ قول أصحابه إلى كتاب الله، وذلك هو الأولى به، لا أن يردّ الآية إلى قول أصحابه، فكأنّ قول أصحابه هو الأصل والآية فرع.

* تدخّل السلطة السياسيّة لحصر العمل بالمذاهب الأربعة السنيّة

رسميًا:

لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى

(١) انظر: ما تقدّم من ترجمة بقي بن مخلد.

(٢) المقدمة ص ٤٣٠ و٤٣٨.

(٣) أصول الكرخي ص ١٦٩.

(٤) المصدر السابق ص ١٦٩ - ١٧٠.

رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه^(١) لم يجد المخلصون ممّن أشربت قلوبهم حبّ هذا الدين وملاً للإخلاص جوانحهم، طريقة للتخلص من ادّعاءات الاجتهاد الصادرة عن غير أهلها ممّن كانوا يتجرّؤون على الإفتاء بما لا يتفق وأحكام الشريعة ومقاصدها، إلا بالزام العامة والخاصة بالتقليد.

وبلغت هذه الحركة ذروتها في عهد الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١هـ - ٤٢٢هـ) الذي تقدّم إلى أربعة من أئمة المسلمين في أيامه في المذاهب الأربعة، وأمرهم أن يصنّف له كلّ واحد منهم مختصراً على مذهبه، فصنّف له أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) كتاب الإقناع - على مذهب الشافعي - وصنّف له أبو الحسن القدوري (٤٢٨هـ) مختصره المعروف على مذهب أبي حنيفة، وصنّف له أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي (٤٢٢هـ) مختصراً آخر، ولم يعرف من صنّف له على مذهب أحمد، وعرضت تلك الكتب المصنّفة على الخليفة، فقبلها واستحسنها، وقال لقاضيه الماوردي: حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا^(٢).

ولا يستبعد أن يكون القاضي الماوردي الشافعي هو صاحب الفكرة في ردّ الناس إلى تقليد المذاهب الأربعة، وتوجيه الناس إلى تقليدهم دون سواهم كما يفهم من كلام الخليفة له بعد أن عرضت عليه الكتب الأربعة، أو ربّما يكون قد هال القاضي ما عليه أمر الناس من ادّعاء بعضهم الاجتهاد دون مسوّغ شرعي، فرفع الأمر إلى الخليفة العباسي وبيّن له خطورة التصدي للاجتهاد وصعوبة ادّعائه لتشعب العلوم التي هي موّاده، وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة، فكلّفه الخليفة بانتخاب أربعة علماء يصنّفون في المذاهب الأربعة ليقصر الناس على تقليدها ويمنع من تقليد سواهم.

(١) المقدمة ص ٤٣٠.

(٢) معجم الأدباء ١٩٥٦/٥.

غير أنّ البعض يرى أنّ القول بسدّ باب الاجتهاد لم يكن بناء على مجلس عقده الفقهاء، أو قرار اتّخذه أحد الخلفاء، بقدر ما كان شعورا عاما بالضعف والنقص، واتّفاقا ضمنيّا لصدّ دعاوي الاجتهادات الباطلة^(١).

وأيّ كان الأمر، فقد وقف التقليد في أغلب الأمصار عند المذاهب الأربعة السنيّة، وعمل كلّ مقلّد بمذهب من قلّده منهم بعد تصحيح الأصول واتّصال سندها بالرواية^(٢).

غير أنّ الشيعة ومنها الإماميّة الإثنا عشرية والزيدية لم يعترفوا بهذا الإجراء الخطير في حياة تاريخ التشريع الإسلامي، واعتبروا أنّ الاجتهاد قائم في أئمتهم، وأنّ الأرض لا تخلو طرفة عين من حجّة قائم بدين الله، يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله ويقيم حدود الله.

* تشخيص أحد المعاصرين لهذه الفترة من تاريخ الإسلام للحال الذي آل إليه أمر العلماء:

صوّر لنا ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ) ما آل إليه أمر العلماء في هذه الفترة من تاريخ الإسلام التي نحن بصددّها، وهي المرحلة الثانية من هذا الدور، وما أصبح عليه حالهم من العزوف عن الاستنباط من القرآن والسنة مباشرة، والتورّع والتهيب من مخالفة من سبقهم من الأئمة فقال^(٣): «اعلم رحمك الله أنّ طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا هذا، قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم... فلم يعنوا بحفظ السنة ولا الوقوف على معانيها، ولا بأصل من القرآن، ولا اعتنوا بكتاب الله عزّ وجلّ، فحفظوا تنزيله وعرفوا ما للعلماء في تأويله، ولا وقفوا على أحكامه، ولا تفقّهوا في حلاله وحرامه، قد طرحوا علم السنن

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٦/٢.

(٢) المقدمة ص ٤٣٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢٠٧/٢ - ٢٠٩.

والآثار وزهدوا فيهما وأضربوا عنهما فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرّقوا بين التنازع والانتلاف، بل عوّلوا على حفظ ما دون لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان...، ومن حجتهم أنّهم يقصرون وينزلون عن مراتب من له القول في الدين لجهلهم بأصوله، وإنّهم مع الحاجة إليهم لا يستغنون عن أجوبة الناس في مسائلهم وأحكامهم، فلذلك اعتمدوا على ما قد كفاهم الجواب فيه غيرهم، فهم يقيسون على ما حفظوا من تلك المسائل ويفرضون الأحكام فيها، ويستدلّون منه ويتركون طريق الاستدلال من حيث استدلال الأئمة وعلماء الأمة.

واعلم يا أخي أنّ المفرط في حفظ المولّدات لا يؤمن عليه الجهل بكثير من السنن إذا لم يكن تقدّم علمه بها، وإنّ المفرط في حفظ طريق الآثار دون الوقوف على معانيها، وما قال الفقهاء فيها، لصفر من العلم، وكلاهما قانع بالشّم من المطعم.

واعلم يا أخي أنّ الفروع لا حدّ لها تنتهي إليه أبداً ولذلك تشعبت، فمن رام أن يحيط بأراء الرجال فقد رام ما لا سبيل له، ولا لغيره إليه، لأنّه لا يزال يردّ عليه ما لم يسمع، ولعلّه أن ينسى أوّل ذلك بآخره لكثرتهم، فيحتاج أن يرجع إلى الاستنباط الذي كان يفرع منه ويجبن عنه تورّعا، بزعمه أنّ غيره كان أدري بطريق الاستنباط منه، فلذلك عوّل على حفظ قوله».

ولكن رغم هذا التوجّه العام الذي ارتضاه الناس علماء وعامة، وأقرّه الساسة، من دعوة عامة إلى تقليد المذاهب المشهورة، لم نعدم في نفس الوقت وجود بقايا من أنصار الاجتهاد من العلماء المحقّقين العارفين بكتاب الله وسنة رسوله، الداعون إلى الاشتغال بعلوم الاجتهاد، والعودة إلى المنابع الأصليّة وعدم الاستمرار على نقل الأقوال والاعتداد بها وتقييدها، والجدل فيها والتفريع عليها، أو التخريج منها في أفضل الأحوال.

وهكذا لا نعدم كلياً في هذه المرحلة، كما هو الشأن في المرحلة السابقة من هذا الدور، وجود من يناصر الدعوة إلى الاشتغال بعلوم الاجتهاد، حتى يوجد من يتأهل من الأمة للنظر والاجتهاد، ولا يكتفي بالوقوف تحت ريقه التقليد.

وهاك قول ابن عبدالبرّ دليل على ذلك، إذ يقول في جامعه^(١):
«فعليك يا أخي بحفظ الأصول والعناية بها، واعلم أنّ من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عوناً له على اجتهاده، ومفتاحاً لطرائق النظر، وتفسيراً لمجمل السنن المحتملة للمعاني ولم يقلّد أحداً منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها على كلّ حال دون نظر، ولم يرح نفسه ممّا أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها، واقتدى بهم في البحث والتفهم والنظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوا ونبهوا عليه، وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرّتهم من الزلل كما لم يبرّؤوا أنفسهم منه، فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح، وهو المصيب لحظّه والمعاین لرشده، والمتّبع لسنة نبيّه ﷺ، وهدي صحابته رضي الله عنهم، ومن أعف نفسه من النظر وأضرب عمّا ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره، فهو ضال مضلّ، ومن جهل ذلك كلّه أيضاً، وتحمّم في الفتوى بلا علم فهو أشدّ عمى وأضلّ سبيلاً».

ولكنّ ابن عبدالبرّ لم ينكر التقليد على البعض، إذ يستحيل أن يجتمع الاجتهاد إلاّ في العلماء المحقّقين، وفي ذلك يقول^(٢): «ومن اقتصر على علم إمام واحد، وحفظ ما كان عنده من السنن ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى، حصل على نصيب من العلم وافر وحظّ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا اكتفى، والكفاية غير الغنى...، ومن طلب الإمامة

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/٢١١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٧.

في الدين وأحب أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا نظر في أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة في الفقه إن قدر على ذلك، فأمره بذلك كما أمرناه بالنظر في أقاويلهم في تفسير القرآن، ومن أحب الاقتصار على أقاويل علماء الحجاز اكتفى واهتدى إن شاء الله، وإن أحب الإشراف على مذاهب الفقهاء متقدميهم ومتأخريهم بالحجاز والعراق، وأحب الوقوف على ما أخذوا وما تركوا من السنن، وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة، كان ذلك مباحاً ووجهاً محموداً إن فهم وضبط ما علم، أو سلم من التخليط نال درجة رفيعة، ووصل إلى جسيم من العلم واتسع ونبل إذا فهم ما أطلع، وبهذا يحصل الرسوخ لمن وقفه الله وصبر على هذا الشأن واستحلى مرارته واحتمل ضيق المعيشة فيه».

فلا مانع إذن من التقليد في حق من لم يتأهل للنظر الاجتهادي، فوقف تحت ربة التقليد ضرورة لا اختياراً وإنما العيب كل العيب في أن يبرز العالم الإسلامي بأكمله تحت ربة التقليد، ويجبن من يأنس في نفسه القدرة على التصدي للاجتهد بعد أن امتلك وسائله وحصل علومه، ويعزف عن الاستنباط، ويخلد إلى الأرض، وينسى أن الاجتهاد فرض.

* جهود العلماء وعملهم في هذه المرحلة:

نتيجة للوضع العام والتوجه الغالب الذي ساد هذه المرحلة من هذا الدور، أصبح العمل الاجتهادي محصوراً في النظر في الصور الحادثة المستجدة فيما بعد عصر الأئمة، وإدراجها تحت المسائل التي قرروها وتطبيقها على تلك الأحداث بصورة أصبح عملهم يتمثل في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها، وانصب اهتمامهم على تهذيب مصنفات من سبقهم، واختصارها، أو شرحها مع التحليل والتعليل والترجيح.

وهكذا لم يقتصر نشاطهم في هذه المرحلة على استيعاب المصنفات المشهورة ومعرفة ما هم مقلدين فيه، وإنما كان لهم من فضائل الأعمال ومحاسن الأفكار ما سما بمكانتهم وأعلى شأوهم.

وقد تجلّى ذلك بالخصوص في الأمور التالية:

١ - تعليل ما استنبط أئمتهم من أحكام:

كان الأئمة المجتهدون من أعلام الدور السابق قد جمعوا في مصنفاتهم أحكاما كثيرة لم يذكروا عللها، فقام فقهاء هذه المرحلة بدراسة تلك المسائل ودققوا النظر فيها وعملوا على ضبط مواقع الاتفاق والاختلاف بين تلك الأقوال العديدة، مما قد يتبادر أنه مختلف مع كونه لا اختلاف فيه، أو قد يظن أنه متفق مع أنه في حقيقته يؤول إلى الاختلاف، فردوا الأشباه بعضها إلى بعض، وحددوا وجوه الفرق بين المختلف منها، وصوروا النوازل والفتاوى التي تشتمل على بيان الوقائع الحادثة، وعلى بيان ما يراه الفقهاء المتأخرون من رجال دور التطبيق من انطباق أو عدم انطباق لقول من الأقوال المأثورة من المصنفات القديمة من دور التفرع على تلك الجزئية الحادثة^(١).

وقاموا بتخريج مناط الأحكام واستخراج عللها ليتمكنوا من القياس، وقد يختلفون في استنباط العلة، فتختلف الأحكام المبنية على مقتضى الاستنباط، وقرّر بعضهم القواعد الأصولية على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع الفقهية، كما هو الشأن عند الحنفية الذين كثرت عندهم المسائل المقدرة والمفترضة، في حين لم يلتفت غيرهم إلى الفروع أولا، وإنما اهتموا بتحقيق القواعد وتقريرها وإقامة الأدلة عليها مجردة بصرف النظر عن كون هذه القواعد متفقة مع فروع المذهب أو مخالفة لها، كما هو الشأن عند الشافعية ومن نهج نهجهم من المالكية والحنابلة.

٢ - الترجيح بين الآراء المتعددة في المذهب:

إن تعدد الآراء واختلاف النقول والروايات عن الأئمة إنما نشأ بالأساس نتيجة مراجعة الأئمة لفتاويهم باستمرار، والرجوع عما كانوا قد أفتوا به إذا ظهر لهم الحق على خلاف ما قالوا، وليس في ذلك ما يعيب المجتهد أو يشينه، بل هو دليل على شدة ورعه وحسن تدبيره، وكذلك

(١) محاضرات مغاربية ص ٧٨، بتصرف.

لاختلاف التلاميذ في ملازمة أئمتهم والمواظبة على حضور مجالس شيوخهم من ناحية أخرى.

فكان ترجيح العلماء بين تلك الأقوال والنقول باعتبارين:

* الأول: باعتبار الاختلاف في النقل عن إمام المذهب : ذلك أن الروايات المنقولة عن أئمة المذاهب والسماعات المدونة عنهم قد اختلفت من راو إلى آخر، ومن تلميذ إلى تلميذ.

وعن طريق هذا الاختلاف الناشئ بين الرواة في النقل توسعت دائرة الاختلاف داخل كل مذهب من المذاهب، وظهر ذلك خصوصا في المصنّفات والكتب الجامعة التي ضمت أقوال الأئمة وروايات أصحابهم عنهم، فكان جهد العلماء في هذه المرحلة من هذا الدور منصباً على النظر في تلك النقول والعمل على الترجيح بينها، فرجّح الحنفية مثلاً كتب ظاهر الرواية المسّمات بالأصول، لأنها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهي إما متواترة أو مشهورة، ولم يكن لزفر وللحسن بن زياد ما كان لأبي يوسف ومحمد بن الحسن من جهة الرواية، ورجّح المالكية رواية ابن القاسم، ونوّهوا بالمدونة المروية عن سحنون عن ابن القاسم، ورجّح الشافعية رواية الربيع المرادي على رواية المزني مع علوّ قدر المزني علماً وجمالة.

* الثاني: باعتبار تعارض الأقوال في المسألة الواحدة عن المجتهد الواحد: وذلك بأن ينقل عن إمام المذهب الواحد في حكم مسألة قولان متنافيان، فلا يخلو إما أن يكون القولان قد صدرا عنه في مجلس واحد أو في مجلسين.

فإن كان قد صدر عنه القولان في مجلس واحد واقترن بأحدهما ما يرجّحه أو فرّع على أحد القولين ولم يفرّع على القول الآخر، كان القول الذي فرّع عليه واقترن به ما يرجّحه هو مذهب الإمام واعتبر القول الآخر مرجوحاً عنه.

وأما إن صدر القولان عنه في مجلسين مختلفين، فإن علم تقدّم

أحدهما بخصوصه، كان القول المتأخر مذهباً له، واعتبر القول المتقدم مرفوعاً عنه، وإن لم يعلم تقدّم أحدهما حكى القولان عنه في المسألة^(١).

- ٣ - الانتصار للمذهب:

وقد أخذ هذا الانتصار أشكالاً مختلفة:

* أولها: التأليف في مناقب أئمة المذاهب^(٢): حيث قال أصحاب المناقب ينبغي لكلّ مقلّد إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلّده، ولا يحصل ذلك إلاّ بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله وسيرته في أحواله وصحة أقواله، ثمّ إنّه لا بدّ من معرفة اسمه وكنيته، ونسبه وعصره وبلده، ثمّ معرفة أصحابه وتلامذته، فألّف كلّ من علماء المذاهب كتباً في مناقب إمامه، وربّما ذكر بعضهم مناقب إمامه في أوائل كتبهم أو أواخرها.

فصنّف جماعة عن الحنفيّة في مناقب إمامهم أبي حنيفة، منها تأليف أبي عبدالله حسين بن عليّ الصيرمي (٤٣٦هـ) وكان قد فرغ منه سنة ٤٠٤هـ، ومختصر أبي الحسين أحمد القدوري، حيث ذكر مناقب أبي حنيفة في أوّل شرحه لمختصر الكرخي.

وكذلك فعل المالكيّة مثل ابن عبدالبرّ في كتابه الانتقاء، وأبو عمر أحمد الطلمنكي (٤٢٩هـ) والقاضي أبو الوليد الباجي (٤٧٤هـ).

وذكر حاجي خليفة في مناقب الإمام الشافعي تصانيف كثيرة، منها في هذه المرحلة من هذا الدور، كتاب لأبي الحسين محمد بن عبدالله الرازي (٤٥٤هـ) وكتاب لأبي عبدالله ابن شاکر القطان (٤٠٧هـ) الذي جمع ما انتهى إليه من فضائل الشافعي، وكتاب للإمام أحمد بن حسين البيهقي (٤٧٨هـ) وكتاب لأبي محمد بن الفرات إسماعيل بن أحمد الهروي

(١) التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي ص ٨٢.

(٢) كشف الظنون ٦٧٢/٢ - ٦٧٥.

السرخسي (٤١٤هـ) وكتاب لأبي عليّ الحسن بن الحسين بن حمكاه الهمداني (٤٠٥هـ) وكتاب لأبي عبدالله محمد بن عبدالله (٤٠٥هـ) المعروف بالحاكم النيسابوري، وصنّف في مناقب الإمام أحمد بن حنبل في هذه المرحلة، أحمد البيهقي (٤٥٨هـ).

وبدون شك فإنّ الكثير من الأعلام قد وضعوا المصنّفات في هذا المجال، قبل هذه المرحلة من هذا الدور، كما أنّ الكثير منهم قد صنّف في الأدوار الموالية، إلّا أنّه حسب ما جاء في القائمة التي أوردتها حاجي خليفة يبدو أنّ هذا الدور هو أكثر الأدوار غزارة في هذا الفنّ.

ومما يظهر الروح العلميّة المنصفة، المتّسمة بالموضوعيّة أنّ بعض العلماء المحقّقين الذين كانوا ينتمون إلى هذا المذهب أو ذاك، قد ألفوا في فضائل جمع من الأئمّة، كما فعل ابن عبدالبرّ في كتابه الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمّة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم^(١)، وكما فعل القاضي أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) في كتابه مناقب الأئمّة^(٢).

* ثانيها: التّأليف في مواطن الخلاف بين أئمّة المذاهب: قال ابن خلدون في تعريف هذا العلم وبيان أسباب ظهوره «وأما الخلافات، فاعلم أنّ هذا الفقه المستنبط من الأدلّة الشرعيّة كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم...، واتّسع ذلك في الملة اتّساعاً عظيماً، وكان للمقلّدين أن يقلّدوا من شاؤوا منهم، ثمّ لما انتهى ذلك إلى الأئمّة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظنّ بهم، اقتصر الناس على تقليدهم، ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتّصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة، فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة،

(١) ترتيب المدارك ٨٠٩/٤.

(٢) كشف الظنون ٦٧٥/٢.

وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية^(١).

وصنّفوا الكتب في الردّ والانتقاد على من انتقد مذهبهم، أو خالف آراءهم من أئمة المذاهب، وأحصوا عليهم المسائل التي يرون أنّهم خالفوا فيها الأدلة الشرعية من القرآن والسنة النبوية، ككتاب الردّ على الشافعي فيما خالف فيه القرآن للحسن بن أحمد المقرئ، وكتاب الردّ على من ردّ على أبي حنيفة للحافظ أبي بكر بن أبي شيبه^(٢)، وصنّف أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ) مختصراً ردّ فيه على الجرجاني الحنفي الذي انتقد الإمام الشافعي^(٣).

ولإمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ) كتاب يختصّ بمسألة ترجيح مذهب على سائر المذاهب، بيّن فيه أنّه الذي يجب على كلّ مخلوق الاعتزاء إليه وتقليده ما لم يكن مجتهداً^(٤).

واشتهر أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ) بالذّب عن مذهب مالك والقيام بالحجّة له، فهو الذي لخصّ المذهب وضمّ كسره وذّب عنه، وصنّف كتاب الذّب عن مذهب مالك^(٥)، وأبو بكر محمد بن عبدالله بن صالح الأبهري (٣٩٥هـ) صاحب التصانيف في الاحتجاج لمذهب مالك والردّ على من خالفه، منها كتاب الردّ على المزني، وكتاب إجماع أهل المدينة^(٦)، والقاضي أبو محمد عبدالوهاب بن نصر صاحب كتاب النصر لمذهب إمام دار الهجرة، وكتاب المعونة لدرس مذهب عالم المدينة وكتاب

(١) المقدّمة ص ٤٣٨.

(٢) كشف الظنون ١/٦٣٢ - ٦٣٣.

(٣) المصدر السابق ٢/٦٧٤.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ١/١٨٥.

(٥) ترتيب المدارك ٤/٤٩٢ - ٤٩٧.

(٦) الديباج المذهب ص ٣٥١ - ٣٥٣.

أوائل الأدلة في مسائل الخلاف وكتاب الرد على المزني^(١).

وهكذا بذل كل فريق منهم الوسع، واستنفذ الجهد في المناقحة عن إمامه وترجيح مذهبه والانتصار له، واستحث كل طرف منهم الناس ورغّبهم في تقليد مذهب ما، وذكروا أنّ الاختيار أن يجعل المقلد إمامه في ذلك إمامهم، وأن من قلّد هذا المذهب أو ذاك كان أحوط له وأحفظ لدينه.

ولا عيب في الانتصار للمذهب وإطلاع الناس على قوّة حججه وبراهينه طالما كان ذلك في حسن أدب، ومن أجل طلب الحق وإظهاره، وهذا أمر مطلوب، بل هو شيء محبذ مرغوب، إلا أنّ العيب كل العيب أن يتعصب البعض لإمام مذهبه، فيعتقد أنّ الحق لا يخرج عن نظره، وأنّ الصواب لا يعدم جانبه، فيرمي خصومه بالجهل وينعت الأئمة الكرام بالضلال، ويحطّ من قدرهم، ويضع من شأنهم.

وربّما أقدم على إتلاف كتب غيره من أتباع المذاهب الأخرى، كما فعل أحد قضاة الشافعية بمصر حين وقع بين يديه كتاب النصر لمذهب إمام دار الهجرة للقاضي عبدالوهاب بن نصر البغدادي المالكي، فغرقه في النيل^(٢).

ولو كان عالماً منصفاً لكان الأولى به أن ينازع الدليل بالدليل، ويقارع الحجّة بالحجّة، ولصتف - كما قال الراعي الأندلسي - كتاباً في الردّ على القاضي عبدالوهاب، وسمّاه النصرتين، وأوقفهما معا حتّى ينتفع بهما أرباب المذاهب من أهل العلم، ويزداد المؤمن بنظرهما إيماناً وتسليماً^(٣).

وقد فات هؤلاء الذين أعمى التعصب أبصارهم أنّه من غير المعقول أن يؤخذ الناس كلّهم بمذهب واحد، وأنه من المستحيل أن تنتظم حياة

(١) ترتيب المدارك ٦٩٢/٤.

(٢) نفع الطيب ٥٢١/٢.

(٣) انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك ص ٢٩٠.

المسلمين أجمعين تحت اجتهاد عالم واحد، فذلك ممّا لا يسعه عقل مجتهد، ولا يكاد يطاله جهد عالم.

* ثالثها: عقد مجالس المناظرات الفقهية:

انتشرت في هذه المرحلة المناظرات الفقهية، وعلم المناظرة هو: من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم^(١).

وقد جرت هذه المناظرات - كما يقول ابن خلدون - على أصول صحيحة وطرائق قويمة، يحتجّ بها كلّ على صحّة مذهبه الذي قلّده وتمسك به، وأجريت في مسائل الشريعة كلّها، وفي كلّ باب من أبواب الفقه، وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة، ومشارت اختلافهم ومواقع اجتهادهم، وكان لا بدّ لمن يتصدّى.

لذلك من معرفة القواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلّا أنّ المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، والمناظر يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته، وهذا لعمرى علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه^(٢).

غير أننا في بعض الأحيان نلمس من خلال بعض المناظرات خروجاً عن المقصد الذي من أجله وجدت تلك المناظرات، وانحرافاً عن الغاية التي من أجلها انعقدت، وابتعاداً عمّا عهدناه من مناظرات استدلالية بين الأئمة المجتهدين التي كانت تنعقد تحت شعار: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، أو مقولة: ما جادلت أحداً قطّ إلّا وددت أن يظهر الله الحقّ على يديه.

(١) المنهاج في ترتيب الحجج ص ٨.

(٢) المقدمة ص ٤٣٩.

ولعلّ أصدق مثال نسوقه في هذا المجال، ما ورد عن علي بن محمد بن العباس المعروف بأبي حيان التوحيدي (حدود ٤٠٠هـ) قال^(١): سمعت الشيخ أبا حامد - يعني المرورودي - يقول لطاهر العباءني: لا تعلق كثيراً لما تسمع متي في مجالس الجدل، فإنّ الكلام يجري على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه الله خالصاً، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام، وإن كنا في كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى، فإنّا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله.

ولمّا كان باب المناظرة في الردّ والقبول متّسعاً، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج أعلام هذا العصر إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول، وكيف يكون حال المستدلّ والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحلّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه إنّه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصّل بها إلى حفظ رأي أو هدمه^(٢).

وهكذا بدأت تظهر المصنّفات في قواعد الجدل والمناظرة التي وضعت الشروط الواجب على المناظر اتّباعها، والقواعد التي بفضلها تستقيم المناظرة وتجري على أصول سليمة ومبادئ صحيحة.

وقد عقد ابن عبد البرّ في كتابه جامع بيان العلم وفضله، باباً ذكر فيه ما يكره فيه المناظرة والجدال والمرء^(٣)، وأوصى بتجنّب المرء، إذ هو

(١) معجم الأدباء ٥/١٩٢٣.

(٢) المقدّمة ص ٤٣٩.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/١١٣ - ١٢١.

يفسد الصداقة القديمة ويحلّ العقدة الوثيقة، وأقلّ ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة.

وتلاه بباب إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجّة^(١) ذكر فيه من مناظرات الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وتجادلهم في مسائل الأحكام، ما يقيم الدليل على أنّ الاحتجاج بالعلم مباح سائغ.

واعتبر أنّ من شروط المناظرة: أن يراد بها وجه الله عزّ وجلّ، وأن يقبل منها ما تبين، وأن يكون المتناظران متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين والفهم والعقل والإنصاف حتّى تصحّ المناظرة ويظهر الحقّ، وإلاّ فهو مراء ومكابرة.

وعقد الإمام الباجي (٤٧٤هـ) في مقدّمة كتابه المنهاج في ترتيب الحججاج بابا ذكر فيه ما يتأدّب به المناظر، حتّى ينتفع بجده، ويبارك له الله في نظره، فقال: «ينبغي للمناظر أن يقدّم على جدله تقوى الله عزّ وجلّ ليزكو نظره...، ويقصد بنظره طلب الحقّ والوكالة عليه ليدرك مقصوده ويحوز أجره، ولا يقصد به المباهاة والمفاخرة فيذهب مقصوده ويكتسب إثمه ووزره...، ويتوقّر في جلوسه ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الرّكّة والخرق...، ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله فإنّ ذلك يدعو إلى المقت، ويقبل على خصمه فإنّه أحسن في الأدب ويحسن الاستماع إلى كلامه...، ويجتنب إظهار العجب من كلام خصمه والتشعّب عليه في جداله، فإنّ ذلك يفعله الضعفاء ومن لا إنصاف عنده...، ولا يتكلّم على ما لم يقع له العلم به من جهته... ولا يستدلّ إلاّ بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحّته وسلامته»^(٢).

ومن أعلام هذه المرحلة الذين ألفوا في فنّ الجدل والمناظرة: أبو

(١) المصدر السابق ١٢٢/٢ - ١٣٢.

(٢) المنهاج ص ٩ - ١٠.

عبدالله الصيرمي الحنفي (٤٣٦هـ) في كتابه مسائل الخلاف، وابن حزم الظاهري (٤٥٦هـ) في التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، وأبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) في كتابه المعونة في الجدل، والقائمة تطول كما هو حال أسلافنا، في كلّ علم وفنّ يصلون ويجولون.

وقد شاعت المناظرات في هذا العصر وانتشرت أيّما انتشار، فكانت تعقد في المساجد، وفي مختلف المناسبات بحضور الوزراء وذوي الشأن، وحتى في مجالس العزاء، من ذلك ما جرت به العادة ببغداد أنّ من أصيب بوفاة أحد ممّن يكرم عليه، قعد أيّاماً في مسجد ربه^(١) يجالس فيها جيرانه وإخوانه، فإذا مضت أيّام عزوه وعزموا عليه في التسليّ والعودة إلى عادته من تصرّفه، فتلك الأيّام التي يقعد فيها في مسجده للعزاء مع إخوانه وجيرانه، لا تقطع في الأغلب إلاّ بقراءة القرآن، أو بمناظرة الفقهاء في المسائل^(٢).

ومن أمثلة هذه المناظرات التي كانت تعقد بين العلماء ما نقله ابن السبكي في طبقاته، حيث ذكر أربع مناظرات، اثنتان منهما اتّفقتا بمدينة نيسابور، بين إمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ) والشيخ أبي إسحاق الشيرازي، الشافعيين، عند دخول الشيرازي رسولاً إليها^(٣)، ومناظرتان وقعتا بين الشيخ أبي إسحاق والقاضي أبي عبدالله الدامغاني، وكانا قد اجتمعا في عزاء ببغداد^(٤).

وقد شاهد أبو الوليد الباجي مناظرة بينهما وحضرها^(٥)، وذلك حين

(١) الرّبض: ما حول المدينة، وقيل هو الفضاء حول المدينة (لسان العرب، مادة: رّبض).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٥/٤.

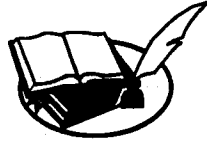
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٢/٤ - ٢٥٦ و ٢٠٩ /٥ - ٢١٨.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٧/٤ - ٢٥٢.

(٥) المصدر السابق ٢٤٥/٤ - ٢٥٢.

توفيت زوجة القاضي أبي الطيب الطبري (٤٥٠هـ) شيخ الفقهاء في ذلك الوقت ببغداد وكبيرهم، فاحتفل الناس بمجالسته، ولم يكذب يبق أحد منتم إلى علم إلا حضر ذلك المجلس، وكان ممن حضر ذلك المجلس القاضي أبو عبدالله الصيرمي وكان زعيم الحنفية وشيخهم، وهو الذي كان يوازي أبا الطيب في العلم والشيخوخة والتقدم، فرغب جماعة من الطلبة إلى القاضيين أن يتكلما في مسألة من الفقه، تسمعها الجماعة منهما، وتنقلها عنهما فأما القاضي أبو الطيب فأظهر الإسعاف والإجابة، وأما القاضي أبو عبدالله - أي الصيرمي - فامتنع عن ذلك، وقال: من كان له تلميذ مثل أبي عبدالله - يريد الدامغاني - لا يخرج إلى الكلام، وها هو حاضر، من أراد أن يكلمه فليفعل، فقال القاضي أبو الطيب عند ذلك، وهذا أبو إسحاق - أي الشيرازي - من تلامذتي ينوب عني فلما تقرر الأمر على ذلك، ابتدأت المناظرة بينهما.

كما كانت الأندلس كذلك مسرحا لمجالس مناظرات مشهورة بين الإمام الباجي وابن حزم الظاهري، عقدت في هذه المرحلة، إثر رجوع الإمام الباجي من رحلته المشرقية سنة ٤٣٩هـ.



مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام

تواصل نشاط المذاهب الفقهية في هذه المرحلة في المراكز السبعة التي كُتبا قد ذكرناها دون أيّ تغيير يذكر من حيث الجهات التي انتشر فيها كلّ مذهب من المذاهب، ومراكز التأثير بالنسبة لكلّ واحد منها، إلاّ ما كان من مركزي مصر والشام حيث سيطر عليها بنو عبّيد الفاطميين بعد تحوّلهم من المهديّة إلى مصر سنة ٣٦٢هـ واستمرّ نفوذهم عليها إلى غاية سنة ٥٦٧هـ.

وفي المقابل عرف المركز المغربي انبعاث جديد للمذهب المالكي بعد كبت تواصل أكثر من ستّة عقود، واستمرّ طيلة المرحلة السابقة من هذا الدور.

١ - مصر والشام:

حرص الفاطميّون من ساعة أن استقرّت أيديهم على دمشق سنة ٣٥٨هـ، ثمّ امتلاكهم لمصر سنة ٣٦٢هـ، على محاولة نشر المذهب الإسماعيلي الذي هو المذهب الرسميّ للدولة، واتبّعوا لتحقيق هدفهم ذلك نفس المنهج الذي كانوا قد نهجوه في المغرب من قبل، والذي كان يقوم على:

١ - استعمال الوسائل والطرق الدعائية: حيث أحدثوا المدارس بالمساجد لتكوين الدعاة لنشر المذهب الإسماعيلي، وأطلقوا عليها مدارس

الدعوة ومدارس الحكمة، وأنشؤوا الجامع الأزهر لهذا الغرض، ووضعوا بين أيدي طلاب العلم الذين يريدون الاطلاع على المذهب الإسماعيلي جميع الإمكانات، ووقروا لهم مواد الكتابة لنسخ المصنفات، بل وجعلوا مالا لكل من يحفظ كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان، وأمر الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١هـ - ٤٢٨هـ) الدعاة والوعاظ بتدريس هذا الكتاب^(١).

وكان من أبرز دعاتهم بمصر:

* حميد الدين أحمد بن عبدالله الكرمانى (٤١١هـ) الملقب بحجة العراقين، وكان أكبر داعية للإسماعيلية في العراقين، فدعاه الإمام الفاطمي الحاكم بأمر الله إلى مصر وعهد إليه بالإشراف على تعاليم الإسماعيلية، وكان من أعظم مصتفي الإسماعيلية ذكاء ومعرفة^(٢).

* أبو عبدالله محمد ابن القاضي النعمان بن محمد (٣٤٠هـ - ٣٨٩هـ) الذي ورث عن أبيه منصب قاضي القضاة، ولم تشهد مصر قاض نال من الرئاسة والرفعة ما بلغه ابن النعمان، وقد وافق ذلك استحقاتاً لما كان فيه من العلم والصيانة والهيبة وإقامة الحق^(٣).

* أبو الحسن علي بن القاضي النعمان بن محمد (٣٩٤هـ) الذي ولي قاضي القضاة بالديار المصرية بعد أخيه، وقال له الحاكم الفاطمي العزيز: «إن القضاء لك من بعد أخيك، ولا تخرجه عن هذا البيت»^(٤).

* عبدالعزيز بن أبي عبدالله محمد بن النعمان بن محمد (٤٠١هـ) قاضي قضاة العبيدين، وابن قاضيهم وحفيد قاضيهم^(٥).

وهكذا بقي أبناء هذه الأسرة يتداولون على القضاء والفتوى والتدريس

(١) كشف الظنون ١/٥٧٧.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٧٢ - ٣٧٦.

(٣) شذرات الذهب ٣/٢٦٢.

(٤) شذرات الذهب ٣/٢٠١، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٤١٧ - ٤١٩.

(٥) شذرات الذهب ٣/٣٠٠.

وفق المذهب الشيعي لزمان، يسند القضاء للابن من بعد أبيه، وللأخ من بعد أخيه لا يخرج عن هذا البيت.

ومن دعواتهم بالشام:

* أبو الفوارس أحمد بن يعقوب (٤١١هـ) أحد الدعاة في عهد الإمام الفاطمي الحاكم بأمر الله، ألف «رسالة في الإمامة» تضمّ إجابات على ستين سؤالاً، كانت قد طرحت عليه أثناء اشتغاله بالدعوة الفاطمية ببلاد الشام^(١).

٢ - اتّباع سياسة الإجراءات القمعية: إذ حاولوا في أكثر الأحيان أن يلجموا أصوات علماء المذاهب السنية المعارضين لسياستهم، فأفنوا رجالاً وأبادوا أعلاماً، ووصل بهم الأمر إلى قطع لسان من احتجّ على منع صلاة التراويح بالمساجد، وضرب رجل من أهل مصر سنة ٣٨١هـ وطيف به في المدينة لأنهم وجدوا في حوزته موطأ الإمام مالك^(٢)، وحبسوا الفقيه المالكي أبو عبدالله بن الوشاء مع السباع^(٣)، وضربوا الفقيه محمد بن عبدالله بن عتاب المعروف بابن المقرئ، من أهل الإسكندرية وأذوه وأحرقوا كتبه^(٤).

ووصل الأمر بالحاكم الفاطمي الملقّب بالظاهر لإعزاز دين الله، أن أصدر أمراً سنة ٤١٦هـ بإخراج من بمصر من الفقهاء المالكيين^(٥).

ولكنّ حكّام بني عبّيد كانوا أحياناً يسلكون سبيل الحذر والحيطة في

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٧٠.

(٢) الخطط للمقريزي ٢/٣٤١.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٦١٣.

(٤) ترتيب المدارك ٤/٦١٥.

(٥) كشف الظنون ١/٥٧٧.

المواجهة إزاء المعارضة الواسعة من طرف علماء أهل السنّة، فنجد حلقة أبي بكر النعالي المالكي في جامع الفسطاط المعروف بجامع عمرو بن العاص، كانت تدور أيام بني عبّيد على سبعة عشر عموداً من كثرة من يحضرها^(١).

وكانوا أحياناً يأمرّون بأن يكتب لعنة الشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب على أبواب الجوامع، وأحياناً ينهون عن ذلك، وتارة يمنعون صلاة التراويح بالمساجد، ومرة يجيزون ذلك.

فكانت سياستهم تتأرجح بين الترهيب والتهديد والتنكيل أحياناً وبين الحيطة والحذر والمداراة أحياناً أخرى.

ولا شكّ أنّه في ظلّ هذا الصراع قد عرف فقه أهل السنّة تراجعاً، يقول السيوطي: «وفي هذا القرن - القرن الرابع - ملكت العبّيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة - المالكيّة والشافعيّة والحنفيّة - قتلاً ونفيّاً وتشريداً وأقاموا مذهب الرّفص والشيعيّة ولم يزولوا منها إلى أواخر القرن السادس، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب»^(٢).

ولكن من يتتبع كتب الطبقات والتراجم يدرك أنّ تلك السياسة القمعيّة التي انتهجها بنو عبّيد في أغلب الأحيان، لم تمنع المذاهب السنّيّة التي كانت قد استحكمت بمصر والشام، كما هو الشأن بسائر المراكز الأخرى، وتمكّنت من قلوب الأمة وحلّت بها محلّ القلب من الجسد، من الثبات والإستمرار حتّى ولو تضاءلت أيام نفوذ الفاطميين وقتلهم العظيم وطغيانهم المستمرّ.

وكان من أشهر أعلام المالكيّة في هذه المرحلة بمصر:

(١) حسن المحاضرة ١/٢٠٧.

(٢) حسن المحاضرة ١/٢٢٢.

* أبو بكر محمد بن سليمان النعالي (٣٨٠هـ) إمام المالكية بمصر في وقته، تلقى عن ابن شعبان، عظم شأنه وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقتة في جامع القسطنطينية تدور على سبعة عشر عموداً من كثرة من يحضرها^(١).

* أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد الغافقي الجوهري (٣٨٥هـ) كان فقيهاً ورعاً خيراً، كثير الحديث من شيوخ القسطنطينية، ومن كبار فقهاء المالكية وشيوخ السنة، سمع من ابن شعبان وغيره من أعلام مصر، روى عنه ثلثة من أعلام القرويين والمصريين والأندلسيين، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقبل سنة ٣٨٥هـ، وقيل سنة ٣٨١هـ^(٢).

* أبو العباس رجاء بن عيسى بن محمد الأنصاري (٣١٠هـ) - (٤٠٧هـ) - وقيل الأنصاري - كان فقيهاً مالكيًا، ثقة في الحديث متحرراً في الرواية، دخل بغداد فحدث بها وسمع منه الحفاظ ثم عاد إلى بلده، وبها توفي، وفي تاريخ وفاته خلاف كبير، فقبل ما بين سنة ٤٠٥هـ و٤١٠هـ، وقيل غير ذلك^(٣).

* أبو عبدالله بن الوشاء: محمد بن أحمد بن محمد بن عبيد بن موسى (٣٩٧هـ) أخذ عن ابن شعبان، وكان عالماً بالحديث واسع الرواية فقيهاً، رحل إليه الناس وسمعوا منه، وكان شديد المباينة لبني عبيد، فحبسوه مع السباع، فلم تضره بإذن الله^(٤).

* عبدالجليل بن مخلوف الصقلي (٤٥٩هـ) وقد أفتى بمصر أربعين سنة، وبها مات^(٥).

(١) حسن المحاضرة ٢٠٧/١، شجرة النور الزكية ص ٩٣.

(٢) ترتيب المدارك ٤٨٢/٤ - ٤٨٣، حسن المحاضرة ٢٠٧/١، الديباج المذهب ص

٢٤١ - ٢٤٢، شذرات الذهب ٢٢٣/٣، شجرة النور الزكية ص ٩٣ - ٩٤.

(٣) ترتيب المدارك ٦١٣/٤ - ٦١٤، حسن المحاضرة ٢٠٧/١.

(٤) ترتيب المدارك ٦١٢/٤ - ٦١٣.

(٥) حسن المحاضرة ٢٠٧/١ - ٢٠٨.

* أبو محمد عبدالله بن الوليد بن سعيد الأنصاري (٤٤٨هـ) الأندلسي، أخذ عن أبي محمد ابن أبي زيد وغيره، سكن مصر ومات بالشام عن ثمان وثمانين سنة^(١).

ولا غرابة أن ينقطع نشاط المذهب المالكي بمصر في آخر هذا الدور لحين من الزمن، ويستمر غيابه عن هذا المركز لأكثر من ثلاثة عقود، بعد ما لاقاه أتباعه بالخصوص من حكام بني عبيد.

ولم يأخذ المذهب في الرجوع إلا في أواخر القرن الخامس الهجري. وأما في ما يخص المذهب الشافعي، فقد أحصى السيوطي من أصحابه بمصر في هذه المرحلة عددا، من أبرزهم:

* القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي (٤٤١هـ) تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وروى عن جماعة كثيرة بالعراق والشام ومصر، سكن مصر وأملى وأفاد، وبها مات^(٢).

* أبو الحسن عبدالملك بن عبدالله بن محمود بن صهيب بن مسكين (٤٤٧هـ) المصري، المعروف بالزجاج، كان من فقهاء مصر^(٣).

* أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي (٤٥٤هـ) المصري، تولّى القضاء بالديار المصرية، وكان فقيهاً شافعيًا متفتمًا في عدّة علوم، ولم ير في مصر من يجري مجراه، سمع منه الخطيب البغدادي الحديث وروى عنه، حين لقيه بالحجّ سنة ٤٤٥هـ، صنّف كتاب الشهاب، وكتاب مناقب الإمام الشافعي وأخباره، والإنباء عن الأنبياء، وتواريخ الخلفاء، وخطط مصر^(٤).

(١) حسن المحاضرة ٢٠٨/١.

(٢) حسن المحاضرة ١٨٣/١، شذرات الذهب ٤٣٥/٣.

(٣) حسن المحاضرة ١٨٣/١.

(٤) حسن المحاضرة ١٨٣/١ - ١٨٤، هديّ العارفين ٧١/٢، شذرات الذهب ٤٧٣/٣ -

٧٧٤، وفيات الأعيان ٢١٢/٤ - ٢١٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٥٠/٤ - ١٥١.

وبرز من أعلام الشافعية بالشام:

* القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن إسحاق (٣٩٦هـ) أصله من حلب، رحل إلى العراق ونزل مصر وسكنها^(١).

* القاضي أبو بكر يوسف بن القاسم الشافعي الميانجي (٣٧٥هـ) نسبة إلى ميانج موضع بالشام، نزيل دمشق، ناب في القضاء مدة عن قاضي بني عبيد أبي الحسن علي بن القاضي النعمان. رحل إلى الشام والجزيرة وخراسان والعراق، توفي وقد قارب التسعين^(٢).

* أبو الخير جعفر بن محمد بن عثمان المروزي (٤٤٧هـ) الذي استوطن معرة النعمان سنة ٤١٨هـ، ودرّس بها حتى وفاته، وحمل عنه أهلها الفقه، صنّف الذخيرة في فقه الشافعية، وأخذ عنه تلاميذه^(٣).

أما الحنفية فنلتقي بهم بالخصوص في الشام، وقد كان من أشهر أعلامهم:

* أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعود التنوخي المعري (٤٤٤هـ) تلميذ الإمام أبي الحسين القدوري الحنفي، برع في فنون عديدة، وناب عن القضاء في دمشق، وولّي قضاء بعلبك، ومات بدمشق ولم يخلف بعده مثله^(٤).

وكان المذهب الحنبلي أقلّ المذاهب أتباعا، إذ لم يظهر هذا المذهب خارج العراق إلّا في القرن الرابع الهجري كما ذكر السيوطي.

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٣، شذرات الذهب ٣/٢٨٣، غاية النهاية في طبقات القراء ٥٦٤/١.

(٢) شذرات الذهب ٣/٢٠٤، هدية العارفين ٢/٥٤٩، النجوم الزاهرة ٤/١٤٨، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٤٨٨ - ٤٨٩.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٩٩.

(٤) النجوم الزاهرة ٥/٥٢.

ولم يعرف انطلاقة بهذه الديار إلا مع أبي الفرج عبدالواحد بن محمد بن علي بن أحمد (٤٨٦هـ) الشيرازي، ثم المقدسي، ثم الدمشقي، الفقيه القدوة الزاهد الأنصاري السعدي الخزرجي، شيخ الشام في وقته، الذي سكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله، ثم أقام بدمشق فنشر المذهب وتخرّج به الأصحاب، ووعظ واشتهر أمره وحصل له القبول التام، وكان إماماً وافر العلم عارفاً بالفقه والأصول، وله تصانيف عدّة فيهما^(١).

وهكذا نشط أصحاب المذاهب السنية بهذه الديار، واجتهدوا في نشر الفقه السني ووضعوا المصنّفات، وكان الاحتكاك بينهم وبين الشيعة من الدوافع القويّة لبذل ما في الوسع من أجل الثبات والاستمرار.

- ٢ - العراق:

لم يزل نجم بني بويه (٣٢١هـ - ٤٤٧هـ) يتألق، ولم يزل أفراد هذه الأسرة يترقّون في مراقي الدنيا حتّى آل بهم الحال إلى أن ملكوا بغداد من أيدي العباسيين وصار لهم فيها القطع والوصل، والولاية والعزل، وإليهم تأتي الأموال، ويرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال، وبسطوا نفوذهم على العراق وجنوبي بلاد فارس: الريّ وهمذان وأصبهان، وكانوا أوّل أمرهم قوّة متّحدة متماسكة، ثم انقسم أفراد هذا البيت بعضهم على بعض، فاستغلّ العباسيون ضعف بني بويه واستعانوا بمنافسيهم السلاجقة الذين تمكّنوا من الاستيلاء على أملاك بني بويه في بلاد فارس والعراق، وتخليص العباسيين من استبدادهم^(٢).

ورغم هذه الصراعات السياسيّة فإنّ الحركة الفقهيّة بهذه المناطق من البلاد الإسلاميّة لم تتوقّف، وإنّما استمرّ عطاء الفقهاء ببلاد الرافدين،

(١) شذرات الذهب ٨٢/٤ - ٨٣، طبقات المفسرين ص ٢٥٢ - ٢٥٣، طبقات الفقهاء الحنابلة ٣٣٣/٢ - ٣٣٤، تذكرة الحفاظ ١١٩٩/٣.

(٢) البداية والنهاية ١١/١٧٤، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١٠٣/٣ - ١١٣.

وتواصل نشاطهم، حتى لمع في سماء الحركة الفقهية أعلام أفذاذ من سائر أتباع المذاهب المختلفة.

فمن أعظم فقهاء الحنفية الذين نقف عندهم في هذه المرحلة بالعراق، نذكر:

* أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (٤٠٣هـ) فقيه بغداد وشيخ الحنفية، ومن انتهت إليه رئاسة المذهب ببغداد وفي الآفاق، كان حسن الفتوى، وعنه أخذ القاضي أبو عبدالله الصيرمي وقال: ما شاهد الناس مثله في حسن الفتوى والإصابة فيها، وكان فصيحاً حسن التدريس، دعي إلى ولاية القضاء أكثر من مرة فلم يقبل^(١).

* أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان القدوري البغدادي (٣٦٢هـ - ٤٢٨هـ) شيخ الحنفية بالعراق، انتهت إليه رئاسة المذهب ببغداد، وكان يناظر الشيخ أبا حامد الإسفراييني الشافعي ويبالغ في تعظيمه بحيث حكى عنه ابن خلكان أنه كان يفضل الإسفراييني على الشافعي.

صنّف في المذهب المختصر المشهور الذي اعتنى أعلام الحنفية بشرحه، وصنّف مختصر الكرخي، وأدب القاضي على مذهب أبي حنيفة، والتجريد في الفروع، وقد أفرد فيه ما خالف فيه الإمام الشافعي من المسائل بإيجاز الألفاظ وأورد بالترجيح ليشترك المبتدي والمتوسط في فهمه، وشرع في إملائه سنة ٤٠٥هـ، وله التقريب في مسائل الخلاف مجرداً عن الدلائل ثمّ صنّف ثانياً فذكر المسائل بأدلتها^(٢).

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٥، شذرات الذهب ٣/٣١٢، البداية والنهاية ٣٥١/١١، النجوم الزاهرة ٤/٢٣٤.

(٢) الفوائد البهية ٣٠، الجواهر المضية ١/٢٤٧، تاج التراجم ١٩، شذرات الذهب ٣/٣٩٢ - ٣٩٣، النجوم الزاهرة ٥/٢٤ - ٢٥، هدية العارفين ١/٧٣، البداية والنهاية ١٢/٤٠، تاريخ التراث العربي ٣/١١٥ - ١٢٣، كشف الظنون ١/٩٩، ٢٩٩، ٣٧٩ و ٥٢٠/٢ - ٥٢٣ و ٦٣/٥ - ٦٤، وفيات الأعيان ١/٧٨ - ٧٩، تذكرة الحفاظ ٣/١٠٨٦.

* أبو عبدالله الحسين بن علي الصيرمي (٤٣٦هـ) إمام الحنفيّة ببغداد، تتلمذ على أبي بكر الخوارزمي، كان وافر العقل، جميل المعاشرة، حسن العبادة، عارفاً بحقوق العلماء، له شرح على مختصر الطحاوي، توفي ببغداد عن ٨٥ سنة^(١)، وقد اعتبره القاضي عياض رئيس الحنفيّة ببغداد^(٢).

* أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد الدامغاني (٣٩٨هـ - ٤٧٨هـ) قاضي القضاة، تفقّه بمسقط رأسه دامغان وهي مدينة إيرانية جنوبي بحر القزوين، وتفقّه بخراسان، ثمّ قدم بغداد سنة ٤١٨هـ فتفقّه على أبي الحسين القدوري وأبي عبدالله الصيرمي، وسمع الحديث منهما ومن غيرهما، برع في الفقه وإليه انتهت رئاسة الفقهاء، وكان نظير أبي يوسف في الجاه والسؤدد.

باشر القضاء ثلاثين سنة في أحسن سيرة و غاية الأمانة والديانة، وتوفي وقد ناهز الثمانين^(٣).

صنّف المختصرات لطلبة عصره، واشتهر بمناظراته في الفقه التي تحدّث عنها ابن عقيل الحنبلي بعد أن حضرها من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة وفاة الدامغاني^(٤).

وقد أشرنا إلى أنّ ابن السبكي قد ذكر في طبقاته مناظرتين وقعتا بين أبي عبدالله الدامغاني وبين أبي إسحاق الشيرازي، وكانا قد اجتمعا في عزاء ببغداد^(٥)، وكان أبو الوليد الباجي قد شاهد إحدى هاتين المناظرتين

(١) الفوائد البهية ٦٧، الجواهر المضية ١١٦/٢، تاج التراجم ٩٣، كشف الظنون ٥١٧/٢، شذرات الذهب ٤١٩/٣، هدية العارفين ٣٠٩/١، النجوم الزاهرة ٣٨/٥، البداية والنهاية ٥٢/١٢، تذكرة الحفاظ ١١٠٩/٣.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٨٠٢/٤.

(٣) البداية والنهاية ١٢/١٢٩، شذرات الذهب ٥٩/٤، النجوم الزاهرة ١٢١/٥.

(٤) مقدّمة محقق كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١٥.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٧/٤ - ٢٥٢.

وحضرها^(١)، وذلك حين توفيت زوجة القاضي أبي الطيب الطبري.

وقد عدّ المؤرّخ المعاصر جورج مقدسي أصحاب التراجم الثلاثة الأخيرة - أعني القدوري والصيرمي والدامغاني - المفتين الثلاثة الذين كانوا يهيمنون على مذهبهم في القرن الخامس الهجري^(٢).

أما المذهب المالكي فقد عرف خلال هذه المرحلة جيلا من عبقریات المذهب اختتم به العراق حياة باهرة، فكان ظهور هذا الجيل، نفثة أخيرة من نفثات المذهب المالكي القويّة التي لم تلبث أن خبت بعد ذلك بالعراق وكان من أعظم هؤلاء الأعلام:

* أبو بكر محمد بن عبدالله الأبهري (٣٩٥هـ) سكن بغداد وحدث بها، جمع بين علو الإسناد في الحديث والفقه الجيد، وكان أحد أئمة أهل القرآن والمتصدّرين لذلك العارفين بوجوه القرآن وتحرير التلاوة، وكان إمام أصحابه في وقته، والقيّم برأي مالك، وإليه انتهت الرئاسة في مذهب مالك بالعراق.

كان معظمًا عند علماء سائر وقته، ولا يشهد محضرا إلاّ كان هو المقدم فيه، وبضله اعترف الموافق والمخالف، وما كان ببغداد أجلّ منه، ولم يعط أحد من العلم والرئاسة فيه ما أعطي الأبهري في عصره من الموافق والمخالفين.

كان يحفظ أقوال الفقهاء حفظا جيّدا، حتّى أنّ أصحاب الشافعي وأبي حنيفة كانوا إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم رجعوا إلى قوله.

لم يكن له شغل في حياته إلاّ العلم، فقد روي أنّه قرأ مختصر ابن عبدالحكم خمسمائة مرّة، والأسديّة خمسا وسبعين مرّة، والموطأ خمسا وأربعين مرّة، ومكث ستون سنة يدرّس ويفتي في جامع المنصور ببغداد.

(١) المصدر السابق ٢٤٥/٤ - ٢٥٢.

(٢) مقدّمة محقّق كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١٤.

تفقه عليه عدد كثير وخرج له جملة الأئمة بأقطار الأرض من العراق وخراسان والحجاز ومصر وإفريقية وكان أكثر الأعلام أصحاباً وأفضلهم أتباعاً وأنجبتهم طلاباً، ولم ينجب أحد من الأصحاب بعد إسماعيل القاضي ما أنجب أبو بكر الأبهري، كما أنه لا قرين لهما في المذهب بقطر من الأقطار إلا الإمام سحنون في طبقتهم.

سئل الأبهري أن يلي القضاء ببغداد فامتنع فاستشير فيمن يصلح لذلك، فأشار بأبي بكر الرازي الحنفي، وكان حال الرازي يزيد على حال الرهبان في العبادة، فامتنع هو كذلك وأشار بالأبهري، فلما لم يجب واحد منهما إلى القضاء ولي غيرهما.

له تصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه، منها المختصر الصغير والكبير لابن عبدالحكم، وفيهما نحو عشرين ألف ٢٠ ٠٠٠ مسألة، وله كتاب الرد على المزني، وكتاب أصول الفقه وكتاب إجماع أهل المدينة، وغيرها.

توفي سنة نيف وثمانون سنة^(١).

وكان بالعراق من طبقة أبي بكر الأبهري، ابن علويه الأبهري صاحب كتاب مسائل الخلاف، أحد الفقهاء النظائر المحققين، ومن جلة أئمة المالكيين^(٢) وأبو الحسن محمد بن صالح بن أم شيبان - وقيل ابن الشيبان - الذي ولي قضاء الكوفة من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٣٤١هـ، ثم ولي قضاء القضاة ببغداد، وعنده كان يجتمع المالكية، أصحاب أبي بكر الأبهري، ببغداد للنظر^(٣).

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٦٦ - ٤٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٧، الفهرست ص ٢٥٣، الديباج المذهب ص ٣٥١، شذرات الذهب ٣/٢٠٤، هدية العارفين ٢/٥٠، النجوم الزاهرة ٤/١٤٧، البداية والنهاية ١١/٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٤/٤٧٣ - ٤٧٤، الديباج المذهب ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق ٤/٤٧٤ - ٤٧٥، الديباج المذهب ص ٤٠٩.

* وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد من أهل البصرة، الذي سكن بغداد، وكان إماماً في مذهب مالك مقدماً فيه^(١)، وأبو العلاء عبدالعزيز بن محمد البصري وأبو عبدالله محمد بن عطية البصري اللذان كانت عليهما تدور الفتوى على مذهب مالك بالبصرة في وقتها^(٢).

ومن كبراء أصحاب أبي بكر الأبهري بالعراق نذكر:

* أبو القاسم عبيدالله بن الحسن - ويقال ابن الحسين بن الحسن - المعروف بابن الجلاب (٣٧٨هـ) البصري، كان من أحفظ أصحاب الأبهري وأنبلهم وله كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب التفریح في المذهب مشهور، وله شرح للمدونة، وبه تفقه القاضي عبدالوهاب بن نصر - الآتي ذكره -^(٣).

* أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد المعروف بابن القصار (٣٩٨هـ) البغدادي، كان أصولياً نظاراً، ولّي قضاء بغداد، له كتاب في مسائل الخلاف بعنوان عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار، قال عنه الشيرازي: لا أعرف للمالكيين كتاباً في الخلاف أحسن منه، وقال تلميذه أبو ذرّ الهراوي: ابن القصار أفقه من لقيت من المالكية، وبه تفقه أيضاً القاضي عبدالوهاب بن نصر وابن عمروس - الآتي ذكرهما - وجماعة غيرهما، وقيل توفي سنة ٣٩٧هـ^(٤).

* أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المشهور بالقاضي الباقلاّني (٤٠٣هـ) الملقّب بشيخ السنّة ولسان الأئمة، المتكلّم على مذهب أهل السنّة، شيخ وقته وعالم عصره، الذي انتهت إليه رئاسة المالكيين في وقته.

كان حسن الفقه عظيم الجدل، يدرس نهاره وأكثر ليله، وكانت له

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٧٦.

(٢) المصدر السابق ٤/٤٧٨ - ٤٧٩.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٦٠٥، الديباج المذهب ص ٢٣٧، هدية العارفين ١/٤٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨، شذرات الذهب ٣/٢١٣، كشف الظنون ١/٣٥٣.

(٤) ترتيب المدارك ٤/٦٠٢، الديباج المذهب ص ٢٩٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨، هدية العارفين ١/٦٨٤، شذرات الذهب ٣/٢٨٤.

بجامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة، وكان فاضلاً متورعاً ممن لم تحفظ له زلة ولا نسبت إليه نقيصة، وكان على درجة عظيمة من الصلاح، حتى قيل: ما نفع الله هذه الأمة بكتبه وبثها فيهم، إلا بحسن نيته واحتسابه بذلك.

كان يقال: إن الله تعالى تعاهد أمته في رأس كل مائة عام برئائي من علمائها، يحيي لها دينها ويجدد شريعته، فكان إمام رأس أربعمائة، أبو بكر بن الطيب.

صنّف الأصول الكبير في الفقه والإرشاد والمقنع في أصول الفقه وله شرح أدب الجدل، وله كتباً عديدة في أصول الدين والعقيدة، وتصانيف واسعة في الرد على الفتن الضالة^(١).

وكان ثمره هؤلاء الثلاثة - أعني ابن الجلاب وابن القصار والقاضي الباقلاني -:

* أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر (٤٢٢هـ) البغدادي، أحد أئمة المذهب، الذين انتهت إليهم رئاسة المذهب بالعراق، فريد عصره وناصر المذهب، ولي قضاء أماكن عديدة بالعراق، تفقه على كبار أصحاب أبي بكر الأبهري مثل أبي الحسن ابن القصار، وأبي القاسم ابن الجلاب، ودرس الفقه والأصول والكلام على القاضي أبي بكر الباقلاني وصحبه، وقيل أنه قد رأى أبا بكر الأبهري إلا أنه لم يسمع منه شيئاً، والصحيح عند أهل التحقيق أنه حدث عنه وأجازه، وقد قيل له: مع من تفقحت؟ قال: صحبت الأبهري، وتفقحت مع أبي الحسن ابن القصار، وأبي القاسم بن الجلاب، والذي أفتح أفواهنا وجعلنا نتكلم القاضي أبو بكر بن الطيب.

(١) ترتيب المدارك ٤/٥٨٥ - ٦٠٢، الديباج المذهب ص ٣٦٣، شذرات الذهب ٣/٣١٠ - ٣١٢، البداية والنهاية ١١/٣٥٠ - ٣٥١، النجوم الزاهرة ٤/٢٣٤، هدية العارفين ٥٩/٢، وفيات الأعيان ٤/٢٦٩ - ٢٧٠.

كان القاضي عبدالوهاب بقية الناس ولسان أصحاب القياس بالعراق، ولكنه خلع أهلها وودع ماءها وظلها فخرج في آخر حياته إلى مصر، واستقر بها إلى وفاته، وقد ورد أنه لما خرج من بغداد تبعه الفقهاء والأشراف من أهلها، وقالوا له: والله لقد يعز علينا فراقك، فقال لهم: والله لو وجدت في بلدكم كجلتين من ذرة ما خرجت منها، ولقد ترك أبي جملة دنانير وداراً أنفقتها كلها على صعاليك من كان ينهض بالطلب عندي، فنكس كل واحد منهم رأسه، ثم أمرهم بالانصراف فانصرفوا، وأنشد يقول:

لا تطلبنّ إلى الم محبوب أولادا ولا السّراب لتسقي منه ورّادا
ومن يروم من الأندال مكرمة كمن يوتد في الأتبان أوتادا

ويقال إن سبب خروجه من بغداد قصّة جرّت له الكلام مع شافعيّ، فخاف على نفسه، وطلب فخرج فارّاً منها، وأنشد في خروجه^(١):

سلام على بغداد في كل موطن وحقّ لها منّي السلام المضاعف
لعمرك ما فارقتها عن ملالة وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنّها ضاقت عليّ برحبها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
فكانت كخّل كنت أهوى دنوّه وأخلاقه تنأى به وتجانف

واجتاز في طريقه معرّة النعمان، بلدة أبي العلاء المعريّ، فاستضافه، وله في الإشادة بفقهه وبشعره:

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكتنا جدلا وينشر الملك الضليل^(٢) إن شعرا

(١) وقال عياض: قرأت في بعض الأخبار أنّ الشعر ليس من قوله (ترتيب المدارك ٦٩٣/٤).

(٢) هو امرؤ القيس.

وفي مصر حصل له حال من الدنيا، فولي القضاء بها إلى أن مات، وحمل لواء العلم فيها وانثالت في يديه الرغائب، واتسع حاله بها بعد ضيقه بالعراق، ولكن لم يلبث أن ألم به مرض الموت بعد قليل، وزعموا أنه قال وهو يتقلب ونفسه تتصعد وتتصوب: لا إله إلا الله، لما عشنا متنا.

ألف في المذهب والخلاف والأصول تأليف بديعة مفيدة مثل كتاب التلقين، وكتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف، وكتاب النصر لمذهب إمام دار الهجرة، وكتاب المعونة على مذهب عالم المدينة، وكتاب أوائل الأدلة في مسائل الخلاف، وكتاب الرد على المزني، والإفادة والتلخيص كلاهما في أصول الفقه وكتاب عيون المسائل، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح المدونة^(١).

وفي المذهب قول مشهور: لولا الشيخان والمحمدان والقاضيان لذهب المذهب، فالشيخان: ابن أبي زيد القيرواني، وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون، ومحمد بن المواز، والقاضيان: القاضي عبد الوهاب، والقاضي ابن القصار البغداديان^(٢).

ومن فقهاء العراق المالكيين الذين درسوا على أبي بكر الأبهري نذكر:

أبو جعفر محمد بن عبد المنعم بن أبي حماد الأسدي، وكان باهرا ومالكيا مشهورا بالعلم والحديث ومكارم الأخلاق^(٣)، وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زيد القزويني (حدود ٣٩٠هـ) وكان زاهدا عالما بالحديث،

(١) ترتيب المدارك ٤/٦٩١ - ٦٩٥، الديباج المذهب ص ٢٦١ - ٢٦٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨ - ١٦٩، النجوم الزاهرة ٤/٢٧٦، هدية العارفين ١/٦٣٧، شذرات الذهب ٣/٣٧٧ - ٣٧٩، البداية والنهاية ١٢/٣٢ - ٣٣، وفيات الأعيان ٣/٢١٩ - ٢٢٢، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤/مج ٢/٥١٥ - ٥٢٩.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٩٢.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٦٠٣.

وصنّف في المذهب والخلاف، وله كتاب المعتمد في الخلاف من أهدب كتب المالكية، وله أيضاً الإلحاق في مسائل الخلاف^(١)، وأبو تمام علي بن محمد بن أحمد البصري، وكان جيّد النظر، حاذقاً بالأصول، صنّف في مسائل الخلاف وفي أصول الفقه^(٢)، وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالله بن خويز منداد، الذي صنّف في الخلاف وفي أصول الفقه وفي أحكام القرآن، وكانت له اختيارات وتأويلات على المذهب في الفقه والأصول لم يرجع عليها حدّاق المذهب^(٣)، ومحمد بن عبدالله البصري وكان يعرف بالشهرة بالعبادة وطلب العلم وكان الأبهري يحبه ويجلّه^(٤).

وغير هؤلاء من أصحاب أبي بكر الأبهري الذين حملوا لواء المذهب المالكي بالعراق طوال هذا الدور، وملؤوا أرضها وسماءها، وتفوّقوا على كافة المذاهب الأخرى، ونبت بهم العراق كعادة البلاد بذوي فضلها، وعلى حكم الأيّام في محسني أهلها، حتّى كان لهم الحظّ الأوفى من الولاية فيها، فقد روي أنّ أبا بكر الأبهري قال يوماً لأصحابه: إنّ الله رضيكم لولاية، فجمع لكم بها شرف الدنيا والآخرة، لا يعزلكم عنها أمر ما طلبتم هذا العلم، ونفرتم به عن السلطان فإذا كنتم كذلك تمّت لكم الولاية في الدنيا والآخرة، ونلتم بها سرورهما^(٥).

ولكن بعد موت الأبهري وكبار أصحابه لتلاحقهم، وخروج القضاء عنهم إلى غيرهم من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، ضعف مذهب مالك بالعراق، وقلّ طلبه لاتباع الناس أهل الرئاسة والظهور^(٦).

(١) ترتيب المدارك ٦٠٤/٤، الديباج المذهب ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٠٥/٤.

(٣) ترتيب المدارك ٦٠٦/٤، الديباج المذهب ص ٣٦٣ - ٣٦٤، شجرة النور الزكية ١٠٣.

(٤) ترتيب المدارك ٦١١/٤.

(٥) ترتيب المدارك ٤٧٣/٤.

(٦) ترتيب المدارك ٤٧٠/٤ - ٤٧١.

ويبدو أنّ الشافعيّة قد قويت شوكتهم في أواخر هذه المرحلة من هذا الدور، بسبب قربهم إلى الخليفة بواسطة رئيسهم أبي حامد الإسفراييني، فكأنّي بهم قد عملوا على استبعاد منافسيهم من أعلام المالكيّة، كما يتّضح من إحدى الروايتين في سبب خروج القاضي عبدالوهاب، أي خوفاً على نفسه لما طلب لقصّة جرّت له الكلام مع شافعيّ، فخرج فارّاً.

ويخرج القاضي عبدالوهاب انقطع المذهب المالكي من العراق أو كاد، وعدّت طبقة المالكيّة الأخيرة بالعراق، ولم يعد للمذهب المالكي بعده ذكر إلاّ حين يظهر أحد فقهاءه.

وذكر له من تلاميذه بالعراق: أبو الفضل محمد بن عبدالله بن أحمد عمروس البزّار (٣٧٢هـ - ٤٥٢هـ) البغدادي، الفقيه الأصولي، من حفاظ القرآن ومدّرسيه، وإليه انتهت الفتوى في الفقه بمذهب مالك ببغداد، وكانت له حلقة المالكيين بجامع المنصور، له تعليق حسن كبير مشهور في المذهب، والخلاف، ومقدّمة حسنة في أصول الفقه^(١).

ثمّ لم نعد نجد في الطبقة الموالية إلاّ فقيهاً واحداً هو أبو يعلى أحمد بن محمد العبدي (٤٨٩هـ)^(٢)، وكان آخر الأعلام قياماً بلواء مذهب مالك بالعراق: القاضي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عسكر (٧٠١هـ - ٧٦٧هـ) البغدادي، العلامة المتقن، الذي وليّ القضاء ببغداد^(٣).

وهكذا غاب المذهب المالكي عن العراق خاصّة، وعن الشام والمشرق عامّة، بعد أن اكتسح المغرب والأندلس جميعاً.

وأما في خصوص نشاط المذهب الشافعي فقد كان من أبرز أعلامه خلال هذه المرحلة بالعراق:

(١) ترتيب المدارك ٧٦٢/٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩، الديباج المذهب ٣٦٨.

(٢) شجرة النور الزكية ص ١١٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢.

* أبو القاسم عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد الداركي (٣٧٥هـ) أحد أئمة الشافعية في زمانه، درس بنيسابور مدة ثم سكن بغداد إلى أن مات بها، انتهى إليه التدريس ببغداد، وكانت له حلقة للفتوى، وانتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي ببغداد، وعنه أخذ عامة شيوخها وغيرهم من أهل الآفاق، ومنهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني بعد موت أستاذه أبي الحسن ابن المرزبان، فقال: ما رأيت أفقه منه.

له في المذهب وجوه جيدة تدلّ على متانة علمه، وكان يسأل عن الفتوى فيجيب بعد تفكير طويل، وربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول الأخذ بما روي عن رسول الله ﷺ أولى من الأخذ بمذهب الشافعي وأبي حنيفة، ومخالفتها أسهل من مخالفة الحديث^(١).

* أبو القاسم عبدالواحد بن الحسين الصيمري (٣٨٦هـ) سكن البصرة، فارتحل إليه الناس للأخذ عنه، تفقه به الإمام الماوردي - الآتي ترجمته - .

كان حافظاً للمذهب حسن التصنيف، من مصنفاته الكفاية في فروع الفقه الشافعي وله عليه شرح^(٢).

* أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني (٣٤٤هـ - ٤٠٦هـ) شيخ العراق وإمام الشافعية في زمانه، قدم بغداد في سنّ العشرين، فدرس الفقه على أبي الحسن ابن المرزبان، ثم على أبي القاسم الداركي، ولم يزل تترقى به الأحوال حتى انتهت إليه رئاسة الشافعية ببغداد، وطبق الأرض بالأصحاب، وكان مجلسه يجمع سبعمائة متفقه.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٧ - ١١٨، البداية والنهاية ٣٠٤/١١، شذرات الذهب ٢٠٣/٣ النجوم الزاهرة ١٤٨/٤، وفيات الأعيان ١٨٨/٣ - ١٨٩، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٠/٣ - ٣٣٣.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٥، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٩/٣.

اتفق الموافق والمخالف على تفضيله وتقديمه في جودة الفقه وحسن النظر، وكان أبو الحسين القُدوري إمام أصحاب أبي حنيفة في عصره، يعظمه ويفضله على كل أحد.

صنّف الرونق في فروع الشافعية المعروف أيضاً بالمختصر، وله كتاب في أصول الفقه، والتعليقة الكبرى في شرح المزني، ذكر فيها خلاف العلماء وأقوالهم ومآخذهم ومناظراتهم حتى كان يقال له الشافعي الثاني، وكان الناس في وقته يقولون: لو رآه الشافعي لفرح به^(١).

* أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبي (٣٦٨هـ - ٤١٥هـ) شيخ الشافعية، المشهور بابن المحاملي، تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وبرع فيه حتى إنَّ الشيخ كان يقول: هو اليوم أحفظ للفقه مني.

كان عديم النظير في الذكاء والفتنة، ورزق من حسن الفهم ما أربى فيه على أقرانه، درس ببغداد، وصنّف مصنّفات كثيرة في المذهب والخلاف، منها اللباب، والمقنع: اشتمل على فروع كثيرة بعبارة مختصرة، والمجموع: اشتمل على نصوص كثيرة للإمام الشافعي، ورؤوس المسائل: يذكر فيه أصول المسائل ويستدلّ عليها، والتجريد: وغالبه فروع عارية عن الاستدلال، وغيرها من المصنّفات^(٢).

* أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري (٤٥٠هـ) أحد أئمة أصحاب الوجوه، كان عالماً بارعاً متقناً، من وجوه الفقهاء الشافعيين.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٣ - ١٢٤، البداية والنهاية ٢/١٢ - ٣، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٦٥ - ٧٤، كشف الظنون ٢/٦٩٦، شذرات الذهب ٣/٣٢٢، النجوم الزاهرة ٤/٢٣٩، وفيات الأعيان ١/٧٢ - ٧٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٩، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٤٨ - ٥٦، البداية والنهاية ١٢/١٨، شذرات الذهب ٣/٣٥٢، هدية العارفين ١/٧٢، النجوم الزاهرة ٤/٢٦٢، كشف الظنون ١/٣٠٤ - ٦٨٣، ٢/٤٥٤، ٥٠١، ٦٥٢، وفيات الأعيان ١/٧٤ - ٧٥.

تفقه على أبي القاسم الصيرمي بالبصرة، وارتحل إلى أبي حامد الإسفراييني، ودرس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة، ولي قضاء بلدان شتى ثم سكن بغداد.

كان الإمام الماوردي قد سلك طريقة في ذوي الأرحام يورث القريب والبعيد على السوية، وهو مذهب بعض المتقدمين، فجاءه يوماً السينيزي مع أصحاب له، فصعد إلى المسجد وصلّى ركعتين ثم التفت إليه فقال له: أيها الشيخ اتبع ولا تبتدع، فقال: بل أجتهد ولا أقلد.

وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه، عظيم القدر مقدّماً عندهم، يرسلونه في التوسّطات بينهم وبين يناوئهم، ويرتضون بوسطاته ويقنعون بتقريراته، لُقّب بأقضى القضاة منذ سنة ٤٢٩هـ، وجرى من الفقهاء كأبي الطيّب الطبري والصيرمي إنكار لهذه التسمية.

قال: بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة - يعني في كتاب الحاوي - واختصرته في أربعين - يعني في الإقناع المختصر - صنّف تصانيف عديدة في أصول الفقه وفروعه، وفي تفسير القرآن، وفي الأحكام السلطانية، ولم يبرز شيئاً من مصنفاته في حياته، وإنما أوصى رجلاً من أصحابه إذا حضره الموت أن يضع يده في يده، فإن رآه قبض على يده فلا يخرج من مصنفاته شيئاً، وإن رآه بسط يده فهي علامة قبولها فليخرجها، فبسطها^(١).

* أبو الطيّب طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري (٣٤٨هـ - ٤٥٠هـ) تفقه على أعلام الفقهاء بجرجان، ثم ارتحل إلى نيسابور فبقي بها أربع سنين يتفقه على أعلامها، ثم ارتحل إلى بغداد، وهناك تولّى سنة ٤٣٦هـ قضاء ربع الكرخ ببغداد بعد الصيرمي، وبقي على القضاء إلى أن مات

(١) معجم الأدباء ١٩٥٥/٥ - ١٩٥٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢٦٧/٥ - ٢٨٥، البداية والنهاية ٨٠/١٢، طبقات المفسرين للداودي ٢٩٢ - ٢٩٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ١٢٩، النجوم الزاهرة ٦٤/٥، شذرات الذهب ٤٦٣/٣ - ٤٦٤، هدية العارفين ٦٨٩/١، كشف الظنون ٨٠/١، ٩٩، ١٦٥، ٤٩٠، و٥٥٢/٥، وفيات الأعيان ٢٨٢/٣ - ٢٨٤.

وهو ابن مائة وسنتين، وكان يفتي إلى آخر حياته مع الفقهاء ويستدرك عليهم الخطأ ويقضي ويشهد ويحضر المواكب في دار الخلافة، ولم يختل عقله ولا تغير فهمه، ولا ضعف جسده، حتى روي أنه اجتاز يوماً بنهر فوثب وثبة عظيمة، وقال: عظام حفظها الله في صغرها فقواها في كبرها.

وروي عنه أنه رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: يا فقيه، فكان يفرح بذلك ويقول: سماني رسول الله ﷺ فقيهاً.

كان عارفاً بالأصول والفروع محققاً صحيح المذهب، له مناظرات مع أبي الحسين القدوري وأبي الحسين الطالقاني الحنفيين، وفيه قال تلميذه أبو إسحاق الشيرازي: لم أر فيمن رأيت أكمل اجتهاداً وأشدّ تحقيقاً وأجود نظراً منه.

شرح مختصر المزني وصنف في الخلاف والمذهب والأصول والجدل كتباً كثيرة.

قال أبو إسحاق الشيرازي: لازمت مجلسه بضع عشرة سنة، ودرّست أصحابه في مسجده بإذنه، ورتبني في حلقتة، وسألني أن أجلس في مجلسه للتدريس ففعلت ذلك في سنة ٤٣٠هـ.

وإذا أطلق أبو إسحاق الشيرازي وأمثاله من العراقيين لفظ القاضي مطلقاً في فنّ الفقه فإياه يعنون^(١).

وهكذا كان الشيوخ ينهجون الطرق التطبيقية في حلقات التعليم والتدريس، فكانوا يعوّدون تلاميذهم ممّن يأنسون فيهم قدرة ونباهة، وممّن يلمسون فيهم حسن فهم وشدة ذكاء، على جلوس مجلسهم، والتدريس

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٧ - ١٢٨، البداية والنهاية ٧٩/١٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٧٦/٣ - ١٩٧، شذرات الذهب ٤٦١/٣ - ٤٦٢، كشف الظنون ٥٢٤/٢، وفيات الأعيان ٥١٢/٢ - ٥١٥، طبقات الشافعية الكبرى ١٢/٥ - ٥٠.

بحضرتهم، وكذلك كان يفعل كلّ جيل من الشيوخ مع تلاميذه، فشاباب هذه المرحلة هم شيوخ المرحلة القادمة كما كان شيوخ هذه المرحلة شباب المرحلة السابقة.

وكان إلى جانب هؤلاء الأعلام البارزين جمع من الفقهاء من أصحاب أبي القاسم الداركي شاركوا نظراءهم في التدريس والتصنيف على المذهب الشافعي، من أمثال أبي محمد عبدالله بن محمد الخوارزمي البافي الذي درّس ببغداد بعد الداركي^(١)، وأبي أحمد عبدالوهاب بن محمد بن رامين البغدادي الذي سكن البصرة ودرّس بها^(٢)، وأبي عبدالله محمد بن عبدالله البيضاوي الذي سكن بغداد وكان حافظاً للمذهب والخلاف موقفاً في الفتاوى^(٣).

ومن أصحاب أبي حامد الإسفراييني: القاضي أبو العباس الأبيوردي الذي ولي القضاء ببغداد^(٤)، وأبو القاسم منصور بن عمر الكرخي، وأبو نصر أحمد بن عبدالله الثابتي البخاري اللذان درّسا ببغداد، وصنفاً في المذهب، وكان لكلّ منهما تعليقة عن شيخهما أبي حامد الإسفراييني^(٥)، وغير هؤلاء كثيرون.

وأما المذهب الحنبلي فمن نبغائه الذين أسهموا في نشاط الحركة الفقهية ونشر المذهب بالعراق، نذكر:

* أبو عبدالله عبيدالله بن محمد بن حمدان العكبري (٣٨٦هـ) المعروف بابن بطة أحد علماء الحنابلة، سمع من أعلام لا يحصون، أفتى

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥.

(٣) نفس المصدر ص ١٢٦.

(٤) نفس المصدر ص ١٢٩.

(٥) نفس المصدر ص ١٣٠.

وهو ابن خمس عشرة سنة، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، له تصانيف كثيرة حافلة تزيد على مائة في فنون من العلم، وقيل إنه توفي سنة ٣٨٧هـ^(١).

* أبو عبدالله الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي (٤٠٣هـ) إمام الحنابلة وفقههم في زمانه ومدرسهم ومفتيهم، وعليه تفقه أبو يعلى الفراء - الآتي ترجمته - كان معظماً في النفوس مقدماً عند السلطان، ولا يأكل إلا من كسب يديه من النسج.

ناظر أبا حامد الإسفراييني في وجوب الصيام ليلة الغمام في منزل الخليفة القادر بالله، فأعطاه الخليفة الجائزة السنوية، فردّها ابن حامد مع حاجته إلى بعضها فضلاً عن جميعها تعقفاً وتنزّها.

له مصنفات مشهورة في علوم مختلفة منها كتاب الجامع في اختلاف العلماء وله مصنفات في أصول الفقه وأصول الدين وشرح الخرقى^(٢).

* أبو علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي البغدادي (٣٤٥هـ - ٤٢٨هـ) صاحب التصانيف، وإليه انتهت رئاسة المذهب، كان رفيع القدر بعيد الصيت سامي الذكر، له القدم العالي والحظ الوافر عند الخليفتين القادر بالله والقائم بأمر الله، وكانت له حلقة بجامع المنصور للإفتاء والتدريس.

قال أبو إسحاق الشيرازي: كان حسن الفتيا معظماً لأهل العلم، حضرت حلقاته وانتفعت به كثيراً.

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٨٥/٢ - ١٩٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٦، ٢٧، البداية والنهاية ٣٢١/١١ - ٣٢٢، شذرات الذهب ٢٥١/٣ - ٢٥٢.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٢٢/٢ - ٢٣١، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٢، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٤٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، النجوم الزاهرة ٢٣٢/٤، البداية والنهاية ٣٤٩/١١، شذرات الذهب ٣٠٧/٣ - ٣٠٨.

صنّف الإرشاد في فروع المذهب وشرح كتاب الخرقى^(١).

* القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء البغدادي (٣٨٠هـ - ٤٥٨هـ) فقيه عصره وعلامة زمانه، شيخ الحنابلة ومجتهد المذهب، وممهد مذهبهم في الفروع، كان إماماً لا يدرك له قرار، ولا يشقّ له غبار، جميع الحنابلة يعترفون بفضلته ويعترفون من بحره.

حدّث عن أبي الحسن عليّ بن محمد الحربي وطبقته، وتفقه على أبي عبدالله بن حامد وغيره من علماء عصره، وصنّف التصانيف الكثيرة في المذهب منها مسائل الخلاف وعيون المسائل والأحكام السلطانية، والمجرّد في الأصول، والمجرّد في فضائل الإمام أحمد، وغيرها.

درّس وأفتى سنين، وإليه انتهت رئاسة المذهب بالعراق.

جمع الإمامة والفقه والصدق، وحسن الخلق، والتعبّد والزهد والخشوع، وحسن السمّت والصمت عمّا لا يعنيه^(٢).

ومن العلماء الفقهاء أمثال هؤلاء:

* الحسن بن أحمد بن عبدالله بن البناء البغدادي (٣٩٦هـ - ٤٧١هـ) الفقيه المقرئ المحدث، أحد تلاميذ القاضي أبي يعلى ومن قدماء أصحابه، قرأ القراءات السبع، وسمع الحديث، ودرس الفقه كثيراً وأفتى زماناً طويلاً، وكان محبّاً لأهل العلم، صنّف تصانيف كثيرة في علوم القرآن والحديث والفقه والفرائض والأصول والفروع، وفي علوم عدّة، حتّى بلغت تصانيفه خمسمائة مصنّف.

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢٤٠ - ٢٤٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣ - ١٧٤، شذرات الذهب ٣/٣٩٧ - ٤٠٠، كشف الظنون ١/١١٥.

(٢) طبقات الحنابلة ٢/٢٥٩ - ٣٠٧، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٧، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨ - ٢٩ و ٥٠ - ٥١، البداية والنهاية ١٢/٩٤ - ٩٥ هدية العارفين ٢/٧٢، كشف الظنون ١/٨٠ و ٢/٤٩١ - ٤٩٢، ٥٤٨.

وهو أحد شراح مختصر الخرقى، ومن كتبه المشهورة: المجرد في المذهب^(١).

وغير هؤلاء من نظرائهم، مثل: أبي طاهر محمد بن أحمد بن محمد الغباري (٤٣٢هـ) الذي كانت له حلقتان إحداهما بجامع المنصور، والأخرى بجامع الخليفة^(٢)، ومثل: أبي طالب أحمد بن عبدالله بن سهل (٤٤٠) المعروف بابن البقال، صاحب الفتيا والنظر، الذي كانت له حلقة هو الآخر بجامع المنصور^(٣).

وإلى جانب هؤلاء العلماء، اشتهرت أسر علمية نشطت في نشر المذهب الحنبلي بالعراق وحافظت على وجوده وانتشاره الواسع، فخلد الدهر ذكراها وحفظ التاريخ أسماءها وألقابها، وأشهر هذه الأسر:

* أسرة العكبري: - نسبة إلى بلدة عكبرا قرب بغداد - التي ورث العلم في المذهب الحنبلي لأدوار عديدة، فكان منهم من أصحاب الأدوار السابقة: جهم العكبري الذي روى عن الإمام أحمد رأيته في عدم جواز قراءة القرآن بالألحان^(٤)، وعصمة ابن أبي عصمة العكبري الذي روى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، ومحمد بن روح العكبري صديق الإمام أحمد، حيث كان الإمام إذا نزل عكبرا ينزل عنده، وعمر بن محمد بن رجاء العكبري تلميذ عبدالله بن أحمد^(٥).

وبرز منهم في هذا الدور بالخصوص: أبو عبدالله بن بطة العكبري -

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٣٢٦/٢ - ٣٢٧، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٢، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٤٩ و ٥١ و ٥٢، شذرات الذهب ٣١/٤، تذكرة الحفاظ ١١٧٦/٣ - ١١٧٧، النجوم الزاهرة ١٠٧/٥، هدية العارفين ٢٧٦/١، معجم البلدان ٨٢٣/٢ - ٨٢٤، غاية النهاية ٢٠٦/١.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٤٩/٢، شذرات الذهب ٤١١/٣.

(٣) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٥٠/٢ - ٢٥١، شذرات الذهب ٤٣٢/٣.

(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٥.

(٥) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٦.

وقد مرّت ترجمته -، وأبو حفص عمر بن إبراهيم أبو حفص العكبري (٣٨٧هـ) المعروف بابن المسلم، تلميذ الخلال، وصاحب المقنع شرح الخرقى^(١)، وأبو عليّ الحسن بن شهاب العكبري (٤٢٨هـ) الفقيه الشاعر^(٢)، وأبو الحسن علي ابن الحسن العكبري (٤٦٨هـ) المعروف بابن جدأ^(٣).

ويبقى نشاط هذه الأسرة في المذهب الحنبلي يتوارث إلى الدور القادم، حيث يبرز منهم: أبو ياسر محمد ابن عبدالله العكبري (٤٩٦هـ) الذي سمع من القاضي أبي يعلى^(٤)، وكذلك أبو المواهب الحسن بن محمد العكبري من أصحاب القاضي أبي يعلى وصاحب رؤوس المسائل في الفقه^(٥)، وأهل عكبرا كثر في تاريخ المذهب الحنبلي.

* أسرة أبي يعلى: التي كان منها في هذا الدور القاضي أبي يعلى - وقد تقدّمت ترجمته - ثم ابنه أبو القاسم عبيدالله بن الحسين الفراء (٤٤٣هـ - ٤٦٩هـ) الذي كان كثير الدرس، وكان يتكلّم مع شيوخ عصره رغم صغر سنّه، فقد مات وله ستّ وعشرون سنة^(٦).

ويستمرّ نشاط هذه الأسرة في الدور القادم مع محمد بن محمد بن الحسن (٤٥١هـ - ٥٢٦هـ) ابن شيخ المذهب القاضي أبي يعلى، وكذلك مع محمد بن محمد بن الحسن ابن أبي يعلى، صاحب التبصرة في الخلاف ومختصر الخرقى^(٧).

- (١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢١١ - ٢١٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
- (٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢٤٥ - ٢٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٤، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧، شذرات الذهب ٣/٤٠٠ - ٤٠١.
- (٣) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٣١٥، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
- (٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
- (٥) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
- (٦) شذرات الذهب ٤/٢٥، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨.
- (٧) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨.

* أسرة الأزجي: التي قامت بنفس الدور في الحفاظ على المذهب ونشره، وكان أفرادها قد عاشوا في القرنين الرابع والخامس، وتنقل أفرادها بين العراق وإيران، وكان منهم المحدث والفقيه والواعظ^(١).

* أسرة الجيلي: وقد نبغ أفراد هذه الأسرة خصوصا في الدور القادم، وكان منهم عبدالصمد بن بديل الجيلي (٥٧١هـ) تلميذ القاضي أبي يعلى، وقد كان من القراء مع فقه وإفتاء، وكذلك أحمد بن صالح بن شافع الجيلي الذي أخذ الحديث عن علماء عصره، وكذلك ابن أبي طاهر بن محمد الجيلي (٥٨٩هـ) الفقيه المقرئ^(٢).

وأما أهل الظاهر فقد ذكر أبو إسحاق الشيرازي أنّ مذهبهم قد انقرض لهذا الحين^(٣)، ومن وجد منهم في بغداد فإنّما كان يقدم من شيراز، كما هو الحال بالنسبة لأبي الحسن عبدالعزيز بن أحمد (٣٩١هـ) الجزري إمام أهل الظاهر في عصره، ومن أفاضل أصحابه ومصنفيهم، قدم من شيراز في صحبة الملك عضد الدولة، فاشتغل عليه فقهاء بغداد، وكان على القضاء سنة ٣٧٧هـ، وكان من نظراء أبي حامد الإسفراييني الشافعي، وله من الكتب كتاب مسائل الخلاف^(٤).

وممن أخذ عنه ابن له، يقول عنه الشيرازي: رأيتُه وكان يناظر^(٥)، وأخذ عنه القاضي أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن إسماعيل بن عبيدالله بن الأخضر، وكان من أجلاء شهود قاضي القضاة ببغداد^(٦).

(١) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٩.

(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٣٠.

(٣) طبقات الفقهاء ص ١٧٩.

(٤) طبقات الفقهاء ص ١٧٨، شذرات الذهب ٢٦٩/٣، البداية والنهاية ٣٣٠/١١، الفهرست ص ٢٧٣.

(٥) طبقات الفقهاء ص ١٧٨.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

وأما الشيعة فقد كان لهم بالعراق أنصار كثيرون، وغالبا ما كانت تحدث بينهم وبين أهل السنة ببغداد سخف لا تنحصر ولا تنضب، وتجري بينهم الفتن العظيمة، التي تصل أحيانا إلى ما يزيد على الحد من الجرح والقتل وحرق الدور، حتى كان يستعصي على أولي الأمر الحجز بين الفريقين^(١).

ومن أشهر أعلام الشيعة ببغداد الذين نلتقي بهم في هذه المرحلة نذكر:

* أبو عبدالله أحمد بن محمد بن عبيدالله بن الحسن الجوهري (٤٠١هـ) البغدادي، وكان عالماً في الفقه ومحدثاً، صنف مقتضب الأثر في الأئمة الاثني عشر^(٢).

* المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (٣٣٣هـ - ٤١٣هـ) المعروف بابن المعلم، عالم الشيعة ولسان الإمامية، ورئيس الكلام والفقه والجدل، كان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهية، وكان كثير الصدقات عظيم الخشوع كثير الصلاة والصوم، وصنف تصانيف كثيرة، بلغت أكثر من مائتي مصنف منها: كتاب المقنعة، وكتاب المجالس، وقد يكون هو نفسه كتاب الأمالي الذي طبع في النجف، ويعرف أيضاً بكتاب الاختصاص، وله أيضاً كتاب الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، وهو يبحث في تاريخ الأئمة الاثني عشر^(٣).

* أبو طالب علي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف المرتضى (٣٥٥هـ - ٤٣٦هـ) نقيب الطالبين، وشيخ الشيعة، وعالم الإمامية ورئيسهم بالعراق، كان إمام أئمة العراق على الاختلاف والاتفاق، إليه فزع علماؤها،

(١) البداية والنهاية ٢/١٢، ٦، ٥٩، ٦٢، ٦٤، ٦٦، شذرات الذهب ٣/٢٦٠، ٢٨٦.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٠٩ - ٣١٠، معجم المؤلفين ٢/١٢٦.

(٣) شذرات الذهب ٣/٣٤٨، النجوم الزاهرة ٤/٢٥٨، هدية العارفين ٢/٦١، الأعلام ٧/٢٤٥، معجم المؤلفين ١١/٣٠٦، تاريخ التراث العربي ٣/٣١٠ - ٣١١.

وعنه أخذ عظاماؤها، كان متبحرا في فنون العلم، يناظر عنده في كل المذاهب، وكان كثير التصانيف على مذهب الشيعة في الأصول والفروع، وله كتاب سمّاه الدرر والغرر، في مجالس أملاها تشتمل على فنون في معاني الأدب، وهو كتاب يدلّ على فضل كثير وتوسّع في الاطلاع على العلوم^(١).

* أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الطوسي (٤٦١هـ) فقيه الشيعة ومصنّفهم، قدم بغداد وتفقه على مذهب الشافعي، ثمّ انتقل إلى المذهب الشيعي، وقرأ الأصول والكلام على فقيه الإمامية أبي عبدالله المفيد، صنّف مصنّفات كثيرة على مذهب الإمامية وجمع تفسير القرآن وأملى أحاديث وحكايات كثيرة، وقد أحرقت كتبه عدّة مرّات بمحضر من الناس في رحبة جامع القصر ببغداد، وأحرقت داره، واستتر هو خوفا على نفسه بسبب ما كان يظهره من انتقاص السلف، وجاور مشهد الإمام عليّ بن أبي طالب بالكوفة من سنة ٤٤٨هـ إلى أن توفّي بها ودفن هناك^(٢).

- ٣ - بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

حمل الشافعية لواء العلم في هذه المرحلة بهذه البلاد، وعمّ أتباعهم سائر أنحاءها، وملا تلاميذهم مساجدها وجوامعها، وكان لمذهب أهل الظاهر نوعا من المشاركة في هذا النشاط خاصّة بشيراز، وأمّا الحنفيّة فقد كان نشاطهم ببعض مناطق هذا المراكز يوازي نشاط الشافعية أو يكاد.

إيران:

فأمّا في إيران فنلقى من أعلام الشافعية: أسرة الإسماعيلي التي

(١) شذرات الذهب ٤٢٠/٣ - ٤٢٢، البداية والنهاية ٥٣/١٢، هدية العارفين ٦٨٨/١، وفيات الأعيان ٣١٣/٣ - ٣١٧، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤/مج ٤٦٥/٢ - ٤٧٥، تذكرة الحفاظ ١١٠٩/٣، معجم الأدباء ١٧٢٨/٤ - ١٧٣٣.

(٢) طبقات المفسرين ص ٣٨٧ - ٣٨٨، النجوم الزاهرة ٨٢/٥، البداية والنهاية ٩٧/١٢.

قامت على نشر المذهب بجرجان - مدينة إيرانية شرقي بحر قزوين - واستمر نشاط هذه الأسرة لأربعة قرون، من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الثامن، وكان من أشهر أبنائها في هذه المرحلة:

* أبو سعد إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (٣٣٣هـ - ٣٩٦هـ) شيخ الشافعية بجرجان وابن شيخهم أبي بكر الإسماعيلي، كان إمام زمانه، مقدما في الفقه والأصول والعربية والشروط والكلام، وغيرها من العلوم.

جمع بين رئاسة الدين والدنيا بجرجان، وعلى يديه تخرج جماعة من أهل العلم والفقه، وكان سخيًا على أهل العلم.

ورد أبو سعد بغداد فعقد له الفقهاء مجلسين، تولّى أحدهما أبو حامد الإسفراييني، وتولّى المجلس الثاني أبو محمد الباني.

قال ابن كثير: وله ورع ورئاسة إلى اليوم في بلده إلى ولده^(١).

توفي فجأة وهو قائم يصلي في المحراب، في صلاة المغرب، فلما قرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ فاضت نفسه، وله ثلاث وستون سنة^(٢).

وفيه وفي أخيه أبي نصر وأبيهما أبي بكر، قال صاحب بن عبّاد في رسالته: «وأما الفقيه أبو نصر فإذا جاء حدّثنا وأخبرنا فصادق وصادق ونقد ناطق، وأما أنت أيها الفقيه أبا سعد، فمن يراك كيف تدرّس وتفتي وتحاضر وتروي وتكتب وتملي، علم أنك الحبر ابن الحبر، والبحر ابن البحر، والضياء ابن الفجر، وأبو سعد ابن أبي بكر، فرحم الله شيخكم

(١) البداية والنهاية ٣٣٦/١١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١، شذرات الذهب ٢٨٢/٣، البداية والنهاية ٣٣٦/١١.

الأكبر، فإنّ الشاء عليه غنم، والنساء بمثله عقم، فليفخر به أهل جرجان ما سال واديهَا وأذن مناديهَا^(١).

* أبو معمر المفضل بن إسماعيل بن أبي بكر، أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (٤٣١هـ) مفتي جرجان وعالمها وابن عالمها، ورئيسها وابن رئيسها، ومسندها، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، كان أحد أذكيا زمانه، روى عن جدّه وجماعة كثيرة، ورحل به والده فورد بغداد ومكّة وغيرها من المراكز، وبيته بيت علم ودين وسؤدد^(٢).

* ومنهم أبو عبدالله - وقيل أبو عبدالرحمن - محمد بن الحسن بن إبراهيم (٣٨٦هـ) المعروف بالختن لأنّه كان ختن أبي بكر الإسماعيلي، كان فقيهاً فاضلاً، مقدّماً في الأدب ومعاني القرآن والقراءات، ومن العلماء المبرزين في النظر والجدل، وصاحب وجه، وله وجوه حسنة في المذهب، شرح التلخيص لأبي العباس بن القاص^(٣).

ومن أعلام جرجان لهذه المرحلة:

* قاضي القضاة أبو عبدالله الحسين بن علي بن جعفر (٣٦٨هـ - ٤٤٧هـ) المعروف بابن ماكولا الجرباذقاني - نسبة إلى جرباذقان قرب جرجان، وقيل قرب أصبهان -، سمع بأصبهان، وكان عارفاً بمذهب الشافعي.

يعدّ ابن ماكولا من بين الأعلام الذين انتفع بهم المركز العراقي، إذ أنّه قد تولّى قضاء القضاة ببغداد منذ سنة ٤٢٠هـ، وكان قد ولي قبلها

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١.

(٢) شذرات الذهب ٤١٠/٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣١/٥ - ٣٣٢.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١، شذرات الذهب ٢٤٧/٣، النجوم الزاهرة

١٧٥/٤، طبقات المفسرين ص ٣٨١.

قضاء البصرة، واستمرّ على قضائه إلى حين وفاته، ولم ير في زمانه قاض أعظم نزاهة منه^(١).

وهذا يعني أنّه قد أمضى ببغداد ٢٧ سنة على خطة القضاء، فضلاً عن فترة قضائه بالبصرة، فيكون نشاطه العلمي بذلك قد انقسم إلى فترتين اثنتين، فترة أولى، قضّاهها ببيران لمع فيها اسمه، وذاع فيها صيته، وفترة ثانية: تحوّل فيها إلى العراق فأظهر علماً وافراً، ومعرفة بشؤون الحكم ونزاهة، حتّى قال الخطيب البغدادي: ولم نر قاضياً أعظم نزاهة منه.

ومن أعلام الدينور - مدينة قديمة في الجبال ببيران :-

* القاضي أبو القاسم يوسف بن أحمد بن كجّ الدينوري (٤٠٥هـ) أحد أئمّة الشافعيّة، وصاحب الإمام أبي الحسين بن القطان، حضر مجلس أبي القاسم الداركي، ومجلس أبي حامد المروزي.

انتهت إليه رئاسة المذهب ببلده، وولّي القضاء بها، ورحل الناس إليه رغبة في علمه، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب.

وروي أنّ عالم خراسان الشيخ أبا عليّ السنجي - تأتي ترجمته لاحقاً - لمّا انصرف من عند الشيخ أبي حامد الإسفراييني ببغداد، اجتاز بالقاضي ابن الكجّ الدينوري، فلمّا رأى علمه وفضله، قال له: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد، والعلم لك، فقال له ابن الكجّ: ذاك رفعته ببغداد، وحطّني الدينور.

من مصنفات: كتاب التجريد، ويعدّ ابن الكجّ صاحب وجه، وله في المذهب وجوه غريبة^(٢).

وذكر أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته، طائفة من أعلام الشافعيّة

(١) شذرات الذهب ٤٤٩/٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٩/٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٨، شذرات الذهب ٣٢٠/٣ - ٣٢١، هدية العارفين ٥٥٠/٢، البداية والنهاية ٣٥٥/١١، وفيات الأعيان ٦٥/٧، طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٩/٥ - ٣٦١.

بإيران لهذه المرحلة، فقال: «وبفارس خلق كثير من أصحابنا: منهم أبو الفتح ابن فارس، ومنهم شيخنا القاضي أبو عبدالله الجلاب خطيب شيراز وفقهها، وكان نظاراً فصيحاً أديباً، قال: درست عليه بشيراز، ومنهم أبو القاسم الطبقي، ومنهم أبو عبدالله البويطي الشيرازي، وأبو عبدالله الغضائري الفسوي صاحب أبي محمد الاضطخري، ومنهم شيخني أبو عبدالله محمد بن عمر الشيرازي من أصحاب أبي حامد، ومنهم شيخني أبو أحمد عبدالرحمن بن الحسين الغندجائي من أصحاب أبي حامد الإسفراييني^(١).

وأخذ فقهاء شيراز الفقه عن أبي نصر ابن الحنات الفقيه الأصولي الشيرازي، وكان أبو الحسين أحمد بن الحسين الفناكي (٤٤٨هـ) يدرّس ببروجرد - مدينة إيرانية في لورستان غرب إيران على الحدود العراقية -، وكان قد تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وعلى أبي عبدالله الحليني، وأبي طاهر الزيادي وسهل الصعلوكي، وكان الفقيه الحافظ الصالح أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم الكواري - نسبة إلى بلدة إيرانية قرب شيراز - صاحب الشيخ أبي حامد الإسفراييني قد ولي القضاء بالأهواز - جنوب غربي إيران على نهر كارون في إقليم خوزستان على حدود العراق - ودرّس بها سنين، وكان الفقيه العالم بالحديث أبو الحسن علي بن أحمد النعميني (٤٢٣هـ) يدرّس بالأهواز، وكان أبو حاتم محمود بن الحسن الطبري المعروف بالقزويني قد تفقه بأمل - مدينة إيرانية في سهل مازندران جنوبي بحر القزوين - على شيوخ البلد، ثمّ قدم بغداد ودرس الفرائض وأصول الفقه، ثمّ عاد إلى أمل ليدرّس بها، بعد أن درّس مدة ببغداد، وأصبح حافظاً للمذهب والخلاف، وصنّف كتباً كثيرة في الأصول والفروع والجدل والخلاف، وفيه قال أبو إسحاق الشيرازي: لم أنتفع بأحد في الرحلة كما انتفعت به وبالقاضي أبي الطيّب الطبري^(٢).

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١.

وأما أهل الظاهر فكان منهم^(١):

* القاضي أبو عليّ الداودي قاضي فيروزآباد - بلدة من إيران جنوبي شيراز - الذي أخذ عن أبي الحسن عبدالعزيز بن أحمد الجزري.

* القاضي أبو الفرج الفامي الشيرازي، الذي أخذ العلم عن أبي سعيد بشر بن الحسين، وكان إماماً في المذهب، وعنه أخذ فقهاء شيراز مذهب داود، قال أبو إسحاق: وكنت أناظره بشيراز وأنا صبيّ.

وبقي مذهب أهل الظاهر بعد ذلك بشيراز في جماعة من أصحاب أبي الفرج الفامي.

خراسان وما وراء النهر:

نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة العباسي المأمون، فولأهم ولاية خراسان وما وراء النهر، فساد حكمهم لهذه البلاد من منتصف القرن الثالث إلى أواخر القرن الرابع، ولمّا اضطرب حبل الأمور بإمارتهم وجد الغزنويون الفرصة سانحة فاستولوا على نيسابور وبخارى واستقرت إمارتهم بخراسان، ووسّعوا سيادتهم في ناحية الهند، وضمّوا إليهم بلاد البنجاب نهائياً وفارس، واستولوا على الريّ وإصبهان وغيرهما من البوهيين، وضمّوا إليهم خوارزم وطبرستان، حتّى امتدّ سلطانهم من لاهور إلى سمرقند وأصفهان وبقيت سيادتهم قائمة على هذه المناطق إلى منتصف القرن السادس^(٢).

وكان الغزنويون سنيين، ولذلك حاربوا أهل البدع والأهواء، وتتبعوا الرافضة والإسماعليّة والقرامطة وغيرهم من الفرق، وصلبهم ونفوهم

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٩.

(٢) شذرات الذهب ٣/٣٧٤، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١٠٢/٣.

وشرّدهم عن ديارهم، وكان بعضهم - كمحمود بن سبكتكين - كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين^(١).

وفي ظلّ هذه الدولة وجد فقهاء الحنفيّة والشافعيّة الأجواء الملائمة لانتشار مذهبيهما حيث لا منافس لهم من الحنابلة والمالكيّة من أهل السّنة، ولا معارض لهم من الشيعة الإماميّة أو غيرها من المذاهب.

فاشتهر من الحنفيّة:

* القاضي أبو زيد عبدالله بن عمر بن عيسى (٤٣٠هـ) الدبوسي - نسبة إلى قرية واقعة بين بخارى وسمرقند - شيخ تلك الديار وأحد من يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج، ومن أجل كبار فقهاء الحنفيّة، وهو أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود، كما قال ابن خلكان.

إليه انتهت رئاسة المذهب ببخارى وسمرقند وما والاها، وكان له بها مناظرات، وقد روي أنّه ناظر فقيهاً فكان كلّما ألزمه أبو زيد حجّة تبسّم أو ضحك، فأنشد أبو زيد في ذلك:

مالي إذا ألزمته حجّة قابلني بالضحك والقهقهة
إن ضحك المرء من فقهه فالدبّ بالصحراء ما أفقهه

له مصنّفات مفيدة منها كتاب الأسرار في الأصول والفروع، وكتاب تقويم الأدلّة في الأصول وكتاب الأمد الأقصى ويشتمل على حكم ونصائح في أحد عشر كتاباً، وكتاب تأسيس النظر، والنظم في الفتاوى^(٢).

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٨٩/٣، ١٠٢.

(٢) الفوائد البهية ١٠٩، الجواهر المضية ٣١٩/٢، ٣٩٩، تاج التراجم ١٣١، البداية والنهاية ٤٦/١٢ - ٤٧، كشف الظنون ١٢٥/١، ١٨٥، ٢٩١، ٣٨٠، وفيات الأعيان ٤٨/٣، النجوم الزاهرة ٧٦/٥ - ٧٧، وذكره في وفيات سنة ٤٥٧هـ.

* أبو محمد شمس الأئمة عبدالعزيز بن أحمد بن نصر الحلواني البخاري (٤٤٨هـ) إمام أهل بخارى، تخرّج على يديه أئمة كبار من أمثال الإمام السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي.

من مصنّفاته: البسيط في علم الشروط، والمبسوط في الفقه، والفتاوى، وشرح أدب القاضي لأبي يوسف وشرح الجامع الكبير والسير الكبير كلاهما لمحمد بن الحسن الشيباني، وشرح الحيل الشرعيّة للخفاف، وكتاب النوادر، وغيرها.

ونقل حاجي خليفة في سنة وفات شمس الأئمة تواريخ مختلفة، فمرّة سنة ٤٤٨هـ، ومرّة سنة ٤٤٩هـ، ومرّة سنة ٤٥٦هـ^(١).

ونبغ من عظماء الشافعيّة جمع غفير انتفع بهم أهل خراسان ونيسابور وبخارى وهراة ونسا وخوارزم ومرو وسائر مدن وقرى هذه الأصقاع: ملأوا أنحاء هذه البلاد علماً، وعمّ نفعهم القاضي والداني، ومن هؤلاء:

* أبو الحسن محمد بن عليّ بن سهل الماسرجسي (٣٨٤هـ) النيسابوري، شيخ الشافعيّة، رحل بعد الثلاثين وكتب الكثير بالعراق والحجاز ومصر، وأخذ عن أبي إسحاق المروزي وصحبه إلى مصر، ولازمه إلى أن توفي، فانصرف إلى بغداد ودرّس بها، ثمّ رجع إلى خراسان سنة ٣٤٤هـ، وبها توفي.

كان أعرف الأصحاب بالمذهب وترتيبه، متقناً للمذهب، وعنه أخذ فقهاء نيسابور، وعليه تفقه القاضي أبو الطيّب الطبري^(٢).

* أبو الطيّب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي (٤٠٤هـ) النيسابوري، مفتي خراسان ومجدّد القرن الرابع على قول، ومفتي نيسابور

(١) الفوائد البهية ٩٤، الجواهر المضية ٤٢٨/٢، تاج التراجم ١٢٧، كشف الظنون ٢١٦/٢، ٤٨٢، ٤٦٦/٥.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٦، شذرات الذهب ٢٣٥/٣، وفيات الأعيان ٢٠٢/٤.

وابن مفتيها، أخذ الفقه عن أبيه أبي سهل الصعلوكي، وكان في وقته يقال له الإمام، وكان عديم المثل في علمه وديانته، وكان فقيهاً أديباً متكلماً.

وضع له في المجلس أكثر من خمسمائة محبرة، وجمع رئاسة الدنيا والدين، وعنه أخذ فقهاء نيسابور.

نقل عنه وعن والده أتهما قالوا: إنَّ طلاق السكران لا يقع، وسئل سهل عن الشطرنج فقال: إذا سلم من الخسران، والصلاة من النسيان، فذلك أنس بين الإخوان^(١).

* أبو عمر محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم البسطامي (٤٠٨هـ) قاضي نيسابور وشيخ الشافعية بها رحل وسمع الكثير بالعراق والأهواز وأصبهان وسجستان، ثم أملى وحدث ودرّس المذهب.

كان في ابتداء أمره يعقد مجلس الوعظ والتذكير، ثم تركه وأقبل على التدريس والمناظرة والفتوى، وكان نظير أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي علماً وجاهاً.

ولي قضاء نيسابور سنة ٣٨٨هـ فأظهر أهل الحديث الفرح والاستبشار^(٢).

* أبو بكر محمد بن الحسن ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) تصدر للإفادة بنيسابور، أقام بالعراق مدة يدرّس، ثم توجه إلى الري، وراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه إليهم فلبى طلبهم وورد نيسابور، فبني له بها مدرسة ودار، فأحيا الله تعالى به أنواعاً من العلوم وظهرت بركته على جماعة المتفكّهة، وبلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٠، شذرات الذهب ٣/٣١٤ - ٣١٥، البداية والنهاية ١١/٣٤٧ وفيات الأعيان ٢/٤٣٥، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٩٣ - ٤٠٤.

(٢) شذرات الذهب ٣/٣٣٣.

دعي إلى الهند وجرت له بها مناظرات عظيمة، فلما رجع إلى نيسابور سَمَّ في الطريق، فمات، ونقل إلى نيسابور فدفن بها^(١).

* أبو طاهر محمد بن محمد بن محمّش الزيّادي (٣١٧هـ - ٤١٠هـ) إمام المحدثين والفقهاء بخراسان وفتيهم ومفتيهم بلا مدافعة، وعالم نيسابور ومسندها في زمانه بالاتفاق، سلّم إليه الفقهاء الفتيا، وكانت له يد طولى في معرفة الشروط.

ابتدأ طلب العلم سنة ٣٢٨هـ، وعمره ١١ سنة، صنّف في علوم الشروط، وأملى ودرّس، وكان قانعا متعقفا^(٢).

* أبو بكر عبدالله بن أحمد المعروف بالقفال المروزي والقفال الصغير (٤١٧هـ) شيخ الشافعية بخراسان، وأحد أئمة الشافعية الكبار علماً وزهداً وحفظاً وتصنيفاً، كان أول أمره يمتحن عمل الأقبال، وبرع في صناعتها، ولما بلغ سنّ الثلاثين آنس في نفسه ذكاء فأقبل على الفقه واشتغل به على أبي زيد الدبوسي وغيره، حتى صار وحيد زمانه فقها وحفظاً وورعاً وزهداً وإماماً يقتدى به، وصار له في المذهب من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره.

رحل إليه الفقهاء من سائر البلاد، وعليه تفقّه أهل خراسان، وصار إمامهم وشيخ طريقة خراسان المهذّبة في مذهب الشافعي التي حملها عنه أصحابه^(٣).

والقفال الصغير هو غير القفال الشاشي الكبير - الذي تقدّمت ترجمته

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٧/٤ - ١٣٥، وفيات الأعيان ٢٧٢/٤ - ٢٧٣، شذرات الذهب ٣٢٥/٣ - ٣٢٦، النجوم الزاهرة ٢٤٠/٤، هدية العارفين ٦٠/٢.

(٢) شذرات الذهب ٣٣٨/٣، هدية العارفين ٥٩/٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٨/٤ - ٢٠١.

(٣) شذرات الذهب ٣٥٩/٣ - ٣٦٠، هدية العارفين ٤٥٠/١، البداية والنهاية ٢١/١٢ - ٢٢، وفيات الأعيان ٤٦/٣، النجوم الزاهرة ٢٥٦/٤، طبقات الشافعية الكبرى ٥٣/٥ - ٦٢.

في علماء أهل خراسان وما وراء النهر خلال المرحلة السابقة من هذا الدور - وطريقة أصحاب المذهب في التفريق بينهما هو: أنّ القفال الصغير لا يذكر غالباً إلاً مطلقاً، وهو شيخ الشافعية بخراسان، والقفال الكبير إذا أُطلق قيّد بالشاشي، وربّما أُطلق في طريقة العراقيين لقلة ذكرهم للقفال الصغير، والمروزي أكثر ذكراً في كتب الفقه، والشاشي أكثر ذكراً فيما عدا الفقه من الأصول والتفسير وغيرهما^(١).

والقفال المروزي الصغير بخراسان نظير أبي حامد الإسفراييني بالعراق، قال ابن السبكي: معتمد المذهب على طريقة العراق وحامل لوائها أبو حامد الإسفراييني، وطريقة خراسان والقائم بأعبائها القفال المروزي الصغير، هما شيخا الطريقتين إليهما المرجع وعليهما المعول^(٢).

* أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني (٤١٨هـ) الفقيه المتكلم الأصولي، شيخ خراسان في زمانه، أقرّ له العلماء بالتقدم، وبني له مدرسة لم يبن مثلها فدرّس بها، وبه تفقّه القاضي أبو الطيّب الطبري، والإمام البيهقي، وعنه أخذ عاتمة شيوخ نيسابور.

ويبدو أنّ صلة الودّ بينه وبين أهلها قد كانت مستحكمة غاية الاستحكام، حتّى أنّه كان يقول: أشتهي أن أموت بنيسابور ليصلي عليّ جميع أهلها، فتوفّي بها ثمّ نقل إلى بلده إسفرايين، فدفن في مشهده.

يقال: إنّهُ بلغ رتبة الاجتهاد، وصنّف مصنّفات كثيرة، منها الجامع في أصول الدين، وتعليقة في أصول الفقه، وغيرها^(٣).

* أبو علي الحسن بن محمد بن شعيب المروزي السنجي (٤٣٠هـ) شيخ الشافعية في زمانه وعالم خراسان، تفقّه على شيخ العراقيين أبي حامد

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٠/٣ - ٢٠٣/٥ و ٥٣/٥.

(٢) المصدر السابق ٥٤/٥.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٦ - ١٢٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٦/٤ - ٢٦٢، البداية والنهاية ٢٤/١٢، هدية العارفين ٨/١، وفيات الأعيان ٢٨/١.

الإسفراييني، وعلى شيخ الخراسانيين الفَقَّال الصغير، وأبو علي السنجي هو أول من جمع بين طريقتي أهل العراق وأهل خراسان^(١).

صنّف شرح المختصر ويسمّيه إمام الحرمين المذهب الكبير، كما شرح كتاب التلخيص لابن القاص شرحاً كبيراً، قيل توفي سنة بعد سنة ٤٣٠هـ وقيل سنة ٤٣٩هـ^(٢).

* أبو محمد عبدالله بن يوسف الجويني (٤٣٨هـ) - نسبة إلى جوين ناحية كبيرة من نواحي نيسابور - شيخ الشافعية ووالد إمام الحرمين، كان يلقّب بركن الدولة، تفقّه ببلده، خرج إلى نيسابور فلأزم أبا الطيّب الصعلوكي، ورحل إلى مرو فلأزم الفَقَّال حتّى برع عليه خلافاً ومذهباً، وأتقن طريقتَه، ثمّ عاد إلى نيسابور سنة ٤٠٧هـ وجلس للتدريس والفتوى ومجلس المناظرة وتعليم العام والخاصّ، وكان ماهراً في إلقاء الدروس.

كان أوحد زمانه علماً وزهداً وتقشفاً زائداً وتحريماً في العبادات، حتّى إنّه كان يحتاط في أداء الزكاة، فيؤدّي في سنة واحدة مرتين، حذراً من نسيان النية، أو دفعها إلى غير المستحقّ، ومن ورعه أنّه كان لا يدقّ في الجدار المشترك بينه وبين جاره وتداً ولا غيره.

كان إماماً له المعرفة التامة بالتفسير والفقه والأصول والنحو والأدب، مجتهداً في العبادة، صاحب جدّ ووقار، لا يجري بين يديه إلّا الجدّ صنّف تفسيراً كبيراً، وله تعليقة في الفقه، وكتاب المختصر، وصنّف مختصراً على مختصر المزني، وشرح رسالة الشافعي، وله التبصرة في الفقه.

(١) طريقة العراق في فقه الشافعي تمتاز بالنقل والحكاية لأقوال المتقدمين، وطريقة علماء خراسان تمتاز بالبحث والتفريع والتصرف والترتيب، وهي أمتن طريقة وأكثرها تحقيقاً (شذرات الذهب ٣/٣٦٠، الشافعي: حياته وعصره لأبي زهرة ص ٣٨٥).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٤٤ - ٣٤٨، البداية والنهاية ١٢/٥٧ وذكره في وفيات سنة ٤٣٩هـ، وفيات الأعيان ٢/١٣٥ - ١٣٦.

وكانت وفاته بنيسابور، قيل سنة ٤٣٤هـ، وهو في سنّ الكهولة^(١).

* أبو نصر زهير بن الحسن بن عليّ السرخسي (٤٥٤هـ) مفتي خراسان، ولد بعد سنة ٣٧٠هـ، ورد بغداد وتفقه على أبي حامد الإسفراييني، وبرع في الفقه، وكان رئيس المحدثين بسرخس، وإليه يرجع في الفتاوى وحلّ المشكلات، توفي بسرخس^(٢).

* أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي (٣٨٤هـ - ٤٥٨هـ) شيخ خراسان، وأوحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً وإتقاناً، وفقهاً وتصنيفاً، كان على سيرة العلماء قانعا من الدنيا باليسير، متجماً في زهده وورعه، نفع الله به المسلمين شرقاً وغرباً.

كان من أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي، حتى قال إمام الحرمين الجويني: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه مئة إلا البيهقي، فإن له على الشافعي مئة لتصنيفه في نصره مذهبه.

له تصنيف لا تسامى ولا تدانى، سارت بها الركبان إلى سائر الأمصار، من بين هذه التصنيفات: المبسوط في جمع نصوص الشافعي وهو من أعظم كتبه قدراً وأبسطها علماً، وكتاب الخلاف، ومناقب الشافعي، والسنن الكبرى، وغيرها من المصنفات الجامعة المفيدة.

طلب إلى نيسابور لنشر العلم، فأجاب وانتقل إليها حتى توفي بها، ثم نقل تابوته إلى بيهق^(٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٧٣/٥ - ٩٤، البداية والنهاية ٥٥/١٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٣٣، النجوم الزاهرة ٤٢/٥، هدية العارفين ٤٥١/١، طبقات المفسرين ص ١٨٠ - ١٨٢، وفيات الأعيان ٤٧/٣ - ٤٨.

(٢) شذرات الذهب ٤٧٢/٣ - ٤٧٣، البداية والنهاية ٩٠/١٢، هدية العارفين ٣٧٥/١، كشف الظنون ١٨٧/١ و ٣٠٩/٥، طبقات الشافعية الكبرى ٣٧٩/٤ - ٣٨٠.

(٣) شذرات الذهب ٤٨٧/٣ - ٤٨٨، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٤ - ١٦، البداية والنهاية ٩٤/١٢، النجوم الزاهرة ٧٧/٥ - ٧٨، هدية العارفين ٧٨/١، كشف الظنون ٤٨/١، ٤٨٤، ٦٧٤، وفيات الأعيان ٧٥/١ - ٧٦، تذكرة الحفاظ ١١٣٢/٣ - ١١٣٥.

* القاضي أبو عاصم محمد بن أحمد بن محمد بن عباد الهروي (٤٥٨هـ) شيخ الشافعية وصاحب التصانيف، تفقه على القاضي أبي منصور الأزدي، وبنيسابور على أبي عمر البسطامي.

كان إماماً واسع العلم، دقيق النظر، صنّف كتباً في الفقه مفيدة، منها: المبسوط، الزيادات، وزيادات الزيادات، وأدب القاضي، وغيرها^(١).

* القاضي أبو عليّ حسين بن محمد بن أحمد المروزي (٤٦٢هـ) شيخ الشافعية في زمانه، وفقه خراسان، وأحد أصحاب الوجوه، تفقه على أبي بكر القفال.

كان غوّاصاً في الدقائق، يلقّب بحجر الأمة، وكان عصره تاريخاً به، صنّف التعليق الكبير، والفتاوى، وأسرار الفقه، وغيرها.

ومتى أطلق القاضي في فروع الشافعية فهو المقصود^(٢).

وفي مدينة بخارى الأوزبكستانية تلقى: القاضي أبو عبدالله الحسين بن الحسن (٣٣٨هـ - ٤٠٣هـ) الحلبي أحد مشايخ الشافعية، وأوحد الشافعيين بما وراء النهر، وأنظرهم بعد شيخه أبو بكر القفال، وهو صاحب وجه في المذهب، وله وجوه حسنة.

ولد بجرجان وحمل إلى بخارى، وسمع الحديث الكثير حتى انتهت إليه رئاسة المحدثين في عصره، ولّي قضاء بخارى، وكان عظيم القدر متفتناً فاضلاً، صاحب تصانيف مفيدة نقل منها أبو بكر البيهقي كثيراً، من بينها شعب الإيمان وسمّاه المنهاج، وهو كتاب جليل فيه أحكام كثيرة

(١) شذرات الذهب ٤٨٩/٣ - ٤٩٠، هدية العارفين ٧١/٢ - ٧٢، البداية والنهاية ٩٤/١٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٤/٤ - ١١٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٦/٤ - ٣٦٥، شذرات الذهب ٤٩٥/٣ - ٤٩٦، كشف الظنون ١٢٥/١، وفيات الأعيان ١٣٤/٢ - ١٣٥.

ومسائل فقهية وغيرها مما يتعلق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة^(١).

وفي هراة - شمال غربي أفغانستان قرب حدود إيران - تلقى القاضي أبو منصور محمد بن محمد بن عبدالله الأزدي (٤١٠هـ) شيخ الشافعية بهراة ومسند البلد^(٢).

وفي مدينة مرو التركمانستانية - وتسمى الآن ماري - تلقى أبو الفتح ناصر بن الحسين العمري المروزي القرشي (٤٤٥هـ) الشافعي، مفتي أهل مرو، الذي تفقه على أبي بكر القفال، وأبي الطيب الصعلوكي، وعليه تفقه الإمام البيهقي.

كان عليه مدار الفتوى والتدريس والمناظرة بتلك البقاع، صنّف كتباً كثيرة، وتوفي بنيسابور^(٣).

ونلقى أيضاً: أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن فوران المروزي الفوراني (٤٦١هـ) الذي تفقه على أبي بكر القفال، وكان من كبار تلاميذه، وبرع حتى صار شيخ الشافعية بمدينة مرو، صنّف تصانيف كثيرة، منها: الإبانة في الفقه، وهو كتاب مشهور بين الشافعية، فيه من النقول الغريبة والأقوال والأوجه التي لا توجد إلا فيه، إذ كان صاحبه بصيراً بالأصول والفروع، وصنّف أيضاً كتاب أسرار الفقه، وكتاب العمدة في الفقه، توفي بمرو عن ثلاث وسبعين سنة^(٤).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٣/٤ - ٣٤٣، شذرات الذهب ٤٠٣/٣، هدية العارفين ٣٠٨/١، البداية والنهاية ٣٤٩/١١، كشف الظنون ٧٧/٢، وفيات الأعيان ١٣٧/٢ - ١٣٨، تذكرة الحفاظ ١٠٣٠/٣ - ١٠٣١.

(٢) شذرات الذهب ٣٣٨/٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٦/٤ - ١٩٧.

(٣) شذرات الذهب ٤٤٤/٣، هدية العارفين ٤٨٧/٢ - ٤٨٨.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٥ - ١١٥، شذرات الذهب ٤٩٣/٣، هدية العارفين ٥١٧/١، وفيات الأعيان ١٣٢/٣، البداية والنهاية ٩٨/١٢، كشف الظنون ٦٧/١، ١٢٥ و ٤٢٠/٥ - ٤٢١.

وفي نسا - بلدة قديمة في خراسان بين سرخس ومرو - تلقى إمام البلد وخطيبها أبو بكر محمد بن زهير بن أخطل النسائي (٤١٨هـ) شيخ الشافعية بنسا، وإمامها وخطيبها، الذي رحل الناس إليه للأخذ عنه والتفقه عليه^(١).

وذكر أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته من أعلام الشافعية، فضلاً عن تقدم ذكرهم، جمعاً غفيراً، نذكر منهم من لم نتعرض إلى ترجمته، فقال: «وبخراسان وما وراء النهر من أصحابنا خلق كثير كالأودني وأبي يعقوب الأبيوردي وأبي بكر الفارسي البلخي وأبي بكر الطوسي وأبي عبدالرحمن النيلي وأبي سليمان الشاشي وأبي سهل أحمد بن عليّ الأبيوردي وأبي الحسن عليّ بن أحمد الحاكم بسمرقند، وغيرهم»^(٢).

وبهؤلاء وأمثالهم استطاع المذهب الشافعي أن يعم تلك البقاع بحيث لم يلحق شأوه أي مذهب من المذاهب الفقهية الأخرى السنية منها أو الشيعية، ولا حاموا حوله بتلك الديار.

وأما المذهب الحنفي فإنه وإن كانت له مع المذهب الشافعي شبه مشاركة في هذه الديار، وخاصة بسجستان التي كان أغلب أهلها على مذهب أبي حنيفة، إلا أنه لم يدرك بتلك البقاع ما أدركه المذهب الشافعي من التسامي، ذلك أنّ المذهب الشافعي قد حقق في هذه الأصقاع انتشاراً وتوسّعاً لم يسبق إلى مثلها غيره من المذاهب، ولم يدانيه فيها أي منافس.

وقد ازداد سلطان الشافعية على هذه الديار واتسع بالخصوص بعد أن انتقل الأمير الغزنوي محمود بن سبكتكين (٣٦١هـ - ٤٢١هـ) - مالك الممالك الكبار وفتح بلاد الهند - من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الإمام

(١) شذرات الذهب ٣/٣٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٤/١٤٩.

(٢) طبقات الفقهاء ص ١٣٢ - ١٣٣.

الشافعي، وقد حكم هذا الأمير مملكته المتسعة ٣٣ سنة، وكان يسير في المسلمين سيرة عادلة، يحب أهل الخير والدين والصلاح، ويحسن إليهم، ويحب العلماء والمحدثين ويكرمهم ويجالسهم، إذ كان مولعا بعلم الحديث، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع، وكان يستفسر الأحاديث، فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعي رضي الله عنه، فوقع في خلدته حكمة، فجمع الفقهاء من الفريقين في مرو، والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، وعلى مذهب أبي حنيفة، لينظر فيه السلطان ويتفكر ويختار ما هو أحسنها، فصلّى القفال المروزي بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب والفرائض على وجه الكمال والتمام، وقال: هذه صلاة لا يجوز الإمام الشافعي دونها رضي الله عنه، ثم صلى ركعتين على ما يجوز أبو حنيفة رضي الله عنه، فلبس جلد كلب مدبوغاً وتوضأ بنبيد التمر، وكان وضوءه منكسا منعكسا ثم استقبل القبلة وأحرم بالصلاة من غير نية، وكبر بالفارسية «دوبركك سبز» ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل، وقال: أيها السلطان هذه صلاة أبي حنيفة^(١).

فقرّر عند ذلك السلطان ابن سبكتكين الانتقال إلى مذهب الإمام الشافعي، وقد كان انتقاله ذاك من العوامل المساعدة على انتشار المذهب في تلك الأصقاع.

وقد حاول الفاطميون استمالة الأمير محمود بن سبكتكين، وكانت رسلهم من مصر تفد إليه بالكتب والهدايا لعله يعتنق مذهبهم، ووجهوا إليه «التاهرتي» الداعي، فلما وقف الأمير على سرّ ما دعاه إليه، وعلم بطلان ما ندب إليه، أمر بقتل التاهرتي، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي، شيخ هراة، وقال: كان يركبها رأس

(١) وفيات الأعيان ١٨٠/٥ - ١٨١ شذرات الذهب ٣/٣٧٥، البداية والنهاية ٣٠/١٢.

الملحدين فليركبها رأس الموحدين^(١).

فلم تقم بذلك للمذهب الإسماعيلي بتلك الديار قائمة، ولا فكّر أحد بعد ذلك أن يوجد له بتلك الأصقاع أشياع وطائفة.

٤ - بلاد المغرب:

رغم أنّ بلاد المغرب قد خضعت لحكم الدولة العبيديّة خلال المرحلة الأولى من هذا الدور، إلا أنّ شعوب هذه البلاد لم تتقبّل مبادئها، وبقيت على ولائها للمذهب المالكي، متمسّكة بالعقيدة السنيّة، وبقي الفقهاء من أعلام المالكيّة منظورا إليهم بعين السخط، معرّضين إلى الاضطهاد وشتى أنواع التنكيل من طرف حكام الدولة الفاطميّة ومن يقومون بأمرهم من ولاة الأقاليم.

وكانت الطبقة التي أدركها أوّل العهد العبيدي من هؤلاء العلماء: هي طبقة تلامذة سحنون وتلامذتهم، فكانوا هم الذين نشبت الحرب الفكرية بينهم وبين أتباع العبيديين.

وكان الذين تولّوا كبر هذه الفتنة من شيعة العبيديين: أبا عبدالله الشيعي، الداعي الأوّل الذي أقام الدولة، وأخاه أبا العباس، وبعض قضاة الأحناف الذين تواطؤوا معهم من أمثال القاضي ابن عبدون، وكان الذين يقابلونهم من المالكيّة السنيين: أمثال أبي بكر بن اللباد أعظم المناهضين لحكم بني عبيد، وأبي سليمان ربيع الذي جعل على نفسه عهدا ألاّ يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله عزّ وجلّ دولة بني عبيد، وغيرهما ممّن ترجم لهم القاضي عياض في المدارك، وذكر ما امتحن به كلّ.

وفي ظلّ هذا الاضطراب الفكري والصراع الاعتقادي، برزت النزعات الانفصاليّة، ونشأ التناهد بين الفرق، والتناحر بين العصبية، حتّى تزعزعت

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣١٩/٥ - ٣٢٠، البداية والنهاية ٢٩/١٢.

أسس المجتمع، وتساقطت جوانبه بعضها على بعض ركاما، وأصبحت الكلمة العليا للتخريب والتمرد كما في ثورة أبي يزيد صاحب الحمار، فانتهى الأمر بأن وقعت الدولة العبيديّة نفسها فريسة لتلك الفوضى الاجتماعيّة.

هنالك أيقن حكام بني عبيد أنّ المغرب ليس لهم، ولا لأعقابهم بدار، فولّوا وجوههم نحو المشرق الذي أتى منه أصولهم، وانتصبوا في تخت ملكهم الجديد: مدينة القاهرة^(١).

وفي هذا الفراغ الذي أحدثه انتقال العبيديين إلى مصر قام الحكم الصنهاجي تحت عنوان تبعيّة اسميّة للسلطنة الفاطميّة، واتّجه أولا نحو الاستقلال التام والانسجام المحكم بين عناصر المجتمع، فكان هذا الاستقلال الذي مثله الصنهاجيون، والحكم الذاتي الناشئ من صميم الشعب المغربي الذي اضطلعوا به موقضا لشعور المجتمع المغربي بوحدته وموجّها به نحو الاطمئنان إلى معاودة أمنه وهنائه في ظلّ العقيدة السنيّة والمذهب المالكي الذين بقيا قياما للروح الاجتماعيّة للشعب المغربي على ما نالت منهما أحكام العبيديين^(٢).

وإذا كانت المظاهر الرسميّة الأولى لحكم الصنهاجيين لم تتماشى التماشي الكامل مع ما أخذ إليه الشعب من معاودة المذاهب السنيّة، فإنّ روح الدولة قد كانت متماشية معه في ذلك، وإنّ ما انفتح أمامه من ميادين لحرية الدعوة وحرية العمل بتحوّل العبيديين وعصبيتهم من كتامة إلى الشرق، لم يبق لمراسم الدولة التي بقي الصنهاجيون متقلّدين بها من أثر في تعطيل الحركة السنيّة المالكيّة، فامتدّت تلك الحركة وانتشرت وازدهرت حتّى أصبحت هي ذات الأثر في تطوّر نظم الحكم وتبدّل مظاهره^(٣) خاصّة

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٠ - ٤١، ٤٤، بتصرّف.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٤.

(٣) المرجع السابق ص ٤٥.

بعد أن حمل المعز بن باديس الناس على مذهب مالك^(١)، وترك ما عداه، وذلك سنة ٤٠٧هـ.

وأما مذهب أبي حنيفة فقد كان ظهوره في المرحلة السابقة أيام دولة بني عبيد لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة، ولما زالت الدولة العبيدية من المغرب وانتقلت إلى مصر، تشرق قوم من الأحناف لمسرتهم واصطياداً لدينامهم، وقلّ أتباعهم بالمغرب، ثم لم يعد لهم بعد ذلك ذكر، وبذلك أصبحت سائر بلاد المغرب مطبقة على المذهب المالكي، مجمعة عليه لا يعرف لغيره قائم^(٢).

ولئن كانت القيروان هي الاسم البارز والرمز الخالد في تاريخ بلاد المغرب، باعتبارها إحدى عواصم أعظم المراكز الفقهية المؤثرة في سير النشاط الفقهي التي نافست بغداد والقاهرة وخراسان وغيرها، فإن الكثير من المدن الأخرى التابعة للغرب الإسلامي، قد شاركت القيروان في استقطاب العلماء وإنجاب الفقهاء وبلغت شهرتها الآفاق حين زوّدت حواضر العالم الإسلامي بمئات بل بآلاف من الأعلام.

ومن بين تلك المدن التي شاركت القيروان في إنعاش الحياة الفقهية وازدهارها، وكان لها الأثر البالغ ببلاد المغرب، نذكر:
فأما القيروان، فأعظم من اشتهر بها من أعلام المالكية في هذه المرحلة، هم:

* أبو محمد عبدالله بن أبي زيد النفزي القيرواني (٣١٠هـ - ٣٨٦هـ) إمام المالكية في عصره وقدوتهم.

عقد ابن أبي زيد صلته الفكرية منذ نشأته الأولى بمختلف مراكز الثقافة الفقهية وارتوى من منابعها، فكانت صلوات أخذه وتخرّجه على شيوخ إفريقية وأخصهم به أبو بكر ابن اللباد، وشيوخ الأندلس وأخصهم

(١) النجوم الزاهرة ٤١٥/٥.

(٢) ترتيب المدارك ٥٤/١ - ٥٥.

الأصيلي، وشيوخ فاس وأخصّهم دّرّاس بن إسماعيل، وشيوخ مصر وأخصّهم ابن شعبان، وشيوخ العراق وأخصّهم أبو بكر الأبهري، والقاضي أحمد بن إبراهيم من آل حمّاد، فاجتمعت لديه بذلك نفائس الآثار، وتلاقى في كنفه متباعد الأنظار^(١) فاستحقّ لقب مالك الصغير.

كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك، وكان ذاباً عن مذهب مالك، قائماً بالحجّة عليه فصيح القلم، يقول الشعر ويجيده، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تاماً وورعاً وعقّة.

حاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وتفقه عنده جلة من القرويين، ومن أهل الأندلس ومن أهل سبته، ومن أهل المغرب، وهو الذي لخصّ المذهب وضمّ نشره، وذبت عنه وملأت البلاد تأليفه.

يعتبر ابن أبي زيد جامع مذهب مالك وشارح أقواله، فقد عدّ له مترجموه نيفاً وثلاثين كتاباً، على سبيل الاختصار والتمثيل لا على سبيل الاستقصاء.

وأعلى كتبه منزلة في علم الفقه هما: مختصر المدونة وفيه نحو خمسين ألف مسألة، وكتاب النوادر والزيادات، وصنّف أثره الخالد المسمّى بالرسالة والمعروف برسالة ابن أبي زيد القيرواني، فاشتهر في عصره وأقبل عليه الناس من المغرب ومن الشرق فجعلوه عمدتهم في تنشئة الأطفال على أدب الدين وأحكام الشريعة، وله أيضاً كتاب الذبّ عن مذهب مالك، وكتاب الإقتداء بأهل المدينة، وغيرها^(٢).

* أبو محمد عبدالله بن إسحاق القيرواني (٣٧١هـ) المعروف بابن التبان

(١) أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠، ترتيب المدارك ٤/٤٩٢ - ٤٩٧، الديباج المذهب ص ٢٢٢ - ٢٢٣، النجوم الزاهرة ٤/٢٠٠، هدية العارفين ١/٤٤٧، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٩، كشف الظنون ٥/٣٦٧، الفهرست ص ٢٥٣، كتاب العمر في المصتقات والمؤلفين التونسيين ٢/٦٤٣ - ٦٤٨.

شيخ المالكية بالمغرب، تفقه على جلة العلماء كأبي بكر بن اللباد القيرواني وغيره.

تتبع العلم وواظب على العلماء حتى أصبح من أحفظ الناس بالقرآن، متفنتنا في علومه وعلوم الكلام مع فصاحة اللسان، عالماً بالاحتجاج لمذهبه، وكان يكثر من دراسة العلم، حتى ذكر أنه درس المدونة ألف مرة.

روى عن نفسه حادثة فريدة تبرز لنا مدى حرصه على طلب العلم، فقال: كنت أول ابتدائي أدرس الليل كله، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة وأعمد النوم، فإذا رقدت أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس.

وكان يكثر من دراسة العلم حتى قال له أبوه ذات يوم: يا بني ما يكون منك؟ لا تعرف صنعة واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك، فلما كان ذات ليلة سمع ابن التبان أباه يقول لوالدته: عرفت أنني عرفت اليوم بابني، وذلك أنني حضرت أملاًكاً في المسجد فوجدته ممتلئاً بالناس ولم أجد مجلساً فقام لي رجل من موضعه وأجلسني فيه، فسأله صديقه عني، فقال له: هذا والد الشيخ أبي محمد، فرجع الوالد وحرّض ابنه على طلب العلم والتزم من وقتها القيام بشأنه.

أصبح ابن التبان من العلماء الراسخين والفقهاء المبرزين ومن الحفاظ المتقنين عالماً بالفقه والحساب والنحو حتى ضربت له أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذّب عن مذهب أهل المدينة، وكان يغار على مذهب الإمام مالك ويذب عن الشريعة.

وكان مع إتقانه للعلم غزير الدمعة رقيق القلب يميل إلى الرقة وحكايات الصالحين، كريم الأخلاق، بعيداً عن الرياء والتصنع، من أرق أهل زمانه طبعاً وألطفهم عبارة.

ألف كتب في النوارل، ولمّا توفّي خرج الناس لجنازته من ثلث الليل حتى ضاقت بهم الشوارع^(١).

* أبو القاسم عبدالخالق بن أبي سعيد خلف بن شبلون (٣٩١هـ) كان الاعتماد عليه في القيروان في الفتوى والتدريس بعد أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، صنّف كتاب المقصد، وكان يفتي في الأيمان اللازمة بطلقة واحدة، وقيل توفّي سنة ٣٩٠هـ^(٢).

* أبو الأزهر عبدالوارث بن حسن بن أحمد بن معتب (٣٩٢هـ) من الأئمّة الراسخين، ومن أهل العقل والوجاهة، وكانت له قريحة حسنة وفهم جيّد في الفقه وعناية بالوثائق، وكان ذا فقه بارع وعلم بأصول الفقه والقضاء والنوازل، وبيت بني معتب بيت علم بالقيروان.

صحب أبا بكر بن اللباد، وكان ممّن يتحلّق بجامع القيروان مع ابن أبي زيد، وكان ابن أبي زيد يقول: ما بإفريقية أفقه من أبي الأزهر، وقيل توفّي سنة ٣٩١هـ^(٣).

* أبو الحسن عليّ بن محمد بن خلف المعافري (٣٢٤هـ - ٤٠٣هـ) المعروف بابن القابسي، سمع من شيوخ إفريقيّة، ورحل سنة ٣٥٢هـ، فحجّ وسمع بمصر ومكّة، وهو أوّل من أدخل رواية البخاري إلى إفريقيّة، وسنده وسند أبي ذرّ الهروي وسند من أخذ عنهما مذكور في أوائل فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

كان واسع الرواية عالماً بالحديث وعلله ورجاله، فقيهاً عالماً

(١) ترتيب المدارك ٣/٣١٠ و ٤/٥١٧ - ٥٢٤، معالم الإيمان ٣/١٠٩ - ١١٩، شذرات الذهب ٣/١١٩، الديباج المذهب ص ٢٣٤، كتاب العمر ٢/٦٤١ - ٦٤٢.
 (٢) ترتيب المدارك ٤/٥٢٨، الديباج ص ٢٥٩، شجرة النور الزكية ص ٩٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠ - ١٦١، معالم الإيمان ٣/١٢٣ - ١٢٥.
 (٣) ترتيب المدارك ٤/٥٢٩ - ٥٣٠، الديباج ص ٢٦٩ - ٢٧٠، شجرة النور الزكية ص ٩٥.

بالأصول والفروع، وغير ذلك من العلوم، من أصحّ الناس كتباً وأجودها ضبطاً وتقييداً، من ذوي الاجتهاد.

روي أنّ الناس قد عزموا عليه في الفتوى وكلموه في الجلوس لها، فأبى وغلق بابهم، فقال لهم أبو القاسم ابن شبلون: اكسروا عليه بابه فإنّه قد وجب عليه فرض الفتيا، هو أعلم من بقي بالقيروان، فلما رأى ذلك خرج إليهم، وقبل الإفتاء على كره، وأنشدهم شعراً فبكى وأبكى، وجلس مجلس ابن شبلون بعد وفاته.

كان أبو الحسن من الصالحين المتّقين الزاهدين الخائفين الورعين المشتهرين بإجابة الدعوة، حتّى أنّ بعض أصحابه قال: كان أبو الحسن إذا دخل محرابه وانتفخت عيناه واحمّرت، ولجأ إلى الله عزّ وجلّ ورأينا ذلك منه انتظرنا إجابة دعائه، وكانت إلى ثلاثة أيّام.

صنّف تأليف بديعة مفيدة مثل: الممهّد في الفقه، قيل إنّه بلغ فيه إلى ستين جزءاً ومات ولم يكمله، والرسالة المفصلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلمين والمتعلّمين، جمع فيها مبادئ التربية الإسلاميّة الواجب اتّباعها في الكتاتيب، على منوال كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون، إلا أنّ كتاب ابن القاسبي أكثر تفصيلاً وأشمل.

ويذكر القاضي عياض أنّ أبا الحسن لم يكن قابسيّاً، وإنّما كان له عمّ يشدّ عمامته مثل القابسيين فسّمى بذلك، وهو قيرواني الأصل^(١).

* أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (٤٣٢هـ) من

(١) ترتيب المدارك ٦١٦/٤ - ٦٢١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، الديباج ص ٢٩٦ - ٢٩٧، شذرات الذهب ٣/٣١٠، شجرة النور الزكية ص ٩٧، وفيات الأعيان ٣/٣٢٠ - ٣٢٢، معالم الإيمان ٣/١٣٤ - ١٤٣، تذكرة الحفاظ ٣/١٠٧٩ - ١٠٨٠، البداية والنهاية ١١/٣٥١، النجوم الزاهرة ٤/٢٣٣ - ٢٣٤، هدية العارفين ٢/٦٨٥، غاية النهاية في طبقات القراء ١/٥٦٧.

أهل القيروان، وشيخ فقهاء المغرب في وقته مع صاحبه أبي عمران الفاسي.

كان أبو بكر فقيهاً حافظاً، تفقه بأبي محمد ابن أبي زيد القيرواني وبأبي الحسن القاسبي وسمع منهما ومن غيرهما من شيوخ إفريقية، وسمع بمصر.

تفقه عليه خلق كثير، وكان أصحابه نحو المائة والعشرين، كلهم يقتدى بهم، كأبي القاسم بن محرز ابن خالة ابن أبي زيد القيرواني، وأبي إسحاق التونسي، وأبي القاسم السيوري، وابن بنت خلدون، وغيرهم، وكان يواظب على الدرس بجامع القيروان أيام الإثنين والأربعاء والجمعة، يدرس المدونة، والموازاة.

حاز الذكر ورئاسة الدين في وقته مع صاحبه في المغرب بأسره، حتى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف، وقيل توفي سنة ٤٣٥هـ^(١).

* أبو القاسم عبدالرحمن بن علي بن محمد الكناني، من فقهاء القيروان المشاهير وحقاقهم، كان موصوفاً بالعلم والفقه والنظر، وكان قوياً في المناظرة.

كانت بينه وبين أبي عمران الفاسي مراجعات في مسائل مشهورة نقلت عنهما، ويروى أن أبا عمران على جلالته وعلو منزلته في الفقه، حين ناظره، علاه العرق وبلّ قميصه ورداءه وصار كمن غمس في ماء، وذلك لكثرة تفقه أبي القاسم في المسائل المشتبهة من المذهب^(٢).

* أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المعروف بالليبي من مشاهير علماء إفريقية ومؤلفيها، حاز رئاسة العلم والتشيع فيه بالقيروان.

(١) ترتيب المدارك ٧٠٠/٤ - ٧٠٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، شذرات الذهب ١٠١/٣، شجرة النور الزكية ص ١٠٧.

(٢) ترتيب المدارك ٧٠٦/٤ - ٧٠٧.

تفقّه بأبي محمد ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي وسمع منهما ومن غيرهما من شيوخ إفريقية، ووجهه أبو الحسن القابسي لتفقيه أهل المهدية.

امتدّ عمره بعد أقرانه، فكان آخر طبقة وفاته، وألف كتاباً جامعاً في المذهب في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها، وزيادات الأمتها، ونوادير الروايات، وكتاباً في اختصار المدونة سماه الملخص^(١).

جلس ابنه أبو بكر مجلسه، وكان من أهل العلم والأدب والفهم الحسن، معظماً في الناس، وتمادت الرئاسة بالعلم والقضاء في بيته إلى منتصف القرن السادس^(٢).

* أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي (٤٤٣هـ) كان إماماً جليلاً فاضلاً صالحاً، تفقّه به جماعة جلّة من الإفريقيين، له شروح حسنة في المذهب وتعاليق مستحسنة مستعملة على الموازية وعلى المدونة.

كان مدرّساً بالقيروان مستشاراً فيها مع بقية المشيخة، امتحن مع فقهاء القيروان بمنحة عظيمة سنة ٤٣٧هـ بسبب فتوى كان فيها على الحق، فلم ينقص قدره عند أهل النظر والتحقيق، ولا غرض من مقامه عند أهل الفهم والتوفيق، فخرج على إثر ذلك إلى المنستير، ثم رجع إلى القيروان وتوفي بها^(٣).

* أبو طيب عبدالمنعم بن إبراهيم الكندي المعروف بابن بنت خلدون (٤٣٥هـ) قيرواني، هو ابن أخت الشيخ أبي عليّ ابن خلدون من نبلاء هذه

(١) ترتيب المدارك ٧٠٧/٤ - ٧٠٨، الديباج المذهب ص ٢٤٨ - ٢٤٩، هدية العارفين ٥١٦/١، شجرة النور الزكية ص ١٠٩ - ١١٠، وفيه أنّ وفاته كانت سنة ٤٤٦هـ.

(٢) ترتيب المدارك ٧٧٣/٤.

(٣) ترتيب المدارك ٧٦٦/٤ - ٧٦٩، الديباج المذهب ص ١٤٤، شجرة النور الزكية ص ١٠٨ - ١٠٩.

الطبقة ومتفنيها، كان له علم بالأصول، وحذق بالفقه والنظر، وكان قدوة في العلم والدين.

تفقه به الإمام اللخمي وأبو إسحاق ابن منصور القفصي وغيرهما من الأعلام، وكان أهل قفصة يقولون له: إن الله تعالى من علينا معشر المسلمين بأن جعلك إماماً يقتدى به، راسخاً في العلم، نفع إليه.

له على المدونة تعليق مفيد، وإلى جانب العلوم الشرعية كان له حظ من علوم الهندسة والحساب، ويقال إنه أبدع طريقة لجلب مياه البحر من ساحل تونس إلى القيروان وسوقه خليجا، غير أن المنية قد عاجلته قبل تنفيذ نظره الهندسي^(١).

* أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث التميمي المعروف بالسيوري (٤٦٠هـ) قيرواني، وخاتمة أئمتهم، كان من ذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب والمعرفة بخلاف العلماء، آية في الدرس والصبر عليه.

كان يحفظ دواوين المذهب حفظاً جيداً، ويحفظ غيرها من أمهات كتب الخلاف، ويقال أنه مال في آخر الأمر إلى مذهب الشافعي.

له تعليق على نكت من المدونة، وعليه تفقه الإمام اللخمي، وعبد الحميد المهدي^(٢).

* أبو محمد بن سبحان، من أصحاب القابسي، أحد الذين كانوا يعرفون بالفقه في هذه المرحلة، وممن كان يدرّس بالقيروان ويجتمع إليه الناس في حلقة علمه^(٣).

ونجد من الأعلام من اختار الهجرة من القيروان، غير أنها عادة ما تكون هجرة اضطرارية، كما هو الحال بالنسبة إلى:

(١) ترتيب المدارك ٧٧١/٤، شجرة النور الزكية ص ١٠٧.

(٢) ترتيب المدارك ٧٧٠/٤ - ٧٧١، شجرة النور الزكية ص ١١٦.

(٣) ترتيب المدارك ٧٧٨/٤.

* أبو القاسم خلف ابن أبي القاسم الأسدي المعروف بالبرادعي (بعد ٣٨٦هـ) من كبار أصحاب أبي محمد ابن أبي زيد، وأبي الحسن القاسمي، ومن حفاظ المذهب المؤلفين فيه.

صنّف كتاب التهذيب واختصار المدوّنة، وظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه وتيمّنوا بدرسه وحفظه وكان عليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس، وله أيضاً كتاب التمهيد لمسائل المدوّنة على منوال اختصار ابن أبي زيد وزياداته، وله أيضاً اختصار الواضحة، وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدوّنة.

لم ينل رئاسة العلم بالقيروان، وكان مبغضاً عند أصحابه لصحبته لسلطين بني عبيد الذين كان علماء المالكيّة يتبرّون منهم، وقيل إنّ هجرانهم له كان بسبب تأليف كتاباً في إثبات نسب بني عبيد إلى فاطمة الزهراء، فكان بسبب ذلك مرفوض القول لدى أقرانه، ثقيل المكان عليهم، ويقال أنّ فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه وعدم قراءتها لتهمته لديهم، ورخصوا في التهذيب لاشتهار مسائله.

ويقال: بل لحقه في هذا دعاء الشيخ ابن أبي زيد القيرواني، إذ كان البرادعي أيام دراسته عليه، يتسبّب في الاعتراض عليه والتنبيه على أوهامه، والإزراء ببعض كلامه، فعزّ ذلك على الشيخ أبي محمد، وتفرّغ عند خروجه للدعاء عليه، فلفظته القيروان، ولم يستقرّ بها، فخرج إلى صقلية في حوالي سنة ٣٧٥هـ، وقصد أميرها، فحصلت له هناك مكانة وشهرة، وبصقلية ألف أغلب كتبه المذكورة، وذاع صيتها حتى ذكر أنّ المناظرة في جميع حلق بلدانها إنّما كانت بكتاب التهذيب للبرادعي وكانت وفاته أواخر القرن الرابع، بعد سنة ٣٨٦هـ^(١).

أو كما هو الحال بالنسبة لأحد أبناء أجدابية الليبية الذي استقرّ

(١) ترتيب المدارك ٧٠٨/٤ - ٧٠٩، الديباج المذهب ص ١٨٢ - ١٨٣، معالم الإيمان

١٤٦/٣ - ١٥٠، شجرة النور الزكية ص ١٠٥، كشف الظنون ٥٣١/٢.

بالقيروان ثم هاجرها حين اشتعلت نيران الفتنة بها، وهو:

* أبو عبدالله محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني (٤٦٠هـ) الفقيه المتفطن في العلوم، روى عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي وغيرهما، وذكره أبو الوليد الباجي ووصفه بالعلم والذكاء.

رحل إلى صقلية ثم إلى الأندلس عند ابتداء الفتنة بالقيروان سنة ٤٤٧هـ^(١).

ومن أعلام إفريقية التونسية بشكل عام، لهذه المرحلة:

* أبو علي ابن خلدون من فقهاء إفريقية وعلمائها وصلحائها، من أصحاب أبي الحسن القابسي، كان قد نشأ بإفريقية، وكان جليل القدر في فقائها مطاعاً^(٢).

* أبو إسحاق ابن منصور القفصي، أصله من قفصة وسكن طرابلس، كان من فقهاء إفريقية وفضلائها ومن أصحاب أبي بكر ابن عبدالرحمن الخولاني وطبقته، صحب أبا الطيب عبدالمنعم الخلدوني، وأبا إسحاق التونسي، وغيرهم.

أثنى عليه شيوخه وكانوا يقولون: ما اجتمع لأحد من أهل إفريقية، ما اجتمع لأبي إسحاق^(٣).

* أبو الحسن بن سليمان، تتلمذ على أبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي، وسكن المهديّة، وكان خير فقائها في هذه الطبقة^(٤).

(١) أعلام ليبيا ص ٢٧٥.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٦٢٤.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٧٧٢.

(٤) ترتيب المدارك ٤/٧٧٤.

* أبو الحسن بن المقلوب السوسي، عظيم بلده، وشيخ فقهاءهم، من أصحاب القابسي، انتقل إلى المهديّة وأخذ عنه أهلها^(١).

* أبو عمر أحمد بن محمد بن سعد بن سعد، أصله أندلسي إشبيلي نزل المهديّة وعليه دارت الفتيا بها، وكان فقيهاً صالحاً، وله رحلة قبل سنة ٤٠٠هـ بمدة، دخل فيها العراق، ولزم أبا بكر الأبهري وحمل عنه كتبه وتفقه عليه، ولقي أبا بكر الباقلاني، ورجع إلى القيروان، ثم عاد إلى المشرق سنة ٤٠٩هـ ودخل مصر وسمع من جماعة بها، وكانت وفاته بالمدينة^(٢).

* أبو حفص عمرو بن محمد بن عمرو السوسي (٢٩١هـ - ٣٩٥هـ) شيخ أبي القاسم الليدي، وأحد الفقهاء الفضلاء، وكان طيب المكسب متوقفاً عن الشبهات، وبسوسة استقرّ وعمّر، وتوفي وقد بلغ من العمر أربع سنين بعد المائة^(٣).

وإذا انتقلنا إلى الطرف الغربي من بلاد المغرب نلتقي بأسماء مدن لا تقل أهمية عن أسماء المدن في الطرف الشرقي الإفريقي.

ففي المغرب الأقصى يعلو نجم فاس وسبتة، ويبرز منهم:

* أبو هارون - وقيل أبو عمران - موسى بن يحيى الصديني (٣٨٨هـ) من أهل فاس، كبير فقهاء بلده، وشيخهم الشهير في وقته، كان فقيهاً عالماً بالرأي حافظاً للمسائل^(٤).

وكان ابنه أحمد (٤٠٨هـ) كذلك فقيهاً، وبقي سؤدد العلم في بيته إلى منتصف القرن السادس^(٥).

(١) ترتيب المدارك ٧٧٧/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٢٢/٤، جذوة المقتبس ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) رياض النفوس ٤٨٦/١، ترتيب المدارك ٥٣٧/٤.

(٤) ترتيب المدارك ٥٤٠/٤ - ٥٤١.

(٥) ترتيب المدارك ٥٤١/٤، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ٢٩٩/٢.

* أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي (٣٦٣هـ - ٤٣٠هـ) أصله من فاس، وبيته به مشهور ويعرفون ببني أبي الحاج، ولهم عقب وفيهم نباهة، تفقه بالقيروان عند أبي الحسن القاسبي وغيره من أعلام طبقتهم، ورحل إلى قرطبة فتفقه بها عند أبي محمد الأصيلي وغيره، ثم رحل إلى المشرق فحجّ ودخل العراق فسمع من جلة أعلامها، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بمكة من أبي ذرّ الهروي، كما سمع بالحجاز وبمصر، ثم رجع إلى القيروان فاستوطنها، وحصلت له بها رئاسة العلم.

كان إماماً في كل علم، نافذاً في علم الأصول مقطوعاً بفضلته وإمامته، من أعلم الناس وأحفظهم، حتى أنّ القاضي أبا بكر الباقلاني قد أعجب بحفظه وقال له يوماً: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب بن نصر - وكان إذ ذاك بالموصل - لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره، ولو رآكما مالك لسرّ بكما.

جمع حفظ المذهب المالكي إلى حفظ حديث النبي ﷺ ومعرفة معانيه، ومعرفة رجاله جرحاً وتعديلاً، وكان يقرئ القرآن بالقراءات السبعة، ويجوّده.

كان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدوة إلى الظهر، وعنه أخذ الناس من أقطار المغرب والأندلس، وتفقه عليه جماعة كثيرة من القرويين والفاسيين والسبتيين والأندلسيين، وأشهرهم أبو إسحاق التونسي، وأبو القاسم السيوري، حتى طارت فتاويه في المشرق والمغرب واعتنى الناس بقوله^(١).

(١) ترتيب المدارك ٧٠٢/٤ - ٧٠٦، الديباج ص ٤٢٢ - ٤٢٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، النجوم الزاهرة ٣٠/٥، هدية العارفين ٤٨٠/٢، شذرات الذهب ٤٠٨/٣، جذوة المقتبس ص ٣١٧، غاية النهاية في طبقات القراء ٣٢١/٢ - ٣٢٢، بغية الملتبس ٦٠٦/٢ - ٦٠٧، الصلة لابن بشكوال ٨٨١/٣ - ٨٨٢.

* الحسن القرشي من فقهاء فاس وصاحب التصنيف، وحمزة بن يوسف ابن الحوراء (٤٣٨هـ) من فقهاء فاس، وعبدالرحمن بن الباز اليحصبي (٤٣٨هـ) قاضي فاس وكان من جلتها وفضلاتها ونبائها^(١).

* عثمان بن مالك (٤٤٤هـ) فقيه فاس وزعيم فقهاء المغرب في وقته، تفقه بفقهاء بلده، وعنه أخذ فقهاء فاس وتفقهوا به^(٢).

وبسببته نجد:

* أبو عبدالرحمن عبدالرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز (٣٤٠هـ - ٤١٣هـ) من أهل سببته كان كبير قومه كتامة، ذا ذكر شهير في بلاد المغرب، من حفاظ المذهب القائميين به، وكانت له ولأبيه في المغرب رئاسة بالعلم، وإليه كانت الرحلة في جهة المغرب في وقته، وعليه مدار الفتوى، وله عقب نجباء في العلم بلغوا إلى خمسة أئمة، فضلاء في عصرهم، وهم الفقيه أبو القاسم عبدالرحمن، ابن أبي عبدالله محمد، ابن أبي القاسم عبدالرحمن، ابن أبي عبدالرحمن عبدالرحيم، ابن أحمد الكتامي^(٣).

طلب أبو عبدالرحمن عبدالرحيم بن أحمد العلم ورحل فيه إلى الأندلس وإفريقية ولزم أبا محمد ابن أبي زيد فقيه القيروان نحو خمسة أعوام، وسمع منه كتبه، النوادر والمختصر، وحمل معه نسخة منهما إلى سببته وكانت رحلته إلى القيروان سنة ٣٨٠هـ.

أخذ عنه فقهاء السببيين والفاسيين وسواهم من غيرهم علماً كثيراً، وتفقهوا عليه وسمعوا منه^(٤).

(١) ترتيب المدارك ٧٧٩/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٧٧٩/٤.

(٣) الديباج المذهب ص ٢٤٥، شجرة النور الزكية ص ١٢٤.

(٤) ترتيب المدارك ٧٢٠/٤ - ٧٢١، الديباج المذهب ص ٢٥١، شجرة النور الزكية ص

وكان له ثلاثة أولاد عبدالعزيز وعبدالرحمن وعبدالكريم، فأما عبدالعزيز (نحو ٤٣٠هـ) فكان فقيهاً فاضلاً خيراً ديناً، وكان صديقاً لابن أبي مسلم القاضي، وعلى طريقته في الخير، وعليه كان اعتماد ابن أبي مسلم في الفتيا بعد أبيه^(١).

وأما عبدالرحمن (٤٤٩هـ) فكان من أهل الفقه والصلاح، وذو بيت شهير في العلم بسبته، سمع من أبيه وطبقته، ولقي بالقيروان أبا إسحاق التونسي وأخذ عنه.

حجّ مع ابنه القاضي أبي عبدالله محمد - من رجال الدور القادم -، وكان أبو القاسم من رؤوس فقهاء سبته في وقته ومفتيهم، وعليه دارت الشورى أيام قضاء محمد بن عتاب بعد موت المشيخة قبله^(٢).

وهكذا حاز الأخوان عبدالعزيز وعبدالرحمن الرئاسة بعد أبيهما وسداً مكانه، وأما عبدالكريم فطلب العلم وكان أكثر مدته في قومه بكتامة، رأساً فيهم وهم له طاعة، وخالط السلطان، وطالت حياته، ثم مات مقتولاً^(٣).

ومن أهل سبته كذلك:

* القاضي أبو الحجاج يوسف بن حمّود بن خلف بن أبي مسلم (حدود ٤٣٠هـ) سبتي شهير البيت بها في العلم، كان فقيهاً خيراً فاضلاً، وأديباً شاعراً، سمع من شيوخ بلده، ورحل إلى الأندلس فسمع من أبي محمد الأصيلي وطبقته.

ولي قضاء سبته، فكان من أجلّ قضاتها طريقة وأحمدهم سيرة وأشدهم على أصحاب السلطان شكيمة، وكان يرغب في الاستقالة عن خطة القضاء، ولكنّه لا يسعف بذلك.

(١) ترتيب المدارك ٧٨٢/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٧٨٢/٤، شجرة النور الزكية ص ١١٥، وذكر أنّه توفي سنة ٤١٧هـ.

(٣) ترتيب المدارك ٧٢١/٤، الديباج المذهب ص ٢٥١.

رحل إلى المشرق سنة ٤١٣هـ وهو كبير السن، بعد ولايته القضاء، فحجّ وسمع من أبي ذرّ الهروي، ثم عاد إلى القضاء، وبقي على خطته تلك بضعا وعشرين سنة.

كان على جلالة مكانته، كثير التواضع، يخدم فلاحه أرضه بنفسه، ويعتني بها في بعض شؤون غرسها حتى يظنّ من يرى هيئته حين يكون في بستانه أنّه من خدمة الحقول^(١).

* أبو زيد عبدالرحمن بن مسعود الكتامي المعروف بابن أبي عامر (بعد ٣٩٠هـ) من أهل سبته، سمع وتفقه ببلده، ثم رحل فسمع من أعلام المصريين، ولقي أئمة المالكيين.

وعنه تلقى العلم مشيخة أهل سبته^(٢).

* أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن زويج (بعد ٤٠٠هـ) من أهل سبته، من أهل العلم والأدب وأجلّ قضاة سبته، أصله من البصرة، وله رحلة إلى الأندلس، دخل العراق وحجّ ولقي علماء البلاد، ثمّ رجع إلى قرطبة.

كان حسن السيرة في قضائه، عالماً متفتّناً في علمه نظّاراً، صاحب حجة وجدل، عالماً بالحديث، وكانت له منزلة عالية عند سلطان الأندلس، متمكّن الأسباب لديه، وهو آخر قضاة بني أمية بسبته^(٣).

* أبو محمد عبدالله بن غالب بن تمام الهمداني (٤٣٤هـ) مفتي أهل سبته وزاهدهم وعالمهم، حمل العلم عن شيوخ سبته، ورحل إلى الأندلس فأخذ عن أبي بكر الزبيدي وأبي محمد الأصيلي، ورحل في حدود سنة ٣٨٠هـ إلى القيروان وروى عن أبي محمد ابن أبي زيد القيرواني كتبه، كما رحل إلى مصر، وقيل دخل العراق.

(١) ترتيب المدارك ٧٢١/٤ - ٧٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ٥٣٨/٤ - ٥٣٩.

(٣) ترتيب المدارك ٦٢٩/٤.

كان علامة متيقظاً ذكياً متبحراً في العلوم فصيحاً مفوهاً، واحد عصره
علماء وتقى وجلالة وديناً وفضلاً من بيت علم وجلالة، وكان متفناً في
علوم كثيرة، قائماً بمذهب المالكية نظاراً حافظاً.

أخذ عنه جماعة من أهل سبته منهم: ابنه القاضي أبو عبدالله، وأبو
محمد المسيلي، والقاضي ابن حجاج، وغيرهم.

كان الاعتماد في الشورى عليه إلى أن مات، وقيل إن رجلاً من أهل
سبته رفع مسألة إلى القيروان، فقيل له: أليس ابن غالب حياً؟، قال: نعم،
فقيل له: ما ينبغي لبلد فيه مثله أن يرفع منه سؤال^(١).

وبالمغرب نلقى أيضاً:

* القاضي عبدالله بن الزويزي، قاضي أصيلا من بلد المغرب،
مشهور الاسم بعيد الصيت في الفتيا والذكر بالعلم، قال القاضي عياض:
وبه يضرب المثل إلى الآن - القرن السادس الهجري - بالمغرب، فيقال: لا
أفعل كذا ولو أفتاك به ابن الزويزي^(٢).

وبالمغرب الأوسط - الجزائر - نقف على قلعة بني حماد تلك المدينة
التي أسسها حماد بن بلكين عاصمة لدولته سنة ٣٩٨هـ، ونلقى من
فقيهاها:

* أبو عثمان ابن أبي سوار الذي تفقه بشيوخ جهته، وأخذ عن ابن
العجوز السبتي، كما نلقى أبو حفص عمر ابن أبي الحسين ابن الصابوني،
زعيم فقهاء قلعة بني حماد في وقته، الذي انفرد برئاسة جهته، وكان فقيهاً
نظاراً محققاً، حسن الفهم جيد الكلام في الفقه^(٣).

(١) شذرات الذهب ٤١٦/٣، الصلة لابن بشكوال مج ١٢، ج ٢، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٢) ترتيب المدارك ٦٢٨/٤.

(٣) ترتيب المدارك ٧٧٨/٤.

ويبرز من أعلام المسيلة، تلك المدينة التي تقع بولاية سطيف الجزائرية:

* أبو جعفر أحمد بن خلف المسيلي المعروف بالخيّاط (٣٩٣هـ) كان فقيهاً عالمًا بالمسائل، حافظاً لها، حسن التكلّم في الفقه على مذهب الإمام مالك، وكان ورعاً زاهداً فاضلاً، دخل الأندلس فاستوطنها وتوفي بقرطبة^(١).

* أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي (٤٠٢هـ) من أئمة المالكية بالمغرب، والمتسمين في العلم، المجيدين للتأليف، أصله من المسيلة، وقيل من بسكرة - مدينة بولاية أوراس الجزائرية -، كان بطرابلس وبها أملى كتابه في شرح الموطأ، ثم انتقل إلى تلمسان بالجزائر.

كان فقيهاً فاضلاً متفتناً، ولكنّه لم يتفقه في علمه على إمام مشهور، وإنما وصل إلى ما وصل إليه بإدراكه، صنف كتاب الأموال نشره المرحوم حسن حسني عبدالوهاب قسماً منه يختصّ بإفريقيّة والأندلس وصقلية، وترجمه إلى الفرنسية، وصنّف كذلك الأسئلة والأجوبة في الفقه، وغيرها، وكانت وفاته بتلمسان^(٢).

* أبو حسين ابن سلمون المسيلي (٤٣١هـ) دخل إلى الأندلس فقطن قرطبة بعهد الجماعة، فلم يرمها، وشهر بها علمه وفضله ووليّ الشورى، فكان أحد جلة مفتيها إلى أن مات.

كان عفيفاً متواضعاً حافظاً للمسائل، واقفاً على الأصول^(٣).

وفي ليبيا يشعّ نجم طرابلس وأجدابية، ونلقى من أعلامها:

* أبو الحسن عليّ بن محمد المعروف بابن المنمر (٣٤٨هـ) -

(١) ترتيب المدارك ٦٢٧/٤ - ٦٢٨.

(٢) ترتيب المدارك ٦٢٣/٤، الديباج المذهب ص ٩٤، تاريخ التراث العربي ١٧٥/٣، أعلام ليبيا ص ٤٩.

(٣) ترتيب المدارك ٧١٦/٤.

٤٣٢هـ) من أهل طرابلس، تفقه ببلده، رحل سنة ٣٨٩هـ إلى المشرق لطلب العلم، وحج، والتقى بأعلام الفقهاء بمصر، وبمكة وبالقيروان، وأخذ فيها عن القاسي.

كان علم وقته وشيخ زمنه ورائد قومه، بارعاً في الحديث وما يتعلّق به، عارفاً بالفقه والأصول، فقيهاً فرضياً، وعنه تلقى ابن محرز.

كان ابن المنمّر أول من ثار في طرابلس على بدع الشيعة سنة ٤٠٧هـ، ونادى بإبطال حيّ على خير العمل من الأذان، وأمر الناس بصلاة ركعتي الضحى، وندب الناس لإقامة صلاة التراويح في رمضان، وكان العبيدون يقتلون من صلاهما.

له في الفرائض كتاب مشهور مفيد سمّاه الكافي الذي عدّ عمدة في فقهه، ومرجعاً في بابه، ودرسه علماء المشاركة وعلماء المغاربة وأشار إليه ابن خلدون^(١).

* أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبدالله اللواتي الأجدابي، من أهل طرابلس، وأحد أهل أجدابية المبرزين في العلم، ومن أعلم أهل زمانه في الفقه والكلام والنحو واللغة والنظم والنثر.

كانت له عناية بلقاء الوفود وركبان الحج وإكرامهم، يأخذ عنهم ما يحملونه من علم، ولم تكن له رحلة في طلب العلم، ولما سئل: أتى لك هذا العلم ولم ترتحل؟ قال: اكتسبته من بابي هواره وزناته، يريد أنّه استفاد علمه ممّن يفد على طرابلس من المغرب ومن المشرق من أهل العلم.

وكانت وفاته منتصف القرن الخامس الهجري، ما بين سنة ٤٤٤هـ وسنة ٤٧٦هـ^(٢).

(١) ترتيب المدارك ٧١٨/٤، أعلام من طرابلس للمصراي ص ٢٨ - ٤٢، مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٤، أعلام ليبيا ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) أعلام ليبيا ص ٤ - ٥.

* موسى بن فرج الهواري الطرابلسي (٤٤٢هـ) كان فقيهاً يقرىء الدروس في مسجده المشهور به، لأنه كان يلزم قراءة الدروس فيه فسُمي بمسجد ابن فرج^(١).

وأما صقلية فقد تواصل نشاط المذهب المالكي بها في نمو مطرد بعد أن ظهر في بدايات المرحلة السابقة من هذا الدور، عن طريق القضاة والمهاجرين إليها، وكان من أبرزهم في هذه المرحلة:

* أبو بكر محمد بن عبدالله بن يونس التميمي الصقلي (٤٥١هـ) أحد العلماء وأئمة الترجيح والاختيار، أخذ عن علماء صقلية وشيوخ القيروان، وأكثر من النقل عن أبي عمران الفاسي، وحَدَّث عن أبي الحسن القابسي، صنَّف كتاباً في الفرائض وكتاباً حافلاً للمدونة أضاف إليها غيرها من الأمتات، وكان عليه اعتماد طلبة العلم، دفن بالمنستير حذو باب القصر الكبير^(٢).

* أبو العباس أحمد بن محمد الجزار، صقلي مشهور، مقدّم ببلده، انفرد فيه برئاسة الفتيا، وكان قرين عبدالحق في رئاسة العلم بصقلية، من أهل التحقيق بالفقه والأصول، وبه تفقه متأخرو الصقليين، ولقيه أبو الوليد الباجي وغيره من الأندلسيين^(٣).

* أبو محمد عبدالحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي (٤٦٦هـ) من أهل صقلية، تفقه بشيوخ القرويين كالتونسي والسيوري وابن بنت ابن خلدون وغيرهم، وتفقه بشيوخ الصقليين، وحج مرتين فلقي في الأولى أبا محمد عبد الوهاب بن نصر، وأبا ذر الهروي، ولقي في الثانية - بعد أن أسنّ وكبر وبعد صيته - إمام الحرمين الجويني، فباحثه وسأله عن مسائل مشهورة بين الناس نقلها الونشريسي في معياره.

(١) أعلام ليبيا ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) شجرة النور الزكية ص ١١١.

(٣) ترتيب المدارك ٧٧٦/٤ - ٧٧٧.

كان إماماً مشهوراً بكلّ علم، فقيهاً فهماً صالحاً ديناً مقدّماً، بعيد الصيت، شهير الخير، من الصالحين المتّقين، مدرّساً للأصول والفروع، مليح التأليف.

ألّف كتاب النكت والفروق لمسائل المدوّنة، وهو أوّل تأليفه، ثمّ رجع عن كثير من اختياراته وتعليقاته فيه واستدرك كثيراً من كلامه فيه، وألّف كذلك كتابه الكبير في شرح المدوّنة المسمّى بتهديب الطالب، نَبّه فيه على ما استدركه، على كتاب النكت، وله أيضاً استدراك على مختصر البرادعي.

بقي يتردّد على مصر كثيراً حتّى وافاه الأجل بالإسكندرية^(١).

ولا يمكن أن ننسى ما كان لأبي القاسم خلف ابن أبي القاسم الأسدي المعروف بالبرادعي من فضل على أهل صقلية، حين دخلها في حدود سنة ٣٧٥هـ، وحصلت له هناك مكانة وشهرة، وبصقلية ألّف أغلب كتبه في مذهب الإمام مالك، تلك الكتب التي ذاع صيتها، حتّى قيل إنّ المناظرة في جميع حلق بلدان صقلية إنّما كانت بكتاب التهذيب للبرادعي^(٢).

وكان أبو عبدالله محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني الموصوف بالعلم والذكاء، والفقه والتفنّن في العلوم، قد رحل هو الآخر إلى صقلية عند ابتداء الفتنة بالقيروان سنة ٤٤٧هـ^(٣).

وبهؤلاء الجمع الغفير من العلماء الأعلام أصبحت البلاد المغربية بشقيها الشرقي والغربي، أكبر حصون المالكية تفرّداً، في الوقت الذي تقلّص فيه انتشار هذا المذهب بالمشرق إلى الحدّ الذي انقطع فيه حبل

(١) ترتيب المدارك ٧٧٤/٤ - ٧٧٦، الديباج المذهب ص ٢٧٥، شجرة النور الزكية ص ١١٦.

(٢) الديباج المذهب ص ١٨٣.

(٣) أعلام ليبيا ص ٢٧٥.

السلسلة العلمية كما هو الشأن بالعراق والحجاز.

- ٥ الأندلس:

استمرّ حكم الأمويين على بلاد الأندلس من سنة ١٣٨هـ إلى سنة ٤٢٢هـ، عرفت البلاد في بدايتها، انتعاشة وازدهاراً، فثباتاً واستقراراً، ثم شهدت بداية انحدار، ثم سقوطاً وانهاراً، من جراء الاضطرابات المتتالية فاستقلّ كل أمير من أمراء الأطراف بناحية من البلاد، وانفرد بحكمها، حتى غدت الأندلس أندلسيات، ودخلت البلاد عصر ما سمي بملوك الطوائف، فاستقلّ ابن عبّاد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية، وابن هود بسرقسطة، وابن باديس بغرناطة، وابن صمادح بالمرية، وغيرهم.

وتصارح أصحاب تلك المقاطعات فيما بينهم حتى أدى بهم الأمر إلى الاستنجد بالمشيحيين على منافسيهم وأرغم بعضهم على دفع الجزية لملك قشتالة، ورغم محاولات الإمام الباجي لتدارك الشرّ قبل استفحاله، وسعيه بين أمراء الأندلس لئلاّ شملهم وجمع كلمتهم، وإصلاح ما فسد بينهم، وتأليف قلوبهم على نصرّة الإسلام، إلاّ أنّه لم يجد بينهم من له أذن صاغية، أو عين واعية، وتوفّي دون تحقيق غرضه.

وفي ظلّ هذا التمزّق واستفحال الصراع تعلّقت آمال العلماء بالمرابطين، فاستنجدوا بيوسف بن تاشفين الذي لبي طلبهم وقضى على حكم الطوائف.

وعلى الرغم من هذا التفكك الذي استفحل بالبلاد، وعلى الرغم من ذلك الصراع الذي نخر في جسم المسلمين بأندلسهم، على الرغم من كلّ ذلك فإنّ الأندلس بقيت سوقاً نافقة للفقهاء، وبلاداً عامرة بالعلماء على اختلاف أصنافهم ومشاربهم، وكان للمذهب المالكي النصيب الأكبر والقسط الأوفر في نشاط الحركة الفقهية.

وقد اشتهر من أعلامه خلال هذه المرحلة من هذا الدور مجموعة هائلة كانت لهم رئاسة جليّة ببلدهم، ومكانة كبيرة من الفقه، ذكر منهم

القاضي عياض في مداركه أكثر من مائة وستين فقيهاً، من أصحاب الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر، التي اختتم بها عياض كتابه المدارك^(١).

ومن هؤلاء الأعلام نذكر:

* القاضي أبو بكر محمد بن يقي بن محمد بن زرب (٣١٧هـ - ٣٨١هـ) سمع من قاسم بن أصبغ وطبقته، وعني بالرأي وتقدم فيه، وكان من أحفظ أهل زمانه لمسائل مذهب مالك وأفقههم به، وعليه مدار طلبه في المناظرة، وكان الفقه جلّ علمه، ولم تكن له رحلة ولا رواية.

شوور في الأحكام سنة ٣٦٠هـ، ثم ولي قضاء الجماعة سنة ٣٦٧هـ إلى أن توفي، فكانت ولايته في القضاء أربعة عشر عاماً.

كان ابن زرب مع علمه، ورعاً عفيفاً كثير الصلاة والتلاوة، بصيراً بالعربية والحساب، حسن الخطابة، قريب الدمعة، دقيق التفقه مستبحراً في المسائل، حافظاً للأصول، حاذقاً بالفنون، وإليه كانت الخطبة والصلاة، وكان آخر حاله قد عكف على العبادة وأكثر من الذكر والتلاوة حتى كان يختم القرآن كلّ ليلة.

صنّف كتاب الخصال في الفقه على مذهب مالك، عارض به كتاب الخصال لابن كابس الحنفي، وله غير ذلك من المصنّفات^(٢).

* أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي (٣٩٢هـ) كان من أجلّ العلماء فقهاً وأثبتهم نقلاً وأصحهم ضبطاً وأرفعهم حالاً وأعدلهم قولاً، فرداً لا نظير له في الفهم والنباهة.

تفقه بقرطبة عن مشائخها منذ صباه، ثم طلب العلم بالآفاق، فقصد إفريقيّة سنة ٣٥١هـ ولقي شيوخها كأبي العباس الأبياني التونسي،

(١) ترتيب المدارك ٦٣٠/٤ - ٦٩١ و ٧٢٣/٤ - ٧٦٢ و ٧٨٤/٤ - ٧٩٠ و ٨٠٢/٤ - ٨٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ٦٣٠/٤ - ٦٣٣، جذوة المقتبس ص ٩٣، شذرات الذهب ٢٢٤/٣، الديباج المذهب ص ٣٦٤، تاريخ علماء الأندلس ٧٧٥/٢ - ٧٧٦.

وعبدالله بن أبي زيد، وغيرهما، ثم رحل إلى المشرق سنة ٣٥٢هـ، فدخل مصر والتقى بشوخها، وحبس سنة ٣٥٣هـ ولقي أعلام الحجاز، ثم سار إلى العراق فلقى أبو بكر الأبهري.

أقام بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاماً، ثم عاد إلى قرطبة ولا نظير له في حفظ الحديث ومعرفة رجاله وعلله وإتقان النقل وحذق النقد وحفظ الأصول والقيام بمذهب مالك والجدل فيه على أصول البغداديين، فنشر بها علمه حتى سار ذكره، وشرق به فقهاء البلد وسمع منه عالم كثير، وبه تفقه أبو عمران الفاسي وغيره.

تفنن في الرأي ونقد الحديث وعلله وآلف كتباً نافعة، وجمع كتاباً في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سمّاه الآثار والدلائل، وله غيره من المصنّفات، وإليه انتهت رئاسة المالكية بالأندلس في وقته، وكان بالأندلس نظير ابن أبي زيد بالقيروان، وكانت بين الأصيلي والقاضي ابن زرب وأصحابه مشاحنة، أثارها النفاسة وعلو كعب الأصيلي في العلم، وإزراؤه عليهم^(١).

* أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوي (٣٢٤هـ - ٤٠١هـ) شيخ فقهاء الأندلس في وقته، كان أول أمره ضعيف الحفظ، قليل العلم، فلم يزل أبوه يدرّبه ويحرّضه على المطالعة وإقامة الدرس حتى فتح الله عليه، وشهر في الناس حذقه، واحتاجوا إلى فتاويه، فقلّد الشورى.

كان قد حبّب إليه الدرس مدة عمره، لا يفتر عنه ليله ونهاره، وكان يقول: والله ما لي راحة، ولا لذة في غير المطالعة والقراءة، وكان أفقه أهل زمانه وأتقنهم للرأي، وأحفظ الفقهاء لمذهب مالك، واختلاف

(١) ترتيب المدارك ٦٤٢/٤ - ٦٤٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٤، شذرات الذهب ٢٧٢/٣، تذكرة الحفاظ ١٠٢٤/٣ - ١٠٢٥، جذوة المقتبس ص ٢٣٩ - ٢٤٠، الديباج المذهب ص ٢٢٤ - ٢٢٥، تاريخ علماء الأندلس ٤٢٦/١ - ٤٢٧.

أصحابه، لا يلحقه أحد من المتقدمين في عصره، ولا يقوم به أحد من طبقته.

انتهت إليه رئاسة العلم بالأندلس، وبعد صيته بها، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفذت الأحكام برأيه، وعليه دارت الفتيا بالأندلس أجمع إلى أن توفي، وصار معتمدا لجميع قضاتها وحكلمها فيما اختلفوا فيه.

لم يكن في عصره من هو أحفظ منه للسنة، وكان ابن زرب على تقدمه يعترف له بذلك، وكان لكثرة حفظه وقوة درايته لا يبطىء بالفتاوى، ولا يطيل على السائل، بل يجيب لوقته، أو ليومه.

وكان مع حفظه يمتاز بالفهم الثاقب، مع الذكاء والفظنة وحدة الذهن، حتى كان يشبهه بإيأس بن معاوية ونظرائه، وله في ذلك حكايات ومسائل تدل على غرائب ذكائه وتلفه.

وكان من ذوي المتانة في دينه، والصلابة في رأيه، والبعد عن هوى نفسه، لا يدهن سلطانا ولا يدع صدعه بالحق، البعيد والقريب عنده في الحق سواء.

دعاه ابن أبي عامر إلى تقلد قضاء الجماعة مرتين، فأبى أشد الإباء، وأغلظ القسم ألا يلي القضاء، ولا شيئا من الأحكام أبدا^(١).

* أبو العباس أحمد بن عبدالله بن عرفة بن ذكوان (٤١٣هـ) قاضي القضاة، كان محمود الطريقة، ذا عفاف ونزاهة وبعد همة وفرط هيبة، حاد بالناس إجلاله عن مذاكرته، فلاذوا من مناظراته بالتسليم والموافقة.

كان الناس والخصوم يلتزمون في مجلسه من الوقار وغض الصوت الغاية، وكانوا يتقدمون إليه الأول فالأول بأسمائهم، قد قيّد ذلك في جريدة، فمن ضاق عنه أول يوم الوصول، دفعت إليه رقعة ترتبه للغد،

(١) ترتيب المدارك ٦٣٥/٤ - ٦٤٢، جذوة المقتبس ص ١٢٣ - ١٢٤، شذرات الذهب ٤٠١/٣، الديباج المذهب ص ١٠٠ - ١٠١، هدية العارفين ٧١/١، الصلة لابن بشكوال ٥٣/١ - ٥٤.

على الرسم القديم للقضاء.

كان القاضي ابن ذكوان ضابطاً للحق، صليماً فيه، لا تأخذه لومة لائم، يروى أنه فسخ شراء ضيعة اشتراها وزير الدولة عيسى بن سعيد من سفيه، ففضى ابن ذكوان بردها، وفسخ البيع، فالتحمت بسبب ذلك بينهما العداوة، حتى صرف ابن ذكوان عن القضاء والصلاة، فأسف الناس على فقده، وحن القضاء إلى استقامته واستقلاله، فأعيد ابن ذكوان إلى خطته بعد تسعة أشهر من عزله، بعد إلزام ورغبة، فازداد رفعة إلى رفعته، ولم يجر شيء في أمر المملكة بعد ذلك إلا عن مشورة ابن ذكوان.

ثم جرت عليه محنة ثانية أطرده بسببها من الأندلس، هو وأفراد عائلته، وذلك سنة ٤٠١هـ، فقامت لنكبتهم بقرطبة القيامة، وعظم على الخاصة والعامة ما جرى عليهم، وهال جماعة من الأعيان ما حدث لآل ابن ذكوان، لجلالتهم في القلوب، حتى حسن رأي أولي الأمر فيهم، ووجه في استدعائهم وعادوا إلى وطنهم بالأندلس إلا أنهم لم يتقلدوا خطّة، إلى أن توفي ابن ذكوان، وكانت مدة عمله على القضاء في المرّتين سبعة أعوام ونصفاً^(١).

* أبو بكر يحيى بن عبدالرحمن بن وافد اليحصبي (٤٠٤هـ) كان أحد من حاز كمال القضاة بالأندلس علماً وهدياً ورجاحة وديناً، تقلد الشورى، فكان مبرزاً في أهلها.

كان ابن وافد مستبحراً في المذهب، حاذقاً بحفظ المسائل والأجوبة، حاضر العلم في مجالسته، كثير الإفادة، فصيح اللهجة، من أكمل قضاة الأندلس، ولي القضاء والخطبة عند صرف ابن ذكوان ونكبتة في الفتنة، ولقب بقاضي القضاة.

دارت عليه الفتنة واشتد الطلب فيه حتى عثر عليه، فأمر المستعين

(١) ترتيب المدارك ٤/٦٦٢ - ٦٦٧، جذوة المقتبس ص ١٢١، الصلة لابن بشكوال

سليمان بن الحكم بصلبه، فاضطرب البلد له، ووردت عليه شفاعات الفقهاء والصالحين، وقبّحوا للأمير ما أمر به في شأن القاضي، فرجع عنه الصلب والمثلة، وأمر بحبسه، فكان ابن وافد شديد الصبر في حبسه، كثير التبسم والحديث متعاهدا لصلاح نفسه وجسمه من الاغتسال والاستياك والاستحداد حتى وافاه أجله وهو محبوس^(١).

* أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى ابن أبي زمنين (٣٢٤هـ - ٣٩٩هـ) البيري، من كبار المحدثين والفقهاء الراسخين في العلم، عارفاً بمذهب مالك، بصيراً به، من أجل أهل وقته حفظاً للرأي ومعرفة بالحديث واختلاف العلماء، متفتناً في الأدب والأخبار وقرض الشعر، مع زهد وورع واقتفاء لآثار السلف، وكثرة العمل والصلاة والبكاء والصدقة.

قدم قرطبة فسمع منه بها سنة ٣٧٨هـ.

وكان حسن التأليف مفيد الكتب في كل فنّ، من مصنفاته: المغرب في اختصار المدونة وشرح مشكلها، والتفقه في نكت منها مع تحرير للفظها، وضبط لروايتها، ليس في مختصراتها مثله باتفاق، وهو أفضل مختصرات المدونة وأقربها ألفاظاً ومعاني لها، وله أيضاً المنتخب في الأحكام الذي ذاع بالمشرق والمغرب ذكره، وغير ذلك كثير في الحديث والتفسير، وغيرها من الفنون^(٢).

* أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار (٤١٩هـ) أحد أئمة المالكية بقرطبة، وأحفظ الناس وأحضرهم علماً وأسرعهم جواباً وأوقفهم على اختلاف العلماء.

كان حافظاً للحديث والأثر، يميل إلى الحجّة والنظر، وكان أوّل أمره

(١) ترتيب المدارك ٦٦٨/٤ - ٦٧١، الصلة لابن بشكوال ٩٥٣/٣ - ٩٥٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٧٢/٤ - ٦٧٤، طبقات المفسرين ص ٤١٠ - ٤١١، شذرات الذهب ٢٩٤/٣، هدية العارفين ٥٨/٢، جذوة المقتبس ص ٥٣، الديباج المذهب ص ٣٦٥ - ٣٦٦، الصلة ٧٠٧/٢ - ٧٠٩.

يميل إلى مذهب الشافعي ثم تركه، وكان يقول في بعض الأحكام بقول أهل الظاهر، وله آراء يأخذ بها في خاصة نفسه، خالف فيها أهل قطره.

كان واحد عصره ورئيس وقته، ذا منزلة عظيمة في العلم والفقه والمشاورة في الأحكام، وكذلك في التمسك والعبادة، وله أعمال من البرّ صالحة، وانتفع المسلمون بوعظه وإرشاده.

رحل إلى المشرق فحجّ، وجاور وسكن المدينة، وشوور بها، ثم عاد إلى قرطبة، وفرّ منها أيام الفتنة، فاضطرب بجهات الغرب والشرق، ثم ألقى عصاه ببلنسية، حيث أقام بها مطاعا إلى أن توفي وقد ناهز الثمانين.

من مصنفاته: اختصار في كتاب نوادر ابن أبي زيد، ردّ عليه في بعض مسأله، واختصار المبسوط للقاضي إسماعيل^(١).

* أبو المطرف عبدالرحمن بن هارون الأنصاري المعروف بالقنازعي (٣٤١هـ - ٤١٣هـ) قرطبيّ فقيه زاهد ورع، تفقّه بأبي محمد الأصيلي وأبي عمر المكوي وطبقتهما بالأندلس، ثم رحل إلى القيروان فلقى ابن أبي زيد، وأخذ عنه، ثم قصد الحجّ وسمع بمصر، وذكر أنّه دخل مسجد عمرو بن العاص بالفسفاط، فوجد فيه من مجالس المالكيّة في الفقه والحديث نحو عشرين حلقة، وأهله يشكون لقياه والنقص بانتقال الدولة للشيعّة على السنته.

كان من أهل العلم والتفقه في الحديث وعلوم القرآن، ومن أحسن الناس تثبّتا لرواية يحيى بن يحيى الليثي، وعناية بها، وهو أحد من تناهت فيه خلال الصلاح بقرطبة، وعظمت به المنفعة.

سلك سبيل السلف المتقدّمين في الزهد في الدنيا والبعد عن الأمراء والقناعة باليسير والحرص على التعليم.

(١) ترتيب المدارك ٧٢٤/٤ - ٧٢٦، شذرات الذهب ٣٦٧/٣، النجوم الزاهرة ٢٦٨/٤،

نفع الطيب ٦٠/٢ - ٦١، الصلة لابن بشكوال ٧٤٦/٢ - ٧٤٨.

كان ممّن امتحن أيام الفتنة بالأندلس، محنة أودت بحاله، وقدحت في خاطره، فعراه طيف خيال خفيف، يغشاه فلا يؤذيه، واضطرّ إلى مؤاجرة نفسه في الإمامة والتعليم على حدّ من التحري، وتفرّغ في يومي الخميس والجمعة من كلّ أسبوع إلى الإسماع والتفقه^(١).

* أبو محمد عبدالله بن يحيى بن دحون (٣٤٢هـ - ٤٣١هـ) أحد شيوخ المفتين، وبقية علماء وقته بقرطبة.

كان من كبار أصحاب ابن مكوى وابن زرب، صحبهما وتفقه بهما وبغيرهما، ولم يكن في أصحاب ابن مكوى بإجماع أفقه منه، ولا أقدر على الفتوى، ولا أضبط للروايات منه.

عاش بعد قرنائه، فانفرد بالرياسة، ببقية مدّته، وكان جمّ الإفادة، شديد التواضع مع رفعة حاله، وتقديم الناس له، وتوقّي سنّه تسع وثمانون^(٢).

ثمّ كان بعد هؤلاء:

* أبو عبدالله محمد بن عتاب بن محسن (٣٨٣هـ - ٤٦٢هـ) شيخ المفتين بقرطبة في طبقتهم، تفقه بأبي عمر ابن الفخار، وصحب القاضي ابن بشير أكثر من اثني عشر عاماً، وروى عن القنازعي وابن وافد وغيرهما.

كان إماماً جليلاً متصرفاً في كلّ باب من أبواب العلم، من جلّة الفقهاء بالأندلس وأحد العلماء الأثبات، حافظاً نظاراً مستنبطاً بصيراً بالأحكام متقدّماً فيها، عارفاً بالعقود والشروط وعللها، وفاق في ذلك أقرانه.

أريد على القضاء أكثر من مرّة فأبى، وأغروه بالمال الكثير والرزق

(١) ترتيب المدارك ٧٢٦/٤ - ٧٢٨، شذرات الذهب ٣/٣٤٦ - ٣٤٧، جذوة المقتبس ص ٢٦٠، هدية العارفين ١/١٦، طبقات المفسرين ص ٢٠٣ - ٢٠٤، الديباج المذهب ص ٢٤٩، غاية النهاية ١/٣٨٠، الصلة لابن بشكوال ٢/٤٨١ - ٤٨٣.

(٢) ترتيب المدارك ٧٢٩/٤ - ٧٣٠، شجرة النور الزكية ص ١١٤.

الواسع فامتنع، وحلف ألا يلي من الأمر شيئاً، فلم يقدر على إرغامه أحد، ويحكى أنه كان قد خلف صندوقاً مقللاً، قد أوصى ألا يفتح إلا بعد موته، فلما مات فتح، فإذا فيه أربعة رسائل من أربعة أمراء: ابن عبّاد صاحب إشبيلية، وابن الأفتس صاحب بطليوس، وابن صمادح صاحب مريّة، وابن هود صاحب سرقسطة، كلّ منهم يدعو إلى تقلد القضاء ببلده، فكتب على كلّ كتاب منها: تركت هذا لله^(١).

* أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال ابن القطان (٤٦٠هـ) قرطبي بعيد الصيت في فقهاؤها، كان من أحفظ الناس للمدونة والمستخرجة - العتيّة -، وأبصر الناس إلى الاهتداء إلى مكنونهما، وبه تفقه القرطبيون، وكانت عليه وعلى أبي عبدالله ابن عتاب تدور الفتيا بقرطبة، إلى أن فرّق الموت بينهما.

وكان لا يزال الذي بينهما متباعداً، ولا يزال يخالف ابن عتاب، إذ كان متقدماً عليه لسنته، وكان ابن عتاب مع سنّه يفوقه بتفتنّه وثبوت معرفته، في حين كان ابن قطان متقدماً على ابن عتاب بقوة حافظته وجودة استنباطه^(٢).

* أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبرّ النمري (٣٦٨هـ - ٤٦٣هـ) شيخ علماء الأندلس، وكبير محدّثيها في وقته، وأحفظ من كان بها للسنة، طلب الفقه بقرطبة عند ابن المكوي وغيره من أعلام عصره، وصبر على الطلب ودأب فيه، ودرس وبرع براعة فاق فيها من تقدّمه من رجال الأندلس، غير أنّه لم تكن له رحلة.

كان مع تقدّمه في علم الأثر وبصره بالفقه والفرائض ومعاني

(١) ترتيب المدارك ٤/٨١٠ - ٨١٣، الديباج المذهب ص ٣٧٠، شذرات الذهب ٤٩٦/٣، النجوم الزاهرة ٥/٨٦، الصلة لابن بشكوال ٣/٧٩٨ - ٨٠٠.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٨١٣، شذرات الذهب ٣/٤٩٢، النجوم الزاهرة ٥/٨٢، الديباج المذهب ص ١٠٢ - ١٠٣، شجرة النور الزكية ص ١١٩.

الحديث، قائماً بعلم القرآن، وله اطلاع واسع في علم النسب والأخبار. عظم شأنه بالأندلس، وعلا ذكره في الأقطار، ورحل إليه الناس، وسمع منه الكثير من كبراء أهل العلم المشاهير.

رحل عن مسقط رأسه قرطبة أيام الفتنة، فكان بغرب الأندلس، ثم تحوّل منها إلى شرق الأندلس فتردّد ما بين دانية وبلنسية وشاطبة، وتوفي بشاطبة عن خمس وتسعين سنة، وفي جذوة المقتبس أنّه توفي سنة ٤٦٠هـ.

صنّف تآليف مفيدة ذاعت في الآفاق، فاقت العشرين مصنّفاً، منها كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمّنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، وكتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة، وكتاب الكافي في الفقه في الاختلاف وأقوال مالك وأصحابه، وغيرها^(١).

* القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعدون الباجي (٤٠٣هـ - ٤٧٤هـ) أصلهم من بطليوس، ثم انتقلوا إلى باجة الأندلس، ثم سكنوا قرطبة، واستقرّ أبو الوليد بشرق الأندلس، وبها تلقى العلم.

رحل سنة ٤٢٦هـ، فأقام بالحجاز مع أبي ذرّ الهروي ثلاثة أعوام، يحجّ في كلّ سنة، ثم رحل إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويسمع الحديث عن أئمّتها، فلقي بها جلة من الفقهاء كأبي الفضل ابن عمروس إمام المالكية، وأبي الطيّب الطبري أكمل الشافعية اجتهاداً وأشدّهم تحقيقاً في المذهب، وأبي عبدالله الدامغاني الحنفي الشهير بمناظراته، وأبي عبدالله الصيمري رئيس الحنفيّة في وقته، وغيرهم.

واستأجر نفسه مدّة إقامته ببغداد لحراسة درب، فكان يستعين بإجارته

(١) ترتيب المدارك ٨٠٨/٤ - ٨١٠، شذرات الذهب ٥٠١/٣ - ٥٠٢، جذوة المقتبس ص ٣٤٤ - ٣٤٦، تذكرة الحفاظ ١١٢٨/٣ - ١١٣٢، البداية والنهاية ١٠٤/١٢ - ١٠٥، هدية العارفين ٥٥٠/٢، الديباج المذهب ص ٤٤٠ - ٤٤٢، وفيات الأعيان ٦٦/٧ - ٧٢، الصلة لابن بشكوال ٩٧٣/٣ - ٩٧٤.

على نفقته، وبضوئه على مطالعته، ودخل الشام ومصر وسمع من غير واحد، ثم دخل الموصل فأقام بها عاما يدرس الأصول، وكان مقامه بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاما حاز خلالها علماً كثيراً.

عاد إلى الأندلس، وكان أكثر تردده بشرقها ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية، فأخذ عنه بها علم كثير، وسمع منه جماعة، وتفقه عليه خلق، ولم يكن بها أتقن منه للمذهب.

كان أبو الوليد فقيهاً نظاراً محققاً، وراويّة محدثاً، ومتكلماً أصولياً فصيحاً، وشاعراً مطبوعاً، حسن التأليف، له تصانيف مشهورة جليّة، وأبلغ ما كان فيها في الفقه وإتقانه على طريقة النظار من البغداديين وحدّاق القرويين.

وكان مقلّاً من دنياه فكان يخرج إلى تلامذته إذا جاؤوا للقراءة عليه، وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل، فلما فشا علمه وعرف واشتهرت تآليفه، عرف حقّه وجاءته الدنيا وعظم جاهه وقدر حقّ قدره.

من مصنفاته كتاب المنتقى في شرح الموطأ ثم اختصره في كتاب سمّاه الإيماء، وله المهذب في اختصار المدوّنة، وله إحكام الفصول في أحكام الأصول، والإشارات في أصول الفقه، وكتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، وتآليف أخرى كثيرة ومفيدة^(١).

وذكر القاضي عياض أنّه لم يكن الذي بين أبي الوليد الباجي وابن عبد البرّ، بالحسن لتجاذبهما سوّد العلم في وقتهما^(٢).

وكان لغير المالكيّة بالأندلس نشاط باهت، لا يكاد يذكر مع نشاط

(١) ترتيب المدارك ٤/٨٠٢ - ٨٠٨، شذرات الذهب ٤/٣٩ - ٤٠، تذكرة الحفاظ ٣/١١٧٨ - ١١٨٣، البداية والنهاية ١٢/١٢٢ - ١٢٣، النجوم الزاهرة ٥/١١٤، هديّة العارفين ١/٣٩٧، طبقات المفسرين ص ١٤٥ - ١٤٨، الديباج المذهب ص ١٩٧ - ٢٠٠، الصلة لابن بشكوال ١/٣١٧ - ٣٢٠، معجم الأدياء ٣/١٣٨٧ - ١٣٨٩، نفع الطيب ٢/٦٧ - ٨٥، وفيات الأعيان ٢/٤٠٨ - ٤٠٩، فوات الوفيات ٢/٦٤ - ٦٥.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٨٠٩.

المالكية، فكنا نلتقي من حين لآخر ببعض من كان له اعتناء بغير مذهب مالك من أمثال: أبي عمر يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني (٣٨٣هـ) الذي تفقه بالأندلس على محمد بن عبد الملك بن أيمن وعلى قاسم بن أصبغ وطبقتهما، ثم رحل إلى المشرق وأقام في رحلته عشرة أعوام وكان له اعتناء بكتب ابن جرير الطبري^(١).

ومن أمثال: أبي سليمان عبد السلام بن السمح بن نابل بن عبد الله بن يحيون الهواري (٣٨٧هـ) الذي رحل إلى المشرق وتردد هناك مدة طويلة وسكن اليمن، وسمع بمصر وبمكة وبجدة، وتفقه بمصر على المذهب الشافعي، حتى أصبح حافظاً له، حسن القيام به، ثم عاد إلى الأندلس^(٢).

غير أنّ المذهب الظاهري قد مثل استثناءاً فريداً من نوعه خلال هذه المرحلة من تاريخ الأندلس حيث برز بها مجدد المذهب الظاهري، ومحي مجده الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي المشهور بابن حزم الظاهري (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ) الذي كان يتميز بسعة العلم بالكتاب والسنة وكثرة الاطلاع على المذاهب والملل والنحل، وحسن المعرفة بالعربية والآداب والشعر، وغيرها من أصناف العلوم، مع حدة في الذهن وذكاء وصدق وديانة وسؤدد.

كان من بيت وزارة ورتاسة، ووجاهة ومال وثروة، وكان أول سماعه سنة ٣٩٩هـ، وكان في بداية أمره شافعي المذهب، دافع من أجله حتى وسم به ونسب إليه، ثم انتقل بعد ذلك إلى مذهب أهل الظاهر فنقحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه وناصح من أجله إلى أن مضى لسبيله.

كان لابن حزم الظاهري بالأندلس صيتاً عالياً، وكان لكلامه طلاوة، قد أخذت قلوب الناس، إذ كانت له تصرفات في فنون قد قصرت عنها

(١) تاريخ علماء الأندلس ٩٤٢/٢ - ٩٤٣.

(٢) المصدر السابق ٤٩٢/٢ - ٤٩٣.

السنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت لقلّة استعمالهم النظر وعدم اشتغالهم به فلم يكن يقدر أحد على مناظرة ابن حزم، فعلا بذلك شأنه، وسلّموا الكلام له رغم يقينهم بتخليطه، فلذلك حادوا عن مناظرته.

استدعاه سنة ٤٣٠هـ ابن رشيق أمير جزيرة ميورقة - شرقي الأندلس - لينشر بها مذهبه، فعقد مجالس نظر بقصر الأمير استطاع ابن حزم أن يفحم فيها فقهاء المالكيّة، من أمثال أبي الوليد ابن الباربة الذي كان من الفقهاء المشهورين بها والمتقدّمين، ويذكر عياض أنّ ابن حزم قد تعصّب فيها على ابن الباربة حتّى حمل الوالي على سجنه وإذلاله^(١).

ونتيجة للحظوة التي كان يلقاها ابن حزم بجزيرة ميورقة، استطاع أن ينشر مذهبه فاتّبعه أكثر أهلها.

ولمّا ورد أبو الوليد الباجي الأندلس سنة ٤٣٩هـ، وكان عنده من الإتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما كان قد حصّله في رحلته، أمّله الناس عند ذلك، فكان عند حسن ظنهم به، حيث جرت بينه وبين ابن حزم الظاهري مجالس ومناظرات كثيرة، كانت سبب انكسار ابن حزم وخروجه من ميورقة بعد أن كان رأس أهلها، وذكر أبو الوليد الباجي مجالساته تلك في كتابه الفرق، ما يكتفي به من وقف عليه^(٢).

وكان ابن حزم يحمل علمه، ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه، ولكّنه رغم جمعه لعلوم الإسلام وسعة معرفته وتوسّعه في أنواع من الفنون، فقد كان كثير الوقوع في العلماء المتقدّمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه وقلمه، حتّى قيل: كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين، فأورثه ذلك حقدا في قلوب أهل زمانه عليه، ونفر فقهاء وقته، وشتّوا عليه وحذّروا العائمة من الجلوس إليه والأخذ عنه، وما زالوا به حتّى بغضوه إلى ملوكهم، فأقصوه وشرّدوه عن بلاده.

(١) ترتيب المدارك ٨٢٦/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٨٠٥/٤، الديباج المذهب ص ١٩٨، طبقات المفسرين ص ١٤٧.

كان ذا تآليف جمّة، يقال إنّه ألف أربعمئة مجلّد في ثمانين ألف ورقة، منها في فقه الحديث كتاباً سمّاه «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة نحل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع» أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، والحجّة لكل طائفة وعليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد، وبيان ذلك كلّه، وتحقيق القول فيه، وكتاب «الإحكام في أصول الأحكام» في غاية التقصي وإيراد الحجاج، إلى غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة.

وكان ابن حزم مصاحباً لابن عبد البرّ، إذ كانا على مذهب الشافعي أوّل أمرهما، إلّا أنّه كان مناوئاً لأبي الوليد الباجي، ورغم ذلك فقد كان يعترف له بمقدرته الجدالية، وينصفه من نفسه، حيث كان يقول: لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي.

توفّي ابن حزم عن اثنتين وسبعين سنة بمسقط رأسه لبلبة^(١) بعد أن ترك أتباعاً له منهم: أبو القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي (٤٦٢هـ) الذي ولي قضاء بلده أيام يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة.

وأبو النجاة سالم بن أحمد بن فتح القرطبي (٤٦١هـ) الذي بذل الوسع في نشر كتب ابن حزم، وغيرهما من أعلام الظاهرية.

وسيكون لهذا المذهب في الدور القادم شأن آخر، إذ بعد أن كان قد توقّف انتشاره بالأندلس في بداية هذه المرحلة أيام الحاجب المنصور بالله ابن أبي عامر على عهد هشام الثاني (٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ) بسبب ما أبداه ابن أبي عامر من إنكار غير المالكية من المذاهب إرضاء لفقهاء المالكية.

(١) شذرات الذهب ٤٨٠/٣ - ٤٨٢، كشف الظنون ٥٥٣/٥، جذوة المقتبس ص ٢٩٠ - ٢٩٣، الذخيرة، مج ١، ق ١، ص ١٦٧ - ١٧٥، معجم الأديباء ١٦٥٠/٤ - ١٦٥٩، نفح الطيب ٧٧/٢ - ٨٤، وفيات الأعيان ٣٢٥/٣ - ٣٣٠، البداية والنهاية ٩١/١٢ - ٩٢، تذكرة الحفاظ ٣/١١٤٦ - ١١٥٥، النجوم الزاهرة ٧٥/٥، هدية العارفين ١/٦٩٠ - ٦٩١.

ويعد أن شهدت الأندلس الحرب على مذهب أهل الظاهر في أواخر هذه المرحلة وإحراق كتب ابن حزم علانية في إشبيلية بأمر من المعتمد بن عباد.

وبعد انكسار ابن حزم وخروجه من ميورقة مهزوماً، واستقراره بمسقط رأسه لبلة يدرّس أصاغر الطلبة حسب عبارة البعض ستشهد الأندلس في الدور القادم ما يعرف بردة الفعل العكسيّة مع الموحّدين الذين انتحلوا مذهب أهل الظاهر، وحرّقوا كتب المالكيّة، وألزموا الناس الانتقال من تقليد مالك إلى تقليد أهل الظاهر.

٦ - اليمن وبلاد الحجاز:

استمرّ المذهب الشافعي في الانتشاره والتوسّع ببلاد الحجاز، وبقيت خطط القضاء والخطابة والإمامة بمكّة والمدينة حكراً على أعلامه، وبرز من أتباعه خلال هذه المرحلة: أبو سعيد بن الأعرابي (٣٨٠هـ) المكي الذي أجاز ابن أبي زيد القيرواني، كما برز أيضاً: إبراهيم بن محمد بن المنذر، وأبو عليّ بن أبي هلال، والقاضي أحمد بن إبراهيم بن حمّاد، وكان ابن أبي زيد قد سمع منهم خلال رحلته وحجّه^(١)، وعبد الملك بن بحر الجلاب الذي سمع منه ومن أبي سعيد بن الأعرابي: الإمام أبو عبدالله محمد بن بطال بن وهب بن عبدالأعلى^(٢).

وشقّ المذهب الشافعي طريقه نحو اليمن، وكان إمام أئمّتهم في هذه المرحلة بصنعاء وعدن: القاسم بن محمد الجمحي القرشي (٤٣٧هـ) ومعاصره أحمد بن عبدالله الصعبي الذي شرح مختصر المزني في أربع سنوات وهو مقابل الكعبة المشرفة، ومن أشهر تلامذته: جعفر بن عبدالرحيم المخائي (٤٦٠هـ) الذي درّس وأفتى باليمن.

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٩٣.

(٢) الديباج المذهب ص ٤١٠.

وأما المذهب الشيعي فقد كان من أعظم زعمائه وأنصاره الزيديين باليمن:

* أبو الحسين القاسم بن عليّ بن عبدالله المنصور بالله العياني (٣٩٣هـ) الإمام الرابع في اليمن الذي شغل منصب الإمامة بين عامي ٣٨٩هـ و٣٩٣هـ، ويقال إنه ألف مائة كتاب، منها كتاب التفرع في الفروع الفقهية^(١).

وخلفه من بعده ابنه:

* الحسين بن القاسم بن عليّ بن عبدالله المهدي لدين الله (٤٠٤هـ) إمام الزيدية الخامس، وكان كثير التصنيف في أصول الدين، والردّ على المخالفين، وله أيضاً تفسير الغريب من كتاب الله، وكانت وفاته في شمالي صنعاء في إحدى المعارك^(٢).

* أبو الحسن عليّ بن بلال الأملي الزبيّ (أوائل ق ٥هـ) وهو الذي شرح جامع الأحكام في الحلال والحرام للإمام الهادي إلى الحق، وله أيضاً الوافي في فقه الهادي^(٣).

وأما المذهب المالكي فقد انقطع أتباعه بالحجاز، حتى أنّ القاضي عياض في المدارك اختتم الطبقة السابعة من أهل الحجاز بترجمة وحيدة كانت من نصيب أبي القاسم سليمان بن عليّ بن سليمان الجبليّ - من أعلام المرحلة السابقة من هذا الدور - ولا نكاد نعثر بعد ذلك على أيّ ترجمة من تراجم أهل الحجاز في الطبقات الموالية من كتاب المدارك.

وقد كان من آخر قضاة المالكية بالمدينة المنورة: أبو مروان المالكي

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٤٦، الأعلام ١١/٦.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٤٦ - ٣٤٩، الأعلام ٢/٢٧٤، هدية العارفين ١/٣٠٧.

(٣) تاريخ التراث العربي ٣/٣٥١ - ٣٥٢.

الذي لقيه أبو محمد الأصيلي سنة ٣٥٣هـ في حجّه (١).

وما عدا ذلك، فنادرًا ما نعثر خلال هذه المرحلة على من يتمذهب بمذهب مالك، وحتى إن عثرنا فهو بكلّ تأكيد من الوافدين على بلاد الحجاز، ونجد مثلاً على ذلك:

* أبو ذرّ عبدالله بن أحمد بن محمد الهروي (٣٥٦هـ - ٤٣٥هـ) أصيل هراة، الذي تمذهب بمذهب مالك، ولقي جلة من أعلامه وأخذ عنهم كالقاضي أبي الحسن القصار وأبي بكر الأبهري وغيرهما، واشتغل في الحديث وتقدّم في إمامته، وطوّف البلاد، حتى سمع منه عالم لا يحصى من أهل الأقطار، ثم نزل مكّة فسكنها، وجاور الحرم أزيد من ثلاثين سنة إلى أن مات ناشراً للعلم (٢).

* أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار الذي جاور مكّة وسكن مدينة النبي ﷺ وشور بها، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه الأندلس (٣).

* أبو محمد مكّي بن أبي طالب (٤٣٧هـ) أصيل القيروان ونزيل قرطبة الذي دخل مكّة حاجًا سنة ٣٧٧هـ ثم عاد إليها سنة ٣٨٧هـ، فأقام بها أربعة أعوام ثم انصرف إلى القيروان سنة ٣٩٢هـ (٤).

وأول رجوع للمذهب المالكي ببلاد الحجاز سيكون في بداية القرن السابع الهجري (٥).

(١) ترتيب المدارك ٦٤٣/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٩٦/٤ - ٦٩٨، نفع الطيب ٧٠/٢ - ٧١.

(٣) ترتيب المدارك ٧٢٥/٤، الدياج المذهب ٣٦٧.

(٤) ترتيب المدارك ٧٣٨/٤.

(٥) شجرة النور الزكية ص ٢٠٢.

حركة التدوين في دور التطبيق

كنا قد بيّنا في الدور السابق كيف اتّسعت المسائل وكثرت التفرّعات واختلفت الأقوال، واختلفت الطرق التي بسببها اختلفت الأقوال، مع أنّ الأصول التي يرجع إليها في ذلك هي أصول مسلمة متّحدة - وهي الأصول التي بها تكوّن كلّ مذهب من المذاهب الفقهية - .

ولكنّ طريقة التفرّيع وصورة التطبيق وتقدير الواقعة والرجوع بها إلى الدليل الإجمالي الذي ينطبق عليها، على الطريقة التي هي منهج كلّ مذهب من المذاهب، هو الذي قضى باختلاف الأنظار في الفتاوى ممّا اختلفت به المسائل^(١).

فصدرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه الحنفي المتمثلة في مصنفات أبي يوسف وكتب محمد بن الحسن، وخاصّة منها ظاهر الرواية، وظهرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه المالكي كالأسدية والمدونة والواضحة والعتبية، وظهرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه الشافعي كالأمّ ومختصر المزني، وكتب الجامعة لمسائل المذهب الحنبلي.

فمهدّ هذا العمل الذي هو عمل دور التفرّيع لعمل جديد هو عمل دور التطبيق، وقام هذا العمل الأخير على دراسة المسائل التي جمعت في مصادر دور التفرّيع ودراسة الأقوال الفقهية وتحقيق الصور التي تتعلّق بها

(١) محاضرات مغاربية ص ٧٨.

وتفكيكها، بحيث وقع ردّ الأشباه بعضها إلى بعض، والتعرّف على وجوه الفرق بين المختلفات من بين تلك الأقوال الكثيرة المأثورة عن الأئمة، ثم الاجتهاد في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها، وذلك بتخريج مناط الأحكام وتعليل ما استنبط أئمتهم من أحكام.

فكان رجال دور التطبيق بما توقّر لديهم من مادة الأحكام الفقهية التي في مصادر دور التفريع، وبدقة البحث وحسن النظر في الوقائع وحسن تصويرها، أن تمكّنوا من استخراج فتاوى لجميع القضايا التي عرضت عليهم، وصنّفوا الكتب الجامعة السائرة على نهج البحث في الصور من جهة، والبحث في الفتاوى المأثورة من جهة أخرى، فكان عملهم بذلك عمادا متينا لدور التطبيق^(١).

وهكذا لم يخل عمل الفقهاء في هذا الدور من وجوه ثلاثة، هي:

١ - استيعاب ما وصل إليه علم الفقه من خلال دراسة مصادر دور التفريع والوقوف عليها، حتى كُنّا نسمع عن أعلام قد درسوا بعض مصنفات دور التفريع لمذهبهم مئات المرّات بل أحيانا آلاف المرّات، وكان البعض الآخر يحفظها عن ظهر قلب.

٢ - التحقيق في الآراء والأقوال الفقهية المستقاة من مصادر دور التفريع، وتطبيقها على المسائل الفرعية التي أحصوها وقوعا وتصوّرا، الأمر الذي مكّنهم من استنباط فتاوى لجميع القضايا التي عرضت لهم.

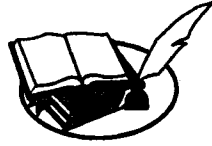
٣ - التوسّع في استنباط الأحكام، والتصدي للأوضاع التي لم يرد فيها حكم سابق من رجال دور التفريع، سعيا منهم إلى استيعاب جميع قضايا العصر ومسائله.

والحديث عن كلّ تلك المصنّفات التي دوّنت في هذا الدور هو ضرب من المحال، إذ لا يسع الباحث بأيّ حال من الأحوال أن يستقصي

(١) محاضرات ص ٧٩ - ٨٠.

جميع الكتب المصنفة في هذا المجال، ذلك أنّ الذين وضعوا المؤلفات في فنّ الفقه، وصنّفوا فيه المصنّفات، لا يحصون عدداً.

وقد تعرّضنا لذكر بعض تلك المصنّفات خلال الحديث عن مراكز الفقه ورجالها، ولهذا سوف نقتصر هنا، عن إعطاء لمحة عن أهمّ المصنّفات التي نعتبرها قد نالت في عصرها اهتماماً كبيراً، وحظيت في الأدوار اللاحقة بعناية كبيرة شرحاً وتعليقاً واختصاراً وتهذيباً، فكانت من الكتب التي أثّرت في مسار التطوّر التاريخي الفقهي.



حركة التدوين في المذهب الحنفي

١ - مختصر الطحاوي

هذا المختصر لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١هـ)، وجميع كتبه التي ألفها تعتبر مراجع هامة في المذهب الحنفي، ومن أهمها هذا المختصر الذي رتبته كترتيب مختصر المزني، وذكر في مقدمته أنه قد جمع فيه أصناف الفقه التي لا يسع الإنسان جهلها، وبيّن الإجابات عنها من قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن.

والطحاوي هو أول من جمع مختصراً في الفقه الشافعي بذكر أمتهات المسائل ورواياتها المعتمدة ومختاراته الظاهرة المعول عليها عند الفقهاء، حيث اشتمل على عامة مسائل الخلاف في المذهب الحنفي، وعلى كثير من الفروع الفقهية التي لا يسع جهلها ولا التخلف عن علمها فبيّن الجوابات عنها من قول أبي حنيفة ومن قول أبي يوسف ومن قول محمد بن الحسن.

فكان بذلك مختصره أبداع المختصرات عند الشافعية وأحسنها تهذيباً وأصحها رواية عن أصحابهم وأقواها دراية وأرجحها فتوى، ذلك أنّ المسائل على وجهها معزوة إلى من رواها عن أئمة المذهب، فإن كانت في المسألة أقوال تراه يرجح بعضها على بعض ويختار.

وقد أوع علماء الحنفية بشرحه، فشرحه من رجال هذا الدور أبو بكر أحمد بن عليّ المعروف بالجصاص وأبو عبدالله حسين بن عليّ

الصيمري، ومن أشهر من شرحه من رجال الدور القادم: شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي^(١).

- ٢ - الكافي

هذا الكتاب لأبي الفضل محمد بن محمد المروزي الشهير بالحاكم الشهيد (٣٣٤هـ) جمع فيه صاحبه كتب محمد بن الحسن، المبسوط وما في جوامعه، فذكر الحاكم الشهيد ما في تلك الكتب وحذف ما تكرّر فيها من المسائل.

وهو كتاب معتمد في نقل المذهب، اعتنى بشرحه جماعة من مشايخ الحنفية أشهرهم: شمس الأئمة السرخسي، في كتابه المبسوط، المعروف بمبسوط السرخسي، وهو المراد إذا أطلق المبسوط في شروح الهداية وغيرها^(٢).

وللحاكم الشهيد أيضاً كتاب المنتقى الذي ضمّنه نوادر من المذهب، ونظر في ثلاثمائة مؤلف قبل تصنيفه، فحذف مكرّرها وذكر مقرّرها، وانتقى منها بكتابه الذي سماه المنتقى^(٣).

- ٣ - مختصر القدوري

هذا المختصر لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي (٤٢٨هـ) ويطلق على هذا المختصر لفظ الكتاب في المذهب، وهو متن معتبر متداول بين أئمة الحنفية الأعيان، قال عنه صاحبه: هذا كتاب يجمع من فروع الفقه ما لم يجمعه غيره، وكان أبو علي الشاشي يقول: من حفظ هذا الكتاب فهو أحفظ أصحابنا، ومن فهمه فهو أفهم أصحابنا، وشهرته

(١) مختصر الطحاوي ٣، و١٥، كشف الظنون ٥١٧/٢.

(٢) كشف الظنون ٣٣٣/٢.

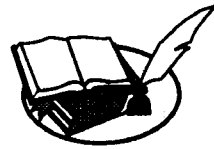
(٣) كشف الظنون ٦٨٣/٢.

عندهم تغني عن البيان، حتى أنّ الحنفيّة يتبرّكون بقراءته في أيام الوباء، ويقولون: هو كتاب مبارك من حفظه يكون آمنة من الفقر، بل وصل بهم الأمر إلى القول بأنّ من قرأه على أستاذ صالح ودعا له عند ختم الكتاب بالبركة، فإنّه يملك عدد مسائله دراهم.

والحقيقة أنّه لا تلازم بين قراءة مختصر القدوري وحصول إحدى الخصلتين المذكورتين - الأمان من الفقر أو امتلاك دراهم على عدد مسائله - وإنّما جرى هذا الكلام عندهم مجرى المبالغة.

يعتبر مختصر القدوري من أجمع الكتب في فقه أبي حنيفة، اشتمل على اثني عشر ألف مسألة، اعتمد فيه صاحبه بيان الفروع والروايات وأورد فيه من مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وهو كتاب على غاية من الاختصار والإيجاز.

اعتنى الحنفيّة بشرحه والتعليق عليه ونظمه، فجاءت شروحا نفيسة، وتعاليق في حلّ مشكلاته مفيدة، وشروحه كثيرة جدّاً^(١).



(١) كشف الظنون ٢/٥٢٠ - ٥٢٣.

حركة التدوين في المذهب المالكي

مختصر المدونة والنوادر والرسالة:

هذه المؤلفات الثلاثة جميعها لأبي محمد ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ) الفقيه الذي سلك في خدمة المذهب المالكي مسلكا فريدا، تمثل في ضبط ما تناثر في مصادره من الأقوال مما قاله مالك وخالفه فيه أصحابه، أو ما وافقوه فيه، أو ما انفرد أصحاب مالك ومن بعدهم بتقريره من الأحكام^(١).

١ - مختصر المدونة:

فأما كتابه مختصر المدونة فيحتوي على خمسين ألف مسألة، وقد كان معتمدا في المذهب ثم عدل عنه الفقهاء في ما بعد، ومالوا إلى اختصار المدونة المسمى بالتهذيب لتلميذه أبي سعيد البرادعي، وقد كان هذا السبب في انقطاع مختصر ابن أبي زيد بحيث لم يشتهر ولم يذع ولم ينقل^(٢).

(١) محاضرات مغاربية ص ٧٩، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٧.

(٢) الفهرست ص ٢٥٣، مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٢، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

٢ - النواذر والزيادات:

وأما كتابه النواذر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، فقد جمع فيه ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال، فاشتمل بذلك على جميع الأقوال في المذهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب^(١) فجمع صور الحوادث التي لم تنص أحكامها في المدونة، واهتم بأكثر الصور التي تعرض في عصره في القيروان، فبين أحكامها بحسب تنزيل النقول وتحقيق مناطها، أو بالجواب عنها مما يتخرج من الأصول، أو من النقول على سنة الاجتهاد في المسائل^(٢).

فكان يأخذ من نصوص المدونة ما يطبّقه على الحوادث الجارية في عصره بصورة تتعلّق بدرس الحوادث وبدرس الأقوال ومواقعها ومحاملها، حتى يتبين أنّ الصورة التي حمل عليها الحكم المدوّن في المدونة إنّما هي راجعة بالعينية إلى نفس ما ورد فيه ذلك الحكم بالمدونة^(٣).

ولهذا يمكن أن نعتبر كتاب النواذر بمثابة كتاب جامع من الدرجة الأولى لجميع الكتب الفقهية الهامة في المذهب المالكي حتى ذلك الوقت، وأكبر موسوعة في فقه المالكية، حيث استوفى فيه صاحبه النقول عن الإمام مالك وفقهاء المذهب من أعلام تلامذة مالك، من المصادر الأصلية للمذهب كالمستخرجة من السماع، وكتب ابن الموّاز، والواضحة، وكتب ابن سحنون، ومختصر ابن عبدالحكم، وغيرها من مصادر الفقه المالكي في القرنين الثاني والثالث الهجريين التي ذهب الزمان بها إلا قليلاً مما لم يرد في المدونة على ما بيّنه المؤلف في مقدّمة كتابه^(٤).

(١) المقدّمة ص ٤٣٢.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

(٣) محاضرات مغاربية ص ٧٩.

(٤) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٥ وما بعدها، ومقدّمة محقق كتاب النواذر ص ٣٧.

وبهذا العمل عدّ كتاب النوادر لابن أبي زيد من أعظم الكتب الفقهية لهذا الدور، وأكثرها عوناً على تكوين الملكة الفقهية الحق، والتخريج على حسن الفهم ودقة التنزيل، وبراعة التعليل^(١).

ويذكر ابن أبي زيد الهدف من تأليفه هذا الكتاب فيقول: «وذكرت وفقنا الله وإياك إلى محابه ما كثر من الكتب مع ما قلّ من الحرص والرغبة وضعف من الطلب والعناية، والحاجة إلى ما افترق في كثرة الكتب من شرح وتفسير وزيادة معنى شديدة ورغبة في أن نستشير العزيمة، ونفتح باباً إلى شدة الرغبة بما رغبت فيه من اختصار ما افترق من ذلك في أمهات الدواوين من تأليف المتعقبين، وذكرت أنّ ما في كتاب محمد بن إبراهيم بن المواز، والكتاب المستخرج من الأسمعة استخراج العتبي، والكتب المسماة المجموعة المنسوبة إلى ابن عبدوس، والكتب الفقهية من تأليف محمد بن سحنون، أنّ هذه الدواوين تشتمل على أكثر ما رغبت فيه من النوادر والزيادات، ورغبت في استخراج ذلك منها وجمعه باختصار من اللفظ في طلب المعنى، وتقضي ذلك، وإن انبسط بعض البسط، والقناعة بما يذكر في أحدها عن تكراره، والزيادة إليه ما زاد في غيره، ليكون ذلك كتاباً جامعاً لما افترق في هذه الدواوين من الفوائد وغرائب المسائل وزيادات المعاني على ما في المدونة، وليكون لمن جمعه مع المدونة أو مع مختصرها مقنع بهما، وغنيّ بالاختصار عليهما لتجتمع بذلك رغبته وتستجمّ همّته وتعظم مع قلة العناية بالجمع فائدته، وقد رغبت في العناية بذلك لما رجوت إن شاء الله من بركة ذلك، والنفع به لمن رسمه ولكلّ من تعلّمه، وأنا أفي لك إن شاء الله بنوادير هذه الدواوين المذكورة، وأذكر ما أمكنني وحضرتني من غيرها، وبالله نستعين في ذلك، وإيّاه نستخير فيه ونستمدّ توفيقه وعصمته، ونسأله نفع ذلك وبركته، وصلى الله على نبيّه محمد وعلى آله وسلّم^(٢).

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

(٢) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٣ - ١٠٤.

وفي الكتاب عرض لاختلاف الأقوال داخل المذهب، وبسط للآراء الفقهية المختلفة فيه، نقلها ابن أبي زيد كما هي من فقهاء المدينة، وفقهاء مصر، وفقهاء إفريقية وفقهاء الأندلس المالكيين، ممن عاصروا الإمام مالك، ومن تلاميذه وتلاميذهم، مع ذكر دقيق لطريقة كل مصدر من مصادره، وفي ذلك يقول: «واعلم أن أسعد الناس بهذا الكتاب من تقدمت له عناية واتسعت له رواية، لأنه يشتمل على كثير من اختلاف علماء المالكيين، ولا يسع الاختيار من الاختلاف للمتعلّم ولا للمقصر ومن لم يكن فيه محمل الاختيار للقول لتقصيره، فله في اختيار المتعقبين من أصحابنا من نقّادهم مقنع، مثل سحنون وأصبغ وعيسى بن دينار، ومن بعدهم مثل ابن الموّاز وابن عبدوس وابن سحنون، وابن الموّاز أكثرهم تكلفاً للاختيارات، وليس يبلغ ابن حبيب في اختياره قوّة رواياته مبلغ من ذكرنا، والله يهدي إلى سواء السبيل»^(١).

وقد يسرّ الله لهذا الكتاب العظيم أن ينشر بين يدي طلاب العلم بتحقيق الدكتور عبدالفتاح محمد الحلّو.

ويعتبر هذان الكتابان - المختصر والنوادر - أعلى كتب ابن أبي زيد منزلة في علم الفقه^(٢)، وعلى كتابيه هذين كان المعولّ بالمغرب في الفقه^(٣).

ويذكر القاضي عياض أنّ أبا عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد قد استجاز الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في كتابيه المختصر والنوادر، وبعث إليه في ذلك رسالة مؤرّخة بسنة ٣٦٨هـ يذكر فيها أنّه قد وقع بين يديه قطع من المختصر، فوجد صاحبه «قد أحسن في نظمه، وألطف في جمع

(١) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٤.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٤٩٤.

معانيه، وكشف ما كانت النفوس تتوق إليه، وأنه قد كفى بذلك مؤونة الرحلة، وطلب المصنّفات بالكلام السهل والمعاني البينة التي تدلّ على حسن العناية وكثرة المعرفة، والحرص على منافع الراغبين في العلم والمتعلّقين به» وذكر له أنّه قد بلغه تصنيف كتاب النوادر، وذكر له الحاجة إلى هذين الكتابين، وتطلّعه وتطلّع من قبله من إخوانه الطالبين لها، والراغبين في مذهب الإمام مالك، وطلب منه أن يتفضّل بإنفاذ الكتابين إليه، وإجازتهما له ولغيره من أصحابه ممّن آثر ذلك وأحبّه، فأجابه الشيخ ابن أبي زيد إلى ما طلب ووعده أن يوجّه إليه ما رغبه من الكتابين، وأجازه^(١).

- ٣ - الرسالة:

إلى جانب ما لابن أبي زيد القيرواني من التأليف المتّجهة إلى تحقيق الفقه في المجال العلمي الأعلى، فإنّ له الأثر الخالد الشهير في المجال العلمي الدارج، وهو كتاب الرسالة الذي انتشر في سائر بلاد المسلمين حتّى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتّى كتبت بماء الذهب^(٢).

وقد جعل ابن أبي زيد من كتاب الرسالة تلخيصا مختصرا، بتركيزه على العبارة الدقيقة الحكيمة، حتّى أصبحت الرسالة عمدة الدراسة الفقهية في المذهب المالكي في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلامية بلا استثناء فابتدأ رواجها من حياة مؤلّفها واستمرّ تعاقب الشروح عليها من عصر مؤلّفها في القرن الرابع^(٣).

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) معالم الإيمان ٣/١٣٧ - ١٣٨.

(٣) أعلام الفكر ص ٤٩، محاضرات مغاربية ص ٧٩.

وكان الشيخ ابن أبي زيد لَمَّا فرغ من تأليفها كتب منها نسخة وبعث بها إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، فوصلت إليه، فأظهر الفرح بها وأشاع خبرها بين الناس وأثنى عليها وعلى مؤلفها^(١)، ونسخت منها أول نسخة وبيعت بحلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً^(٢)، وقام الإمام الأبهري بتتبع ألفاظها ومعانيها، فرفعها إلى النبي ﷺ أو إلى أصحابه رضي الله عنهم، في كتاب سماه «مسلك الجلالة في مسند الرسالة»^(٣).

وشرحها القاضي عبدالوهاب بن نصر في نحو من ألف ورقة، وأول نسخة من هذا الشرح بيعت في بغداد بمائة مثقال ذهباً^(٤).

وجزم ابن ناجي في معالم الإيمان بأن الرسالة هي أول تأليف ابن أبي زيد، ألفها وستة سبعة عشر عاماً وأن تأليفها إنما كان كما هو مشهور بطلب من ابن خالته شيخ مدينة تونس ومؤدبها محرز بن خلف بن أبي رزيق بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٥)، وذلك هو الذي أشار إليه الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة بقوله: «فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة ممَّا تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها وרגائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه»^(٦)، وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك

(١) معالم الإيمان ٣/١٣٩.

(٢) معالم الإيمان ٣/١٣٧ - ١٣٨.

(٣) الرسالة الفقهية مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة ص ٤٣.

(٤) معالم الإيمان ٣/١٤٠.

(٥) معالم الإيمان ٣/١٣٨، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٩.

(٦) أراد بالأصول أمهات المسائل التي هي أصل بالنسبة لما يخرج منها من فروع كثيرة، وفروع بالنسبة لما أخذت منه وهو الكتاب والستة (انظر: الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص ٥ - ٦).

للولدان كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه^(١).

ولما كانت الرسالة متجهة بالأساس إلى الأطفال الناشئين والبراعم المبتدئين، لذلك نجدها خالية من التفريعات والافتراضات، ومن الخلافات، وحتى من الشواهد الاستدلالية، إلا في القليل النادر حيث ينص ابن أبي زيد على مشهور المذهب في المسألة، ثم يأتي بالقول الثاني. وهكذا يعتبر ابن أبي زيد واضح الأسس الأولى لطريقة تعليم تعتمد على استيعاب العلوم الفقهية بطريقة سهلة ميسرة، بعيدة كل البعد عن تفريعات المسائل الجزئية، وتفصيلات الفروع الفقهية التي تزخر بها مصنفات ذلك الوقت.

وقد لاقى كتاب الرسالة من العناية ما لم يلقه غيره من الكتب الفقهية، فإضافة إلى شروحه العديدة التي لم تنقطع منذ عصر المؤلف، فقد تداولت عليه أيدي المستشرقين بالترجمة، فترجمه إلى الإنجليزية: رسل وعبدالله المأمون السهروردي، في لندن، سنة ١٩٠٦، وترجمه فانيان إلى الفرنسية وشرحه وأعد له فهرسا تحليليًا، ونشره بباريس سنة ١٩١٤، ونشر نصه العربي وترجمه إلى الفرنسية برشيه، بالجزائر سنة ١٩٤٥ وتوجد مخطوطات لكتاب الرسالة اليوم في أكثر مكتبات العالم^(٢).

- ٤ - التفريع:

هذا الكتاب لأبي القاسم عبيدالله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري (٣٧٨هـ) هو كتاب معتمد ومشهور في المذهب، غزير النفع في الفقه والمسائل، يهتدي به الطالب المبتدي ولا يستغني عنه الراغب

(١) الرسالة، مع شرحها الثمر الداني، ص ٥ - ٧.

(٢) تاريخ التراث العربي ١٦٧/٣ - ١٦٨.

المقتدي، سهل الألفاظ، قريب المرام، وضع الله عليه القبول شرقا وغربا، فاعتنى به الأوائل والأواخر، وانتفع به العامة والخاصة، وانكب العلماء على دراسته وشرحه واختصاره، ولم يزل الناس يدرسونه ويتناقلونه، والشراح يشرحونه على مرّ السنين والدهور في كلّ البلاد أكثر من ألف عام، وقد جعلوا منه مصدراً لمصنفاتهم الفقهية، معولين على أقواله ومستشهادين بأرائه رواية - من حيث الإسناد - ودراية - من حيث اجتهاد صاحبه في القياس والاستنباط أو في الترجيح بين آراء كبار علماء المذهب - ويندر جداً أن نجد مؤلفاً مالكيّاً لم يعتمد كتاب التفريع أو لم يرجع إليه في بعض المسائل، ومن الكتب الفقهية التي احتوت على اقتباسات من كتاب التفريع نذكر: المقدمات لابن رشد الجدّ، والذخيرة للقرافي، والقوانين الفقهية لابن جزي والكلّيات الفقهية للمقري، والمختصر الفقهي لابن عرفة، وشرح الرسالة لابن ناجي، وشرحها للمنوفي، والمعيار المعرب للونشريسي، وشرح مختصر خليل للحطّاب المالكي، وشرح الزرقاني على مختصر خليل وحاشية البتّاني على شرح الزرقاني، والشرح الصغير للدردير، وغيرها.

وقد صرح الإمام القرافي في كتابه الذخيرة بأنّ كتاب التفريع هو أحد الكتب الخمسة في المذهب - المدوّنة والجواهر والتلقين والتفريع والرسالة - التي عكف عليها المالكيون شرقاً وغرباً^(١).

جمع فيه ثمانية عشر ألف مسألة، اثنتا عشر ألف مسألة موافقة لما في المدوّنة، وستّة آلاف ليست فيها.

وهذا الكتاب مثال رائع للمختصرات الجامعة التي تتناول عدداً ضخماً من المسائل المندرجة تحت أبواب الفقه كلّها بصورة شاملة، وبصيغة موجزة.

كما يعتبر الكتاب مثالا فريدا في منهجه وأسلوبه وطريقة عرضه

(١) الذخيرة ٣٤/١.

للمسائل، وقد توخى فيه ابن الجلاب منهجا يقوم على أربعة أركان هي:

* التفریع والتفصیل سعياً لتغطية أكثر ما يمكن من المسائل الحادثة أو المتوقعة الحدوث: ذلك أنه أراد أن يكون كتابه جامعاً لكلّ الأبواب، شاملاً لكلّ المواضيع، مستوعباً لكلّ الحالات، مراعيّاً لكلّ الجزئيات، مستنبطاً لكلّ المسائل أحكامها أو القواعد الدالة عليها، فأغرق في التفصیل والتفریع حتى أطلق بعضهم على الكتاب عنوان: «تفریع الفروع».

* الإيجاز والاختصار تخفيفاً عن القارئ وتجنّيبه الملل، فتميّز الكتاب باختصار التحرير وبتلخيص التعبير حتى سمي كتابه عند البعض: «مختصر التفریع» وعند آخرين: «مختصر ابن الجلاب» ولتحقيق ذلك التزم ابن الجلاب باجتناّب الجدل، والسكوت عن الأدلة من القرآن والسنة، وسلاسل الإسناد الطويلة، ومناقشة الآراء المتباينة، وتبرير المواقف وتعليل الأحكام.

* تقرير الأحكام لمختلف المسائل: ولتحقيق هذا الغرض اتخذ منهجا يقوم على التوسع في الألفاظ، بحيث لم يقتصر على المصطلحات المعروفة للتعبير عن الأحكام الشرعية الخمسة التي هي الواجب والمحرم والمندوب والمكروه والمباح، وإنما أضاف إليها مصطلحات أخرى من باب التورّع والتوقّف وعدم الجرأة في القول بالحلال والحرام، كما هو ديدن أئمة المذاهب الذين كانوا يتورعون عن إطلاق لفظ الحلال والحرام.

* التبسيط والتوضيح مع الدقة والضبط، تقريباً للفهم بالنسبة للمبتدئ، وتعميقاً للمعاني بالنسبة للمتبحر، حتى يتيسر الاستفادة منه على أوسع نطاق، وهذا ما يجعلنا نجزم بأنّ الكتاب كان موجّهاً إلى العامة المتعلّمة من الناس شأنه في ذلك شأن رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وإن كان المؤلف لم يصرّح بذلك.

والملاحظ أنّ ابن جلاب قد التزم في ذلك كلّ أسلوب العرض المنطقي وما يقتضيه من تسلسل وتدرّج حتى ينساق الفكر مع انسياب المعاني بكلّ لطف ويسر، واستعمل في ذلك الطريقة التحليلية التي ينطلق

فيها من القاعدة العامة ثم يأتي بتطبيقاتها على التفاصيل والفروع، كما استعمل أيضاً الطريقة الاستنتاجية أو الاستقرائية التي ينطلق فيها من الجزئيات إلى الكلّيات، ومن الأحكام الفرعية إلى القواعد الفقهية^(١).

ونظراً لهذه الأهمية التي هي لكتاب التفرّيع، فقد كان يدرّسه بعد مؤلفه تلاميذه من أمثال القاضي عبدالوهاب بن نصر، ثم أصبح يدرّس بالمدرسة المستنصرية ببغداد.

وفي القرن الثامن الهجري كان كتاب التفرّيع يدرّس بتونس في زمن الشيخ محمد بن عرفة، مع رسالة ابن أبي زيد القيرواني وتهذيب البراذعي وال نوادر والذخيرة والوثائق المتطيّبة ومختصر ابن الحاجب ومختصر ابن عرفة، حسب ما أفاده الشيخ الطاهر بن عاشور^(٢).

٥ - تهذيب المدونة والمختلطة:

هذا الكتاب لأبي سعيد البراذعي (٣٧٩هـ) اختصر به صاحبه مدونة الإمام سحنون، أتم البراذعي تهذيب المدونة سنة ٣٧٢هـ، فوقع عليه من الإقبال ما لم يقع على مختصر ابن أبي زيد، ونال شهرة كبيرة، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه^(٣)، وكانت المناظرة في جميع الحلق بصقلية بهذا الكتاب^(٤).

قال القاضي عياض: وقد ظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه وتيمّنوا بدرسه وحفظه وكان عليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس^(٥)، وأضاف ابن ناجي بعد أن نقل كلام عياض، فقال: هذا في زمان عياض،

(١) مقدّمة تحقيق كتاب التفرّيع، للدكتور حسين بن سالم الدهماني، وما أحال عليه في مقدّمته من مصادر ومراجع، وقد أجاد الدكتور في تحقيقه لهذا الكتاب وأفاد، فجازاه الله خيراً.

(٢) ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب ص ٧٢.

(٣) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٢.

(٤) الديباج المذهب ص ١٨٣.

(٥) ترتيب المدارك ٧٠٨/٤.

وأما في زماننا فما المعول إلا عليه شرقاً وغرباً، ومن ينظر مدونة سحنون الذي هو اختصارها يعلم فضيلة البراذعي في اختصاره^(١).

وقد لاقى من العناية شرحاً وتهذيباً واختصاراً ما يطول سرده وترداده، وقام بدراسته وتحقيقه محمد الأمين بن محمد بن سالم بن الشيخ، وطبع بدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي.

وللبراذعي كتاب آخر على المدونة، سمّاه تمهيد مسائل المدونة، وكتاب ثالث سمّاه الشرح والتمامات لمسائل المدونة، وهو كما يبدو متخصص في مسائل المدونة ومباحثها، وكتبه الثلاثة تسير على نهج واحد هو اختصار المدونة والبحث في دقائقها ومضامينها.

٦ - ٧ - التلقين والمعونة على مذهب عالم المدينة:

كلاهما للقاضي أبي محمد عبدالوهاب عليّ بن نصر (٤٢٢هـ)، فأما كتاب التلقين فهو مختصر لخص فيه صاحبه فروع المذهب المالكي وجرده من ذكر الروايات المتعددة ومصادرها، واكتفى فيه بذكر القول الراجح في المذهب^(٢).

وأما كتاب المعونة فقد ذكر أنّه صنّفه بعد أن شرح رسالة ابن أبي زيد وما رآه منطياً عليه من بسط الأدلة والحجاج وإشباع الكلام في مسائل الخلاف، وبعد أن وضع كتاب الممهّد وما حواه من المسائل والتفريعات واختلاف الوجوه والروايات.

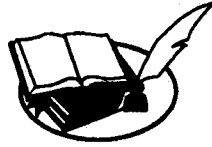
ثمّ جدّد النية في وضع مختصر سهل المحمل قريب المأخذ يقتصر فيه على ما لا بدّ منه ولا عناء فيه، ليسهل على المتلقّن مأخذه ويقرب من

(١) معالم الإيمان ٣/١٨٤.

(٢) التلقين، تحقيق أبي أويس محمد بوخيزة وأبي الفضل بدر بن عبدالإله العمراني، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مقدّمة محقّق كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف ص ٦١، دار ابن حزم بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

المبتدي تفقّهُه وحفظه وليكون إلى ذينك الكتابين مدخلا.

فجاء الكتاب جامعا لفقه مالك مع شيء من التوسّع مقارنة بكتاب التلقين، فذكر الخلاف داخل المذهب وخارجه ودعّمه بالأدلة دون التوسّع في ذلك توسّعا كبيرا^(١).



(١) المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨ م، مقدّمة محقق كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف ص ٦٢.

حركة التدوين في المذهب الشافعي

١ - الفروع:

هذا الكتاب لأبي بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الحدّاد المصري (٣٤٥هـ) وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة دقّق في مسأله غاية التدقيق، وسمّاه بعضهم بكتاب المولّدات، لكونه هو المولّد لها والمبتكر.

واعتبر البعض أنّ هذا الكتاب من عجائب التأليف التي تحير العقول في تقريرها فضلاً عن اختراعها، وقد اعتنى به الأئمّة وتنافسوا في شرحه ووقف الكثير منهم عن الكلام فيه لدقّته وغموضه.

وأشهر شرحه لهذا الدور: أبو بكر محمد بن عليّ القفال الشاشي (٣٦٥هـ) في مجلّد واحد، وتلميذه أبو عليّ حسن بن شعيب المعروف بابن السنجي (٤٢٠هـ) في شرح بسيط لم يقارنه أحد مع كثرة شروحه، والقاضي أبو الطيّب طاهر بن عبدالله الطبري (٤٥٩هـ) وأبو إسحاق الإسفراييني (٤١٨هـ) وأبو القاسم إبراهيم بن عبدالرحمن بن محمد المروزي الفوراني (٤٦١هـ)^(١).

٢ - ٣ - التلخيص والمفتاح:

كلاهما لأبي العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري الشهير بابن القاص

(١) كشف الظنون ٢/٢٤٠ و٢/٧٢٧.

(٣٣٥هـ)، فأما التلخيص^(١) فهو مختصر مشهور في فروع الفقه الشافعي، قيل إنّه لم يصنّف قبله ولا بعده مثله في أسلوبه، وهو أجمع كتاب في فقه أصول المذهب وفروعه على صغر حجمه وخفة محمله.

اعتنى بشرحه علماء الشافعية، ومن أبرز شراحه في هذا الدور: شيخ الخراسانيين أبو بكر عبدالله بن أحمد القفال المروزي الصغير (٤١٧هـ)، ثم شرحه أبو علي السنجي، وكذلك أبو عبدالله محمد الأسترابادي المعروف بابن الختن (٣٨٦هـ).

وتمثل فيه بقول الشاعر:

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقيم

- ٣ - المفتاح:

وأما كتاب المفتاح فهو كتاب لطيف، اعتنى الشافعية بشرحه فشرحه من أعلام القرن الخامس، أبو خلف محمد بن عبدالملك الطبري (حدود ٤٧٠هـ) في مجلّد، وأبو الخير سلامة بن إسماعيل بن جماعة المقدسي (٤٨٠هـ) في مجلّدين، وأبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ)، وعليه زيادة لأبي علي حسن بن القاسم الطبري (٣٥٠هـ) أحد أصحاب ابن القاص، سمّاه التهذيب.

ومن غرائب ابن القاص فيه، ما أورده ابن السبكي من أنّ ابن القاص قال في المفتاح: في زكاة التجارة، إنّها تجب في الموروث والموهوب، واستدرك ابن السبكي على ذلك بقوله: ولا يعرف من قال في الموروث مطلقاً، ولا في الموهوب إلا إذا شرط الثواب أو كان مطلقاً^(٢).

(١) كشف الظنون ١/٣٨٨ - ٣٨٩، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٥٩ - ٦٢.

(٢) كشف الظنون ٢/٦٢١، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٦٢.

٤ - اللباب:

لأبي الحسن أحمد الضبي المعروف بالمحاملي (٤١٥هـ) اعتنى فقهاء الشافعية بهذا الكتاب فتناولوه بالشرح والتنقيح والاختصار، وضمّوا إليه الفوائد وبدّلوا غير المعتمد بالمعتمد، وحذفوا منه الخلاف وما عنه غنى^(١).

٥ - الحاوي الكبير:

لأبي الحسن عليّ بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ) شرح به مختصر المزني، وحاول - كما قال مصنفه - استيعاب المذهب في شرحه واستيفاء اختلاف الفقهاء المغلق به، وإن كان ذلك خروجاً عن مقتضى الشرح الذي يقتضي الاختصار على إيانة المشروح ليصحّ الاكتفاء به والاستغناء عن غيره.

والكتاب ليس شرحاً بالمعنى الدقيق للشروح على المتون، وإنما تناوله في غالب مسائله وفروعه دون الوقوف على ألفاظه وغوامضه، وإن كان لا يخلو من تعريج على غامض فيه وتوضيحه.

يعرض الماوردي في هذا الكتاب الأحكام الفقهية على المذهب، ويذكر أدلتها من الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين والإجماع والقياس، ويحاول ترجيح مذهب الشافعي على وجه التفصيل في أوضح تقديم وأصح ترتيب وأسهل مأخذ.

وقد جاء الكتاب حاوياً على آراء كثيرة من المذاهب المختلفة كالحنفية والمالكية والحنابلة والظاهرية، واحتوى على أقوال عديدة لأصحاب المذاهب المندثرة نقلت عن سفيان الثوري والحسن البصري والإمام الأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم.

وكتاب الحاوي من الكتب المعتمدة عند الشافعية يقال إنه لم يؤلف

(١) كشف الظنون ٢/٤٥٤.

في المذهب مثله، ونوّه به ابن السبكي فقال: وكتابه الحاوي شاهد معدّل بذلك.

وقال ابن خلكان: ولم يطالعه أحد إلاّ وشهد له بالتبحّر والمعرفة التامة في المذهب^(١).

٦ - الإبانة.

لأبي القاسم عبدالرحمن بن محمد الفوراني (٤٦١هـ) وهو كتاب مشهور بين الشافعيّة، وفيه من النقول الغربية والأقوال والأوجه التي لا توجد إلاّ فيه.

ومن متعلقاته تتمة الإبانة لتلميذه أبي سعيد عبدالرحمن بن مأمون المعروف بالمتولّي (٤٧٨هـ) الذي برع في المذهب وبعد صيته وجمع في تتمته نوادير المسائل وغرائبها التي لا تكاد توجد في غير كتابه^(٢).

(١) الحاوي الكبير ٧/١، ومقدمة المحقق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤ م، كشف الظنون ١/٤٩٠، طبقات الشافعيّة الكبرى ٥/٢٦٧ و ٨/٢٧٧ - ٢٧٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٢٨٢.

(٢) كشف الظنون ١/٦٧، طبقات الشافعيّة الكبرى ٥/١٠٩، البداية والنهاية ١٢/٩٨.

حركة التدوين في المذهب الحنبلي

مختصر الخرقى:

اشتهر في مذهب الإمام أحمد عند المتقدمين والمتوسطين المختصر المشهور بمختصر الخرقى، لأبي القاسم عمر بن الحسين بن عبدالله بن أحمد الخرقى (٣٣٤هـ) وهو مختصر بديع، و متن موجز وجامع في المذهب الحنبلي، وأقدم وأشهر مختصر عند الحنابلة، بلغت مسائله: ألفان وثلاث مائة مسألة.

اعتنى الحنابلة بهذا المختصر شرحاً ونظماً، وألفوا في لغاته وشرح مفرداتها، ولم يخدم كتاب في مذهبهم مثل ما خدم هذا المختصر، ولا اعتنى بكتاب مثل ما اعتنى به، حتى قال العلامة يوسف بن عبدالهادي في كتابه: «الدرّ النقيّ في شرح ألفاظ الخرقى»، قال شيخنا عزّ الدين المصري: ضبطت للخرقى ثلاث مائة شرح، وقد أطلعنا له على ما يقرب من عشرين شرحاً.

وأعظم شروحه وأشهرها «المغني» لموفق الدين المقدسي، ومن شروح مختصر الخرقى في هذا الدور، شرح القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء البغدادي (٤٥٨هـ).

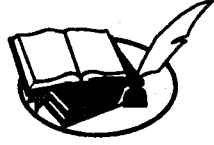
وطريقته أنّه يذكر المسألة من المختصر، ثمّ يذكر من خالف فيها، ثمّ يفيض في إقامة الدليل من الكتاب والسنة والقياس على طريقة الجدل.

ولا يذكر أبو يعلى شيئاً زائداً على ما في المتن، ولكنّه يحقّق

مسائله، ويذكر أدلتها ومذاهب المخالفين لها.

ومن المبالغات التي حقّت بهذا المختصر ما كان يتردّد على ألسنة بعض شيوخ الحنابلة أنّ من قرأ مختصر الخرقى حصل له إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يملك مائة درهم، أو يلي القضاء، أو يصير صالحاً^(١).

وصنّف غلام الخلال كتاباً في معارضاته لمختصر الخرقى، كما صنّف في المذهب كتاباً أخرى وقع الاعتناء بها كالجامع الصغير لأبي يعلى الفراء، والتنبيه والمقنع لأبي بكر المعروف بغلام الخلال، وغيرها.



(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٢٤ - ٤٢٩، كشف الظنون ١/٤٤٦،

و٥١٦/٢، تاريخ التراث العرب ٣/٢٣٥ - ٢٣٨.

استخلاص ونتائج

في نهاية هذا الدور نخلص إلى الاستنتاجات والنتائج التالية:

١ - أن الاجتهاد قد تتابع من الدور الأول الذي هو دور التأسيس، إلى الدور الثالث الذي هو دور التأسيس والتفريع، ثم بدأ مجال الاجتهاد منذ بداية الدور الرابع يتضيق، حيث عزّ وجود المجتهدين المطلقين في المرحلة الأولى من هذا الدور، وقصرت الهمم، وانتشر الاجتهاد المقيّد، ثم تنازل الاجتهاد في المرحلة الثانية عن مرتبة الاجتهاد المقيّد إلى مرتبة الاجتهاد في المسائل الذي هو عمل التطبيق.

٢ - أن المذاهب الفقهية المنتشرة في هذا الدور قد كثرت فيها التخريجات وتنوّعت فيها الاصطلاحات، وتعدّدت فيها الآراء، وتداخل فيها ما هو من أقوال أئمة المذاهب، وما هو من تأويلات تلاميذهم الموافقة أو المخالفة لاجتهاداتهم، فانبرى أصحاب هذا الدور لضبط ذلك في مختصرات تفي بالغرض دون أن تخلّ بالعبارة أو بالمعنى، وعلى تلك المختصرات اعتمد أصحاب الدور القادم، وعلى لغاتها ومفرداتها وضعوا مصنفاتهم وكتبهم.

٣ - أن انتشار بعض المذاهب الفقهية في بعض المناطق من البلاد الإسلامية قد بقي رهن قرارات الساسة والحكام، الذين ساندوا مذهباً على حساب آخر، كما فعل محمود ابن سبكتكين صاحب الدولة الغزنوية التي كانت من أهم ولاياتها سجستان، وكان غالب أهلها على مذهب أبي

حنيفة، فلما تحوّل حاكمها إلى المذهب الشافعي، انتشر به المذهب فيما وراء النهر وكرمان وهرارة ونيسابور وغيرها من تلك الربوع.

وفرض المذهب المالكي رسمياً بفاس في أواخر شهر شوال من سنة ٣٦٣هـ بقرار من الحكم المستنصر، وربما أعلن الساسة الحرب على ما لا يرتضون من المذاهب، كما فعل الفاطميون مع المذهب المالكي في إفريقية، ومع المذاهب الثلاثة المالكية والحنفية والشافعية بمصر، وكما فعل الحاجب المنصور بالله ابن أبي عامر من إنكار غير المالكية من المذاهب، وكما فعل المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين أمر بإحراق كتب ابن حزم على الملأ.

٤ - أنّ هناك عائلات علمية قد اشتهرت بالترجع على عرش بعض الوظائف والخطط الدينية كالخطابة والقضاء والإفتاء، وتداول أبنائها على رئاسة ميادين العلم لأجيال عديدة، وتسلسل العلم في أحفادها، حتى حفظ لنا الدهر أسماءهم وألقابهم، كآل حمّاد المالكيين بالعراق، وبيت بني معتب المالكيين بالقيروان، وأسرة الإسماعيلي الشافعية بجرجان، وآل النعمان الإسماعيليين بمصر، وأسر العكبري وأبي يعلى والأزجي والجيلي الحنابلة بالعراق، وغيرها.

٥ - شيوع الاستدلالات القائمة على الأصول الجدلية وانتشار مجالس النظر، التي عادة ما كانت تنعقد بقصور الأمراء، أو حين يلتقي فقيهان ببلد من بلاد الإسلام، أو في مجالس العزاء، وأشدّ المناظرات في هذا الشأن ما كان بين المالكية والظاهرية بالأندلس، وكذلك بين الشافعية والحنفية في خراسان وما وراء النهر، وقد انجرّ عن تلك المجالس أحياناً استطالة بعض الفقهاء على بعض دون وجه حقّ لامتلاكهم القدرة الفائقة على التلاعب بطرق الجدل وأساليب المناظرة، الأمر الذي دعا بعض المنصفين إلى وضع قواعد لهذا الفنّ وضوابط.

٦ - أنّ اعتماد الأصول الجدلية في الاستدلال وانتهاج منهج التفصيل والتعليل قد كان له الأثر البالغ على علوم أخرى غير الفقه:

* كعلم أصول الفقه حيث اختلفت مناهجه، بين منهج المتكلمين الذين اهتموا بتحرير المسائل وتحقيق القواعد الأصولية وتقريرها على المبادئ المنطقية وإقامة الأدلة عليها مجردة بصرف النظر عن كون هذه القواعد متفقه مع فروع المذهب أو مخالفة له، ومنهج الفقهاء الذين اهتموا بتقرير القواعد الأصولية على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع الفقهية، وقد سمي هذا المنهج أيضاً بمنهج الأحناف لأنهم هم الذين سلكوه خلافاً لغيرهم.

* وعلم الخلاف حيث ظهر منهج بيان أثر الأصول على الفروع، الذي أصبح فناً خاصاً يعرف بفنّ تخريج الفروع على الأصول، ورائده في هذا الدور أبو زيد الدبوسي واضع البذرة الأولى لهذا المنهج.

* وقد مهد ذلك كله لظهور علم الأصول القريبة المعروف بعلم القواعد الفقهية الذي كان عامل إثراء بما حوته مصادره من أحكام لفروع كثيرة مخرجة على تلك القواعد.

- ٧ - أن الرحلات العلمية قد تتابعت في هذا الدور على نفس الوتيرة التي كانت بها في الأدوار السابقة، وبقيت الرحلة حاجة علمية ملحة لاكتساب الفوائد، والكمال بقاء المشائخ، ذلك أنّ حصول الملكات عن طريق لقاء أهل العلم والتلقين المباشر أشدّ استحكاماً وأقوى رسوخاً، ولذلك اعتبر كثير من العلماء أنّ الرحلة جزء من العلم.

وكان إذا اشتهر عالم في إحدى المراكز العلمية رحلوا إليه سعياً لنيل فضيلة التلقي المباشر منه، وغالباً ما كان طلاب العلم لا يكتفون بالرحلة إلى مركز واحد، بل يسعون جاهدين في التردد على مراكز عدّة، سعياً منهم للقاء أكثر ما يمكن من الشيوخ إذ على قدر الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها.

وكان بعض شيوخ العلم بقدرتهم العلمية الفائقة كثيراً ما يتركون آثارهم في في عدّة مراكز فقهية، فيشتهرون بكلّ مركز وطأته أقدامهم من شرق البلاد الإسلامية إلى غربها، ممّا يؤكد أنّ جميع المراكز العلمية قد

كانت على مرّ الأدوار متّصلة بعلمائها، متواصلة بأعلامها الذين كانوا لا يقيمون للحدود السياسيّة أيّ اعتبار، فالقطيعة السياسيّة لم تتبعها بأيّ حال عزلة علميّة بين المراكز، وإنّما بقي الارتباط بينها وثيقاً.

٨ - أنّه بالإضافة إلى الرحلات العلميّة، التي كانت توفّر اللقاء المباشر بين العلماء، كانت تجري بينهم كذلك المراسلات والاستفتاءات والمشاورات والمكاتبات، فكثرت نسمع عن بعض العلماء بعد أن يفرغوا من تأليف كتاب من كتبهم يبعثون بنسخة إلى بعض أقرانهم من أهل العلم، فيفرحون بها ويثنون عليها وعلى مؤلفها، ويشيعون خبرها بين الناس، وكانوا يبعثون إلى بعضهم البعض بالإجازات ويكتفون بها عن مؤونة الرحلة. وهذا يؤكّد أنّ العلماء لم يكونوا بمعزل عن بعضهم البعض، وإنّما كانت الاتّصالات قائمة بينهم بكلّ الطرق الممكنة المباشرة منها وغير المباشرة، فكانت الحركة الفقهيّة في سائر المراكز العلميّة متكاملة البناء، متواصلة الأطراف لا يكاد يشعّ ضياء في مركز إلاّ أضاء سائر المراكز الأخرى.

٩ - أنّ المرأة المسلمة لم يغيب نشاطها ولم تنعدم مشاركتها في سير الحركة الفقهيّة، وأنّ النشاط الفقهي لم يكن حكراً على الرجال دون النساء، بدليل أنّنا نلتقي في هذا الدور بأمثال:

أمّ السلامة بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شنخرة، أمّ الفتح (٢٩٨هـ - ٣٩٠هـ) التي أثنى عليها غير واحد في دينها وفضلها وسيادتها، وعنها تلقى إمام الحنابلة في وقته وعلامة زمانه أبو يعلى الفراء، وغيره من أعلام عصره^(١).

وبنت أبي عليّ الشنوبي، وكان زوجها أبو عبدالله محمد بن أحمد الخضري المروزي (٣٧٣هـ) شيخ الشافعيّة بمرو، قد سئل يوماً عن مسألة، فتوقّف، فأجابته بما سمعت عن أبيها، فقال الخضري: لو لم أستفد من

(١) البداية والنهاية ١١/٣٢٨، شذرات الذهب ٣/٢٦٣.

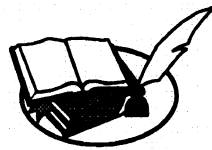
الاتصال بأهل العلم إلا هذه المسألة لكانت كافية، وقرّر فتواها تلك كثير من العلماء^(١).

وأمّ عبد الواحد ستيتة ابنة القاضي أبي عبدالله الحسين بن إسماعيل المحاملي التي حفظت القرآن والفقه والنحو والفرائض والحساب والعلوم، وبرعت في مذهب الشافعي، وكانت من أعلم الناس في وقتها بمذهب الشافعي وكانت تفتي بموجبه مع علماء عصرها، وكانت فاضلة في نفسها كثيرة الصدقة، مسارعة إلى فعل الخيرات وتوقّيت عن بضع وتسعين سنة^(٢).

وعائشة بنت الحسن الوركانيّة الأصبهانيّة (٤٦٠هـ) التي روت عن أبي عبدالله بن مندة^(٣).

وأمّ الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم (٤٦٣هـ) المروزيّة، المجاورة بمكة، إحدى ذوات الفهم والنباهة، التي وروت صحيح البخاري عن أعلام عصرها، وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها، وعدّت من حفاظ وقتها، وعليها قرأ الأئمة الأعلام كالخطيب البغدادي وأبي المظفر السمناني، وغيرهما^(٤).

وخديجة بنت محمد بن عليّ الشاهجانيّة (٤٦٠) الواعظة ببغداد، التي كتبت بخطها عن جماعة من أهل العلم في عصرها^(٥)، والقائمة طويلة في هذا المجال لمن يتصفّح كتب التراجم والطبقات.



(١) شذرات الذهب ٣/١٩٨.

(٢) شذرات الذهب ٣/٢٠٧، البداية والنهاية ١١/٣٠٦.

(٣) شذرات الذهب ٣/٤٩٢.

(٤) شذرات الذهب ٣/٥٠٠، البداية والنهاية ١٢/١٠٥.

(٥) شذرات الذهب ٣/٤٩٢.